تاريخ الثورة الروسية

الجزء الثاني والأخير

ليون تروتسكي

ترجمة

أكرم ديري ـ الهيثم الأيوبي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

فهرس

مقدمة المؤلف

قامت روسيا بثورتها البرجوازية بصورة متأخرة إلى حد جعلها مضطرة لتحويل هذه الثورة إلى ثورة بروليتاريـــة. أي أن روسيا كانت متأخرة عن البلدان الأخرى لدرجة أجبرتها إلى تجاوز هذه البلدان في بعض المجالات على الأقل. وقــد يبــدو هذا الأمر عجيبًا، ولكن التاريخ مفعم بمثل هذه المفارقات. ولقد سبقت إنكلترا الرأسمالية البلدان الأخرى لدرجة جعلتها مضطرة إلى تعديل خطواتها. ويعتقد المدعون المتبجحون أن الجدلية عبارة عن لعبة ذهنية بلا جدوى. والحقيقة أنها تقدم فقــط مــسار التطور الذي يعيش ويتحرك وسط التناقضات.

وكان على الجزء الأول من هذا الكتاب أن يشرح، لِمَ تعثّر النظام الديموقراطي، الذي جاء ليحل محل القيصرية بــشكل متأخر تاريخيًّا، ولماذا وجد نفسه غير قادر على الحياة. ويبحث الجزء الحالي استيلاء البلاشفة على السلطة. ويتــشكل أســاس الطرح هنا أيضًا من السرد. وعلى القارئ أن يجد في صلب الأحداث قاعدة كافية للاستنتاجات.

ولا يعني هذا أن المؤلف يود تحاشي التعميمات الاجتماعية. فليس للتاريخ أي معنى إذا لم يعلمنا شيئًا مــا. إن تــصميم الثورة الروسية القوي، وتعاقب مراحلها، وتمتع اندفاع جماهيرها بقوة لا تقهر، وتشكيل التجمعــات الــسياسية بــشكل كامــل، ووضوح الشعارات، تساعد كلها على فهم الثورة بصورة عامة، كما تساعد بالتالي على فهــم المجتمــع البــشري. وذلــك لأن **بوسعنا أن نبرهن بواسطة مسيرة التاريخ كلها، على أن المجتمع الممزق بالصراعات الداخلية، لا يكشف تكوينه الــداخلي العضوي فحسب، بل يكشف "روحه" أيضًا، وخاصة خلال الثورة.**

ولا بُدَّ أن يساعد الكتاب الحالي بصورة مباشرة على فهم طبيعة الاتحاد السوفييتي. ويتمتع كتابنا بأهمية بالغة، ويــشكل كتاب الساعة لا لأن أحداث ثورة أكتوبر (تشرين الأول) جرت تحت أنظار جيل لا يزال حيًّا -مع أن هذا الأمر لا يخلــو مــن الأهمية- بل لأن النظام الذي انبثق عن هذه الثورة قائم، يتطور، ويطرح أمام الإنسانية معضلات جديدة. وتبقى المــسألة التــي يشكلها وجود بلاد السوفييت مسألة هامة دائمة في العالم أجمع. ولكن من المتعذر فهم هذه البلاد قبل إيضاح مسبق لمعرفة كيف تكوّن كل ما هو قائم الآن. خاصة وأن التقديرات السياسية تتطلب أفقًا تاريخيًّا واسعًا.

ولقد احتجنا إلى جزءين بغية شرح الأحداث التي جرت خلال ثمانية أشهر من فبراير (شباط) إلـــى أكتــوبر (تــشرين الأول) ١٩١٧. ولم تتهمنا الانتقادات بصورة عامة بالإطالة. ويمكن تفسير ضخامة حجم الكتاب بالشكل الذي يــتم بــه تقيــيم المواد، فقد يقدم المرء صورة يد فيحتاج ذلك لصفحة واحدة. ولكن تقديم نتائج الفحوص المجهرية لأنسجة هذه اليد، يتطلب كتابًا كاملاً. ولا يدعي المؤلف تكامل البحث الذي قام به وكماله المطلق. ومع ذلك، فقد استخدم في كثير من الحالات أساليب، هــي أقرب إلى أساليب المجهر منها إلى أساليب آلة التصوير.

وفي بعض اللحظات، وعندما كنَّا نرى بأننا قد نستنفذ صبر القارئ كنا نلجأ إلى تشطيب واسع النطاق، يشمل شــهادات عدد من الشهود واعترافات بعض المشتركين بالأحداث، وعددًا من الروايات الثانوية، ثم لا نلبث بعد ذلك أن نعيد كثيــرًا ممــا شطبناه. وكان دليلنا خلال هذا الصراع في سبيل التفاصيل، هو رغبتنا في أن نقدم مسيرة الثورة نفسها بشكل واقعي إلى أبعــد حد ممكن. ومن المستحيل ولا شك عدم العمل على الإفادة من ميزة كبيرة، هي أن هذا التاريخ كُتب على الطبيعة، وقبل تقــادم الأحداث.

إن آلاف وآلاف الكتب تغمر السوق كل سنة لتقدم صورة ما لقصة فردية، والتحدث عن شكوك شخص قلــق، أو حيــاة رجل طموح. إن بطلة بروست بحاجة لعدد من الصفحات المنمقة كيما تصل إلى الإحساس بأنها لا تحس بشيء. وإننا نعتقد بأنه يحق لنا أن نهتم بشكل مماثل على الأقل بالمآسي الجماعية التي تنبثق في التاريخ من العدد الذي يمثله مئات ملايين بني البشر، وتبدل طبيعة الأمم، وتدخل إلى الأبد في حياة الإنسانية.

ولم يحتج أي إنسان حتى الآن على صحة الأدلة والاستشهادات، المذكورة في الجزء الأول. ومن المؤكد أن مثــل هــذا الاحتجاج صعب للغاية. ويكتفي الخصوم غالبًا بالاعتماد على الفكرة القائلة بأن التحيز الشخصي قد يتمثل في اختيار الأحــداث والأقوال بشكل مصطنع وحيد الاتجاه. وبالرغم من صحة هذه الفكرة في حد ذاتها، فإنها لا تقول شيئًا عن الكتاب الحــالي، أو عن الأساليب العلمية المستخدمة عند وضعه؛ لذا فإننا نسمح لأنفسنا بأن نؤكد بكل شدة، على أن عامل الذاتية محدد، ومحــدود، ومراقب من قبل طبيعة المؤرخ نفسه، وطبيعة أسلوبه، وإن يكن تأثير طبيعة الأسلوب أكبر.

إن المدرسة النفسية البحتة، التي تعتبر نسيج الأحداث كتسلسل نشاطات حرة يقوم بها الأفراد أو جماعاتهم، تترك مجالاً كبيرًا للتحيز، حتى ولو تمتع الباحث بأحسن النوايا. ويفرض الأسلوب المادي انضباطًا معينًا عندما يفرض عليك الانطلاق مــن الأمور الأساسية الخاصة بالبنية الاجتماعية. ونحن نرى أن القوى الجوهرية للتطور التاريخي تتمثل فــي الطبقــات، وتــستند الأحزاب السياسية على هذه الطبقات. وتظهر الأفكار والشعارات كالعملة الصغيرة في المصالح الموضوعية. وتقــود مــسيرة الدراسة كلها من الموضوعي إلى الذاتي، ومن الاجتماعي إلى الفردي، ومن الرئيسي إلى التفصيلي. وهكذا تنتصب أمام تحيــز المؤلف حدود شديدة قاسية.

لو أن مهندس مناجم اكتشف عن طريق السبر فلزات حديد مغناطيسية في منطقة غير مستثمرة، لأمكن القول بأن ذلــك يرجع إلى الصدفة الحسنة، ولو لم يحدد بعد حفر المنجم. ولكن لو أن المهندس نفسه، اعتمد على دلالات الإبــرة المغناطيــسية واستنتج بأن أرضًا ما تضم في جوفها حتمًا كمية من الفلزات، ثم اكتشف بعد ذلك في عدد من أرجــاء هــذه الأرض منــاجم للفلزات، لما استطاع أي متحفظ أو مناكف أن يعزو الأمر للصدفة. إن ما يقنع تمامًا، هو الأسلوب الذي يجمع ويوحِّــد العــام والخاص.

ولا ينبغي البحث عن أدلة الموضوعية العلمية في عيني المؤرخ أو رنة صوته بل في التسلسل المنطقي لحديثه نفــسه، فإذا كانت الروايات، والشهادات، والأرقام، والاستشهادات متلائمة مع الدلائل العامة للإبرة المغناطيسية والتحليل الاجتمــاعي، وصل القارئ إلى أفضل الضمانات الجادة الخاصة بالصلابة العلمية للاستنتاجات. وبــصورة أوضــح: إن المؤلــف مخلــص للموضوعية ضمن الحدود التي يكشف فيها هذا الكتاب بصورة أكيدة حتمية انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) وأسباب انتصارها.

ويعرف القارئ، أننا نبحث في الثورة قبل كل شيء آخر عن تدخل الجماهير المباشر في مصير المجتمع. ونبحث خلف الأحداث بغية اكتشاف تحولات الوعي الجماعي. ونستبعد الأوهام الخاطئة المتعلقة بحركة "قوى أولية"؛ إذ لا تفسر هذه الأوهام عادة أي شيء، ولا تقدم لنا أية معلومات. ويتم تنفيذ الثورة وفق عدد من القوانين، ولكن هذا لا يعني بأن الجماهير التــي تُنفــذ الثورة تعي قوانين الثورة بكل وضوح، ولكنه يعني **أن تحولات وعي الجماهير لا تأتي بشكل صُــدفي، ولكنهــا تــأتي وفــق ضرورة موضوعية خاصة لشرح نظري، وتخلق بذلك قاعدة للتوقعات والقيادة.**

ومن المستغرب أن بعض المؤرخين الرسميين السوفييت حاولوا نقد وجهة نظرنا على اعتبارها مثاليــة. ولقــد أكبــر البروفسور بوكروفسكي مثلاً على أننا بخسنا قيمة العوامل الموضوعية للثورة: "وتم بين فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول)

اضطراب اقتصادي كبير"، "وخلال هذه الفترة ثار الفلاحون... ضد الحكومة المؤقتة"، ونحن نرى بأن علينا أن نرى القوى المحركة للثورة في هذه "التحركات الموضوعية" لا في التطورات النفسية المتبدلة. ويطرح بوكروفسكي الأسئلة بوضوح يستحق الثناء، كاشفاً بذلك **ضعف التفسير الاقتصادي العام الخاطئ للتاريخ**، ذلك التفسير الذي حاول الكثيرون غالبًا اعتباره ماركسية.

ولا تنجم التحولات الجذرية التي تتم خلال الثورة عن الهزات المتناوبة التي تصيب الاقتصاد خلال الأحداث نفسها، ولكنها تنجم عن التحولات الرئيسية التي تراكمت في قواعد المجتمع نفسها خلال الحقبة السابقة كلها. من المؤكد أن الاضطراب الاقتصادي تزايد باستمرار عشية قلب الملكية، وفي الفترة الواقعة بين فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول)، مؤديًا إلى زيادة حدة تذمر الجماهير. وهذا أمر لا جدال فيه، ولم يغب عن انتباهنا لحظة واحدة. ولكن من الخطأ الفاحش أن نعتقد بأن الثورة الثانية تمت بعد الثورة الأولى بثمانية أشهر، نظرًا لأن حصة الخبز نقصت خلال هذه الفترة، وانخفضت من ليبرة ونصف إلى ثلاثة أرباع الليبرة.

لقد تزايدت حالة الجماهير من الناحية التموينية سوءًا في السنوات التي تلت انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) مباشرة. ومع هذا فإن آمال سياسيي الثورة المضادة المتعلقة بانتفاضة جديدة انتهت كل مرة إلى الفشل. وقد يبدو الأمر غريبًا لكل من يتصور انتفاضة الجماهير كحركة "قوى أولية"، أي كعصيان قطيع بشري يحسن الموجهون استخدامه. والحقيقة أن الحرمان لا يكفي لتفسير الانتفاضة، وإلا لكانت الجماهير في ثورة لا تنقطع. **ولا بُدَّ أن يبدو عجز النظام الاجتماعي واضحًا بشكل يجعل الحرمان غير محتمل، وأن تظهر ظروف جديدة وأفكار جديدة تفتح السبيل أمام أفق مخرج ثوري**. وما أن تعي الجماهير سعة المخطط المرسوم أمامها حتى تصبح قادرة على تحمل حرمان مضاعف أو مثلث.

وتكشف الإشارة إلى انتفاضة الطبقة الفلاحية "كعامل موضوعي" ثان عن سوء تفاهم أخطر من سابقه. لقد كانت الحرب بالنسبة للبروليتاريا، وهذا أمر مفهوم، ظرفًا موضوعيًّا ضمن الحدود التي تجعل أعمال طبقة ما الحوافز الخارجية لتشكيل وعي طبقة أخرى. ولكن السبب المباشر للانتفاضة الفلاحية نفسها كان كامناً في **تحولات حالة الريف الفكرية**. ولقد خصصنا فصلاً كاملاً في هذا الكتاب لبحث طبيعة هذه التحولات. وعلينا أن لا ننسى بأن الثروات تتم من قبل الرجال، وغالبًا ما يكون هؤلاء الرجال من المجهولين. ولا تنكر المادية دور الإنسان الذي يحس، ويفكر، ويعمل، ولكنها تفسره. وماذا يمكن أن يكون دور المؤرخ غير ذلك[1]؟

وتميل بعض انتقادات المعسكر الديمقراطي إلى العمل بواسطة براهين غير مباشرة. ولقد وجدت هذه الانتقادات في موقف المؤلف "الساخر" من الزعماء التوفيقيين تعبيرًا عن ذاتية غير مقبولة، تسيء إلى طبيعة الطرح العلمية. وإننا نعتقد بأن هذا المقياس غير مقنع. إن مبدأ سبينوزا "عدم البكاء، وعدم الضحك، والاكتفاء بالفهم" يحذرنا فقط من إطلاق ضحكة في غير محلها، أو ذرف الدموع بلا معنى. ولكن هذا المبدأ لا يجرد الإنسان، حتى ولو كان مؤرخاً، من حقه ببعض الضحكات والدموع، عندما تكون مبررة بفهم صحيح لهدفها نفسه. إن السخرية الفردية البحتة، التي تنتشر على شكل غيمة خفيفة من اللا مبالاة فوق كل أعمال البشرية وأفكارها، تقدم أسوأ أشكال التبجح الأجوف، وهي خاطئة في كتاب فني مثل خطئها في عمل تاريخي. ولكن هناك سخرية تكمن في قاعدة العلاقات الحيوية. وعلى المؤرخ والفنان أن يعبرا عنها.

انقطاع التوافق بين الذاتي والموضوعي هو بصورة عامة المصدر الأساسي للهزلي والمأساوي في الحياة والفن. ولا ينجو مجال السياسة من تأثير هذا القانون ولا يتسم الأشخاص والأحزاب بالبطولة أو السخف بناء على وصفهم الذاتي، ولكنهم يأخذون هذه الصفة أو تلك بناء على موقفهم أمام الظروف. عندما دخلت الثورة الفرنسية مرحلتها الحاسمة، بدا أشهر

الجيرونديين بائسًا سخيفًا أمام أي يعقوبي بسيط. ولقد كان جان - ماري رولاند شخصية مشهورة كمفتش لمصانع ليون، ولكنه بدا صورة حية للشخص المضحك في عام ١٧٩٢. وكان اليعاقبة على العكس على مستوى الظروف. وقد يثيرون لدى الآخرين العداء، والحقد، والغيظ، ولكنهم لا يثيرون السخرية أبدًا.

إن بطلة ديكنز التي تحاول أن تمنع بمكنستها صعود المد، أنموذج واضح للإنسان المضحك، نظرًا لعدم تلاؤم الوسيلة مع الهدف. فإذا قلنا بأن هذه الشخصية ترمز إلى سياسة الأحزاب التوفيقية في الثورة بدا في قولنا شيء من المبالغة. ولكن تسيريتلي" المحرك الحقيقي لنظام ازدواجية السلطة، اعترف بعد ثورة أكتوبر (تشرين الأول) للزعيم الليبرالي نابوكوف بما يلي: "لم يكن كل ما عملناه آنذاك سوى محاولة بلا جدوى" لاستخدام بعض نشارة الخشب لإيقاف السيل المدمر للعناصر المنطلقة من عقالها"، وإننا نلحظ هنا رنة نقد ساخر سيئ. وهذه هي أصدق الأقوال التي تحدث بها التوفيقيون عن أنفسهم. إن الامتناع عن السخرية عند وصف "الثوريين" الذين يحاولون إيقاف الثورة بواسطة نشارة الخشب، عبارة عن عمل يرضي المتبجحين، ولكنه يظلم الحقيقة ويبتعد عن الموضوعية.

وفي المهجر كتب الفوضوي بيير ستروفيه الذي كان من قبل ماركسيًا، ما يلي: "لم يكن في الثورة شيء منطقي، مخلص لجوهره سوى البلشفية؛ ولذا انتصرت البلشفية في الثورة". ويتحدث زعيم الليبرالية ميليوكوف عن البلاشفة باللهجة نفسها تقريبًا: "كانوا يعرفون أين يذهبون، ويسيرون باتجاه واحد بعد تحديده بصورة نهائية، ويتحركون نحو الهدف الذي كان يزداد اقترابًا كلما قام التوفيقيون بمحاولة فاشلة جديدة"، وأخيرًا فإن أحد المهاجرين البيض المغمورين حاول فهم الثورة على طريقته فكتب ما يلي: "وكان السير على هذا السبيل بحاجة لرجال من حديد... ثوريين "محترفين" لا يخشون إيقاظ روح الثورة الجارفة". ويمكن إعطاء البلاشفة وصفًا ينطبق عليهم أكثر من انطباقه على اليعاقبة إذا قلنا: بأنهم ملائمون للعصر ومهماته. ولقد وجهت لهم الاتهامات بكمية كافية، ولكن السخرية لم تصل إليهم، ولم يكن لديهم ما يتمسكون به.

ولقد طرح المؤلف في مقدمة الجزء الأول السبب الذي دفعه إلى الحديث عن نفسه **بصيغة المفرد الغائب لا بصيغة المفرد المتكلم، مع أنه اشترك بالأحداث بصورة فعلية**، ومن المؤكد أن الحفاظ على هذا الأسلوب الأدبي في هذا الجزء **لا يقدم في حد ذاته ضمانة من الوقوع في الذاتية، ولكنه لا يجعل الذاتية على الأقل أمرًا مفروضًا**. بالإضافة إلى أنه يدعو لتحاشيها.

ولقد توقفنا في كثير من الحالات مترددين، أمام ضرورة أو عدم ضرورة ذكر حكم هذا المعاصر أو ذاك على دور مؤلف هذا الكتاب خلال مسيرة الأحداث. وكان من السهل تجاوز بعض الاستشهادات لو لم تكن تتعلق بشيء أكبر بكثير من القواعد المعهودة التي يقبلها الذوق العام. ولكن مؤلف الكتاب كان رئيس سوفييت بتروغراد بعد أن حصل البلاشفة على الأغلبية في هذا السوفييت. ثم كان رئيسًا للجنة العسكرية الثورية التي نظمت انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول). وهو لا يستطيع مسح مثل هذه الحقائق من التاريخ، كما أنه لا يود ذلك. وقد وجدت المجموعة الحاكمة الآن في الاتحاد السوفييتي، الوقت الكافي في السنوات الأخيرة لتخصيص العديد من المقالات، وعدد لا بأس به من الكتب للتحدث عن مؤلف هذا الكتاب. وكان هدف كل هذه المقالات والكتب، **البرهنة على أن نشاطه كان موجهًا ضد مصالح الثورة بشكل دائم**. وهنا يبقى على المرء أن يجيب على السؤال التالي: "لِمَ وضع الحزب البلشفي "عدوًا" شرسًا إلى هذا الحد، في مراكز هامة كبيرة المسئوليات، خلال السنوات الحرجة العصبية. إن الصمت عن المناقشات السابقة، يعني التخلي إلى حد ما عن وصف مسيرة الأحداث على حقيقتها. فما الهدف من ذلك؟ ولا يحاول أن يتظاهر بعدم الاهتمام سوى ذلك الذي ينوي أن يدس للقارئ استنتاجات لا تنبثق من الأحداث. ولكننا نفضل تسمية الأشياء بأسمائها، وفق أدق التعابير.

ولن نخفي أبدًا بأن هذا العمل لا يتعلق بالماضي وحده. وكما أن الخصوم يهاجمون الشخص في محاولة لضرب البرنامج، فإن النضال من أجل برنامج محدد يفرض على الشخص أن يؤكد مكانه الحقيقي وسط الأحداث. وإذا ما تاه أحدهم خلال الصراع في سبيل أهداف كبرى، وفي سبيل مكانه تحت الراية، ولم يعد يرى سوى قيمته الفردية، فإن علينا أن نأسف له، ولكننا لن نعمل على مجادلته وإقناعه. ولقد اتخذنا على كل حال كافة التدابير اللازمة لكيلا تشغل المسائل "الشخصية" في هذا الكتاب مكانًا أكبر مما تستحقه فعلاً.

إن بعض أصدقاء الاتحاد السوفييتي -وهم غالبًا أصدقاء السلطات السوفييتية الحالية، الذين سيبقون على صداقتهم طوال مدة بقاء هذه السلطات فقط- انتقدوا المؤلف لموقفه النقدي إزاء الحزب البلشفي، أو إزاء بعض زعمائه. ولكنني لم أجد واحدًا منهم يعمل على تصحيح اللوحة التي قدمناها ووصفنا بها حالة الحزب خلال الأحداث. وليعلم هؤلاء "الأشخاص" الذين يعتقدون أنهم مدعوون للوقوف ضدنا دفاعًا عن دور البلاشفة في انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول)، بأن كتابنا لا يستهدف تعليم الآخرين كيف يمكنهم أن يحبوا -بعد النصر- الثورة الظافرة، والوجه البيروقراطي الذي أخذته، ولكنه يستهدف إيضاح الطريقة التي تُعد بها الثورة، وتتطور وتحقق النصر. وليس الحزب بالنسبة لنا جهازًا معصومًا تحمي عمليات القمع الحكومي عصمته، ولكنه جهاز معقد يتطور وسط التناقضات ككل شيء حي. وإننا نعتقد بأن اكتشاف التناقضات، وهذا العدد من ترددات القيادة وأخطائها، لا يؤدي أبدًا إلى إضعاف أهمية العمل التاريخي الضخم الذي حمل الحزب البلشفي أعباءه لأول مرة في التاريخ العالمي.

ل. تروتسكي

برينكيبو، ١٣ مايو (آيار) ١٩٣٣

الهوامش

(١) إن نبأ وفاة م. ن. بوكروفسكي الذي جادلناه أكثر من مرة في هذا الكتاب، قد جاءنا بصورة متأخرة بعد أن كان كتابنا منتهيًا. ولقد جاء هذا المؤرخ إلى الماركسية من المعسكر الليبرالي، بعد أن غدا عالمًا كامل التكوين. ومن المؤكد أنه أثرَى الأدبيات التاريخية المعاصرة بأعمال مفعمة بالمبادهة الثمينة، ولكنه لم يمتلك كلية أسلوب المادة الجدلية. ومن العدل أن نضيف بأن بوكروفسكي لم يكن رجلاً يتمتع بثقافة راقية استثنائية ومواهب كبيرة فحسب، بل كان يخلص بعمق للقضية التي يخدمها. (ل. ت.).

"أيام يوليو" الإعداد والبداية

في عام ١٩١٥ بلغت تكاليف الحرب بالنسبة لروسيا ١٠ مليارات من الروبلات، وارتفعت تكاليف عام ١٩١٦ الحربية إلى ١٩ مليارًا، ووصلت تكاليف النصف الأول من ١٩١٧ إلى ١٠ مليارات و٥٠٠ مليون من الروبلات. وكان من المنتظر ارتفاع الدَين العام في عام ١٩١٨ إلى ٦٠ مليارًا، أي ما يعادل تقريبًا مجموع الثروة القومية المقدرة آنذاك بـ٧٠ مليارًا. وأعدت اللجنة التنفيذية مشروع الدعوة لقرض حربي تحت اسم جذَّاب هو "قرض الحرية"، على حين وصلت الحكومة إلى استنتاج مبسط يقول بأنه إذا لم تحصل على قرض خارجي ضخم، فإنها لن تعجز عن تسديد ثمن طلباتها من الخارج فحسب، بل ستقف عاجزة عن مجابهة مطالبها الداخلية أيضًا. وتزايد عجز ميزان المدفوعات التجاري بصورة مستمرة. وكان الحلفاء ولا شك مستعدين للتخلي عن الروبل نهائيًّا، وتركه ليواجه مصيره. وفي اليوم الذي احتلت فيه الدعوة "لقرض الحرية" الصفحة الأولى لصحيفة الأزفستيا السوفييتية، أعلنت صحيفة فيستنيك برافيتلستفا (أنباء الحكومة) هبوطًا مفاجئًا بسعر الروبل. ولم تعد مطابع الأوراق النقدية كافية لمتابعة وتيرة التضخم. وبعد العملة القديمة القوية التي حافظت على بعض قوتها الشرائية القديمة، بدأ الناس يستعدون لقبول الأوراق الحمراء، التي لا تصلح إلا لإلصاقها على الزجاجات، والتي أطلقت عليها عامة الشعب اسم "الكرنسكيات". وكان البورجوازي والعامل يتحدث عن هذه العملة بشيء من الازدراء، ولكن كل على طريقته.

وقبلت الحكومة من الناحية اللفظية برنامج تنظيم الاقتصاد العام عن طريق الدولة، وخلقت لهذا الغرض في أواخر أيام يونيو "حزيران" أجهزة ضخمة معقدة. ولكن القول والفعل في ظل نظام فبراير (شباط) كانا في صراع دائم كالصراع القائم بين روح مسيحي متدين وجسده. وكانت أجهزة التنظيم المختارة حسب الطلب تهتم بحماية أصحاب الأعمال ضد أهواء سلطة حكومية مهتزة مضطربة، بدلاً من أن تعمل على كبح جماح المصالح الخاصة. وكان الأشخاص الإداريون والتقنيون في الصناعة على أشكال متعددة. ولكن قمة هؤلاء الأشخاص، كانت تحس بالضيق من ميول العمال نحو المساواة، وتنتقل إلى جانب أصحاب الأعمال بشكل ملحوظ. وكان العمال ينظرون باستياء إلى الطلبات الحربية التي تعهدت المصانع المضطربة بتقديمها خلال سنة أو سنتين.

وفقد أصحاب العمل أنفسهم الرغبة بالعمل المنتج الذي يسبب متاعب تفوق ما يقدمه من مكاسب. وأخذ توقيف المصانع المتعمد من قبل أصحاب العمل طابعًا منهجيًّا. وانخفض إنتاج المعادن بمقدار ٤٠٪، كما انخفض إنتاج المنسوجات بنسبة ٢٠٪. وبدأ نقصان الحاجيات الضرورية للحياة. وارتفعت الأسعار مع تزايد التضخم النقدي، وازدياد حدة التدهور الاقتصادي. وناضل العمال لتحقيق المراقبة على آلية العمل الإداري والتجاري التي كان المسئولون يخفونها عنهم، رغم أن مصيرهم متعلق بها. وأصدر وزير العمل سكوبوليف بيانات مطولة ليفهم العمال بأن التدخل في إدارة المصانع أمر غير مقبول. وفي ٢٤ يونيو (حزيران) أعلنت الأزفستيا بأن هناك اتجاهًا لإغلاق العديد من المصانع وجاءت أنباء مماثلة من المحافظات.

وتأثر النقل بالسكك الحديدية بشكل أكبر من تأثر الصناعة. وكان نصف القاطرات بحاجة لإصلاحات أساسية، وكان جزء كبير من العربات ووسائط النقل في الجبهة، وتناقصت المحروقات إلى حد بعيد. ولم تكن وزارة المواصلات قادرة على إيجاد حل لصراعاتها مع عمال ومستخدمي السكك الحديدية. وغدا التموين سيئًا بصورة مستمرة. ولم يعد مخزون بتروغراد من القمح يكفي لأكثر من ١٠ - ١٥ يومًا. ولم تكن الأمور تجري بصورة أفضل في المراكز الأخرى. وكان الشلل النصفي الذي أصاب وسائط النقل، واحتمال إضراب عمال السكك الحديدية؛ يعنيان أن خطر المجاعة قائم باستمرار. ولم يكن أمام الحكومة أي أفق مضيء. ولم يكن هذا هو الوضع الذي انتظره العمال من الثورة.

وكان الوضع في مجال السياسة أسوأ من ذلك. إن التردد وعدم التصميم يمثل أسوأ الحالات في حياة الحكومات، والأمم، والطبقات، والأفراد. والثورة هي أفضل الوسائل المتوفرة لحل المسائل التاريخية. والتهرب في الثورة سياسة من أسوأ السياسات وأكثرها ضررًا. وعلى حزب الثورة أن لا يتردد لحظة واحدة أكثر مما يتردد الجراح بعد أن يبدأ استخدام مبضعه لفتح جسم المريض. ولكن نظام ازدواجية السلطة الناجم عن انتفاضة فبراير (شباط) كان عبارة عن تردد منظم. ودارت الأمور كلها ضد الحكومة. وانقلب الأصدقاء المشروطون إلى خصوم، وتحول الخصوم إلى أعداء، وتسلح الأعداء بمختلف الأسلحة. وعبأت الثورة المضادة قواها بشكل مكشوف تمامًا، وأخذت تعمل وفق تعليمات اللجنة المركزية لحزب الكاديت، والقيادة السياسية لكل من كان لديهم ما يفقدونه.

وكانت اللجنة الرئيسية لاتحاد الضباط في مقر القيادة العليا في موهيليف والتي تمثل حوالي مائة ألف ضابط متذمر، تشكل مع سوفييت اتحاد قطعات القوزاق في بتروغراد رافعتين عسكريتين بيد الثورة المضادة. وبالرغم من القرار الذي اتخذه مؤتمر السوفييتات في يونيو (حزيران)، فقد قرر مجلس الدوما متابعة عقد "الجلسات الخاصة". وكانت لجنته المؤقتة تشكل غطاءً شرعيًّا لنشاط الثورة المضادة الذي تموله البنوك وسفارات دول الحلفاء. وكان التوفيقيون يتلقون التهديد من اليمين واليسار. ونظرت الحكومة إلى ما حولها بقلق، وقررت بصورة رسمية تخصيص مبالغ من المال **لتنظيم مكافحة التجسس الاجتماعي، أي لتنظيم شرطة سياسية سرية.**

وفي هذه الفترة تقريبًا، أي في منتصف يونيو (حزيران)، حددت الحكومة يوم ٢٧ سبتمبر لإجراء **انتخابات المجلس التأسيسي**. وشنت الصحافة الليبرالية، رغم اشتراك الكاديت بالحكومة، حملة شعواء ضد التاريخ المحدد بصورة رسمية. ولم يكن يؤمن بهذا التاريخ أحد ولا يدافع عنه أحد بصورة جادة. وبهتت واختفت صورة المجلس التأسيسي التي كانت زاهية إلى حد بعيد في أوائل أيام مارس (آذار). ودارت الأمور كلها ضد الحكومة، حتى نواياها الحسنة النادرة الفقيرة. وفي ٣٠ يونيو (حزيران) وجدت الحكومة أخيرًا الشجاعة لإلغاء **مهمة الأوصياء النبلاء في الريف "رؤساء مراقبي الأراضي"** الذين كانوا يستقطبون الكراهية في مختلف أرجاء البلاد منذ أوجدهم الكسندر الثالث. وألقى هذا الإصلاح الجزئي، الإجباري، المتأخر على الحكومة المؤقتة ظلاً من الجبن المخجل.

واستعادت طبقة النبلاء في هذه الفترة شجاعتها، وبدأ ملاك الأراضي يتجمعون ويقومون بالهجوم. وطلبت لجنة مجلس الدوما المؤقتة من الحكومة في نهاية يونيو (حزيران) اتخاذ تدابير حازمة لحماية الملاكين من الفلاحين الخاضعين لتحريض "عناصر مجرمة".

وفي ١ يوليو (تموز) افتتح في موسكو **مؤتمر عموم روسيا للملاكين الزراعيين**، وكانت غالبية الحضور من النبلاء. وأخذت الحكومة تتناقض، لأنها كانت تحاول استخدام الجمل لتخدير الموجيك تارة والملاك الزراعيين تارة أخرى. ولكن الأمور في الجبهة سارت بشكل سيء. لأن الهجوم الذي راهن كرنسكي عليه في سبيل حل الصراع الداخلي لم يؤد إلا إلى حركات متشنجة. ولم يعد الجندي راغبًا بمتابعة الحرب. ولم يعد دبلوماسيو لفوف قادرين على مجابهة دبلوماسيي الحلفاء. وكانت البلاد بحاجة ماسة للقرض. وشاعت الحكومة العاجزة التي حكم عليها بشكل مسبق إظهار قوتها، فشنت هجومًا على فنلندا، ونفذت ذلك، كما نفذت كافة الأعمال القذرة، بأيدي الاشتراكيين.

وفي الوقت نفسه تفاقم الصراع مع أوكرانيا، وأدى إلى قطيعة صريحة. وكم بدت بعيدة تلك الأيام التي امتدح ألبرت توماس فيها الثورة المشعة، وكرنسكي. وفي مطلع يوليو (تموز)، استبدل سفير فرنسا باليولوغ المتأثر بأجواء الصالونات الراسبوتينية بدبلوماسي "راديكالي" هو السفير نولان. وقدم الصحفي كلود آني للسفير الجديد تقريرًا عن بتروغراد. وأمام

السفارة الفرنسية، وعلى الطرف الآخر من نهر نييفا يمتد حي فيبورغ "إنها منطقة المصانع الكبيرة التي تسير بأسرها وراء البلاشفة. ويتصرف فيها لينين وتروتسكي كسادة حقيقيين". وفي المنطقة نفسها توجد ثكنات فوج الرشاشات، وهي تضم حوالي ١٠ آلاف رجل، وأكثر من ألف رشاش. وليس للاشتراكيين - الثوريين أو المناشفة نفوذ في ثكنات هذا الفوج. والأفواج الأخرى بلشفية أو محايدة. "فمن سيمنع لينين وتروتسكي إذا أرادا الاستيلاء على بتروغراد؟" وأصغى نولان بكل دهشة. "كيف تقبل الحكومة إذن هذا الوضع؟" فرد الصحفي "ولكن ماذا بقي بوسعها أن تفعل؟". "علينا أن نفهم بأن الحكومة لا تملك سوى قوة معنوية، وتبدو لي حتى هذه القوة ضعيفة جدًا...".

ولما لم تجد قدرة الجماهير المستيقظة مخرجًا، انقسمت إلى حركات عفوية، وأعمال أنصار، واستيلاء تعسفي على الممتلكات. وحاول العمال والجنود والفلاحون أن يحلوا جزئيًا ما رفضت الحكومة التي خلقوها بأنفسهم حله. إن تردد الزعماء يضعف الجماهير أكثر من أي شيء آخر. ويدفعها الانتظار العقيم إلى قرع الأبواب الموصدة بإصرار متزايد، أو يجبرها أحيانًا على الانفجار الحقيقي من اليأس. وفي خلال مؤتمر السوفييتات، وبعد أن أوقف سكان المقاطعات إلى حد ما يَدَ زعمائهم المرفوعة على بتروغراد، كان العمال والجنود قد لاحظوا بشكل كاف ما هي مشاعر ونوايا زعماء السوفييت إزاءهم. وتحول تسيريتلي بعد كرنسكي، ولم يصبح مجرد شخص غريب، بل غدا منفرًا مكروهًا من غالبية عمال بتروغراد وجنودها. وتزايد تأثير الفوضويين على أطراف الثورة. وكان هؤلاء الفوضويون يلعبون الدور الأساسي في اللجنة الثورية التي خلقت بشكل متحيز اعتباطي في إدارة دورنوفو. ولكن حتى أكثر شرائح الطبقة العمالية انضباطًا، وحتى غالبية أوساط الحزب البلشفي، فقد ابتدأت تفقد الصبر أو تلقى أذنًا صاغية لمن نفذ صبرهم. وكشفت مظاهرة ١٨ يونيو (حزيران) للجميع بأن الحكومة لا تملك أي مستند، وتساءل العمال والجنود "ماذا ينتظر إذن أولئك القابعون في الأعلى؟" ولم يعد سؤالهم متعلقًا بزعماء التوفيقيين فحسب، بل بالمؤسسات القيادية البلشفية أيضًا.

وأدى النضال من أجل الأجور، التي لم تعد تتلاءم مع أسعار التضخم، إلى هيجان العمال وإنهاكهم. وطرحت هذه المسألة نفسها بحدة خاصة خلال يونيو (حزيران) في مصنع بوتيلوف الضخم؛ حيث يعمل ٣٦ ألف رجل. وفي ٢١ يونيو (حزيران) انفجر الإضراب في عدد من ورشات المصنع. وكان عقم هذه الانفجارات الجزئية وعدم جدواها ظاهرين بوضوح أمام عيني الحزب. وفي اليوم التالي نظم البلاشفة اجتماعًا ضم ممثلين عن التنظيمات العمال الأساسية، ومندوبين من ٧٠ مصنعًا، وأعلن المجتمعون أن "موضوع عمال بوتيلوف هو قضية بروليتاريا بتروغراد كلها" وطلبوا من عمال بوتيلوف أن "يكتموا غيظهم المشروع". وأُجِّل الإضراب. ومع هذا لم تقدم الأيام الـ١٢ التي تلت ذلك أي تبديل. وكانت جماهير المصانع العمالية تعيش حالة تخمُّر عميق، وتبحث عن مخرج. وكان في كل مصنع صراع، وكانت كافة هذه الصراعات تصعد إلى أعلى، وتتجه نحو الحكومة. ورفعت نقابة سائقي القطارات (ألوية مرتبطة بالقاطرات) إلى وزير المواصلات تقريرًا قالت فيه: "إننا نعلن لآخر مرة، أن صبرنا وصل إلى منتهاه. ولم تعد لدينا القوة للعيش في مثل هذا الوضع..."، ولم يكن هذا التقرير شكوى من البؤس والمجاعة فحسب، بل من الخداع، وانعدام الشخصية، والغش أيضًا. وكانت المذكرة تحتج بشدة على "النداءات المستمرة للتمسك بالواجب الوطني، وكبت رغبات البطون الخاوية".

في مارس (آذار) سلمت اللجنة التنفيذية السلطة للحكومة المؤقتة، شريطة أن لا تخرج القطعات الثورية من العاصمة. ولكن هذه الأيام غدت من الماضي السحيق. وتطورت قوات الموقع نحو اليسار، على حين تطورت أوساط السوفييت القيادية نحو اليمين. وكان النضال لاكتساب الموقع عملاً من الأعمال اليومية الدائمة. ولم تبعد الحكومة كافة القطعات عن العاصمة، ولكنها لجأت إلى إضعاف أكثر القطعات ثورية بصورة منهجية، وذلك بأن لجأت إلى الحجج الإستراتيجية، ونقلت سرايا من هذه القطعات إلى الجبهة. وتناهت إلى العاصمة أخبار التعديلات المستمرة في قطعات الجبهة، بسبب عدم الطاعة، أو رفض

تنفيذ أوامر القتال. فلقد حلت القيادة فرقتين سيبريتين مستخدمة العنف وقوة السلاح -ألم يكن القناصة السيبيريون من قبل أفضل العناصر؟- وفي قضية الجيش الخامس وحدها، وهو أقرب الجيوش إلى العاصمة، أحيل ٨٧ ضابطًا، و١٢ ألف جندي إلى القضاء بعد أن رفضت قطعات هذا الجيش بأسرها إطاعة أوامر القتال. وكان موقع بتروغراد الذي يجمع كل تذمر الجبهة والقرية والأحياء العمالية والثكنات يغلي بلا انقطاع.

وأخذ رجال ملتحون في العقد الرابع من عمرهم، يطالبون بإلحاح متزايد بضرورة العودة إلى بيوتهم للقيام بأعمال الحقول. وكانت الأفواج المعسكرة في حي فيبورغ وهي: فوج الرشاشات الأول، وفوج الحرس الأول(*)، وفوج موسكوفسكي، وفوج المشاة ١٨٠ تتعرض بلا انقطاع لتأثيرات جيرانها البروليتاريين اللاهبة. وكان آلاف العمال يمرون أمام الثكنات، ومن بينهم عدد كبير من المهيجين البلاشفة الدءوبين. وكانت الاجتماعات تعقد بصورة دائمة تحت الجدران القذرة، التي غدت منفرة مقززة. وفي ٢٢ يونيو (حزيران) لم تكن المظاهرات الوطنية التي أثارها الهجوم قد هدأت بعد، عندما تجرأت سيارة من سيارات اللجنة التنفيذية على السير في شارع سامبسونيفسكي حاملة لافتات كتب عليها: "إلى الأمام من أجل كرنسكي!" فقام جنود فوج موسكوفسكي باعتقال المحرضين، وتمزيق اللافتات، وأرسلوا سيارة الوطنيين إلى فوج الرشاشات.

وكان الجنود بصورة عامة أقل صبرًا من العمال؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا يعيشون تحت تهديد الإرسال إلى الجبهة، كما كانوا يجدون صعوبة أكبر في تقبل مبررات الإستراتيجية السياسية. بالإضافة إلى أن كل واحد منهم كان يحمل بندقيته. وكان الجندي بعد فبراير (شباط) ميَّالاً إلى المغالاة في تقدير القيمة النوعية لهذا السلاح. ولقد تحدث العامل البلشفي العجوز ليزدين فيما بعد عن أن جنديًّا من الفوج الاحتياطي ١٨٠ قال له: "وماذا بعد؟ هل ينام جماعتنا هناك، في قصر كشيسينسكايا؟.. هيا بنا نطرد كرنسكي!...".

وفي اجتماعات الأفواج، كان التصويت يجري غالبًا على اقتراحات تتعلق بضرورة العمل أخيرًا ضد الحكومة. وكانت وفود بعض المصانع تأتي إلى الثكنات، وتسأل الجنود فيما إذا كانوا على استعداد للنزول إلى الشارع. وأرسل رماة الرشاشات مندوبيهم إلى قطعات المواقع الأخرى لحضها على العصيان والتمرد ضد إطالة مدة الحرب. وكان بعض المندوبين ممن نفذ صبرهم يقولون: إن فوج بافلوفسكي، وفوج موسكوفسكي و٤٠ ألف عامل من عمال بوتيلوف سيسيرون "غدًا". ولم يعد للملاحظات الرسمية الصادرة عن اللجنة التنفيذية أي تأثير، وظهر رويدًا رويدًا خطر تعرض بتروغراد لهزيمة منفردة بعد أن يتوقف دعم الجبهة والمقاطعات لها.

وفي ٢١ يونيو (حزيران) كتب لينين في البرافدا مقالاً يدعو عمال بتروغراد وجنودها إلى انتظار اليوم الذي تجتذب فيه الأحداث جزءًا كبيرًا من القوى الاحتياطية الكبيرة، وتضعها في صف قضية العاصمة. "إننا نفهم المرارة، ونفهم غليان عمال بيتر(*). ولكننا نقول لهم: أيها الرفاق، إن العمل المباشر غير ملائم في هذه اللحظة". وفي اليوم التالي، عقد اجتماع خاص لزعماء البلاشفة الذين كان موقفهم الظاهري "إلى يسار" لينين، وقرر المجتمعون أنه بالرغم من الحالة الفكرية للجنود وجماهير العمال، فإن الوقت لم يحن بعد لقبول المعركة. "ومن الأفضل الانتظار حتى تتجلل الأحزاب الحاكمة نهائيًّا بالعار، بسبب البدء بالهجوم. عندها سنربح الجولة". هذا هو ما كتبه لاتسيس، منظم المقاطعة، وواحد من أكثر المتعجلين في تلك الأيام. ورأت اللجنة نفسها مضطرة لإرسال المهيجين إلى الثكنات والمصانع، لتحذير الجنود والعمال من القيام بعمل سابق لأوانه.

وهزَّ بلاشفة فيبورغ رءوسهم من الحيرة، وأخذوا يشتكون فيما بينهم: "إن علينا أن نستخدم خراطيم رجال الإطفاء (لإطفاء حدة المظاهرات). ولم تتوقف الدعوة للنزول إلى الشارع، بل تزايدت يومًا بعد يوم. وكان هناك ولا شك دعوات تحريضية مشبوهة. ووجد تنظيم البلاشفة العسكري نفسه مضطرًا إلى إصدار بيان موجه للعمال والجنود قال فيه: "لا تصدقوا

أي نداء للنزول إلى الشارع باسم التنظيم العسكري. إن التنظيم العسكري لا يدعوكم للتظاهر". وأكد البيان بعد ذلك بإلحاح أكبر "اطلبوا من كل مهيج أو خطيب يدعوكم إلى العمل باسم اللجنة العسكرية أن يبرز لكم شهادة موقعة من الرئيس والأمين العام".

وأخذ الفوضويون يرفعون صوتهم بجرأة متزايدة في ساحة لانكر في كرونشتادت، وبدأت الإنذارات النهائية تنطلق من هذه الساحة الشهيرة. وفي ٢٣ يونيو (حزيران)، قام مندوبو ساحة لانكر، دون موافقة سوفييت كرونشتادت، بمطالبة وزارة العدل بإطلاق سراح مجموعة من فوضويي بتروغراد، وإلا شن بحارة كرونشتادت هجومًا على السجن لإنقاذهم. وفي اليوم التالي أعلم مندوبو أورانينبوم وزير العدل أن موقعهم ثائر بسبب الاعتقالات التي تمت في دارة دورنوفو وكرونشتادت، وأن جنود الموقع "يمسحون الرشاشات". والتقطت الصحافة البرجوازية هذه التهديدات، ولوَّحت بها أمام أنظار حلفائها من التوفيقيين. وفي ٢٦ يونيو (حزيران) جاء من الجبهة مندوبون من فوج الحرس إلى كتيبتهم الاحتياطية ومعهم التصريح التالي: إن الفوج يقف ضد الحكومة المؤقتة، ويطالب بانتقال السلطة إلى السوفييتات. ويرفض الانتقال إلى الهجوم الذي بدأه كرنسكي، ويتساءل بقلق عما إذا كان أعضاء اللجنة التنفيذية والوزراء الاشتراكيون قد انتقلوا إلى صف البورجوازيين. ونشرت صحيفة اللجنة التنفيذية حول هذه الزيارة تقريرًا مفعمًا بالملاحظات والانتقادات.

ولم يكن الغليان كبيرًا في كرونشتادت وحدها، بل شمل مجمل أسطول البلطيق الذي كانت هلسنغفورز قاعدته الأساسية. ولا شك في أن أنطونوف - أوفسينكو كان أنشط البلاشفة داخل الأسطول وأكثرهم فاعلية بلا منازع. ولقد اشترك أنطونوف - أوفسينكو كضابط شاب في انتفاضة سيباستوبول في عام ١٩٠٥، وكان منشقيًّا في سنوات الردة الرجعية، ثم أصبح مهاجرًا أمميًّا خلال الحرب، وساعد تروتسكي في إصدار صحيفة ناشي سلوفا (كلمتنا) في باريس، والتحق بالبلاشفة بعد عودته من الخارج. ولم يكن قويًّا في مجال السياسة، ولكنه كان يتمتع بشجاعة شخصية، ويتسم بالاندفاع والفوضى، والقدرة على المبادهة والإبداع. ولم يكن أنطونوف - أوفسينكو معروفًا آنذاك، ولكنه أخذ في أحداث الثورة بعد ذلك مكانة هامة جدًا. ويقول أنطونوف أوفسينكو في مذكراته: "وفهمنا في لجنة الحزب في هلنسغفورز، ضرورة التحلي بالصبر، وإعداد أنفسنا بجدية. وجاءتنا تعليمات مشابهة بهذا الصدد من اللجنة المركزية. ولكننا كنا نعي حتمية وقوع الانفجار، وننظر نحو بيتر بقلق".

وفي هذه الجهة، كانت العناصر المتفجرة تتراكم يومًا بعد يوم. وصوّت فوج الرشاشات الثاني، وهو أكثر تخلفًا من فوج الرشاشات الأول، على قرار يقضي بنقل السلطة إلى السوفييتات. ورفض فوج المشاة الثالث السماح لـ١٤ سرية بالذهاب إلى الجبهة. وتزايد هيجان الاجتماعات داخل الثكنات بصورة مستمرة. وأدَّى اجتماع فوج الحرس في ١ يوليو (تموز) إلى اعتقال رئيس اللجنة، ومقاطعة خطباء المناشفة: فليسقط الهجوم! فليسقط كرنسكي! ووقف رماة الرشاشات في وسط الموقع، وفتحوا السدود أمام سيل يوليو (تموز) الجارف.

إننا نذكر بأن اسم فوج الرشاشات الأول قد ورد أمامنا خلال أحداث الأشهر الأولى للثورة. فلقد بادر بعد الانتفاضة وحضر من أورانينبوم إلى بتروغراد "للدفاع عن الثورة". واصطدم هذا الفوج منذ قدومه بمقاومة اللجنة التنفيذية التي اتخذت القرار التالي: تقديم الشكر للفوج، وإعادته إلى أورانينبوم. ورفض رماة الرشاشات الخروج من العاصمة رفضًا باتًا؛ "فقد تنقض قوى الثورة المضادة على السوفييت وتعيد النظام القديم". ورضخت اللجنة التنفيذية، وبقي عدة آلاف من رماة الرشاشات في بتروغراد مع رشاشاتهم. وتمركز هذا الفوج في بيت الشعب، ولم يكن جنوده يعرفون ماذا تقرر بشأنهم. وكان بين صفوفهم عدد كبير من عمال بتروغراد، وليس من قبيل الصدفة أن لجنة البلاشفة اهتمت بهم. ولقد أدى تدخل الفوج إلى تأمين تموين أفضل لقلعة بطرس وبولص. وبدأت الصداقة بشكل ملحوظ، ثم لم تلبث أن غدت قوية لا تفصم عراها.

وفي ٢١ يونيو (حزيران) عقد الفوج اجتماعًا عامًا نجم عنه القرار التالي: "عدم إرسال أية قطعات إلى الجبهة في المستقبل، إلا إذا أخذت الحرب طابعًا ثوريًا". وفي ٢ يوليو (تموز) نظم الفوج في بيت الشعب اجتماعًا خاصًا لوداع "آخر" سرية تتجه نحو الجبهة. وتحدث لوناتشارسكي وتروتسكي في هذا الاجتماع، وحاولت السلطات فيما بعد إعطاء هذا الحادث العارض أهمية استثنائية. وتحدث الجندي جيلين، والبلشفي القديم ضابط الصف لاشوفيتش باسم الفوج. وكان الهيجان كبيرًا جدًا، وتحدث الحاضرون عن كرنسكي، وأقسموا على الإخلاص للثورة. دون أن يطرح أي امرئ مقررات عملية تتعلق بالمستقبل القريب. وفي هذا الوقت، كان الناس في المدينة يأملون منذ أيام وقوع أحداث. وكانت "أيام يوليو" تلقي ظلالها بشكل مسبق. ويقول سوخانوف في مذكراته "وفي كل مكان، وفي كل ركن، وفي مقر السوفييت، وقصر ماري، والساحات، والشوارع، والثكنات، والمصانع، كان الجميع يتحدثون عن مظاهرات متوقعة ما بين يوم وآخر... ولم يكن أحد يعرف من سيتظاهر، وكيف وأين؟؟. ولكن المدينة كانت تحس بأنها على عتبة انفجار ما". وانفجرت المظاهرات بصورة فعلية. وجاء الدفع من الأعلى، من الأوساط القيادية.

وفي اليوم الذي تحدث به تروتسكي ولوناتشارسكي أمام رماة الرشاشات عن عجز الائتلاف، خرج أربعة وزراء من الحكومة لتحطيم هذا الائتلاف، وفسر هؤلاء الوزراء انسحابهم، بأنه يتعذر عليهم أن يقبلوا كوزراء في دولة كبيرة تصرف زملائهم التوفيقيين الذين قبلوا الحل الوسط خلال تفاوضهم مع أوكرانيا. ولكن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الانسحاب التظاهري هو أن التوفيقيين تأخروا في كبح جماح الجماهير. وتحدد اختيار لحظة القطيعة بلحظة فشل الهجوم، الذي لم يُعلن بعد بصورة رسمية، رغم قناعة جميع المسئولين به. ورأى الليبراليون أن من الأفضل ترك حلفائهم اليساريين ليواجهوا وحدهم الهزيمة والبلاشفة. وانتشر نبأ استقالة وزراء الكاديت بسرعة بالغة في العاصمة. وأعطى تعميمًا سياسيًا لكافة الصراعات القائمة، ولخص ذلك بشعار آلي، أو بصرخة يأس تقول: لا بُدَّ من التخلص من كل تفاهات هذا الائتلاف.

وكان الجنود والعمال يرون بأن حل معضلة السلطة، وهل ستكون البلاد خاضعة لسلطة البرجوازية أو سلطة سوفييتاتهم الخاصة، هو الذي سيحدد حل كافة المسائل الأخرى: كالأجور، وسعر الخبز، والذهاب للموت في الجبهة في سبيل هدف مجهول. وكان في هذه التوقعات نسبة لا بأس بها من الوهم، ولقد جاء هذا الوهم من اعتقاد الجماهير بأن حل مسألة السلطة سيؤدي إلى حل فوري لكافة المعضلات التي ترهقها. ولكن الجماهير كانت في نهاية المطاف محقة على المدى البعيد؛ لأن مسألة السلطة تحدد اتجاه الثورة كله، وتعين بالتالي مصير كل فرد على حده. والاعتقاد بأن الكاديت كانوا لا يتوقعون انعكاسات عملهم التخريبي المكشوف إزاء السوفييت، اعتقاد خاطئ يعني تجاهل قيمة ميليو كوف وإمكاناته. ولقد كان زعيم الليبرالية ولا شك يعمل ما في وسعه لجذب التوفيقيين إلى وضع حرج لا حل له سوى استخدام الحراب، وكان يعتقد في هذه الأيام اعتقادًا جازمًا، بأن عملية دموية جريئة قادرة على إنقاذ الموقف.

وفي صبيحة ٣ يوليو (تموز)، قطع آلاف رماة الرشاشات فجأة الاجتماع الذي تعقده لجان سراياهم وفوجهم، وانتخبوا رئيسًا للجان، وأصروا على أن تتم مناقشة مسألة المظاهرة المسلحة فورًا. وأخذ الاجتماع عند ذلك شكلاً مضطربًا. وتشابكت مسألة الذهاب إلى الجبهة مع الأزمة الوزارية. وحاول رئيس المجلس، البلشفي غولوفين إيقاف الاندفاع، واقترح إجراء اتفاق مع الوحدات العسكرية الأخرى، ومع التنظيم العسكري. ولكن كل إشارة إلى تأجيل المظاهرة كانت تثير غضب الجنود. وظهر في هذا الاجتماع الفوضوي بليخمان، وهو شخصية صغيرة، ولكنه كان كبير الأهمية في أجواء عام ١٩١٧. ولم يكن يملك سوى قسط صغير من الأفكار، ولكن إحساسه أمام الجماهير قوي جدًا، كما أنه مخلص لفكره المحدود، وحماسه متَّقد دائمًا. ولاقى بليخمان بقميصه المفتوح، وصدره العاري، وشعره المتماوج المتناثر، عددًا لا بأس به من المؤيدين نصف الساخرين في الاجتماعات. وكان العمال ينظرون إليه في الحقيقة بشيء من التخطيط وانعدام الصبر، وخاصة عمال التعدين. ولكن الجنود

كانوا يبتسمون بمرح عند سماع خطاباته، ويتبادلون الإشارات ولكزات المرافق، ويستثيرون الخطيب بكلمات حادة. وكـــان ولا شك يستفيد من مظهره الغريب، ورنة صوته كرجل يحاكم الأمور بشكل قليل، ولكنته اليهودية - الأمريكية الحادة كالخل.

وفي نهاية يونيو (حزيران) كان بليخمان يسبح كالسمك داخل الماء في مختلف أنواع الاجتماعات المفاجئة. وكان يحمــل دائمًا القرار معه وهو: حمل السلاح والنزول إلى الشارع. والتنظيم؟ "إن الشارع سينظمنا". والمهمة؟ "قلب الحكومة المؤقتة كما قلبنا القيصر من قبل"، رغم أنه لم يكن أي حزب قد نادى آنذاك إلى العمل بهذا الاتجاه. وكانت مثل هذه الأقوال تــتلاءم كــل التلاؤم مع ظروف اللحظة، ومواقف رماة الرشاشات، وغيرهم من الجنود. وكان عدد من البلاشفة لا يخفون رضاهم من رؤية القاعدة تسير دون الاهتمام بالملاحظات والانتقادات الرسمية. وتذكر العمال الطليعيون أن الزعماء استعدوا في فبراير (شــباط) لإعطاء إشارة التراجع في عشية تحقيق النصر. وأن الحصول على يوم العمل المؤلف من ٨ ساعات تــم فــي مــارس (آذار) بفضل مبادهة القاعدة، وأن ميليوكوف قُلب في إبريل (نيسان) على يَد أفواج نزلت إلى الشارع بصورة عفوية. وكان تذكُّر هذه الأحداث يذهب إلى مدى أبعد من رأي الجماهير المتوترة المتعجلة التي عيل صبرها.

وعلم تنظيم البلاشفة العسكري فورًا بالغليان السائد في اجتماع رماة الرشاشات. فأخذ يرسل إلى الاجتماع محرضًا تلــو الآخر. ولم تمض فترة قصيرة حتى جاء نفسكي نفسه، وهو زعيم التنظيم العسكري الذي يقدره الجنود حق التقدير. ويبــدو أن الحاضرين استمعوا له. ولكن استمرار الاجتماع بشكل لا نهاية له بدّل تركيب المستمعين وعدّل مواقفهم. ويتحدث زعيم آخــر من زعماء التنظيم العسكري قائلاً: "لقد فوجئنا إلى حد بعيد، عندما جاءنا في الساعة السابعة مساء مراسل يعدو، وأعلمنا بأن... رماة الرشاشات قرروا من جديد القيام بالمظاهرة". وانتخب رماة الرشاشات لجنة ثورية مؤقتة بدل لجنة الفوج القديمة. وكانــت اللجنة الجديدة برئاسة الملازم الثاني سيماشكو، وتضم ممثلين عن كل سرية. وعينت اللجنة مندوبين خاصــين للــذهاب إلــى الأفواج والمصانع، وطلب دعمها. ولم ينس رماة الرشاشات ولا شك إرسال المبعوثين إلى كرونشتادت.

وهكذا، وعلى نسق أدنى من نسق التنظيمات الرسمية، وتحت تغطية هذه التنظيمات، امتدت روابط جديدة مؤقتــة بــين أكثر الأفواج والمصانع ضيقًا وتحفزًا. ولم تكن الجماهير تنوي قطع علاقتها مع السوفييت، بل كانت ترغب علــى العكــس أن يستولي السوفييت على السلطة. وكان استعدادها لقطع العلاقة مع الحزب البلشفي أقل من ذلك أيضًا. ولكن بدا لها هذا الحــزب مترددًا غير مصمم. لقد كانت تود التحرش باللجنة التنفيذية، وتهديدها، ودفع البلاشفة إلى الأمام. وبدأ تشكيل الوفــود، وخلــق نقاط اتصال جديدة غير دائمة، ولكنها تتلاءم مع الحالة الراهنة. وكانت الظروف وحالة الرأي العام تتبــدل بــسرعة وبــشكل مفاجئ لدرجة تجعل أي تنظيم، ولو كان مرنِا كالسوفييت يتخلف عن متابعة حركتها، وتجبر الجماهير في كل مرة على خلــق أجهزة مساعدة لتأمين متطلبات اللحظة.

ويتسلل في مثل هذه الحالات غالبًا عناصر صدفية، وغير موثوقة دائمًا. وألقى الفوضويون الزيت على النار. وتصرف بعض البلاشفة الجدد المتعجلين بشكل مماثل. ومما لا شك فيه أن عددًا من المحرضين تسللوا إلى داخل العمل، ومن المحتمــل أن تكون ألمانيا قد دفعت ببعض عملائها إلى المنظمات. ولكن من المؤكد أن الأجهزة الرجعية الروسية المضادة للتجسس بعثت عددًا من العملاء للعمل في صفوف الثورة. فكيف يمكن حل نسيج الحركات الجماهيرية المعقدة خيطًا أثر الآخر؟ ومع هذا، فقد ارتسم طابع الأحداث العام بكل وضوح. وأحست بتروغراد بقوتها، وأخذت اندفاعها، ولم تلق أية نظرة خلفهــا ســواء علــى المقاطعات أو على الجبهة. وكان الحزب البلشفي نفسه عاجزًا عن تخفيف حدة العاصمة. وهنا كانت التجربة وحدها قادرة على تقديم المساعدة.

ولم ينس مندوبو رماة الرشاشات عندما دعوا الأفواج والعمال للنزول إلى الشارع، أن يضيفوا إلى دعوتهم، إن المظاهرة ستكون مسلحة. نعم، وكيف يمكن التظاهر بشكل آخر؟ ولا ينبغي التعرض لرصاص الخصوم دون حمل السلاح. وبالإضافة إلى ذلك -وقد يكون هذا هو المهم- فإن على المتظاهرين أن يعرضوا قوتهم، ولا يشكل الجندي المجرد من السلاح قوة. وكانت كافة الأفواج والمصانع متفقة بالنسبة لهذه النقطة: إذا تم التظاهر، فإن من الضروري عدم القيام به إلا مع ذخر كافٍ من الرصاص.

ولم يُضِع رماة الرشاشات أي وقت: لقد بدءوا جولة كبيرة، وعليهم السير بها حتى النهاية، وبأسرع وقت ممكن وتصف محاضر التحقيق فيما بعد أعمال الملازم الثاني سيماشكو، وهو واحد من أهم قادة الفوج. وتقول المحاضر ما يلي: "... لقد طلب السيارات من المصانع، وسلحها بالرشاشات، وأرسلها إلى قصر توريد وأماكن أخرى، محددًا لها مسالكها وطرقها، وأخرج بنفسه الفوج من الثكنة وسار به نحو المدينة. وذهب إلى كتيبة الاحتياط التابعة لفوج موسكوفسكي بغية إقناعها بضرورة التظاهر وتوصل إلى مبتغاه. ووعد جنود فوج الرشاشات بدعم أفواج التنظيم العسكري. وبقي على اتصال دائم مع هذا التنظيم المتمركز في قصر كشيسينسكايا، ومع زعيم البلاشفة لينين. وأرسل جماعات من الجنود لحراسة مقر التنظيم المذكور" وكان الاتهام المذكور هنا ضد لينين معدًا لإكمال اللوحة؛ إذ لم يكن لينين في ذلك اليوم أو في الأيام السابقة في بتروغراد. فلقد أصابه المرض منذ ٢٩ يونيو (حزيران)، واضطر للبقاء في داره في فنلندا. وإذا تابعنا المحاضر وجدنا أن الأسلوب الدقيق الموجز الذي استخدمه موظف العدلية العسكرية يترجم بشكل جيد الحمى التي أصابت رماة الرشاشات خلال إعدادات المظاهرة. وكان العمل في ساحة الثكنة يتم بحماس كبير، وبدأ توزيع البنادق والقنابل على الجنود العُزل. ووُضع على كل عربة نقل قدمتها المصانع ثلاثة رشاشات مع سدنتها. وكان على الفوج أن يخرج إلى الشارع بتشكيلة القتال.

وجرت الأمور داخل المصانع بشكل مشابه؛ إذ كان المبعوثون يأتون من ثكنة رماة الرشاشات، أو من المصانع المجاورة، ويدعون العمال للتظاهر. وبدا وكأن العمال ينتظرونهم منذ أمد بعيد؛ إذ كانوا يبدءون الحركة فورًا. ويتحدث أحد عمال مصنع رينو قائلاً: "وبعد تناول طعام الغذاء جاءنا عدد من رماة الرشاشات، وطلبوا منا أن نسلمهم سيارات نقل. وكان علينا أن نعطيهم هذه السيارات بالرغم من احتجاجات لجنتنا (البلشفية)... وبسرعة بالغة، نصب الجنود على السيارات رشاشات "مكسيم"، واتجهوا نحو شارع نييفسكي. عندها أصبح من المستحيل إيقاف عمالنا... الذين تركوا الآلات وخرجوا من الورشات ببذات العمل..." وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن احتجاجات البلاشفة في المصانع لم تكن شديدة أو مصممة. وطال الصراع في مصنع بوتيلوف أكثر من أي مكان آخر. ففي الساعة الثانية من بعد الظهر، سرت في ورشات المصنع أنباء تقول بأن وفدًا من رماة الرشاشات جاء إلى المصنع يدعو إلى عقد اجتماع، فاجتمع أمام مباني الإدارة حوالي ١٠ آلاف عامل. وأعلن رماة الرشاشات وسط تأييد العمال أنهم تلقوا أمرًا بالذهاب إلى الجبهة في يوم ٤ يوليو (تموز). وأنهم قرروا عدم السير نحو الجبهة الألمانية لمقاتلة البروليتاريا الألمانية، بل السير ضد الوزراء الرأسماليين الروس". وتصاعد الحماس. وصاح العمال "إلى الأمام! إلى الأمام!" واعترض أمين سر لجنة المصنع وهو عامل بلشفي، واقترح ضرورة سؤال الحزب ومعرفة رأيه. فانطلقت الاحتجاجات من كل مكان "فليسقط! فليسقط! إنكم أيضًا تريدون إطالة المسألة!... إننا عاجزون عن الاستمرار بالعيش بهذا الشكل!"... وحوالي الساعة السادسة، حضر مندوبون عن اللجنة التنفيذية، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير على العمال.

واستمر الاجتماع طويلاً، وكان الهياج فيه واضحًا. ولم يكن سوى اجتماع آلاف الرجال الذين يبحثون عن مخرج، ولا يقبلون أن يُقال لهم بأن هذا المخرج غير موجود. واقتُرح إرسال وفد إلى اللجنة التنفيذية، وكانت النتيجة التردد أمام هذا الاقتراح أيضًا. وظل الاجتماع منعقدًا. وفي هذه الأثناء جاءت مجموعة من العمال والجنود لتعلن بأن حي فيبورغ سار متجهًا نحو قصر توريد. وهنا أصبح من المستحيل إيقاف العمال دقيقة واحدة إضافية. واتخذ المجتمعون قرارًا بالسير. وهرع شخص

يدعى إيفيموف إلى لجنة الحزب في الحي ليسألها "عما ينبغي عمله" فأجابته اللجنة "سوف لا نتظاهر. ولكننا لا نستطيع ترك العمال لمصيرهم، ولذا فإننا سنسير معهم". وفي هذه اللحظة ظهر تشودين، أحد أعضاء لجنة الحي، وأعلن بأن العمال في كافة الأحياء ساروا نحو القصر، وأن على مناضلي الحزب "أن يحافظوا على النظام". وهكذا اجتذبت الحركة البلاشفة وجرتهم فساروا معها، وهم يحاولون تبرير أعمالهم المتعارضة مع القرار الرسمي للحزب.

وفي الساعة السابعة مساءً توقفت الحياة الصناعية في العاصمة بصورة كاملة. وانتفضت المصانع واحدًا تلو الآخر. وأخذت تضم الصفوف، وتسلحت مفارز الحرس الأحمر. ويتحدث ميتيليف -أحد مناضلي فيبورغ- عن ذلك بقوله: "ووسط جمهرة تضم العمال، كان مئات من شباب الحرس، يذهبون ويغدون، ويقرقعون بمغاليق بنادقهم. وكان البعض يدخلون أمشاط الرصاص في أسلحتهم. ويتمنطق الآخرون بأشرطة الرصاص، ويعلق البعض بأحزمتهم المزاود وجعب الذخيرة، أو يركبون الحراب على البنادق. وكان العمال العُزّل يساعدون رجال الحرس على تجهيز أنفسهم..." وغص شارع سامبسونيفسكي، أكبر شوارع حي فيبورغ، بالجماهير المحتشدة. وسارت إلى يمين الشارع ويساره أرتال متراصة من العمال، على حين سار في منتصف الشارع فوج للرشاشات، الذي يشكل العمود الفقري للموكب كله. وسارت في مقدمة كل سرية سيارات النقل المسلحة برشاشات "مكسيم". وسار العمال وراء فوج الرشاشات، وسارت وحدات فوج موسكوفسكي في مؤخرة الموكب لحمايته. ورفرفت فوق كل مفرزة راية كتب عليها "كل السلطة للسوفييتات!". ولا شك في أن موكب دفن ضحايا الثورة الذي جرى في مارس (آذار)، وموكب مظاهرة الأول من مايو (آيار) كانا أضخم من موكب يوليو (تموز)، ولكن استعراض يوليو (تموز) كان أشد جموحًا، وأكثر تهديدًا، ويتمتع بتجانس داخلي أكبر. وكتب أحد المشتركين بالمظاهرة المسلحة ما يلي: "ويسير العمال والجنود تحت الرايات الحمر. ولا يلاحظ المرء شارات الموظفين، أو أزرار الطلاب اللامعة، أو قبعات "السيدات المتعاطفات" -وكانت هذه الأشياء مألوفة قبل ٤ شهور في فبراير (شباط)- ولكن حركة هذا اليوم لا تضم أي شيء من ذلك. ولا يسير إليهم سوى حشد قاتم من عبيد رأس المال".

وانطلقت في مختلف الاتجاهات سيارات محملة بالعمال والجنود المسلحين، إنهم مبعوثون، ومحرضون، وكشافون، ورجال ارتباط، وقوات مكلفة بتحريض العمال والأفواج. وكان الجميع يشرعون بنادقهم. وكانت سيارات النقل التي تغطيها حراب البنادق تعيد إلى الأذهان لوحة أيام فبراير (شباط) فتشجع البعض، وتخيف البعض الآخر. وكتب الكاديت نابوكوف عن ذلك: "أنها نفس الوجوه المهووسة، المخدرة، الحيوانية التي نذكرها جميعًا منذ أيام فبراير (شباط)" أي منذ أيام الثورة التي أسماها الليبراليون رسميًّا ثورة ظافرة غير دموية. وما أن دقت الساعة التاسعة حتى كانت سبعة أفواج تتجه نحو قصر توريد. وانضمت إلى الموكب خلال الطريق أرتال العمال القادمين من المصانع، وعدد من الوحدات العسكرية الجديدة. وكان لحركة فوج الرشاشات قدرة هائلة على العدوى. وهكذا ابتدأت "أيام يوليو".

وعُقدت الاجتماعات الطارئة هنا وهناك. وسُمع صوت الطلقات المنبعث من كل مكان. ويقول العامل كوروتكوف: "وأخرج المتظاهرون من أحد الأقبية في شارع ليتييني ضابطًا ورشاشًا، وقتلوا الضابط فورًا". وسبقت الإشاعات من كل نوع مسيرة المظاهرة، ونشرت حولها الرعب في كل الاتجاهات. ولم تنتقل الإشاعات عن طريق هواتف أحياء المراكز الهلعة فقط! وجاءت الأنباء تقول، بأن سيارة مسلحة جاءت في الساعة الثامنة مسرعة إلى محطة وارسو، بغية اعتقال كرنسكي، الذي ذهب في هذا اليوم بالذات إلى الجبهة. ولكنها وصلت متأخرة، وسافر القطار قبل أن يتم الاعتقال. ولقد ذكرت هذه الرواية فيما بعد أكثر من مرة كدليل على وجود مؤامرة. ولكن من كان في السيارة؟ ومن ذا الذي اكتشف النوايا السرية لشاغليها؟ إننا لم نعرف ذلك أبدًا. وفي هذا المساء كانت السيارات المحملة بالرجال المسلحين تسير في كافة الاتجاهات، ومن المؤكد أن بعضها تحرك

على مقربة من محطة وارسو. وكانت الشتائم الفجة الموجهة إلى كرنسكي تتردد في أرجاء عديدة. وكان هذا علـــى مـــا يبـــدو أصل الأسطورة، إن لم تكن الأسطورة برمتها مختلفة.

ورسمت صحيفة الأزفستيا المخطط التالي لأحداث ٢٣ يوليو (تموز): "في الساعة الخامسة من بعد الظهيرة خرج إلـــى الشارع كل من فوج الرشاشات الأول، ووحدة من فوج موسكوفسكي، ووحدة من فوج الحرس، ووحدة من فـــوج بافلوفـــسكي، وكان رجال هذه الوحدات يحملون سلاحهم الكامل. وانضم إليهم عدد غفير من العمال... وفي الساعة الثامنة، تجمع حول قصر كشيسينسكايا وحدات من الأفواج المسلحة من الرأس حتى أخمص القدمين، تحمل الرايات الحمراء، واللافتات المنادبـــة بنقـــل السلطة للسوفييتات. وألقيت الخطب من شرفة القصر... وفي الساعة العاشرة عُقد اجتماع في الـــساحة الواقعـــة أمـــام قـــصر توريد... وانتخبت الوحدات وفدًا للذهاب إلى المجلس التنفيذي المركزي لعموم روسيا. وأعد الوفد نيابة عن الجنـــود المطالـــب التالية: ليسقط الوزراء البورجوازيون العشر! كل السلطة للسوفييت! أوقفوا الهجوم! مطاردة مطابع الصحف البرجوازية! تأميم الأرض! الإشراف على الإنتاج!". فإذا ما أسقطنا من حسابنا بعض التعديلات الطفيفة مثل "وحدات مـــن الأفـــواج" بـــدلاً مـــن "الأفواج"، و"عدد غفير من العمال" بدلاً من "عمال مصانع بأسرها" أمكننا القول بأن الصحيفة الرســـمية لتـــسيريتلي - دان لـــم تخطئ في وصف ما حدث، بل حددت بدقة خاصة بؤرتي المظاهرة: قصر كشيسينسكايا، وقصر توريد؛ إذ كانت الحركة تدور ماديًا ومعنويًا حول هذين المركزين المتصارعين، وكان المتظاهرون يأتون إلى قصر كشيسينسكايا طلبًا للتعليمات، وبحثًا عـــن الاتجاه والإيحاءات، على حين كانوا يذهبون إلى قصر توريد لتقديم المطالب، والتهديد بالقوة الموجودة.

* * *

وفي الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، وخلال انعقاد مؤتمر بلاشفة العاصمة العام في قصر كشيسينسكايا، حضر مندوبان من رماة الرشاشات وأعلموا البلاشفة بقرار التظاهر الذي اتخذه فوجهم. ولم يكن أحد ينتظـــر ذلـــك أو يرغـــب بـــه. وأعلـــن تومسكي: "لم تتصرف الأفواج التي تحركت بروح رفاقية جيدة، نظرًا لأنها لم تدع لجنة حزبنا لمناقشة هذه المـــسألة. وتقتـــرح اللجنة المركزية على المؤتمر ما يلي: ١- إصدار بيان لضبط اندفاع الجماهير، ٢- كتابة مذكرة إلى اللجنة التنفيذية تحثها على أخذ السلطة بين يديها. ولا يمكن التحدث الآن عن المظاهرة دون الرغبة بثورة جديدة". وكان تومسكي العامل العجوز البلشفي، الذي أثبت إخلاصه للحزب بسنوات السجن الطويلة، والذي غدا فيما بعد زعيمًا للنقابات، يميل بطبعه إلى الحد من المظـــاهرات بدلاً من إثارتها. ولكنه كان في هذه المرة يشرح فكرة لينين: لا يمكن التحدث الآن عن مظاهرة، إذا كنا نود في المستقبل القيام بثورة جديدة. لأن التوفيقيين اعتبروا حتى محاولة التظاهر السلمية في ١٠ يونيو (حزيران) وكأنها مؤامرة!

وأيَّدت غالبية المؤتمر فكرة تومسكي. وكان من الضروري تأجيل حل العقدة. إن الهجوم على الجبهة ينهك البلاد كلهـــا. وفشل هذا الهجوم محتمل تمامًا، كما أن من المحتمل أن تلقى الحكومة مسئولية الفشل على البلاشـــفة. ولا بُـــدَّ مـــن إعطـــاء التوفيقيين وقتًا للتورط نهائيًا. ورد فولودارسكي على رماة الرشاشات باسم المؤتمر، وقال بأن على الفـــوج أن يخـــضع لقـــرار الحزب. وخرج رماة الرشاشات وهم يحتجون. وفي الساعة الرابعة، أكَّدت اللجنة المركزية قرار المؤتمر. واتجه أعضاؤها إلى الأحياء والمصانع لمنع المظاهرات الجماهيرية. وأرسل بيان بهذا الصدد إلى البرافدا كيما تنشره في الصفحة الأولى لعدد اليوم التالي. وكُلف ستالين بنقل قرار الحزب إلى المجلس الموحد للجان التنفيذية. وهكذا لم تدع نوايا البلاشـــفة أي مجـــال للـــشك. ووجهت اللجنة التنفيذية بيانًا إلى العمال والجنود قالت فيه: "إن بعض المجهولين... يدعونكم للنزول إلى الشارع"، وكان قولهـــا هذا شهادة أكيدة بأن أي حزب من الأحزاب السوفييتية لم يشترك في هذه الدعوة. ولكن اللجان المركزية للأحزاب والـــسوفييت كانت تطرح وتقترح على حين كانت الجماهير تنفذ وتتصرف.

وفي حوالي الساعة الثامنة مساء، اقترب فوج الرشاشات وخلفه فوج موسكوفسكي من قصر كشيسينسكايا. وخرج بلاشفة شعبيون من أمثال نيفسكي، ولاشوفيتش، وبودفويسكي إلى الشرفة، وحاولوا إقناع الجنود بالعودة إلى ثكناتهم. ورد عليهم الجنود من الشارع "فليسقط!". ولم يكن البلاشفة الواقفون في الشرفة قد سمعوا الجنود يهتفون ضدهم من قبل بهذا الشكل. وكان هذا الموقف دليلاً سيئًا. ووراء الأفواج، ظهرت أمام عمال المصانع لافتات كتب عليها "كل السلطة للسوفييتات!" "فليسقط الوزراء الرأسماليون العشر!" إنها أعلام ١٨ يونيو (حزيران). ولكنها محاطة اليوم بالحراب. لقد غدت المظاهرة أمرًا له وزنه. فما العمل؟ هل يمكن أن يبقى البلاشفة بعيدين عن الوضع كله؟ وقرر أعضاء لجنة بتروغراد، ومندوبو المؤتمر، وممثلو الأفواج والمصانع ما يلي: مراجعة المسألة، ووضع حد لهذا التجاذب العقيم، وتوجيه الحركة التي بدأت باتجاه يجد للأزمة الحكومية حلاً يؤمن مصالح الشعب. وهذا يعني دعوة العمال والجنود للقيام بمسيرة سلمية نحو قصر توريد، وانتخاب مندوبين، وتقديم المطالب إلى اللجنة التنفيذية عن طريق هؤلاء المندوبين. ويتعهد أعضاء اللجنة المركزية الحاضرون بتعديل التكتيك.

وما أن أعلن القرار الجديد من شرفة القصر، حتى استقبله المتظاهرون بالهتاف والحماس، وأخذوا ينشدون المارسيليز. لقد أسبغ الحزب على الحركة صفة الشرعية، وبوسع رماة الرشاشات الآن أن يتنفسوا الصعداء. ودخل جزء من الفوج فورًا على قلعة بطرس وبولص للتأثير على حاميتها، وحماية قصر كشيسينسكايا عند اللزوم من ضربة توجه إليه من القلعة التي لا يفصلها عنه سوى قناة كرونفيرك الضيقة.

وسارت عناصر مقدمة المظاهرة في شارع نييفسكي، شارع البرجوازية، والبيروقراطية، والضباط، وكأنها في بلد أجنبي. وكانت آلاف النظرات السيئة تنصب عليها من الأرصفة والنوافذ والشرفات. وكان هذا الفوج يؤثر على هذا المصنع، وذاك المصنع يؤثر على هذا الفوج. وتدفقت جماهير جديدة باستمرار للاشتراك في المظاهرة وكانت كافة الرايات الحمراء ذات الكتابة المذهبة تحمل شعارًا واحدًا "كل السلطة للسوفييتات!". واحتلت المظاهرة شارع نييفسكي، واتجهت على شكل تيار جارف نحو قصر توريد. وأثارت لافتات "فلتسقط الحرب!" حنق الضباط وسخطهم. وكان من بينهم عدد من مشوهي الحرب. وتحدث الطالب والطالبة والموظف ولوحوا بأيديهم، وبحوا أصواتهم في محاولة لإقناع الجنود بأن عملاء ألمانيا الذين يقفون وراء ظهورهم، ودون فتح الطريق إلى بتروغراد أمام قطعات غليوم المتلهفة على خنق الحرية. وكان الخطباء يعتبرون حججهم دامغة لا تُنقض. وكان الموظفون يقولون عن العمال "لقد خدعهم الجواسيس!" ويحتج العمال بصوت أجش هادر. ويتابع الموظفون أقوالهم "لقد جرهم المهووسون!"، "إنهم جهلة" وكان الطرفان متفقين على هذه النقطة فقط.

ولكن للعمال أسلوبهم في قياس الأشياء. إنهم لم يتعلموا من الجواسيس الألمان الأفكار التي تدفعهم اليوم للتظاهر في الشارع. وأبعد المتظاهرون من طريقهم هؤلاء المتحدثين الطارئين، وتابعوا مسيرتهم إلى الأمام وأزعج هذا الأمر وطنيي شارع نييفسكي. وانقضت مجموعات صدمة وطنية، تحت قيادة مشوهي الحرب، أو فرسان القديس جورج على بعض مفارز المتظاهرين لانتزاع راياتها. ووقع العراك هنا وهناك، وارتفعت حرارة الموقف، وانطلقت الرصاصات من الجانبين ولم يكن أحد يدري هل انطلقت من نافذة أم من قصر أنيتشكين. ورد المتظاهرون السائرون على قارعة الطريق برشقة في الهواء دون أن يسددوا بأي اتجاه. وسادت الفوضى الشارع خلال فترة من الزمن. ويتحدث أحد عمال مصنع فولكان، عن أنه في حوالي منتصف الليل، وبينما كان فوج الحرس يسير في شارع نييفسكي قرب المكتبة العامة، انطلقت النيران من مكان مجهول، واستمرت عدة دقائق، فساد الهلع وتبعثر العمال في الشوارع الفرعية، وانبطح الجنود تحت النار؛ فلقد علمتهم مدرسة الحرب الشيء الكثير. وكان شارع نييفسكي في منتصف الليل، والجنود رماة القنابل منبطحون فيه على بطونهم تحت النار يقدم مشهدًا على غاية من الغرابة. إن بوشكين، وغوغول اللذين وصفا شارع نييفسكي، لم يتصوراه أبدًا بهذا الشكل! ومع هذا فقد كانت الصورة العجيبة المذهلة حقيقة واقعة، وسقط على أرض الشارع عدد من القتلى والجرحى.

* * *

وعاش قصر توريد حياته الخاصة. فبعد أن استقال الكاديت من الحكومة اجتمعت اللجنتان التنفيـذيتان: لجنـة العمـال والجنود ولجنة الفلاحين، ودرستا تقرير تسيريتلي حول مسألة معرفة كيف يمكن تنظيف معطف التآلف دون تعريـضه للبلـل. وكان من المحتمل انكشاف سر هذه العملية لو لم تمنع الضواحي المضطربة ذلك. وجاءت المكالمات الهاتفية معلنة بدء استعداد فوج الرشاشات للمسير، ونجم عن ذلك غضب الزعماء ونقمتهم. فهل يعقل أن العمال لم يعودوا قادرين على انتظـار القـرار المنقذ الذي ستأتي به الصحف. ونظرت الغالبية شذرًا إلى البلاشفة. واقترح كامنييف وعدد من ممثلـي الحـزب الموجـودين الذهاب بعد اجتماع ذلك اليوم إلى المصانع والثكنات لكبح جماح الجماهير. ولقد اعتبر التوفيقيون هذا الاقتراح فيما بعـد فخًـا مقصودًا. وأقرت اللجنتان التنفيذيتان على جناح السرعة بيانًا يعلن كالمعتاد بأن كافة المظاهرات تعتبر خيانة للثورة، ولكن كيف يمكن الخلاص من أزمة السلطة؟ ووُجد المخرج بعد قليل: الحفاظ على الوزارة كما هي رغم انسحاب الكاديت، وتأجيل النظـر في المسألة كلها، حتى تتم دعوة أعضاء اللجنة التنفيذية من المقاطعات. أفليس التأجيل، واكتساب الوقت، للخروج من التـردد، يمثلان أعقل السياسات وأكثرها حكمة؟

ولكن التوفيقيين كانوا يعتبرون أن ضياع الوقت غير مقبول في حالة واحدة هي الصراع ضد الجماهير. وابتدأ الجهـاز الرسمي العمل فورًا ضد الانتفاضة؛ ذلك لأنهم أطلقوا على المظاهرة هذا اللقب منذ البداية. وبحث الزعماء في كل مكان عـن قوة مسلحة لحماية الحكومة واللجنة التنفيذية. ووقع تشخيدزه وعدد من أعضاء البريزيديوم أوامر بعثت إلى مختلف المؤسسات العسكرية كيما تُرسل إلى قصر توريد سيارات مصفحة، ومدافع عيار ٣ عقدة، وذخائر. وتلقت كافة الأفواج في الوقـت نفـسه أمرًا بإرسال مفارز مسلحة للدفاع عن القصر. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل أسرع المكتب، وأبرق إلى الجبهة، إلى الجيش الخامس المتمركز قريبًا من العاصمة، "كيما يرسل إلى بتروغراد فرقة من الخيالة، ولواءً من المشاة، وعـددًا مـن الـسيارات المصفحة"، وبعد فترة طويلة من الزمن اعترف المنشفي فويتنسكي الذي كان آنذاك مكلفًا بحماية أمن اللجنة التنفيذية، بأن "يـوم ٣ يوليو (تموز) استخدم بأكمله لتجميع القطعات اللازمة لتدعيم قصر توريد... وكانت مهمتنا جمع عدة سرايا علـى الأقـل... ومرت لحظات أحسسنا فيها بأن القطعات تنقصنا تمامًا. وكان عند مدخل القصر مخفر يضم ٦ رجال. ولم يكن هـذا المخفـر قادرًا على منع اندفاع الجماهير..." ثم قال: "ولم يكن تحت تصرفنا في اليوم الأول للمظاهرة سوى مائة رجل، ولم يكن عنـدنا أية قوة أخرى. فبعثنا المفوضين إلى كافة الأفواج، وطلبنا منها أن ترسل الجنود لحراسة القصر... ولكن كل فوج كـان ينظـر إلى الأفواج الأخرى ليرى كيف ستتصرف. وكان علينا أن ننتهي من هذه الفضيحة بأي ثمن. فاستدعينا القوات مـن الجبهـة"، ويصعب على المرء أن يخترع عامدًا متعمدًا نقدًا أسوأ من هذه الأقوال ضد التوفيقيين. لقد طالب مئات الآلاف من المتظاهرين بانتقال السلطة للسوفييت. على حين عمل تشخيدزه القابع على رأي السوفييت، والمؤهل لدور رئيس الحكومة، إلى البحث عـن قوة مسلحة ضد المتظاهرين. وهكذا اعتبر الزعماء الحركة الرائعة في سبيل سلطة الديمقراطية هجومًا تقـوم بـه عـصابات مسلحة ضد الديمقراطية.

وبعد تأخير طويل، اجتمع في قصر توريد نفسه الفرع العمالي للسوفييت، الذي شهد في الشهرين الأخيـرين انتخابـات جزئية في المصانع أدَّت إلى تجديد أعضائه بشكل جعل اللجنة التنفيذية تخشى سيطرة البلاشفة عليه. وكـان تـأخير الاجتمـاع مقصودًا، ثم حدد التوفيقيون أنفسهم موعده قبل عدة أيام، وجاء الموعد متطابقًا بالصدفة مع موعد المظاهرة المـسلحة، وهنـا أيضًا اتهمت الصحف البرجوازية البلاشفة، واعتبرتهم مسئولين عن هذا التطابق. وقدم زينوفييف إلى الفرع العمـالي تقريـرًا شرح فيه بشكل مقنع أن التوفيقيين حلفاء البرجوازية لا يودون الصراع ضد الثورة المضادة، ولا يستطيعون ذلك، لأنهم يـرون

أن نشاط الثورة المضادة محصور ببعض مظاهر العنف التي يمارسها رجال المائة السود، لا في الـتلاحم الـسياسي للطبقـات المالكة الرامية إلى سحق السوفييتات، على اعتبارها مراكز مقاومة كافة الكادحين.

ووقع التقرير وقعًا حسنًا، وأحس المناشفة لأول مرة بأنهم يمثلون الأقلية على أرض سوفييتية، فاقترحوا عدم اتخـاذ أي قرار، والتوزع في الأحياء لحفظ النظام. ولكن مثل هذا العمل متأخر لا يجدي فتيلاً! وأدى انتشار نبأ وصول عمـال مـسلحين وجنود من فوج الرشاشات إلى قصر توريد، إلى وقوع هيجان كبير داخل القاعة. وصعد كامنييف إلى المنصة ليقول: "إننا لـم ندع إلى أية مظاهرة ولكن الجماهير الشعبية نزلت إلى الشارع بنفسها... وبما أن الجماهير قد خرجت، فإن مكاننا وسـطها... وإن مهمتنا الآن هي أن نعطي الحركة طابعًا منظمًا". وأنهى كامنييف كلامه، بأن اقترح انتخاب لجنة تضم ٢٥ شخصًا لقيـادة الحركة. ودعم تروتسكي هذا الاقتراح. وتشكك تشخيدزه أمام اللجنة البلشفية، وأصر على إحالة المـسألة كلهـا إلـى اللجنـة التنفيذية، ولكن إصراره ذهب أدراج الرياح. وأخذت المناقشات شكلاً مضطربًا. ولما اقتنع المناشفة والاشـتراكيون الثوريـون بأنه لن يكون لهم معًا أكثر من ثلث أصوات المجتمعين على أبعد تقدير، انسحبوا من القاعة.

وغدا هذا التصرف تكتيك الديموقراطيين المفضل؛ فلقد بدءوا يقاطعون السوفييتات منذ أن فقدوا الغالبية فيهـا. ووافـق على القرار القاضي بدعوة اللجنة التنفيذية المركزية لاستلام السلطة ٢٧٦ صوتًا بعد غيـاب المعارضـة. وحـصل البلاشـفة بالانتخاب على ١٥ عضوًا في اللجنة وتركت ١٠ مقاعد للأقلية، وستبقى هذه المقاعد شاغرة. وكان انتخاب لجنة بلشفية يعنـي بالنسبة للأصدقاء والأعداء أن الفرع العمالي في سوفييت بتروغراد غدا منذ تلك اللحظة قاعدة من قواعد البلشفية. إنها خطـوة كبيرة إلى الأمام. ففي إبريل (نيسان) كان البلاشفة يؤثرون على ثلث عمال بتروغراد فقط، وكان مكانهم في الـسوفييت آنـذاك محدودًا جدًا. أما الآن، وفي مطلع يوليو (تموز)، فقد أعطى البلاشفة للفرع العمالي حوالي ثلثي المنـدوبين، وهـذا يعنـي أن تأثيرهم وسط الجماهير غدًا حاسمًا.

وسارت أرتال العمال، والعاملات، والجنود في الشوارع المؤدية إلى قصر توريد وسط الرايات والأناشيد والموسـيقى. وظهرت المدفعية الخفيفة التي ألهبت قيادتها الحماس عندما أعلنت أن كافة بطاريات فرقتها تؤيد قضية العمال. وامتلأ الـشارع الواسع والساحة الفسيحة أمام قصر توريد بالناس. وكان الجميع يحاولون الاقتراب من منصة الخطابة القائمـة أمـام المـدخل الرئيسي للقصر. وظهر تشخيدزه أمام المتظاهرين بوجهه القاتم المكفهر، الذي يشبه وجه رجل أزعجه أن يترك أعمالـه بـلا جدوى. واستُقبل رئيس السوفييت الشعبي المشهور بصمت عدائي. وكرر صوت تشخيدزه المتعب الصدئ أقوالاً مألوفة، وأغانٍ قديمة. وجاء فويتنسكي لنجدته، ولكنه لم يحظ بتأييد أفضل. ويتحدث ميليوكوف عن هذا الاجتماع فيقول: "وعلى العكس، فما أن أعلن تروتسكي بأن اللحظة قد جاءت لأن تنتقل السلطة إلى السوفييتات، حتى استقبل بموجة حادة مـن التـصفيق..". إن هـذه الجملة غامضة بصورة مقصودة؛ إذ لم يقل أحد من البلاشفة أن "اللحظة قد جاءت". ويروي صانع أقفال من مـصنع دوفلـون الصغير في بتروغراد ما جرى في الاجتماع قرب جدران قصر توريد فيقول: "إنني لأذكر خطاب تروتسكي، الذي قـال بـأن الوقت لم يحن بعد للاستيلاء على السلطة". ويقدم صانع الأقفال معنى الخطاب بـشكل أفـضل مـن أسـتاذ التـاريخ. وعلـم المتظاهرون من شفاه الخطباء البلاشفة بالنصر الجديد الذي تحقق منذ هنيهة في الفرع العمالي، وأعطاهم هذا الأمـر إحـساسًا ملموسًا بالرضى، وكأنه مدخل لعصر السلطة السوفييتية.

وعقد الاجتماع الموحد للجنتين التنفيذيتين قبل منتصف الليل، وفي هذه اللحظة، كان رماة القنابل ينبطحون علـى أرض شارع نييفسكي. وتقرر بناء على اقتراح دان أن لا يبقى في المجلس إلا كل من يتعهد مسبقًا بالدفاع عـن المقـررات المتخـذة ويعمل على تنفيذها. إنه أسلوب جديد للحديث! لقد كان المناشفة يسمون السوفييت من قبل باسم برلمان العمال والجنود، ولكـن ها هم يحاولون تحويله إلى جهاز إداري بِيد الأكثرية التوفيقية. وعندما سيصبح التوفيقيون أقلية -وليس علينا أن ننتظر سـوى

شهرين- فإنهم سيدافعون عن الديمقراطية السوفييتية بحماس واندفاع. أما اليوم، فقد كانت البرجوازية مركونة على الرف كما هي الحالة عادة في جميع اللحظات الحاسمة للحياة الاجتماعية. وانسحب بعض أعضاء منظمة المناطق من الاجتماع احتجاجًا، وكان كافة البلاشفة غائبين؛ إذ كانوا يناقشون في قصر كشيسينسكايا طابع التصرف المطلوب في اليوم التالي. واستمر الاجتماع، وظهر مندوبو منظمة المناطق في القاعة ليعلنوا بأنه ليس هناك من يستطيع تجريدهم من موقعهم الذي وضعهم فيه الناخبون. وصمتت الغالبية، ونسي الجميع اقتراح دان دون أن يلحظ أحد ذلك. وطال الاجتماع وكأنه لحظات النزع الأخير، وكان التوفيقيون يتحدثون بأصوات منهكة، ويحاولون إقناع بعضهم بأنهم على حق. واشتكى تسيريتلي بصفته وزير البريد والبرق بقوله: "لقد علمت الآن بإضراب عمال البريد والبرق... أما فيما يتعلق بمطالبهم السياسية، فإنهم يرفعون الشعار نفسه: كل السلطة للسوفييتات!"...

وأصر مندوبو المتظاهرين المحيطين بقصر توريد من كل جانب على حضور الاجتماع. فسُمح لهم بالدخول، ولكنهم استُقبلوا بشيء من القلق والعداء. مع أن المندوبين كانوا يعتقدون بأن التوفيقيين مضطرون هذه المرة للقائهم. خاصة وأن صحف المناشفة والاشتراكيين الثوريين الصادرة في ذلك اليوم، والمتأثرة إلى حد بعيد باستقالة وزراء الكاديت، أشارت إلى مؤامرات الحلفاء البورجوازيين وتخريبهم. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أيَّد الفرع العمالي فكرة انتقال السلطة إلى السوفييت. فماذا ينظر أكثر من ذلك؟ ولكن النداءات الحماسية، التي يختلط فيها الضجر بالأمل سقطت عاجزة بلا جدوى وسط خمول البرلمان التوفيقي وذهوله.

ولم يهتم الزعماء إلا بشيء واحد: كيف يتخلصون من هؤلاء المتطفلين بأسرع ما يمكن؟ وطُلب من المندوبين الخروج مؤقتًا إلى ممرات القصر؛ لأن في إخراجهم إلى الشارع خطرًا ومغامرة لا تحمد عقباها. وسمع رماة الرشاشات من الشرفة بكل دهشة خلاصة المناقشات الجارية، والتي لا تستهدف سوى كسب الوقت؛ فلقد كان التوفيقيون ينتظرون قوات مضمونة. وأعلن دان: "إن في الشارع شعبًا ثوريًا، ولكن هذا الشعب يقوم بعمل مضاد للثورة..." وتحدث ابراموفيتش أحد زعماء البوند، والرجعي المتبجح المتضايق من الثورة، ودعم دان، وأكد رغم كل الدلائل المعاكسة: "إننا نشهد الآن مؤامرة"، ودعا البلاشفة إلى الاعتراف صراحة "بأنهم صنّاع هذه المؤامرة". وعمَّق تسيريتلي بحث المسألة: "هل يمكن أن نعتبر أن النزول إلى الشارع، والمطالبة بكل السلطة للسوفييتات يعنيان دعم السوفييتات؟ لو شاءت السوفييتات أن تستلم السلطة لانتقلت هذه السلطة إليها. فليس أمام إرادة السوفييتات أية حواجز في أية جهة... إن مثل هذه المظاهرات لا تسير باتجاه الثورة، بل باتجاه الثورة المضادة". ولم يستطع مندوبو العمال فهم هذا المنطق. وبدا لهم أن الزعماء الكبار مصابون بلوثة أكيدة. وفي نهاية المطاف أكد المجلس مرة أخرى بالإجماع تقريبًا ضد ١١ صوتًا أن المظاهرة المسلحة عبارة عن طعنة مسددة إلى ظهر الجيش الثوري... إلخ. وانتهى الاجتماع في الساعة الخامسة صباحًا.

وبدأت الجماهير تختفي رويدًا رويدًا داخل أحيائها. وتجولت السيارات المسلحة طوال الليل لتؤمن الاتصال بين الأفواج، والمصانع، ومراكز الأحياء. وتمامًا مثلما حصل في نهاية فبراير (شباط) اجتمعت الجماهير في الليل لتقييم المعركة التي وقعت خلال النهار. ولكنها تقوم الآن بهذا العمل بمشاركة جهاز معقد من التنظيمات: هي تنظيمات المصانع، والحزب، والقطعات العسكرية، المجتمعة باستمرار، واقتنعت مراكز الأحياء بأن أفضل الأمور أن لا تتوقف الحركة في منتصف الطريق. وأجلت اللجنة التنفيذية قرارها حول استلام السلطة. وفسرت الجماهير ذلك بأنه تردد ومماطلة. وكان الاستنتاج واضحًا، أن من الضروري القيام بضغط جديد. واجتمع البلاشفة ومندوبو منظمة المناطق ليلاً في قصر توريد بصورة متوازية مع اجتماع اللجنتين التنفيذيتين ولخصوا نتائج اليوم السابق، وحاولوا توقع ما سيحمله الغد من أحداث. وجاءت التقارير من المناطق تقول بأن مظاهرة النهار هزت الجماهير، وطرحت أمامها ولأول مرة مسألة السلطة بكل حرارتها. غدًا ستطالب المصانع والأفواج

بجواب شاف، ولن تستطيع أية قوة ضبطها في الضواحي. ولم تدر المناقشات حول مسألة ضرورة الدعوة، وعدم الدعوة إلى الاستيلاء على السلطة -كما أكد الخصوم ذلك فيما بعد- بل دارت حول ضرورة حل المظاهرة أو السير على رأسها منذ صبيحة الغد.

وفي الساعة الرابعة صباحًا اجتمع مصنع بوتيلوف أمام قصر توريد. وضمت الجماهير المحتشدة زهاء ٣٠ ألف شخص من بينهم عدد كبير من النساء والأطفال. وكان موكب المصنع قد تحرك في الساعة ١١,٠٠ مساء، وانضم إليه خلال الطريق عمال مصانع أخرى، وتجمع الناس عند أبواب نارفا رغم الساعة المبكرة. وكأنه لن يبقى في الحي (فيبورغ) أي شخص. وكانت النساء تصرخ: "ينبغي على الجميع أن يذهبوا... إننا سنقوم بحراسة المنازل...". وما أن قرع ناقوس كنيسة المنقذ (سباس)، حتى انطلقت عدة طلقات، وكأنها صادرة عن رشاش. وأطلق المسلحون في الشارع رشقة باتجاه برج الناقوس. ويصف العامل إيفيموف المشهد بقوله: "وعند الغوستيني دفور (ممر التجار) انقضت عصابة من اليونكرز والطلاب على المتظاهرين، وانتزعت لافتتهم. وقاوم العمال الهجوم، وتدافع الرجال، وأطلق أحدهم النار، وشجَّ رأس كاتب هذه السطور، وداست الأقدام صدره وضلوعه بعنف". واجتاز عمال بوتيلوف المدينة الصامتة، وبلغوا أخيرًا قصر توريد. وقبلت اللجنتان التنفيذيتان حضور وفد عن عمال المصنع بفضل تدخل ريازانوف الذي كان يرتبط آنذاك مع النقابات برباط وثيق. وتمددت جماهير العمال الجائعة المنهكة في الشارع وداخل الحديقة. واستلقى معظم المتظاهرين في أماكنهم بانتظار جواب ملائم. لقد كان مصنع بوتيلوف ينام على الأرض في الساعة الثالثة صباحًا حول قصر توريد، الذي ينتظر الزعماء الديموقراطيون فيه وصول قوات من الجبهة. هذه صورة من أكثر صور الثورة تأثيرًا في النفس، في هذه النقطة التي تحدد مسيرة الثورة بين فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول). وقبل ١٢ عامًا، شارك عدد من هؤلاء العمال أنفسهم في مظاهرة يناير (كانون الثاني) التي اتجهت إلى قصر الشتاء تحمل الأيقونات ورايات الكنيسة. وانقضت قرون منذ ذلك الأحد(1) وستمر قرون جديدة خلال الشهور الأربعة المقبلة.

وضغط ظل مصنع بوتيلوف النائم في الشارع ضغطًا قويًا على اجتماع الزعماء والمنظمين البلاشفة الذين كانوا يناقشون توقعات الغد. إن عمال بوتيلوف سيمتنعون عن الذهاب إلى العمل غدًا، وما هو العمل الذي سيقومون به بعد هذا السهر الطويل؟ ودُعي زينوفييف خلال ذلك إلى الهاتف للتحدث مع كرونشتادت. وأعلمه راسكولنيكوف من هناك بأن حامية الحصن ستتحرك منذ الصباح الباكر نحو بتروغراد، وليس هناك من يستطيع منعها أو الحد من اندفاعها. وبقي راسكولنيكوف معلقًا على الطرف الآخر من الخط الهاتفي: فهل يحتمل أن تأمره اللجنة المركزية للحزب بالتخلي عن البحارة، وسقوطه بنظرهم؟ وإلى صورة مصنع بوتيلوف المجتمع كله أمام القصر، أضيفت صورة جديدة لا تقل عنها أهمية: إنها صورة جزيرة البحارة التي تستعد في هذه الساعات لدعم عمال بتروغراد وجنودها. كلا، لم يعد هناك أي مجال للتردد، فالوضع واضح كل الوضوح. وسأل تروتسكي لآخر مرة: هل يمكن القيام بمحاولة ما لجعل المظاهرة مظاهرة غير مسلحة؟ كلا، إن من المستحيل بحث مثل هذا الأمر. لأن جماعة واحدة من اليونكرز قادرة على طرد عشرات آلاف الرجال العُزل، وكأنهم قطيع من الخرفان. وسينظر العمال والجنود بازدراء لهذه الدعوة، وسيعتبرونها فخًا للإيقاع بهم. وجاء الجواب حاسمًا ومقنعًا. وقرر الحاضرون بالإجماع القيام بدعوة المتظاهرين في اليوم التالي لمتابعة مظاهرتهم باسم الحزب. وبدد زينوفييف قلق راسكولنيكوف المتعلق بالهاتف. وبُدئ في الحال وضع نداء موجه إلى العمال والجنود: إلى الشارع!

وألغي نداء اللجنة المركزية لإيقاف المظاهرة، ولكن الوقت متأخر للاستعاضة عنه بنص جديد. وكانت الصفحة البيضاء التي ظهرت في البرافدا في اليوم التالي دليلاً ضد البلاشفة. وبدأت التفسير والتساؤلات: هل خافوا في آخر لحظة، فسحبوا نداءهم لشن الانتفاضة؟ أم أنهم تراجعوا عن ندائهم الأول الرامي إلى السير بمظاهرة سلمية بغية تصعيد الأمور ودفعها نحو

الانتفاضة؟ وجاءت كل هذه التكهنات المغرضة رغم ظهور قرار البلاشفة الحقيقي بمنشور خاص. وكان المنشور يدعو العمال والجنود "إلى القيام بمظاهرة سلمية منظمة تستهدف اللجنتين التنفيذيتين المجتمعتين عن إرادتهم" ولم يكن في هــذا أيــة دعــوة للانتفاضة!".

الهوامش

(*) Réginent de Grenadiers.

(*) بتروغراد.

١. "الأحد الدامي".

"أيام يوليو" نقطة الذُروة، وسحق المظاهرة

ومنذ هذه اللحظة انتقلت القيادة المباشرة للحركة نهائيًا إلى يدي لجنة الحزب في بتروغراد، والتي كـان فولودارسـكي محركها الأساسي. وألقيت مهمة تعبئة الموقع على عاتق التنظيم العسكري. وكان على رأس هذا التنظيم بلشفيان قديمان، قـدَّما جهودًا كبيرة لتطويره فيما بعد، وهما: بودفويسكي؛ وجه بارز من وجوه البلشفية، يتمتع بتقاطيع ثوري روسـي مـن الطـراز القديم، متخرج من المدارس الدينية، ويعمل بنشاط واسع المدى، رغم أن نشاطه غير منضبط، ويتمتع بخيال خلاق، كثيرًا مـا يتحول إلى نزوة أو هوى. وكان لينين فيما بعد يقول بتحبب ساخر حذر: "هذا عمل من أعمال بودفويسكي". ولكن سلبيات هـذه الطبيعة المضطرمة لم تظهر بصورة خاصة إلا بعد الاستيلاء على السلطة. عندما أعطت الوسائل والإمكانات الضخمة دفعـات كبيرة جدًا لقدرة بودفويسكي الهائلة، وميله للمشروعات المظهرية. أما في فترة الصراع الثوري للاستيلاء على الـسلطة، فـإن تصميمه المتفائل، وتضحيته، وقدرته على العمل بلا كلل، جعلت منه قائدًا لا مثيل له بين صفوف جماهير الجنود الواعية.

وكان البلشفي الثاني هو نفسكي، الذي كان في الماضي مدرسًا خصوصيًا. ويتمتع نفـسكي بتكـوين أقـل تفوقًـا مـن بودفويسكي، ولكنه لا يقل عنه إخلاصًا للحزب. وهو منظم سيئ جدًا، ولقد شاعت مساوئ الصدف أن يصبح بعد سنة، ولفتـرة محدودة، وزيرًا للمواصلات. وكان يجتذب الجنود إليه ببساطته، ودماثته، وميوله المرهفة. والتفت حول هذين القائدين مجموعة من المساعدين المقربين، تضم جنودًا وضباطًا صغار، لعب عدد كبير منهم فيما بعد دورًا هامًا. وفي ليلة ٣ - ٤ يوليو (تموز)، تقدم التنظيم العسكري فجأة ليحتل الصف الأول. واستلم بودفويسكي بلا عناء وظائف القائد، وتشكلت حوله هيئة أركان مؤقتـة. وأرسلت إلى كافة قطعات الموقع نداءات قصيرة وتعليمات موجزة. ولحماية المتظاهرين من الهجمات، أصدر التنظيم العسكري أمرًا بوضع السيارات المصفحة قرب الجسور التي تصل الضواحي بمركز العاصمة، وعند تقاطع الشوارع الرئيـسية. وكـان رماة الرشاشات قد مركزوا وحدة الحراسة منذ الليل أمام قلعة بطرس وبولص. واستُخدم الهاتف والمراسلون لنقل أنباء مظاهرة الغد إلى حاميات أورانيئبوم، وبيترهوف، وكراسنويه - سيلا، وعدد من المواقع المجاورة للعاصمة. وبقيت القيـادة الـسياسية العامة ولا شك بِيد اللجنة المركزية.

ولم يعد رماة الرشاشات إلى ثكناتهم إلا عند الصباح، وكانوا منهكين مقرورين رغم أننا كنا في يوليـو (تمـوز). وأدى هطول المطر في الليل إلى ابتلال العمال حتى عظامهم. ولم يجتمع المتظاهرون إلا في الساعة الحادية عشرة صباحًا. وخرجت القطعات متأخرة عن ذلك أيضًا. ونزل فوج الرشاشات الأول برمته إلى الشارع في هذا اليوم أيضًا. ولكنه لم يلعـب كـالأمس دور المحرض الأساسي. واحتلت المصانع مكان الصدارة. وانضم إلى المظاهرة عمال بعض المصانع التي لم تشترك بالأمس. وفي كل مكان تردد فيه الزعماء أو أبدوا معارضة ما، كان العمال الشبان يجبرون العضو المناوب في لجنـة المـصنع علـى إطلاق الصفارة إيذانًا بإيقاف العمل. وسار مع المظاهرة أربعة آلاف عامل من مجموع عمال مصنع البلطيق وعددهم خمـسة آلاف عامل يسود فيهم المناشفة والاشتراكيون - الثوريون. وتبدلت الحالة الفكرية بسرعة في مصنع الأحذية سكورخود، الـذي اعتبر خلال فترة طويلة قلعة من قلاع الاشتراكيين - الثوريين. وكان التبدل كبيرًا لدرجة جعلـت منـدوب المـصنع، وهـو اشتراكي - ثوري، يحجم عن الظهور أمام العمال خلال عدة أيام.

وأضربت كافة المصانع، وعُقدت الاجتماعات، وجرى انتخاب قادة المظاهرة، وانتخاب المنـدوبين المكلفـين بعـرض المطالب على اللجنة التنفيذية. واجتمع من جديد آلاف الرجال، واتجهوا نحو قصر توريد. وانحرف آلاف الرجال خلال الطريق واتجهوا نحو قصر كشيسينسكايا. وبدت حركة هذا اليوم أضخم من حركة اليوم السابق وأكثر منها فخامة وتنظيمًا، ولوحظت يد الحزب الذي يقودها. ولكن المناخ كان في هذا اليوم أشد حرارة؛ إذ أخذ الجنود والعمال يبحثون عـن حـل للأزمـة. وبقيـت

الحكومة تعيش خوفها. وكان عجزها في اليوم الثاني للمظاهرة أوضح من عجزها بالأمس. وكانت اللجنة التنفيذية تنتظر قدوم قوات "مضمونة"، وتتلقى من كل مكان تقارير تؤكد بأن قوات معارضة تتجه نحو العاصمة. فمن كرونشتادت، ونوفي - بترهوف، وكراسنويه - سيلا، وقلعة كراسنايا غوركا، ومن كافة النقاط المحيطة، يتحرك البحارة والجنود المسلحون برًا وبحرًا تتقدمهم الموسيقى، والأسوأ من ذلك كله أنهم يحملون لافتات بلشفية. وسارت بعض الأفواج مصطحبة معها ضباطها، تمامًا كما حصل في فبراير (شباط)، متظاهرة بأنها تشترك بالمظاهرة تحت أوامرهم.

ويتحدث ميليوكوف عن هذه الفترة فيقول: "لم يكن اجتماع مجلس الوزراء قد انتهى، عندما جاءت الأنباء من هيئة الأركان العامة بأن شارع نييفسكي شهد تبادل إطلاق النار. واتخذ المجتمعون قرارًا بنقل الاجتماع إلى هيئة الأركان. فهنا كان يوجد الأمير لفوف، وتسيريتلي، ووزير العدل بيريفيرسيف، وأمينا سر الدولة لوزارة الحربية. وجاءت لحظة بدا فيها موقف الحكومة يائسًا. وتلقت الحكومة من أفواج بريوبراجينسكي، وسيمينوفسكي، وإسماعيلوفسكي، التي لم تنضم لصف البلاشفة إعلانًا يؤكد أنها ستحافظ على "الحياد". ولم يكن في ساحة القصر قوة تدافع عن هيئة الأركان سوى مشوهي الحرب، وبضع مئات من القوزاق". وعلق الجنرال بولوفتسيف في صبيحة ٤ يوليو (تموز) على الجدران إنذارًا يقول بأنه سيتم تطهير بتروغراد من العصابات المسلحة، ويؤكد الإنذار بشدة أن على السكان أن يغلقوا الأبواب الرئيسية للمباني، وأن يبقوا في منازلهم، فلا يخرجون منها إلا عند الضرورة القصوى.

وظهر هذا الإنذار التهديدي وكأنه طلقة خلبية تُطلق في الهواء. إذ لم تستطع قيادة الفيلق أن تدفع ضد المتظاهرين سوى مفارز صغيرة من القوزاق واليونكرز. ولقد أثارت هذه المفارز خلال اليوم رمايات خرقاء، ومناوشات دامية. ويقول أحد ضباط فوج الدون الأول، الذي كان يحرس قصر الشتاء، في تقرير قدمه للجنة التحقيق ما يلي: "صدرت الأوامر بنزع سلاح المجموعات الصغيرة التي تمر أمامنا، مهما كان تركيبها، ونزع سلاح السيارات المسلحة. ولتنفيذ هذا الأمر كنا نخرج ما بين آونة وأخرى من القصر بتشكيلة القتال ونحن نعدو بسرعة، ونقوم بعملية نزع سلاح المتظاهرين..."، ويرسم حديث ضابط القوزاق البسيط بكل دقة موازين القوى، وصورة الصراع. لقد خرجت القطعات "المتمردة" من الثكنات بسرايا وكتائب، واحتلت الشوارع والساحات، على حين عملت القوات الحكومية بأسلوب الكمائن والإغارات، وشنت هجماتها بمفارز صغيرة، أي أنها استخدمت الأسلوب الذي تستخدمه عادة القوات غير النظامية والعصابات. ويمكن تفسير تبادل الأدوار بأن كافة قوات الحكومة تقريبًا كانت معادية لهذه الحكومة، أو أنها بقيت في أفضل الحالات محايدة. وكانت الحكومة تعيش على ثقة اللجنة التنفيذية، وكان مصير اللجنة التنفيذية نفسها مرتبطًا بأمل الجماهير في أن تحزم هذه اللجنة أخيرًا أمرها، وتستلم زمام السلطة.

ووصلت المظاهرات إلى ذروتها عندما ظهر بحارة كرونشتادت على أرض بتروغراد. وكان مبعوثو رماة الرشاشات قد عملوا داخل القلعة البحرية منذ العشية، وعُقد في ساحة لانكر وبمبادهة فوضويين قادمين من بتروغراد اجتماع مفاجئ لم تكن التنظيمات المحلية تتوقعه. ونادى الخطباء بنجدة بتروغراد. وتقدم طالب الطب روشال، وهو أحد أبطال كرونشتادت الشبان المشهورين في ساحة لانكر، وحاول إلقاء خطاب مهدئ. فانطلقت آلاف الأصوات لتقاطع كلامه. فتضايق روشال، المعتاد على أن تستقبله بشكل آخر، واضطر لترك منصة الخطابة. ولم تصل أنباء نداء البلاشفة في بتروغراد للنزول إلى الشارع إلا في الليل. وحسم وصول هذه الأنباء المسألة. وأعلن الاشتراكيون - الثوريون اليساريون؛ إذ لم يكن في كرونشتادت اشتراكيون - ثوريون يمينيون، وكان من المستحيل وجودهم، إنهم ينوون المشاركة في المظاهرة. وكان هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى نفس حزب كرنسكي الذي كان يجمع في ذلك الوقت القوات من الجبهة لسحق المتظاهرين.

وساد الاجتماع الليلي لمنظمي كرونشتادت وضع نفسي متوتر دفع حتى مفوض الحكومة المؤقتة الخجول بارتشيفسكي إلى التصويت على ضرورة السير نحو بتروغراد. ووُضعت الخطة، وعُبئ أسطول صغير للقيام بإنزال ذي طابع سياسي،

وقدمت مستودعات الذخيرة طنًا كاملاً من الذخيرة. وعند الظهيرة، دخل خليج النيفا مقطورات بحرية ومراكب ركاب بخارية وهي تحمل حوالي ١٠ آلاف بحار وعامل مسلح. ونزلت هذه القوة على ضفتي النهر، واجتمعت بموكب واحد، وسارت معلقة السلاح على الكتف، تتقدمها الموسيقى العسكرية. وسارت وراء مفارز البحارة والجنود أرتال تضم عمال أحياء بتروغراد وفاسيلي - أوستروف المختلطين مع سرايا الحرس الأحمر القتالية. وحمى مجنبات الموكب سيارات مصفحة. ورفرف فوق الرءوس عدد لا يحصى من الرايات واللافتات.

إن قصر كشيسينسكايا على بعد عدة خطوات. ووقف على شرفة القصر سفردلوف الرجل النحيل الأسمر الذي يشبه الأسفلت، والذي دخل اللجنة المركزية منذ مؤتمر إبريل (نيسان). وبدا عليه الانشغال كعادته، وأعطى من الشرفة أوامره بصوت جهوري: "ليتقدم رأس المظاهرة، ضموا الصفوف، اجمعوا المتأخرين". وتلقى المتظاهرون من شرفة القصر تحيات لوناتشارسكي المستعد دائمًا للتأثر بالجو العام المحيط به، والذي يعرف كيف يفرض نفسه على هذا الجو بتصرفه، وصوته، وبلاغته اللفظية التي لا تتمتع بالثقة دائمًا، ولكنها شيء لا غنى عنه. واستقبلته الجماهير من الشارع بعاصفة من التصفيق. ولكن المتظاهرين كانوا يودون سماع لينين قبل أي شخص آخر -وكان الحزب قد استدعى لينين في صبيحة هذا اليوم من ملجئه المؤقت في فنلندا- وأصرَّ البحارة لدرجة أرغمت لينين على الحديث رغم سوء صحته. وما أن ظهر القائد في الشرفة، حتى انطلق في الشارع هدير جارف، هدير كرونشتادت المتحمسة.

وانتظر لينين باضطراب وبصبر فارغ انتهاء التصفيق، وبدأ الحديث قبل أن تهدأ كافة الأصوات تمامًا. وكان خطابه الذي حاولت صحافة الخصوم فيما بعد النظر إليه من كل الوجوه خلال عدة أسابيع، يتضمن بضعة جمل بسيطة: تحية للمتظاهرين، والتعبير عن الثقة بأن شعار "كل السلطة للسوفييتات" سينتصر أخيرًا، والدعوة إلى المثابرة والحزم. وتابعت المظاهرة مسيرتها على صوت الموسيقى وسط هتافات جديدة. وبين بداية الحفل هذه، والمرحلة القريبة التالية التي سالت فيها الدماء، دخلت حادثة غريبة. ذلك أن زعماء كرونشتادت من الاشتراكيين - الثوريين، لاحظوا في ساحة مارس (ساحة الاستعراضات) أن لافتة اللجنة المركزية للبلاشفة تسير على رأس المظاهرة، وأن هذه اللافتة ظهرت بعد التوقف أمام قصر كشيسينسكايا، فأكلت الغيرة الحزبية قلوبهم، وطالبوا بإخفاء هذه اللافتة. ورفض البلاشفة ذلك. فأعلن الاشتراكيون - الثوريون أنهم سيتركون المظاهرة كلية. ومع هذا فلم يتبع الزعماء الاشتراكيون - الثوريون أي جندي أو بحار. وكانت جميع سياسة الاشتراكيين - الثوريين اليساريين تتمثل في هذه الترددات المتقلبة الهزلية حينًا، والمأساوية حينًا آخر.

وعند تقاطع شارع نيفسكي مع شارع ليتييني، تلقت مؤخرة المتظاهرين فجأة سيلاً من الرصاص. وسقط عدد من الضحايا. وكان تبادل إطلاق النيران أشد عند تقاطع شارع ليتييني مع شارع بانتيليئمونوفسكايا. ويذكر راسكولنيكوف الذي قاد رجال كرونشتادت الانطباع القوي الذي أصاب المتظاهرين أمام "المجهول: أين يقع العدو؟ ومن أين يطلق النار" وتشبث البحارة ببنادقهم، وبدأت الرماية منذ تلك اللحظة في جميع الاتجاهات. وسقط عدد من القتلى والجرحى. ولم يستتب شيء من النظام إلا بعد جهد جهيد. وتابع الموكب مسيرته على أنغام الموسيقى. ولكنه فقد كل حماسة المرح السابق. "وكان المتظاهرون يظنون أنهم يرون العدو مختبئًا في كل مكان. ولم تعد البنادق محمولة على الكتف الأيسر بشكل سلمي، ولكنها غدت مشرعة".

ووقع خلال النهار عدد كبير من المناوشات الدامية في كافة أرجاء المدينة. وكان جزء من هذه المناوشات ناجمًا عن سوء التفاهم، والفوضى، والهلع، وطلقات الرصاص المنطلقة بلا معنى، وتدخل هذه الأحداث الدامية في المصروفات الإضافية المحتومة في مسيرة الثورة التي تشكل بحد ذاتها مصروفات إضافية خلال التطور التاريخي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن عامل التحريض الإجرامي في أحداث يوليو (تموز) كان مؤكدًا. ولقد ظهر في هذه الأيام نفسها، ثم تأكد فيما بعد. ويتحدث بودفويسكي عن ذلك بقوله: "... وعندما بدأ الجنود المتظاهرون سيرهم في شارع نيفسكي والشوارع المجاورة التي يقطنها

البورجوازيون بصورة خاصة، بدت بوادر مشئومة للصدامات، وانطلقت الطلقات النارية من أماكن مجهولة، ومن قبل أشخاص لم يتمكن أحد من تحديدهم... وأحست الأرتال في بادئ الأمر بالاضطراب. ولم تمض لحظات حتى فتح أقل المتظاهرين حزمًا واعتدالاً النار بشكل غير منتظم".

وكتب المنشفي كانتوروفيتش في صحيفة الأزفستيا وصفًا للرمايات التي انصبت على أحد الأرتال العمالية فقال: "وسار في شارع سادوفايا حشد هائل يضم ستين ألف عامل، ينتمون إلى مختلف المصانع. وفي لحظة مرور المتظاهرين أمام الكنيسة، قُرعت الأجراس، وكأن ذلك كان إشارة متفق عليها؛ إذ انطلقت من الأسطح نيران البنادق والرشاشات. وعندما اندفعت جماهير العمال نحو الطرف الآخر من الشارع، انطلقت من الأسطح المجاورة طلقات نارية". إن السقائف والأسطحة التي ركز فراعنة بروتوبوبوف فيها الرشاشات خلال انتفاضة فبراير (شباط)، تستخدم الآن من قبل أعضاء تنظيمات الضباط. وكانت رمايتهم على المتظاهرين تستهدف إلقاء الذعر بين صفوفهم، وإثارة اصطدامات بين وحدات الجيش، ويبدو أنهم حققوا بعض النجاح في ذلك. وجرى تفتيش المنازل التي انطلقت منها الرمايات، وأدى ذلك إلى اكتشاف أعشاش الرشاشات وعدد من الرشاشات أيضًا.

وكان مسببو سفك الدماء الأساسيين هم جنود قوات الحكومة، العاجزة عن السيطرة على الحركة، والقادرة مع ذلك على الاستفزاز. وفي الساعة الثامنة مساء، وعندما كانت المظاهرات في أوجهها، تحركت سريتان من القوزاق، مع عدد من المدافع الخفيفة، لحماية قصر توريد. ورفض القوزاق بشدة التحدث مع المتظاهرين خلال الطريق، وكان هذا التصرف بادرة سيئة. واستولى القوزاق خلال مسيرتهم على عدد من السيارات المسلحة، وكانوا يجردون المفارز الصغيرة من سلاحها عندما يجدون ذلك ممكنًا. وكان ظهور مدافع القوزاق في الشوارع الغاصة بالعمال والجنود يمثل في حد ذاته استفزازًا لا يُحتمل. وبدا كل شيء منذرًا بحدوث اشتباكات. وقرب باب ليتييني جاء القوزاق مع جماهير متراصة من الخصوم الذين نصبوا على الطريق المؤدية إلى قصر توريد عددًا من المتاريس. وسادت لحظة من الصمت المشئوم، ثم اخترق الصمت صوت إطلاق النار من المنازل المجاورة. وكتب العامل ميتيليف عن هذا الصدام. "وأفرغ القوزاق أشرطة ذخيرة كاملة، وتبعثر العمال والجنود وراء المساتر، أو اكتفوا بالانبطاح أرضًا، وردوا على الرماية بالمثل. واضطر القوزاق إلى الانسحاب تحت نار الجنود. وحقق القوزاق خرقًا على ضفة نهر النييفا، وفتحوا نار المدفعية -ولقد أشارت الأزفستيا إلى أنهم أطلقوا ثلاث رشقات- ولكن الرمايات لاحقتهم وأجبرتهم على التراجع نحو قصر توريد. وصادفهم رتل عمالي فسدد إليهم ضربة قاضية. وترك القوزاق مدافعهم وخيولهم وبنادقهم، واختفوا في مداخل المنازل البرجوازية، وتبعثروا في كل صوب وحدب".

وكان اشتباك شارع ليتييني معركة حقيقية صغيرة، كما كان أكبر الأحداث القتالية في أيام يوليو (تموز)، ولقد وصفه عدد كبير من المتظاهرين في مذكراتهم. ويتحدث العامل بورسين من مصنع إيريكيسون، والذي كان سائرًا مع رماة الرشاشات بأنهم صادفوا فجأة "القوزاق الذين فتحوا النار بلا انتظار. فسقط عدد من العمال قتلى على الأرض. وأصابتني خلال هذا الاشتباك رصاصة اخترقت ساقي واستقرت في الساق الأخرى... وإنني لأحتفظ من أيام يوليو (تموز) بذكرى حية تتمثل بساق شوهاء وأخرى خشبية"... وقتل في صدام شارع ليتييني سبعة من القوزاق. وجُرح ١٩. وسقط من المتظاهرين ستة قتلى وحوالي ٢٠ جريحًا. وتناثرت جثث الخيول النافقة هنا وهناك.

ونحن نملك شهادة هامة قادمة من المعسكر الآخر. إنها شهادة ضابط القوزاق آفرين، الذي أخذ منذ الصباح يشن هجمات أنصار مفاجئة على قوات الثوار النظامية. وتقول الشهادة: "وفي الساعة الثامنة مساء تلقينا الأمر من الجنرال بولوفتسيف بإرسال سريتين من القوزاق مع مدفعين سريعي الطلقات إلى قصر توريد... وما أن وصلنا إلى شارع ليتييني، حتى لاحظت عمالاً وجنودًا وبحارة مسلحين.. فاقتربت من هذا الجمع مع مفرزة المقدمة، ورجوتهم أن يسلموا أسلحتهم. ولكن

دعوتي ذهبت أدراج الرياح. وهربت هذه العصابة كلها عبر الجسر متجهة نحو شارع فيبورغ. ولم أكن قد بدأت مطاردتهم بعد عندما استدار نحوي جندي قصير القامة لا يحمل أية رتبة، وأطلق عليّ النار دون أن يصيبني. وكان إطلاق هذه الرصاصة إشارة لبدء الرمي، فانصبت علينا النيران المتقطعة من كل جهة. وصرخت الجماهير: "القوزاق يطلقون النار علينا!". والحقيقة أن الوضع كان كما يلي: لقد ترجل القوزاق، وبدءوا إطلاق النار، وكانت هناك محاولة لاستخدام المدافع، ولكن الجنود صبوا على القوزاق رشقات من بنادقهم ورشاشاتهم، وأجبروهم على التراجع والتبعثر في المدينة".

وليس من المستغرب أن يكون الجندي قد أطلق النار على القوزاق: وكان على ضابط القوزاق أن ينتظر من جماهير يوليو (تموز) رصاصة لا مديحًا. ولكن الاحتمال الأصح هو الاحتمال الذي يذكره عدد كبير من الشهادات، ويؤكد أن الطلقات الأولى لم تأت من الشارع بل من بعض الكمائن. ويقول أحد جنود القوزاق التابعين لسرية الضابط نفسها بكل ثقة بأن جنود القوزاق تلقوا رصاصات منطلقة من قصر العدل، ومن عدة أبنية في شارع ساموركسي وشارع ليتييني. وذكرت صحيفة السوفييت شبه الرسمية، أن القوزاق تعرضوا قبل الوصول إلى شارع ليتييني لرمايات رشاشات متمركزة في منازل حجرية. ويؤكد الجندي ميتيليف، بأنه عندما فتش الجنود هذا المنزل، وجدوا في شقة أحد الجنرالات ذخيرة، ورشاشين وأشرطة رصاص.

وليس في هذا ما يثير الاستغراب. فقد كان القائد يستخدم كافة الأساليب المشروعة وغير المشروعة في زمن الحرب لجمع الأسلحة من كل نوع. وكان الميل لصب سيل من الرصاص على "الدهماء" كبيرًا جدًا. صحيح أن الطلقات أصابت القوزاق، ولكن من المؤكد أن رجال الثورة المضادة كانوا يطلقون النار بصورة مقصودة على قوات الحكومة خلال أيام يوليو (تموز)، لإجبارها على القيام بأعمال تأديبية قاسية. أما الضباط الذين كانوا يتمتعون بالأمس بسلطة غير محدودة، فقد كانوا يتصرفون خلال الحرب الأهلية بغدر وقسوة لا حدود لهما. وكانت بتروغراد تعج بمنظمات الضباط السرية ونصف السرية، الخاضعة لقيادة قوية، والمدعومة بعدد من الجنرالات. ولقد كشف المنشفي ليبر في حديث خاص قبل أيام يوليو (تموز) بشهر واحد، على أن الضباط المتآمرين كانوا على صلة وثيقة مع بوكانان. والحقيقة أن دبلوماسيي الحلفاء كانوا راغبين بإقامة سلطة قوية في أسرع وقت ممكن.

وفتش الليبراليون والتوفيقيون في كل اتجاه بحثًا عن يد "الفوضويين - البلاشفة"، وعن يد عملاء ألمانيا. وألقى العمال والجنود على عاتق الوطنيين الاستفزازيين بكل ثقة تبعة مناوشات يوليو (تموز)، وما نجم عنها من ضحايا. فما هي الحقيقة؟ إن أحكام الجماهير تحمل ولا شك بعض الأخطاء. ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن الجماهير عمياء وحمقاء. فهي على العكس حساسة واعية، وما أن تؤثر عليها الأمور مباشرة حتى تسجل الأحداث والافتراضات بآلاف الأعين والآذان، ثم تتحقق من الإشاعات بالتجربة، وتقبل بعضها، وترفض البعض الآخر. فإذا ما وجدنا عدة روايات متناقضة تتعلق بالحركات الجماهيرية، فإن أقرب الروايات إلى الصحة هي الرواية التي تمثلتها الجماهير نفسها؛ لذا فإن العلم لا يستفيد أي شيء من المخبرين الدوليين من أمثال هيبوليت تين، الذين يدرسون الحركات الشعبية الكبرى وهم يجهلون صوت الشارع، ويلتقطون ثرثرات الصالونات، الناجمة عن العزلة والخوف.

وحاصر المتظاهرون قصر توريد من جديد، وطالبوا بجواب شاف. وفي اللحظة التي حضر بها رجال كرونشتادت، طلبت جماعة ما، من تشيرنوف أن يقوم بمقابلة البحارة. وأحس تشيرنوف بالمناخ السائد وسط الجماهير، فألقى خطابًا قصيرًا، وتجاهل مسألة أزمة السلطة، وأبدى احتقاره للكاديت الذين استقالوا من الحكومة: "رحلة سعيدة!" وقاطعته الجماهير بالأسئلة: "لِمَ لَم تقولوا لنا هذا من قبل؟" ويؤكد ميليوكوف أن عاملاً طويل القامة لوح بقبضته أمام وجه الوزير صارخًا بغضب: "خذ السلطة يا ابن الكلبة عندما تقدم لك هذه السلطة!". وحتى لو اعتبرنا أقوال ميليوكوف مجرد حكاية، فإنها حكاية تكشف لنا بدقة قاسية

نوعًا ما، جوهر الوضع في يوليو (تموز). وليس لأجوبة تشيرنوف أية قيمة، وعلى أية حال، فإنها لم تكتسب قلوب رجال كرونشتادت...

وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، دخل أحدهم إلى قاعة اجتماعات اللجنة التنفيذية صارخًا بأن البحارة اعتقلوا تشيرنوف، وأنهم يضمرون له مصيرًا سيئًا. واضطربت اللجنة التنفيذية، وأرسلت لإنقاذ الوزير عددًا من أعضائها المرموقين، أغلبهم من الأمميين والبلاشفة. ولقد قال تشيرنوف فيما بعد أمام اللجنة الحكومية بأنه ما أن نزل من منصة الخطابة، حتى لاحظ وراء الأعمدة قرب المدخل حركة عدائية يقوم بها بعض الأفراد "وأحاطوا بي، ومنعوني من الوصول إلى الباب.. وكان الشخص المريب الذي قاد البحارة الذين قاموا باعتقالي يشير باستمرار لسيارة تقف على مقربة من المكان... وفي هذه اللحظة خرج تروتسكي من قصر توريد واقترب من السيارة التي حُجزت فيها، وصعد فوقها وألقى خطابًا قصيرًا". واقترح تروتسكي إطلاق سراح تشيرنوف، وطلب ممن لا يوافقون على ذلك أن يرفعوا أيديهم. "ولم ترتفع يد واحدة، عندها ابتعدت الجماعة التي قادتني إلى السيارة وهي غاضبة. وأعتقد أن تروتسكي قال: أيها المواطن تشيرنوف، ليس هناك من يمنعك من أن تعود إلى بيتك بحرية... إن هذه اللوحة العامة تجعلني على ثقة، من أن بعض المشبوهين العاملين من خارج جماهير العمال والبحارة، نظموا هذه المحاولة مسبقًا لاستدراجي واعتقالي".

وفي الاجتماع الموحد للجنتين التنفيذيتين، قال تروتسكي قبل اعتقاله بأسبوع واحد: ستدخل هذه الأحداث التاريخ. وسنحاول أن نصفها كما كانت... لقد شهدت عند المدخل جماعة من المشبوهين، فقلت للوناتشارسكي وريازانوف أنهم من رجال الأوخرانا الذين يحاولون الدخول إلى قصر توريد. (لوناتشارسكي من مكانه: "هذا صحيح"!)... وكان بوسعي أن أميزهم وسط جمهرة تضم عشرة آلاف شخص". وفي ٢٤ يوليو (تموز)، كان تروتسكي معتقلاً في غرفته الانفرادية في سجن كرستي (الصلبان) فكتب ما يلي: "... وقررت في بداية الأمر أن أخرج من بين الجماهير المحتشدة بالسيارة نفسها مع تشيرنوف ومن أرادوا اعتقاله كيما أتحاشى الصراعات والهلع بين الجماهير. ولكن الملازم البحار راسكولنيكوف هرع نحوي منفعلاً وقال: "هذا مستحيل... إذا ما ذهبت بالسيارة مع تشيرنوف، أدعى الجميع في الغد بأن بحارة كرونشتادت أرادوا اعتقاله. ولا بُدَّ من إطلاق سراحه فورًا". وما أن جلجل البوق داعيًا الحضور للصمت، وأعطاني إمكانية إلقاء خطاب موجز، حتى بدأت حديثي. ثم أنهيته بالسؤال التالي: "أن على من يقف إلى جانب العنف أن يرفع يده!"، عندها استطاع تشيرنوف العودة إلى القصر دون عائق".

وتكشف شهادتا الشاهدين الأساسيين اللذين كانا الشخصين الرئيسيين في الحادث حقيقة ما حدث. ولكن هذا لم يمنع الصحافة المعادية للبلاشفة من أن تطرح مسألة تشيرنوف. و"محاولة" اعتقال كرنسكي، كدليلين أكيدين لا يقبلان النقض على قيام البلاشفة بتنظيم انتفاضة مسلحة. ولم يتردد البعض من الإشارة خلال أحاديثهم وتحريضهم إلى أن تروتسكي كان وراء اعتقال تشيرنوف. ووصلت هذه الرواية إلى قصر توريد. ولقد شرح تشيرنوف نفسه بشكل صحيح تقريبًا تفاصيل توقيفه الذي دام نصف ساعة، وقدم ذلك كوثيقة سرية من وثائق التحقيق، ولكنه رفض إعطاء أي تصريح علني حول هذا الموضوع، حتى لا يحرم حزبه من استغلال الشائعات وإثارة الحقد ضد البلاشفة. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان تشيرنوف أحد أعضاء الحكومة التي زجت تروتسكي في سجن كرستي. وكان بوسع التوفيقيين حقًا أن يشيروا إلى أن مجموعة صغيرة من المتآمرين المشبوهين ما كانت لتجرؤ على القيام بمثل هذا العمل الجسور، واعتقال وزير وسط الجماهير، وفي رابعة النهار، لو لم تكن متأكدة من أن عداء الجمع المحتشد إزاء "الضحية" سيكون غطاء وتمويهًا كافيين. وكانت هذه هي الحقيقة إلى حد ما؛ إذ لم يقم أحد ممن كانوا حول السيارة بأية محاولة لتحرير تشيرنوف. ولو أن كرنسكي اعتقل في مكان ما آنذاك، لما حزن العمال أو الجنود لذلك؛ لذا فإن مشاركة الجماهير المعنوية في المحاولات الحقيقية والمختلفة ضد الوزراء الاشتراكيين كانت واقعة فعلاً.

وهذا ما جعل الاتهام ينصب على رجال كرونشتادت. ولكي يخرج التوفيقيون هذه الحجة بصراحة، وجدوا أنفسهم محرجين نظرًا لأن عليهم أن ينقذوا شيئًا من سمعتهم الديمقراطية. صحيح أنهم كانوا ينظرون إلى المتظاهرين بعداء، ولكنهم لم يتوقفوا عن معاندة نظام سوفييتات العمال، والجنود والفلاحين في قصر توريد المحاصر.

وفي حوالي الساعة الثامنة مساء، أعطى الجنرال بولوفتسيف عن طريق الهاتف شيئًا من الأمل للجنة التنفيذية؛ إذ كانت سريتان من القوزاق تتحركان مع المدافع نحو قصر توريد. وأخيرًا، وأخيرًا! ولكن الآمال تبددت في هذه المرة أيضًا. وجاءت المكالمات الهاتفية من كل مكان لتزيد الهلع: لقد اختفى القوزاق دون أن يتركوا وراءهم أثرًا، وكأنهم تبخروا مع خيولهم، وسروجهم، ومدافعهم سريعة الطلقات. ويذكر ميليوكوف أن "أولى نتائج النداءات التي وجهتها الحكومة للقطعات "بدأت بالظهور عند المساء؛ إذ تحرك الفوج ١٧٦ بسرعة بالغة لإنقاذ قصر توريد. إن هذه الرواية التي تبدو دقيقة جدًا، تمثل بشكل بالغ الغرابة سوء التفاهم الذي يقع دون شك في الحرب الأهلية، عندما يبدأ المعسكران المتنافسان يتقاسمان القوات.

ووصل فوج بالفعل إلى قصر توريد بملابس الميدان: الحقيبة على الظهر، والمعطف مطوي ومحمول على الكتف، والمطرة والمزودة على الجنب. وتبلل الجنود خلال الطريق حتى عظامهم، ووصلوا منهكين فلقد حضروا من كراسنويه - سيلا. وكان الحاضرون هم جنود فوج ١٧٦ فعلاً. ولكنه لم يعد مؤهلاً لإنقاذ الحكومة من ورطتها؛ فلقد تحرك الفوج بعد اتصالات مع مندوبي المناطق، وجاء تحت تأثير جنديين بلشفيين هما ليغينسون وميدفيديف، مطالبًا بوضع السلطة بين السوفييتات. وتلقى زعماء اللجنة التنفيذية الذين كانوا ينتظرون على أحر من الجمر نبأ يقول بأن لواءً جاء من بعيد بنظام كامل وتحت قيادة ضباطه يستعد للاستراحة تحت نوافذ القصر بعد الجهد الكبير الذي بذله. وطلب دان، الذي يرتدي لباس رائد - طبيب، من القائد أن يضع مخافر الحراسة لحماية القصر. ولم يمض وقت قصير حتى أخذ الحراس أماكنهم بالفعل. ويبدو أن دان أبدى رضاه أمام البريزيديوم، ومن هنا انتقل الأمر إلى تقارير الصحف. ويذكر سوخانوف في مذكراته، كيف قبل الفوج البلشفي تنفيذ أوامر الزعيم المنشفي بكل طاعة: دليل آخر على "سخف" مظاهرة يوليو (تموز)!

والحقيقة أن الأمر كان أبسط من ذلك وأشد تعقيدًا بآن واحد؛ إذ ما أن تلقى قائد الفوج الطلب بضرورة وضع الحراس حتى استدعى أحد مساعديه المناوبين الملازم الشاب بريغوروفسكي. ومن سوء حظه أن بريغوروفسكي كان بلشفيًا، وعضوًا في منظمة المناطق، وهذا ما دفعه لأن يأتي طالبًا مشورة تروتسكي الذي كان يشغل مع مجموعة صغيرة من البلاشفة مركز ملاحظة في صالة جانبية من صالات القصر. وقُدمت النصيحة لبريغوروفسكي بأن يضع الحراس فورًا حيث ينبغي أن يوضعوا؛ إذ أن من الأفضل أن يكون عند المداخل والممرات حراس من الأصدقاء لا من الأعداء. وهكذا فإن الفوج ١٧٦ الذي جاء للتظاهر ضد السلطة، لم يلبث أن حمى هذه السلطة ضد المتظاهرين. ولو كان الأمر عبارة عن انتفاضة مسلحة، لاستطاع الملازم بريغوروفسكي وأربعة من الجنود فقط اعتقال كافة أعضاء اللجنة التنفيذية دونما صعوبة. ولكن فكرة الاعتقال لم تطرأ على بال أحد. وقام جنود الفوج البلشفي بمهمة الحراسة بكل دقة ووجدان.

وعندما تم تكنيس سرايا الخيالة التي تعتبر الحاجز الوحيد على طريق قصر توريد، اعتقد كثير من المتظاهرين أن النصر قد تحقق. والحقيقة أن الحاجز الرئيسي كان كامنًا داخل قصر توريد نفسه. وحضر الاجتماع الموحد للجنتين التنفيذيتين الذي بدأ في الساعة السادسة مساء ٩٠ مندوبًا عن ٥٤٠ مصنعًا ومعملاً. وكان عدد المتحدثين في هذا الاجتماع خمسة. وبدأ الخطباء بالاحتجاج لأن نداءات اللجنة التنفيذية اتهمت المتظاهرين بأنهم جزء من الثورة المضادة. وقال أحدهم خلال حديثه: "أنظروا ماذا نقرأ على اللافتات. هذه هي القرارات التي أخذها العمال... إننا نطالب باستقالة الوزراء الرأسماليين العشرة. إننا نثق بالسوفييت، ولكننا لم نعد نثق بمن وضع السوفييت ثقته فيهم... إننا نصر على ضرورة مصادرة الأرض فورًا، وأن تتم مراقبة الإنتاج حالاً. كما نصر على ضرورة النضال ضد المجاعة التي تتهددنا.." وأضاف مندوب آخر: "ليس أمامكم عصيان

أو تمرد، بل مظاهرة منظمة كل التنظيم. إننا نطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين. كما نصر على ضرورة إلغاء التعليمات الموجهة ضد الجيش الثوري... والآن، وبعد أن رفض الكاديت العمل معكم، فإننا نسألكم مع من ستقومون بمباحثاتكم. ونُصِر على ضرورة انتقال السلطة إلى أيدي السوفييتات".

لقد غدت شعارات الدعاية في مظاهرة ١٨ يونيو (حزيران) شعارًا قتاليًّا تستخدمه الجماهير. ولكن التوفيقيين مربوطون الآن بشدة إلى عربة المالكين. وماذا تعني سلطة السوفييتات؟ إنها تعني قبل كل شيء السير بسياسة سلم جريئة، وقطع الصلة مع الحلفاء، وقطع الصلة مع برجوازية البلاد، والوقوع في العزلة التامة، والتعرض للكارثة بعد عدة أسابيع. كلا، إن الديمقراطية الواعية لواجبها لا تسير أبدًا على طريق المغامرات! وقال تسيريتلي "إن الظروف الحاضرة لا تسمح أبدًا باستخدام حلول جديدة في ظروف بتروغراد الحالية" ويبقى إذن ما يلي: "الاعتراف بالحكومة كما هي مشكَّلة... ودعوة مؤتمر استثنائي للسوفييتات بعد ١٥ يومًا، في مكان يسمح له بالعمل دون معوقات، وتعتبر موسكو أفضل الأماكن لهذا الغرض".

ولكن الاجتماع تعرض للمقاطعة باستمرار؛ إذ كان عمال مصنع بوتيلوف يقرعون باب قصر توريد بعنف. ولم يتحرك العمال بعنف إلا عند المساء، وبعد أن أنهكوا، وغضبوا، واهتاجوا. "تسيريتلي! اجلبوا تسيريتلي" وأرسلت جماهير تضم ٣٠ ألف رجل مندوبيها إلى القصر. وصرخ أحدهم من بين الجموع، بأنه إذا لم يشأ تسيريتلي الخروج بمحض إرادته، فإننا سنضطر إلى إخراجه بالقوة. وكان بين التهديد والعمل في تلك اللحظة مسافة غير قصيرة، ولكن الأمور بدأت تسير بشكل سيء، وهرع البلاشفة للتدخل بسرعة. ولقد تحدث زينوفييف فيما بعد عن ذلك فقال: "دعاني رفاقي لأن أذهب إلى عمال بوتيلوف... إنه محيط من الرءوس لم أشهد له مثيلاً. إن عشرات آلاف الرجال مكدسون هنا. واستمرت صرخات "تسيريتلي!"... وبدأت قولي: "لقد خرجت أنا بدلاً من تسيريتلي (ضحكات) وأنعش هذا الأمر أفكار الحاضرين. واستطعت إلقاء خطاب طويل نسبيًّا... ورجوت المستمعين في نهاية الخطاب أن يتفرقوا، بصورة سلمية، مع الحفاظ على نظام كامل، دون أن ينساقوا وراء الاستفزازات التي تثيرها تصرفات عدوانية (عاصفة من التصفيق)، عندها اصطف الرجال المجتمعون، وبدءوا يتفرقون، وتكشف هذه الحادثة بشكل واضح عنف غيظ الجماهير، وانعدام الخطة الهجومية عندها، والدور الحقيقي للحزب في أحداث يوليو (تموز).

وعندما كان زينوفييف يتحدث مع عمال بوتيلوف في الخارج، اندفعت إلى قاعة الاجتماع مجموعة كبيرة من مندوبيهم، وكان بعض المندوبين يحملون البنادق معهم. وارتعد أعضاء اللجنة التنفيذية في مقاعدهم. ولقد ترك سوخانوف صورة حية لهذه اللحظة المأساوية بأن كتب: "ولم يُبد بعض أعضاء اللجنة التنفيذية قسطًا كافيًا من الشجاعة وضبط النفس". ويتابع سوخانوف وصفه، فيقول بأن عاملاً "معدمًا[1] تقليديًّا" يعتمر قبعة العمال، ويرتدي قميصًا قصيرًا أزرق اللون بلا حزام، ويحمل بندقيته بيده" قفز إلى المنصة وهو يرتجف من الانفعال والغضب... "هل سنحتمل نحن العمال الخيانة طويلاً؟ إنكم تتفاهمون مع البرجوازية والملاكين الزراعيين... إننا نحن، عمال مصنع بوتيلوف، نعد هنا ٣٠ ألف شخص وسنحصل على ما نريد..."، وأحس تشخيدزه بأن هناك بندقية موجهة إليه، فعرف كيف يضبط نفسه. ومال بهدوء من مقعده، ودس في يد العامل المضطربة نداء مطبوعًا: "خذ أيها الرفيق، خذ هذا أرجوك، واقرأه. إننا نقول فيه ما ينبغي أن يفعله الرفاق في مصنع بوتيلوف...". ولم يكن النداء يقول شيئًا سوى أن على المتظاهرين أن يعودوا إلى بيوتهم، وإلا كانوا خونة للثورة. وماذا كان بوسع المناشفة أن يقولوا أكثر من ذلك؟

واحتل زينوفييف مكانة كبيرة في غمرة الاضطراب السائد تحت جدران قصر توريد، كما احتل هذه المكانة بصورة عامة في دوامة الاضطراب التي سادت في تلك الفترة. وكان زينوفييف في الحقيقة خطيبًا يتمتع بقوة نادرة. وكان صوته الواضح الحاد يدهش المستمعين في بادئ الأمر، ثم لا يلبث أن يجتذبهم بموسيقاه العجيبة. إن زينوفييف محرض بدمه. وكان

يعرف كيف يحس بإحساس الجماهير، ويتحرك بانفعالاتها، ويجد لمشاعرها وأفكارها تعبيرًا مشوشًا إلى حد ما، ولكنـــه جـــذاب أخّاذ. وكان الخصوم يقولون بأنه أكبر ديماغوجي في صفوف البلاشفة. وكان هذا يجعله يدفع ثمن قدرته على التسلل إلى قلـــب ديموس، واللعب بأوتاره. وليس بوسعنا أن ننكر أن كون زينوفييف محرضًا فقط دون أن يكون مُنَظِّرًا، أو إستراتيجيًّا ثوريًّـــا، كان يدفعه عند غياب الانضباط الخارجي إلى الانزلاق بسهولة نحو الديماغوجية، لا بالمعنى المبتذل للكلمة، بل بمعناها العلمي، أي الميل إلى التضحية بالمصالح البعيدة في سبيل تحقيق نجاحات فورية. وكان امتلاك زينوفييف لحاسة المحرِّض يجعل منـــه مستشارًا ثمينًا جدًا في اللحظات التي يتطلب فيها الموقف إجراء تقييم سياسي سريع دون التعمق إلى أبعد من ذلك. وكان قـــادرًا على إقناع رفاقه في اجتماعات الحزب، واكتسابهم إلى جانبه، وسحرهم، وذلك عندما يطرح فكرة معدلة ومنقَّحة في اجتماعات الجماهير، ومشبعة بآمال العمال والجنود وأحقادهم. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان زينوفييف قادرًا على التأثير وسط الاجتماعـــات المعادية، بل ووسط اللجنة التنفيذية آنذاك. وذلك لأنه يعطي لأكثر الأفكار تطرفًا وانفجارًا شكلاً مقبولاً، فيدخلها بذلك إلى أدمغة أولئك الذين ينظرون إليه بحذر مسبق.

ولم يكن يكفيه للوصول إلى هذه النتائج الرائعة أن يعرف بأنه محق، بل كان بحاجة لأن يعرف معرفة أكيدة بأنه معفـــى من المسئولية السياسية بقبضة متينة صلبة. وكأن هذه الضمانة تأتيه من لينين. وما أن يتسلح زينوفييـــف بـــصيغة إســـتراتيجية جاهزة، ويعرف أعمق أعماق المسألة، حتى يندفع بمهارة وقدرة على الإحساس بالوضع، فـــيملأ الـــصيغة بتـــساؤلات حيـــة، واحتجاجات، ومطالب، ملتقطة في اللحظة نفسها من الشارع أو المصنع أو الثكنة. وكان يشكل في مثل هذه اللحظـــات جهـــازًا مثاليًّا لنقل الأفكار من لينين إلى الجماهير، ومن الجماهير إلى لينين جزئيًّا. وكان زينوفييف يتبع أستاذه دائمًا، باستثناء حـــالات محدودة قليلة العدد. ولكن ساعة الخلافات جاءت في اللحظة التي تقرر فيها مصير الحزب، والطبقة، والبلاد. ولـــم يكـــن هـــذا المحرض الثوري يتمتع بقسط وافر من الشخصية الثورية. وكان يعمل كمناضل دءوب لا يعرف الكلل، طالما أن عمله متعلـــق باكتساب العقول والنفوس، ولكن ما أن يجد نفسه مضطرًا للعمل الفعَّال حتى يفقد فورًا كل قدرته على التصرف. إنـــه يتراجـــع فجأة أمام الجماهير المصممة وأمام لينين، ولا يعرف كيف يتصرف إلا أمام الأصوات المترددة، وتتجمع كل الشكوك في داخله، ولا يرى أمامه سوى الحواجز ويفقده صوته الحاد شبه النسائي قدرته على الإقناع، ويكشف ضعفه الداخلي. ولقد كان زينوفييف خلال أيام يوليو (تموز) فعالاً، خلاقًا، قويًّا إلى حد بعيد تحت جدران قصر توريد؛ إذ كان يدفع هياج الجماهير إلى أعلى درجة ممكنة.. لا لحثها على القيام بأعمال حاسمة، بل لمنعها على العكس من القيام بهذه الأعمال، بشكل يتلاءم مع الظروف وسياسة الحزب. وكان زينوفييف في المكان الملائم له حقًا.

وأدَّت معركة شارع ليتييني إلى خلق انعطاف مفاجئ في تطور المظاهرة. ولم يعد أحد ينظر إلى الموكب من النوافذ أو الشرفات. وتجمع الوجهاء والمرموقون في المحطات، وتركوا المدينة. وتحول الصراع في المدينة إلى مناوشات هنـــا وهنـــاك دون هدف محدد. ووقعت خلال الليل اشتباكات مباشرة بالأيدي بين المتظاهرين والوطنيين، وكان تجريد الناس من سلاحهم يتم حسب الصدف. وأخذت البنادق تنتقل من يد إلى يد. وكانت جماعات من جنود الأفواج التي حطمت الصف تعمل في هذه الجهة وتلك. ويقول بودفويسكي "إن أشخاصًا مشبوهين ومحرضين مدسوسين تسللوا بين الجنود وأخـــذوا يـــدفعونهم للقيـــام بأعمـــال فوضوية". وكانت جماعات البحارة والجنود تقوم بحملات تفتيشية عنيفة خلال البحث عن مـــسببي الرمايـــات المنطلقـــة مـــن المنازل. وقام البعض بالنهب هنا وهناك باسم التفتيش. وبدأت عملية مطاردة اليهود وتعذيبهم. وكان التجـــار يتجمعـــون فـــي الأحياء التي يحسون فيها بقوتهم، وينقضون على العمال، ويشبعونهم ضربًا. ويتحدث أفاناسييف العامل فـــي مـــصنع نـــوفي - ليسنر عن ذلك فيقول "وانطلقت صرخات: "اضربوا اليهود والبلاشفة، ارموهم في الماء!" فاندفعت الجماهير نحونـــا، وأخـــذت تضربنا بعنف" ومات أحد ضحايا هذا العنف في المستشفى. والتقط البحارة أفاناسييف نفسه من قناة إيكاتيرينيتـــسكي، بعـــد أن ضربته الجماهير، وأسالت دمه، وألقت به في الماء...

واقتصرت الحركة على صدامات، وضحايا، وصراع بلا نتيجة، يستهدف الوصول إلى هدف عملي لا يمكن تحقيقه. وقررت اللجنة المركزية البلشفية دعوة العمال والجنود إلى إيقاف المظاهرة. ونقل هذا القرار فورًا إلى اللجنة التنفيذية، ولم يلق أية مقاومة تقريبًا في صفوف القاعدة. واتجهت الجماهير نحو الضواحي دون أن يكون لديها الاستعداد لمتابعة الصراع في اليوم التالي. وأحست بأن مسألة سلطة السوفييت أعقد بكثير مما اعتقدته من قبل.

ورفع الحصار عن قصر توريد بصورة نهائية. وبقيت الشوارع المجاورة خالية مهجورة. ولكن اللجان التنفيذية تابعت السهر مع توقيف الاجتماعات، وإلقاء خطابات طويلة بلا معنى أو هدف. ولقد تبين فيما بعد أن التوفيقيين كانوا ينتظرون شيئًا. وقتل الضجر مندوبي المصانع والأفواج وهم ينتظرون في الأبنية المجاورة. ويتحدث ميتيليف: "وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ونحن ننتظر "حلاً"... وكنا نتألم من التعب والجوع، ونتجول في قاعة الكسندروفسكي... وفي الساعة الرابعة من صباح الخامس من يوليو (تموز) انتهت آمالنا؛ إذ اجتاز عدد كبير من الضباط والجنود المسلحين باب قصر توريد الرئيسي بصخب" وجلجلت في كافة أرجاء المبنى موسيقى المارسيليز النحاسية. وأثار قرع الأحذية وضجيج الآلات الموسيقية في هذه الساعة الصباحية انفعالاً غريبًا داخل قاعة الاجتماعات. ووقف النواب فجأة في أماكنهم. خطر جديد؟ ولكن دان تحدث من المنصة قائلاً: "أيها الرفاق" هدئوا من روعكم! ليس هناك أي خطر! إن الأفواج القادمة مخلصة للثورة".

نعم، لقد جاءت أخيرًا القوات "المضمونة" التي طال انتظارها. واحتلت الممرات. وانقضت بعنف على بعض العمال الذين بقوا في القصر، وانتزعت سلاح المسلحين منهم، واعتقلتهم، وذهبت بهم إلى السجون. وصعد إلى المنصة الملازم المنشفي المعروف كوتشين بلباس الميدان. وعانقه رئيس الجلسة دان مهنئًا وسط نغمة النصر التي تعزفها الموسيقى، وأحس التوفيقيون بحماس بالغ، فصبوا حمم نظراتهم الظافرة على اليساريين، وأمسكوا بأيدي بعضهم، وأخذوا ينشدون المارسيليز بأعلى أصواتهم. وهمهم مارتوف القادر على مراقبة الأمور وفهمها بسرعة. "هذا هو المشهد التقليدي لبداية ثورة مضادة!". ويمكن أن نفهم المعنى السياسي للمشهد الذي وصفه سوخانوف بشكل أفضل، إذا تذكرنا أن مارتوف كان من حزب دان، الذي يمثل هذا المشهد بالنسبة له انتصارًا كبيرًا للثورة.

وعندما لاحظ الجناح اليساري السعادة الغامرة التي اجتاحت الغالبية بدأ يفهم إلى أي مدى انعزل الجهاز الأعلى للديمقراطية الرسمية عندما نزلت الديمقراطية الحقيقية إلى الشارع. لقد اختفى هؤلاء الأشخاص في الكواليس خلال ٣٦ ساعة ليتصلوا عن طريق الهاتف بهيئة الأركان، وكرنسكي القابع في الجبهة، وليطالبوا بإرسال القطعات، وليواجهوا النداءات، ويقنعوا الآخرين، ويتوسلوا، ويرسلوا المحرضين، وينتظروا من جديد. لقد زال الخطر، ولكن الخوف لا يزال قائمًا. إن قرع أحذية الجنود "المخلصين" في الساعة الخامسة صباحًا يرن في آذانهم كسيمفونية الخلاص. وانطلقت من منصة الخطابة أخيرًا، خطابات صريحة حول سحق التمرد المسلح، وحول التخلص من البلاشفة في هذه المرة بصورة نهائية.

ولم تأت القوات التي دخلت قصر توريد من الجبهة كما اعتقد الكثيرون لأول وهلة: بل جاءت من قوات حامية بتروغراد. واختير معظم أفرادها من كتائب ثلاثة أفواج تعتبر من أشد أفواج الحرس تخلفًا. وهي أفواج بريوبراجينسكي، وسيمينوفسكي، وإسماعيلوفسكي. وكانت هذه الأفواج قد أعلنت حيادها في ٣ يوليو (تموز). وحاولت الحكومة واللجنة المركزية عبثًا إخراجها عن حيادها، ولكن الجنود انتظروا بغيظ داخل ثكناتهم. ولم تكتشف السلطات وسيلة قوية للتأثير عليهم إلا بعد ظهيرة يوم ٤ يوليو (تموز)؛ إذ طرحت أمام رجال فوج بريوبراجينسكي وثائق تؤكد بصورة لا تدع مجالاً للشك بأن لينين جاسوس يعمل لحساب ألمانيا. ونجح هذا العمل. وانتشر النبأ في الأفواج. وقام الضباط وأعضاء لجان الأفواج، ومحرضو اللجنة التنفيذية بزيادة الحماس وتوجيهه. وتبدل رأي الأفواج المحايدة بصورة مفاجئة. وعند الفجر، ولما لم تعد السلطة بحاجة لأية قوة عسكرية، اجتمعت الأفواج واتجهت عبر الشوارع الخالية نحو قصر توريد الذي أخلاه المتظاهرون. وعزفت

المارسيليز موسيقى فوج إسماعيلوفسكي، (ذلك الفوج الذي كان أكثر الأفواج رجعية من قبل، الأمر الذي دفع الحكومة القيصرية إلى تكليفه في ٣ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٠٥ باعتقال أعضاء أول سوفييت لمندوبي العمال الذي كان يجتمع في بتروغراد برئاسة تروتسكي). إن مخرج التاريخ الأعمى يلاقي عند كل خطوة ضربات مسرحية مفاجئة لم يكن يتوقعها، إنه يكتفي بترك الأعنة لمنطق الأشياء.

وعندما أخليت الشوارع من الجماهير، حرَّكت الحكومة الثورية الشابة أعضاءها الكسيحة؛ فاعتقلت مندوبي العمال، وصادرت الأسلحة، وقطعت أحياء المدينة عن بعضها. وفي الساعة السادسة صباحًا، توقفت أمام المبنى الذي تشغله هيئة تحرير البرافدا سيارة مملوءة باليونكرز والجنود، وعلى ظهرها رشاش وجَّهه الرماة فورًا نحو النافذة. وما أن انصرف هؤلاء الزوار المفاجئون، حتى كان منظر إدارة التحرير يوحي بالدمار والخراب. لقد حطم اليونكرز أدراج المكاتب، وتناثرت المخطوطات الممزقة على الأرض، وقُطعت أسلاك الهاتف. وتعرض حراس المكتب ومستخدموه لضرب مبرح قبل اعتقالهم. وتم التخريب والنهب على نطاق أوسع في المطبعة التي جمع العمال التبرعات لتأسيسها في الأشهر الثلاثة الأخيرة، ودُمرت آلات النسخ، وآلات الطبع، ومعدات صف الحروف. حقًا لقد كان البلاشفة مخطئين، عندما اتهموا حكومة كرنسكي بالعجز وانعدام الفاعلية!

ويقول سوخانوف: "وعادت الشوارع بمجملها إلى حالتها الطبيعية. ولم يعد هناك أية تجمعات أو اجتماعات خارجية تقريبًا، وافتتحت معظم المخازن أبوابها" وانتشر منذ الصباح الباكر نداء البلاشفة الذي يدعو إلى إيقاف المظاهرة، وكان هذا آخر ما نشرته المطبعة قبل تدميرها. وأوقف اليونكرز والقوزاق في الشوارع عددًا من الجنود والبحارة والعمال، وأرسلوهم إلى السجن أو مخافر الشرطة. وتحدث الناس في المخازن وعلى الأرصفة عن الأموال الألمانية. وأخذت السلطات تعتقل كل من يجرؤ على ذكر البلاشفة بكلمة طيبة. ويقول سوخانوف: "لم يعد أحد يستطيع التصريح بأن لينين رجل شريف، فإذا ما فعل أحدهم ذلك، سيق إلى المفوضية"، ويبدو سوخانوف هنا كعادته، مراقبًا دقيقًا لما يجري في شوارع البرجوازية، والأنتليجنسيا، والبرجوازية الصغيرة.

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف في الأحياء العمالية؛ إذ لا تزال المصانع والمعامل متوقفة عن العمل. والأفكار قلقة مشوشة. وتقول الشائعات بأن بعض القوات ستأتي من الجبهة. وتغص شوارع حي فيبورغ بمجموعات تناقش السلوك الواجب إتباعه إذا ما تعرض الحي للهجوم. ويقول ميتيليف: "إن الحرس الأحمر، وشباب المصانع بصورة عامة، أخذوا يستعدون للدخول إلى قلعة بطرس وبولص بغية دعم المفارز المحاصرة فيها. وكانوا يخفون القنابل اليدوية في جيوبهم، وأحذيتهم الطويلة، وعلى صدورهم، ويجتازون النهر بالقوارب أو عبر الجسور". ويقول عامل المطبعة سميرنوف من حي كولومنا في مذكراته: "ورأيت أن عدة مقطورات نهرية جاءت على النييفا محملة بالحرس البحري قادمة من دودورهوف وأورانيبوم. وفي الساعة الثانية توضَّح الموقف، وأخذ اتجاهًا سيئًا... ورأيت كيف أخذ البحارة يعودون إلى كرونشتادت منعزلين عبر مسالك متباعدة... وترددت إشاعة قوية تقول بأن البلاشفة جواسيس يعملون لحساب ألمانيا. وبدأت عمليات قمع دنيئة..." ويوجز المؤرخ ميليوكوف الصورة بكل رضى عندما يقول: "لقد تبدل الرأي العام وتركيب الجماهير المحتشدة في الشوارع تبدلاً كليًّا. وغدت بتروغراد عند المساء هادة تمامًا".

وتمكنت هيئة أركان المنطقة بالتعاون مع سياسة التوفيقيين من إخفاء نواياها طالما أن القوات لم تجد الوقت الكافي للقدوم من الجبهة. وفي النهار حضر إلى قصر كشيسينسكايا للتفاوض مع زعماء البلاشفة أعضاء من اللجنة التنفيذية وعلى رأسهم ليبر، وكانت هذه الزيارة دليلاً على توفير النوايا السلمية. وتوصل المجتمعون إلى اتفاق يتعهد البلاشفة بموجبه بإعادة البحارة إلى كرونشتادت، وسحب سرية الرشاشات من قلعة بطرس وبولص، وسحب السيارات المصفحة ومجموعات الحراسة

من مواقعها. على أن تقوم الحكومة من جهتها بمنع أية عملية تعسفية ضد اليهود، وعدم الانتقام من البلاشفة، وإطلاق ســراح كل من تم اعتقالهم، باستثناء من ارتكبوا جرائم ضد الحق العام. ولكن الاتفاق لم يدم طويلاً؛ فمع انتشار أنباء الأموال الألمانية، وإشاعات قرب وصول القطعات من الجبهة، ظهرت في المواقع وحدات كبيرة وصغيرة تذكرت ولاءها وإخلاصها للديمقراطية وكرنسكي. وأرسلت هذه الوحدات مندوبيها إلى قصر توريد أو إلى هيئة أركان المنطقة. وأخيرًا بدأت مفارز عسكرية تأتي من الجبهة فعلاً.

وازدادت شراسة الحالة الفكرية السائدة بين التوفيقيين ساعة بعد أخرى. واستعدت القوات القادمة من الجبهة لشن صراع دامٍ يطهر العاصمة من عملاء قيصر ألمانيا. ولكن القوات وصلت بعد أن اختفت الضرورات التي استوجبت استدعاءها، وكان لا بُدَّ من تبرير هذا الاستدعاء. وبذل التوفيقيون جهودًا كبيرة كيلا يتعرضوا لشكوك الجيش، وأخذوا يحــاولون إقنـــاع القــادة العسكريين بأن المناشفة والاشتراكيين - الثوريين كانوا يقفون معهم وفي صفهم. وأن البلاشفة يمثلون العدو المشترك. وعنــدما حاول كامنييف تذكير أعضاء بريزيديوم اللجنة التنفيذية بالاتفاق المعقود قبل ساعات، رد عليه ليبــر بــصوت رجــل الدولـــة المهيب: "لقد تبدلت الآن موازين القوى"، ويقول لاسال في محاضراته المبسطة أن ليبر كان يعلم بأن المدفع عنصر أساسي من عناصر الدستور.

واستدعى وفد بحارة كرونشتادت وعلى رأسه راسكولنيكوف أكثر من مرة للمثول أمام اللجنة العسكرية التابعــة للجنــة التنفيذية؛ حيث كانت المتطلبات تتزايد ساعة بعد أخرى حتى وصلت إلى إنذار نهائي أطلقه ليبر وأكد فيه ضــرورة: الموافقــة فورًا على تجريد رجال كرونشتادت من سلاحهم. ويتحدث راسكولنيكوف عن ذلك فيقول: "وعند الخروج من اجتمــاع اللجنــة العسكرية تابعنا مشاورتنا مع تروتسكي وكامنييف. ونصحنا ليف دافيدوفيتش (تروتسكي) بأن نرسل بحارة كرونــشتادت فــورًا وبصورة سرية إلى معسكراتهم. واتخذنا القرار بإرسال الرفاق إلى ثكناتهم، وإعلام البحارة عن النية المتجهة لنزع ســلاحهم". وانصرف معظم رجال كرونشتادت في الوقت الملائم، ولم يبق سوى مفارز صغيرة في كشيسينسكايا وقلعة بطرس وبــولص. ومنذ ٤ يوليو (تموز)، كان الأمير لفوف قد أعطى إلى الجنرال بولوفتسيف بمعرفة الوزراء الاشتراكيين وموافقتهم، أمرًا خطيًّا "لاعتقال البلاشفة الذين يحتلون قصر كشيسنسكايا، وإخلاء هذا المنزل، ووضع قوات موالية فيه".

والآن، وبعد نهب المطبعة ومقر هيئة التحرير، أصبحت مسألة مصير مقر قيادة البلاشفة مطروحة بشدة. وعين التنظيم العسكري راسكولنيكوف رئيسًا لمقر القيادة. ففهم مهمته بشكل واسع، على غرار فهم المهمات في كرونشتادت، وطالب بإرسال المدافع، كما طالب بأن يقف عند مصب النييفا مركب حربي صغير. ولقد فسر راسكولنيكوف فيما بعد هذا التصرف بقوله: "لقد قمت من ناحيتي بالطبع بإعدادات عسكرية، ولكنني فعلت ذلك لتأمين الدفاع إذا ما اضطررنا لذلك، خاصة وأنني لم أشــم فــي الجو رائحة البارود فحسب، بل شممت رائحة أعمال قمع واسعة النطاق... واعتبرت، وكنت محقًا في ذلك على ما أعتقــد، أن جلب مركب جيد إلى خليج النييفا، سيجعل الحكومة المؤقتة تتراجع حتمًا عن قرارها"، وكل هذا غير دقيق، وغير جــاد. ومــن الأجدر أن نفترض بأن زعماء التنظيم العسكري بما فيهم راسكولنيكوف، لم يتمكنوا في ٥ يوليو (تموز) من أن يقدروا حقيقــة انعطاف الموقف. وفي الوقت الذي كان على المظاهرة المسلحة به أن تسرع بالتراجع، كيلا تنقلب إلى عصيان مسلح يفرضـــه الخصم، قام بعض القادة العسكريين ببضع خطوات تتسم بالمغامرة والتهور.

ولم تكن هذه أول مرة يتجاوز فيها زعماء كرونشتادت الشباب الحدود المعقولة. ولكن هل يمكــن القيــام بــالثورة دون مشاركة رجال يتجاوزون الحدود المعقولة؟ أفليس في الأعمال البشرية الكبيرة بالضرورة قسط معين مــن الحماقــة؟ واقتــصر الأمر في هذه الحالة على أوامر لم تلبث أن أُلغيت من قبل راسكولنيكوف نفسه. وجاءت إلى مقر قيادة البلاشفة أخبار مزعجــة قتالية؛ فلقد رأى أحدهم في نوافذ منزل يقع على الضفة المقابلة رشاشات مصوبة نحو قصر كشيسينسكايا، ولاحظ شخص آخــر

أن رتلاً من السيارات المصفحة يسير في الاتجاه نفسه، وأعلن رجل ثالث عن اقتـراب دوريـات القـوزاق. وبعـث التنظـيم العسكري شخصين للتفاوض مع قيادة المنطقة العسكرية. وأكد بولوفتسيف للمندوبين أن نهب البرافدا تم دون علمه، وأنه لا يعد أية عمليات انتقامية ضد التنظيم العسكري. والحقيقة أنه كان ينتظر قدوم قوات كافية من الجبهة للبدء بالعمل.

وعندما كانت كرونشتادت تتراجع، كان أسطول البلطيق بمجمله في مرحلة إعداد الهجـوم. وكانـت غالبيـة مراكـب الأسطول تقف في المياه الفنلندية، وتحمل حوالي ٧٠ ألف بحار. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان في فنلندا فيلق كامل. وكان مصنع ميناء هلسنغفورز يضم ١٠ آلاف عامل روسي. لقد كانت قبضة الثورة هناك مخيفة. وكان ضغط البحارة والجنود قويًا لدرجـة جعلت لجنة الاشتراكيين - الثوريين في هلسنغفورز تعارض الائتلاف. كما أن كافة الأجهزة السوفييتية للأسطول والجيش فـي فنلندا طالبت بالإجماع، أن تستلم اللجنة التنفيذية المركزية السلطة بيدها. وكان رجال البلطيق على استعداد للتحـرك فـي أيـة لحظة نحو خليج النييفا بغية دعم مطالبهم. ولم يكن هناك ما يمنعهم سوى خوف من إضعاف خط الدفاع البحري، بشكل يـسمح للأسطول الألماني بمهاجمة كرونشتادت وبتروغراد.

ولكن جري هنا شيء غير متوقع أبدًا؛ إذ أن اللجنة المركزية لأسطول البلطيق "تسنتروبالت" دعت لجان المراكب في ٤ يوليو (تموز) لعقد اجتماع استثنائي قام فيه رئيس اللجنة ديبنكو بعرض أمرين سريين حديثين تلقتهما قيادة الأسـطول. وهمـا يحملان توقيع دوداريف نائب وزير البحرية، وينص الأمر الأول: أن على الأميرال فرديرفسكي أن يرسل إلى بتروغراد أربعة مراكب قاذفة للصواريخ، لتمنع بالقوة إنزال العصاة القادمين من كرونشتادت. ويفرض الأمر الثاني على قائد الأسـطول أن لا يسمح لأي مركب بترك هلسنغفورز والتوجه إلى كرونشتادت لأي سبب كان. وأن لا يتـأخر اسـتخدام الغواصـات لإغـراق المراكب التي ترفض الخضوع للأوامر. ووجد الأميرال نفسه بين نارين، ورأى أن عليه أن ينقذ جلده قبل كل شيء، فبادر إلى نقل البرقيتين إلى التسنتروبالت، وأعلن بأنه سيرفض تنفيذ هذين الأمرين حتى ولو أقرتهما التسنتروبالت. وختمتهما بخاتمها.

وأقلقت قراءة البرقيتين البحارة. والحقيقة أنهم كانوا يشتمون كرنسكي والتوفيقيين بشدة في كل مناسبة. ولكن هذا الأمـر كان يمثل بنظرهم صراعًا داخليًا في وسط السوفييتات. لأن الأغلبية في اللجنة التنفيذية المركزية بِيد الأحزاب التي طالب فـي لجنة فنلندا الإقليمية بنقل السلطة إلى السوفييتات. إن الأمر واضح، ويستحيل أن يأمر المناشفة أو الاشـتراكيون - الثوريـون بإغراق المراكب المؤيدة لسلطة اللجنة التنفيذية، فكيف استطاع الضابط البحار العجوز دوداريف أن يتدخل في الجدل الـداخلي الدائر داخل السوفييتات، ليحوّل هذا الجدل إلى معركة بحرية؟ لقد كانت المراكب الضخمة بالأمس معتبرة بصورة رسمية كدعم للثورة، على عكس قاذفات الطوربيدات التي يسود فيها فكر متخلف، والغواصات التي لم تؤثر عليها الدعاية السياسية إلا بشكل جد محدود. وهل يمكن أن تكون السلطات مستعدة الآن جديًا لإغراق المراكب بواسطة الغواصات! إن من الـصعب أن تـدخل مثل هذه الأفكار في عقول البحارة العنيدة.

ولكن الأمر بدا لهم وكأنه منبعث من كابوس مزعج، لم يكن هذا الأمر في يوليو (تموز)، سوى النبته الناجمة عما بُـذر في مارس (آذار). ومنذ إبريل (نيسان) بدأ المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يَستَعْدُون الأقاليم ضد بتروغـراد، ويـستثيرون الجنود ضد العمال، ويُعدون الخيَّالة للعمل ضد رماة الرشاشات. وأمَّنوا تمثيل السرايا في السوفييتات بشكل يمتاز عـن تمثيـل المصانع. ووضعوا في القيادة المصانع الصغيرة المبعثرة لا مصانع التعدين الضخمة. لقد كانوا يمثلون الماضي القريب، وهـذا ما جعلهم يبحثون عن الدعم لدى المتخلفين من كل صنف، ولما تعثروا استثاروا المؤخرة ضد الطليعـة. إن للـسياسة منطقهـا وخاصة في زمن الثورة. وأحس التوفيقيون أنهم محاصرون من كل جانب، فوجدوا أنفسهم مُكـرهين علـى إجبـار الأميـرال فرديرفسكي على إغراق المراكب التي يسود فيها فكر أكثر تقدمًا. ومن سوء حظ التوفيقيين أن الأفكـار المتخلفـة التـي أراد

التوفيقيون الاستناد إليها كانت تحاول مسايرة الأفكار المتقدمة. وأحس بحارة الغواصات إزاء أمر دوداريف بسخط لا يقل عن سخط بحارة الدارعات.

وكان على رأس التسنتروبالت أشخاص لا يتمتعون بطبع مشابه لطبع هاملت(٢)؛ لقد اتفقوا مع أعضاء لجان المراكب، واتخذوا دون أن يضيعوا لحظة واحدة القرار التالي: على قاذف الطوربيدات أورفي المحدد لإغراق رجال كرونشتادت أن يذهب إلى بتروغراد لسببين: **أولهما**: جمع المعلومات عما يجري هناك، **وثانيهما**: "اعتقال نائب وزير البحرية دوداريف"، ومهما بدا هذا القرار مفاجئًا وغير متوقع، فإنه يؤكد بقوة واضحة إلى أي مدى كان بحارة البلطيق ميَّالين إلى اعتبار التوفيقيين كخصوم داخليين، وكيف كانوا يعتبرون أن دوداريف عدو مشترك. ودخل أورفي خليج النييفا بعد وصول ١٠ آلاف من بحارة كرونشتادت المسلحين بأربع وعشرين ساعة. ولكن "موازين القوى كانت قد تبدلت". ومُنع البحارة من النزول إلى الشاطئ طوال النهار. وفي المساء فقط سُمح لوفد يضم ٦٧ بحارًا من التسنتروبالت ومن بحارة الأسطول بحضور الاجتماع الموحد للجنتين التنفيذيتين، الذي كان يقيّم النتائج الأولى لأيام يوليو (تموز). وكان الظافرون يعيشون وسط مرح انتصارهم الجديد. ولقد وصف فويتسنكي في تقريره بكل رضًى ساعات الضعف والمذلة، ليجسم فيما بعد بكل وضوح الانتصار الذي تلى ذلك. وهو يقول في تقريره: "كانت السيارات المصفحة أول وحدة جاءت لنجدتنا. وكنا قد قررنا بشدة أن نفتح النار إذا ما لجأت العصابة المسلحة إلى استخدام القوة ضدنا... ولما رأينا فداحة الخطر الذي يهدد الثورة، أصدرنا الأوامر لبعض القطعات (من الجبهة) كيما تركب القطارات، وتحضر إلينا..."، وكانت غالبية المجلس الأعلى تغلي حقدًا على البلاشفة عامة، والبحارة بصورة خاصة.

وفي هذا الجو النفسي وصل مندوبو البلطيق، يحملون مذكرة توقيف بحق دوداريف. واستقبل المنتصرون قرار أسطول البلطيق عند قراءته بصرخات وحشية، وبضجيج من ضرب القبضات على الطاولات، وقرع الأرض بالأقدام: توقيف دوداريف؟ ولكن القائد الرائع لم يفعل شيئًا سوى أنه قام بواجبه إزاء الثورة التي كان هؤلاء البحارة، المتمردون، المضادون للثورة يسددون لها طعنة في الظهر. واتخذ المجتمعون قرارًا خاصًا أبدوا فيه تضامنهم مع دوداريف. وفتح البحارة عيونهم باستغراب، وهم ينظرون إلى الخطباء، وأخذوا يتبادلون النظرات فيما بينهم. لقد بدءوا الآن فقط يفهمون حقيقة ما يجري أمامهم. وتم اعتقال الوفد كله في اليوم التالي. وأتم هذا الوفد توعيته السياسية في السجن. ثم تم اعتقال رئيس التسنتروبالت ديبنكو الذي جاء بعد سماع أخبار اعتقال زملائه. واستُدعى الأمير فرديرفسكي إلى العاصمة لتقديم بعض الإيضاحات.

وفي صبيحة ٦ يوليو (تموز) عاد العمال إلى أعمالهم. ولم يعد في الشوارع سوى القوات القادمة من الجبهة. وأخذت مفارز مكافحة التجسس تدقق البطاقات الشخصية، وتعتقل المواطنين ذات اليمين وذات اليسار. ولقد قتل العامل الشاب فوينوف في الشارع عندما كان يوزع صحيفة ليستوك برافدي التي ظهرت محل صحيفة البرافدا، بعد نهب إدارتها وتدمير مطابعها. ويُعتقد أن القتلة من جماعة مكافحة التجسس. ووجدت العناصر الرجعية من المائة السود فرصتها المنشودة بسحق العصيان. وبدأت عمليات النهب والعنف، واستمر تبادل إطلاق النار هنا وهناك في كافة أرجاء المدينة. ووصلت خلال النهار أنساق عسكرية متتابعة: فرقة خيالة، وفوج قوزاق الدون، وفرقة أوهلانس، وفوج أيزبورسكي، وفوج الروسي الصغير، وفوج خيالة خفيفة، ووحدات متعددة أخرى. وذكرت صحيفة غوركي "بأن موقف قطعات القوزاق التي وصلت بأعداد غفيرة كان عدائيًّا". وفُتحت نيران الرشاشات على فوج ايزبورسكي فور وصوله في نقطتين من المدينة. واكتُشف في الحالتين بأن الرشاشات مربَّصة في السقائف. ولكن مسببي الرمايات بقوا مجهولين. وأُطلقت النار على القوات خلال إنزالها في أماكن أخرى أيضًا. وضايقت هذه الرمايات الحمقاء المقصودة العمال إلى حد بعيد. وكان من الواضح أن عددًا من المحرضين المحنكين المدسوسين

يستقبلون الجنود بالرصاص لاستشارتهم ضد البلاشفة. وبذل العمال قصارى جهودهم بغية شرح ذلك للجنود القادمين، ولكـنهم مُنعوا من الاقتراب، ولأول مرة منذ فبراير (شباط) وقف اليونكرز أو الضابط بين العامل والجندي.

واستقبل التوفيقيون الأفواج القادمة بمرح ظاهر. وفي اجتماع مندوبي القطعات، وبحضور عـدد كبيـر مـن الـضباط واليونكرز، تحدث فويتنسكي بصوت مؤثر: "والآن، تسير القطعات والسيارات المصفحة في شارع ميليونايا، متجهة نحو ساحة القصر، لتضع نفسها تحت تصرف الجنرال بولوفتسيف. هذه هي القوة الحقيقية التي نعتمد عليها". وألحق بقيادة المنطقة أربعـة اشتراكيين للعمل كتغطية سياسية وهم: أفكسانتييف، وغوتز من اللجنة التنفيذية، وسكوبوليف وتشيرنوف من الحكومة المؤقتـة. ولكن هذا لم ينقذ القائد؛ فلقد تبجح كرنسكي فيما بعد أمام الحرس الأبيض بأنه ما أن عاد من الجبهة خلال أيام يوليو (تمـوز)، حتى سرح الجنرال بولوفتسيف "لقلة حزمه".

والآن أصبح من الممكن حل المعضلة التي أجلت طويلاً: تدمير عش البلاشفة القائم في قصر كشيسنسكايا. إن في الحياة الاجتماعية بصورة عامة، وفي زمن الثورة بصورة خاصة، أعمالاً من الدرجة الثانية تحتل أهمية كبيرة، نظرًا لأنها تؤثر على الأفكار بطابعها الرمزي. وهذا ما جعل الكثيرين يبالغون خلال الصراع ضد البلاشفة بأهمية "اسـتيلاء" لينـين علـى قـصر كشيسنسكايا، راقصة البلاط، التي يرجع الفضل في شهرتها إلى علاقاتها مع رجال أسرة رومانوف أكثـر ممـا يرجـع لفنهـا وإبداعها. وكان مسكنها جزءًا من المكاسب التي أمنتها لها هذه العلاقات. التي بدأت على ما يبدو من قبل نيقولا الثاني، منذ أن كان وليًا للعهد. وكانت البرجوازية الصغيرة قبل الحرب تتحدث كثيرًا عن هذا البيت القائم في مقابلة قـصر الـشتاء، وتـذكر المقابلات الراقية الفخمة، وأحذية ضباط الحرس ذات المهاميز، والمجوهرات المتلألئة. ولكن حديثها كان مشوبًا باحترام حاسد. ثم أخذ الناس يقولون خلال الحرب: "إن هذه لسرقة". وكان الجنود يتحدثون عن ذلك بشكل أكثر حدة أيـضًا. ومـا أن غـدت راقصة الباليه متوسطة السن، حتى أقلعت عن الرقص، والتجأت إلى العمل السياسي. ويتحدث رودزيانكو عن ذلك بقوله: "يشير القائد الأعلى (عم القيصر نيقولا نيقولا ييفيتش) إلى أنه يعرف تأثير راقصة الباليه كشيسينسكايا على شئون سـلاح المدفعيـة. وتدخلها للسماح لبعض المؤسسات بتحقيق عدد من الصفقات". وليس من المستغرب أن قصر كشيسنسكايا المهجور لـم يحـظ بمحبة الشعب بعد الانتفاضة. وفي الوقت الذي بدأت فيه الثورة تتطلب الأبنية وتطالب بها بلا انقطاع، عجزت الحكومـة عـن التعرض لأي مسكن شخصي. إن مصادرة خيول الفلاحين في سبيل الحرب أمر يختلف كل الاخـتلاف عـن قيـام الثـورة بمصادرة المساكن الشخصية الخالية من السكان. ولكن الجماهير الشعبية كانت تحاكم الأمور بشكل مختلف تمامًا.

وعند البحث عن بناء ملائم، وقعت فرقة السيارات المصفحة الاحتياطيـة فـي مطلـع مـارس (آذار) علـى قـصر كشيسينسكايا؛ فاحتلته؛ إذ كان لدى راقصة الباليه مرآب جيد. وتخلت الفرقة بمحض إرادتها عن الطابق العلوي من البناء كيمـا تشغله لجنة بلاشفة بتروغراد. وتدعمت صداقة البلاشفة مع جنود السيارات المصفحة بصداقتهم الوطيدة مع رماة الرشاشـات. ومر احتلال القصر في بداية الأمر، وقبل قدوم لينين بعدة أسابيع، دون أن يلفت انتباه أي إنسان. ولكن النقمـة علـى شـاغلي القصر تزايدت يومًا بعد يوم، مع تزايد تأثير البلاشفة. وبدأت الصحف تتحدث عن أن لينين ينام في غرفة راقصة الباليـه، وأن أثاث القصر قد دُمر ونُهب. ولم يكن ذلك سوى دسائس وأكاذيب؛ إذ كان لينين يقطن في منزل أخته المتواضع. كمـا أن قيـادة المبنى جمَّعت الأثاث وجردته ووضعته في حرز أمين. ولقد زار سوخانوف القصر يوم وصول لينين، ووصف المكان بـشكل يستحق الاهتمام: "كان لغرف راقصة الباليه الشهيرة مظهر غريب يثير العجب؛ إذ لم تكن السقوف والجدران الساحرة متلائمـة مع الأثاث البسيط، أو الطاولات والكراسي والمقاعد البدائية، الموضوعة كيفما اتفق، شريطة أن تحقق الفائدة المطلوبـة منهـا. والغرف قليلة الأثاث، فلقد رُفع أثاث كشيسنسكايا الخاص من مكانه...".

وتجاهلت الصحف مسألة فرقة السيارات المصفحة بحذر، وأظهرت لينين وكأنه المسئول الأول عن استخدام القوة لمصادرة منزل راهبة مسالمة من راهبات الفن. وشغلت هذه الفكرة عددًا من الخطب والمقالات. إن العمال والجنود الموحلين القذرين يعيشون بين المخمل، والحرير، والسجاد! وأبدت كل أوكار العاصمة تذمرها وضيقها من هذا الموقف. وكما حمَّل الجيرونديون في الماضي اليعاقبة مسئولية مذابح سبتمبر (أيلول)، واختفاء المرتبات من ثكنة عسكرية، والدعاية لصالح القانون الزراعي؛ فإن الكاديت والديموقراطيين يتهمون البلاشفة بخرق قواعد الأخلاق الإنسانية، والبصاق على الأرضية الخشبية لقصر كشيسينسكايا. وغدت راقصة البلاط رمزًا لثقافة تداس بالأقدام، وبأحذية البرابرة ذات المسامير الغليظة. وأعطى كل هذا النصر لصاحبة القصر جناحين، الأمر الذي شجَّعها على رفع الأمر للقضاء، وقررت المحكمة طرد البلاشفة من القصر.

ولكن الأمر لم يكن بمثل هذه السهولة. ويذكر جاليجسكي أحد أعضاء لجنة بتروغراد آنذاك في مذكراته: "إن السيارات المصفحة المتمركزة في باحة القصر تتمتع بمظهر مهيب مرهب". وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان فوج الرشاشات، وعدد من الوحدات الأخرى على استعداد لدعم جنود السيارات المصفحة عند الضرورة. وفي ٢٥ مايو (آيار)، أعلن مجلس اللجنة التنفيذية بناء على شكوى رفعها محامي راقصة الباليه بأن "مصالح الثورة تفرض احترام الأحكام الصادرة عن المحاكم". ولم يذهب التوفيقيون إلى أبعد من هذه الحكمة الأفلاطونية. ولم يُرضِ هذا بالطبع راقصة الباليه التي كانت بعيدة كل البعد عن الميل إلى الأفلاطونية.

وتابعت اللجنة المركزية، ولجنة بتروغراد، والتنظيم العسكري العمل معًا في القصر. ويقول راسكولنيكوف: "كان في قصر كشيسنسكايا دائمًا جمع غفير. وكان البعض يزورون أمانة السر هذه أو تلك في سبيل تسيير الأعمال، ويذهب الآخرون إلى مستودعات المكتبة... ويتجه البعض الآخر إلى مكاتب تحرير سولداتسكايا برافدا (برافدا الجنود) أو إلى اجتماع ما. وكانت الاجتماعات تُعقد في القصر، وتستمر أحيانًا بلا انقطاع؛ سواء في القاعة الكبرى، الواقعة في الأسفل، أو في غرفة علوية حول طاولة مستطيلة، ويبدو أن هذه الغرفة كانت من قبل غرفة طعام راقصة الباليه". ومن شرفة القصر التي يرفرف عليها علم اللجنة المركزية كان الخطباء يتحدثون إلى الجموع المحتشدة، لا في النهار فحسب، بل في الليل أيضًا. وغالبًا ما كانت قطعة عسكرية أو جماهير عمالية تتقدم وسط الظلمة الشاملة نحو المبنى، وتطالب بسماع خطاب. وكان البورجوازيون الصغار يقفون أحيانًا أمام الشرفة وقد جذبهم حب الإطلاع الناجم عن إشاعات الصحف وأحاديثها. ولقد اقتربت من القصر في الأيام الحاسمة مظاهرات معادية تطالب باعتقال لينين، وطرد البلاشفة، ولكنها لم تدم سوى فترة قصيرة. ويحس المرء بأعماق الثورة تغلي تحت سيول الأشخاص السائرين قرب جدران القصر. ووصلت قضية قصر كشيسنسكايا إلى أوجها خلال أيام يوليو (تموز). ويقول ميليوكوف: "لم تكن القيادة العليا للحركة في قصر توريد، بل في قلعة لينين، في قصر كشيسينسكايا ذي الشرفة التقليدية"، وكان سحق المظاهرة يعني بصورة محتومة تدمير مقر قيادة البلاشفة.

وفي الساعة الثالثة صباحًا، تحرك نحو قصر كشيسينسكايا وقلعة بطرس وبولص، المنفصلين عن بعضهما بمجرى مائي صغير، القطعات التالية: الكتيبة الاحتياطية في فوج بتروغراد. ووحدة من فوج الرشاشات، وسرية من فوج سيمينوفسكي، وسرية من فوج بريوبراجينسكي، ومجموعة الطلاب الضباط التابعة لفوج فولهينسكي، ومدفعان، ومفرزة تضم ٨ سيارات مصفحة. وفي الساعة السابعة، أصرَّ الاشتراكي - الثوري كوزمين، مساعد قائد قطعات الموقع، على إخلاء منزل راقصة الباليه. ولم يشأ بحارة كرونشتادت المتمركزين في القصر، وعددهم ١٢٠ بحارًا، تسليم سلاحهم، فاتجهوا نحو قلعة بطرس وبولص عدوًا. وعندما احتلت القوات الحكومية القصر، لم تجد فيه أحدًا باستثناء بعض المستخدمين... وبقيت مسألة القلعة. وتحركت من حي فيبورغ كما ذكرنا مفارز الحرس الأحمر لنجدة البحارة المتمركزية في القلعة عند الضرورة. ويقول أحد هؤلاء الحرس ما يلي: "وعلى جدران القصر انتصبت بعض المدافع التي وجهها البحارة في كل اتجاه... وظهرت رائحة الدم

في الجو..." ولكن المفاوضات الدبلوماسية أدَّت إلى حل سلمي. وتقدم ستالين، بناء على تكليف من اللجنة المركزيـــة البلـــشفية باقتراح طرحه على زعماء التوفيقيين لأخذ تدابير مشتركة تستهدف تسوية مظاهرة رجال كرونشتادت دون سفك دماء. وذهب ستالين مع المنشفي بوغدانوف إلى القلعة، وأقنعا البحارة دونما صعوبة بالخضوع للإنذار الذي وجهه ليبر في العشية. وعنـــدما اقتربت السيارات المصفحة الحكومية من القلعة، خرج وفد من البوابة الكبيرة ليعلن بأن الحامية قـــررت الخـــضوع لتعليمـــات اللجنة التنفيذية. ونقلت سيارات النقل الجنود والأسلحة التي سلموها. وعاد البحارة إلى بوارجهم بغية التوجه إلى كرونـــشتادت. ويمكن اعتبار استسلام حامية كرونشتادت الحدث النهائي في حركة يوليو (تموز). واحتلت وحدات السيارات المصفحة القادمـــة من الجبهة القلعة وقصر كشيسينسكايا يعد أن أخلاهما البلاشفة. ثم انتقلت هذه الوحدات في عشية انتفاضـــة أكتـــوبر (تـــشرين الأول) إلى صف البلاشفة من جديد.

الهوامش

(١) Sans-Culotte بالمعنى المعروف لهذا التعبير قبل الثورة الفرنسية.

(٢) هناك تفسيرات أدبية ترى بأن هاملت، بطل رواية هاملت لشكسبير، كان يتمتع بطبع متردد يخشى اتخاذ القرارات الحاسمة.

كرنسكي وكورنيلوف

عناصر البونابارتية في الثورة الروسية:

تحدثت كثير من الكتابات عن أن السوء الذي جاء من بعد، بما في ذلك مجيء البلاشفة، كان من الممكن تلافيه، لو كان على رأس السلطة رجل يتمتع بفكر واضح وإرادة حازمة بدلاً من كرنسكي. ومن المؤكد أن كرنسكي كان محرومًا من هاتين الصفتين. فلِمَ اضطرت بعض الطبقات إذن إلى رفع كرنسكي بالذات إلى منصة الرئاسة؟

إن أحداث أسبانيا تجدد بعض ذكرياتنا التاريخية، وتؤكد من جديد كيف أن الثورة التي تزيل الحدود السياسية الطبيعية، تُخفي كل شيء في بداية الأمر وراء غمامة وردية. حتى أن أعداءها يحاولون في هذه الفترة استعارة لونها؛ وهذا ما يفسر ميل الطبقات المحافظة نصف الغريزي للتلاؤم مع التحولات المهددة، كيما يكون تأثير هذه التحولات عليها منخفضًا إلى أدنى حد ممكن. إن تضامن الأمة المبني على لفظية غير متماسكة، يحول النشاط التوفيقي إلى وظيفة سياسية لا يُستغنى عنها. ويبدو أن المثاليين البورجوازيين الصغار، الذين ينظرون من فوق الطبقات، ويفكرون بجمل جاهزة مسبقة، ولا يعرفون ما يريدون، ويطرحون على الجميع أفضل رغباتهم، يكونون في هذه الفترة الزعماء الوحيدين المقبولين من قبل الغالبية. ولو كان كرنسكي يتمتع بفكر واضح وإرادة حازمة لما كان ملائمًا أبدًا لدوره التاريخي. وليس هذا تقديرًا منا للأمور بعد وقوعها، ولكنه الحكم الذي تبناه البلاشفة بالنسبة لكرنسكي وسط نار الأحداث. ولقد كتب تروتسكي في السجن بعد أيام يوليو (تموز) ما يلي: "إن كرنسكي محام في القضايا السياسية، واشتراكي - ثوري وجد نفسه على رأس الكادحين، وراديكالي محروم من أية عقيدة اشتراكية، وهذا ما جعله يعكس بشكل كامل المرحلة الأولى للثورة، وخمولها "الوطني"، والمثالية الملتهبة لآمالها وتطلعاتها. وكان كرنسكي يتحدث عن الأرض، والحرية، والنظام، وسلام الشعوب، والدفاع عن الوطن، وبطولة ليبكنخت، ويقول بأن الثورة الروسية أدهشت العالم بتسامحها، ويلوح بهذه المناسبة بمنديل حرير أحمر. وكان البورجوازي الصغير نصف المستيقظ يستمع مثل هذه الخطب بكل حماس، وكان يبدو له وكأنه هو الذي يتكلم من منصة الخطابة. وكان الجيش يستقبل كرنسكي كشخص أنقذه من غوتشكوف. وكان الفلاحون يسمعون بأنه كادح ونائب عن الموجيك. وكان الليبراليون يحسون بجاذبية خاصة نحو اعتدال أفكاره الكامن وراء راديكالية جمله...".

ولكن فترة العناق والتصافي لا تدوم طويلاً. ولا يختفي الصراع الطبقي في بداية الثورة إلا ليظهر بعد ذلك على شكل حرب أهلية. وفي صعود الحركة التوفيقية السحري يكون مسبقًا انهيارها المحتوم. ويعيد الصحفي الفرنسي كلود آني سبب فقدان كرنسكي لشعبيته بسرعة، إلى أن عدم تمتعه بالذوق، دفع هذا السياسي الاشتراكي إلى ارتكاب أفعال "لا تنسجم كل الانسجام" مع دوره. "إنه يتردد إلى المقصورات الإمبراطورية، ويقطن قصر الشتاء أو قصر تساركويه، وينام في سرير قياصرة روسيا. إنه يملك قسطًا زائدًا من الغرور الذي أخذ يتراكم، وهذا أمر يصدم الناس في بلد يتسم بالبسطة التامة"، (كلود آني؛ الثورة الروسية، [يونيو – نوفمبر ١٩١٧، ص ١٥ - ١٦]). ويتطلب الذوق في الأمور كبيرها وصغيرها قسطًا معينًا من فهم الموقف بأسره، والمكان الذي يشغله المرء في هذا الموقف. ولم يكن كرنسكي يمتلك شيئًا من هذا كله. لقد رفعته ثقة الجماهير، ولكنه كان غريبًا عنها، ولا يستطيع فهمها، ولا يهتم أبدًا بمعرفة كيف تفهم هذه الجماهير الثورة، وما هي الاستنتاجات التي تصل إليها من هذه الثورة. وكانت الجماهير تنتظر منه أفعالاً جريئة، ولكنه كان يطلب من الجماهير أن لا تزعجه خلال تسامحه وفصاحته. وعندما قام كرنسكي بزيارة مسرحية لعائلة القيصر المحجوزة، قال بعض الجنود من حراس القصر لقائدهم: "إننا ننام على الأرض، ونتغذى بشكل سيء، ولكن نيقولا يحصل على اللحم رغم أنه معتقل، حتى أنه يرمي بعضه في القمامة". ولم تكن هذه الأقوال "تسامحًا" ولكنها كانت تعبِّر عما يحس الجنود به.

إن الشعب الذي تخلص من قيوده القديمة التي دامت قرونًا كان يتجاوز الحدود التي يرسمها له الزعماء المثقفون. ولقد تحدث كرنسكي حول هذا الموضوع في نهاية أبريل (نيسان) فقال: "هل يمكن أن تكون الدولة الروسية الحرة دولة عبيد ثائرين؟... إنني نادم على أنني لم أمت قبل شهرين، ولو مت آنذاك لحملت معي حلمًا كبيرًا"، ...إلخ. وبمثل هذه الفصاحة السيئة كان يأمل بالتأثير على العمال، والجنود، والبحارة، والفلاحين. ولقد تحدث الأميرال كولتشاك فيما بعد أمام المحكمة السوفييتية، وذكر كيف زار وزير الحربية في مايو (أيار) مراكب أسطول البحر الأسود ليصالح الجنود مع ضباطهم. وكان الخطيب يعتقد بعد كل خطاب أنه حقق هدفه فيقول: "حسنًا، إنكم ترون أيها السيد الأميرال أن كل شيء قد سوي تمامًا..."، ولكن لم يكن هنا أي شيء مسوّى بالفعل، بل كان انهيار الأسطول في بدايته.

ومع تقدم الوقت، بدأ كرنسكي يزعج الجماهير بتصرفاته غير الرصينة، وتبجحه، وجعجعته. وفي إحدى رحلاته إلى الجبهة صرخ لمرافقه من عربته وهو يقصد إسماع الجنرالات: "اطردوا هذه اللجان الملعونة!" وعندما تقدم إلى أسطول البلطيق، طلب من اللجنة المركزية للبحارة أن تحضر إليه في مركب القيادة. وكانت التسنتروبالت جهازًا سوفييتيًّا لا يتبع الوزير؛ لذا فإنها اعتبرت هذا الأمر إهانة لها. ورد رئيس اللجنة البحار ديبنكو: "إذا أراد كرنسكي التباحث مع التسنتروبالت، فما عليه إلا أن يحضر لرؤيتنا". أفليس في هذا وقاحة لا تحتمل من جانب البحارة؟!

وسارت الأمور بشكل سيء في المراكب التي بدأ كرنسكي أحاديثه السياسية فيها مع البحارة، وخاصة عندما تحدث مع بحارة المركب ريسبوبليكا (الجمهورية) المفعمين، بالمشاعر البلشفية، والذين استجوبوا الوزير نقطة أثر أخرى. لِمَ صوّت في دوما الإمبراطورية لصالح الحرب؟ لِمَ وضع توقيعه على مذكرة ميليوكوف الإمبريالية في ٢١ أبريل (نيسان)؟ لِمَ أعطى نواب القيصر راتبًا تقاعديًّا سنويًا يعادل ٦ آلاف روبل؟ ورفض كرنسكي الإجابة على هذه الأسئلة اللئيمة التي يطرحها رجال "لم يكونوا من أصدقائه". وأعلن البحارة بلا مواربة بأن تفسيرات الوزير "غير كافية..."، وغادر كرنسكي المركب وسط صمت كصمت المقابر. وقال المحامي الراديكالي وهو يعض النواجذ غيظًا "عبيد ثائرون!" وأحس البحارة بالفخر: "نعم. لقد كنا عبيدًا، ثم ثرنا!".

وكانت لا مبالاة كرنسكي إزاء الرأي العام الديمقراطي تثير في كل خطوة شبه صراعات مع الزعماء السوفييت السائرين على سبيله نفسه، مع فارق واحد هو التفاهم أكثر منه نحو الجماهير. ومنذ ٨ مارس (آذار) أحست اللجنة التنفيذية بالموقف من احتجاجات القاعدة. فأعلمت كرنسكي بأن إطلاق سراح رجال الشرطة الموقوفين أمر غير مقبول. وبعد عدة أيام وجد التوفيقيون أن عليهم أن يحتجوا ضد نية وزير العدل بإرسال العائلة الإمبراطورية إلى إنكلترا، وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، طرحت اللجنة التنفيذية المسألة العامة المتعلقة "بتنظيم العلاقات" مع كرنسكي. ولكن هذه العلاقات لم تنتظم، وما كان من الممكن تنظيمها.

وظهرت مسألة الحزب بصورة غير ملائمة بشكل مماثل. ففي مؤتمر الاشتراكيين - الثوريين المنعقد في مطلع يونيو (حزيران)، اضطر كرنسكي لدخول "البالوتاج" في انتخابات اللجنة المركزية، نظرًا لحصوله على ١٣٥ صوتًا من أصل ١٧٠. وكم تحرك الزعماء، وهم يحاولون أن يشرحوا في كل مكان "بأن الرفيق كرنسكي لم ينجح في كثير من الانتخابات، لأنه كان مثقلاً بالمهمات والمشاغل". والحقيقة أنه إذا كان الاشتراكيون - الثوريون في مقر القيادة، والوزارات يعبدون كرنسكي كنبع من منابع الإفادة، فإن الاشتراكيين - الثوريين القدامى المرتبطين مع الجماهير كانوا ينظرون إليه بشك، ودونما تقدير. ولكن لم تكن اللجنة التنفيذية أو الحزب الاشتراكي - الثوري قادرين على الاستغناء عن كرنسكي؛ فقد كان ضروريًّا كحلقة اتصال للائتلاف.

وكان الدور القيادي في الكتلة السوفييتية بيد المناشفة: الذين كانوا يصيغون القـرارات، أي الوسـائل اللازمـة لتمييـع الأفعال. وكان للشعبيين في الجهاز الحكومي تفوق ملحوظ على المناشفة. وكان هذا التفوق يظهـر بكـل وضـوح بـسيطرة كرنسكي. لقد كان كرنسكي نصف كاديت، نصف اشتراكي - ثوري، ولذا فإنه لم يكن في الحكومة ممثلاً عن السوفييت مثـل تسيريتلي وتشيرنوف، بل كان رباطًا حيًا بين البرجوازية والديمقراطية. وكان تسيريتلي - تـشيرنوف يمـثلان أحـد مظـاهر الائتلاف على حين كان كرنسكي التجسيد الشخصي الكامل للائتلاف نفسه. وكثيرًا ما اشتكى تسيريتلي مـن زيـادة "الـدوافع الفردية" عند كرنسكي، دون أن يفهم بأنها لا تنفصل عن وظيفته السياسية. ولقد نشر تسيريتلي عندما كـان وزيـرًا للداخليـة منشورًا حول موضوع المفوض الإقليمي الذي ينبغي عليه أن يستند إلى كافة "القوى الحيـة" المحليـة؛ أي إلـى البرجوازيـة والسوفييتات، وأن يطبق سياسة الحكومة المؤقتة دون الخضوع "لتأثيرات الأحزاب"؛ أي أن على هذا المفوض المثالي أن يعلـو فوق الطبقات والأحزاب المعادية ليجد روح مهمته داخل نفسه، وفي كلمات المنشور الرسمي، وهو يـشبه فـي هـذه الحالـة كرنسكي، ولكن على مستوى الإقليم أو المنطقة. ولتتويج هذا الجهاز كله، كانت الحكومة بحاجة تامة لمفوض عمـوم روسـيا المستقل، القابع في قصر الشتاء. ولو لم يكن هناك كرنسكي، لكان النظام التوفيقي أشبه بقبة كنيسة بلا صليب.

وتاريخ صعود كرنسكي مليء بالدروس والعبر. لقد غدا وزيرًا للعدل بفضل ثورة فبراير (شباط) التي كـان يخـشاها. وجاءت مظاهرة إبريل (نيسان) التي قام بها "العبيد الثائرون" وجعلت منه وزيرًا للحربية والبحرية. وأدَّت أحداث يوليو (تموز) التي أثارها "عملاء ألمانيا" إلى وضعه على رأس الحكومة. ولما اندلعت حركة الجماهير في بداية سبتمبر (أيلول) غدا رئـيس الحكومة قائدًا أعلى للقوات المسلحة. إن جدلية النظام التوفيقي وسخريته الخبيثة تتمثلان في أن ضغط الجماهير رفع كرنـسكي إلى أعلى قمة قبل أن يعمل على قلبه.

وأبعد كرنسكي باحتقار الشعب الذي قدم له السلطة، ولم يعد يبحث بشغف إلا عن دلائل الموافقة القادمة مـن المجتمـع المثقف. ومنذ الأيام الأولى للثورة، تحدث الدكتور كيشكين أحد زعماء الكاديت في موسكو، بعد عودته من بتروغراد بقوله: "لو لم يوجد كرنسكي، لما حصلنا على ما نملكه الآن. إن اسمه سيكتب على لوحة التاريخ بحـروف مـن ذهـب"، وغـدا مـديح الليبراليين واحدًا من أهم المقاييس السياسية لكرنسكي، ولكنه لم يكن راغبًا أو قادرًا على وضـع كـل شـهرته تحـت قـدمي البرجوازية وحدها. بل كان يرغب بصورة متزايدة برؤية كافة الطبقات عند قدميه. ويقول ميليوكوف: "ومنذ بداية الثورة كـان كرنسكي يستخدم فكرة مجابهة ممثلي البرجوازية مع ممثلي الديمقراطية، لتأمين التوازن بينهم. وعمل هـذا الاتجـاه ولا شـك طوال مدة وجوده التي قضاها بين المكتب الليبرالي، والحلقات السرية. ولقد أكد كرنسكي لبوكانان بأدب جم بـأن "الـسوفييت سيموت ميتة طبيعية"، على حين كان يخيف زملاءه البورجوازيين في كل لحظة من غضب السوفييت. وعنـدما يختلـف مـع زعماء اللجنة التنفيذية، ويتأزم الموقف، كان كرنسكي يهدد الزعماء بكارثة رهيبة: استقالة الليبراليين.

وكثيرًا ما ردد كرنسكي بأنه لا يود أن يكون مارات الثورة الروسية، وكان يعني بذلك أنه يرفض اتخاذ تدابير حازمـة ضد الرجعية، ولكنه لن يتردد عن ضرب "الفوضى". وهذه هي بصورة عامة أخلاقيات أعداء العنـف فـي الـسياسة: إنهـم يرفضونها طالما أنها تتعلق بتعديل ما هو موجود، ولكنهم لا يترددون عن استخدام أشد أنواع العنف عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن النظام.

وفي فترة إعداد الهجوم على الجبهة، غدا كرنسكي الشخص المفضل عند الطبقات المالكة. وكان تيريشتشنكو يتحدث في كل مجال عن تقدير حلفائنا الكبير "لجهود كرنسكي". وكانت صحيفة الكاديت: الريتش تشير بلا انقطاع إلـى تفـضيلها لـوزير الحربية رغم حملاتها القاسية على التوفيقيين. ويعترف رودزيانكو نفسه "إن هذا الشاب... يعمل كل يوم بجهد مـضاعف فـي سبيل خدمة الوطن، ومن أجل العمل البنَّاء". وكان الليبراليون يودون تدليل كرنسكي بمثل هذه الأحكام. ولم يكن بوسـعهم فـي

النهاية أن لا يروا بأن كرنسكي يعمل من أجلهم. ويتساءل لينين: "... فكروا قليلاً ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن غوتشكوف أصدر الأوامر بالهجوم، وحل الأفواج، واعتقل الجنود، ومنع المؤتمرات، وهاجم الجنود، وعاملهم بازدراء "كجبناء" ...إلخ. ولكن بوسع كرنسكي حتى الآن أن يتصرف بهذا الشكل، طالما أنه لم يبدد الثقة التي منحه إياها الشعب، والتي تتدهور في الحقيقة بسرعة مذهلة...".

وجاء الهجوم الذي رفع سمعة كرنسكي بين صفوف البرجوازية فدمر سمعته نهائيًّا وسط الشعب. وكان سقوط الهجوم سقوطًا مريعًا لكرنسكي في كلا المعسكرين. والغريب في الأمر أن اتهامه من قبل الطرفين جعله منذ تلك اللحظة شخصًا "لا يُستغنى عنه". ويتحدث ميليوكوف عن دور كرنسكي في خلق الائتلاف الثاني فيقول: "لقد كان الشخص الوحيد الممكن" ولكنه، لم يكن ويا للأسف "الشخص الذي نحتاج إليه...". والحقيقة أن زعماء السياسة الليبرالية لم يحملوا كرنسكي محمل الجد أكثر مما يستحق. وكانت أوساط البرجوازية العريضة تحمّله بصورة متزايدة مسئولية كافة العثرات. ويرى ميليوكوف أن "فقدان صبر المجموعات المشبعة بالروح الوطنية" كان يدفعها إلى البحث عن رجل قوي. ولقد اختير الجنرال كولتشاك خلال فترة من الزمن للقيام بهذا الدور. ولكن وضع رجل قوي في سدة الحكم "يتم بوسائل أخرى غير المباحثات والاتفاقات". وبوسعنا أن نعتقد بهذا القول دونما صعوبة. ويكتب ستانكيفيتش عن حزب الكاديت ما يلي: "لقد سقطت آماله المتعلقة بالنظام الديمقراطي، والإرادة الشعبية، والمجلس التأسيسي. أفلم تعطي الانتخابات البلدية في كافة أرجاء روسيا الأكثرية الساحقة للاشتراكيين؟... ولذا فإن البحث جار وسط الخوف والقلق عن سلطة قادرة لا على الإقناع، بل على إعطاء الأوامر فقط" أي عن سلطة تستطيع الإمساك بخناق الثورة.

وإذا ما درسنا حياة كورنيلوف، وخصائص شخصيته، لم نكتشف بسهولة الصفات التي تبرر ترشيحه لدور المنقذ. ويتحدث الجنرال مارتينوف الذي كان في زمن السلم رئيس مصلحة كورنيلوف، وكان خلال الحرب زميله في الأسر داخل قلعة نمساوية، ويصف كورنيلوف بالتعابير التالية: "إنه يمتاز بدأبه وإصراره، وبقسط كبير من الغرور. وكان من الناحية الفكرية رجلاً متوسطًا عاديًّا محرومًا من سعة الأفق"، ويحكم مارتينوف على كورنيلوف ويصفه بصفتين هامتين هما: الشجاعة الشخصية، والنزاهة. وتبدو مثل هاتين الصفتين بكل جلاء في وسط يُنهب الناس فيه بلا ضوابط، ويهتم كل فرد فيه بالأمن الشخصي قبل أي شيء آخر. أما بالنسبة للقدرات الإستراتيجية أي إمكانات تقييم وضع ما بمجمله، وبكافة عناصره المادية والمعنوية، فقد كان كورنيلوف محرومًا منها بشكل كامل. ويقول مارتينوف: "وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يحسن التنظيم، كما أن شخصيته الغاضبة غير المتزنة كانت تجعله غير ملائم للأعمال المعقولة، أما بروسيلوف الذي راقب مجمل النشاط العسكري لمرءوسه خلال الحرب العالمية، فقد تحدث عنه بازدراء أكيد "أنه قائد مفرزة أنصار جسورة، ولا شيء أكثر من ذلك...".

وجاءت الأسطورة المختلفة حول فرقة كورنيلوف من حاجة الرأي العام الوطني لاكتشاف بقع مضيئة فوق قاع مظلم. ويقول مارتينوف: "تمت إبادة الفرقة ٤٨ بسبب القيادة التافهة... لكورنيلوف نفسه، الذي... لم يعرف كيف ينظم التراجع، والذي بدل قراراته باستمرار، وأضاع وقتًا ثمينًا...". وفي آخر لحظة، ترك كورنيلوف فرقته التي دفعها إلى الهجوم، وسلَّم أمرها للأقدار، وحاول النجاة بنفسه من الأسر. ومع هذا فقد وقع الجنرال سيئ الحظ أسيرًا بيد النمساويين بعد أن تسكع في المنطقة خلال ٤ أيام، ثم فرَّ من الأسر فيما بعد. "وعندما عاد كورنيلوف إلى روسيا، تحدث مع مراسلي عدة صحف، فجمَّل صورة هروبه بزهور حية من وحي الخيال". ولن نقف هنا عند التصحيحات الملموسة التي أدخلها على هذه الأسطورة شهود مطلعون موثوقون. ويبدو أن كورنيلوف بدأ منذ هذه اللحظة يتذوق الدعاية الصحفية.

وكان كورنيلوف قبل الثورة ملكيًّا رجعيًّا ميَّالاً للمائة السود. وكان يقول بعد قراءة الصحف وهو في الأسر أنه يتمنى "لو يشنق بكل سعادة غوتشكوف وميليوكوف وأمثالهما". ولم تكن الأفكار السياسية تشغله -أو تشغل هذا النوع من الرجال- إلا

ضمن الحدود التي تؤثر بها عليه شخصيًا. وأعلن كورنيلوف بعد ثورة فبراير (شباط) بكل بساطة أنـــه جمهـــوري. ويتحـــدث مارتينوف عنه فيقول: "كان يميز بصعوبة وبشكل سيئ جدًا المصالح المتشابكة لمختلف شرائح المجتمع الروسي، ولا يعـــرف التجمعات القائمة أو الأحزاب أو الشخصيات". وكان المناشفة، والاشتراكيون - الثوريون، والبلاشفة يختلطون لديه داخل كتلـــة معادية تمنع القيادة من ممارسة دورها القيادي، وتمنع الملاكين من التمتع بأملاكهم، والصناعيين من متابعة الإنتاج، والتجـــار من البيع والشراء بحرية.

ومنذ ٢ مارس (آذار) تعلَّقت لجنة دوما الدولة بالجنرال كورنيلوف، وطالبت القيادة العليا ببرقية وقعهـــا رودزيـــانكو أن تعين "البطل النبيل، المشهور في روسيا كلها، كقائد أعلى لقوات منطقة بتروغراد العسكرية. وكتب القيـــصر الـــذي لـــم يعـــد قيصرًا، على برقية رودزيانكو كلمة "موافق". وهكذا حصلت العاصمة الثورية على جنرالها الأحمر الأول. وتـــذكر محاضـــر جلسة اللجنة التنفيذية في يوم ١٠ مارس (آذار) هذه الجملة حول كورنيلوف: "جنرال من المدرسة القديمة، يود وضـــع نهايـــة للثورة". ولقد حاول الجنرال في الأيام الأولى أن يظهر وجهه الجيد، وفعل ذلك مع شيء من الضجيج، وقام باعتقال القيـــصرة؛ وسُجل ذلك كنقطة جيدة لصالحه. وتقول مذكرات العقيد كوبيلينسكي الذي عينه كورنيلوف قائدًا لتساركويه - سيلا أن الجنـــرال كان يلعب ورقتين مختلفتين. ويقول العقيد كوبيلينسكي: وبعد أن قدم إلى القيصرة "قال كورنيلوف لي: اتركنا لوحدنا أيها العقيد، اذهب وابق على الطرف الآخر من الباب؛ فخرجت. وبعد خمس دقائق استدعاني كورنيلوف، فدخلت، ومدت القيصرة لي يدها مصافحة.." والأمر واضح كل الوضوح، لقد قدم كورنيلوف العقيد للقيصرة كصديق. وتشير المذكرات بعد ذلك إلـــى مـــشاهد العناق والتقبيل بين القيصر و"سجانه" كوبيلينسكي. وظهر كورنيلوف عاديًا بل وأقل من عادي فـــي عملـــه كـــإداري. ويكتـــب ستانكيفيتش عن هذا فيقول: "كان مساعدوه المباشرون في بتروغراد يشتكون دائمًا من عدم أهليته للعمل، وإدارة الأعمال".

ولم يبق كورنيلوف في العاصمة طويلاً. ولقد حاول سفك دماء الثورة بدفع من ميليوكوف خلال أيام أبريـــل (نيـــسان)، ولكنه اصطدم بمقاومة اللجنة التنفيذية، فاستقال، وحصل على قيادة أحد الجيوش، ثم وصل إلى منصب قائد الجبهـــة الجنوبيـــة الغربية. وقبل أن يصدر القانون الذي يعيد عقوبة الإعدام إلى الجيش، أصدر كورنيلوف أمرًا بإعدام الهاربين، وعرض جثـــثهم على الطريق، مع لوحة تشير إلى جريمتهم، وهدد بإنزال أقصى العقوبات بالفلاحين الذين يعتدون على حقوق الملاكين، وشكل كتائب الصدام، وهدد بتروغراد في كل مناسبة ملائمة. وهكذا ارتسمت حول اسمه في أعين الضباط والطبقات المالكـــة هالـــة مضيئة. وبدأ بعض مفوضي كرنسكي يقولون لأنفسهم: لم يعد هناك أي أمل إلا بكورنيلوف. وبعد عدة أسابيع، أصبح الجنـــرال المقاتل، المتمتع بخبرة قائد كتيبة فاشل، قائدًا أعلى لملايين الرجال، ولجيش متفكك، يريد الحلفاء منه أن يقاتـــل حتـــى النـــصر النهائي.

وفقد كورنيلوف صوابه. وكان جهله السياسي وضيق آفاقه يجعلان منه فريسة سهلة للباحثين عن المغامرات. وكان هذا الرجل عبارة عن "قلب أسد ورأس خروف" كما وصفه الجنرال الكسييف، وفيرخوفسكي من بعده، وكـــان يـــدافع بعنـــاد عـــن امتيازاته الشخصية، ولكنه يخضع بسهولة لتأثير الآخرين، طالما أن هذا التأثير يتلاءم مع تطلعه الشخصي. ويتحدث ميليوكوف عن كورنيلوف الذي يحس نحوه بالمحبة فيقول: "إنه يثق ثقة طفولية بالأشخاص الذين يعرفون كيف يمتدحونه". وكان أقرب من يوحون بالأفكار للقائد العام، المرافق العسكري زافويكو. وهو شخص مشبوه، وملاك أراضٍ سابق، ومـــضارب فـــي شـــئون البترول، ومغامر، ويمتلك ريشة تؤثر على كورنيلوف بشكل خاص، وكان لزافويكو في الحقيقة أسلوب أدبي رشيق حماســـي لا يوقفه شيء. وكان الضابط المرافق الوكيل المسئول عن الإعلان، ومؤلف السيرة "الشعبية" لحياة كورنيلوف، ومحرر التقـــارير، والإنذارات، وكافة الوثائق التي تتطلب، حسب تعبير الجنرال، "أسلوبًا فنيًا قويًا".

وانضم إلى زافويكو باحث آخر عن المغامرات، هو آلادين، النائب السابق في الدوما الأولى، الـذي أمـضى سـنوات طويلة من حياته في المهجر، وكان آلادين يضع الغليون الإنكليزي دائمًا في فمه، ويعتبر أن ذلك يجعـل منـه إخـصائيًّا فـي المسائل الدولية. وكان هذان الشخصيان يمثلان يد كورنيلوف اليمنى، ويؤمنان اتصاله مع بؤر الثورة المضادة. وكـان جناحـه الأيسر مغطى بسافينكوف وفيلونينكو؛ اللذين كانا يدعمان بكل الوسائل الرأي المبالغ الذي يحمله الجنرال عن نفسه، ويعملان ما في وسعهما لمنعه من أن يغدو قبل الأوان شخصًا غير مقبول أمام الديمقراطية. ويكتب الجنرال دينيكين فـي محاولـة لإثـارة الرأي العام: "وكان يستقبل الكثيرين من الشرفاء وغير الشرفاء والمخلصين والدجالين، والسياسيين والعـسكريين والمغـامرين ويقولون له بصوت واحد: "كن المنقذ". وليس من السهل معرفة نسبة الشرفاء وغير الشرفاء. وعلـى كـل حـال فقـد كـان كورنيلوف يعتقد أنه مدعو "لإنقاذ" البلاد، وهذا ما جعله فيما بعد المنافس المباشر لكرنسكي.

وكان المتنافسان يكرهان بعضهما بشكل جدي. ويرى مارتينوف أن "كرنسكي أخذ يستخدم لهجة مترفعة في حديثه مـع الجنرالات. وكان الكسييف المتواضع الدعوب، وبروسيلوف الدبلوماسي يسمحان له بمعاملتهما بأسـلوب فـوقي. ولكـن هـذه المعاملة كانت غير قابلة للتطبيق إزاء كورنيلوف المغرور الأنف الحساس الذي... كان ينظر بـدوره إلـى المحـامي نظـرة استعلاء" وكان أضعف المتنافسين مضطرًا لتقديم التنازلات، وترك المجال أمام غريمه كيما يسبقه بشكل ملحوظ. وفـي نهايـة يوليو (تموز) صرح كورنيلوف أمام دينيكين بأن عدة دعوات جاءته من الأوساط الحكومية للدخول في الوزارة؛ فقلت لهم: "آه! كلا! إن هؤلاء السادة مرتبطون بالسوفييت إلى حد بعيد... أعطوني السلطة، وسأقوم عندها بصراع حاسم".

وكانت الأرض تميد تحت قدمي كرنسكي وكأنها أرض رخوة من مسحوق الفحم. فأخذ يبحث كعادته عن مخـرج فـي مجال البلاغة الخطابية، فيجمع، ويناشد، ويعلن. وجاء انتصار ٢١ يوليو (تموز) الشخصي فرفع كرنسكي فـوق المعـسكرين المتخاصمين: الديمقراطية والبرجوازية، وجعل منه شخصًا لا يُستغنى عنه. وهذا ما دفعه إلى التفكير بعقد مؤتمر الدولـة فـي موسكو. إن من الضروري نقل كل ما يجري في قصر الشتاء وسط جو من السرية إلى مجال العلنية المكشوفة. وعلى البلاد أن ترى بعينيها بأن الأمور ستتحطم في كل مجال إذا لم يمسك كرنسكي الأعنة والسوط بيديه.

* * *

ودُعي إلى مؤتمر الدولة حسب اللائحة الرسمية "ممثلو التنظيمات السياسية، والاجتماعية، والديمقراطيـة، والوطنيـة، والتجارية، والصناعية، والتعاونية، وزعماء أجهزة الديمقراطية، وكبار ممثلي الجـيش، والمؤسـسات العلميـة، والجامعـات، وأعضاء مجلس دوما الدولة". وكان من المتوقع أن يكون عدد الحاضرين ١٥٠٠ شخص. ولكن عدد الحاضرين الفعلي وصـل إلى ٢٥٠٠ شخص. وتم التوسع وزيادة العدد لصالح الجناح اليميني. وكتبت صحيفة الاشتراكيين - الثـوريين الـصادرة فـي موسكو ملاحظة موجهة إلى حكومتها "مقابل ١٥٠ ممثلاً عن العمل ظهر ١٢٠ ممثلاً عن الطبقة التجارية والصناعية. ومقابـل ١٠٠ مندوب عن الفلاحين دُعي ١٠٠ مندوب عن ملاكي الأراضي، ومقابل ١٠٠ مندوب عن الـسوفييت، كـان هنـاك ٣٠٠ مندوب عن دوما الدولة..." وشكّكَت صحيفة حزب كرنسكي بأن يقدِّم مثل هذا المؤتمر للحكومة "الدعم الذي تبحث عنه".

وجاء التوفيقيون إلى المؤتمر بدون حماس. وكانوا يقولون فيما بينهم في محاولة لإقنـاع بعـضهم بعـضًا، بـأن مـن الضروري إجراء محاولة شريفة للوصول إلى اتفاق. ولكن كيف ينبغي التصرف إزاء البلاشفة؟ إن من الضروري منعهم بـأي ثمن من الدخول في الحوار الدائر بين الديمقراطية والطبقات المالكة. وبناء على قرار خاص مـن اللجنـة التنفيذيـة، حُرمـت المجموعات الحزبية من حق إبداء رأيها دون موافقة بريزيديوم اللجنة. وقرر البلاشفة أن يقرءوا بيانًا باسم الحزب، وأن يتركوا المؤتمر بعد ذلك. ولكن البريزيديوم الذي كان يراقب عن كثب كل حركة من حركاتهم، طلب منهم أن يبتعدوا عن مثـل هـذا

العمل الإجرامي. عندها سلَّم البلاشفة بلا تردد بطاقات الدخول إلى المؤتمر، وقرروا الرد بشكل آخر أكثر إقناعًا، وكان الكـــلام في هذه المرة لموسكو البروليتارية.

ومنذ الأيام الأولى للثورة تقريبًا، كان أنصار النظام يضعون "البلاد" الهادئة في كل مناســـبة فـــي مجابهـــة بتروغـــراد المضطرمة. وكانت دعوة المجلس التشريعي في موسكو شعارًا من شعارات البرجوازية. وكـــان "الماركـــسي" بوتريـــسوف، الوطني - الليبرالي ينشر الشائعات المغرضة حول بتروغراد، التي تتصور نفسها وكأنهـــا غـــدت "بـــاريس جديـــدة". وكـــأن الجيرونديين لم يهددوا باريس القديمة بصواعقهم، ولم يفرضوا عليها أن تخفض دورها إلى ٨٣/١ فقط! وفي يونيو (حزيـــران) تحدث أحد المناشفة القادمين من المناطق أمام مؤتمر السوفييتات فقال: "إن أية مدينة مثل نوفوتشيركاسك تعكس أوضاع الحيـــاة في كافة أرجاء روسيا بشكل أفضل مما تعكسه بتروغراد"، والحقيقة أن التوفيقيين والبورجوازيين كانوا يبحثون عـــن الـــدعم لا في الأوضاع الفكرية الحقيقية "للبلاد" بل في الأوهام المطمئنة التي كانوا يخلقونها بأنفسهم. وسيصاب منظمو المؤتمر بخيبة أمل مريرة، عندما تأتي اللحظة التي يقيسون فيها نبض الرأي العام في موسكو.

إن مؤتمرات الثورة المضادة التي تتابعت منذ أول أيام شهر أغسطس (آب)، بدءًا من مؤتمر ملاكي الأراضي، وانتهـــاءً بالمجلس الكنسي، لم تعبئ الأوساط المالكة في موسكو فحسب، بل عبَّأت في الوقت نفسه العمال والجنود. فلقد تمـــت تهديـــدات ريابوشينسكي، ونداءات رودزيانكو، وتآخي الكاديت مع جنرالات القوزاق، تحت أنظار الطبقات الدنيا فـــي موســـكو. وتـــابع المحرضون البلاشفة كل هذا من خلال تقارير الصحف الساخنة. وأخذ خطر الثورة المضادة، هذه المرة، أشكالاً ملموسة، بـــل وشخصية. وسادت موجة من السخط في المصانع والمعامل، وكتبت صحيفة البلاشفة في موسكو: "إذا كانت السوفييتات عاجزة، فإن على البروليتاريا أن تضم صفوفها حول التنظيمات القادرة على الحياة"، وكانت في الـــصف الأول مـــن هـــذه التنظيمـــات النقابات التي سيطرت على معظمها قيادة مؤيدة للبلشفية. وكان الرأي العام في المصانع معاديًا لمؤتمر الدولة لدرجـــة دفعـــت القواعد إلى التفكير بتنظيم إضراب عام، تمت الموافقة عليه دون أية معارضة تقريبًا في اجتماع ممثلـــي كافـــة خلايـــا تنظـــيم موسكو البلشفي.

وأخذت النقابات المبادهة. ورفض سوفييت موسكو الإضراب بـــ٣٦٤ صوتًا ضد ٣٠٤ أصوات. ولكن العمال المناشفة والاشتراكيين - الثوريين، كانوا قد قرروا الإضراب في الاجتماعات الخاصة بالمجموعات الحزبية، وهم لا يطيعـــون ســـوى الانضباط الحزبي؛ لذا فإن قرار السوفييت، الذي لم يكن أعضاؤه قد تجددوا منذ مدة طويلة، كان عبارة عن قرار مأخوذ ضـــد رأي الغالبية الحقيقية، ولم يكن قادرًا على إيقاف عمال موسكو. وقرر مجلس قيادات ٤١ نقابة دعوة العمال إلى شـــن إضـــراب احتجاجي لمدة يوم واحد. ووجدت سوفييتات الأحياء نفسها إلى جانب الحزب والنقابات. وطالبت المصانع بـــإجراء انتخابـــات جديدة لسوفييت موسكو، الذي لم يتخلف عن الجماهير فحسب، بل دخل في صراع معها. وفي سوفييت منطقة زاموسكفورييش (ضاحية تقع جنوبي موسكو) طالب المندوبون بالتضامن مع لجان المصنع استبدال مندوبي سوفييت موسكو الذين ساروا "ضـــد إرادة الطبقة العمالية" وتمت الموافقة على هذه الفكرة بـــ١٧٥ صوتًا ضد ٤ أصوات، وامتناع ١٩ مندوبًا عن التصويت!

ومع هذا فقد كانت الليلة السابقة للإضراب مفعمة ببذور الخطر بالنسبة لبلاشفة موسكو؛ إذ كانت البلاد تسير على خطى بتروغراد، ولكن بتأخر ملحوظ. ولقد فشلت مظاهرة يوليو (تموز) من قبل في موسكو، ولم تجرؤ غالبية الحامية وغالبية العمال آنذاك على النزول إلى الشارع ومخالفة إرادة السوفييت. تُرى ماذا سيقع هذه المرة؟ وجاء الجواب مع الصباح. ولـــم تـــستطع معارضة التوفيقيين منع الإضراب من أن يكون مظاهرة عدائية قوية موجهة ضد التآلف والحكومة. وكانت صحيفة صـــناعيي موسكو قد كتبت قبل يومين بكل ثقة وتبجح: "على حكومة بتروغراد أن تأتي بسرعة إلى موسكو، وأن تعيـــر أذنًـــا صـــاغيةً

لصوت الأماكن المقدسة، والكنائس، وأبراج الكرملين المقدسة"، ولكن صوت الأماكن المقدسة اليوم خافت مكتوم بالصمت الذي يسبق العاصفة.

ولقد كتب بياتنتسكي أحد أعضاء لجنة موسكو البلشفية فيما بعد ما يلي: "ومرَّ الإضراب بشكل رائع. ولم يكن في المدينة أنوار أو حافلات ترام، وتوقفت المصانع، والمعامل، وورشات السكك الحديدية ومستودعاتها عن العمل. وشارك الجميع في الإضراب حتى ندل المطاعم الذين توقفوا عن العمل"، وأضاف ميليوكوف لهذه الصورة خطوطاً مأخوذة من الواقع الحي عندما كتب: "ولم يكن المندوبون المجتمعون في المؤتمر... يستطيعون ركوب حافلات الترام أو تناول الطعام في المطاعم"؛ وهذا ما ساعدهم -حسب اعتراف المؤرخ الليبرالي- على إجراء تقدير جيد لقوة البلاشفة الذين لم يشتركوا في المؤتمر. وعرفت أزفستيا موسكو أهمية مظاهرة ١٢ أغسطس (آب) كما يلي: "وتبعت الجماهير البلاشفة... بالرغم من قرارات السوفييتات". وأضرب ٤٠٠ ألف عامل في موسكو وضواحيها بناء على نداء وجهه الحزب الذي تلقى منذ خمسة أسابيع أشد الضربات، وتعرض زعماؤه للاعتقال، أو اضطروا للاختفاء والبدء بالعمل السري. وطرحت صحيفة البلاشفة الجديدة في بتروغراد "بروليتاري" على التوفيقيين السؤال التالي قبل أن تتعرض للمنع: "من بتروغراد إلى موسكو، ولكن أين ستذهبون بعد موسكو؟".

وكان على سادة الوضع أنفسهم أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال. فلقد اندلعت في كييف، وكوستروما، وتساريتزين إضرابات احتجاجية عامة أو جزئية لمدة يوم واحد. وساد الهياج البلاد كلها. وفي كل مكان، وفي المناطق القريبة والنائية، أعلن البلاشفة أن مؤتمر الدولة عبارة عن مؤامرة مضادة للثورة. وفي نهاية أغسطس (آب)، اكتشف الشعب بأسره محتوى هذه الصيغة.

وانتظر أعضاء المؤتمر، كما انتظرت برجوازية موسكو اندلاع مظاهرة جماهيرية مسلحة، ومناوشات، ومعارك، و"أيام أغسطس"(١) ولكن النزول إلى الشارع كان يعني بالنسبة للعمال التعرض لضربات فرسان القديس جورج، ومفارز الضباط، واليونكرز، وبعض وحدات الخيالة المتحرقة شوقاً للانتقام من المضربين. ودعوة الحامية للنزول إلى الشارع، تعني إيجاد شرخ بين صفوفها، وتسهيل عمل الثورة المضادة التي كانت تضع يدها على الزناد. ولم يطلب الحزب النزول إلى الشارع، كما أن العمال تصرفوا وفق إحساسهم الدقيق، وتجنبوا أي صدام مكشوف. وكان إضراب يوم واحد يتلاءم مع الموقف أكثر من أي شيء آخر؛ إذ لم يكن من السهل إخفاؤه كما أخفى المؤتمر بيان البلاشفة، وألقاه في سلة المهملات. وعندما غرقت المدينة في الظلام، لاحظت روسيا كلها أن اليد البلشفية تمسك بمفتاح النور. كلا، إن بتروغراد غير معزولة! ولقد حدد سوخانوف أهمية هذا اليوم بقوله: "وفي موسكو، ووسط الروح الدينية، والخضوع اللذين بُنيت عليهما آمال جسام، كشَّرت الأحياء العمالية فجأة عن أنيابها". وهكذا عقد مؤتمر الائتلاف جلساته مع غياب البلاشفة، ووسط ثورة بروليتارية تكشر عن أنيابها.

وسخَر أهالي موسكو من كرنسكي الذي جاء إليها "لتتويج نفسه". ولكن ما أن جاء اليوم التالي حتى حضر كورنيلوف من مقر القيادة العامة للغرض نفسه، واستُقبل الجنرال من قبل وفود عديدة، ومن بينها المجلس الكنسي. وعلى الرصيف الذي سيقف القطار عنده، قفز قوزاق التيك بأرديتهم الحمراء الفاقعة، وسيوفهم المحدودبة المشرعة، وشكلوا سياجًا من الجانبين لتأمين مروره. وألقت نسوة من المتحمسات الزهور على البطل الذي استعرض الحرس والوفود. وأنهى الكاديت روديتشيف خطاب الترحاب بقوله: "انقذوا روسيا، وسيتوجكم الشعب عرفاناً بالجميل"، وأجهش بعض الوطنيين بالبكاء. وركعت المليونيرة موروزوفا على ركبتيها. وحمل الضباط كورنيلوف على أيديهم واتجهوا به نحو الشعب.

وعندما كان القائد الأعلى يستعرض فرسان القديس جورج، واليونكرز، ومدرسة الملازمين وسرية القوزاق التي اصطفت في الساحة أمام المحطة، كان كرنسكي -وزير الحربية ومنافس كورنيلوف- يستعرض قوات موقع موسكو. وانتقل

كورنيلوف من المحطة، وسار على الطريق التقليدي للقياصرة نحو كنيسة العذراء إيفيرسكايا؛ حيث قام ببعض الصلوات بحضور حاشية من التيك المسلمين المعممين بقبعات كبيرة من الفرو. وكتب القوزاق غريكوف عن ذلك بأن "هذا التصرف أكسب كورنيلوف تعاطف كافة المؤمنين في موسكو"، وكانت الثورة المضادة في هذه الفترة تحاول اكتساب الشارع. وأخذت السيارات توزع على نطاق واسع نبذة عن حياة كورنيلوف، مع صور مكبرة له. وامتلأت جدران الشوارع بإعلانات تدعو الشعب إلى تأييد البطل. وتصرف كورنيلوف وكأنه يمتلك السلطة، فاستقبل في عربته السياسيين، والصناعيين، ورجال المال. وقدَّم لهم ممثلو المصارف تقريرًا عن الحالة المالية في البلاد. ويشير الأكتوبري شيدلوفسكي إلى أمر له دلالته فيقول: "ولم يذهب إلى كورنيلوف في عربته من كافة أعضاء مجلس الدوما سوى ميليوكوف، الذي أجرته معه محادثة لا أعرف مضمونها، وسيحدثنا ميليوكوف عن نفسه فيما بعد عما دار في هذا الاجتماع، ولكنه لن يقول إلا ما يرى أنَّ من المفيد قوله.

وهكذا كان الإعداد لانقلاب عسكري يجري على قدم وساق. وكان كورنيلوف قد تعلل بدعم ريغا وأمر قبل المؤتمر بعدة أيام بتسيير أربع فوق من الخيالة باتجاه بتروغراد. وأرسلت القيادة العليا فوج قوزاق أورينبورغ إلى موسكو "لحفظ النظام". ولكن كرنسكي تدخَّل بشكل أوقف الفوج أثناء الطريق. لقد تحدث كرنسكي بعد ذلك في شهادته أمام لجنة التحقيق الخاصة بقضية كورنيلوف، فقال: "لقد علمنا بأن الديكتاتورية ستُعلن خلال مؤتمر موسكو". وهكذا كان القائد الأعلى ووزير الدفاع يعملان خلال احتفالات أيام الاتحاد الوطني المهيبة، على موازنة قواهما الإستراتيجية. ولكن تم الحفاظ على المظاهر إلى أبعد حد ممكن. وكانت العلاقات بين المعسكرين تتراوح بين التأكيدات الرسمية المفعمة بالود، والإعداد للحرب الأهلية.

وفي بتروغراد، ورغم تحفظ الجماهير، إذ لم تمض أيام يوليو (تموز) دون أن تترك آثارًا، جاءت من الأعلى، ومن مقرات القيادة، وهيئات التحرير، إشاعات تؤكد بدأب مسعور، الأخبار التي تتحدث عن انتفاضة فورية يعدها البلاشفة. وأصدرت تنظيمات الحزب في بتروغراد بيانًا عامًا، لفتت فيه نظر الجماهير إلى احتمال صدور دعوات تحريضية من قبل الأعداء. واتخذ سوفييت موسكو في تلك الفترة تدابيره. وخُلقت لجنة ثورية غير معترف بها بصورة رسمية عددها ستة أشخاص، وتضم مندوبين عن كل حزب سوفييتي، بما في ذلك البلاشفة. وصدر أمر سري بمنع فرسان القديس جورج والضباط واليونكرز من تشكيل السياج على جانبي الطريق الذي سيمر منه كورنيلوف. ووزع سوفييت موسكو على البلاشفة بسرعة تصاريح مرور للدخول إلى الثكنات، بعد أن حرموا من هذا الحق رسميًّا منذ أيام يوليو (تموز)؛ إذ كان هذا السوفييت يعلم بأن من المستحيل اكتساب الجنود دون مؤازرة البلاشفة.

وفي الوقت الذي كان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يتشاورون به مع البرجوازية حول خلق سلطة قوية ضد الجماهير الخاضعة لتوجيهات البلاشفة، كان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون أنفسهم يتعاونون في الكواليس مع البلاشفة الذين لم يُقبلوا في المؤتمر، ويعدون الجماهير للصراع ضد مؤامرة البرجوازية. لقد عارض التوفيقيون بالأمس إجراء إضراب تظاهري، وهَا هُم اليوم ينادون العمال والجنود ويطالبونهم بالاستعداد للقتال. ولكن سخط الجماهير على التوفيقيين واحتقارها لهم لم يمنعها من الرد على النداء بتدابير قتالية أخافت التوفيقيين أكثر مما أثلجت صدورهم. وأخذت هذه الخيانة الصارخة، شكل خيانة شبه مكشوفة إزاء الحزبين، ولم يكن من الممكن قبولها، لو أن التوفيقيين تابعوا تنفيذ سياستهم بكل وعي، والحقيقة أنهم تلقوا نتائجها فقط.

وظهر دون أي شك، أن هناك أحداثًا معلقة في الجو. ولكن لم يبد أن هناك من يود القيام بانقلابه خلال أيام المؤتمر. وعلى كل حال، فإننا لا نملك أي تأكيد على الإشاعات التي ذكرها كرنسكي فيما بعد، ولا نجد لها دليلاً في وثائق التوفيقيين، أو أدبياتهم، أو ذكريات الجناح الأيمن. إذن فقد كانت الأمور تدور حول الإعدادات فقط. ويؤكد ميليوكوف -وتتطابق شهادته هنا مع تطور الأحداث فيما بعد- على أن كورنيلوف حدد لنفسه قبل انعقاد المؤتمر موعدًا لبدء العمل هو: ٢٧ أغسطس (آب). ولم

يطلع على هذا الموعد بلا ريب سوى عدد صغير من الأشخاص. واستبق أنصاف المشتركين يوم الحدث الكبير، كما هي الحالة في المواقف المماثلة. وسبقت الأقاويل كورنيلوف من كل جانب، واتجهت نحو السلطات، وبدا وكأن الضربة ستتم بين ساعة وأخرى.

ولكن الحماس الذي ساد الأوساط البرجوازية ومجموعات الضباط كان قادرًا على أن يسبب في موسكو محاولة انقلابية، أو مظاهرة مضادة للثورة تستهدف قياس القوى على الأقل. وكان الاحتمال الأكثر توقعًا هو العمل وسط عناصر المؤتمر لفصل بعض مراكز خلاص الوطن القادرة على منافسة السوفييتات، وتحدثت صحافة اليمين عن هذا الاحتمال بشكل مكشوف. ولكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد؛ فلقد عرقلت الجماهير ذلك. ولو خطر على بال أحدهم أن يقرب ساعة الأعمال الحاسمة، لقال أمام قوة الإضراب: لن ننجح بمفاجأة الثورة وأخذها على حين غرة؛ إذ يقف العمال والجنود على أهبة الاستعداد، ولا بُدَّ من التأجيل. وهكذا ألغت الثورة المضادة كل شيء، حتى المسيرة الشعبية نحو أيقونة أيفيرسكايا، والتي أعدها رجال الدين والليبراليون بالاتفاق مع كورنيلوف.

ومنذ أن بدا للعيان بوضوح انعدام الخطر المباشر، ادعى المناشفة والاشتراكيون - الثوريون بأنه لم يحدث أي شيء خطير، ورفضوا حتى تجديد تصاريح الدخول إلى الثكنات التي منحوها من قبل للبلاشفة، رغم أن الثكنات نفسها كانت تلح وتطالب بإرسال خطباء بلاشفة. ولا شك أن تسيريتلي ودان وخينتشوك، الذي كان يرأس سوفييت موسكو آنذاك، كانوا يقولون فيما بينهم بلهجة فيها كثير من المكر: "لقد قام المور (٢) بعمله". ولكن البلاشفة كانوا يرفضون القيام بدور المور. وكانوا يستعدون لتنفيذ مهمتهم الخاصة.

* * *

يحتاج كل مجتمع طبقي لوحدة في الإدارة الحكومية. وما ازدواجية السلطة في جوهرها سوى نظام أزمة اجتماعية: إنها تحدد تجزئة الأمة وعدم تماسكها إلى حد بعيد، وتحمل في طياتها الحرب الأهلية بشكل كامن أو مكشوف. ولم يعد هناك من يود استمرار ازدواجية السلطة. بل كان الكل على العكس راغبًا بإقامة سلطة قوية، واحدة، وإرادة "من حديد"، وفي يوليو (تموز) كانت حكومة كرنسكي تمتلك سلطات غير محدودة. وكانت الفكرة آنذاك وضع سلطة "حقيقية" فوق الديمقراطية والبرجوازية المتنافستين، اللتين تضعف كل واحدة منهما الأخرى. وليست فكرة السيد الذي يرتفع فوق الطبقات شيئًا آخر سوى البروليتارية.

إذا ما غرسنا شوكتين بصورة متناظرة في سدادة، فإن السدادة تهتز بشدة لتصل في النهاية إلى التوازن ولو على رأس دبوس، ولدينا هنا الأنموذج الميكانيكي للحكم البونابارتي الأعلى. فإذا ما استثنينا الظروف الدولية، وجدنا أن درجة قوة مثل هذه السلطة محددة بثبات توازن الطبقات المتصارعة داخل البلاد. وفي منتصف مايو (أيار)، أشار تروتسكي في اجتماع سوفييت بتروغراد إلى أن كرنسكي يمثل "النقطة الرياضية للبونابارتية الروسية". ويكشف تجريد التعريف وعدم ماديته على أن الأمر يتعلق بالوظيفة بالشخص. وفي بداية يوليو (تموز)، استقال الوزراء بناء على توجيهات أحزابهم، وتركوا لكرنسكي مهمة تشكيل سلطة جديدة. وتجددت هذه المحاولة في ٢١ يوليو (تموز) بشكل أشد وضوحًا. واتجهت الأحزاب المتخاصمة كلها نحو كرنسكي. وكان كل حزب منها يرى أن في كرنسكي بعض صفاته. وأقسم الحزبان على الإخلاص له. وكتب تروتسكي من السجن: "أن السوفييت الخاضع لقيادة سياسيين يخشون كل شيء لم يجرؤ على استلام السلطة. ولم يستطع حزب الكاديت الممثل لكافة شلل الملاكين الاستيلاء على السلطة أيضًا. ولم يبق إلا البحث عن توفيقي، وسيط، حَكَم".

ويعلن كرنسكي أمام الشعب في البيان الذي أصدره باسمه ما يلي: "إنني كرئيس للحكومة... لا أجد أن من حقي الوقوف أمام فكرة أن التعديلات (في بنية السلطة)... ستزيد مسئوليتي في شئون التوجيه الأعلى"، ويقدم هذا القول بكل وضوح مثالاً عن لفظية البونابارتية. ومع هذا، وبالرغم من دعم اليمين واليسار، فإن الأمور لم تتجاوز حد اللفظية. فما هو السبب؟

لكي يرتفع الكورسيكي القصير[٣] فوق الأمة الفتية البرجوازية كان لا بُدَّ أن تسوي الثورة مسبقًا معضلتها الأساسية: توزيع الأراضي على الفلاحين، وأن يتشكل من الطبقة الاجتماعية الجديدة جيش ظافر. ولم تكن الثورة في القرن الثامن عشر قادرة على السير أبعد من ذلك، ولم يكن أمامها إلا أن تتراجع. ولكن مكتسباتها تعرضت للخطر خلال هذه التراجعات، وكان لا بُدَّ من الحفاظ عليها بأي ثمن. وكان الصراع العميق الذي لم يصل بعد إلى النضج الكامل بين البرجوازية والبروليتاريا، يضع الأمة المهزوزة حتى أعماق مرتكزاتها، في وضع جد متوتر. وكان "الحَكَم" الوطني في هذه الظروف ضروريًّا. وضمن نابليون لكبار البورجوازيين إمكانية تحقيق الأرباح، وضمن للفلاحين الحفاظ على قطع الأرض التي أخذوها، وضمن لأبناء الفلاحين والمعدمين الحفاة إمكانية النهب خلال الحرب. وكان القاضي يحمل السيف بيده. ويقوم بنفسه بوظيفة المسئول عن المصادرات. وكانت بونابارتية أول بونابارت مرتكزة إلى أسس قوية.

ولم يعط انقلاب ١٨٤٨ الأراضي للفلاحين، ولم يكن بمقدوره أن يفعل ذلك، ولم يكن الأمر ثورة كبيرة تستبدل نظامًا اجتماعيًّا بنظام آخر، ولكنه كان تعديلاً سياسيًّا على قواعد النظام الاجتماعي نفسه. ولم يكن وراء نابليون الثالث جيش ظافر. وكان العاملان الرئيسيان للبونابرتية مفقودين. بَيْد أنه كان هناك ظروف ملائمة أخرى، لا تقل عن هذين العاملين أهمية. إن البروليتاريا التي نمت خلال خمسين عامًا، أظهرت في يونيو (حزيران) قوتها المهددة، ولكنها ظهرت مع ذلك عاجزة عن الاستيلاء على السلطة. وكانت البرجوازية تخشى البروليتاريا كما تخشى الانتصار الدامي الذي حققته ضد هذه الطبقة. وخاف الفلاح المالك أمام انتفاضة يونيو (حزيران)، وأراد أن تحميه الدولة من هؤلاء الراغبين باقتسام أملاك الآخرين. وأخيرًا، فإن المد الصناعي الذي دام خلال عشرين سنة، تخللتها بعض التوقفات القصيرة، فتح أمام البرجوازية مصادر لا تقدر للإثراء. وكانت هذه الظروف كافية لظهور بونابارتية الخَلَف.

ولقد أشرنا من قبل أكثر من مرة إلى أن سياسة بسمارك الذي رفع نفسه "فوق الطبقات"، تتسم بملامح أكيدة من البونابارتية، تختفي تحت مظاهر الشرعية. وكان ثبات نظام بسمارك ناجمًا عن أنه جاء بعد ثورة كسيحة، وأعطى حلاً أو نصف حل للمعضلة القومية الكبيرة المتمثلة بالوحدة الألمانية، وحقق النصر في ثلاث حروب، وأعطى دفعًا لرأسمالية قوية مزدهرة. وكان هذا كافيًا للبقاء عشرات السنين.

ولم يأت سوء حظ الروس الذين رشحوا أنفسهم للعب دور بونابارت من أنهم لم يكونوا يشبهون نابليون الأول أو بسمارك، فالتاريخ يعرف كيف يستخدم البديل. ولكن حظهم السيئ جاء من أنهم وجدوا ضدهم ثورة كبيرة لم تحل بعد معضلاتها، ولم تستنفذ قواها. وكان الفلاح الذي لم يحصل على الأرض بعد يضطر تحت ضغط البرجوازية للمشاركة في حرب يدافع خلالها عن ممتلكات النبلاء. ولم تأت الحرب إلا بالهزائم. ولم يكن هناك أي أمل بانطلاقة اقتصادية، بل كان الاضطراب يسبب على العكس تخريبات دائمة. وكان تراجع البروليتاريا يستهدف ضم صفوفها. واهتزت الطبقة الفلاحية استعدادًا للقيام بآخر دفعة ضد السادة الملاكين. وانتقلت القوميات المضطهدة إلى الهجوم ضد طغيان الترويس[٤]. وكان الجيش الباحث عن السلام يرتبط بشكل متزايد مع العمال وحزبهم. وتدعمت الصفوف في الأسفل، على حين ساد التفتت في الأعلى. ولم يعد هناك أي توازن. وبقيت الثورة في عنفوانها، ولذا فليس من المستغرب أن تكون البونابارتية ضعيفة خائرة القوى.

لقد قارن ماركس وانجلس دور النظام البونابارتي في الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا بدور الملكية المطلقة القديمة خلال الصراع بين الإقطاعيين والبرجوازية. وتبدو مظاهر المقارنة واضحة لا شك فيها. ولكنها لم تعد موجودة في المكان الذي يظهر فيه المحتوى الاجتماعي للسلطة. وكان دور الحَكَم بين عناصر المجتمعين القديم والجديد ممكنًا في فترة ما، طالما أن نظامي الاستغلال كانا بحاجة للدفاع عن النفس ضد المستغلين. ولكنه لم يكن من الممكن وجود وسيط "إمبراطوري" بين الإقطاعيين والأقنان. ولقد قامت البيروقراطية القيصرية بدور توفيقي لتأمين مصالح ملاكي الأرض النبلاء مع مصالح الرأسمالية الجديدة. ولكنها لم تتصرف إزاء الفلاحين آنذاك كوسيط، بل كوكيل لسلطة الطبقات المستغِلة.

ولم تكن البونابارتية حَكَمًا بين البروليتاريا والبرجوازية، بل كانت في الحقيقة سلطة البرجوازية المركزة على البروليتاريا. إن أي بونابرت يضع حذاءه العسكري على عنق الأمة، لا يستطيع إلا ممارسة سياسة حماية الملكية، والدخل، والربح. ولا تذهب خصائص النظام إلى أبعد من وسائل الحماية. ولا يقف الحارس أمام الباب، إنه جالس على السدة العالية، ولكن مهمته تبقى كما هي. وهكذا فإن استقلال البونابارتية أمر ظاهري مزيف تزييني إلى حد بعيد، وهو يأخذ المعطف الإمبراطوري رمزًا له.

لقد استغل بسمارك خوف البرجوازية من العامل، ولكنه بقي في كل إصلاحاته السياسية والاجتماعية وكيل سلطة الطبقات المالكة التي لم يخنها أبدًا. ولكن ضغط البروليتاريا المتزايد سمح له بالسمو فوق اليونكرز والرأسماليين، والقيام بدور الحَكم البيروقراطي، وكانت هذه وظيفته.

ويقبل النظام السوفييتي استقلالاً كبيرًا في السلطة بالنسبة للبروليتاريا والفلاحين. كما أنه يقبل "الحَكَمية" بين هاتين الطبقتين طالما أن مصالحهما قابلة للتوافق في نهاية المطاف، رغم أنها تخلق عددًا من الصراعات والاحتكاكات. ولكن ليس من السهل إيجاد حَكَم "إمبراطوري" بين الدولة السوفييتية والدولة البرجوازية، وخاصة في مجال مصالح الطرفين الجوهرية. **إن الأسباب الدولية التي تمنع الاتحاد السوفييتي من الانضمام إلى عصبة الأمم، هي نفس الأسباب التي تستبعد في المجال الوطني إمكانية اتسام السلطة "بنزاهة" حقيقية غير مصطنعة بين البرجوازية والبروليتاريا...**

ولم تكن الكرنسكية تملك قوة البونابارتية، ولكنها كانت تحمل كافة عيوبها. إنها لم ترتفع فوق الأمة إلا لتفسدها بعجزها الداخلي الخاص. صحيح إن زعماء البرجوازية والديمقراطية تعهدوا لفظًا "بإطاعة" كرنسكي، ولكن الحَكَم القوي كان يطيع في الحقيقة ميليوكوف، ويخضع بصورة خاصة لبوكانان. لقد تابع كرنسكي الحرب الإمبريالية، وحمى ممتلكات النبلاء ضد كل المحاولات، وأجَّل الإصلاحات الاجتماعية إلى وقت أفضل. ويرجع السبب في ضعف حكومته إلى أن البرجوازية كانت عاجزة عن وضع رجالها في السلطة. ومهما كانت تفاهة "حكومة الخلاص"، فإن طبيعتها: الرجعية - الرأسمالية كانت تتزايد بتزايد "استقلالها".

ولكن فهم السياسيين البورجوازيين بأن نظام كرنسكي كان شكلاً لا يمكن الاستغناء عنه من أشكال سيطرة البرجوازية في مرحلة محددة، لم يمنع هؤلاء السياسيين من إبداء سخطهم على كرنسكي، والإعداد للتخلص منه بأسرع وقت ممكن. ولم يكن في وسط الطبقات المالكة أي خلاف حول ضرورة معارضة الحكم الوطني الذي رفعته الديمقراطية البرجوازية الصغيرة بشخص تختاره الطبقات المالكة من بين صفوفها. ولكن لِمَ اختِير كورنيلوف بالذات؟ لقد كان على المرشح القيام بدور بونابارت أن يلائم شخصية البرجوازية الروسية، المتخلفة، المعزولة عن الشعب، المتدهورة، العاجزة. ولم يكن من السهل إيجاد جنرال يتمتع بالشعبية في جيش لم يعرف سوى الهزائم. ولقد تم اختيار كورنيلوف، من بين مرشحين أقل منه صلاحية.

وهكذا لم يكن التوفيقيون قادرين على التآلف مع الليبراليين، أو الاتفاق معهم على مرشح لدور المنقذ، وكان المانع أمام كل هذا كامنًا في معضلات الثورة التي لم تجد حلاً. ولم يكن الليبراليون يثقون بالديموقراطيين، كما لم يكن الديموقراطيون يثقون بالليبراليين. ولقد فتح كرنسكي ذراعيه في الحقيقة للبرجوازية، ولكن كورنيلوف أفهم الجميع بلا تردد بأنه سيدق عنق الديمقراطية عند أول فرصة ملائمة. ولقد جاء الصراع بين كورنيلوف وكرنسكي من التطور السابق، وكان عبارة عن ترجمة عدم إمكانية تعايش ازدواجية السلطة، إلى لغة الطموحات الشخصية المتفجرة.

وكما تشكَّل بين صفوف البروليتاريا والحامية في بتروغراد في مطلع يوليو (تموز) جناح متعجل، متذمر من سياسة البلاشفة الحذرة، فقد تراكم عند الطبقات المالكة في مطلع شهر أغسطس (آب) قسط من انعدام الصبر إزاء سياسة التأجيل التي تمارسها قيادة الكاديت. وظهرت هذه الحالة الفكرية مثلاً في مؤتمر الكاديت الذي طالب البعض فيه بقلب كرنسكي. وكان انعدام الصبر يظهر بشكل أشد عنفًا خارج حزب الكاديت، داخل هيئات الأركان العسكرية؛ حيث كان الضباط يحسون بخوف دائم من الجنود، وداخل المصارف التي جرفها التضخم، وفي الإقطاعيات؛ حيث تحترق الأسقف فوق رءوس السادة الملاكين. وغدت جملة "عاش كورنيلوف" شعار الأمل واليأس، والتعطش للانتقام.

ووافق كرنسكي على برنامج كورنيلوف كله، وأخذ يناقش التفاصيل: "ليس بالإمكان القيام بكل هذا دفعة واحدة". وأحس ميليوكوف بضرورة الانفصال عن كرنسكي فقال للمتعجلين الذين عيل صبرهم: "يبدو أن الوقت لا يزال مبكرًا". وكما انبثق عن اندفاع جماهير بتروغراد نصف انتفاضة يوليو (تموز)، فإن فقدان الملاكين لصبرهم أوحى بتمرد كورنيلوف في أغسطس (آب). وكما وجد البلاشفة أنفسهم مضطرين للوقوف على أرض المظاهرة المسلحة لضمان النجاح، إذا كان النجاح ممكنًا، ولحماية المظاهرة على كل حال من السحق الكامل، فقد وجد الكاديت أنهم مجبرون على الوقوف فوق أرض تمرد كورنيلوف. وأننا لنجد ضمن هذه الشروط تناظرًا عجيبًا. ولكنا نجد وسط إطار هذا التناظر تعارضًا كاملاً للأهداف، والوسائل، والنتائج. ولقد كشفت لنا الأحداث ذلك فيما بعد بكل وضوح.

الهوامش

١. على غرار أيام يوليو (تموز).
٢. Le Maure ويُقصد به عطيل "Le Maure de Venise" في رواية عطيل لشكسبير. (المعربان).
٣. نابليون بونابرت.
٤. Russification، الترويس، على غرار التعريب والتتريك... إلخ. (المعربان)

مؤامرة كرنسكي

لم يؤد مؤتمر موسكو إلا إلى زيادة خطورة موقف الحكومة، بعد أن كشف -حسب التقدير الصحيح لميليوكوف- بأن "البلاد منقسمة إلى معسكرين لا يمكن أن يتم بينهما أي صلح أو اتفاق أساسيٍّ، ورفع المؤتمر روح البرجوازية، واستثار تحرّقها وانعدام صبرها. ولكنه أعطى في الوقت نفسه دفعة جديدة لحركة الجماهير. وفتح إضراب موسكو مرحلة تجمع سريع للعمال والجنود نحو اليسار. وتزايدت صفوف البلاشفة منذ هذه اللحظة بشكل لا يقاوم. ولم تعد الجماهير تعترف إلا بالبلاشفة والاشتراكيين - الثوريين اليساريين، بالإضافة إلى اعترافها الجزئي بالمناشفة اليساريين. بالإضافة إلى الاعتراف الجزئي بالمناشفة اليساريين، وأعلن التنظيم المنشفي في بتروغراد عن تطوره السياسي، وذلك عندما استبعد تسيريتلي من لائحة المرشحين لمجلس دوما البلدية. وفي ١٦ أغسطس (آب) أقر اجتماع الاشتراكيين - الثوريين في بتروغراد بـ٢٢ صوتًا ضد صوت واحد المطالبة بحل اتحاد الضباط المرتبط بالقيادة العامة. وطالب بتدابير حاسمة أخرى لدرء الثورة المضادة. وفي ١٨ أغسطس (آب) وضع سوفييت بتروغراد مسألة إلغاء عقوبة الإعدام على جدول أعماله رغم معارضة رئيسه تشخيدزه. وقبل التصويت على المقررات سأل تسيريتلي بلهجة استفزازية: "ماذا ستفعلون إذا لم تُلغ عقوبة الإعدام بعد اتخاذكم لقرار الإلغاء. وهل ستدعون الجماهير للنزول إلى الشارع والمطالبة بقلب الحكومة؟"، ورد البلاشفة على سؤاله صارخين "نعم، سندعو الجماهير، وسنحاول قلب الحكومة". وأجاب تسيريتلي "لقد رفعتم رأسكم الآن عاليًا". حقًا، لقد رفع البلاشفة رأسهم مع الجماهير. وخفض التوفيقيون رءوسهم عندما رفعت الجماهير رأسها. وتمت الموافقة على إلغاء عقوبة الإعدام بالإجماع تقريبًا؛ إذ صوّت إلى جانب الإلغاء حوالي ٩٠٠ عضو مقابل ٤ أعضاء فقط هم: تسيريتلي، وتشخيدزه، ودان، وليبر! وبعد أربعة أيام، عُقد مؤتمر توحيد المناشفة والمجموعات المجاورة لهم؛ حيث أقرت مقررات تسيريتلي حول المسائل الرئيسية التي عارضها مارتوف. ولكن هذا المؤتمر وافق بلا مناقشة على ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام فورًا. وصمت تسيريتلي، بعد أن فقد القدرة على مقاومة الضغط.

وجاءت أحداث الجبهة وسط المناخ السياسي المتوتر بصورة متزايدة؛ إذ خرق الألمان خط القوات الروسية قرب أيكسكول في ١٩ أغسطس (آب)، واحتلوا ريغا في ٢١. وكان تحقق نبوءة كورنيلوف، إشارة هجوم البرجوازية السياسي المتفق عليه من قبل. وضاعفت الصحافة حملتها على "العمال الذين لا يعملون أبدًا"، و"الجنود الذين لا يقاتلون البتة". واعتُبرت الثورة مسئولة عن كل شيء؛ لقد سُلمت ريغا للعدو، وهو يستعد لتسليم بتروغراد. وكانت الحملة ضد الجيش عنيفة كالحملة التي شنتها البرجوازية قبل ستة أسابيع أو شهرين. ولكنها لم تكن هذه المرة مبررة بأي عذر. ففي يونيو (حزيران) رفض الجنود بالفعل شن الهجوم؛ إذ لم يكونوا يودون قلب الجبهة، وانتزاع الألمان من سلبيتهم، وبدء المعارك من جديد. ولكن مهاجمة ريغا تمت بمبادهة العدو، وكانت حالة الجنود الفكرية مختلفة. وظهر أن وحدات الجيش الثاني عشر المتأثرة بالدعاية الثورية أكثر من غيرها، كانت أقل الوحدات تعرضًا للهلع أمام الخطر.

ويفاخر قائد أحد الجيوش، الجنرال بارسكي، بأنه شهد تنفيذ التراجع بشكل "أنموذجي"، يختلف كل الاختلاف عن الانسحاب في غاليسيا أو بروسيا الشرقية. وقال المفوض فويتنسكي في أحد تقاريره: "تنفذ وحداتنا في قطاع خرق الجبهة مهماتها بلا تردد وبكفاءة تامة. ولكنها لا تتمتع بقوة تسمح لها بمقاومة ضغط العدو طويلاً. وهي تتراجع ببطء خطوة أثر أخرى. وتتعرض لخسائر فادحة وإنني أرى أن من الضروري الإشارة إلى كفاءة الرماة الليتونين، الذين تجمع الأحياء منهم رغم حالة الإنهاك التي يعيشونها، وعادوا إلى القتال...".

وكانت لهجة تقرير المنشفي كوتشين رئيس لجنة الجيش أشد حماسًا: "إن حالة الجنود النفسية تثير الدهشة. وتقول شهادات أعضاء اللجنة، وضباط الوحدات، بأن قدرة المقاومة كبيرة لدرجة لم تعرف من قبل". وبعد عدة أيام، رفع أحد مندوبي هذا الجيش نفسه تقريرًا إلى اجتماع مكتب اللجنة التنفيذية قال فيه: "ولم يكن في مؤخرة الجبهة المخروقة سوى لواء ليتوني، يتألف كله تقريبًا من البلاشفة. وما أن تلقى (اللواء) أمر الحركة، حتى تقدم بأبواقه وراياته الحمراء، وقاتل بشجاعة بالغة". وكتب ستانكيفيتش فيما بعد بالروح نفسها، ولكن مع شيء من التحفظ فقال: "وحتى في هيئة أركان الجيش، التي تضم أشخاصًا يعملون ما في وسعهم ويعلم الجميع، لإلقاء الخطيئة على عاتق الجنود، فإنني لم أجد حالة واحدة ملموسة تؤكد عدم تنفيذ أوامر القتال، أو عدم تنفيذ أي أمر من أي نوع". وتشير الوثائق الرسمية إلى أن بحارة الأسطول أبدوا حزمًا كبيرًا خلال عملية الإنزال عند مونسوند.

وكان يكفي لرفع معنويات القطعات، وخاصة قطعات الرماة الليتونيين وبحارة الأسطول أن يعرف الجنود والبحارة في هذه المرة بأن الأمر يتعلق مباشرة بالدفاع عن مركزين من مراكز الثورة هما: ريغا وبتروغراد. وكانت القطعات الأكثر تطورًا قد تشبعت بالفكرة البلشفية القائلة بأن "غرس الحربة بالأرض" لا يعني حل مسألة الحرب، وأن الصراع في سبيل السلم لا ينفصل عن الصراع للاستيلاء على السلطة، أي أنه لا ينفصل عن شن ثورة جديدة.

وإذا كان بعض المفوضين الخاضعين لضغط الجنرالات قد بالغوا في تقدير مقاومة الجيش، فإن من المؤكد أن الجنود والبحارة كانوا ينفذون الأوامر ويذهبون إلى الموت. ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا أكثر من ذلك. ولكن الدفاع بمجمله لم يعد مع ذلك موجودًا. ومهما بدا لنا الأمر غريبًا، فإن الجيش الثاني عشر تعرض للمفاجأة الكاملة. وظهر النقص في كل مجال: الرجال، والمدافع، والذخائر، وأقنعة الغاز. وظهر تنظيم مصلحة الإشارة ضعيفًا بشكل كارثوي. ولقد تأجلت الهجمات نظرًا لأن الجنود المزودين ببنادق روسية كانوا يتلقون الذخيرة المخصصة لبنادق يابانية. ولم يكن الأمر يتعلق بحادث عرضي في قطاع واحد من الجبهة.

ولم يكن مغزى سقوط ريغا سرًا بالنسبة للقيادة العليا. فكيف يمكن تفسير الوضع البائس لقوى وإمكانات الدفاع في الجيش الثاني عشر؟ ويكتب ستانكيفيتش بهذا الصدد: "... عمل البلاشفة على نشر إشاعة تقول بأن المدينة سُلمت للألمان وفق مخطط مقصود؛ نظرًا لأن القيادة أرادت التخلص من هذا العش، وهذه البؤرة البلشفية. ولاقت هذه الإشاعة قبولاً داخل جيش كان أفراده يعرفون بأنه لم يكن هناك بصورة عامة أو مقاومة"، والحقيقة أن الجنرالين روسكي وبروسيلوف اشتكيا منذ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٦ من أن ريغا تمثل "جرح الجبهة الشمالية" و"عشًا سيطرت عليه الدعاية"، وأن النضال ضد هذا الخطر لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الإعدامات. ولا شك في أن التخلي عن عمال ريغا وجنودها لمدرسة الاحتلال العسكري الألماني، كان حلمًا داعب عددًا كبيرًا من جنرالات الجبهة الشمالية.

ولم يخطر على بال أي إنسان أن القائد الأعلى أصدر الأمر بتسليم ريغا. ولكن كافة القيادات العليا سمعت خطاب كورنيلوف، والحديث الصحفي الذي أدلى به رئيس أركانه لوكومسكي. وكان هذا كله بمثابة الأمر. وكان كليمبوفسكي قائد قوات الجبهة الشمالية، تابعًا لشلة ضيقة من شلل المتآمرين، وكان ينتظر استسلام ريغا كإشارة البدء بعمليات إنقاذ. ولو كانت الظروف طبيعية، لفضّل الجنرالات الروس فتح المواقع والقيام بقتال تراجعي. أما الآن، فقد خففت القيادة العليا مسئولياتهم، وحملت هذه المسئوليات على عاتقها. كما أن المصلحة السياسية دفعتهم على طريق الانهزامية، فلم يقوموا حتى بمحاولة دفاعية. بَيْد أن قيام هذا الجنرال أو ذاك بإضافة نشاط ضار إلى التخريب السلبي للدفاع عبارة عن مسألة ثانوية. ويصعب حلها بسبب جوهرها نفسه. ولكن من السذاجة الاعتقاد بأن الجنرالات أحجموا عن إعطاء دفعة للمصير المحدد في كل مناسبة يضمنون فيها مرور خيانتهم بلا عقاب.

ولقد أكد الصحفي الأمريكي جون ريد، الذي كان يعرف كيف يرى ويسمع، والذي ترك كتابًا خالدًا حول أيام ثورة أكتوبر، إن جزءًا كبيرًا من الطبقات المالكة الروسية، كان يفضل انتصار الألمان على انتصار الثورة. ولا يتردد في الحديث عن ذلك بشكل مكشوف. ويقدم جون ريد هذا المثل من بين أمثلة عديدة أخرى: "خلال سهرة قضيتها عند أحد تجار موسكو، سئل الحاضرون الأحد عشر عند تقديم الشاي، هل يفضلون غليوم أم البلاشفة. فأعلن عشرة منهم أنهم يفضلون غليوم" **(عشرة أيام هزت العالم، الطبعة الفرنسية، ص ٣٣)**. ولقد تحدث الكاتب الأمريكي نفسه عن الجبهة الشمالية مع عدد من الضباط "الذين كانوا يفضلون بصراحة الكارثة العسكرية على التعاون مع لجان الجنود" (ص ٣٣).

أما من أجل الاتهام السياسي الذي أطلقه البلاشفة، ولم يكونوا الوحيدين الذين أطلقوه. فقد كان يكفي أن يدخل استسلام ريغا في خطة المتآمرين، وأن يأخذ موعدًا محددًا في تقويمهم. وكان من الممكن قراءة هذا بكل وضوح بين أسطر خطاب كورنيلوف في موسكو. ثم أوضحت الأحداث التي تلت ذلك هذا الجزء من القضية. ولكننا نملك بالإضافة إلى ذلك شهادة مباشرة. تتمتع بصحة كبيرة ناجمة عن شخصية صاحبها ميليوكوف الذي يقول في تاريخه: "وفي موسكو نفسها، حدد كورنيلوف في خطابه اللحظة التي لا يود بعدها تأجيل التدابير الحازمة. "لإنقاذ البلاد من الضياع، والجيش من الانحلال". وكانت هذه اللحظة هي سقوط ريغا الذي تنبأ به... وكان يعتقد بأن هذا الحدث سيسبب ولا شك انتفاضة وطنية... ولقد صرح لي كورنيلوف شخصيًّا خلال حديثي معه في ١٣ أغسطس (آب) في موسكو، بأنه لا ينوي إضاعة هذه الفرصة. وكانت لحظة الصراع المكشوف مع حكومة كرنسكي ماثلة في ذهنه، بكل دقة بما في ذلك تاريخها المحدد مسبقًا في ٢٧ أغسطس (آب). فهل يمكن التحدث بشكل أكثر صراحة؟ لقد كانت مسيرة كورنيلوف نحو بتروغراد بحاجة لسقوط ريغا بِيَد الأعداء قبل تاريخ عمليته المحددة بعدة أيام. على حين كان تدعيم مواقع ريغا، واتخاذ تدابير دفاعية جادة، يعني إلغاء خطة حملة أخرى تتمتع بالنسبة لكورنيلوف بأهمية أكبر. وإذا كانت باريس تستحق القيام بصلاة[1]، فإن الوصول إلى السلطة يستحق التضحية بريغا.

وخلال الأسبوع الذي انقضى بين استسلام ريغا، وعصيان كورنيلوف، غدا مقر القيادة العليا مركزًا أساسيًّا لتوجيه الاتهامات ضد الجيش. ووجدت معلومات هيئة الأركان الروسية، والصحافة الروسية صداها المباشر في صحافة الحلفاء. ونقلت الصحف الوطنية الروسية بدورها وبكل سرور سخريات وإهانات **التايمز، والتام، والماتان** الموجهة إلى الجيش الروسي. وامتلأت جبهة الجنود بالكدر، والسخط، والغضب. وأحس المفوضون وأعضاء اللجان، وجلهم من التوفيقيين والوطنيين بأن الضربة أصابتهم في الصميم. وجاءت الاحتجاجات من كل حدب وصوب. وكان من أهم هذه الاحتجاجات الرسالة القادمة من **اللجنة التنفيذية للجبهة الرومانية، ومنطقة أوديسا، وأسطول البحر الأسود. (وهي مجموعة يرمز إليها بكلمة رومتشيرود)**، وطالبت هذه الرسالة اللجنة التنفيذية المركزية "أن تظهر لروسيا كلها عزة جنود الجبهة الرومانية وشجاعتهم التي لا مثيل لها، وأن توقف الحملة الصحفية ضد الجنود الذين يسقطون يوميًّا بالآلاف، في معارك ضارية، دفاعًا عن روسيا الثورية..."، وخرج القادة التوفيقيون من سلبيتهم تحت تأثير الاحتجاجات القادمة من الأسفل. وكتبت الأزفستيا عن حلفائها داخل التكتل ما يلي: "يبدو أنه ليس هناك وحلٌ لم تُلق به الصحف البرجوازية على الجيش الثوري". ولكن كل هذا لم يعط أي تأثير. لأن محاصرة الجيش ومطاردته جزء أساسي من المؤامرة التي تقف القيادة العليا في مركزها.

وبعد سقوط ريغا مباشرة، أصدر كورنيلوف أمرًا برقيًّا بإعدام عدد من الجنود على الطريق، وتحت أنظار الجنود الآخرين، لإرهابهم وإعطائهم المثل. ورد المفوض فويتنسكي والجنرال بارسكي بأنهما يريان أن تصرفات الجنود لا تبرر مثل هذه التدابير. فثار كورنيلوف وخرج عن طوره، وأعلن في اجتماع ممثلي اللجان الموجودين آنذاك في مقر القيادة العليا، بأنه سيحيل فويتنسكي وبارسكي إلى المحاكمة، لأنهما قدما تقارير خاطئة حول الوضع داخل الجيش. أي لأنهما رفضا حسب رأي ستانكيفيتش "القاء تبعة الأخطاء على عاتق الجنود". ولتكملة الصورة لا بُدَّ لنا أن نضيف بأن كورنيلوف أصدر لهيئات أركان

الجيش في اليوم نفسه، أمرًا يقضي بوضع لوائح تتضمن أسماء الضباط البلاشفة، وتقديمها للجنة اتحاد الضباط الرئيسية، أي للتنظيم المضاد للثورة، العامل تحت رئاسة الكاديت نوفوسيلتسيف، والذي كان أهم رافعة في المؤامرة. هكذا تصرف القائد الأعلى "جندي الثورة الأول**!**".

وقررت الأزفستيا كشف جزء من الستارة فكتبت: "أن ثلَّة غامضة، مقربة من الأوساط العليا إلى حد بعيد، تقوم الآن بعمل استفزازي رهيب"، وكان المقصود "بالثلة الغامضة" كورنيلوف وهيئة أركانه. وألقى برق الحرب الأهلية القادمة ضوءًا جديدًا لا على اليوم فحسب، بل على الأمس أيضًا. ولما قرر التوفيقيون الدفاع عن أنفسهم، عمدوا إلى كشف تصرف القيادة المشبوه خلال هجوم يونيو (حزيران). وتسربت إلى الصحف بصورة متزايدة معلومات تفصيلية عن الفرق والأفواج التي وجهت إليها هيئات الأركان اتهامات باطلة مُغرضة. وكتبت الأزفستيا: "ويحق لروسيا أن تصر على ضرورة كشف الحقيقة كلها حول انسحابنا في يوليو (تموز)، ولا شك في أن هذه السطور انتشرت بين الجنود والبحارة والعمال، وخاصة أولئك الذين اتهمهم الخصوم بأنهم سبب كارثة الجبهة، وزجوا بهم في السجون. وبعد يومين اضطرت الأزفستيا للتصريح بشكل أوضح بأن "القيادة العليا تلعب عن طريق بياناتها دورًا محددًا ضد الحكومة المؤقتة، والديمقراطية الثورية". وتصور هذه السطور الحكومة المؤقتة كضحية بريئة لمؤامرات القيادة العليا. ولكننا على يقين من أن الحكومة كانت تملك كافة الإمكانات لإعادة الجنرالات إلى صوابهم، ولكنها لم تفعل ذلك، لسبب واحد هو أنها لم تشأ أن تفعل.

وتبدي الـ"**رومتشيرود**" سخطها البالغ في الاحتجاج المذكور آنفًا ضد عملية القمع المنصبة على الجنود بخسة وغدر فتقول: "إن معلومات هيئة الأركان... تشير إلى تصرف الضابط النبيل، ويبدو أنها تتجاهل عن وعي وتصميم إخلاص الجنود لقضية الثورة". وظهر احتجاج الـ"رومتشيرود" في الصحافة بتاريخ ٢٢ أغسطس (آب)، ونُشر في اليوم التالي أمر صادر عن كرنسكي مخصص لتجميد الضباط الذين "تحملوا الإقلال من حقوقهم منذ الأيام الأولى للثورة" بالإضافة إلى تعرضهم لإهانات لا يستحقونها، صادرة عن جمهرة الجنود "التي كانت تغطي جبنها تحت شعارات أيديولوجية"، وفي الوقت الذي قام به أقرب مساعدي كرنسكي من أمثال ستانكيفيتش وفويتنسكي بالاحتجاج على حملة القدح الموجهة ضد الجنود، انضم كرنسكي نفسه إلى الحملة بشكل مكشوف، وتوَّجها بأمره الاستفزازي، والذي زاد من أهميته كونه صادرًا عن وزير الحربية ورئيس الحكومة. ولقد اعترف كرنسكي فيما بعد بأنه حصل منذ نهاية يوليو (تموز)، على "معلومات دقيقة" تتعلق بمؤامرة الضباط المتحلقين حول القيادة العليا. ويقول كرنسكي بأن "اللجنة الرئيسية لاتحاد الضباط قدمت من أوساطها متآمرين فعالين. وكان أعضاؤها أنفسهم عملاء المؤامرة في المدن. ولقد حدد هؤلاء الأعضاء اللون المطلوب بالنسبة للمظاهرات الشرعية التي قام بها الاتحاد". وهذا صحيح كل الصحة. ولكن من الأجدر أن نضيف بأن "اللون المطلوب" كان يعني الاتجاه نحو تحقير الجيش، واللجان، والثورة. وهو نفس اللون الذي اتسم به أمر كرنسكي الصادر في ٢٣ أغسطس (آب).

كيف يمكن تفسير هذا اللغز؟ إن من المؤكد أن كرنسكي لم يمارس سياسة معقولة ومنسجمة مع نفسها. ولكن كان عليه أن يكون معتوهًا حتى يضع عنقه تحت سيف المتآمرين، ويساعدهم في الوقت نفسه على تمويه تصرفاتهم رغم علمه بمؤامرة الضباط. إن تفسير تصرفات كرنسكي هذه، والتي تبدو للوهلة الأولى خاطئة غير معقولة، عبارة عن أمر على غاية من البساطة: لقد كان هو نفسه في تلك الفترة شريكًا في المؤامرة ضد نظام فبراير (شباط) الذي وقع في مأزق لا مخرج له.

وعندما جاءت لحظة الاعترافات، أعلن كرنسكي بأن أوساط القوزاق، والضباط، والسياسيين البورجوازيين اقترحت عليه فكرة الديكتاتورية الفردية أكثر من مرة. "ولكن كل هذا سقط على أرض جدباء..."، ولكن وضع كرنسكي كان يسمح لزعماء الثورة المضادة بأن يتبادلوا معه وجهات النظر حول الانقلاب دون أن يخشوا شيئًا. ويرى دينيكين أن "أول المحادثات حول الديكتاتورية جاءت كعملية سبر بسيطة"، وبدأت في مطلع يونيو (حزيران)، أي في فترة إعداد الهجوم على الجبهة. وكان

كرنسكي يحضر هذه المباحثات غالبًا. وفي هذه الحالة، كان من المعروف، وبالنسبة لكرنسكي بصورة خاصة، أنه سيكون في مركز الديكتاتورية في حالة النجاح. ويتحدث سوخانوف عنه بشكل صحيح فيقول: "لقد كان كورنيلوفيًّا، شريطة أن يكون على رأس الكورنيلوفية". وفي أيام فشل الهجوم، قدم كرنسكي لكورنيلوف ولعدد من الجنرالات وعودًا أكبر من قدراته وإمكاناته. ويقول الجنرال لوكومسكي: "وكان كرنسكي يتحدث خلال جولاته وزيارته إلى الجبهة عن شدة البأس. ولقد ناقش مع رفاق الطريق أكثر من مرة مسألة خلق سلطة قوية حازمة، وإنشاء ديريكتوار (حكم مديرين)، أو نقل السلطة لديكتاتور". وكانت طبيعة كرنسكي تجعله يدخل في أحاديثه عنصرًا غامضًا من الاستخفاف والهواية. على حين كان الجنرالات يحملون أفكارًا محددة بوضوح.

وأدت مشاركة كرنسكي غير الإجبارية في مباحثات الجنرالات إلى إضفاء صفة الشرعية، إذا شئنا القول، على **ديكتاتورية عسكرية غالبًا ما أخذت اسم ديريكتوار** على سبيل الحذر من الثورة التي لم تخمد بعد. فإلى أي مدى تم هنا التقليد التاريخي لحكومة فرنسا بعد تيرميدور؟ إن من الصعب الرد على هذا السؤال. ولكن بغض النظر عن التمويه اللفظي البحت، فقد كان الديريكتوار يمثل في البداية تسهيلاً لتقبل الخضوع المشترك للطموحات الفردية. وكان من الممكن أن يوجد داخل الديريكتوار مكان لا لكرنسكي وكورنيلوف فحسب، بل لسافينكوف أيضًا، أو حتى لفيلونينكو، وسيكون هناك بصورة عامة مكان لرجال يتمتعون "بإرادة حديدية" كما عن ذلك المرشحون لهذا الديريكتوار. **وكان كل واحد منهم يغذي في أعماقه فكرة الانتقال فيما بعد من الديكتاتورية الجماعية إلى الديكتاتورية الفردية.**

ولم يكن كرنسكي بحاجة للقيام بانعطاف كبير للتباحث مع القيادة العليا كمتآمر، ولم يكن عليه إلا أن يطور ويتابع ما بدأ به. وكان يرى أن بوسعه أن يوجه مؤامرة الجنرالات في الاتجاه الصحيح. وأن يجعلها تسقط لا على رأس البلاشفة فحسب، بل على رءوس حلفائه والأوصياء عليه من التوفيقيين أيضًا. وناور كرنسكي بشكل لا يكشف المتآمرين، ولكنه يخيفهم ويدفعهم إلى الدخول في لعبته. ولقد وصل في هذا المجال إلى الحد الذي يؤدي تجاوزه إلى تحويل رئيس الحكومة إلى متآمر غير شرعي. وفي مطلع سبتمبر (أيلول) كتب تروتسكي ما يلي: "كان كرنسكي بحاجة لضغط فعَّال من اليمين، ومن الشِلَل الرأسمالية، وسفارات الحلفاء، والقيادة العليا بصورة خاصة، كيما يأخذ نهائيًّا حريته الكاملة، وكان يود استخدام عصيان الجنرالات لتقوية ديكتاتوريته".

وجاءت لحظة الانعطاف مع انعقاد مؤتمر الدولة. فلقد عاد كرنسكي من موسكو حاملاً وهم الإمكانيات اللا محدودة، مع الإحساس بالذل الناجم عن الفشل الشخصي. وقرر أخيرًا التخلص من كافة الشكوك، والظهور أمامهم بكل حجمه. أمامهم؟ أمام من؟ أمام الجميع. وخاصة البلاشفة الذين وضعوا تحت التمثيلة الوطنية الفخمة لغمًا يتمثل في الإضراب العام. بالإضافة إلى ضرورة تسديد ضربة تعيد إلى الصواب كل هؤلاء اليمنيين من أمثال غوتشكوف وميليوكوف الذين لا يأخذونه مأخذ الجد، ويسخرون من تصرفاته، ويعتبرون سلطته ظل سلطة لا أكثر. وإعطاء درس قوي "لهؤلاء الآخرين" أساتذة التوفيقية من أمثال تسيريتلي المكروه، الذي تجرأ حتى في مؤتمر الدولة على نقده وتأنيبه، رغم أنه منتخب الأمة. وقرر كرنسكي بشدة وبشكل نهائي أن يبعث للعالم أجمع بأنه ليس "الهيستيري" أو "الممثل"، أو "راقصة الباليه"، كما يصفه القوزاق وضباط الحرس بصورة متزايدة يومًا بعد يوم، ولكنه رجل حديدي، أغلق قلبه بقفل مزدوج، وألقى المفتاح في البحر، رغم توسلات حسناء مجهولة في مقصورة من مقصورات المسرح.

ويشير ستانكيفيتش إلى أن كرنسكي حاول في هذه الأيام "بذل جهد واضح للتحدث بكلام جديد يتلاءم مع قلق البلاد واضطرابها. وقرر كرنسكي... أن ينفذ في الجيش عقوبات انضباطية. ويبدو أنه كان ميَّالاً لأن يطرح على الحكومة تدابير

حازمة أخرى". ولم يكن ستانكيفيتش يعرف من نوايا رئيسه، إلا ما كان هذا الرئيس يجد أن من المفيد إعلامه به. والحقيقة أن خطط كرنسكي وصلت في هذه الفترة إلى أبعد من ذلك. فلقد قرر تسديد ضربة واحدة تدمر الأرض تحت قدمي كورنيلوف، وذلك بأن يطبق برنامج الجنرال بشكل يجعل البرجوازية ترتبط به. لقد عجز غوتشكوف عن شن الهجوم العسكري، ونجح كرنسكي في دفع القطعات إلى الهجوم. ولا يستطيع كورنيلوف تنفيذ برنامجه. ولكن كرنسكي قادر على ذلك. وذكَّره إضراب موسكو بأن كثيرًا من الحواجز ستعترض هذا السبيل، ولكن أيام يوليو (تموز) علمته بأن من الممكن الانتصار في هذا المجال أيضًا. ولكن من الضروري دفع العمل في هذه المرة إلى أبعد مدى، دون السماح للأصدقاء اليساريين بعرقلة الحركة.

وكان عليه قبل كل شيء تعديل وضع حامية بتروغراد بشكل كامل؛ استبدال الأفواج الثورية بقطعات "سليمة" لا تستمع لأوامر السوفييتات. وليس من الممكن التعامل في هذا المجال مع اللجنة التنفيذية. كما أن مثل هذا التعامل عقيم لا جدوى منه. إن الحكومة مستقلة، ولقد تُوِّجت بهذا الشكل في موسكو. والحقيقة أن التوفيقيين يعتبرون هذا الاستقلال أمرًا شكليًّا، ووسيلة لتهدئة خواطر الليبراليين. ولكن كرنسكي سيقلب الصيغة الشكلية إلى حقيقة، وليس من العبث أنه صرح في موسكو بأنه لا يقف مع اليمنيين أو مع اليساريين، وأن قوته تكمن في هذا الموقف. وعليه الآن أن يثبت ذلك بالفعل!

واستمر تباعد خطوط التصرف التي سار عليها كل من اللجنة التنفيذية وكرنسكي بعد المؤتمر؛ فلقد خاف التوفيقيون من مدِّ الطبقات المالكة. وطالبت الجماهير الشعبية بإلغاء عقوبة الإعدام في الجبهة. وأصرَّ كورنيلوف، والكاديت، وسفراء الحلفاء على إقرار هذه العقوبة حتى في المؤخرة.

وفي ١٩ أغسطس (آب) أبرق كورنيلوف لرئيس الوزراء - وزير الحربية بما يلي: "أصرُّ على ضرورة إخضاع منطقة بتروغراد لأوامري"، إن القيادة العليا تمد يدها إلى العاصمة بصورة مكشوفة. وفي ٢٤ أغسطس (آب) جمعت اللجنة التنفيذية شجاعتها، وطالبت الحكومة بصورة علنية بضرورة وضع حدٍّ "للأعمال المضادة للثورة"، والبدء بتحقيق الإصلاحات الديمقراطية "دون تأخير وبكل فاعلية". وكان هذا القول لغة جديدة. وكان على كرنسكي أن يختار بين تبني خط ديموقراطي، يؤدي رغم كل ضعفه إلى القطيعة مع الليبراليين والجنرالات، أو السير وفق برنامج كورنيلوف بشكل يدخله في صراع محتوم مع السوفييتات. وقرر كرنسكي أن يمد يده لكورنيلوف، والكاديت، والحلفاء؛ إذ كان يبغي تحاشي الصراع المكشوف مع اليمين بأي ثمن.

وفي ٢١ أغسطس (آب)، صدر أمر يقضي بإيقاف شقيقي القيصر ميخائيل الكسندروفيتش وبولص الكسندروفيتش في مكان إقامتهما، ووضع عدد من الشخصيات بهذه المناسبة تحت المراقبة. ولكن كل هذه التصرفات كانت لا تتمتع بأية جدية. واضطرت الحكومة فيما بعد إلى إطلاق سراح السجناء. ولقد قال كرنسكي فيما بعد خلال شهادته حول قضية كورنيلوف: "... يبدو أننا وُجِّهنا عن قصد للسير على طريق خاطئة"، وهنا لا بُدَّ من أن نضيف: بمساعدة كرنسكي نفسه؛ إذ كان من الواضح بالنسبة للمتآمرين الجادين، أي بالنسبة للنصف اليميني من أعضاء مؤتمر موسكو، أن الحركة لا تستهدف أبدًا إعادة الملكية، بل تستهدف إقامة ديكتاتورية البرجوازية فوق الشعب. ولذا فقد كان كورنيلوف وكافة أتباعه يرفضون بسخرية كل الاتهامات المتعلقة بمخططات "مضادة للثورة"، أي بمخططات ملكية.

صحيح أن عددًا من الوجهاء السابقين، والمرافقين، ووصيفات الشرف، ورجال المائة السود المرتبطين بالبلاط، والسحرة، ورجال الدين، وراقصات الباليه كانوا يتهامسون فيما بينهم. ولكنهم كانوا يمثلون كمية لا أهمية لها. ولم يكن بوسع انتصار البرجوازية أن يأتي إلا تحت شكل ديكتاتورية عسكرية. أما مسألة الملكية، فكان طرحها أمرًا مرتبطًا بالمراحل التالية، شريطة أن يتم الطرح على قاعدة الثورة المضادة البرجوازية، لا بمساعدة وصيفات الشرف الراسبوتينيات. وكانت الحقيقة

بالنسبة للمرحلة المنتظرة هي صراع البرجوازية تحت لواء كورنيلوف ضد الشعب كله. ولقد أراد كرنسكي التحالف مع هذا المعسكر، ولكنه حاول إخفاء نفسه عن أنظار اليساريين المتشككين، فأوقف أشقاء الملك بشكل مزيف. وكانت آلية نشاطه واضحة لدرجة جعلت صحيفة البلاشفة في موسكو تكتب منذ ذلك الحين: "إن توقيف دميتين لا عقل لهما من شلة رومانوف، وترك الحرية الكاملة لشلة القادة العسكريين وعلى رأسهم كورنيلوف، لا يعني سوى خداع الشعب"، وهكذا غدا البلاشفة مكروهين، لأنهم يرون كل شيء، ويتحدثون عن كل شيء بصوت عالٍ.

وكان سافينكوف روح كرنسكي ودليله في هذه الأيام الحرجة. وهو مغامر من الطراز الأول وثوري من النوع الرياضي، الذي اكتسب احتقار الجماهير من عمله في مدرسة الإرهاب الفردي، ويتمتع سافينكوف بكثير من الصفات الحسنة والإرادة، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون خلال سنوات عديدة أداة بين يدي العميل المحرض المشهور آزيف، إنه متشكك تهكمي بمجون، يعتبر دون كبير خطأ بأن من حقه أن ينظر إلى كرنسكي من علٍ، وأن يؤدي له التحية باليد اليمنى ويقوده بيده اليسرى من أرنبة أنفه باحترام. وكان سافينكوف يفرض نفسه على كرنسكي كرجل عمل، على حين كان يفرض نفسه على كورنيلوف كثوري يتمتع باسم تاريخي.

وينقل ميليوكوف رواية غريبة لأول لقاء بين المفوض والجنرال كما أخبره بها سافينكوف نفسه. وتقول الرواية بأن سافينكوف قال: "إنني أعرف أيها الجنرال بأنه إذا ما جاءت ظروف تفرض عليكم إعدامي فإنكم ستفعلون ذلك"، وبعد وقفة صمت قصيرة أضاف سافينكوف: "ولكن إذا ما جاءت ظروف تفرض علي إعدامكم، فإنني سأفعل ذلك أيضًا". وكان سافينكوف مولعًا بالأدب ويعرف كورني وهيغو، ويميل إلى الأعمال الأدبية الكبيرة. وكان مستعدًا للتخلص من الثورة دون الاهتمام بالصيغ الكلاسيكية - المزيفة أو الرومانسية... ولم يكن الجنرال غريبًا عن سحر "الأسلوب الفني القوي": ولا شك أن أقوال الإرهابي القديم دغدغت ما تبقى من أعمال بطولية في العضو القديم لمنظمة المائة السود.

وبعد فترة طويلة ظهر في إحدى الصحف مقال بإيحاء أكيد من سافينكوف، ولعل سافينكوف ساعد على تدبيجه بأسلوبه. وتقول إحدى فقرات هذا المقال "وتوصل سافينكوف منذ أن كان مفوضًا إلى قناعة أكيدة بأن الحكومة المؤقتة لن تكون قادرة على إنقاذ البلاد من الوضع الأليم. هنا لا بُدَّ من أن تعمل قوى أخرى. ومع هذا فإن من المتعذر القيام بكل هذا العمل إلا تحت لواء الحكومة المؤقتة، وتحت قيادة كرنسكي بصورة خاصة. وهذا يعني خلق ديكتاتورية ثورية تقودها يدٌ حديدية. ولقد رأى سافينكوف هذه اليد... إنها يد الجنرال كورنيلوف" وهكذا فقد كان من الضروري وجود كرنسكي كتمويه "ثوري" ووجود كورنيلوف كيَدٍ حديدية.

ولا يتحدث المقال عن الشخص الثالث. ولكن ليس هناك شك في أن سافينكوف سعي لتوفيق القائد الأعلى مع رئيس الوزراء، مع الاحتفاظ بنية تصفيتهما فيما بعد. ولقد ظهرت هذه النية الخافية في فترة ما بشكل ملحوظ دفع كرنسكي إلى الخضوع لضغط كورنيلوف عشية مؤتمر الدولة وإجبار سافينكوف على الاستقالة. ولكن هذه الاستقالة لم تأخذ شكلاً نهائيًّا، وكان مثلها في ذلك كمثل كل ما يجري في هذا الوسط. ويقول فيلونينكو: "في ١٧ أغسطس (آب) تبين أنني سأحتفظ مع سافينكوف بوظيفتينا، وأن رئيس الوزراء وافق مبدئيًّا على البرنامج المذكور في التقرير الذي قدمه كورنيلوف وسافينكوف وأنا". ويدور الحديث هنا عن سافينكوف الذي تلقى من كرنسكي في ١٧ أغسطس (آب) "أمرًا بإعداد مشروع قانون للتدابير التي ينبغي أخذها في المؤخرة"، والذي شكَّل لهذا الغرض لجنة برئاسة الجنرال أبوشكين. وبالرغم من الخوف الذي أحسَّ به كرنسكي إزاء سافينكوف، فقد قرر استخدامه في خطته الكبرى. ولم يحتفظ له بوزارة الحربية فحسب، بل أعطاه بالإضافة إلى ذلك وزارة البحرية. ويرى ميليوكوف أن هذا يعني بأن الحكومة رأت "بأن الوقت قد حان للعمل، حتى ولو مع المجازفة بإنزال

البلاشفة إلى الشارع". وتحدث سافينكوف بهذه المناسبة فقال بشكل مكشوف "بأن فوجَين فقط قادران على سحق تمرد البلاشفة بسهولة وحل تنظيماتهم".

وكان كرنسكي يفهم جيدًا مثل سافينكوف، وخاصة بعد مؤتمر موسكو، بأن برنامج كورنيلوف لن يحظى بقبول السوفييتات التوفيقية. إن سوفييت بتروغراد الذي طالب بالأمس بإلغاء عقوبة الإعدام في الجبهة، سيقف غدًا بفاعلية مضاعفة ضد إقرار عقوبة الإعدام في المؤخرة! وكان الخطر ناجمًا من أن الحركة ضد الانقلاب الذي يفكر به كرنسكي ستقاد لا من قبل البلاشفة بل من قبل السوفييتات. بَيْد أنه لم يكن من الممكن التوقف أمام هذا الاعتبار، لأن الأمر يتعلق أخيرًا بخلاص البلاد!

ويكتب كرنسكي: "في ٢٢ أغسطس (آب) ذهب سافينكوف إلى مقر القيادة العليا لعدة أعمال (!) منها مطالبة الجنرال كورنيلوف باسمي، أن يضع تحت تصرف الحكومة فيْلقًا من الخيالة"، ويتحدث سافينكوف نفسه عن هذه المهمة وكأنه يبرر تصرفه أمام الرأي العام: "مطالبة الجنرال كورنيلوف بفليق من الخيالة لتطبيق حالة الطوارئ في بتروغراد بصورة فعلية، وحماية الحكومة المؤقتة ضد كافة المحاولات المضادة، وبخاصة (!) ضد محاولات البلاشفة، الذين يعدون هجومهم... حسب معلومات مصلحة مكافحة التجسس في الخارج، بالارتباط مع إنزال ألماني، وعصيان في فنلندا..." وكانت المعلومات العجيبة التي تقدمها مصلحة مكافحة التجسس لا تستهدف سوى إخفاء هذه الحقيقة بأن الحكومة نفسها قد تتحمل حسب تعبير ميليوكوف مسئولية "المجازفة بدعوة البلاشفة للنزول إلى الشارع"؛ أي أنها كانت مستعدة لإثارة عصيان. ولقد حدد زمن إصدار المراسيم الخاصة بالديكتاتورية العسكرية في آخر أيام أغسطس (آب)؛ ولذا حدد سافينكوف أن العصيان المنتظر سيتم في الفترة ذاتها.

وفي ٢٥ أغسطس (آب) عُطلت صحيفة البلاشفة: **البروليتاري** دون أي سبب واضح. فصدرت صحيفة **رابوتش (العامل)** لتحل محلها، وكتبت بأن البروليتاري قد عُطلت بعد يوم من قيامها بدعوة العمال والجنود، بمناسبة خرق الجبهة في ريغا، إلى الصمود والحفاظ على الهدوء. فمن هي اليد المهتمة بمنع العمال من سماع صوت الحزب الذي يحذرهم من التحريض المشبوه؟" وكان هذا السؤال يشير إلى كبد المسألة؛ إذ كان مصير الصحافة البلشفية بين يدي سافينكوف. وكان منع الصحيفة يقدم له ميزتين؛ أنه يستثير الجماهير، ويمنع الحزب من العمل على حمايتها ضد التحريض المغرض الذي كان يأتي هذه المرة من أوساط حكومية عليا.

وتقول محاضر اجتماعات القيادة العليا، التي أُدخلت عليها ولا شك بعض التعديلات، ولكنها حافظت مع ذلك على تلاؤمها مع طبيعة الموقف الأشخاص الأساسيين فيه، بأن سافينكوف صرح أمام كورنيلوف: "ستتحقق مطالبكم، لافرجيور جيفيتش (كورنيلوف)، بعد أيام قليلة. ولكن الحكومة تخشى في هذه الحالة أن تقع في بتروغراد تعقيدات جادة... إن نَشْرَ مطالبكم... سيدفع البلاشفة إلى العمل... وليس من المعروف كيف ستتصرف السوفييتات إزاء القانون الجديد. فقد تقف هذه السوفييتات ضد الحكومة... ولذا فإنني أرجوكم إصدار الأوامر كيما يكون فيلق الخيالة الثالث معسكرًا قرب بتروغراد عند نهاية أغسطس (آب)، وأن يوضع تحت تصرف الحكومة المؤقتة. فإذا ما عمل عدد من أعضاء السوفييت مع البلاشفة اضطررنا إلى ردعهم بشدة" وأضاف مبعوث كرنسكي بأن التدابير لا بُدَّ وأن تكون حاسمة شديدة لا رحمة فيها. وردَّ كورنيلوف على ذلك بأنه "لا يعرف شكلاً آخر للتدابير". ولقد قام سافينكوف فيما بعد تبرير تصرفه فأضاف: "إذًا كانت السوفييتات بلشفية في لحظة الانتفاضة البلشفية..." ولكن هذا القول خدعة مكشوفة؛ لأنه كان من المنتظر صدور المراسيم التي تعلن انقلاب كرنسكي بعد ثلاثة أو أربعة أيام؛ ولذا فقد كان الموضوع يتعلق بالسوفييتات القائمة في نهاية أغسطس (آب) لا بسوفيتات المستقبل.

ولتحاشي أي سوء تفاهم، وعدم استثارة عمل البلاشفة "قبل الوقت المحدد" تم التفاهم على ما يلي: البدء بجمع فيلق خيالة في بتروغراد، ثم إعلان حالة الطوارئ في المدينة، والقيام بعد ذلك كله بنشر القوانين الجديدة التي ستؤدي حتمًا إلى انتفاضة البلاشفة. ولقد كُتب هذا المخطط في محاضر اجتماعات القيادة العليا بكل وضوح "كيما تعرف الحكومة المؤقتة بالضبط متى ينبغي إعلان حالة الطوارئ في بتروغراد، ومتى يمكن إصدار القانون الجديد، ينبغي على كورنيلوف أن يبرق لسافينكوف بتاريخ اقتراب فيلق الخيالة من بتروغراد".

ويرى ستانكيفيتش أن الجنرالات المتآمرين فهموا "أن سافينكوف وكرنسكي... يودان القيام بانقلاب عسكري بمساعدة القيادة العليا. ولم يكونا راغبين بشيء آخر. وكانا يتعجلان الموافقة على كافة المطالب والشروط..." ولكن ستانكيفيتش المخلص لكرنسكي أشار إلى أن أعضاء القيادة العليا كانوا "يجمعون خطأ" كرنسكي وسافينكوف. ولكن كيف يمكن عدم جمعهما، طالما أن سافينكوف جاء بتكليف من كرنسكي، حاملاً طلبه الواضح الصريح؟ كما أن كرنسكي نفسه كتب ما يلي: "في ٢٥ أغسطس (آب) عاد سافينكوف من القيادة العليا، وأعلمني بأن هناك قوات ستوضع تحت تصرف الحكومة المؤقتة حسب الأصول" وحُدد مساء ٢٦ لقيام الحكومة بإقرار القانون الخاص بالتدابير المتعلقة بالمؤخرة، الذي سيكون فاتحة الأعمال الحاسمة لفليق الخيالة. وغدا كل شيء جاهزًا، ولم يبق إلا الضغط على الزر.

وتؤكد الأحداث، والوثائق، وشهادات المشتركين، واعترافات كرنسكي نفسه، بأن رئيس الوزراء كرنسكي تصرف دون علم جزء من حكومته، ومن خلف ظهر السوفييتات التي سلمته السلطة، وبصورة خفية عن الحزب الذي يدعى انتماءه إليه، واتفق مع قادة الجنرالات، على تعديل نظام الدولة تعديلاً جذريًا بمساعدة القوة المسلحة. فإذا ما استخدمنا مصطلحات القانون الجنائي، وجدنا أن التصرف بهذا الشكل يحمل اسمًا محددًا، وخاصة في الحالة التي يؤدي فيها المشروع إلى النصر. إن التناقض بين الطبيعة "الديمقراطية" لسياسة كرنسكي، وخطة إنقاذ البلاد بقوة السيف، لا يبدو تناقضًا متعذر الحل بالنسبة لمن ينظر إليه بصورة سطحية. والحقيقة أن كل خطة استخدام الخيالة جاءت من السياسة التوفيقية. فإذا اكتشفنا هذا السبب، وجدنا أن بوسعنا أن نتجاهل إلى حد بعيد شخصية كرنسكي، وخصائص الوسط الوطني، وأن نعتبر بأن الأمر كله يتعلق بالمنطق الموضوعي لحركة التوفيق في ظروف الثورة.

إن فريدريك ايبرت، ممثل الشعب الألماني، والتوفيقي الديموقرطي، لم يعمل تحت تصرف جنرالات الهوهنزولرن من وراء ظهر حزبه فحسب، ولكنه وجد نفسه منذ مطلع ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٨، شريكًا مباشرًا في مؤامرة عسكرية تستهدف اعتقال الجهاز الأعلى للمجالس، وإعلان ايبرت نفسه رئيسًا للجمهورية. وليس من قبيل الصدفة أن كرنسكي قدم ايبرت فيما بعد كمثال يحتذى لرجال الدولة.

وعندما انهارت كافة مخططات كرنسكي، ومخططات سافينكوف، ومخططات كورنيلوف، أكد كرنسكي الذي حمل على عاتقه مهمة محو الآثار ما يلي: "وبدا لي واضحًا بعد مؤتمر موسكو، أن أول محاولة انقلاب ستأتي من اليمين لا من اليسار". إن من المؤكد أن كرنسكي خاف من القيادة العليا، وتعاطف البرجوازية مع المتآمرين العسكريين. ولكن من المؤكد أيضًا أنه رأى ضرورة النضال ضد القيادة العليا. على أن لا يتم هذا النضال بواسطة فيلق الخيالة، بل عن طريق قيامه بتطبيق برنامج كورنيلوف. إن المندوب الذي بعث فيه رئيس الوزراء لم يقم فقط بمهمة عملية كان من الممكن القيام بها بواسطة برقية مشفرة صادرة من قصر الشتاء إلى موهيليف، ولكنه تصرف كوسيط للتوفيق بين كورنيلوف وكرنسكي، أي لتنسيق خططهما، وإعطاء الانقلاب أقصى حد ممكن من مظاهر الشرعية. وكأنما كان كرنسكي يقول عن طريق سافينكوف: "اعملوا، ولكن ضمن حدود مخططي، لأن ذلك سيجنبكم الخطر، وسيؤمن لكم الوصول إلى كل ما تودونه تقريبًا". ولقد أعطى سافينكوف من جهته هذا التوجيه: "لا تتجاوزوا قبل الأوان حدود مخططات كرنسكي"، هكذا كانت المعادلة الغريبة المعقدة ذات المجاهل الثلاثة. وضمن

هذا الأفق فقط يمكننا أن نفهم طلب كرنسكي من القيادة العليا عن طريق سافينكوف لوضع فيلق من الخيالة تحت تصرفه. لقد تلقى المتآمرون طلب القوات من شريك رفيع المنصب، يحافظ على وضعه الشرعي، ويحاول جاهدًا إخضاع المؤامرة كلها لنفوذه.

ومن بين التعليمات المعطاة إلى سافينكوف مهمة واحدة تبدو وكأنها موجهة ضد مؤامرة اليمين. إنها تتعلق باللجنة الرئيسية للضباط التي طالب مؤتمر حزب كرنسكي في بتروغراد بإلغائها. ولكن صيغة هذه المهمة غريبة تسترعي الانتباه: "**تصفية اتحاد الضباط ضمن حدود الإمكان**"، والأغرب من هذا أيضًا أن سافينكوف لم يكن بعيدًا عن تحقيق هذا العمل فحسب، بل تجاهله ولم يحاول تحقيقه. واكتفى بدفن المسألة على اعتبار أنها غير ملائمة. والحقيقة أن هذه المهمة لم تعط إلا لتتضمن الأوراق والوثائق أثرًا، وتبريرًا أمام اليساريين. وتدل كلمات "ضمن حدود الإمكان" على أن التنفيذ غير إلزامي. وللإشارة بشكل فج لطبيعة اللجنة التزيينية، فقد ذكرت هذه اللجنة في الأسطر الأولى.

وفي محاولة جادة لتخفيف المعنى الخطير لإخلاء العاصمة من الأفواج الثورية، والتوجه إلى كورنيلوف لإرسال قوات، ذكر كرنسكي فيما بعد الشروط الثلاثة المقدسة التي وضعها لاستدعاء فيلق الخيالة. وهكذا ففي الوقت الذي قرر به كرنسكي وضع منطقة بتروغراد العسكرية تحت قيادة كورنيلوف اشترط أن تُفصل عن هذه المنطقة العاصمة وضواحيها، حتى لا تجد الحكومة نفسها تمامًا بين يدي القيادة العليا، ولقد عبر كرنسكي عن ذلك بين أنصاره بضرورة عدم البقاء بين يدي القيادة العليا "وإلا كنا من المأكولين". ويبرهن هذا الشرط على أن كرنسكي الذي حلم بإخضاع الجنرالات لمخططاته لم يكن يمتلك سوى حجج واهية عاجزة. أما رغبة كرنسكي بأن لا يكون فريسة للجنرالات، فإننا نفهمها دون الحاجة لبراهين.

وكان الشرطان الآخران على المستوى نفسه؛ لقد كان على كورنيلوف أن لا يبعث مع قوات الفيلق المُرسل الفرقة "الوحشية" المؤلفة من جبليي القفقاس، وأن لا يضع الجنرال كريموف على رأس الفيلق. وكان هذان الشرطان يعنيان على مستوى حماية مصالح الديمقراطية ابتلاع الجمل ومحاولة تصفية الناموس بالمنخل. أما إذا نظرنا إليهما من زاوية إخفاء الضربة المسددة إلى الثورة، وجدنا أن لهما معنى أشد عمقًا. إن توجيه الجبليين القفقاسيين الذين لا يتكلمون الروسية ضد عمال بتروغراد أمر على غاية من الطيش، حتى أن القيصر نفسه لم يجرؤ على القيام به خلال أيام حكمه! أما عدم ملاءمة تعيين الجنرال كريموف الذي تملك اللجنة التنفيذية بالنسبة إليه معلومات دقيقة إلى حد بعيد، فقد شُرحت بشكل مقنع من قبل سافينكوف الذي تحدث في القيادة العليا عن مصلحة القضية المشتركة فقال: "سيكون من المؤسف في حالة قيام انتفاضة في بتروغراد، أن يتم سحق الحركة على يَدِ الجنرال كريموف بالذات. فقد يعلق الرأي العام على اسمه آمالاً لا يستطيع تحقيقها...". وأخيرًا فإن قيام رئيس الحكومة بدعوة مفارز عسكرية إلى العاصمة، مع التحفظ برجاء غريب يدور حول عدم إرسال الفرقة "الوحشية" وعدم تعيين كريموف، يكشف بكل وضوح أن كرنسكي عرف مسبقًا لا الخطة العامة للمؤامرة فحسب، بل عرف أيضًا التشكيل المتوقع للقوات التأديبية، وأسماء المرشحين للعب الأدوار الأولى في التنفيذ.

ومهما يكن من أمر، فإن الظروف الثانوية المذكورة سابقًا تدل بوضوح على تعذر استخدام فيلق خيالة كورنيلوف للدفاع عن "الديمقراطية"، ولكن كرنسكي كان يعلم علم اليقين بأن هذا الفيلق هو أكثر قطعات الجيش "ضمانة"، وأشدها قدرة على لعب دور الإدارة الموثوقة ضد الثورة. والحقيقة أن كرنسكي كان يفضل أن يكون في بتروغراد قطعات مخلصة له شخصيًّا، وتقف فوق اليمين واليسار. وتدل الأحداث التي جرت بعد ذلك أن هذه القوات لم تكن في الحقيقة موجودة. ولم يكن هناك من يود مقاتلة الثورة سوى الكورنيلوفيين، وإلى الكورنيلوفيين توجَّه كرنسكي.

ولم تفعل التدابير العسكرية سوى أنها جاءت مكملة للسياسة. فقد كان السير العام للحكومة المؤقتة خلال الأسبوعين الأخيرين تقريبًا، وفصلها لمؤتمر موسكو عن عصيان كورنيلوف، عبارة عن أدلة كافية على أن كرنسكي لم يكن مستعدًا للصراع ضد اليمنيين، بل كان أقرب إلى التحالف معهم داخل جبهة موحدة مضادة للشعب. وتجاهلت الحكومة المؤقتة احتجاجات اللجنة التنفيذية الخاصة بالسياسة المضادة للثورة التي تمارسها هذه الحكومة. وقامت في ٢٦ أغسطس (آب) بخطوة جريئة لصالح ملاك الأراضي عندما قررت بصورة مفاجئة رفع أسعار الخبز إلى الضعف. ولكن طبيعة هذا التدبير المكروه الذي اتخذته الحكومة بناء على مطالبة رودزيانكو المكشوفة جعلته أشبه ما يكون بالتحدي الواعي للجماهير الجائعة. وحاول كرنسكي ولا شك اكتساب أقصى يمين مؤتمر موسكو بتقديم ثمن كبير لذلك. "إنني رجلكم!" هكذا قال لاتحاد الضباط، في رسالته المتملقة المجاملة التي وقعها في اليوم الذي أرسل به سافينكوف للتباحث مع أعضاء القيادة العليا. وصاح أمام الملاكين النبلاء "إنني رجلكم!" في عشية قيام الخيالة بحملتها التأديبية ضد كل ما تبقى من ثورة فبراير (شباط).

وكانت شهادات كرنسكي أمام لجنة التحقيق التي شكلها بنفس شهادات غير لائقة؛ فلقد ظهر رئيس الحكومة كشاهد، ولكنه أحس في النهاية بأنه المتهم الأساسي الذي قُبض عليه بالجرم المشهود. وتظاهر الموظفون المحنكون القادرون على فهم آلية الأحداث، بأنهم قانعون فعلاً بتفسيرات رئيس الحكومة. أما الشركاء الآخرون من أعضاء حزب كرنسكي، فكانوا يتساءلون بدهشة واضحة، كيف يمكن لفيلق ما أن يكون أهلاً لتنفيذ الانقلاب وسحقه بآنٍ واحد. إن قيام "اشتراكي - ثوري" بفتح أبواب العاصمة أمام قوات مسلحة تنوي خنق هذه العاصمة عمل على غاية من الطيش والإهمال. صحيح أن أهالي طروادة سمحوا في الماضي بدخول مفرزة معادية إلى قلب مدينتهم، ولكنهم كانوا يجهلون كل الجهل ما يحتويه هيكل الحصان الخشبي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أحد مؤرخي العصور القديمة يعارضون رواية الشاعر؛ إذ يرى بوزانياس، بأنه لا يسعنا تصديق هوميروس، إلا إذا اعتبرنا أن أهالي طروادة كانوا "حمقى، محرومين حتى من ظل العقل". ترى ماذا كان بوسع هذا المؤرخ أن يقول عن شهادات كرنسكي؟

الهوامش

١. من أقوال الملك هنري الرابع. (المعربان)

عصيان كورنيلوف

منذ مطلع شهر أغسطس (آب) أمر كورنيلوف بإرسال الفرقة "الوحشية" وفيلق الخيالة الثالث من الجبهة الجنوبية الغربية إلى المنطقة الواقعة داخل مثلث السكة الحديدية: (نيفل - نوفوسو كولينكي - فيليكي لوكي) الذي يمثل قاعدة جيدة للسير نحـو بتروغراد. وادَّعى بأن هذه القوات عبارة عن احتياط مخصص للدفاع عن ريغا. وفي الوقت نفسه قرر القائد الأعلـى تجميـع فرقة من القوزاق في المنطقة الواقعة بين فيبورغ وبييلوستروف في نقطة تشرف على رأس العاصـمة نفـسها -ولـيس بـين بييلوستروف وبتروغراد أكثر من ٣٠ كيلو مترًا- وأخذت هذه الفرقة شكل احتياط لعمليات محتملة ضد فنلندا. وهكذا تـم قبـل مؤتمر موسكو إعداد فرق الخيالة الأربع المعتبرة كأفضل القطعات للعمل ضد البلاشفة. وكانت الأوساط المؤيـدة لكورنيلـوف تتحدث عن الفرقة القفقاسية بكل بساطة قائلة: "لن يهتم هؤلاء الجبليون بمن يذبحون"، وكان المخطط الإستراتيجي بـسيطًا. إن من الضروري استخدام السكك الحديدية لنقل ثلاث فرق قادمة من الجنوب إلى تساركويه - سيلا، وغاتـشينا، وكراسـنويه - سيلا. ومن هناك تستطيع "في حالة السماع ببدء الاضطرابات في بتروغراد، وفي موعد لا يتجاوز صباح ١ سبتمبر (أيلـول)" التحرك بتشكيلة القتال، لاحتلال الجزء الجنوبي من العاصمة، على الضفة اليسرى لنهر النييفا. وكان على الفرقة المعسكرة فـي فنلندا، أن تعمل في الوقت نفسه على احتلال الجزء الشمالي من العاصمة.

واتصل كورنيلوف عن طريق اتحاد الضباط بالمجتمعات الوطنية في العاصمة، تلك المجتمعات التي أكَّدت أنهـا تملـك ألفي رجل مسلحين أكمل تسليح، ولكن حاجة هؤلاء الرجال لضباط مؤهلين بغية تدريبهم، جعل كورنيلـوف يعـدهم بإرسـال ضباط مدربين من الجبهة بحجة التمتع بإجازاتهم. ولضبط الحالة الفكرية لعمال بتروغراد وجنودها، ومراقبة نشاط الثوريين، تم تشكيل مصلحة لمكافحة التجسس تحت قيادة العقيد هيمان قائد الفرقة "الوحشية". وتم إعداد كل هذه الأمور ضمن إطار القوانين والأنظمة العسكرية؛ إذ كان المتآمرون يسيطرون على القيادة العليا نفسها.

وجاء مؤتمر موسكو ليساعد كورنيلوف على تنفيذ مخططاته. والحقيقة أن ميليوكوف نصح -حـسب أقوالـه- بتأجيـل العملية؛ نظرًا لأن كرنسكي لا يزال يتمتع في المحافظات بشيء من الشعبية. ولكن مثل هذه النصيحة لم تؤثر علـى الجنـرال الجامح؛ إذ لا يتعلق الأمر في نهاية المطاف بكرنسكي بل بالسوفييتات. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن ميليوكوف رجل عمل: فهو مجرد مدني لا أكثر، والأدهى من ذلك أنه بروفسور. وكان رجال المصارف، والصناعيون، وجنرالات القـوزاق يـضغطون، كما كان رجال الدين يباركون. وأعرب الضابط المرافق زافويكو عن إيمانه بالنجاح. وجاءت برقيات التأييد من كل مكان.

وشاركت دبلوماسية دول الحلفاء مشاركة فعالة في تعبئة القوى المضادة للثورة. وكان السير جورج بوكانان يمسك بـين يديه عددًا من خيوط المؤامرة. وقدم الملحقون العسكريون العاملون في القيادة العليا تأكيدات جلية على تعاطفهم. ويقول دينيكين: "وكان ممثل بريطانيا العظمى يفعل ذلك بشكل مؤثر"، ووقفت الحكومات خلف سفاراتها. وفـي ٢٣ أغـسطس (آب)، أرسـل سفاتيكوف مفوض الحكومة المؤقتة في الخارج من باريس برقية يقول فيها بأن وزير الخارجية ريبو تحدث إليه خلال مراسـم الوداع "وأبدى رغبة كبيرة بمعرفة من هو الشخص الفعال القوي في الوسط المحيط بكرنسكي. كما طرح رئـيس الجمهوريـة بوانكاريه أسئلة متعددة حول... كورنيلوف"، وكان كل هذا معروفًا في مقر القيادة العليا. ولم يجد كورنيلوف مـا يدفعـه إلـى التأجيل والانتظار. وفي يوم ٢٠ تحركت فرقتان من الخيالة نحو بتروغراد. وفي يوم سقوط ريغا اسـتدعت القيـادة العليـا ٤ ضباط من كل فوج "لدراسة الهاونات الإنكليزية"، وكان عدد الحاضرين حوالي ٤٠٠٠ ضابط. وشُرح للضباط الموثوقين بـأن الأمر يتعلق بسحق "بتروغراد البلشفية" إلى الأبد. وفي اليوم نفسه، أصدرت القيادة العليا أوامرها بتسليم فرق الخيالة على جناح

السرعة صناديق من القنابل، وكانت هذه القنابل أفضل المعدات لقتال الشوارع. ويكتب رئيس الأركان لوكومسكي: "تم الاتفاق على أن يكون كل شيء جاهزًا في ٢٦ أغسطس (آب)".

وما أن تقترب قوات كورنيلوف من بتروغراد حتى يكون على التنظيمات الداخلية "أن تعمل في العاصمة، وتحتل معهد سمولني، وتحاول اعتقال الزعماء البلاشفة". صحيح أن هؤلاء الزعماء لا يظهرون في المعهد إلا خلال الاجتماعات، على حين تجتمع فيه باستمرار اللجنة التنفيذية التي تحدد الوزراء، وتعتبر كرنسكي نائبًا لرئيسها. ولكن لا يمكن في الأعمال الكبيرة الاهتمام بالفروق الطفيفة، وليس هناك حاجة لمثل هذا الاهتمام. وعلى كل حال، لم يكن كورنيلوف يهتم بهذا الأمر أيما اهتمام، ولقد قال لرئيس الأركان لوكومسكي: "لقد آن الأوان لشنق عملاء ألمانيا وجواسيسها، وعلى رأسهم لينين، وطرد سوفييت مندوبي العمال والجنود، بشكل لا يستطيع معه الاجتماع في أي مكان".

وقرر كورنيلوف تسليم قيادة العملية للجنرال كريموف الذي اشتهر في هذه الأوساط بأنه جنرال جريء مقدام حازم. ويقول دينيكين عن هذا الضابط "كان كريموف آنذاك مرحًا، بشوشًا، وينظر إلى المستقبل بإيمان عميق"، وكانت القيادة العليا تثق بكريموف وتؤمن به. ولقد كتب عنه كورنيلوف ما يلي: "إنني على ثقة من أنه لن يتردد عند الضرورة عن شنق كافة أعضاء سوفييت مندوبي العمال والجنود". وهكذا تم اختيار جنرال "مرح بشوش" بكل نجاح.

وفي قلب هذه الأعمال والإعدادات التي أنست أصحابها الجبهة الألمانية إلى فترة ما، حضر سافينكوف إلى مقر القيادة العليا، لتدقيق الاتفاق السابق؛ وإدخال بعض التعديلات الثانوية عليه. ولضرب العدو المشترك، ذكر سافينكوف أعضاء القيادة بالموعد الذي حدده كورنيلوف منذ أمد بعيد للعمل ضد كرنسكي؛ فلقد مرت ستة شهور على اندلاع الثورة. وبالرغم من إعداد الانقلاب باتجاهين، فقد حاول الطرفان العمل بنفس عناصر الخطة، وكان كورنيلوف يستهدف التمويه، على حين سعى كرنسكي لتغذية أوهامه. وتلاءم اقتراح سافينكوف مع أفكار القيادة العليا: أن الحكومة نفسها تمد رقبتها، واستعد سافينكوف لشد الأنشوطة حول هذا العنق. وفرك جنرالات القيادة العليا أيديهم جذلاً. وكانوا يقولون فيما بينهم كصيادي سمك سعداء "لقد لقط!".

وقبل كورنيلوف بكل رحابة صدر التنازلات التي لن تكلفه شيئًا. فما هي أهمية انتزاع حامية بتروغراد من يد القيادة العليا، طالما أن قوات كورنيلوف ستدخل العاصمة، ووافق كورنيلوف على الشرطين الآخرين، ثم لم يلبث أن نقضهما، وعين الفرقة الوحشية كطليعة للقوات المتقدمة، وغدا كريموف قائدًا للعملية. ولم ير كورنيلوف أن عليه أن يحافظ حتى على المظاهر.

وناقش البلاشفة بشكل مكشوف شروط تكتيهم: إن حزب الجماهير لا يعرف أسلوبًا آخر للتصرف. ولم يكن بوسع الحكومة والقيادة العليا أن تتكرا بأن البلاشفة كانوا لا يؤيديون المظاهرات، بل يصل بهم الأمر إلى حد معارضتها. ولكن كما يكون الهوى في بعض الأحيان أبًا للفكرة، فإن الضرورة السياسية تغدو أم الظنون. وكانت كافة الطبقات الحاكمة تتحدث عن الانتفاضة الواسعة، لأنها كانت بحاجة لمثل هذه الانتفاضة بأي ثمن. وكان التاريخ المحتمل لهذه الانتفاضة يقدم تارة ويؤخر أخرى.

وأشارت الصحف إلى أن أوساط وزارة الحربية، أي أوساط سافينكوف تنظر إلى المظاهرة المقبلة "بكثير من الجدية". وصرحَّت صحيفة ريتش أن المبادرة جاءت من قبل المجموعة البلشفية في سوفييت بتروغراد. وكان ميليوكوف غارقًا كسياسي في مسألة انتفاضة البلاشفة الموهومة إلى درجة جعلته يرى أن من واجبه أن يقدم الصورة التالية كمؤرخ، فكتب: "وتدل وثائق مكافحة التجسس التي نشرت فيما بعد، على أن هذه الفترة بالذات ترافقت مع قيام الألمان بتقديم دفعة جديدة من الأموال، بغية تنفيذ مشروعات تروتسكي". ولكن هذا العالم المؤرخ ينسى مع مصلحة مكافحة التجسس أن تروتسكي الذي حددت القيادة

الألمانية اسمه لتسهيل عمل الوطنيين الروس كان في "هذه الفترة بالذات" -من ٢٣ يوليو (تموز) حتى ٤ سبتمبر (أيلول)- بين جدران السجن. إن محور الأرض عبارة عن خط وهمي لا أكثر، ولكن هذا لم يمنع الأرض كما نعلم من أن تدور حول نفسها. وهكذا دارت خطة العملية الكورنيلوفية حول حركة بلشفية موهومة، واعتبرتها محورًا لها. وقد يكون لهذا المحور الموهوم كافيًا من أجل المرحلة التحضيرية. أما حل العقدة، فقد كان بحاجة لشيء أكثر مادية.

ويتحدث أحد قادة المؤامرة العسكرية الضابط وينبرغ، في مذكرات هامة تكشف ما كان يجري في الكواليس، ويؤكد بشكل كامل تعليمات البلاشفة حول العمل الناجم عن الاستفزاز العسكري. فلقد اضطر ميليوكوف تحت ضغط الأحداث والوثائق إلى الاعتراف بأن "شكوك أوساط أقصى اليسار جاءت في محلها؛ إذ كان التحريض المشبوه في المصانع جزءًا لا يتجزأ من المهمات التي كان على تنظيمات الضباط تنفيذها". ولكن هذا لم يعط نتائج كبيرة؛ فلقد قرر البلاشفة -حسب أقوال المؤرخ نفسه- "أن لا يتورطوا"، ولم تكن الجماهير لتسير بدون البلاشفة. ولكن الخطة أخذت بعين الاعتبار هذا الحاجز الذي تم شلّه مسبقًا؛ إذ قرر "**المركز الجمهوري**" -وهذا هو الاسم الذي أطلقته قيادة المتآمرين في بتروغراد على نفسها- أن يحل محل البلاشفة. وكلف عقيد القوزاق دوتوف بإجراء انتفاضة مزيفة وإلقاء تبعتها على عاتق البلاشفة. وفي يناير (كانون الثاني) من عام ١٩١٨، سُئل دوتوف من قبل بعض أصدقائه السياسيين "عما كان من الضروري أن يجري في ٢٨ أغسطس (آب) ١٩١٧، فأجاب بالحرف الواحد: "لقد كان علي أن أنتحل صفة البلاشفة، وأن أعمل في الفترة الواقعة بين ٢٨ أغسطس (آب) و٢ سبتمبر (أيلول)" لقد توقعت الخطة كل شيء. ولم يذهب عبثًا وضع الخطة من قبل ضباط هيئة الأركان العامة.

وما أن عاد سافينكوف من موهيليف حتى اعتقد كرنسكي بأن سوء التفاهم قد زال، وأن القيادة العليا قد دخلت في مخططه بصورة نهائية. ويكتب ستانكيفيتش: "وجاءت لحظات، لم يعتقد فيها كافة المشتركين بأنهم يعملون على اتجاه واحد فحسب، بل تصوروا وسيلة العمل بشكل متماثل أيضًا" ولم تدم هذه اللحظات السعيدة طويلاً؛ إذ تدخلت الصدفة في العملية. وفتحت هذه الصدفة ككل الصدف التاريخية صمام الضرورة، وحضر لزيارة كرنسكي الأكتوبري لفوف، الذي كان أحد أعضاء الحكومة المؤقتة الأولى، والذي تسنم منصب رئيس مجلس الكنيسة الأرثوذكسية الأعلى. ثم وصف أعضاء هذا المجلس بأنهم "حمقى وأنذال"، ويشاء القدر أن يكشف لفوف بأنه تحت مظهر الخطة الواحدة تختفي خطتان، تعمل كل واحدة منهما ضد الأخرى.

وكان لفوف السياسي العاطل عن العمل متحدثًا ماهرًا وهذا ما جعله يشارك في معظم المجادلات الدائرة في مقر القيادة العليا أو في قصر الشتاء حول تحويل السلطة وإنقاذ البلاد. ولقد جاء في هذه المرة ليقترح تعديل الوزارة على أسس وطنية، فحاول أن يخيف كرنسكي بكل رفق عن طريق تهديده بصواعق القيادة العليا الساخطة. وأثار هذا القول قلق رئيس الوزراء، فقرر استخدام لفوف لمراقبة القيادة العليا، والتظاهر بمراقبة شريكه في المؤامرة سافينكوف، وأعلن كرنسكي أنه ميَّال للتيار الذي ينادي بالدكتاتورية، ولم يكن في قوله أي نفاق، وشجع لفوف على متابعة اتصالاته، وكان تشجيعه هذا خدعة حربية.

وعندما عاد لفوف إلى مقر القيادة العليا، مزودًا من كرنسكي بكافة السلطات، اعتبر الجنرالات المهمة كدليل على أن الحكومة مستعدة للاستسلام. فبالأمس فقط، أرسل كرنسكي سافينكوف ليُعلم القيادة العليا بأنه مضطر لقبول برنامج كورنيلوف تحت حماية فيلق من القوزاق، وهو يقترح اليوم على هذه القيادة أن تعيد السلطة بالاشتراك معه. وقرر الجنرالات دفع العجلة. وشرح كورنيلوف أمام لفوف بأنه ما دام هدف انتفاضة البلاشفة المنتظرة "قلب سلطة الحكومة المؤقتة، وعقد الصلح مع ألمانيا، بمساعدة أسطول البلطيق" فإن المخرج الوحيد من هذا الموقف هو "قيام الحكومة بنقل السلطة فورًا، ووضعها بين يدي القائد الأعلى"، ثم أضاف كورنيلوف: "كائنًا من كان هذا القائد الأعلى". ولكنه لم يكن يود ترك مكانه لأي شخص آخر. وكان ثباته في مكانه مضمونًا سلفًا بقسم الولاء الذي أعلنه فرسان القديس جورج، واتحاد الضباط، وسوفييت قطعات القوزاق. ولتأمين

"سلامة" كرنسكي وسافينكوف من خطر البلاشفة، دعا كورنيلوف هذين الرجلين بإلحاح للذهاب إلى مقر القيادة العليـا، والبقـاء تحت حمايته الشخصية. ولقد شرح الضابط المرافق زافويكو للفوف بدون مواربة طبيعية هذه الحماية وفحواها.

وما أن عاد لفوف إلى موسكو حتى بدأ محاولاته المستمرة "كصديق" لإقناع كرنسكي بقبول اقتراح كورنيلـوف "بغيـة حماية حياة أعضاء الحكومة المؤقتة، وخاصة حياة كرنسكي نفسه". وفهم كرنسكي أخيرًا أن اللعبة السياسية مـع الديكتاتوريـة أخذت منعطفًا جادًا، وأن من الممكن انتهاؤها بشكل سيئ ضده. ولكنه قرر العمل، فتحدث مع كورنيلوف هاتفيًا ليتحقـق مـن بعض النقاط: هل نفَّذ لفوف مهمته بشكل جيد؟ ولم يطرح كرنسكي الأسئلة لا باسمه فحسب، بل طرحها أيضًا باسم لفوف الذي لم يكن موجودًا خلال الحديث. ويذكر مارتينوف بأن "مثل هذه الوسيلة التي تصلح لعمل مخبر سري لم تكن ولا شـك ملائمـة بالنسبة لرئيس الحكومة". وتحدث كرنسكي عن سفره بعد الغد إلى مقر القيادة العليا بصحبة سافينكوف، وكأن هذا الـسفر أمـر مقرر. وبدا الحديث الهاتفي كله غريبًا لا يصدق؛ إذ كان رئيس الحكومة الديموقراطي والجنرال "الجمهـوري" **يتحـدثان عـن تخلي أحدهما عن السلطة للآخر** وكأنهما يتحدثان عن التخلي عن مقعد في عربة قطار معدة للنوم!

إن ميليوكوف محق عندما يرى، بأن إصرار كورنيلوف على المطالبة بنقل السلطة إليه ما هو إلا عبارة عن "اسـتمرار لكل هذه المباحثات المستمرة منذ زمن طويل حول الديكتاتورية، وإعادة تنظيم السلطة، ...إلخ". ولكن ميليوكوف يبـالغ عنـدما يستند إلى هذه القاعدة، ويحاول طرح القضية، وكأنه لم يكن هناك أية مؤامرة من جانب القيادة العليا. ومـا كـان كورنيلـوف ولا شك ليفرض مطالبه عن طريق لفوف، لو لم يكن قبل كل شيء شريكًا لكرنسكي. ولكن هذا لا يمنع أن كورنيلـوف أخفـى تحت المؤامرة المشتركة مؤامرة أخرى، خاصة به. ففي اللحظة التي استعد بها كرنسكي وسافينكوف لتصفية البلاشفة -وتصفية السوفييتات بصورة جزئية- كان كورنيلوف مستعدًا لتصفية الحكومة المؤقتة أيضًا. وهذا ما لم يكن كرنسكي راغبًا به.

وفي مساء ٢٦، كان بوسع القيادة العليا أن تعتقد خلال عدة ساعات بأن الحكومة استسلمت دون قتال. ولم يكن هذا يعني عدم وجود مؤامرة، بل كان يعني بأن المؤامرة على وشك النجاح. وتجد المؤامرة الناجحة دائمًا الوسـيلة اللازمـة لاكتـساب الشرعية. ويقدم الأمير تروبيتسكوي، الدبلوماسي، الذي كان يمثل وزارة الخارجية في مقر القيادة العليا، شـهادة يقـول فيهـا: "رأيت الجنرال كورنيلوف بعد هذه المحادثة"... "وأفلتت منه زفرة، وتنفس الصعداء عن غير قصد. وعندما سألته عما إذا كانت الحكومة مستعدة لكل شيء، أجاب نعم"، وكان كورنيلوف مخطئًا؛ فاعتبارًا من هذه اللحظة بالذات، ظهرت الحكومـة متمثلـة بكرنسكي بأنها مستعدة للعمل لصالحها.

وهكذا فلقد كان للقيادة العليا مخططاتها؟ ولم يكن الأمر يتعلق بديكتاتورية ما بصورة عامة، بل بديكتاتورية كورنيلوف؟ واقتُرح على كرنسكي منصب وزير العدل، وكان الاقتراح أقرب إلى السخرية؟ حقًا لقد كان كورنيلوف قليل الحذر عندما أعلـم لفوف بكل هذا. واعتبر كرنسكي نفسه ممثلاً للثورة، فقال لوزير المالية نيكراسوف: "لن أسلمهم الثـورة!" واعتُقـل الـصديق المتجرد فورًا، وقضى ليلته أرقًا في قصر الشتاء، تحت حراسة جنديين، وكان يستمع طوال الليل وهو يصر على أسـنانه مـن الغيظ "صوت كرنسكي المنتصر على الطرف الآخر من الجدار في حجرة مجاورة هي حجرة الكسندر الثاني؛ إذ كان كرنسكي مسرورًا من حسن سير مخططاته ويدندن بمقاطع أوبرا لا نهاية لها". وفي هذه الساعات أحس كرنسكي بفـيض عجيـب مـن القدرة.

وعاشت بتروغراد في هذه الأيام قلقًا مزدوجًا. وكان التوتر السياسي الذي زادته الصحافة عن عمد يحمل فـي طياتـه بذور الانفجار. وأدَّى سقوط ريغا إلى اقتراب الجبهة. وعادت مسألة إخلاء العاصمة التي كانت مطروحة قبل سقوط القيـصرية بزمن بعيد، ولكنها أخذت الآن شكلاً أكثر إلحاحًا. وترك الموسرون المدينة. وكان فرار البرجوازية ناجمًا عـن خوفهـا مـن

انتفاضة جديدة أكثر من خوفها من اجتياح العدو. وفي ٢٦ أغسطس (آب) عادت اللجنة المركزية للحزب البلشفي إلى الهجــوم: "إن شخصيات مشبوهة... تقوم بتحريض استفزازي، وتدَّعي أنها تفعل ذلك باسم حزبنا". وأعلنت الأجهزة القياديـــة لـــسوفييت بتروغراد، والنقابات، ولجان المعامل والمصانع في اليوم نفسه: ليس هناك تنظيم عمالي أو حزب سياســي يــدعو إلـــى أيـــة مظاهرة. ومع هذا فإن الإشاعات حول **قلب الحكومة** في اليوم التالي لم تتوقف ساعة واحدة. وقالت الصحافة: "تشير الأوســاط الحكومية إلى قرار أخِذ بالإجماع لسحق كل محاولة للتظاهر" ولكن التدابير الحكومية كانت تــستهدف إثــارة المظــاهرة قبــل سحقها.

وفي صبيحة ٢٧، لم تذكر الصحف شيئًا عن نوايا العصيان الكامنة في مقر القيادة العليا، بــل ذكــرت علـــى العكــس تصريحًا صحفيًّا لسافينكوف أكَّد فيه أن "الجنرال كورنيلوف يتمتع بثقة الحكومة بشكل مطلق". ومر يوم الاحتفال بانقضاء ســتة أشهر على اندلاع الثورة وسط هدوء نادر المثال. وتحاشى العمال والجنود كل ما يمكن أن يبــدو وكأنـــه مظــاهرة. وقبعــت البرجوازية الخائفة من الاضطرابات في بيوتها. وظهرت الشوارع مقفرة. وبدت قبور ضحايا فبراير (شباط) في ساحة مـــارس (ساحة الاستعراضات)، وكأنها منسية تمامًا.

وفي صبيحة اليوم الذي طال انتظاره، والذي كان من المتوقع أن يحمل الخلاص للبلاد، تلقَّى القائد الأعلى برقيـــة مـــن رئيس الوزراء، تأمره بتسليم وظائفه كلها لرئيس أركانه، والمثول فورًا إلى بتروغراد. وأخذت المسألة برمتها انعطافًـــا غيـــر منتظر. وفهم الجنرال -حسب تعبيره- "بأن هناك لعبة مزدوجة". والأصح، أنه كان بوسعه القول بأن لعبتـــه المزدوجـــة قـــد انكشفت. وقرر كورنيلوف عدم الإذعان. ولم يؤد رجاء سافينكوف وتوسلاته الهاتفية إلى أية نتيجة. وأصدر القائد الأعلى بيانًـــا قال فيه: "أعلن أنا الجنرال كورنيلوف أنني مضطر للعمل المشكوف، لأن الحكومة المؤقتة الخاضعة لضغط الأغلبيـــة البلـــشفية في السوفييتات، تعمل بتوافق تام مع مخططات هيئة الأركان الألمانية، في الوقت الذي سينفذ به العدو إنزالاً على شواطئ ريغا، ويدمر الجيش، ويخلق الاضطرابات داخل البلاد". وأكَّد بأنه لا يرغب بترك السلطة بين يدي الخونة؛ ولذا فهو "يفضل المـــوت في ساحة الشرف". ولقد كتب ميليوكوف فيما بعد عن واضع هذا البيان بشيء من الإعجاب ما يلي: "إنه رجل مصمم حازم، لا يعترف بالدقائق القانونية، ويتجه مباشرة نحو الهدف عندما يرى بأنه صحيح". إن قائدًا أعلى يسحب قطعات من الجبهة، بغيـــة قلب حكومته، لا يمكن أن يوصف باحترام "الدقائق القانونية".

وعزل كرنسكي الجنرال كورنيلوف بوحي من سلطته الشخصية؛ إذ لم تكن الحكومة المؤقتة آنذاك موجودة: فقـــد قـــدم السادة الوزراء استقالاتهم في يوم ٢٦، وكانت هذه الاستقالات متلائمة بالصدفة مع رغبات كافة الأحـــزاب. وكـــان الجنـــرال لوكومسكي قد حذر لفوف عن طريق آلادين قبل قطيعة القيادة العليا مع الحكومة بعدة أيام وأعلمه "بأن من المستحـــسن إعـــلام الكاديت بضرورة الخروج من الحكومة المؤقتة في يوم ٢٧ بغية وضعها في موقف حرج، والتخلص في الوقت نفسه من كافـــة المتاعب". وأخذ الكاديت هذا التوجيه بعين الاعتبار. وأعلن كرنسكي من جهة أخرى أمام الحكومة بأنه يرى أن مـــن الممكـــن مجابهة عصيان كورنيلوف. "شريطة أن تسلم السلطة كلها له". ولم يكن الوزراء الآخرون ينظرون سوى هذا الـــسبب الملائـــم كيما يستقيلوا بدورهم. وهكذا تعرض الائتلاف من جديد لتجربة إضافية. وكتب ميليوكوف حول هذا ما يلـــي: "أعلـــن وزراء الكاديت، بأنهم استقالوا دون حكم مسبق على اشتراكهم في الحكومة المؤقتة المقبلة". وسار الكاديت وفق التقاليد التـــي اعتـــادوا عليها؛ إذ قرروا الوقوف بعيدًا وانتظار نتائج أيام الصراع، وأخذ القرار وفق النتيجة. ولم يكن لديهم أدنى شك في أن التوفيقيين سيحفظون لهم أماكنهم. وتخلَّى الكاديت عن أعباء المسئولية واستقالوا مع كافة الوزراء، وشاركوا فيما بعـــد بعـــدة اجتماعـــات حكومية "ذات طابع خاص"، وكان المعسكران خلال استعدادهما للحرب الأهلية، يجتمعان اجتماعات "خاصـــة" حـــول رئـــيس حكومة تتمتع بكافة السلطات التي يمكن تخيلها، ولكنه لا يتمتع بالسلطة الحقيقية.

ونصَّت البرقية التي بعثها كرنسكي إلى مقر القيادة العليا بأن "على كافة القطعات المتجهة إلى بتروغراد وضـــواحيها أن تتوقف، وتعود إلى مراكزها السابقة". وعلق كورنيلوف على ذلك: "عدم تنفيذ الأمر، وتوجيه القطعات نحو بتروغراد". وبهـــذا وُضع العصيان موضع التنفيذ. وكان من الضروري فهم الأمور بهذا الشكل: إن ثلاث فرق من الخيالة تتجـــه إلـــى العاصـــمة مستخدمة السكك الحديدية.

وأصدر كرنسكي بيانًا موجهًا لقطعات العاصمة يقول فيه: "إن الجنرال كورنيلوف الذي أعلن عن وطنيتـــه وإخلاصـــه للشعب.. سحب أفواجًا من الجبهة ووجهها ضد بتروغراد". وصمت كرنسكي عن حذر، ولم يقل بأن سحب القطعات من الجبهة قد تم بعمله وبمشاركته أيضًا، بغية الضغط على حامية الموقع التي يكشف اليوم أمامها خيانة كورنيلوف.

ولم يكن لسان الجنرال المتمرد في جيبه. ولقد قال في برقيته "... ليس الخونة بيننا، ولكنهم هناك، في بتروغراد؛ حيـــث تآمر العملاء بالاتفاق مع الحكومة، وقبضوا المال من ألمانيا، وباعوا روسيا، ولا يزالون يبيعونها"، وهكـــذا أخـــذت الدســـائس الموجهة من قبل ضد البلاشفة بلا انقطاع سبلاً جديدة.

ومرَّت حالة الهيجان الليلي التي كان رئيس الوزارة المستقيلة يدندن فيها مقاطع مـــن الأوبـــرا؛ إذ أن الـــصراع ضـــد كورنيلوف يهدد بوقوع عواقب أليمة مهما كانت نتيجته. وكتب كرنسكي: "ففي الليلة الأولى من عصيان القيادة العليا، جرت في أوساط سوفييت العمال والجنود في بطرسبورغ إشاعة تؤكد اتفاق سافينكوف مع حركة الجنرال كورنيلوف". ولا شـــك فـــي أن الإشاعة كانت تستهدف كرنسكي مباشرة بعد سافينكوف، ولم يكن في محتواها أي خطأ. وكان كرنسكي يخشى أن تكشف الأيام أشياء أخطر من ذلك بكثير.

ويذكر كرنسكي: "في ساعة متأخرة من ليلة ٢٥ - ٢٦ أغسطس (آب)" دخل إلى مكتبه مدير وزارة الحربيـــة مـــنفعلاً. "وقال لي سافينكوف، وهو يعدل وقفته: سيدي الوزير، أرجوكم اعتقالي فورًا كشريك للجنرال كورنيلوف. ولكن إذا كنتم تثقـــون بي، فإنني أرجوكم أن تعطوني الفرصة لأثبت للشعب بصورة فعلية بأنه لا علاقة لي البتة بالمتمردين..."، ويتـــابع كرنـــسكي حديثه، ويذكر بأنه ما أن سمع هذا القول "حتى عينت سافينكوف حاكمًا عسكريًّا مؤقتة لمدينة بتروغـــراد، وزودتـــه بـــسلطات واسعة للدفاع عن بتروغراد ضد قوات كورنيلوف". وبالإضافة إلى ذلك، فقد استجاب كرنـــسكي لطلـــب ســـافينكوف وعـــين فيلونينكو مساعدًا له. وهكذا تمت تسوية مسألة العصيان ومسألة قمعه داخل "**حكومة المديرين**" (**الديريكتوار**).

وكان تعيين سافينكوف السريع في منصب الحاكم العسكري مدفوعًا برغبة كرنسكي الجامحة بالنضال في ســـبيل إنقـــاذ الموقف السياسي؛ فلو كشف كرنسكي حقيقة سافينكوف وأدانه أمام السوفييتات، لقام سافينكوف بكشف لعبة كرنسكي كلها. ولكن حصول سافينكوف بعد شيء من المساومة على إمكانية تبرير وضعه، وإكسابه صفة شرعية، عـــن طريـــق المـــشاركة فـــي المناورات ضد كورنيلوف، سيدفع هذا الشريك إلى القيام بكل ما في وسعه لتبرئة ساحة كرنسكي. وكان "الحـــاكم العـــسكري" ضروريًّا لا للقتال ضد الثورة المضادة، بل لمحو آثار المؤامرة. وبدأ العمل المركز للشريكين فورًا في هذا الاتجاه.

ويتحدث سافينكوف عن الموقف فيقول: "في الساعة الرابعة من صبيحة يوم ٢٨ أغسطس (آب)، استدعاني كرنسكي إلى قصر الشتاء حيث وجدت الجنرال الكسييف وتيريشتشنكو، واتفقنا نحن الأربعة على أن الإنذار النهائي الذي حمله لفوف لم يكن أكثر من سوء تفاهم". إن الحاكم العسكري الجديد يلعب دور المصالحة الجارية قبيل الفجر. وكان ميليوكوف المحرك الأساســـي المختفي وراء الكواليس، ثم ظهر خلال النهار على المسرح بشكل مكشوف. وبالرغم من أن الكسييف وصف كورنيلوف بأنـــه "رأس خروف" فقد كان معه في معسكر واحد. وحاول المتآمرون ومساعدوهم القيام بمحاولة أخيرة لإظهار كل ما جرى وكأنه

"سوء تفاهم"، أي لخداع الرأي العام بصورة مشتركة، بغية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المخطط المشترك. إن تحرك الفرقة "الوحشية"، والجنرال كريموف، وقطعات القوزاق، ورفض كورنيلوف لأوامر رئيس الحكومة، والسير باتجاه العاصمة، عبارة عن "سوء تفاهم" لا أكثر! وخاف كرنسكي من تشابك الأحداث المشئوم، فلم يعد يصرخ "لن أسلمهم الثورة!". وما أن تفاهم مع الكسييف، حتى دخل إلى قاعة استقبال الصحفيين في قصر الشتاء، وطلب منهم أن لا ينشروا في أية صحيفة بيانه الذي يتهم كورنيلوف بالخيانة. ويذكر الصحفيون الذين شهدوا الاجتماع أنه عندما تبين بأن هذه المهمة غير ممكنة من الناحية التقنية العملية، صرخ كرنسكي: "آسف جدًا!" إن هذه الحكاية التي ظهرت في صحف اليوم التالي، تدل بشكل حي لا مثيل له على طبيعة شخصية "الحَكَم الأعلى" للأمة بعد أن تعثر هذا الحَكَم بصورة نهائية. لقد كان كرنسكي يمثل الديمقراطية، تمامًا كما يجسد البرجوازية؛ حيث إنه يحتل أعلى مركز في سلطة الدولة، ويتآمر في الوقت نفسه على هذه السلطة.

وفي صبيحة ٢٨، غدت القطيعة بين الحكومة والقائد الأعلى أمرًا واقعًا بنظر البلاد كلها. وتدخلت البورصة بالأمر فورًا. وإذا كان خطاب كورنيلوف في موسكو حول احتمال سقوط ريغا قد سبب انخفاض قيمة الأسهم الروسية، فإن أخبار عصيان الجنرالات بشكل مكشوف أدت إلى ارتفاع هذه القيمة بشكل عام. وبواسطة خط انخفاض القيمة خلال نظام فبراير (شباط) أعطت البورصة التعبير الأكيد الذي لا ينكر عن الحالة الفكرية للطبقات المالكة وآمال هذه الطبقات التي لم تكن تشك بانتصار كورنيلوف.

ورد الجنرال لوكومسكي الذي أمره كرنسكي بالأمس باستلام القيادة مؤقتًا: "لا أعتقد أن من الممكن استلام وظيفة الجنرال كورنيلوف، لأن ذلك سيؤدي إلى انفجار داخل الجيش يهدد روسيا بالضياع". فإذا استثنينا القائد الأعلى لبلاد القفقاس، الذي أعلن مع شيء من التأخير إخلاصه للحكومة المؤقتة، وجدنا أن القادة الآخرين أبدوا دعمهم لمطالب كورنيلوف بلهجات متباينة في شدتها. وبوحي من الكاديت، أرسلت اللجنة الرئيسية لاتحاد الضباط إلى كافة هيئات أركان الجيش والأسطول البرقية التالية: "لقد برهنت الحكومة المؤقتة أكثر من مرة على عجزها كدولة، وها هي الآن تلوث شرفها واسمها بالاستفزاز، ولا يمكن أن تبقى مدة أطول من ذلك على رأس روسيا..." وكان رئيس الشرف لاتحاد الضباط هو لوكومسكي نفسه! وفي مقر القيادة العليا أفهم الجنرال كراسنوف بعد تعيينه قائدًا لفيلق الخيالة الثالث بأنه "لن يكون هناك شخص واحد يدافع عن كرنسكي. إنها مجرد نزهة. وكل شيء معد".

ولدينا بالنسبة للحسابات المتفائلة التي قام بها قادة المؤامرة والمحرضون عليها فكرة صحيحة استقينا بعضها من برقية مشفَّرة بعث بها الأمير تروبتسكوي إلى وزير الخارجية وقال فيها: "لقد درست الوضع بكل نضج، ولذا فإن علي أن أعترف بأن كافة القيادة، والجزء الأكبر من مجموعة الضباط، وخيرة القوات المقاتلة ستسير خلف كورنيلوف، وسينضم إلى صفه في المؤخرة كافة القوزاق، وغالبية المدارس العسكرية، وأحسن القطعات أيضًا. وبالإضافة إلى القوة المادية فإن من المستحسن أن نضيف بأنه يمتلك... موافقة كافة شرائح الشعب غير الاشتراكية. وسيركن الجميع في الطبقات الدنيا إلى اللا مبالاة... عند أول ضربة سوط. وليس من المستبعد أن ينضم عدد كبير من اشتراكي مارس (آذار) إلى صف كورنيلوف إذا ما انتصر"، ولم يكن تروبتسكوي يمثل آمال القيادة العليا فحسب، بل يمثل أيضًا وجهة نظر بعثات الحلفاء. وكان في قوات كورنيلوف المتجهة لاحتلال بتروغراد سيارات مصفحة إنكليزية، مع سدنة إنكليز، وكان هؤلاء الجنود على ما يبدو مضمونين أكبر من جنود أية وحدة أخرى. ولقد انتقد الجنرال كنوكس -رئيس البعثة الإنكليزية في روسيا- العقيد الأمريكي روبينس لأنه لم يدعو كورنيلوف. وقال الجنرال البريطاني "إنني لا أهتم بحكومة كرنسكي، فهي ضعيفة جدًا، ولا بُدَّ من ديكتاتورية عسكرية، ولا بُدَّ من سيطرة القوزاق. إن هذا الشعب بحاجة لسوط لاذع! وهو بأمس الحاجة لديكتاتورية".

ووصلت كافة هذه الأصوات من جميع الجهات إلى قصر الشتاء. وأثرت بشكل فعال على شاغليه. وبدا انتصار كورنيلوف أمرًا لا جدال فيه. وأعلم الوزير نيكراسوف أصدقاءه بأن الحكومة خسرت الجولة نهائيًا، ولم يبق أمام أعضائها سوى أن يموتوا بشرف. ويؤكد ميليوكوف بأن "بعض زعماء السوفييت المرموقين، أحسوا بالمصير الذي ينتظرهم إذا ما انتصر كورنيلوف، فعجلوا بإعداد جوازات السفر استعدادًا للرحيل إلى الخارج".

وكانت الأنباء تترى ساعة بعد أخرى حاملة تهديدًا أثر تهديد، حول اقتراب قوات كرونيلوف. واستقبلت الصحافة البرجوازية هذه الأنباء بنهم، وبالغت بها، وضخمتها، وخلقت جوًا من الهلع.

وفي الساعة الثانية عشرة ونصف من يوم ٢٨ أغسطس (آب) "تجمعت مفرزة مرسلة من قبل الجنرال كورنيلوف على مقربة من لوغا" الواقعة على بعد ساعتين ونصف... "مرت من محطة أوريديج تسعة قطارات جديدة محملة بقطعات كورنيلوف. وكان في القطار الأول كتيبة من عمال السكك الحديدية"، وفي الساعة الثالثة من بعد الظهيرة "استسلمت حامية لوغا لقوات الجنرال كورنيلوف وسلمت كافة أسلحتها. واحتلت قوات كورنيلوف المحطة وكافة المنشآت الحكومية في لوغا"، وفي الساعة السادسة مساءً "قامت قطعتان من قوات كورنيلوف القادمة من نارفا بخرق. ووصلت إلى نقطة تبعد نصف فرست عن غاتشينا. وهناك قطعتان ثانيتان تسيران باتجاه غاتشينا"، وفي الساعة الثانية من صباح يوم ٢٩ أغسطس (آب): "اندلع القتال بين القوات الحكومية وقوات كورنيلوف في محطة أنتروبشينو (على مسافة ٣٣ كيلو مترًا من بتروغراد)، وسقط بعض القتلى والجرحى من الطرفين". وفي الليلة نفسها، جاء نبأ يقول بأن كاليدين يهدد بقطع مواصلات بتروغراد وموسكو مع الجنوب، اهراء حبوب روسيا.

وكان المجتمعون في قاعة الأعمدة في قصر الشتاء يعتبرون تصرف القيادة العليا، وقيادات الجبهات، والبعثة البريطانية، والضباط، والقطعات، وكتائب السكك الحديدية، والقوزاق، وكاليدين كصوت الصُور في يوم القيامة.

ولقد اعترف كرنسكي بذلك مع شيء من التلطف عندما كتب: "كان يوم ٢٨ أغسطس (آب) بالتحديد يوم أكبر الترددات وأعظم الشكوك حول قوة خصوم كورنيلوف، وأكبر التوترات العصبية في أوساط الديمقراطية نفسها"، وليس من الصعب أن نتصور ماذا يختفي تحت هذه الكلمات. وكان رئيس الحكومة لا يتساءل فقط من هو الطرف الأقوى في هذا النزاع، بل كان يهتم بمعرفة من هو الطرف الأخطر عليه شخصيًا. "لسنا مع اليمين، ولا مع اليسار". إن مثل هذا الكلام يبدو رائعًا فوق مسرح موسكو. ولكن ترجمته إلى لغة الحرب الأهلية التي توشك أن تندلع، يعني أن حلقة كرنسكي الصغيرة ستكون غير مجدية بنظر اليمينيين واليساريين على حدٍ سواء. ويكتب ستانكيفيتش: "كنا جميعًا كالتائهين من اليأس أمام اقتراب مأساة تحطم كل شيء. ويمكن الحكم على درجة اضطرابنا من أنه بالرغم من القطيعة العلنية بين القيادة العليا والحكومة، قامت الحكومة بمحاولات للوصول إلى اتفاق ما...".

ويقول ميليوكوف: "ولدت فكرة الوساطة... في هذه الظروف من نفسها". وكان ميليوكوف يفضل التصرف كشخص ثالث. ولقد حضر إلى قصر الشتاء في مساء يوم ٢٨ لكي "ينصح كرنسكي بالتخلي عن وجهة النظر الشكلية البحتة الخاصة بخرق القانون". وكان الزعيم الليبرالي يفهم بأن على المرء أن يميز لباب ثمرة الجوزة عن قشرتها، وكان في الوقت نفسه أفضل مَن يقوم بدور الوسيط المخلص. ففي ١٣ أغسطس (آب) علم ميليوكوف من كورنيلوف مباشرة بأن هذا الجنرال حدد لحركته يوم ٢٧، وفي اليوم التالي -١٤ أغسطس (آب)- أعلن ميليوكوف في خطابه أمام المؤتمر بأن "اتخاذ التدابير المحددة من قبل القائد الأعلى فورًا، لم يثر إطلاقًا أية شكوك، أو تهديدات أو رفض"، وكان من الضروري أن يبقى كورنيلوف حتى يوم

٢٧ بعيدًا عن الشبهات! وفي الوقت نفسه قدم ميليوكوف لكرنسكي وعدًا بدعمه "عن طيب خاطر، ودون أي اعتراض"، وهذا ما يذكرنا بحبل المشنقة الذي يقدم دعمه للمشنوق "دون أي اعتراض".

ويعترف كرنسكي من جهته بأن ميليوكوف تقدم إليه بعرض الوساطة "واختار لحظة تسمح له بالبرهان علـــى أن القـــوة الحقيقية كانت إلى جانب كورنيلوف". وانتهى اللقاء بشكل ملائم لدرجة دفعت ميليوكوف لأن يحدد لأصدقائه الـــسياسيين بعـــد خروجه من الاجتماع إمكانية استبدال كرنسكي بالجنرال الكسييف الذي سيتعذر على كورنيلوف معارضته. ووافـــق الكـــسييف الهمام على ذلك.

وجاء بعد ميليوكوف من هو أكبر منه. ففي ساعة متأخرة من الليل، قدم السفير البريطاني بوكانـــان لـــوزير الخارجيـــة الروسية مذكرة يعرض فيها ممثلو دول الحلفاء بالإجماع خدماتهم "لصالح الإنسانية، ورغبة منهم بتلافي وقوع كارثة لا تُحمـــد عقباها". ولم تكن الوساطة الرسمية بين الحكومة والجنرال المتمرد سوى دعم وضمانة للعـــصيان. ورد تيريشتـــشينكو علـــى المذكرة باسم الحكومة المؤقتة التي تنظر "بدهشة بالغة" إلى عصيان كورنيلوف، الذي وافقت الحكومـــة علـــى معظـــم أجـــزاء برنامجه.

ووجد كرنسكي أن أفضل ما يقوم به في واقع العزلة والأهوال الذي يعيشه، هو أن يتابع حديثًا لا ينتهـــي مـــع هـــؤلاء الوزراء المستقيلين. وما أن انغمس في هذا النشاط العقيم، حتى جاءت أنباء خطرة عن تقدم قطعات العدو. وقدر نيكراسوف أن "من المحتمل وصول قوات كورنيلوف إلى بتروغراد خلال عدة ساعات..."، وبدأ الوزراء السابقون يفكرون: "ما هـــو الـــسبيل الأمثل في مثل هذه الظروف لتشكيل **السلطة الحكومية؟**" وظهرت فكرة "**حكومة المديرين**" على السطح. ونظر اليمين واليسار بعين الرضى إلى إدخال الجنرال الكسييف في "حكومة المديرين". ورأى الكاديت كوكوشكين أن من الضروري وضع الجنـــرال الكسييف على رأس الحكومة. وتؤكد بعض شهادات الحاضرين، بأن فكرة التخلي عن السلطة لشخص آخر جاءت من كرنسكي نفسه الذي أشار إلى حديثه السابق مع ميليوكوف. ولم يعترض أحد على هذا الاقتراح؛ إذ كان ترشيح الكسييف يهدئ خـــواطر الجميع. وبدا مخطط ميليوكوف وكأنه على وشك التنفيذ. ولكن في هذه اللحظة، وكما يقع في لحظات ذروة التوتر، قُرع البـــاب قرعة درامية؛ ففي القاعة المجاورة وفد من اللجنة جاء لمقاتلة الثورة المضادة. لقد جاء الوفد في الوقت المناسب؛ إذ كان أخطر عش من أعشاش الثورة المضادة هو الاجتماع التعيس الجبان المخادع الذي يضم الكورنيلوفيين، والوسطاء، وأعضاء الحكومـــة المستسلمين والمجتمعين في قاعة من قاعات قصر الشتاء.

لقد تشكل جهاز سوفييتي جديد في الاجتماع الموحد الذي عُقد في مساء ٢٧ بين اللجنـــة التنفيذيـــة لـــسوفييت العمـــال والجنود، واللجنة التنفيذية لسوفييت الفلاحين. وضم الجهاز الجديد مندوبين خاصين بعثت بهم الأحـــزاب الـــسوفييتية الثلاثـــة، واللجنتان التنفيذيتان، ومركز النقابات، وسوفييت بتروغراد. وكان تشكيل لجنة الدفاع "ملائمة" يعني الاعتراف بشكل عام بـــأن المؤسسات السوفييتية القيادية أحست بأنها عاجزة، وأن قيامها بالمهمات الثورية يتطلب رزقها بدم جديد.

ولما وجد التوفيقيون أنهم مضطرون إلى الاعتماد على الجماهير للصراع ضد الجنرال، دفعوا كتفهم الأيسر إلى الأمام، ونسوا فجأة الأحاديث التي كانت تؤكد بأن من الضروري حل كافة المسائل المبدئية في المجلس التأسيسي. وأعلن المناشفة أنهم سيطالبون الحكومة فورًا بإعلان الجمهورية الديمقراطية، وحل مجلس دوما الدولة، وتطبيق الإصلاح الزراعي؛ ولهذا الـــسبب ظهرت كلمة "**الجمهورية**" لأول مرة في بيان الحكومة الخاص بخيانة القائد الأعلى.

ورأت اللجنتان التنفيذيتان بالنسبة لمسألة السلطة أن من الضروري في الوقت الحاضر الحفاظ على الحكومة كما كانت، شريطة استبدال الكاديت المستقيلين بوزراء ديموقراطيين، وحل المسألة كلها بشكل نهائي عن طريق الدعوة لمؤتمر يضم كافة التنظيمات التي اتَّحدت في موسكو على أساس برنامج تشخيدزه. وبعد هذه المباحثات الليلية، لوحظ بأن كرنسكي يرفض بإصرار أي إشراف ديموقراطي على الحكومة. وكان إحساس كرنسكي باهتزاز الأرض تحت قدميه من ناحية اليمين واليسار يدفعه إلى التمسك بكل قواه بفكرة "حكومة المديرين"، التي تجمَّعت فيها كافة أحلامه التي لم تتبدد بعد، والخاصة بسلطة قوية. وبعد مناقشات جديدة، مملة، عقيمة في معهد سمولني، اتخذ المجتمعون قرارًا بالتوجه مرة أخرى إلى كرنسكي "الأوحد الذي لا بديل له"، مع رجائه بقبول المشروع الأولي المقدم من قبل اللجنتين التنفيذيتين. وفي الساعة السابعة والنصف صباحًا، عاد تسيريتلي ليعلن بأن كرنسكي يرفض تقديم التنازلات، ويطالب "بدعم غير مشروط". ولكنه يعد باستخدام "كل قوى الدولة" للقتال ضد الثورة المضادة. وبعد ليلة منهكة من السُهاد، عادت اللجنتان التنفيذيتان أخيرًا إلى فكرة "حكومة المديرين" غير المتماسكة.

ولكن تعهد كرنسكي العلني باستخدام "كل قوة الدولة" للقتال ضد الثورة المضادة لم يمنعه كما نعلم من التفاوض مع ميليوكوف، والكسييف، والوزراء المستقيلين، وإجراء المباحثات حول موضوع الاستسلام السلمي أمام القيادة العليا، تلك المباحثات التي انقطعت في الليل عندما قُرع الباب بعنف. وبعد عدة أيام وقف المنشفي بوغدانوف، وهو أحد العناصر الفعَّالة في لجنة الدفاع، أمام سوفييت بتروغراد وشرح غدر كرنسكي بتعابير حذرة ولكنها واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض. وقال في ما قاله: وعندما ترددت الحكومة وتلكأت، ولم يكن أحد يعرف كيف ستنتهي مغامرة كورنيلوف، ظهر الوسطاء مثل ميليوكوف والجنرال الكسييف..."، وهنا تدخلت لجنة الدفاع، وأصرَّت "بكل قوة" على ضرورة البدء بالصراع المكشوف. "واضطرت الحكومة تحت ضغطنا إلى إيقاف المباحثات، ورفض كل مقترحات كورنيلوف...".

وما أن غدا رئيس الحكومة أسيرًا سياسيًّا لمعسكر اليسار، بعد أن كان بالأمس أحد المتآمرين عليه، حتى تحرَّك وزراء الكاديت الذين استقالوا مؤقتًا في يوم ٢٦ بغية اكتساب فرصة للتفكير، وأعلنوا الآن بأنهم يتركون الحكومة بشكل نهائي، ولا يودون تحمل مسئولية تصرفات كرنسكي الرامية إلى سحق حركة وطنية، مخلصة، تستهدف إنقاذ البلاد. واستقال الوزراء، وترك المستشارون والأصدقاء قصر الشتاء واحدًا تلو الآخر. وجرى حسب تعبير كرنسكي نفسه، "رحيل جماعي عن مكان حُكِم عليه بالضياع"، وفي ليلة ٢٨ - ٢٩ كان كرنسكي "يتجول وحده تقريبًا في قصر الشتاء"، ولم تعد ألحان الشجاعة تتردد في خاطره. "وكانت المسئولية الملقاة على عاتقي في هذه الأيام الطويلة القاتلة مسئولية تفوق طاقة البشر"، ولكنها مسئولية تتعلق أساسًا بمصيره الشخصي؛ إذ كانت الأمور الأخرى تتم بصورة مستقلة عن إرادته.

البرجوازية تتجابه مع الديمقراطية

في ٢٨ أغسطس (آب)، وعندما كان قصر الشتاء يعيش وسط رعشات حمى الخوف، بعث الأمير باغراسيون قائد الفرقة "الوحشية" إلى كورنيلوف تقريرًا برقيًّا يقول فيه بأن "القفقاسيين سيقومون بواجبهم إزاء الوطن، تنفيذًا لأوامر قائدهم الأعلى... وسيسفكون آخر قطرة من دمائهم إذا دعت الضرورة"، وبعد عدة ساعات، توقفت حركة الفرقة. وفي ٣١ أغسطس (آب)، شكَّلت الفرقة وفدًا خاصًا يرأسه باغراسيون نفسه، وأكَّد هذا الوفد لكرنسكي بأن الفرقة خاضعة كلية لأوامر الحكومة المؤقتة. ولم يتم كل هذا بدون معارك فحسب، بل تم دون إطلاق رصاصة واحدة. ولم تتطور الأمور حتى آخر نقطة دم، بل إنها لم تصل حتى أول نقطة. ولم يحاول جنود كورنيلوف استخدام السلاح لفتح الطريق إلى بتروغراد. ولم يجرؤ القادة على إصدار الأوامر بذلك. ولم تلجأ القوات الحكومية في أي مكان إلى استخدام القوة لإيقاف اندفاع مفارز كورنيلوف. لقد تفتتت المؤامرة لوحدها، وتبخرت، وتطايرت.

ولتفسير كل هذا، يكفي أن نفحص عن كثب القوى التي دخلت الصراع. وعلينا قبل كل شيء أن نؤكد -ولن يكون هذا الاكتشاف غريبًا علينا- بأن هيئة أركان حرب المتآمرين، كانت عبارة عن هيئة الأركان القيصرية القديمة، وهي عبارة عن ثلة من الأشخاص المحرومين من العقل، والعاجزين عن التفكير مسبقًا بخطوتين أو بثلاث خطوات متتالية في اللعبة الكبيرة التي يشاركون بها. وبالرغم من أن كورنيلوف حدد تاريخ الانقلاب قبل عدة أسابيع، فإن الانقلابيين لم يتوقعوا، أو يعدوا، أو يحسبوا أي شيء. وتمت الإعدادات العسكرية البحتة للعصيان بغير حذق، وبإهمال، وكبير طيش. وأدخلت تعديلات معقدة على التنظيم والقيادة في صبيحة الحركة نفسها، كما أُدخلت مثل هذه التعديلات خلال الطريق. ولم تكن الفرقة "الوحشية" المعدة لتسديد الضربة الأولى إلى الثورة تضم سوى ١٣٥٠ رجلاً، تنقصهم ٦٠٠ بندقية، و١٠٠٠ رمح خيالة، و٥٠٠ سيف. وقبل بدء العمليات بخمسة أيام، أصدر كورنيلوف أمرًا بتحويل الفرقة إلى فيلق. وكان مثل هذا التصرف الخاطئ الذي لا ينسجم مع أبسط مبادئ التعليم العسكري، ضروريًّا لاجتذاب الضباط عن طريق رفع مراتبهم ورواتبهم. ويقول مارتينوف بأن "باغراسيون لم يستلم البرقية التي تحدد بأن استلام الأسلحة الناقصة سيتم في بسكوف إلا بتاريخ ٣١ أغسطس (آب) أي بعد الفشل النهائي للمشروع كله".

ولم تهتم القيادة العليا بمسألة إفراز المدربين وإرسالهم إلى بتروغراد إلا في آخر دقيقة. وزُوِّد الضباط الذين قبلوا هذه المهمة بقسط كبير من المال، وبدأ السفر بعربات خاصة. ولكن أبطال الوطنية لم يكونوا على ما يبدو يتعجلون إنقاذ البلاد. وبعد يومين، قُطعت المواصلات الحديدية بين العاصمة ومقر القيادة العليا، ولم تصل غالبية الضباط المفرزين إلى أمكنة العمل المحددة.

ومع هذا، فقد كان في العاصمة تنظيم موالٍ للكورنيلوفيين يضم حوالي ٢٠٠٠ عضو. وكان هؤلاء المتآمرون مقسَّمين إلى مفارز مكلفة بمهمات خاصة: الاستيلاء على السيارات المصفحة، واعتقال وقتل عدد من مشاهير زعماء السوفييت، واعتقال الحكومة المؤقتة، واحتلال أهم المؤسسات العامة. ويتحدث وينبرغ رئيس اتحاد الواجب العسكري: "كان من الضروري تحطيم القوى الرئيسية للثورة، بإبادتها أو وضعها خارج المعركة، قبل وصول قوات كريموف. بحيث لا يكون أمام كريموف سوى مهمة إعادة النظام في المدينة". والحقيقة أن القادة العسكريين في موهيليف رأوا بأن خطة العمل هذه تحتوي قسطًا كبيرًا من المبالغة، وهذا ما جعلهم يلقون عبء المهمة الرئيسية على عاتق كريموف، رغم أن القيادة كانت تنتظر من مفارز المركز الجمهوري مساعدة جدية كبيرة.

ومع هذا، لم يقدم متآمرو بتروغراد شيئًا، ولم يرفعوا صوتهم، ولم يحركوا أصبعًا صغيرًا من أصابعهم، وكأنه لا وجود لهم البتة. ويفسر وينبرغ هذا اللغز بكل بساطة. فلقد أمضى العقيد هيمان، قائد مصلحة مكافحة التجسس، أحرج الساعات وأكثرها خطورة في مطعم من مطاعم الضواحي. بالإضافة إلى أن العقيد سيدورين الذي كلفه كورنيلوف مباشرة بتوحيد نشاط كافة التجمعات الوطنية في العاصمة، والعقيد دوسيمانتيير المعين في الفرع العسكري "اختفيا في ذلك اليوم دون أن يُعثر لهما على أثر". وبعد فترة من الزمن اشتكى عقيد القوزاق دوتوف، الذي كان عليه أن "ينتحل اسم البلاشفة" ويعيث في البلاد فسادًا، فقال: "وهرعت... ادعوهم للنزول إلى الشارع، ولكن أحدًا لم يتبعني".

ويرى وينبرغ أن المشتركين الأساسيين ابتلعوا الأموال المخصصة للتنظيم، وبددوها. ويؤكد دينيكين بأن العقيد سيدورين "فرَّ إلى فنلندا حاملاً معه ما تبقى من أموال التنظيم، أي ما يعادل ١٥٠ ألف روبل". أما لفوف الذي ذكرنا خبر اعتقاله في قصر الشتاء، فقد تحدث فيما بعد عن أنه كان على أحد الممولين السريين أن يدفع مبلغًا كبيرًا من المال لمساعدة المؤامرة، فلما ذهب إلى المكان المحدد للمدفع، وجد المتآمرين سكارى لدرجة جعلته يحجم عن تسليمهم هذه الأموال. ويرى وينبرغ، أنه لو لم تقع هذه التصرفات "المفاجئة" السيئة حقًا، لتكلل المخطط حتمًا بالنجاح. ولكن هناك سؤالاً واحدًا: لماذا كان معظم من تجمعوا حول هذا المشروع الوطني رجالاً مخمورين، ولصوصًا، وخونة؟ ألا يرجع ذلك إلى أن كل مهمة تاريخية تعبئ الكوادر الملائمة لها؟

ولم يكن تركيب قوات المؤامرة نفسها رائعًا، بدءًا من قياداتها العليا. ويقول أيزغوئيف وهو عضو من يمين الكاديت: "لقد كان كورنيلوف يتمتع بشعبية.. بين أوساط السكان المسالمين، ولكنه لا يتمتع بشعبية مماثلة في القطعات، وخاصة في قطعات المؤخرة التي قُيِّض لي أن أرقبها عن كثب"، ويقصد أيزغوئيف بتعبير "السكان المسالمين" مجمل سكان حي نييفسكي. أما الجماهير الشعبية في الجبهة والمؤخرة، فقد كانت تعتبر كورنيلوف غريبًا، منبوذًا، مكروهًا.

ووضع على رأس فيلق الخيالة الثالث الجنرال كراسنوف، الملكي، الذي حاول فيما بعد أن يعمل في خدمة غليوم الثاني. واستغرب كراسنوف عندما رأى بأن "كورنيلوف الذي رسم خطة كبيرة بعيدة المرامي، بقي في موهيليف، وسط قصر شامخ، يحيط به التركمان وألوية الصدام، وكأنه لا يثق باحتمالات نجاحه". وعندما سأل الصحفي الفرنسي كلود آني الجنرال كورنيلوف عن السبب الذي دفعه لأن لا يزحف بنفسه في الساعات الحاسمة نحو بتروغراد، أجابه قائد المؤامرة: "لقد كنت مريضًا، ومصابًا بنوبة ملاريا حادة، وفقدت قدرتي العادية على العمل".

لقد رافق العملية كثير من الحوادث المؤسفة والملابسات السيئة، وهذا أمر معهود عندما يكون المشروع فاشلاً مسبقًا. وكانت الحالة الفكرية التي يتمتع بها المتآمرون تجعلهم يترددون بين نشوة التبجح الذي لا يعرف معنى الحواجز، والذهول الكامل أمام أول حاجز حقيقي. ولا يرجع الأمر لملاريا كورنيلوف، بل لمرض عضال أكثر عمقًا وأشد خطورة، مثل إرادة الطبقات المالكة.

وأنكر الكاديت جديًّا أن يكون كورنيلوف قد خطط لثورة مضادة، أي لإعادة ملكية أسرة رومانوف. وكأن هذا الأمر مطروح على بساط البحث! إن ميول كورنيلوف "الجمهورية" لم تمنع الملكي كومسكي من السير معه جنبًا إلى جنب، كما لم تمنع رئيس اتحاد الشعب الروسي ريمسكي كورساكوف من أن يبرق لكرونيلوف في يوم الانتفاضة قائلاً: "إنني أصلي لله بحرارة، ليساعدكم على إنقاذ روسيا. وأضع نفسي كلية تحت تصرفكم"، ولم يكن أنصار المائة السود يحسون بالضيق من العلم الجمهوري الرخيص الذي رفعه كورنيلوف. وكانوا يعون كل الوعي، بأن برنامج كورنيلوف نابع من طبيعة الجنرال، وماضيه، وحاشيته القوزاقية، واتصالاته، وموارده المالية، واستعداده المخلص لذبح الثورة.

وأطلق كورنيلوف على نفسه في بياناته لقب "ابن الفلاح"، ولكنه بنى خطة انقلابية كلها على القوزاق والجنود الجبليين. ولم يكن في القوات المتجهة إلى بتروغراد أية وحدة من وحدات المشاة (الفلاحية). ولم يكن للجنرال أية صلة بالموجيك، كما لم يقم بأي جهد لإيجاد هذه الصلة. صحيح أنه كان في مقر القيادة العليا "أستاذ" يتحدث عن الإصلاح الزراعي، ويعد كل جندي بقطعة رائعة من الأرض. ولكن البيان المعد بهذا الصدد لم يُنشر؛ فلقد تردد الجنرالات، ولم يجرءوا على القيام بحملة ديماغوجية زراعية، حتى لا يتضايق الملاكون النبلاء وينفضوا من حولهم.

ويحدثنا الفلاح تادوز من موهيليف بأنه راقب الأوساط المحيطة بالقيادة العليا عن كثب خلال هذه الأيام، فوجد أنه لم يكن بين صفوف الجنود، وداخل السرايا من يؤمن ببيان الجنرال: "أنه يود السلطة، وليس هناك كلمة واحدة عن الأرض. كما ليس هناك أية كلمة عن الحرب"، وهكذا تعلمت الجماهير خلال ستة شهور من الثورة كيف تتصرف بشكل أو بآخر إزاء أكثر المسائل حيوية وإلحاحًا. لقد حمل كورنيلوف للشعب الحرب، والدفاع عن امتيازات الجنرالات وملكية النبلاء. ولم يكن بوسعه أن يقدم للشعب أكثر من ذلك، ولم يكن الشعب ينتظر منه شيئًا آخر. لقد كانت استحالة اعتماد المتآمرين على الجندي والفلاح - ناهيك عن العمال- أمرًا مؤكدًا مسبقًا. ونجم عن هذه الاستحالة الإدانة الاجتماعية للشلة الكورنيلوفية.

وكان جدول القوى السياسية الذي وضعه دبلوماسيو القيادة العليا الأمير تروبنسكوي صحيحًا في العديد من النقاط، ولكنه خاطئ في نقطة واحدة؛ إذ لم يعد في الشعب أي أثر لهذه اللامبالاة التي تجعله مستعدًا "لتحمل أية ضربة سوط"، بل كانت الجماهير على العكس تنتظر أن يهددها الخصم بالسوط، حتى تبرهن على مصادر القوة والتضحية الكامنة في أعماقها. وهكذا أدَّت الخطيئة المتعلقة بتقييم حالة الجماهير الفكرية إلى جعل كافة الحسابات الأخرى هباءً منثورًا.

وتمت قيادة المؤامرة من قبل أوساط اعتادت على أن لا تفعل شيئًا. ولم تكن تعرف سبيل التصرف والعمل بدون عناصر القاعدة، والقوة العمالية، والأجساد المقدمة طعامًا للمدافع، والمرافقين، والخدم، والكتبة، والسائقين، والحمالين، والطباخين، وعاملات الغسيل والكوي، وعمال تحويل السكك الحديدية، وعمال اللاسلكي، والسواس، والحوذيين. ولكن كل هذا الجمع البشري، العديد، الدقيق، الذي لا يحس المرء به رغم ضرورته وأهميته، كان يقف مع السوفييتات ضد كورنيلوف. وكانت الثورة موجودة مسيطرة. فلقد تسربت إلى كل مكان، وأحاطت بالمؤامرة. وكانت تملك العين والأذن واليد في كل نقطة من نقاط البلاد.

إن التدريب العسكري المثالي يجعل الجندي يتصرف بعيدًا عن مراقبة رؤسائه وكأنه تحت أنظارهم. ولم يكن الجنود والبحارة الروس في عام ١٩١٧، ينفذون الأوامر حتى تحت أنظارهم رؤسائهم. ولكنهم كانوا يلتقطون أوامر الثورة بنهم، بل كانوا ينفذونها في أغلب الأحيان قبل صدورها، معتمدين في ذلك على بداهتهم الشخصية. ولم يكن خدام الثورة، وعملاؤها، ورصادها ومناضلوها بحاجة لحث أو مراقبة.

وكانت تصفية الانتفاضة من الناحية الشكلية بين يدي الحكومة. وشاركت اللجنة التنفيذية في هذا الدور. ولكن النضال تم بأساليب أخرى مختلفة كل الاختلاف. ففي الوقت الذي كان كرنسكي ينوء به تحت ثقل عبء "يفوق طاقة البشر"، ويسير وحيدًا في ممرات قصر الشتاء، كانت **لجنة الدفاع المسماة** أيضًا باسم "**اللجنة العسكرية الثورية**" تقوم بنشاط واسع. ومنذ الصباح الباكر. أُرسلت التعليمات البرقية إلى مستخدمي السكك الحديدية، ومراكز البرق، ومفارز الجنود مؤكدة "أن كافة حركات القطعات التي تتم بأمر من الحكومة المؤقتة، لا بُدَّ وأن تحصل على موافقة لجنة الدفاع العام" فإذا ما تجاوزنا التعابير المعهودة للبحث عما وراءها، وجدنا أنها تعني بأن لجنة الدفاع كانت تملك قوات تحركها تحت اسم الحكومة المؤقتة. وبدأت في الوقت نفسه عملية تدمير الأعشاش الكورنيلوفية في بتروغراد نفسها، وجرت حملات التفتيش على نطاق واسع، كما جرت اعتقالات

في المدارس العسكرية وتنظيمات الضباط. وأحسَّ الجميع بيد لجنة الدفاع في كل مكان. ولم يعد أحد يهتم بحاكم المدينة العسكري.

ولم تنتظر التنظيمات السوفييتية القاعدية بدورها صدور الأوامر من الأعلى. وتركز العمل الرئيسي في الأحياء. وفي ساعات الترددات الكبيرة التي عاشتها الحكومة، والمباحثات العقيمة التي قامت بها اللجنة التنفيذية مع كرنسكي، ضمت سوفييتات الأحياء صفوفها وتعاونت فيما بينها، وقررت إعلان عقد اجتماع المناطق بصورة دائمة، وإدخال ممثليه في هيئة الأركان التي شكلتها اللجنة التنفيذية، وخلق مليشيا عمالية، وقيام سوفييتات الأحياء بمراقبة مفوضي الحكومة، وتشكيل مجموعات متحركة مهمتها اعتقال المحرضين المضادين للثورة. ولم تكن هذه التدابير بمجملها تعني أن سوفييتات الأحياء قررت القيام بجزء كبير من الوظائف الحكومية فحسب، بل القيام بوظائف سوفييت بتروغراد أيضًا. وكان منطق الموقف يفرض على أعلى الأجهزة السوفييتية أن تضغط نفسها لتترك المكان لأجهزة القاعدة. وما أن دخلت أحياء بتروغراد حلبة الصراع، حتى تبدل اتجاه هذا الصراع وحجمه بصورة مفاجئة. وكشفت التجربة من جديد حيوية التنظيم السوفييتي التي لا تنضب؛ لقد شلت قيادة التوفيقيين هذا التنظيم من الأعلى، فتحرك في اللحظة الحاسمة من الأسفل، بدفع من الجماهير.

وكان البلاشفة المحركون للأحياء يتوقعون عصيان كورنيلوف وينتظرونه. ولقد توقعوا، وأعلموا، وكانوا أول من أخذوا مواقعهم. ومنذ انعقاد الاجتماع الموحد للجنتين التنفيذيتين في ٢٧ أغسطس (آب)، أعلم سوكولنيكوف المجتمعين بأن الحزب البلشفي اتخذ كافة التدابير الخاصة به واللازمة لتحذير الشعب من الخطر، وإعداد الدفاع. وأعلن البلاشفة أنهم على استعداد لتنسيق نشاطهم القتالي مع نشاط أجهزة اللجنة المركزية. وعقد تنظيم البلاشفة العسكري خلال الليل اجتماعًا حضره مندوبون عن عدة قطعات. وأقر المجتمعون ضرورة المطالبة باعتقال كافة المتآمرين، وتسليح العمال، واختيار عدد من الجنود لتدريبهم، وتأمين الدفاع عن العاصمة بعناصر القاعدة، والاستعداد في الوقت نفسه لخلق سلطة ثورية للعمال والجنود. وعقد التنظيم العسكري عدة اجتماعات عامة في كافة أرجاء الموقع. ودعي الجنود إلى الحذر واليقظة، والاحتفاظ بالأسلحة بين أيديهم، والبقاء على استعداد للخروج من الثكنة عند أول إشارة خطر.

ويقول سوخانوف: "بالرغم من أن البلاشفة كانوا أقلية، فقد كان من الواضح أنهم يسيطرون على اللجنة العسكرية الثورية سيطرة تامة". ويقدم سوخانوف السبب بقوله: "وكان على اللجنة أن تتصرف بصورة ثورية إذا ما شاءت العمل فعلاً بجدية"...، "وكان البلاشفة وحدهم يملكون الوسائل الحقيقية" اللازمة للتصرفات الثورية، نظرًا لأن الجماهير كانت تسير وراءهم. وكان توتر الصراع في كل مكان يدفع إلى أمام أكثر العناصر فعالية وجرأة. وأدَّى هذا الاصطفاء الآلي إلى رفع البلاشفة بشكل لا مندوحة عنه، وتقوية نفوذهم، وجمع المبادهة بين أيديهم، وسلمهم القيادة حتى في التنظيمات التي كانوا فيها قلة. وكلما كان التنظيم يقترب من الحي، والمصنع، والثكنة، كلما ظهرت سيطرة البلاشفة بشكل أوضح وأكثر كمالاً. ووُضعت كافة خلايا الحزب موضع الاستعداد، ونظم البلاشفة في المجموعات النقابية للمصانع الكبرى خدمة مستمرة، وكان ممثلو المشاريع الصغيرة يجتمعون في لجنة الحي الحزبية. وامتدت الاتصالات، قادمة من الأسفل، من الورشة، ووصلت إلى لجنة الحزب المركزية عن طريق الأحياء.

وتحت الضغط المباشر الذي مارسه البلاشفة والتنظيمات الخاضعة لهم، اعترفت لجنة الدفاع، بأن من المستحسن تسليح مجموعات العمال لحماية أحيائهم، ومعاملهم، ومصانعهم. ولم تكن الجماهير تنتظر غير هذا. وتشير الصحافة العمالية في تلك الفترة إلى أن الأحياء شهدت فورًا تشكيل "أرتال هائلة من الرجال الراغبين بالانضمام إلى الحرس الأحمر" وفُتحت الدورات للتدريب على استخدام البندقية والرمي بها. وكان التدريب يتم على أيدي جنود محنكين. ومنذ يوم ٢٩ تشكلت **سرايا (دروجيني)** في معظم الأحياء. وأعلن الحرس الأحمر عن استعداده لأن يقدم فورًا قوة تضم ٤٠ ألف بندقية. وتجمع العمال العُزّل من

السلاح، وشكلوا دروجيني لحفر الخنادق، وبناء التحصينات، ومد شبكات الأسلاك الشائكة. واضطر الحاكم العسكري الجديد بالتشينسكي -إذ لم يستطع كرنسكي الاحتفاظ بشريكه في المؤامرة أكثر من ٣ أيام- إلى الاعتراف بتصريح خاص، بأنه ما أن ظهرت الحاجة للقيام بأعمال الحفر والتحصين للدفاع عن العاصمة "حتى قدَّم آلاف العمال... أنفسهم دون المطالبة بأية مكافأة، ونفذوا في عدة ساعات عملاً كبيرًا، كان تنفيذه يتطلب أولاً مساعدتهم، عملاً يدوم عدة أيام". ولكن هذا لم يمنع بالتشينسكي من السير على خطى سافينكوف، ويمنع صدور الصحيفة البلشفية التي كان العمال يعتبرونها صحيفتهم الوحيدة.

وغدا مصنع بوتيلوف العملاق مركز المقاومة في منطقة بيترهوف؛ إذ شُكِّلت فيه على عجل دروجيني قتالية. واستمر العمل في المصنع ليلاً ونهارًا، واهتم العمال بتركيب مدافع جديدة لتشكيل فرق مدفعية بروليتارية. ويحدثنا العامل مينيتشيف فيقول: "واستمر العمل في هذه الأيام بمعدل ١٦ ساعة يوميًّا... وتم تركيب ١٠٠ مدفع تقريبًا".

وتعمدت **الفيكجل (اللجنة التنفيذية لعمال السكك الحديدية في عموم روسيا)** المشكلة حديثًا تحت النار. وكان لدى عمال السكك الحديدية أسبابًا تجعلهم يخشون أكثر من غيرهم انتصار كورنيلوف الذي ذكر في برنامجه إعلان حالة الطوارئ في السكك الحديدية. وكانت القاعدة هنا أيضًا متقدمة على القيادات. ولجأ عمال السكك الحديدية إلى فك السكك وقطعها بغية إيقاف قوات كورنيلوف؛ لقد أفادتهم تجربة الحرب بشكل، واتخذوا بالإضافة إلى ذلك عدة تدابير لعزل مركز المؤامرة موهيليف، وذلك بأن أوقفوا حركة القطارات المتجهة إلى مقر القيادة العليا أو الخارجة منها. وبدأ مستخدمو البريد والبرق يوقفون البرقيات والأوامر الصادرة من مقر القيادة العليا، ويرسلونها أو يرسلون نسخًا منها إلى لجنة الدفاع. لقد اعتاد الجنرالات خلال سنوات الحرب على اعتبار النقل ومصالح الارتباط والإشارة مسائل تقنية. ولكنهم اضطروا منذ تلك اللحظة إلى الاعتراف بأنها مسائل سياسية.

وكانت النقابات أقل من غيرها استعدادًا للوقوف موقف الحياد السياسي؛ لذا فإننا نجدها تحتل مواقع القتال دون أن تنتظر أية دعوات خاصة. وسلّحت نقابة عمال السكك الحديدية أعضاءها، وكلفتهم بمراقبة الخطوط الحديدية وتدميرها، وحراسة الجسور، ...إلخ. ودفع العمال بحماسهم وتصميمهم الفيكجل التي كانت أكثر بيروقراطية واعتدالاً من جماهير العمال. ووضعت نقابة عمال التعدين تحت تصرف لجنة الدفاع عددًا كبيرًا من العمال، وقدمت لها مبلغًا كبيرًا من المال لتغطية نفقاتها الطارئة. ووضعت نقابة سائقي السيارات تحت تصرف اللجنة وسائط نقل، وإمكانات تقنية. وأمّنت نقابة المطابع في عدة ساعات إصدار صحف يوم الاثنين، بغية إعلام الأهالي بالأحداث الجارية، وأمَّنت في الوقت نفسه أفضل مراقبة ممكنة على الصحافة كلها. وهكذا قرع الجنرال المتمرد الأرض بقدمه. فانبثقت **الليجيونات** من باطن الأرض، ولكنها كانت ليجيونات معادية.

واستمر العمل ليلاً ونهارًا حول بتروغراد، في المواقع المجاورة، وداخل المحطات الكبرى، ووسط صفوف الأسطول، وتم التحقق من القطعات المشكلة حديثًا، وتسلح العمال، وأُرسلت المفارز للحراسة على طول السكك الحديدية، وتم تأمين الاتصال مع النقاط المجاورة ومع معهد سمولني. ووجدت اللجنة أنَّ عليها أنْ تسجل وتقود أكثر من أن تشجع وتحمس وتطلق النداءات؛ إذ كان حماس الجماهير يجعل التنفيذ يتجاوز مخططاتها دائمًا إلى حد بعيد. وتحولت مقاومة عصيان الجنرال إلى شبكة شعبية كبيرة حصرت المتآمرين.

وخلق مجلس التنظيمات السوفييتية العام في هلسنغفورز لجنة ثورية بعثت مفوضيها إلى مقرات الحاكم العسكري، والقيادة العامة، ومصلحة مكافحة التجسس، وعدد من المؤسسات الهامة جدًا. ومنذ تلك اللحظة أصبحت الأوامر التي لا تحمل توقيع هؤلاء المفوضين باطلة لا تُنفذ. ووُضعت الهواتف وأجهزة البرق تحت المراقبة. وحاول الممثلون الرسميون لفوج القوزاق المعسكر في هلسنغفورز ومعظمهم من الضباط إعلان حيادهم؛ إنهم كورنيلوفيون مموهون. وفي اليوم التالي حضر

إلى اللجنة جنود من القوزاق وأعلنوا أن الفوج يقف ضد كورنيلوف. وانضم مندوبو القوزاق إلى السوفييت لأول مرة. وفي هذه الحالة، كما في حالات عديدة أخرى، كان الصراع الطبقي يدفع الضباط يميناً والجنود يسارًا.

وبعث سوفييت كرونشتادت الذي شفته الأيام من جروح يوليو (تموز) برقية تقول بأن "حامية كرونشتادت تقف مستعدة كرجل واحد للدفاع عن الثورة عند أول نداء توجهه اللجنة التنفيذية". ولم يكن جنود كرونشتادت يعلمون في تلك الأيام إلى أي حد كان الدفاع عن الثورة يحميهم من تدابير الإبادة، ولكنهم كانوا يتوقعون ذلك.

والحقيقة أنه ما أن انقضت أيام يوليو (تموز) حتى قررت الحكومة المؤقتة تفتيت حصن كرونشتادت كيلا يكون بعد ذلك عشاً للبلشفية، وفسر هذا التدبير رسميًّا بالاتفاق مع كورنيلوف كعمل أوحت به "الضرورات الإستراتيجية". وما أن أحس البحارة بأن الأمور تجري بشكل سيئ، حتى قرروا المقاومة. ولقد كتب كرنسكي فيما بعد، وبعد أن اتهم هو نفسه كورنيلوف بالخيانة ما يلي: "كانت أسطورة وجود خيانة في القيادة العليا مترسخة في كرونشتادت بشكل جعل كل محاولة لرفع المدفعية من الحصن تثير هياجًا حقيقيًّا بين الجماهير". وكلفت الحكومة كورنيلوف بتصفية كرونشتادت. ووجد الجنرال هذه الوسيلة أن على الجنرال كريموف أن يعمل، بعد سحق العاصمة، على توجيه لواء معزز بالمدفعية نحو أورانيبوم. وأن يستخدم تهديد البطاريات الساحلية ليجبر حامية كرونشتادت على نزع سلاح الحصن، وعودة كافة البحارة إلى الأرض الروسية؛ حيث يتعرضون لعمليات قمع جماعي. ولكن في اللحظة التي قرر كريموف بها تنفيذ خطة الحكومة، وجدت الحكومة نفسها مضطرة لأن تطلب النجدة من رجال كرونشتادت، بغية حمايتها من خطر كريموف.

وأرسلت اللجنة التنفيذية إلى كرونشتادت وفيبورغ برقيات تطالب بإرسال قوات كبيرة إلى بتروغراد. وبدأت القوات بالوصول منذ صباح ٢٩. وكان معظمها مفارز بلشفية، ولم تعط برقيات اللجنة التنفيذية فاعليتها إلا بعد أن وافقت عليها اللجنة المركزية البلشفية. وقبل ذلك بقليل، أي في حوالي منتصف يوم ٢٨، وبناء على أمر من كرنسكي كان أقرب إلى الرجاء والتوسل، تمت حراسة قصر الشتاء ببحارة الطرَّاد أورور الذي كان بعض بحارته لا يزالون في سجن كرستي لمشاركتهم في مظاهرة يوليو (تموز). وكان البحارة يذهبون إلى السجن في ساعات الراحة لزيارة رجال كرونشتادت السجناء إلى جوار تروتسكي، وراسكولنيكوف، وغيرهما. وكان الزوار يتساءلون: "ألم يحن الأوان لاعتقال الحكومة؟" فيتلقون الإجابة التالية "كلا، لم يحن بعد"... "ضعوا البندقية على كتف كرنسكي، وأطلقوا النار على كورنيلوف. وسنسوي الحسابات مع كرنسكي فيما بعد". ولم يكن هؤلاء البحارة في يونيو ويوليو (حزيران وتموز) مستعدين للاهتمام بمتطلبات الإستراتيجية الثورية وحججها. فلقد تعلموا الكثير في هذين الشهرين اللذين لم ينتهيا بعد. ولم يكونوا يطرحون السؤال الخاص باعتقال الحكومة إلا على سبيل النقد الذاتي، ولتخفيف العبء عن ضمائرهم. وكان البحارة أنفسهم يلتقطون بسرعة تعاقب الأحداث الأكيد. فلقد ضربوا في النصف الأول من يوليو (تموز)، وشتموا، وحكم عليهم بالسجن. وها هم في نهاية أغسطس (آب) يمثلون أفضل حراس قصر الشتاء ضد الكورنيلوفيين. وسيفتحون في نهاية أكتوبر (تشرين الأول) نيران مدافع أورور على قصر الشتاء.

ولكن إذا كان البحارة يقبلون حتى الآن أن يؤجلوا إلى حد ما، التصفية النهائية للحسابات مع نظام فبراير (شباط)، فإنهم لا يودون أن يتحملوا سلطة الضباط الكورنيلوفيين يومًا واحدًا إضافيًّا. فلقد ثبت أن القيادة التي فرضتها الحكومة المؤقتة عليهم بعد أيام يوليو (تموز) عبارة عن قيادة متضامنة مع المتآمرين في كل مكان تقريبًا. وعزل سوفييت كرونشتادت فورًا القيادة التي عينتها الحكومة، وعين قيادة أخرى اختارها بنفسه. ولم يعد التوفيقيون يتحدثون عن انفصال جمهورية كرونشتادت. ولكن الأمر لم يقتصر في كل مكان على عمليات العزل وحدها، بل تجاوزها إلى عمليات الانتقام الدموية في العديد من المناطق.

ويقول سافينكوف: "وبدأ هذا في فيبورغ عندما لجأت مجموعات من البحارة والجنود الذين اتسموا بالوحشية واستبد بهم الهلع إلى ضرب الجنرالات والضباط". كلا، إن هذه الجموع لم تتسم بالوحشية، ولا يمكن التحدث في هذه الفترة عن الهلع. وفي صبيحة ٢٩ بعثت التسنتروفلوت (اللجنة المركزية للأسطول) إلى الجنرال أورانوفسكي، قائد فيبورغ، برقية حول تمرد القيادة العليا كيما ينقلها إلى حامية الموقع. ولكن الجنرال احتفظ بالبرقية خلال يوم كامل، وأخذ يجيب على الأسئلة الموجهة إليه حول ما يجري، بأنه لم يتلق أية معلومات. ولما فتش البحارة ودققوا وجدوا البرقية لديه. ورأى أورانوفسكي أنه متلبِّس بالجرم المشهود، فأعلن موقفه، وأكد أنه من أنصار كورنيلوف. فأعدمه البحارة رميًا بالرصاص مع ضابطين وقفا إلى جانبه وأخذوا موقفًا مماثلاً لموقفه. وطلب البحارة من ضباط أسطول البلطيق توقيع بيانات تؤكد ولاءهم للثورة. ولما رفض أربعة ضباط من ضباط المركب بتروبافلوفسك وضع توقيعاتهم، وأعلنوا أنهم كورنيلوفيون اجتمع بحارة المركب وقرروا إعدامهم، ونفذ الإعدام رميًا بالرصاص فورًا.

لقد كان الجنود والبحارة معرضين لخطر الموت؛ لذا كان من المتوقع أن لا تتم التصفيات الدموية في بتروغراد وكرونشتادت فحسب، بل في كل حاميات البلاد. وكان الجنود والبحارة ينظرون بقلق إلى تصرف الضباط الذين استعادوا شجاعتهم، ويرقبون تبدل نبرة أصواتهم، وحدة نظراتهم الشزراء، ويستنتجون من كل ذلك المصير الذي ينتظرهم فيما إذا انتصر عصيان القيادة العليا. وكانوا يقطعون الطريق على الأعداء في المواقع التي يتوتر فيها الوضع بشكل ملحوظ. ويجابهون التصفيات المتوقعة التي يعدها الضباط، بتصفيات دموية يقوم بها البحارة والجنود. إن للحرب الأهلية كما نعرف قوانينها، ولم ينظر أي أمرئ إلى هذه القوانين في يوم من الأيام على أنها إنسانية تتسم بالرأفة.

وبعث تشخيدزه إلى فيبورغ وهلسنغفورز برقية تدين عمليات الإعدام الاعتباطي[١]، وتعتبرها "ضربة قاتلة مسددة إلى الثورة"، وأبرق كرنسكي بدوره إلى هلسنغفورز "أصرَّ على وضع حد لعمليات العنف المنكرة فورًا"، فإذا ما بحثنا عن المسئولية السياسية لبعض عمليات الإعدام الاعتباطي -دون أن ننسى بأن الثورة بمجملها عبارة عن إعدام اعتباطي- وجدنا أن المسئولية تقع هذه المرة كلية على عاتق حكومة التوفيقيين، التي لجأت إلى الجماهير الثورية في لحظة الخطر ثم لم تلبث أن وضعتها تحت قيادة الضباط المضادين للثورة.

وكما لجأ التوفيقيون إلى البلاشفة خلال مؤتمر موسكو عندما كان الجميع ينتظرون وقوع انقلاب مضاد ما بين ساعة وأخرى، فإن كرنسكي الذي قطع صلاته مع القيادة العليا يلجأ الآن إلى البلاشفة، ويرجوهم أن "يمارسوا تأثيرهم على الجنود بغية حثهم للدفاع عن الثورة"، وبالرغم من أن كرنسكي دعا البحارة للدفاع عن قصر الشتاء، فإنه لم يُفرج عن سجناء يوليو (تموز). وكتب سوخانوف بهذا الصدد: "كان الوضع صعبًا لا يحتمل، عندما أخذ الكسبيف يتفاوض بغنج مع كرنسكي، على حين بقي تروتسكي في السجن"، وليس من الصعب تصور المناخ الذي ساد آنذاك داخل السجون الغاصة بنزلائها. ويتحدث راسكولنيكوف عن ذلك بقوله: "كنا نغلي من الغيظ والحنق ضد الحكومة المؤقتة، التي تركت ثوريين من أمثال تروتسكي يتعفنون في سجن كرستي في مثل هذه الأيام العصبية...، وكان تروتسكي يقول خلال فترة التنفس[٢] وهو يدور معنا في الباحة: كم هم جبناء، آه! كم هم جبناء! لقد كان عليهم أن يعلنوا بأن كورنيلوف خارج عن القانون، حتى يحس كل جندي مخلص للثورة بأن له الحق في الخلاص منه".

وكان دخول قوات كورنيلوف إلى بتروغراد، يعني في حالة وقوعه إبادة البلاشفة المعتقلين قبل أي شيء آخر. ولم ينس كريموف هذه النقطة في الأمر الذي وجهه إلى الجنرال باغراسيون قائد الطليعة المكلفة بدخول العاصمة. فلقد أشار إليها بصورة خاصة بما يلي: "تأمين حراسة مشددة على السجون والمعتقلات، وعدم الإفراج عن الأشخاص المعتقلين فيها بأي حال من الأحوال". إن هذا برنامج كامل أوحى به ميليوكوف منذ أيام أبريل (نيسان): "عدم الإفراج بأي حال من الأحوال". ولم يعقد

في هذه الأيام اجتماع عام في بتروغراد لم تذكر فيه ضرورة تحرير سجناء يوليو (تموز)، وذهبت الوفود تترى إلى اللجنة التنفيذية، التي بعثت بدورها عددًا من زعمائها للتباحث دون جدوى في قصر الشتاء! وكان عناد كرنسكي كبيرًا لدرجة جعلته يتمسك بموقفه حتى خلال فترة اليوم أو اليومين التي اعتُبر وضع الحكومة فيها يائسًا، فجعل نفسه بذلك السجان الرئيسي الذي يحرس البلاشفة بغية تسليمهم لمشنقة الجنرال.

وليس من المستغرب أن الجماهير المناضلة تحت قيادة البلاشفة ضد كورنيلوف لم تمنح ثقتها لكرنسكي. ولم يكن النضال بالنسبة لها يستهدف الدفاع عن الحكومة المؤقتة بل حماية الثورة. وهذا ما جعل نضالها جريئًا مصممًا. وانبثقت مقاومة العصيان من السكك الحديدية، والحجارة، والهواء نفسه. وفي محطة لوغا التي وصل إليها كريموف، رفض عمال السكك الحديدية بعناد تسيير القطارات التي تنقل القطعات، وتعللوا بنقص القاطرات. ووجدت وحدات القوزاق نفسها محاصرة بجنود مسلحين تابعين لحامية لوغا التي تضم ٢٠ ألف رجل. ولم يحصل أي صدام. ولكن ما وقع كان أدهى من الصدام، فلقد تم الاتصال، والحديث، والتفاهم، والفهم المتبادل. ووجد سوفييت لوغا الوقت اللازم لطبع بيان الحكومة الذي يعلن عزل كورنيلوف، وانتشرت هذه الوثيقة منذ تلك اللحظة على نطاق واسع بين القطعات. وكان الضباط يحذرون القوزاق من الثقة بالمحرضين. ولكن اضطرارهم للتحذير يشكل بحد ذاته دلالة مشئومة.

وما أن تلقى كريموف أوامر كورنيلوف بالتقدم، حتى هدد العمال بحراب القوزاق وأصرَّ على ضرورة إعداد القاطرات خلال مدة لا تتجاوز نصف الساعة. وبدا الإنذار فعَّالاً. وتحركت القاطرات بعد تجاوز بعض العقبات الجديدة. ومع هذا، فلم يكن بوسع القطعات أن تتقدم. فالسكك مدمرة، والطريق مقطوعة لفترة لا تقل عن يوم كامل. وخاف كريموف على قواته من الدعاية الضارة، فسحبها في مساء ٢٨ إلى نقطة تبعد عن لوغا عدة فرستات. ولكن المحرضين دخلوا القرى مباشرة وكانوا جنودًا، وعمالاً، ومستخدمين في السكك الحديدية، ولم يكن بوسع القوات العسكرية الخلاص منهم، فهم منتشرون في كل مكان. وبدأ القوزاق أنفسهم يعقدون الاجتماعات. وناء كريموف تحت وطأة هجوم الدعاية، وعجزه عن التقدم. فقبع ينتظر باغراسيون، ولكن عمال السكك الحديدية أوقفوا قطارات وحدات الفرقة "الوحشية" التي لم تلبث أن تعرضت بعد ساعات لهجوم معنوي واسع النطاق.

وبالرغم من تفاهة ديمقراطية التوفيقيين وجبنها، فلقد كان استنادها إلى الجماهير من جديد، واعتمادها عليها للنضال ضد كورنيلوف يفتح أمامها معين قوة لا تنضب. ورأى الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة أن مهمتهم لا تتمثل في هزيمة قوات كورنيلوف بمعركة نظامية، بل جذبها إلى صفوفهم بشكل ما. وكانت فكرتهم بمجملها صحيحة. ولم يكن البلاشفة ولا شك يعارضون "التوفيقية" في هذا المجال، بل كان هذا التصرف منسجمًا مع أسلوبهم الخاص الذي ما برحوا يستخدمونه. ولكن البلاشفة طالبوا بأن يقف العمال والجنود المدججون بالسلاح خلف المحرضين والمفاوضين والنواب. وكان أمام المحرضين مجال كبير لاختيار الأساليب اللازمة للتأثير على قوات كورنيلوف؛ إذ بعث لمقابلة الفرقة "الوحشية" وفد من المسلمين يضم عددًا من السلطات المحلية القفقاسية التي تحركت فورًا وعلى رأسها حفيد شاميل الشهير، الذي دافع عن بلاد القفقاس ببطولة ضد القيصرية. ولم يسمح الجبليون لضباطهم باعتقال الوفد؛ لأن في ذلك خرقًا لتقاليدهم الأصيلة الخاصة بحسن الضيافة. وبدأت المحادثات، وأصبحت فورًا بداية النهاية. وحاول القادة الموالون لكورنيلوف الإشارة إلى قرب احتمال انفجار عصيان في بتروغراد يقوم به عملاء ألمانيا. ولكن المندوبين القادمين من العاصمة مباشرة، لم ينكروا وجود هذا العصيان فحسب، بل دعموا أقوالهم بتقديم الوثائق الحكومية التي تؤكد بأن كريموف متمرد يقود قواته ضد الحكومة. فماذا كان بوسع ضباط كريموف أن يردوا على ذلك؟

ورفع الجنود على عربة هيئة أركان الفرقة "الوحشية" علمًا أحمر كتب عليه "الأرض والحرية"، وأمر رئـيس الأركـان بإنزال العلم فورًا. وبرر السيد العقيد ذلك برغبته "بتحاشى أي خطأ قد ينجم عن اختلاط الأمور، والاعتقاد بأن هذا العلم شـارة من شارات السكك الحديدية". ولم يرتح ضباط هيئة الأركان لهذا التفسير الجبان، فأوقفوا العقيد واعتبروه سجينًا. أفلـم يخطـئ الضباط في مقر القيادة العليا عندما قالوا بأن هؤلاء الجبليين القادمين من القفقاس سوف يذبحون أي شخص بلا مبالاة؟

وفي صبيحة اليوم التالي حمل أحد العقداء أمرًا من كورنيلوف إلى كريموف يقول بـ: ضرورة تجميع الفيلق، والسير بسرعة نحو بتروغراد، واحتلالها "على حين غِرَّة". ويبدو أنهم كانوا يحاولون في مقر القيادة العليا إغلاق عيونهم عـن رؤيـة الحقيقة. ورد كريموف بأن قوات الفيلق مبعثرة على عدة خطوط حديدية. وأن الجنود نزلوا من القطارات في بعـض النقـاط، وأنه لا يملك الآن تحت تصرفه سوى ٨ سرايا من القوزاق، وأن خطوط السكك الحديدية مدمرة، معطلة، مسدودة بـالحواجز، وأن من المتعذر التقدم إلا بالسير عبر الأرياف. كما أن من المستحيل احتلال العاصمة على حين غِـرَّة، خاصـة وأن العمـال والجنود في العاصمة والضواحي مستنفرون تحت السلاح. وتزايد تعقيد المسألة نظرًا لضياع إمكانية إجراء العمليـة "بـصورة مفاجئة" بالنسبة لقوات كريموف نفسها؛ فلقد أحست القطعات بأن الأمور تجري بشكل سيئ، فأخذت تطالب بتفسيرات متعـددة. وكان على القيادة أن تكشف لها عن وجود صراع بين كورنيلوف وكرنسكي. وهذا يعني السماح بعقـد الاجتماعـات العامـة بصورة رسمية.

وأصدر كريموف في تلك الفترة أمرًا يقول: "تلقيت في هذه الليلة من مقر القيادة العليا من بتروغراد معلومات تقول بأن حركات تمرد وعصيان بدأت في العاصمة..." وكان على هذه الخدعة أن تبرر الحملة التي بدأت منـذ تلـك اللحظـة بـشكل مكشوف ضد الحكومة. ويقول أمر كورنيلوف الصادر في ٢٩ أغسطس (آب): "أعلمتنا مصلحة مكافحة التجسس في هولندا بما يلي: (أ) يُتوقع أن يشن العدو في هذه الأيام هجومًا عامًا على طول الجبهة، يستهدف طرد جيشنا المتفتت من مواقعه، وإجبـاره على الفرار، (ب) هناك انتفاضة معدة في فنلندا، (ج) يستعد العصاة لنسف الجسور الواقعة على الـدنيبير والفولغـا، (د) يعـد البلاشفة عصيانًا في بتروغراد". إن هذا هو التقرير الذي أشار إليه سافينكوف منذ ٢٣، ولم يُذكر اسم هولندا إلا لذر الرماد في العيون. وتقول معظم المعلومات أن هذه الوثيقة وُضعت من قبل البعثة العسكرية الفرنسية، أو بمشاركتها على الأقل.

وأبرق كرنسكي في اليوم نفسه إلى كريموف: "في بتروغراد، هدوء شامل. ولا ينتظر اندلاع أية مظاهرة. ولـسنا أبـدًا بحاجة لفيلقكم". لقد كان من المنتظر اندلاع المظاهرة ردًا على قيام كرنسكي نفسه بإصدار مراسيم إعلان حالة الطوارئ، ولكن تأجيل الحكومة لاستفزازها جعل كرنسكي مؤقتًا بأنه "لا ينتظر اندلاع أية مظاهرة".

ولما لم يجد كريموف مخرجًا، قام بمحاولته السخيفة للسير نحو العاصمة بثماني سرايا من القوزاق، وكان عملـه هـذا تصرفًا لإرضاء ضميره، ولم يؤد في النتيجة إلى شيء. واصطدم كريموف ببعض المخافر الأمامية عند مشارف لوغـا، فعـاد على أعقابه، دون أن يحاول فتح المعركة. ولقد كتب كريموف قائد فيلق الخيالة الثالث عن هذه المعركة الصورية فيمـا بعـد: "كان علينا أن ندفع باتجاه بتروغراد قوة تضم ٨٦ سرية من سرايا الجيش والقوزاق. ولكننا اندفعنا بلواء واحد يضم ٨ سـرايا من القوزاق فقط، يعمل نصفها تقريبًا بدون قادة. وهكذا سددنا الضربة بالخنصر، بدلاً من أن نسددها بقبضة اليـد كلهـا. وأدَّى ذلك إلى إيلام الخنصر، ولم يحس المضربون بأي شيء"، والحقيقة أنه لم يكن هناك حتى ضربة خنصر. ولم يحس أحد بالعملية كلها.

وقام عمال السكك الحديدية خلال ذلك بما ينبغي عليهم عمله. واستُخدمت أساليب غامضة جعلت قطارات القطعات تغير مسارها، وتسير مبتعدة عن النقاط المحددة لها. واختلطت الأفواج بفرق لم تكن تابعة لها، وحُشرت وحدات المدفعية في ممرات

لا مخرج لها، وفقدت هيئات الأركان اتصالها مع قطعاتها. وكان لكافة المحطات الكبيرة سوفييتاتها، ولجان لعمال السكك الحديدية والجنود. وكان عمال اللاسلكي ينقلون إلى السوفييتات واللجان أنباء الأحداث، والتحركات، والتعديلات، إنهم نفس عمال اللاسلكي الذين كانوا يوقفون أوامر كورنيلوف. وكانت المعلومات السيئة بالنسبة للكورنيلوفيين تُطبع فورًا على عدة نسخ، وتُنقل إلى الجهات المختصة، وتُعلق على الجدران، وتنتقل من شخص إلى آخر. وغدا سائق القطار، وعامل التحويلة، والمشحم محرضين ثوريين. في هذا المناخ تقدمت قوات كورنيلوف، أو بالأحرى حاولت التقدم، ولكنها بقيت في مكانها. ولما أحس القائد بأن الوضع يائس لا أمل فيه فَقَد حماسه، ولم يعد يتعجل التقدم، وساعد بموقفه السلبي هذا عمال النقل على تنفيذ خطتهم المضادة للمتآمرين. وهكذا تبعثرت عناصر جيش كريموف في محطات، ومفارق، وممرات ثمانية خطوط حديدية. فإذا ما درسنا على الخارطة مصير قوات كورنيلوف، تكون لدينا انطباع بأن المتآمرين كانوا يتصرفون وكأنهم يلعبون على شبكة السكك الحديدية لعبة "الاستغماية".

ويتحدث الجنرال كراسنوف عن مشاهداته في ليلة ٢٩ – ٣٠ أغسطس (آب) فيقول: "ورأينا المشهد نفسه في كل مكان تقريبًا؛ إذ كنا نشاهد الفرسان يقفون أو يجلسون القرفصاء على السكك الحديدية، أو داخل العربات، أو فوق السروج الملقاة أرضًا إلى جانب خيولهم السوداء اللامعة والبنية التي تمد رءوسها نحوهم. وكنا نلاحظ وسط مجموعة الفرسان وجهًا يرتدي معطف الجندي، ويتحرك وهو يشوِّح بذراعيه. ولم يلبث هذا الوجه الذي يشوح بذراعيه أن أصبح مألوفًا. وتابعت بتروغراد على إرسال عدد لا يحصى من وفود الأفواج لمقابلة الكورنيلوفيين، وكان الجميع يودون شرح وجهات نظرهم قبل الاشتباك بالقتال. وكانت القوات الثورية تأمل أن تتم تسوية المسألة كلها دون اشتباك. وتأكدت هذه الفكرة، وقبل القوزاق عن طيب خاطر. واستولت مجموعة ارتباط الفيلق على قاطرة، وأرسلت المندوبين على طول السكك الحديدية. وشرح المندوبون الوضع الجديد لكافة الوحدات. وعُقدت اجتماعات عامة لا تنتهي، وارتفعت صرخات الجنود، لقد خُدعنا!

ويقول الجنرال كراسنوف: "ولم يكن قادة الفرق فقط يجهلون مكان تمركز سراياهم، بل كان قادة الأفواج أيضًا يشاركونهم هذا الجهل... وأدَّى نقص المئونة والعلف إلى زيادة توتر الجنود. ورأى الجنود بوضوح عدم صحة كل ما جرى حولهم، فأخذوا يعتقلون الضباط والرؤساء". وبعد أن نظم وفد السوفييت هيئة أركانه، بعث بالبرقية التالية: "يتم التآخي في كل مكان.. إننا على ثقة تامة بأن بوسعنا اعتبار الصراع منتهيًا. وتأتي الوفود من كل مكان..." وشُكِّلت لقيادة الوحدات لجان حلت محل القادة. ولم يلبث أن تشكل سوفييت مندوبي الفيلق، وعين هذا السوفييت وفدًا يضم حوالي ٤٠ شخصًا للذهاب إلى الحكومة المؤقتة. وبدأ القوزاق يعلنون بصوت عالٍ، بأنهم على أتم الاستعداد لاعتقال كريموف وغيره من الضباط، عندما تأمر بتروغراد بذلك.

ويرسم ستانكيفيتش الصورة التي شهدها خلال طريقه، وكان قد ذهب في يوم ٣٠ بصحبة فويتنسكي متجهًا نحو بسكوف. وكان من المعتقد في بتروغراد أن الكورنيلوفيين احتلوا تساركويه - سيلا، ولكن المدينة كانت خالية منهم. "ولم يكن في غاتشينا أحد... ولم يكن على الطريق حتى لوغا أحد. وفي لوغا يسود الهدوء... ووصلنا إلى قرية كان من المفروض أن تتمركز فيها هيئة أركان الفيلق. ولكن القرية خالية... وتبين لنا أن القوزاق تركوا المكان منذ الصباح الباكر، وساروا باتجاه معاكس لاتجاه بتروغراد". وهكذا انحسر التمرد وتفتت، وابتلعته الأرض.

ولكنهم كانوا حتى ذلك الوقت في قصر الشتاء يخشون الخصم إلى حد ما. وقام كرنسكي بمحاولة للدخول بمفاوضات مع قيادة العصاة؛ إذ كان هذا السبيل يبدو له أضمن من المبادهة "الفوضوية" للقاعدة. وبعث كرنسكي بمندوبيه إلى كريموف، ورجاه الحضور إلى بتروغراد "في سبيل سلامة روسيا". وتعهد بشرفه أن يضمن له سلامته. وأحس الجنرال بالضغط من كل مكان، فطاش صوابه، وقبل الدعوة. واتجه خلفه إلى بتروغراد وفد من القوزاق.

ولم تدعم الجبهات تصرف القيادة العليا. وقامت الجبهة الجنوبية الغربية بمحاولة أكثر جدية. ولكن هيئة أركان دينيكين أخذت في الوقت الملائم تدابير تمهيدية. واستبدلت القوات غير المضمونة المخصصة لحراسة هيئة الأركان بقطعات من القوزاق. وفي ليلة ٢٦ - ٢٧ تم احتلال المطبعة. وحاولت هيئة الأركان أن تلعب دور قيادة الموقف الواثقة من نفسها، ومنعت لجنة الجبهة من استخدام أجهزة البرق. ولكن أوهامها لم تدم أكثر من عدة ساعات. وجاءت وفود القطعات إلى اللجنة تعرض الدعم. ووصلت سيارات مصفحة، ورشاشات، ومدافع. وأخضعت اللجنة لمراقبتها فورًا نشاط هيئة الأركان التي احتفظت بحق المبادهة في مجال العمليات الحربية فقط. وفي الساعة الثالثة من يوم ٢٨، تركزت السلطة في الجبهة الجنوبية الغربية كلها بيدي اللجنة. واشتكى دينيكين من هذا الموقف عندما كتب: "ولم يبد مستقبل البلاد في أي يوم من الأيام مظلمًا إلى هذا الحد، كما لم يظهر عجزنا من قبل مكدرًا ومرهقًا بهذه الصورة".

ودارت الأمور في الجبهات الأخرى بشكل أقل درامية أيضًا، وكان يكفي قادة الجيش أن ينظروا حولهم ليروا سيل نظرات المحبة والتعاطف الموجهة إلى مفوضي الحكومة المؤقتة. وفي صبيحة ٢٩ كان قصر الشتاء قد تلقى برقيات تحمل تأكيدات تأييد وإخلاص الجنرال شتشيرباتوف من الجبهة الرومانية، والجنرال فالوبييف من الجبهة الغربية، والجنرال بريجفالسكي من جبهة القفقاس. أما في الجبهة الشمالية؛ حيث كان القائد كورنيلوفيًا قحًا يدعى كليمبوفسكي، فقد عين ستانكيفيتش قائدًا آخر بديلاً له هو سافيتسكي. ويكتب ستانكيفيتش نفسه ما يلي: "لم يكن سافتسكي معروفًا آنذاك، وتم تعيينه برقيًا خلال الصراع. وكان هذا الرجل مستعدًا للتحدث بكل ثقة مع أية مجموعة من الجنود -سواء أكانت من المشاة أو القوزاق أو المرافقين أو حتى مع اليونكرز- وأن يصدر إليها أي أمر، حتى ولو كان الأمر يتعلق باعتقال القائد العام. ونفذ الأمر بلا نقاش..." ولقد جرى استبدال كليمبوفسكي بعد ذلك بدون أية تعقيدات، وعين بدلاً عنه الجنرال بونتش - بروئيفيتش الذي كان فيما بعد من أوائل من استدعتهم السلطات البلشفية للخدمة في الجيش، بفضل تدخل أخيه الزعيم البلشفي المعروف.

ولم تجر الأمور بشكل أفضل بالنسبة لدعامة الحزب العسكري في الجنوب أتمان قوات الدون، كاليدين. وقيل في بتروغراد أن كاليدين عبأ قوات القوزاق، وأن بعض القوات جاءت من الجبهة لتجتمع مع قواته على نهر الدون. على حين "كان الأتمان -وفق ما ورد في سيرته الذاتية- يزور قوى القوزاق البعيدة عن خط السكة الحديدية... ويتحدث مع السكان حديثًا مسالمًا" وكان كاليدين يناور في الحقيقة بحيطة تفوق توقعات الأوساط الثورية. فلقد اختل العصيان المكشوف الذي كان يعرف تاريخه مسبقًا، ليزور قرى القوزاق "مسالمًا"، وليكون في اللحظات الحرجة بعيدًا عن أجهزة البرق، وكل مراقبة أخرى، وليسبر في الوقت نفسه غور الرأي العام بين صفوف القوزاق. وفي ٢٧، أبرق خلال جولته إلى نائبه بوغاييفسكي يقول: "ينبغي دعم كورنيلوف بكل الوسائل، ومع هذا، كانت اتصالاته المباشرة مع السكان القوزاق تؤكد بالإجمال على أن الوسائل والإمكانات غير موجودة؛ إذ لم يكن القوزاق زراع القمح يفكرون بالثورة دفاعًا عن كورنيلوف. وعندما ظهر فشل العصيان مؤكدًا. قرر ما سُمي "بالحكومة العسكرية" للدون تأجيل إبداء الرأي "حتى يظهر الميزان الحقيقي للقوى". وبفضل هذه المناورة استطاع زعماء القوزاق تحاشي الخطر في اللحظة الملائمة.

وكان لكورنيلوف أنصار ومؤيدون في بتروغراد، وموسكو، وعلى ضفاف الدون، وفي الجبهة، وعلى طرق القطعات، وفي كل مكان وبقعة من البلاد. وكان كل من يبني أحكامه على البرقيات، والتهاني، ومقالات الصحف يظن بأن عدد هؤلاء الأنصار والمؤيدين كبير إلى حد بعيد. ولكن الغريب حقًا، هو أنه ما أن حلت الساعة المحددة لظهورهم حتى اختفوا. ولم يكن السبب في أغلب الأحيان كامنًا في الجبن الفردي؛ إذ كان بين الضباط الكورنيلوفيين عدد كبير من الشجعان، ولكن شجاعتهم لم تجد نقطة استناد. ومنذ اللحظة التي بدأت الجماهير فيها بالتحرك، ولم يعد للأفراد المنعزلين أي مجال للمشاركة في الأحداث. ووجد كبار الصناعيين، ورجال المصارف، والأساتذة، والمهندسون، بالإضافة إلى الطلاب، والضباط المحنكين أنفسهم، أنهم

مبعدون، مختفون مدفعون إلى الخلف وكانوا يراقبون الأحداث الجارية أمامهم وكأنهم ينظرون إليها من شرفة عالية. ولم يبــق أمامهم إلا أن يلعنوا كالجنرال دينيكين عجزهم المكدر المرهق.

وفي يوم ٣٠ أغسطس (آب)، بعثت اللجنة التنفيذية إلى كافة السوفييتات النبأ السعيد التالي: "يسود التفتت الكامل قطعات كورنيلوف" ونسي الجميع خلال فترة من الزمن، أن كورنيلوف اختار لمشروعه أكثر القوات وطنية، وأشدها قدرة على القتال، وأقلها تعرضًا لتأثير البلاشفة. وجاء التفتيت من أن الجنود فقدوا الثقة بضباطهم نهائيًّا، وأخذوا ينظرون إليهم كأعــداء. وكــان النضال ضد كورنيلوف في سبيل الثورة تعميقًا لتفتت الجيش، وهذا يعني أنه قام بما اتهم به البلاشفة من قبل.

وجاءت الفرصة أخيرًا كيما يتحقق السادة الجنرالات من مقاومة الثورة التي بدت لهم، ضعيفة، متهالكة، لم تنتصر على النظام القديم إلا عن طريق الصدفة. ولكم سمعنا منذ أيام فبراير (شباط) وفي كل مناسبة ترديد الصيغة العــسكرية المتبجحــة: أعطني فوجًا قويًّا، وسأريهم حقيقة قدرهم. ولم تقدم تجربة الجنرال خابالوف والجنرال إيفانوف في نهاية فبرايــر (شــباط) أي درس إلى القادة الجدد الذين اعتادوا على التلويح بقبضاتهم بعد انتهاء المعركة. وكان الإستراتيجيون المدنيون يضبطون إيقــاع أصواتهم غالبًا، وفق هؤلاء القادة المتبجحين. ولقد أكد الأكتوبري شيد لوفسكي، بأنه لو ظهر في العاصمة خلال فبراير (شباط) "قطعات غير كبيرة جدًا، ولكنها متماسكة يوحدها النظام والروح العسكرية، لتم سحق ثورة فبراير (شباط) خلال عــدة أيــام". وكتب بوبليكوف الذي اشتهر كمحرض بين صفوف عمال السكك الحديدية ما يلي: "وكان يكفي قدوم فرقة واحدة منضبطة مــن الجبهة حتى يتم سحق الانتفاضة جذريًّا". وأكَّد كثير من الضباط الذين شاركوا في الأحداث أمام دينكين "بأن كتيبة واحدة يــسير على رأسها قائد يعرف ما يريد، كانت قادرة على قلب الأمور رأسًا على عقب". وعندما كان غوتشكوف وزيرًا للحربية، جــاء الجنرال كريموف من الجبهة ليقابله، ويعرض عليه "تطهير بتروغراد بفرقة واحدة، ولكن مع سفك بعض الــدماء". ولــم تــتم العملية لسبب واحد، هو أن "غوتشكوف لم يوافق على ذلك". ولقد أعد سافينكوف "٢٧ أغسطس" الخاص به، في ســبيل إقامــة "حكومة المديرين" المقبلة، وأكَّد بأن قوة مؤلفة من فوجين كافية لتحويل البلاشفة إلى رماد وذرات غبــار. وجــاء القــدر الآن ليعطي لكل هؤلاء السادة، وعن طريق جنرال "مرح بشوش" إمكانية التحقق من صحة كافة حساباتهم البطولية السابقة. وجــاء كريموف إلى قصر الشتاء، بدون قتال، خافض الرأس، مهيض الجناح، يستثير الشفقة. ولم يترك كرنسكي الفرصة تفوته ليمثــل أمامه دورًا عاطفيًّا يمتاز بأن التأثيرات الرخيصة مضمونة فيه بشكل مسبق. وما أن انتهى كريموف من مقابلة رئيس الــوزراء حتى اتجه نحو وزارة الحربية، وأطلق على رأسه رصاصة أودت بحياته. وهكذا انتهت محاولة سحق الثورة "مع سفك بعــض الدماء".

وتنفس الناس الصعداء في قصر الشتاء، عندما رأوا بأن مسألة مفعمة بالتعقيدات انتهت بشكل مناسب. وقرروا الإسراع بالعودة إلى القضايا الملحة، أي العودة إلى المسائل التي انقطعت. وعين كرنسكي نفسه قائدًا أعلى؛ ليحافظ على تحالفه السياسي مع مجموعة الجنرالات القدامى؛ إذ كان يصعب عليه أن يجد شخصًا مناسبًا أكثر منه لاستلام هذا المنصب، واختــار لرئاســة هيئة أركان القيادة العليا الجنرال الكسييف الذي كان من المتوقع قبل يومين وصوله إلى مركز رئيس الوزراء. وبعــد تــرددات ومشاورات، قبِل الجنرال هذه الوظيفة بشيء من الازدراء. شارحًا لأصدقائه بأنه لم يقبل مثل هذا العمل إلا لتــصفية المــسألة كلها بشكل سلمي. وهكذا غدا رئيس هيئة الأركان الأسبق لنيقولا رومانوف رئيسًا لهيئة أركان كرنسكي. وهذا أمر يدعو إلــى الاستغراب! ولقد حاول كرنسكي فيما بعد تفسير هذا التعيين الغريب بقوله: "كان الكسييف الشخص الوحيد القــادر علــى نقــل القيادة بدون ألم من يدي كورنيلوف إلى أيدٍ جديدة، وذلك بفضل علاقاته المتينة مع ضباط القيادة العليا، وتــأثيره الواســع فــي الأوساط العسكرية الرفيعة". وهذا خطأ فادح؛ إذ كان تعيين الكسييف، المتحالف مع المتآمرين، يعني علــى العكــس أن بوســع المتآمرين التفكير بمتابعة المقاومة، إذا ما بقيت لديهم أية إمكانية. والحقيقة أن كرنسكي قدم الكسييف إلى الأمــام بعــد تــصفية

العصيان، لنفس السبب الذي دفعه إلى استدعاء سافينكوف في بداية هذا العصيان، إنه يبغي الحفاظ على الجسور مع اليمين بأي ثمن. ورأى القائد الأعلى الجديد، أن من الضروري إعادة ربط عُرَى الصداقة مع الجنرالات؛ إذ ينبغي عليه تأمين استتباب النظام بعد انتهاء الهزة السابقة، وهذا يعني أنه سيكون بحاجة لسلطة حازمة بشكل مضاعف.

ولم يعد في مقر القيادة العليا شيء من التفاؤل الذي ساد قبل يومين. وبحث المتآمرون عن خطوط التراجع. وتلقى كرنسكي برقية تقول بأن كورنيلوف "قدر الوضع الإستراتيجي"، ورأى أن عليه أن يتخلى عن القيادة بصورة سلمية إذا ما صدر بيان يؤكد "تشكيل حكومة قوية" في البلاد. وبعد هذا الإنذار الكبير الذي قدمه القائد المستسلم، جاء إنذار أصغر يقول بأن كورنيلوف يرى "بأن من غير المقبول اعتقال جنرالات وأشخاص آخرين هم قبل كل شيء ضروريون للجيش". وأحس كرنسكي بالسعادة، وقام بخطوة نحو خصمه عندما أعلن عن طريق الإذاعة، بأن تنفيذ أوامر الجنرال كورنيلوف المتعلقة بالعمليات الحربية إجباري بالنسبة للجميع. وفي اليوم نفسه كتب كورنيلوف بهذا الصدد إلى كريموف رسالة يقول فيها: "ها هي قصة لا مثيل لها في تاريخ العالم: إن قائدًا أعلى، متَّهمًا بالغدر وخيانة الوطن، ومقدمًا من أجل ذلك للمحاكمة، يتلقى الأمر بمتابعة قيادة الجيوش...". وأعطى هذا الدليل الجديد على جبن كرنسكي دفعة جديدة من الشجاعة للمتآمرين الذين كانوا يخشون آنذاك القيام بصفقة خاسرة. وبالرغم من البرقية التي بعث بها كورنيلوف قبل عدة ساعات معلنًا فيها أن من غير المقبول شن صراع داخلي "في هذه اللحظة الرهيبة"، فقد اختار الجنرال الذي عاد جزئيًّا إلى منصبه شخصين، وبعث بهما إلى كاليدين، ليرجوانه "القيام بضغط ما"، كما اقترح في الوقت نفسه على كريموف بما يلي: "تصرفوا بصورة مستقلة إذا ما سنحت الفرصة، وابقوا ضمن روح التعليمات التي زودتكم بها". وكانت روح التعليمات كما يلي: قلب الحكومة، وشنق كل أعضاء السوفييت.

وذهب رئيس الأركان الجديد الجنرال الكسييف إلى موهيليف للعمل في مقر القيادة العليا. وكانوا في قصر الشتاء حتى تلك اللحظة، يعتبرون أن هذه عملية جدية تحمل قسطًا من الخطورة. والحقيقة أن القوات الموجودة تحت تصرف كورنيلوف كانت تضم: كتيبة من فرسان القديس جورج، وفوج مشاة "كورنيلوفي"، وفوجًا من جنود التيك. وأعلنت كتيبة فرسان القديس جورج منذ البداية وقوفها إلى جانب الحكومة. وكان الرأي السائد أن الفوج "الكورنيلوفي" وفوج التيك مخلصان للقائد العسكري، ومع هذا فقد ظهر الخلل في بعض أجزائهما. ولم تكن القيادة العليا تملك مدفعية. ولم يكن الحديث عن المقاومة في مثل هذه الظروف ممكنًا. وبدأ الكسييف استلام منصبه بأن قام بزيارات احتفالية لكل من كورنيلوف ولوكومسكي. استخدم فيها الطرفان كثيرًا من التعابير العسكرية المألوفة خلال التحدث عن القائد الأعلى الجديد كرنسكي. وكان من الواضح بالنسبة لكورنيلوف والكسييف أن من الضروري تأجيل خلاص البلاد إلى موعد آخر.

وبينما كان عسكريو القيادة العليا يحاولون تسوية الأمور بصرة سليمة دون غالب أو مغلوب، ارتفعت حرارة الوضع في بتروغراد إلى حد بعيد. وكان شاغلو قصر الشتاء ينتظرون على أحر من الجمر ورود أنباء من موهيليف بغية إعلانها على الشعب. وكان الكسييف مرهقًا بأسئلة لا تنتهي. واشتكى العقيد بارانوفسكي، وهو رجل موثوق من رجال كرنسكي، عندما تحدث بالهاتف المباشر: "بأن السوفييتات تعيش حالة غليان، وأن من المتعذر تهدئة الأوضاع، إلا إذا أظهرت السلطة شيئًا من الحزم واعتقلت كورنيلوف وآخرين..." ولم يكن هذا ليتلاءم مع نوايا الكسييف الذي رد: "إنني أرى بكل أسف، بأن مخاوفي من وقوعنا الآن نهائيًّا بين براثن السوفييت العنيدة قد غدت أمرًا مؤكدًا لا مندوحة عنه". وكان استخدام الكسييف لضمير "نا" وهو يود الحديث عن مجموعة كرنسكي، يعني أنه يود تخفيف حدة الملاحظة بأن يشمل نفسه بها. ورد عليه العقيد بارانوفسكي باللهجة نفسها: "سننجو بعون الله من براثن السوفييتات العنيدة التي أطبقت علينا".

وما أن أنقذت الجماهير كرنسكي من براثن كورنيلوف حتى هرع زعيم الديمقراطية للتفاهم مع الكسييف ضد الجماهير: "سننجو من براثن السوفييت العنيدة". ومع هذا فقد خضع الكسييف لمتطلبات الضرورة وقام باعتقال المتآمرين الرئيسيين. ولم

يُبْد كورنيلوف أية معارضة، وقبِل التوقيف الشديد في منزله، رغم أنه أعلن أمام الشعب قبل ٤ أيام بما يلي: "إنني أفضل الموت على عزلي من منصبي كقائد أعلى". وجاءت لجنة فوق العادة إلى موهيليف، فأوقف مساعد وزير المواصلات، وعدد من ضباط هيئة الأركان العامة، والدبلوماسي التعيس آلادين، وكافة الحاضرين من أعضاء لجنة اتحاد الضباط الرئيسية.

وتحرك التوفيقيون بنشاط في الساعات الأولى التي أعقبت النصر. وأطلق أفكسانتييف نفسه الصواعق. لقد ترك العصاة الجبهة خلال ثلاثة أيام بدون أية تعليمات! وصرخ أعضاء اللجنة التنفيذية "الموت للخونة!" وردد أفكساتييف هذا الصوت: نعم، لقد أعيد إقرار قانون الإعدام بناء على طلب كورنيلوف وشركاءه من المتآمرين، "وسيطبق هذا القانون بشدة وحزم على هؤلاء الأخيرين". (عاصفة طويلة من التصفيق).

وتحرك المجلس الكنسي في موسكو، الذي انحنى قبل أسبوعين أمام كورنيلوف، على اعتباره القائد الذي أعاد عقوبة الإعدام. وبعث هذا المجلس إلى الحكومة برقية يرجوها فيها "باسم الإله، وباسم محبة المسيح للمستقبل"، أن تحافظ على حياة الجنرال البائس. وتحركت رافعات أخرى. ولكن الحكومة لم تفكر أبدًا بعملية قمع دموية. وعندما تقدم وفد الفرقة "الوحشية" إلى كرنسكي في قصر الشتاء، تحدث القائد الأعلى أمامه بجُمل مبهمة، فرد عليه أحد الجنود بقوله: "ينبغي ضرب القادة الخونة بعنف"، ولكن كرنسكي قاطعه قائلاً: "إن مهمتكم الآن تتمثل في إطاعة رؤسائكم. وسنعمل على القيام بكل ما هو ضروري"، حقًا لقد كان هذا الرجل يعتقد بأن على الجماهير أن تصعد إلى المسرح عندما يقرع الأرض بقدمه اليسرى، وأن تختفي عندما يقرع بقدمه اليمنى!

"وسنعمل على القيام بكل ما هو ضروري". ولكن الجماهير رأت أن كل ما فعلوه بلا جدوى، إن لم يكن مشبوهًا وخطرًا. ولم تخطئ الجماهير في ذلك؛ إذ كانت الأوساط العليا مهتمة قبل كل شيء بإعادة ترتيب الوضع الذي انبثقت منه عملية كورنيلوف. ويقول لوكومسكي: "ومنذ التحقيقات الأولى التي اشترك فيها أعضاء لجنة التحقيق، لاحظنا بأن الجميع يعاملوننا باحترام كبير"؛ فلقد كانوا في الحقيقة شركاء، ومموَّهين. وقدم المدعي العام العسكري شابلوفسكي للمهتمين النصح، وأفهمهم طريقة خدع العدالة. وأرسلت تنظيمات الجبهة عدة احتجاجات. "لا تتم معاملة الجنرالات وشركائهم كمجرمين بحق الدولة والشعب... ويتمتع العصاة بحريتهم الكاملة للاتصال مع العالم الخارجي". ويؤكد لوكومسكي: "كانت هيئة أركان القائد الأعلى تعلمنا عن كافة المسائل التي تهمنا". وحاول الجنود الحانقون أكثر من مرة، محاكمة الجنرالات وفق روح العدالة التي يفهمونها. ولم ينجح المعتقلون من الانتقام الدموي إلا بفضل فرقة بولونية مضادة للثورة، كانت تتمركز في بيخوف حيث يسجن المتآمرون.

وفي ١٢ سبتمبر (أيلول)، بعث الجنرال الكسييف من مقر القيادة العليا إلى ميليوكوف رسالة يعبر فيها عن سخط المتآمرين على تصرف البرجوازية الكبيرة، التي دفعتهم في بداية الأمر إلى الأمام، ثم تركتهم بعد الهزيمة لمصيرهم. وكتب الجنرال بشيء من الحدة اللاذعة "إنكم تعرفون إلى حد ما، أن بعض دوائر مجتمعنا لم تكن تعرف كل شيء فحسب، ولم تكن تكتفي بأن تتعاطف أيديولوجيًا مع كورنيلوف، بل ساعدته على قدر طاقتها..."، وباسم اتحاد الضباط، طلب الكسييف من فيشنيغرادسكي، وبوتيلوف، وغيرهما من كبار الرأسماليين الذين تخلوا عن المهزومين، أن يجمعوا فورًا عن طريق التبرعات ٣٠٠ ألف روبل لصالح الأسر الجائعة لأولئك الذين كانوا يرتبطون معهم بوحدة الأفكار والإعداد!" واختتم الرسالة بتهديد صريح: "إذا لم تقم الصحافة الشريفة بحملة عنيفة فورية لشرح القضية... فإن الجنرال كورنيلوف سيجد نفسه مضطرًا لأن يكشف أمام المحكمة على نطاق واسع كافة الإعدادات، والمباحثات التي جرت مع الشخصيات والدوائر والأوساط، وأن يحدد مشاركتها الفعلية"، إلخ. ويتحدث دينيكين عن النتائج العملية لهذا الإنذار البائس فيقول: "وكان على كورنيلوف أن ينتظر حتى نهاية أكتوبر (تشرين الأول) قبل أن يصله من موسكو حوالي ٤٠ ألف روبل". وكان ميليوكوف خلال هذه الفترة غائبًا عن

المسرح السياسي، وتقول مصادر الكاديت إنه ذهب "للاستراحة في القرم". لقد كان الزعيم الليبرالي حقًا بحاجة للراحة بعد كل هذه المشاكل والتعقيدات.

واستمرت مهزلة التحقيق حتى الانتفاضة البلشفية. وعندها لم تكتف قيادة كرنسكي العليا بـإطلاق سـراح كورنيلـوف وشركاه، بل زودهم بكافة الوثائق اللازمة. وأشعل الجنرالات الهاربون فيما بعد نار الحرب الأهلية. وبسبب الأهداف المقدمـة التي كانت تربط كورنيلوف وميليوكوف وريمسكي - كورساكوف (عضو منظمة المائة السود) سقط مئات الألوف من الرجال قتلى. وتم نهب وتخريب جنوب روسيا وشرقها، واهتز اقتصاد البلاد بصورة نهائية، واضطرت الثـورة إلـى إتبـاع سـبيل الإرهاب الأحمر. ونجا كورنيلوف بلا صعوبة من عدالة كرنسكي، ولكنه لم يلبث أن سقط على جبهة الحـرب الأهليـة قتـيلاً بقنبلة بلشفية. ولم يختلف مصير كاليدين عن ذلك.

ولم تكتف "الحكومة العسكرية" للدون بالإصرار على ضرورة إلغاء أمر اعتقال كاليدين، بل طالبت بإعادته إلى منـصبه كأتمان. ولم يُفلت كرنسكي هذه الفرصة للتراجع. وجاء سكوبوليف إلى نوفوتشيركاسك وقدم الاعتذارات إلى "رابطة القـوزاق العسكرية". وتعرَّض الوزير الديموقراطي لسخرية من نوع رفيع. وكان كاليدين هنا أول الساخرين. ولكـن انتـصار جنـرال القوزاق لم يدم طويلاً؛ إذ ما أن حاصرته الثورة البلشفية بعد عدة أشهر من كل مكان، وأطبقت عليه في منطقته الواقعة علـى نهر الدون، حتى انتحر. وانتقلت راية كورنيلوف بعد ذلك إلى أيدي الجنرال دينيكين، والأميرال كولتشاك اللذين ارتبط اسـمهما بأهم مراحل الحرب الأهلية. ولكن هذا أمر يتعلق بعام ١٩١٨ والأعوام التي تلته.

الهوامش

١. Lynchage: "الإعدام الاعتباطي" الذي يتم على الشبهة، وبدون محاكمة، وتقوم به جماهير غفيرة مستخدمة مختلف أدوات القتل بلا تمييز. (المعربان).
٢. فترة التنفس: الفترة التي يخرج السجناء فيها من زنزاناتهم للقيام بالرياضة الجماعية في باحة السجن.

الانسحاب من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي والنضال من أجل مؤتمر السوفييتات

كانت الحرب تصدع الجبهة كل يوم، وتوهن قوى الحكومة، وتؤزم الوضع الدولي للبلاد. وكــان الأســطول الألمــاني الجوي والبحري يبدي نشاطاً هائلاً في خليج فنلندا في مطلع أكتوبر (تشرين الأول). وقاتل بحارة البلطيق بــشجاعة، محــاولين حماية طريق بتروغراد، ولكنهم كانوا يدركون بشكل أقوى وأعمق من كل قوات الجبهات الأخرى، التناقض العميق في طبيعــة وضعهم، كطليعة للثورة، وكمشتركين رغمًا عن أنوفهم في الحرب الأمبريالية، وكانوا يطلقون نــداءات بــالأجهزة اللاســلكية لسفنهم موجهة إلى أركان المعمورة الأربعة طالبين فيها تقديم دعم ثوري أممي لهم. كانت هذه النداءات تقــول: "إن أســطولنا الذي يتعرض لهجوم قوات ألمانية متفوقة عليه يستهدف للإبادة في معركة غير متكافئة. ولن يفلت أي مركب من مراكبنا مــن المعركة. وسيؤدي الأسطول الذي يتعرض للتشهير والنقد من الداخل، والموصوم بالعار، واجبه... بَيْد أنه لن يؤدي هذا الواجب بأمر أي بونابرتي روسي بائس يسود ويحكم بفضل صبر الثورة الطويل... ولن يؤدي واجبه باسم تحالفات حكامنا مع الحلفــاء الذين قيدوا الحرية الروسية بالسلاسل. ولكن أسطولنا سيؤدي واجبه باسم الدفاع عن المسالك المؤدية إلــى بتروغــراد، بــؤرة الثورة. وفي الوقت الذي اصطبغت فيه أمواج البلطيق بدماء أخواننا في السلاح، وفي حين تبتلع المياه جثــثهم، نرفــع صــوتنا قائلين: أيها المضطهدون في كل أنحاء العالم، ارفعوا راية التمرد!".

ولم تكن هذه الأقوال مجرد جمل تقال حول موضوع المعارك والضحايا. فقد فقدت العمارة البحرية الــسفينة الحربيــة **سلافا** وانسحبت متراجعة بعد القتال. واحتل الألمان مجموعة جزر مونسوند. وفتحت صفحة قاتمة جديدة في كتــاب الحــرب. وقررت الحكومة استغلال هذه الهزيمة لنقل العاصمة؛ وكانت الخطة القديمة لنقل المرافق الحيوية للعاصمة إلى موسكو تعــود إلى السطح كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ولم تكن الدوائر الحاكمة تكن أي عطف أو ود لموسكو، ولكنها في الوقت نفسه تمقــت بتروغراد. وكانت الرجعية الملكية والليبرالية والديمقراطية، تسعى كلها، الواحدة بعد الأخــرى، لإذلال العاصــمة بتروغــراد وإجبارها على الركوع، وسحقها. وأصبح الوطنيون يحقدون الآن على بتروغراد ويكنون لها كراهية أشد وأقوى من الكراهيــة التي يضمرونها لبرلين.

ودرست مسألة إخلاء المؤسسات الحيوية من العاصمة، وأعطيت دراستها أهمية عاجلة جدًا. وأعطى لنقل الحكومة منها مع نقل اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي مهلة أسبوعين على الأكثر. وقد تقرر أيضًا نقل المصانع العاملة مــن أجــل الــدفاع الوطني في أقصر فترة. وكان على اللجنة التنفيذية المركزية أن تهتم بمصيرها الخاص "كمؤسسة خاصة".

وقد فهم الكاديت، الذين حرضوا على عملية إخلاء العاصمة أن مجرد نقل الحكومة لا يحل المسألة أبدًا. ولكنهم كــانوا يعتمدون على عملية النقل لسحق البؤرة الثورية في بتروغراد بواسطة المجاعة، وبطريق الإخماد، والإجهاد. وكــان الحــصار الداخلي لبتروغراد في ذروة نشاطه وحركته. وقد صرف المسئولون النظر عن الأشغال في المــصانع، وخفــضوا حــصص المحروقات إلى الربع. ومنعت وزارة التموين شحن المواشي إلى العاصمة، وتوقفت عمليات شحن البضائع على قنوات ماري.

وكتب رودزيانكو المحارب، رئيس مجلس دوما الدولة، هذا المجلس الذي قررت الدولة حله أخيرًا في مطلــع أكتــوبر (تشرين الأول)، بكل صراحة في الصحيفة الليبرالية الموسكوفية **أوترا روسيي (الصباح الروسي)** حول موضوع الخطر الذي تتعرض له العاصمة بسبب الحرب فقال ما يلي: "فلتذهب بتروغراد إلى الجحيم، هذا ما أفكر فيه... إنهم يخشون قيــام العــدو

بتدمير المؤسسات المركزية (أي السوفييتات والمجالس الأخرى) في بتروغراد. وإني أرد على هذا بأنني سأكون في غاية السرور إذا ما أبيدت هذه المؤسسات لأنها لم تجلب لروسيا شيئًا آخر سوى الشرور". حقًا، إن أسطول البلطيق سيدمر، إذا ما تم الاستيلاء على بتروغراد. ولكن ينبغي أن لا نحزن لهذا. "ففي هذا الأسطول مراكب قد فسدت تمامًا". ونظرًا لأن حاجب الملك لم يعتد السكوت، فقد عرف الشعب من خلال أقواله الأفكار الباطنية لروسيا الأرستقراطية والبرجوازية.

وكان القائم بأعمال السفارة الروسية لدى حكومة لندن قد نقل إلى الحكومة بأن هيئة الأركان البحرية لبريطانيا العظمى، رغم كل إلحاحاته عليها لا تجد أن من الممكن تخفيف أعباء حليفتها في بحر البلطيق. ولم يكن البلاشفة الوحيدين الذين فسروا هذا الرد بأن الحلفاء، بالتواطؤ مع الدوائر العليا للوطنيين الروس أنفسهم لا ينتظرون من الهجوم الألماني على بتروغراد سوى تحقيق المكاسب للقضية المشتركة. ولم يكن العمال والجنود ليشكون أبدًا في هذه النوايا، وخاصة بعد اعترافات رودزيانكو أن الحكومة تستعد بتصميم لتسليمهم لسلطان لوندورف وهوفمان.

وبتاريخ ٦ أكتوبر (تشرين الأول) **تبنَّى فرع الجنود** بإجماع لم يعرف من قبل **قرار تروتسكي**: **"إذا كانت الحكومة المؤقتة عاجزة عن الدفاع عن بتروغراد، فهي مطالبة بتوقيع اتفاقية للسلم، أو بالتنازل عن الحكم لحكومة أخرى"**. وتبنَّى العمال وجهة النظر هذه بصورة لا تقل تشددًا عن موقف الجنود. وكانوا يعتبرون بتروغراد قلعتهم، ويعلقون عليها آمالهم الثورية، وهم لا يريدون تسليم بتروغراد أبدًا. وأعطى التوفيقيون، من ناحيتهم إشارة الخطر، مذعورين من أخطار الحرب، ومن إخلاء العاصمة، وسخط الجنود والعمال، وحنق كل السكان وهياجهم، وكان لسان حالهم يقول: لا يمكن التخلي عن بتروغراد لمشيئة القدر. وبدأت الحكومة بالتراجع عن قراراتها بعد أن لاحظت أن محاولة نقل العاصمة تصطدم بمعارضة قوية. كانت هذه الحكومة تدَّعي أنها ليست مهتمة بسلامتها الخاصة، بل بانتقاء مقر للمجلس التأسيسي المقبل. ولكن أعضاءها لم يتمكنوا من المحافظة على هذا الموقف. ووجدت الحكومة نفسها، في خلال أقل من ثمانية أيام، مضطرة إلى الاعتراف بأنها لا تنوي البقاء في قصر الشتاء فحسب، بل أنها أيضًا تفكر كما فكرت في الماضي باستدعاء المجلس التأسيسي إلى قصر توريد. بَيْد أن هذا الاعتراف لا يغير الوضع العسكري والسياسي أبدًا. ولكنه يبرز من جديد القوة السياسية لبتروغراد، التي تعتبر أن مهمتها هي التخلص من حكومة كرنسكي، وأن لا تترك هذه الحكومة تغادر حدود العاصمة. وكان البلاشفة الوحيدين الذين تجرءوا فما بعد ونقلوا العاصمة إلى موسكو. وقاموا بهذه المهمة دون أية صعوبات، لأنها كانت بالنسبة إليهم مهمة إستراتيجية بالفعل: فليس لدى البلاشفة أية دوافع سياسية تقودهم إلى الهرب من بتروغراد.

وقد أدلت الحكومة بتصريحها التائب حول الدفاع عن العاصمة، بناءً على إلحاح الأكثرية التوفيقية لمجلس جمهورية روسيا، أي بعبارة أخرى للجنة التحضيرية للمجلس النيابي. وقد ظهرت هذه المؤسسة التافهة إلى الوجود أخيرًا. وسمي بليخانوف، المعروف بحبه للدعابة ومهارته وذكائه في النكات، المجلس العاجز والمؤقت للجمهورية، بصورة تدل على الاحتقار بأنه "كوخ منصوب على قوائم دجاجة". وكانت هذه التسمية لا تفتقر إلى الصحة، من وجهة النظر السياسية. وينبغي أن نضيف إلى ذلك أن اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي كانت تملك مظهرًا حسنًا "ككوخ صغير": فقد خصصوا لها قصر ماري الرائع الذي كان في الماضي مقرًا وملاذًا لمجلس الدولة. وقد أدهش الفارق بين القصر الرائع ومعهد سمولني الفقير والذي يفوح منه عرق الجنود، أدهش هذا الفارق سوخانوف، فاعترف قائلاً: "وسط كل هذه الروائع، يتمنى المرء أن يستريح، وأن ينسى المشاغل والمعركة، والمجاعة والحرب، والارتباك والفوضى والبلاد والثورة". وتعليقنا على أقواله بأنه لم يبق سوى وقت قصير للراحة والنسيان.

وكان ما سمي بالأكثرية "الديمقراطية" للجنة التحضيرية للمجلس النيابي يتألف من ٣٠٨ أشخاص: ١٢٠ اشتراكي - ثوري (من بينهم حوالي ٢٠ اشتراكي - ثوري يساري)، و٦٠ منشفي من مختلف الاتجاهات و٦٦ بلشفيًّا. وبالإضافة إلى

الأعوان، ومندوبي اللجنة التنفيذية للفلاحين ...إلخ، وقد حصلت الطبقات المالكة على ١٥٦ مقعدًا، احتل الكاديت نصفها. وكان الجناح اليميني يقترب من الأكثرية حول كثير من المسائل مع الأعوان، والقوزاق والأعضاء المحافظين إلى حدٍ ما في اللجنة التنفيذية للفلاحين. وكان توزيع المقاعد في هذا الكوخ الصغير، الذي ينتصب على قوائم دجاجة، يتناقض بشكل صارخ ومطلق مع كل مظاهر إرادة المدينة والقرية. وبالمقابل، وخلافًا لعمليات التمثيل السوفييتية التي لا لون لها، والعمليات الأخرى، جمع قصر ماري "زهرة الأمة" داخل جدرانه. وقد أرسلت كل مجموعة اجتماعية، وكل حزب أشهر زعمائه إلى اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، لأن هذه اللجنة بعيدة كل البعد عن مفاسد المنافسات في الانتخابات، والتأثيرات المحلية، والتفضيلات الإقليمية. وكان تأليفها "رائعًا بصورة استثنائية"، حسب شهادة سوخانوف. وعندما اجتمعت هذه اللجنة التحضيرية في جلستها الأولى، أحس المتشائمون بارتياح كبير، وقال ميليوكوف ما يلي: "سيكون الأمر حسنًا إذا لم يكن المجلس التأسيسي أكثر سوءًا من هذا التشكيل". وكانت "زهرة الأمة" تتهادى بارتياح أمام مرايا القصر، وهي لا تلاحظ بأنها لم تكن سوى زهرة أصابها العُقم.

وعندما افتتح كرنسكي المجلس الجمهوري بتاريخ ٧ أكتوبر (تشرين الأول) لم يترك الفرصة تفوته ليذكر بأن الحكومة التي تقبض على "كل مقاليد السلطة" بيد حديدية، مستعدة رغم هذا لسماع "كل التحذيرات القيمة حقًا". ومع أنها حكومة مطلقة، فقد بقيت سلطتها سلطة مستتيرة. وقد احتفظ في المكتب المؤلف من خمسة أعضاء، هذا المكتب الذي يرأسه أفكسانتييف بمقعد للبلاشفة، وكان من الضروري بقاء هذا المقعد شاغرًا. وكان الوكلاء المشرفون على الكوميديا البائسة والمتجهمة يستشعرون الانقباض. وتركز كل الاهتمام مسبقًا عند الافتتاح الكئيب للمجلس الجمهوري في ذلك اليوم المدلهم المكفهر على التظاهرة المتوقعة من قبل البلاشفة. وانتشرت في أروقة قصر ماري طبقًا لرواية سوخانوف "ضجة هائلة تقول: لقد انتصر تروتسكي بأكثرية صوتين أو ثلاثة أصوات... وسينسحب البلاشفة فورًا من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي". وفي الحقيقة، اتخذ قرار الخروج بصورة تظاهرة من قصر ماري بتاريخ ٥، في جلسة المجموعة البلشفية. وحاز هذا القرار على أصوات كل الأعضاء ما عدا صوت واحد عارض القرار؛ فكم كان الاتجاه إلى اليسار كبيرًا جدًا في الأسبوعين الماضيين! ولم يبق إلا كامنييف وحده مخلصًا لموقفه الأول، أو بصورة أدق تجرأ على الدفاع عنه بصورة صريحة. وفي تصريح خاص وجهه كامنييف إلى اللجنة المركزية، وصف هذا الاتجاه دون مواربة واعتبره "شديد الخطورة على الحزب". وأشاعت النوايا الغامضة للبلاشفة بعض القلق وسط أعضاء اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي: كان هناك خوف، بالمعنى الحقيقي، لا من تصدع النظام، ولكن من "فضيحة" أمام دبلوماسيي الخلفاء الذين وجهت إليهم أكثرية اللجنة موجة عارمة من التصفيق الوطني. وروى سوخانوف كيف أرسلت اللجنة إلى البلاشفة شخصية رسمية -أسكفانتييف ذاته- ليطرح عليهم سؤالاً أوليًا: ماذا سيحدث؟ فرد تروتسكي: "ترهات وترهات!، طلقة صغيرة من مسدس".

وبعد افتتاح الجلسة، منح تروتسكي، طبقًا للنظام الموروث عن دوما الدولة عشرة دقائق للإدلاء بتصريح عاجل باسم المجموعة البلشفية. وساد القاعة صمت مطلق. فقد بدأ تروتسكي التصريح بالبرهان على أن الحكومة، في الوقت الحاضر ضعيفة المسئولية بقدر ما كانت قبل المؤتمر الديمقراطي الذي استُدعي على حد زعمهم لكبح جماح كرنسكي. وأن ممثلي الطبقات المالكة دخلوا المجلس المؤقت بعدد من المقاعد لا يستحقونه أبدًا. فإذا كانت البرجوازية تتهيأ بالفعل لتأليف المجلس التأسيسي خلال ستة أسابيع فإن زعماءها لا يملكون الآن من الأسباب ما يدفعهم للدفاع بمثل هذه الاستماتة عن لا مسئولية السلطة، حتى أمام تمثيل مزور. "**والخلاصة يكمن كل شيء في أن الطبقات البرجوازية قد حددت هدفها، وهو نسف المجلس التأسيسي**". وأثمرت الضربة. واحتج عليها الجناح اليميني بشدة أقوى. وهاجم الخطيب، دون أن يبتعد أبدًا عن نص البيان، السياسة الصناعية، والزراعية، والغذائية للحكومة: لا يمكن اتخاذ مسار آخر حتى ولو استهدفنا دفع الجماهير في طريق التمرد. "إن فكرة استسلام العاصمة الثورية للجيوش الألمانية... تعتبر الثمرة الطبيعية لسياسة عامة تسهل المؤامرة الرجعية المضادة للثورة". وتحولت أصوات الاحتجاج إلى عاصفة. وانطلقت أصوات تصيح مشيرة إلى برلين، والذهب الألماني، وعربة القطار

المقفلة. وفي هذا المشهد العام لكسرة زجاجة في الوحل صدرت شتائم الأنذال. لم يحدث مثل هذا أبدًا خلال أشد المناقشات حدة في معهد سمولني القذر، الوسخ، المملوء ببصاق الجنود. وقد كتب سوخانوف: "كان يكفينا أن نكون في مجتمع قصر ماري الراقي، لنجد فورًا جوًا أشبه بجو الملهى، يسود في دوما الوجهاء الإمبراطوري".

وأنهى الخطيب تصريحه بالشكل التالي، بعد أن شق طريقه عبر انفجارات الحقد التي كانت تتناوب مع لحظات الهدوء: "إننا نحن جماعة البلاشفة نصرح بما يلي: نحن لا نملك شيئًا مشتركًا مع هذه الحكومة التي تخون الشعب، ولا مع هذا المجلس الخائر أمام الثورة المضادة... وإننا ونحن نغادر المجلس المؤقت، لندعو عمال وجنود وفلاحي عموم روسيا إلى التحلي بالشجاعة واليقظة. إن بتروغراد في خطر! إن الثورة في خطر! إن الشعب في خطر!... إننا نتوجه إلى الشعب. كل السلطة للسوفييتات!".

ونزل الخطيب من على المنصة. وغادر عشرات البلاشفة القاعة، ترافقهم لعنات الحاضرين. وبعد دقائق ساد فيها القلق والخوف، كانت الأكثرية قد أصبحت مستعدة لكي تتنفس الصعداء. وخرج البلاشفة فقط، وبقيت "زهرة الأمة" في موقعها. ولم ينحن للضربة سوى الجناح اليساري للتوفيقيين، مع أن الضربة لم تكن موجهة على ما يبدو إليه. وقد اعترف سوخانوف بذلك قائلاً ما يلي: "وقد بقينا نحن، أقرب الناس إلى البلاشفة خائرين تمامًا أمام كل ما حدث". وأحس فرسان الخطابة أن زمن الكلام قد ولّى إلى غير رجعة.

وأعلم تيريشتشنكو السفراء الروس ببرقية سرية وجهها إليهم بافتتاح اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي. وكانت البرقية تقول عن الجلسة الأولى ما يلي: "كانت أول جلسة محايدة تمامًا، باستثناء فضيحة أثارها البلاشفة". واعتُبرت القطيعة التاريخية للبروليتاريا مع عجلة الدولة البرجوازية من قبل هؤلاء الناس "فضيحة" بسيطة. ولم تترك الصحافة البرجوازية هذه الفرصة تفلت منها كيما تثير الحكومة وتحرضها، مشيرة إلى جرأة البلاشفة؛ لن ينقذ السادة الوزراء البلاد من الفوضى إلا بعد أن يكتسبوا "قدرًا من التصميم والإرادة للعمل اللذين يتسم بهما الرفيق تروتسكي". وكأنما الموضوع يتعلق بتصميم وإرادة الأفراد، لا بالمصير التاريخي للطبقات. وكما لو أن انتقاء الرجال والطباع قد تم بمعزل عن المهام التاريخية. وقد كتب ميليوكوف حول موضوع انسحاب البلاشفة من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي قائلاً: "كانوا يتكلمون ويفعلون كرجال يحسون بقوة تسندهم ويعرفون أن المستقبل لهم".

واضطرت خسارة جزر مونسوند، وتفاهم الخطر على بتروغراد وخروج البلاشفة من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، اضطرت كل هذه الأمور التوفيقيين إلى التساؤل عن الموقف الذي ينبغي اتخاذه إزاء الحرب. وبعد ثلاثة أيام من المناقشات التي اشترك فيها وزير الحرب والبحرية والمفوضون ومندوبو التنظيمات في الجيش، وجدت اللجنة التنفيذية المركزية أخيرًا حلاً للخلاص. كان هذا الحل هو التالي: "**الإلحاح لاشتراك ممثلي الديمقراطية الروسية في مؤتمر الحلفاء الذي سيُعقد في باريس**". وبعد أن بذلوا جهودهم بلا انقطاع لقبول إلحاحهم، عين الممثلون سكوبوليف للمؤتمر ووضعوا له توجيهًا مفصلاً: السلم دون ضم ودون تعويضات، وحياد المضائق، وحياد قناتي السويس وبنما -وكانت الآراء الجغرافية للتوفيقيين أشمل من آرائهم السياسية- وإلغاء الدبلوماسية السرية، ونزع السلاح بالتدريج. وفسرت اللجنة التنفيذية المركزية هدف اشتراك مندوبيها بمؤتمر باريس "بممارسة ضغط على الحلفاء". إن الضغط هو ضغط سكوبوليف على فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة! وقد طرحت صحيفة من صحف الكاديت سؤالاً لاذعًا: ماذا سيفعل سكوبوليف إذا رفض الحلفاء شروطه بدون احتفال؟ "هل سيهددهم بتوجيه نداء جديد لشعوب العالم كله؟" وا أسفاه! كان التوفيقيون منذ وقت طويل مزعوجون من ندائهم الخاص السابق.

ووجدت اللجنة التنفيذية المركزية نفسها عاجزة في الحقيقة عن ممارسة ضغط، حتى على قصر الـشتاء، فيمـا كانـت تستعد لكي تفرض حياد قناة بنما على الولايات المتحدة الأمريكية. وبتاريخ ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) أرسل كرنسكي إلى لويد جورج رسالة طويلة، مليئة بالتأنيب الرقيق، وبالشكاوي الحزينة، والوعود المضطرمة. وكانت الجبهة حسب هذه الرسالة "فـي وضع أفضل من وضعها في الربيع الأخير". ومن الطبيعي أن تُمنع الدعاية الانهزامية؛ فقد وجد رئيس وزراء روسيا شـكوى لرئيس وزراء بريطانيا العظمى من البلاشفة الروس؛ من تحقيق كل المهام التي حددناها. ولكن لم تتطرق الرسالة إلى موضوع السلم. ولا تعرف الحكومة إلا مسألة واحدة: "كيف تتابع الحرب؟". ومن الطبيعي أن يطالب كرنسكي بقروض لروسـيا مقابـل صك وطنيته.

ولم تضع اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي وقتها بعد أن تخلصت من البلاشفة: ففي يوم ١٠ افتتحت المناقشات حـول رفع القدرات القتالية للجيش. وتطورت المحادثات التي استغرقت ثلاث جلسات مملة طبقًا لمخطط ترسيمي ثابت. كان الـبعض يقول من اليسار: ينبغي إقناع الجيش بأنه يقاتل من أجل السلم والديمقراطية. فيرد عليه صوت من اليمين قائلاً: إن إقناع الجيش أمر مستحيل؛ لذا ينبغي إجباره على القتال. وأجاب التوفيقيون قائلين: إننا لا نملك وسائل الإكراه والإجبار، ولكي نُلـزم ينبغـي أن نُقنع في بادئ الأمر، جزئيًّا على الأقل. وعلق الكاديت على هذا الرد بقولهم: إن البلاشفة أقوى منكم، في كـل مـا يتعلـق بالإقناع. وكانوا على حق من كلتا الناحيتين، ولكن الرجل الذي يغرق على حق أيضًا عندما يطلق صرخات الاستغاثة قبـل أن يغوص إلى الأعماق.

وبتاريخ ١٨ جاءت ساعة القرار الذي لا يستطيع أن يبدل شيئًا من طبيعة الأحداث. والتف حول مشروع الاشتراكيين - الثوريين ٩٥ صوتًا ضد ١٢٧ وامتناع ٥٠ عضوًا عن التصويت. وجمع مشروع اليمين ١٣٥ مقابل ١٣٩. ويا للعجـب! لـم يحصل أي من المشروعين على الأكثرية! وفي قاعة المجلس، طبقًا لتقارير الصحف "حركات مختلفة واضـطراب"، ووجـدت "زهرة الأمة" نفسها، رغم وحدة الآراء عاجزة عن التصويت حتى على قرار أفلاطوني حول أخطر مسألة تمس الحياة الوطنية. ولم تكن هذه الحالة حالة طارئة؛ فقد تكرر هذا من يوم إلى يوم، حول كل المسائل، وفي كل اللجان، كما في الاجتمـاع العـام الذي ضم كافة الأعضاء. إن أجزاء الآراء لا تجمع إلى بعضها. وكانت كل المجموعات تعيش تباينات دقيقة في الفكر السياسي لا يمكن تلمسها؛ إذ كان الفكر نفسه غائبًا. وربما ذهب هذا الفكر مع البلاشفة؟... وكان الطريق المسدود أمام اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي هو الطريق المسدود أمام النظام ذاته.

وكان من الصعب تعديل قناعات الجيش، ولكن كان من المستحيل أيضًا إلزامه وإجباره على قناعة ما. وتوجه مـؤتمر البحارة إلى اللجنة التنفيذية المركزية وطالبها بتطهير صفوف الحكومة المؤقتة "من شخصية تلطخ شرف الثورة الكبرى بالعار، وتخربها بمزايداتها السياسية الوقحة". ردًا على نداء جديد حاد وجهه كرنسكي إلى أسطول البلطيق، الـذي خـاض المعركـة، وتعرض لكثير من الضحايا. وعندما وصل هذا الرد إلى كرنسكي لم يكن قد سمع بعد بمثل هذه اللغة، ولا حتى من البحـارة. ومنعت اللجنة الإقليمية للجيش، والأسطول والعمال الروس في فنلندا شحن البضائع الحكومية، وتصرفت كسلطة مستقلة. وهدد كرنسكي باعتقال مفوض السوفييتات. فكان رد اللجنة عليه: "إن اللجنة الإقليمية تقبل بهدوء تحدي الحكومة المؤقتـة". فخـرس كرنسكي. والحقيقة كان أسطول البلطيق في حالة عصيان.

ولم تكن المشكلة قد دفعت إلى مدى بمثل هذا البعد، فوق أرض الجبهة الصلبة، ولكنها كانت تتطور في الاتجـاه ذاتـه. وساءت حالة التموين في خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول) بسرعة. وأعلن القائد العام للجبهة الـشمالية أن المجاعـة "كانـت السبب الرئيسي للتفكك المعنوي للجيش". وبينما كان الزعماء التوفيقيون في الجبهة يتابعون التأكيد -والحق أن ذلك قد تـم مـن وراء ظهر الجنود- بأن القدرات القتالية للجيش ترتفع، كانت القواعد فوجًا بعد آخر، تطالب بنشر المعاهدات السرية وباقتراح

عقد سلم فوري. وكتب جدانوف مفوض الجبهة الغربية في الأيام الأولى من أكتوبر (تشرين الأول) ما يلي: "إن المناخ الفكري قلق جدًا بسبب اقتراب البرد، وبسبب سوء التغذية... ويتمتع البلاشفة بنجاح واضح".

وتوقفت المؤسسات الحكومية في الجبهة. ويذكر مفوض الجيش الثاني أن المحاكم العسكرية لا تستطيع العمل، نظرًا لأن الجنود المذكورين كشهود يرفضون المثول أمامها. "وقد تأزمت علاقات القيادة بالجنود وازدادت حدتها. ويعتبر الجنود الضباط مسئولين عن استمرار الحرب". وانتقل عداء الجنود للحكومة والقيادة إلى لجان الجيش، التي لم تجدد الانتخابات لها منذ بدء الثورة. وقد أرسلت الأفواج دون علمها المندوبين إلى بتروغراد، وإلى السوفييت، ليشتكوا من وضع الخنادق الذي لا يمكن التساهل فيه، بدون خبز، وبدون تجهيزات، وبدون إيمان بالحرب. وفي الجبهة الرومانية؛ حيث يظهر ضعف البلاشفة، رفضت أفواج بكاملها إطلاق النار. وسيعلن الجنود بأنفسهم خلال أسبوعين أو ثلاثة الهدنة، وسيلقون السلاح". ونقل مندوبو إحدى الفرق ما يلي: "لقد قرر الجنود، العودة إلى منازلهم بمجرد هطول الثلج". وهدد وفد من الفيلق ٣٣ أيضًا اجتماع كافة أعضاء سوفييت بتروغراد قائلاً: إذا لم يكن هناك كفاح حقيقي من أجل السلم، "فإن الجنود سيستلمون السلطة، بأنفسهم، ويعقدون الهدنة". ونقل مفوض الجيش الثاني إلى وزير الحرب ما يلي: "يتحدث الجنود كثيرًا عن الخنادق عندما يحل البرد".

وعاد التآخي مع العدو الذي انقطع تقريبًا بعد أيام يوليو (تموز) وامتد بسرعة. ومن جديد، وبعد فترة من الهدوء، لم تتضاعف اعتقالات الجنود للضباط فحسب، بل تضاعف قتل القادة المكروهين أيضًا. ووقعت أعمال الاقتصاص هذه بصورة شبه مكشوفة، تحت أنظار الجنود دون أن يتدخل أحد؛ فقد كانت الأكثرية لا تريد أن تتدخل، كما كانت الأقلية لا تجرؤ على التدخل. وكان القاتل يملك الوقت دومًا للاختفاء، كما لو أنه غرق دون أن يترك أثرًا وسط جموع الجنود. وقد كتب أحد الجنرالات ما يلي: "إننا نتعلق متشنجين بشيء ما، ونتوقع معجزة، بَيْد أن الأكثرية كانت قد أدركت أنه لا سبيل إلى السلامة".

واستمرت الصحف في معالجة موضوع متابعة الحرب والهجوم والنصر وهي تقنع الخيانة بقناع البلادة، وهز الجنرالات رءوسهم، وأيد بعضهم استمرار الحرب بطريقة مريبة. وقد كتب البارون بودبرغ قائد الفيلق، الذي كان موجودًا بالقرب من دوفينسك ما يلي: "إن المجانين الحقيقيين وحدهم يستطيعون أن يحلموا بالهجوم في الوقت الحاضر". وبعد يوم، اضطر للكتابة في **يومياته الخاصة**: "إنني مبهور ومندهش من تلقي توجيهات لهجوم محدد بتاريخ ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) على أبعد تقدير". وأن هيئات الأركان التي كانت لا تؤمن بأية عقيدة ولا تعرف سوى التطويح بذراعيها تعبيرًا عن نفاد صبرها، لا تعرف أيضًا سوى وضع خطط جديدة. وكان هناك عدد وافر من الجنرالات الذين لا يرون أي خلاص إلا بإعادة سيرة كورنيلوف مع ريغا، ولكن على نطاق واسع، وذلك بجر الجيش إلى المعركة. ولتقع الهزيمة على رأس الثورة.

وقد تقرر، بمبادرة من فيرخوفسكي وزير الحرب إحالة قرعات الجنود القديمة إلى صفوف الاحتياط. ونـاءت السكك الحديدية تحت وطأة أحمال من الجنود العائدين إلى منازلهم. وتحطمت عجلات العربات الرازحة تحت الأحمال، كما انهارت أرضياتها. ولم تغد الحالة الفكرية للذين بقوا في الجبهة بسبب هذا الإجراء أفضل. فقد كتب بودبرغ ما يلي: "تصدعت الخنادق، وانهارت ممرات خنادق الاتصال وأغلقت... وانتشرت الفضالات كما انتشر الروث في كل مكان... ورفض الجنود بصورة قاطعة العمل في تنظيف الخنادق... ومن المخيف أن نفكر إلى أي شيء سيؤدي كل هذا عندما يأتي الربيع، وعندما ستبدأ كل هذه البقايا بالفساد والتحلل". وكان الجنود في حالتهم السلبية الشرسة يرفضون أيضًا تلقي اللقاحات الوقائية، وقد أصبح هذا الرفض شكلاً من أشكال الكفاح ضد الحرب.

وقام فيرخوفسكي بمحاولات لا جدوى منها لرفع المعنويات القتالية للجيش بتقليص تعداد القوات، ثم توصل فجأة إلى الاستنتاج القائل بأن البلاد لا يمكن أن تنقذ إلا بالسلم، وفي مؤتمر خاص انعقد مع زعماء الكاديت الذين كان الوزير الشاب

الساذج يأمل استمالتهم إلى جانبه، في هذا المؤتمر، وصف فيرخوفسكي صورة الارتباك المادي والمعنوي بالشكل التالي: "لا يمكن لكل محاولات متابعة الحرب إلا أن تقرب المأساة". وكان الكاديت لا يستطيعون أن يتجاهلوا هذا، ولكن ميليوكوف هز كتفيه بازدراء أمام صمت الآخرين قائلاً: "إنها هيبة روسيا ومكانتها"... "والوفاء للحلفاء"... وكان زعيم البرجوازية يسعى بعناد إلى دفن الثورة تحت أنقاض الحرب وجثثها، وهو لا يؤمن بكلمة واحدة من الكلمات التي نطق بها. وأظهر فيرخوفسكي جرأة سياسية؛ فقد أدلى بتاريخ ٢٠، ودون علم الحكومة، بتصريح في اللجنة الفرعية التابعة للجنة التحضيرية للمجلس النيابي، حول ضرورة عقد السلم فورًا، صرف النظر عن موافقة الحلفاء أو عدم موافقتهم. وثار كل الذين كانوا متفقين معه في المحادثات الخاصة ضده بشراسة، وكتبت الصحافة الوطنية أن وزير الحرب "قد قفز إلى مؤخرة عربة الرفيق تروتسكي وتعلق بها". وألمح بورتسيف إلى الذهب الألماني؛ فأقيل فيرخوفسكي. وكان الوطنيون يرددون في اجتماعاتهم الخاصة: أنه في الحقيقة على صواب. وأظهر بودبرغ حذرًا في صحيفته الخاصة، وكتب ما يلي: "أمانة" للعهد المقطوع كان اقتراح فيرخوفسكي خائنًا بالتأكيد، ولكنه الاقتراح الوحيد الذي يعطي أملاً بالخلاص". واعترف بودبرغ في مقاله بأنه يحسد الجنرالات الألمان "الذين أتاح لهم الحظ سعادة الحصول على الانتصارات". ولم يتوقع بودبرغ أن يأتي زمن الهزائم أيضًا للجنرالات الألمان. إن هؤلاء الناس، وحتى الأذكياء من بينهم لم يتوقعوا شيئًا. أما البلاشفة فقد توقعوا الكثيرن وكانت توقعاتهم وتنبؤاتهم هي مصدر قوتهم.

ودمر خروج البلاشفة من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي أمام أنظار البلاشفة، الجسور الأخيرة التي ما زالت تربط حزب الثورة بالمجتمع الرسمي. وقاد البلاشفة حركة تحريض قوية مشبعين بطاقة جديدة سمَّاها خصومهم بالديماغوجية -فعندما يقترب الهدف، تكون القوى مضاعفة- لأنها طرحت أمام الرأي العام ما كانوا يخفونه في الوزارات والمكاتب. ونجمت قوة إقناع هذه الدعاية التي لا تكل ولا تمل من أن البلاشفة فهموا سير الثورة، وأخضعوا لها سياستهم، وكانوا لا يخشون الجماهير أبدًا، ويؤمنون إيمانًا لا يتزعزع بحقهم الصائب وبانتصارهم في النهاية. ولم يكل الشعب من الإصغاء إليهم. وأحست الجماهير بالحاجة إلى تلاحم الصفوف وكان كل فرد منها يريد مراقبة نفسه إزاء الآخرين، وكان الجميع يحاولون، بفكر متوتر يقظ، رؤية كيف تتطور الفكرة الواحدة نفسها في ضميرهم مع تبايناتها المختلفة وخصائصها المميزة. وكانت الجموع الغفيرة تقف في ميادين الألعاب والمباني الكبيرة الأخرى؛ حيث كان أكثر البلاشفة شعبية يتكلمون، ويقدمون لهذا الجموع آخر الاستنتاجات وآخر النداءات.

وفي أكتوبر (تشرين الأول) نقص عدد الزعماء المحرضين إلى حد كبير. فقد كان لينين غائبًا كمحرض، وكمُلهم مباشر ويومي بالإضافة إلى ذلك. وكانت الجماهير تفتقر إلى تعميماته البسيطة والعميقة التي تصل إلى أعماق وجدان الجماهير، وتتأصل فيها بصورة متينة، كما تفتقر إلى تجسيداته الحية المستقاة من الشعب والمعادة إليه. وكانت هذه الجماهير تفتقر بصورة عامة أيضًا إلى محرِّض من الطراز الأول هو زينوفييف؛ إذ كان زينوفييف قد طورد فترة، واختفى كمُتهم في "انتفاضة" يوليو (تموز)، وتحول بعد مطاردته إلى معادٍ وخصم لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) واختفى نظرًا لهذا الموقف من ساحة العمل طوال الفترة الحرجة. وكان كامنييف وهو داعية من الطراز الأول لا يمكن تعويضه، ومدرب مجرب لسياسة الحزب، يدين الاتجاه إلى الانتفاضة، ولا يؤمن بالنصر، ويرى المأساة أمامه. وقد انسحب ضَجِرًا، واختفى في الظل. وكان سفردلوف، الذي كان منظمًا أكثر من محرض، يتحدث غالبًا في اجتماعات الجماهير، وينشر صوته ذا النغمة الواحدة، والقوية، هذا الصوت الذي لا يتعب يقينًا صافيًا. أما ستالين فلم يكن محرضًا أو خطيبًا. وقد ظهر أكثر من مرة كمقرر في مؤتمرات الحزب، ولكن هل ظهر مرة واحدة على الأقل في اجتماعات جماهير الثورة؟ إن الوثائق والمذكرات لم تُشر إلى ذلك أبدًا.

وكان فولودارسكي ولاشوفيتش، وكوللونتاي وتشودنوفسكي يريدون عمليات إثارة وتهييج قوية. ويأتي خلفهم عشرات المحرضين من وزن أقل. وكانت الجماهير تصغي إلى لوناتشارسكي، الخطيب المجرب الذي كان يعرف كيف يقدم الوقائع

والحوادث بصورة ملائمة، كما كان بارعًا في التعميم والشقشقة التفخيمية، والمزاح، ولكنه لا يدعي بقيـادة أي شـخص لأنـه بحاجة لمن يقوده. وكانت هذه الجماهير تمنحه انتباهًا وودًا، يضاف إليهما نوع من التسامح كان يمنحه له أكثر المتعلمـين مـن بين الجماهير عندما يتكلم. وبمقدار ما كنا نقترب من الانتفاضة كان لوناتشارسكي يفقد اتجاهاته بسرعة.

وروى سوخانوف ما يلي عن رئيس سوفيت بتروغراد (تروتسكي): "كان يطير من مصنع أوبوخوفسكي إلـى مـصنع تروبوتشني، بعد أن انتزع نفسه من عمل هيئة الأركان الثورية، ومن مصنع بوتيلوف إلى مصنع البلطيق، ومن مجال ترويض الخيول إلى الثكنات، وكان يتحدث كما يبدو في كل الأمكنة بآن واحد. وكان معروفًا شخصيًا، ومسموعًا من كل عامل وجنـدي في بتروغراد. وكان نفوذه، وسط الجاهير وفي هيئة الأركان ساحقًا جدًا. وكان الوجه المركزي لهذه الأيام والبطـل الرئيـسي لتلك الصفحة الرائعة من التاريخ".

ولكن كان التحريض الجزيئي الذي قاده المجهولون من العمال، والبحَّارة، والجنود الذين كسبوا الأنـصار الواحـد تلـو الآخر، وقضوا على آخر الشكوك وانتصروا على الترددات الأخيرة، كان هذا التحريض الذي تم في هذه الفترة التـي سـبقت الانتفاضة أكثر فعالية بما لا يقارن مع كل ما بذله سائر المحرضين الآخرين. وخلقت شهور من الحياة السياسية الحافلة بالنشاط كوادر من القاعدة، ربت مئات الألوف من الصحفيين الذين اعتادوا على مراقبة السياسة من الأدنى لا مـن الأعلـى، وكـانوا بالتالي يقدرون الأحداث والأشخاص بدقة غير ميسورة دومًا للخطباء من النوع الأكاديمي. وكان عمال بتر (بتروغراد) يـأتون في المقام الأول. وهم بروليتاريون بالوراثة، وقد أفرزوا عددًا من المحرضين والمنظمين من عجينة ثورية استثنائية، وعلى قدرٍ عالٍ من الثقافة السياسية، كانوا مستقلين قولاً وفكرًا وعملاً. وكان للخراطين وصانعي الأقفال والحـدادين ومعلمـي الحـرف المختلفة، ومدربي عمال المصانع مدارسهم الخاصة بهم، وتلاميذهم الذين بنوا جمهورية السوفييتات فيما بعد. وأرسـل بحـارة البلطيق، أقرب رفاق السلاح لعمال بتروغراد، والذين خرج معظمهم من أوساط العمال، أرسل هؤلاء الوية المحرضـين التـي غزت الأفواج المتخلفة، وعواصم النواحي، وأقسام فلاحي الموجيك وخاضوا معركة كبرى. واتخذت الصيغة المعممـة التـي أطلقها أحد الزعماء الثوريين في ميدان الألعاب الحديث شكلها وتحققت في مئات من الأدمغة المفكرة وزعزعت كل البلاد فيمـا بعد.

وأُجلي ألوف من العمال والجنود الثوريين من المناطق البلطيقية، ومن بولونيا وليتوانيا. وكانت الجيوش تنسحب منها مع المشروعات الصناعية أو تنسحب أفراديًا، كان كل هؤلاء العمال محرضين ضد الحرب ومسببيها. وكان البلاشفة الليتونيـون، الذين انتزعوا من أرض بلادهم، ووضعوا كلهم على أرض الثورة، مقتنعين، ومعاندين، ومصممين. ولقد قاموا بعمل تخريبـي في كل أجزاء البلاد. وكانت الوجوه ذات الملامح القاسية، واللهجة الجافة التي تنطق في غالب الأحيان جمـلاً خاطئـة باللغـة الروسية تعطي انطباعًا خاصًا بنداءاتها التي لا تقهر من أجل القيام بالانتفاضة.

ولم تكن الجماهير لتتسامح أبدًا مع المترددين في أوساطها، ولا مع المتشككين والمحايدين. وكانت هذه الجماهير تـسعى للسيطرة على الجميع، وجذبهم وإقناعهم وكسبهم إلى جانبها. وكانت المصالح ترسل مندوبيها مع مندوبي الأفواج إلى الجبهـة. وارتبطت الخنادق بعمال وفلاحي أقرب مؤخرة للجبهة. وكانت تنعقد في مدن هذه المنطقة اجتماعات اجتماعات لا تحـصى، ومـؤتمرات مصالحة وطنية، واجتماعات، يوحد الجنود والبحارة فيها عملهم مع عمل العمال والفلاحين، وبهذا الشكل غزت البلشفية منطقة متخلفة قريبة من الجبهة هي روسيا البيضاء.

وكانت الجماهير تتحول إلى السلبية في الغالب، في الأمكنة التي كانت القيادة المحلية للحزب فيهـا متـرددة، متفرجـة، ككييف مثلاً، وفورونيج، وفي أماكن أخرى. ولكي يبرر الزعماء موقفهم كانوا يتعللون بهبوط في حرارة الرأي العام كانوا هـم

السبب فيه. وبالمقابل، فقد كتب بوفولجسكي أحد المحرضين في قازان ما يلي: "كلما كان النداء جريئًا ومقدامًا، كلما أظهرت جمهرة الجنود ثقتها وارتباطها بالخطيب".

كانت مصانع وأفواج بتروغراد وموسكو تطرق بمزيد من الإصرار والإلحاح الأبواب الخشبية للقرية. وكان العمال يرسلون متضامنين في النفقات مندوبين إلى مسقط رءوسهم. وقررت الأفواج دعوة الفلاحين لدعم البلاشفة. وقام عمال المصانع الواقعة خارج المدن بالحج إلى الأرياف المجاورة، ووزعوا الصحف، وأسسوا الخلايا البلشفية. وعند عودتهم بقي عالقًا في ذهنهم من هذه الجولات انعكاس الحرائق التي أشعلتها الحرب الفلاحية.

وكانت البلشفية تغزو البلاد. وأصبح البلاشفة قوة لا تقاوم، وسار الشعب خلفهم. وكانت مجالس الدوما البلدية في كرونشتادت، وتساريتزين، وكوستروما، وشويا، المنتخبة باستفتاء عام تحت سيطرة البلاشفة، وقد حصل البلاشفة على ٥٢٪ من الأصوات في انتخابات مجالس دوما دائرة موسكو. واحتلوا المكان الأول في دوما مدينة كومسك البعيدة والهادئة، وفي سامارا التي لم تكن منطقة صناعية. ومن أصل أربعة نقابيين في الزيمستفو لناحية شلوسلبورغ، انتخب ثلاثة من البلاشفة. وجمع البلاشفة في زيمستفو ناحية ليغوفسكي ٥٠٪ من الأصوات. ولم تسر الأمور بهذا الشكل في كل مكان. ومع هذا فقد كان هناك تغيير في الاتجاه ذاته في كل الأنحاء، وزاد الثقل النوعي للحزب البلشفي بسرعة.

ومع ذلك ظهرت بلشفة الجماهير بوضوح أكبر في التنظيمات الطبقية. وكانت النقابات تضم في العاصمة أكثر من نصف مليون عامل. وأحس المناشفة الذين ما زالوا يحتفظون بالسيطرة على إدارة بعض النقابات بأنهم أصبحوا آخر من تبقى على قيد الحياة. ومهما يكن دور البروليتاريا الذي كان متماثلاً، ومهما تكن أعباؤها الفورية، فقد توصلت بصورة حتمية إلى الاستنتاجات البلشفية. ولم تصل إلى ذلك عن طريق الصدفة؛ كانت النقابات ولجان المصانع، والتجمعات الاقتصادية والثقافية للطبقة العاملة، الدائمة منها والمؤقتة، كانت كلها مضطرة بسبب الوضع بمجمله لأن تطرح السؤال الوحيد ذاته، في كل مشكلة خاصة: من هو إذن سيد الموقف؟

ورد عمال مصانع المدفعية، الذين استدعوا إلى مؤتمر لتسوية علاقاتهم مع الحكومة، ردوا حول الطريقة التي توصل إلى حل للسؤال، وكان ردهم هو التالي: بواسطة سلطة السوفييتات. ولم يكن ردهم صيغة فارغة من المعنى، بل إنها منهاج للسلامة الاقتصادية. وتوصل العمال، باقترابهم من السلطة تدريجيًّا وعمليًّا إلى مسائل الصناعة؛ حتى خلق مؤتمر المدفعية مركزًا خاصًا لوضع طرق تحويل المصانع الحربية لخدمة الإنتاج السلمي.

وأقر مؤتمر موسكو للجان المعامل والمصانع بضرورة تصديق السوفييت المحلي، حسب القرارات المتخذة، على كل إجراءات النزاعات على الإضرابات. وأن يفتح بسلطته من جديد المصانع التي أغلقها الصناعيون أصحاب فكرة إغلاق المصانع، وأن يؤمِّن للمصانع القمح والفحم بإرساله مندوبيه إلى سيبريا وإلى حوض الدونيتز. وركز مؤتمر لجان المعامل والمصانع في بتروغراد كل انتباهه على المسألة الزراعية ووضع منشورًا للفلاحين بناء على تقرير من تروتسكي: إن البروليتاريا تعي ذاتها لا كطبقة خاصة فحسب، بل كقائدة للشعب.

ورفع مؤتمر عموم روسيا للجان المعامل والمصانع، في النصف الثاني من أكتوبر (تشرين الأول) مسألة الإشراف العمالي إلى مستوى القضايا الوطنية العليا. "يهتم العمال أكثر من أرباب العمل بالعمل المنتظم والمتواصل للمؤسسات". و**الرقابة العمالية** "هي في مصلحة البلاد كلها، وينبغي أن تدعم من قبل الطبقة الفلاحية الثورية والجيش الثوري". وقد تم التصويت على القرار الذي يفتح الباب أمام النظام الاقتصادي الجديد من قبل ممثلي كافة المؤسسات الصناعية في روسيا، وصُدِّق عليه مقابل

خمسة أصوات عارضته، وامتناع تسعة أعضاء عن التصويت. وكانت الوحدات القليلة التي امتنعت عن التصويت تابعة لهؤلاء المناشفة القدماء الذين لا يستطيعون أن يسيروا مع حزبهم، ولكنهم لم يكونوا قد قرروا بعد رفع اليد بصراحة دليلاً على تأييد الانتفاضة البلشفية. وهذا ما فعلوه في وقت لاحق.

وكانت البلديات الديمقراطية التي نشأت مؤخرًا تموت، بصورة متوازية مع عناصر السلطة الحكومية. وبمرور الوقت أصبحت أهم المسائل كمسائل تموين المدن بالمياه، والكهرباء، والمحروقات، والمؤن ملقاة على عاتق السوفييتات والتنظيمات العمالية الأخرى. وأخذت لجنة محطة تنوير بتروغراد تجوب كل أنحاء المدينة وضواحيها، مفتشة عن الفحم، أو الزيت للآلات، وحصلت عليهما بواسطة لجان المؤسسات الأخرى في معركة ضد أرباب العمل والإدارة.

كلا، لم تكن سلطة السوفييتات أضغاث أحلام، وبناءً ارتجاليًّا، واختراع منظري الحزب. كانت هذه السلطة تصعد من القاعدة بصورة لا تقاوم، ومن وسط الفوضى الاقتصادية، ومن عجز المالكين، ومن حاجة الجماهير. وأصبحت السوفييتات تملك السلطة فعلاً، ولم يكن هناك بالنسبة للعمال والجنود والفلاحين سبيل آخر. ولم يكن الوقت ليتيح البحث عن محاكمات واعتراضات فيما يتعلق بسلطة السوفييتات؛ كان من الضروري تحقيق هذه السلطة.

وقد تقرر في المؤتمر الأول للسوفييتات الذي انعقد في يونيو (حزيران) استدعاء المؤتمرات كل ثلاثة أشهر. ومع ذلك أظهرت اللجنة التنفيذية المركزية النية بعدم الدعوة إلى ذلك أبدًا. فهي لا تريد دعوة المؤتمر الثاني في الموعد المحدد له، لكي لا تجد نفسها وجهًا لوجه أمام أكثرية معادية. وكان الهدف الرئيسي للمؤتمر الديمقراطي إبعاد السوفييتات، واستبدالها بأجهزة "الديمقراطية". ولكن لم يكن الأمر بمثل هذه البساطة. فلم تكن السوفييتات تنوي فتح الطريق أمام أي كان.

وبتاريخ ٢١ سبتمبر (أيلول)، قبل اختتام المؤتمر الديمقراطي بفترة قصيرة، رفع سوفييت بتروغراد صوته للمطالبة بعقد مؤتمر السوفييتات بصورة عاجلة. وبناءً على تقريري تروتسكي وبوخارين الذي دعي من موسكو، تم التصويت على قرار ينطلق بصراحة من ضرورة الاستعداد لمجابهة "موجة جديدة من الثورة المضادة". واستند منهاج الدفاع الذي شق الطريق للهجوم المقبل على السوفييتات، وكأنه يعتمد على التنظيمات الوحيدة القادرة على النضال. وطالب القرار بأن تعزز السوفييتات مواقفها وسط الجماهير. وحيثما كانت السوفييتات تملك السلطة بيدها بالفعل، ينبغي أن لا تتنازل عنها أبدًا. كما ينبغي أن تبقى اللجان الثورية التي أنشئت خلال الأيام الكورنيلوفية مستعدة للعمل. "ومن الضروري استدعاء مؤتمر السوفييتات للانعقاد فورًا في سبيل توحيد وتنسيق أعمال كل السوفييتات في صراعها ضد الخطر الوشيك، ولحل مسائل تنظيم السلطة الثورية". وهكذا، وصل قرار الدفاع إلى هذه النتيجة من قلب الحكومة. وستتطور على هذا المقياس السياسي بعد الآن الفتنة حتى وقت الانتفاضة.

وفي اليوم التالي طرح مندوبو السوفييتات الذين اجتمعوا في المؤتمر مسألة المؤتمر أمام اللجنة التنفيذية المركزية. وطالب البلاشفة باستدعاء المؤتمر في الأيام الخمسة عشر القادمة، وقدموا -أو بتعبير أدق- هددوا بإنشاء جهاز خاص لهذا الغرض معتمدًا على مجلس سوفييت بتروغراد وموسكو. والحقيقة أنهم كانوا يفضلون استدعاء المؤتمر من قبل اللجنة التنفيذية المركزية القديمة؛ إذ يتلافى هذا الاستدعاء مسبقاً المناقشات حول شرعية المؤتمر، ويسمح بتقويض التوفيقيين بدعم منهم. وما أن كشف تهديد البلاشفة حتى آتى أُكُله؛ فصرَّح زعماء اللجنة التنفيذية المركزية، دون أن يخاطروا أيضًا بالقطيعة مع الشرعية السوفييتية، بأنهم لن يفوضوا أحدًا بحق القيام بالتزاماتهم. وتحدد المؤتمر بتاريخ ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) أي خلال أقل من شهر.

ومع ذلك، ما أن تفرق مندوبو المناطق، حتى زال غرور زعماء اللجنة التنفيذية المركزية فجأة، واكتشفوا بأن المؤتمر لم يكن ملائمًا، وأنه سيبعد الحزبيين الملتزمين بالحملة الانتخابية إلى المديريات، ويسيء إلى المجلس التأسيسي. وكان الخوف الحقيقي من وجود مدعٍ بالسلطة في المؤتمر. ولكنهم سكتوا عن هذا الموضوع بدبلوماسية. وبتاريخ ٢٦ سبتمبر (أيلول) سارع دان وقدم اقتراحًا بتأجيل المؤتمر، رفعه إلى مكتب اللجنة التنفيذية المركزية، هذا المكتب الذي لم يكن يهتم بالاستعدادات الضرورية.

أما فيما يتعلق بالمبادئ الأولية للديمقراطية، فإن هؤلاء الديمقراطيين الممتهنين لم يبرهنوا عليها أبدًا ولم يتمسكوا بها. فقد جاءوا لرفض القرار الذي اتخذه المؤتمر الديمقراطي الذي استدعوه بأنفسهم، وتنكروا للتحالف مع الكاديت. وهم يظهرون الآن ازدراءهم المطلق للسوفييتات، مبتدئين بسوفييت بتروغراد، الذي حملهم إلى السلطة. نعم! هل كان بوسعهم في الواقع، أن يأخذوا بعين الاعتبار آمال ومطالب عشرات الملايين من العمال والجنود والفلاحين الذين يتمسكون بالسوفييتات دون أن يخرقوا تحالفهم مع البرجوازية؟

ورد تروتسكي على اقتراح دان بأن المؤتمر سيُستدعى على كل حال، وإذا لم يتحقق ذلك بالطريق الدستوري، فإنه سيتحقق بالطريق الثوري على الأقل. ورفض المكتب الموغل في الدناءة هذه المرة السير في طريق انقلاب سوفييتي. ولكن الهزيمة الصغيرة لم تجبر المتآمرين أبدًا على إلقاء السلاح، بل كانت الهزيمة على العكس حافزًا ودافعًا لهم. ووجد دان دعمًا مؤثرًا في **فرع الجنود التابع للجنة التنفيذية المركزية**، الذي قرر فتح "تحقيق" وسط تنظيمات الجبهة لمعرفة ما إذا كان سيتم استدعاء المؤتمر، أي ما إذا كانوا سينفذون قرارًا اتخذ مرتين من قبل أكبر جهاز سوفييتي. وفي غضون ذلك، فتحت صحافة التوفيقيين حملة ضد المؤتمر. وأظهر الاشتراكيون - الثوريون حنقهم بصورة خاصة. فقد كتبت **صحيفة ديلونارودا (قضية الشعب)** ما يلي: "إن استدعاء المؤتمر أو عدم استدعائه أمر لن يكون له أية أهمية فيما يتعلق بحل مسألة السلطة.. ولن تخضع حكومة كرنسكي بأية حال من الأحوال". وقد سأل لينين: لمن لن تخضع الحكومة؟ وأخذ يشرح الجواب. "لن تخضع لسلطة السوفييتات؛ أي: لسلطة العمال والفلاحين التي تسميها الديلونارودا سلطة تروتسكي ولينين، لكي لا تتخلف عن منظمي مذابح اليهود، والمعادين للسامية، والفوضويين، والكاديت".

ووجدت اللجنة التنفيذية الفلاحية، من ناحيتها، استدعاء المؤتمر "خطرًا وغير مرغوب فيه". وساد في الدوائر الحاكمة السوفييتية ارتباك مؤذ مقصود. وجنَّد مندوبو الأحزاب التوفيقية، الذين كانوا يجوبون البلاد، التنظيمات المحلية ضد المؤتمر المستدعى بصورة رسمية من قبل الجهاز السوفييتي الأعلى. وأخذت الصحيفة شبه الرسمية للجنة التنفيذية المركزية تنشر يومًا بعد يوم قرارات ضد المؤتمر، بأمر شلة الزعماء التوفيقيين، وكانت كافة لاقرارات منبعثة من أشباح مارس إلة الحرب، وتحمل حقًا أسماء جليلة. ودفنت الأزفستيا السوفييتات في مقال افتتاحي، وأعلنت بأن الأبنية الخشبية المؤقتة هي التي ينبغي أن تدمر عندما سيكلل بناء المجلس التأسيسي النظام الجديد".

وكانت الإثارة والتحريض ضعيفين جدًا بحيث يتعذر عليهما أخذ البلاشفة على حين غرة. ومنذ ٢٤ سبتمبر (أيلول) قررت اللجنة المركزية للحزب، التي لا تركن إلى قرار اللجنة المركزية، بأن تثير في القاعدة بواسطة السوفييتات المحلية وتنظيمات الجهة حملة لصالح عقد المؤتمر. وندب البلاشفة سفردلوف إلى اللجنة الفرعية الرسمية التابعة للجنة التنفيذية المركزية، هذه اللجنة التي كانت تهتم باستدعاء المؤتمر، وبتخريبه بصورة أصح. وجندت التنظيمات المحلية للحزب تحت قيادته، وجندت السوفييتات بواسطتها أيضًا. وبتاريخ ٢٧ طالبت كل المؤسسات الثورية في ريفال الحل الفوري للجنة التحضيرية للمجلس النيابي، واستدعاء مؤتمر للسوفييتات؛ لخلق السلطة، وتعهدت وهي تتبجح بدعمها "بكل القوى والموارد

التي تملكها قلعة الحكم". واقترح عدد وافر من مجالس السوفييتات المحلية، بدءًا من نواحي موسكو، سحب مهمة استدعاء المؤتمر من اللجنة التنفيذية المركزية التي لا تتسم بالإخلاص. وتقاطرت المطالبات بعقد المؤتمر، من الكتائب والأفواج، والفيالق، والحاميات، في اتجاه معاكس لقرارات لجان الجيش التي تنص على معارضة انعقاد المؤتمر. وصرح المجلس العام للجنود في كيشتوم في الأورال بما يلي: "إن على مؤتمر السوفييتات أن يستلم السلطة دون أن يرده أي شيء". ودعا جنود منطقة نوفوغورود الفلاحين إلى المشاركة في المؤتمر، دون الالتفات إلى قرار اللجنة التنفيذية الفلاحية. وطالبت سوفييتات المناطق، والنواحي، وسوفييتات الأنحاء البعيدة في روسيا، وسوفييتات المصانع والمناجم، والأفواج، وبحارة البوارج الثقيلة، وقاذفات الطوربيد، والمستشفيات العسكرية، والمجمعات، وسرية الآليات الحربية ببتروغراد، ومصالح سيارات الإسعاف في موسكو، طالب كل هؤلاء بالقضاء على الحكومة وتسليم السلطة للسوفييتات.

وأنشأ البلاشفة لأنفسهم قاعدة تنظيم هامة؛ إذ لم يتوقفوا عند حد الإثارة، بل استدعوا مؤتمرًا لسوفييتات منطقة الشمال ضم ١٥٠ مندوبًا جاءوا من ٢٣ جبهة مختلفة. وكانت الضربة موجهة بشكل جيد! وصرحت اللجنة التنفيذية المركزية، بقيادة معلميها الكبار المختصين بالأمور الصغيرة، بأن مؤتمر الشمال اجتماع خاص. ولم تشترك حفنة من المندوبين المناشفة في أعمال المؤتمر، ولم يحضر أفرادها إلا "كمراقبين" وكأن عدم اشتراكهم يقلل من معنى المؤتمر الذي تمثلت فيه سوفييتات بتروغراد وضواحيها، وموسكو، وكرونشتادت، وهلسنغفورز، وريفال، أي العاصمتين والقلعتين البحريتين، وأسطول البلطيق، وحاميات المناطق المجاورة لبتروغراد.

وأعطي للمؤتمر الذي افتتحه أنطونوف، طابع عسكري مقصود. وجرت أعمال المؤتمر برئاسة الملازم الثاني كريلنكو أفضل محرضي الحزب في الجبهة، والذي أصبح فيما بعد القائد العام للقطعات البلشفية. وكان التقرير السياسي لتروتسكي منصبًّا أساسًا على المحاولة الجديدة التي قامت بها الحكومة لإبعاد الأفواج الثورية عن بتروغراد؛ فالمؤتمر لن يسمح "بنزع سلاح بتروغراد وخنق السوفييت". ومسألة حامية بتروغراد عنصر من المسألة الأساسية للسلطة. "إن كل الشعب يصوت للبلاشفة. إن الشعب يثق بنا ويكلفنا باستلام السلطة ووضعها بأيدينا". ويقول قرار تروتسكي ما يلي: "لقد حانت الساعة التي يمكن فيها لزحف جريء وإجماعي تقوم به السوفييتات أن يحل مسألة السلطة المركزية". وأقر الأعضاء هذه الدعوة المستورة للانتفاضة بالإجماع فيما عدا ثلاثة أعضاء امتنعوا عن التصويت.

ودعا لاشوفيتش السوفييتات إلى التأكيد من الحاميات المحلية، على غرار بتروغراد. ووعد بيترسون المندوب الليتوني بـ ٤٠,٠٠٠ قناص ليتوني للدفاع عن مؤتمر السوفييتات. ولم يكن تصريح بيترسون الذي استقبل بحماس، هو أقل التصريحات وزنًا في عالم الكلمات. فبعد عدة أيام، أعلن سوفييت الأفواج الليتوانية: "أن الانتفاضة الشعبية هي وحدها... التي ستجعل من الممكن انتقال السلطة إلى أيدي السوفييتات". ونشرت **إذاعة المراكب الحربية** في كل البلاد بتاريخ ١٣ دعوة مؤترم الشمال إلى الاستعداد لمؤتمر سوفييتات عموم روسيا: "أيها الجنود، والبحارة، والفلاحون، والعمال! إن واجبكم أن تتغلبوا على كل العقبات".

واقترحت اللجنة المركزية للحزب على المندوبين البلاشفة في مؤتمر الشمال عدم مغادرة بتروغراد بانتظار مؤتمر السوفييتات الذي سينعقد عن قريب. وزار بعض المندوبين، بناءً على تفويض من المكتب المنتخب من المؤتمر، تنظيمات الجيش وسوفييتات المديريات لإقامة علاقات معها، وبعبارات أخرى لإعداد المنطقة للانتفاضة. ورأت اللجنة التنفيذية المركزية عندئذٍ إلى جانبها أداة قوية تعتمد على بتروغراد وموسكو، وكانت تتكلم مع البلاد بواسطة محطات إذاعة البوارج الثقيلة. وغدت مستعدة للحلول محل الجهاز الأعلى البالي للسوفييتات، لاستدعاء المؤتمر عندما تحين الفرصة، وبدا أن المحاولات الخداعية التافهة في التنظيم لا تستطيع أن تكون مفيدة للتوفيقيين.

وأعطى الصراع من أجل انعقاد المؤتمر ومقاومة انعقاده في الأقاليم آخر دفع لبلشفة السوفييتات. وحصل البلاشفة وحدهم لأول مرة، ولا سيما مع الاشتراكيين - الثوريين اليساريين في عدد وافر من المناطق المتخلفة، كسمولنسك، على الأكثرية منذ وقت الحملة للمؤتمر أو في انتخابات المندوبين. وحتى في المؤتمر السيبيري للسوفييتات؛ فقد نجح البلاشفة، في منتصف أكتوبر (تشرين الأول) بتشكيل أكثرية قوية مع الاشتراكيين الثوريين اليساريين طبعت كل السوفييتات المحلية بطابعها. وبتاريخ ١٥ اعترف سوفييت كييف بـ١٥٩ صوتاً مقابل ٢٨ وامتناع ثلاثة أعضاء عن التصويت بمؤتمر السوفييتات المقبل "كجهاز حاكم في السلطة". وبتاريخ ١٦، اعترف مؤتمر السوفييتات لمنطقة الشمال - الغربي في منسك، أي في مركز الجبهة الغربية بضرورة استدعاء المؤتمر بصورة عاجلة. وبتاريخ ١٨، أجري سوفييت بتروغراد انتخاباته للمؤتمر المقبل، وحصلت اللائحة البلشفية (تروتسكي، وكامنييف، وفولودارسكي، ويورينييف، ولاشوفيتش) على ٤٤٣ صوتاً. وحصل الاشتراكيون - الثوريون على ١٦٢ صوتاً. وكان الاشتراكيون - الثوريون الذين نجحوا من اليساريين الميالين إلى البلاشفة. وحصل المناشفة على ٤٤ صوتاً وطالب مؤتمر سوفييتات الأورال، الذي انعقد برئاسة كريستينسكي، والذي كان يضم ٨٠ عضوًا من البلاشفة من أصل ١١٠ أعضاء طالب المؤتمر باسم ٢٢٣,٩٠٠ عامل وجندي منظم، باستدعاء مؤتمر السوفييتات في الوقت المحدد. وفي اليوم نفسه، في ١٩، أعلن مؤتمر لجان المعامل والمصانع لعموم روسيا. وهو التمثيل الذي لا يرقى إليه الشك لبروليتاريا كل البلاد، أعلن وتبنى النقل الفوري للسلطة إلى أيدي السوفييتات. وبتاريخ ٣٠ صرحت إيفانوفو - فوزنيسنسك بأن كل سوفييتات المنطقة تناضل "في معركة صريحة محتدمة ضد الحكومة المؤقتة". وطلبت في تصريحها من السوفييتات أن تحل بسلطتها المسائل الاقتصادية والإدارية في مواقع تأزمها. ولم يعارض القرار الذي كان يعني تقويض السلطات الحكومية في المديريات سوى عضو واحد. وامتنع عضو آخر عن التصويت. وبتاريخ ٢٢، نشرت الصحافة البلشفية لائحة جديدة تضم ٥٦ تنظيمًا تطالب بانتقال السلطة إلى السوفييتات، وكانت هذه التنظيمات كلها تمثل الجماهير الحقيقية، والمسلحة إلى حد كبير.

ولكن النداء القوي الذي أطلقته قوى الانتفاضة المقبلة لم يمنع دان من أن ينقل إلى مكتب اللجنة التنفيذية المركزية أن ٥٠ تنظيمًا فقط من أصل ٩١٧ تنظيمًا سوفييتيًّا موجودًا قد ردوا بالموافقة على إرسال مندوبيهم. وادعى بأن هذه الموافقة تمت "بدون أي حماس"، ويمكن أن نفهم دون عناء بأن السوفييتات القليلة العدد التي آمنت بضرورة منح عواطفها للجنة التنفيذية المركزية تنظر إلى المؤتمر دون حماس. ومع ذلك، كانت الأكثرية الساحقة للسوفييتات المحلية واللجان تتجاهل تمامًا اللجنة التنفيذية المركزية.

ومع هذا لم يجرؤ التوفيقيون على دفع المشكلة إلى نهايتها، بعد أن خانهم وورطهم عملهم. وعندما اتضح أنهم لن ينجحوا في تجنب المؤتمر، قاموا بتحول مفاجئ، فدعوا كل التنظيمات المحلية لانتخاب مندوبين إلى المؤتمر، كي لا يتركوا الأكثرية بيد البلاشفة. ولكن اللجنة التنفيذية المركزية وجدت نفسها بعد أن تمالكت زمامها فيما بعد مضطرة قبل التاريخ المحدد بثلاثة أيام إلى تأجيل المؤتمر إلى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول).

وحصل نظام فبراير (شباط) ومعه المجتمع البورجوازي، بفضل مناورة التوفيقيين الأخيرة، على مهلة غير متوقعة، لا يستطيعون معها رغم ذلك الحصول على أي شيء أساسي. وبالمقابل، استخدم البلاشفة الأيام الإضافية الخمسة بنجاح كبير. وقد اعترف الأعداء بذلك فيما بعد. وروى ميليوكوف ما يلي: "واستخدم البلاشفة تأخير التظاهرة قبل كل شيء لتعزيز مواقعهم وسط عمال بتروغراد وجنودها. وظهر تروتسكي في الاجتماعات، في أنحاء مختلفة من العاصمة. وهكذا تميز المناخ الفكري الذي خلقه، في عجز سكوبوليف وغوتز وغيرهما من أعضاء اللجنة التنفيذية في فوج سيمينوفسكي مثلاً، عن قول كلمة واحد بعد خطابه".

وكان لتحول فوج سيمينوفسكي، الذي سجل اسمه في تاريخ الثورة بأحرف مشئومة معنى رمزي؛ ففي ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٥ قام هذا الفوج بأضخم عمل لسحق الانتفاضة في موسكو. وكان قائد الفوج الجنرال مين قد أعطى لجنوده الأمر التالي: "**عدم الحصول على أسرى**"؛ وقد أعدم جنود فوج سيمينوفسكي، ١٥٠ عاملاً ومستخدمًا في القطاع الحديدي لموسكو - غولوتفين. وبعد أن هنأ القيصر الجنرال مين على مآثره قتل مين في خريف عام ١٩٠٦ من قبل الاشتراكية - الثورية كونوبليانيكوفا. وقاوم فوج سيمينوفسكي، الذي وقع بكامله في شباك التقاليد القديمة، مدة أطول من أكثرية قطعات الحرس الأخرى. وكانت سمعته كقوة "موثوقة" متينة جدًا، حتى أن الحكومة أصرت على الاعتماد عليه حتى يوم الانتفاضة وبعدها أيضًا، برغم الإخفاق المحزن لسكوبوليف وغوتز.

وبقيت مسألة مؤتمر السوفييتات المسألة السياسية الرئيسية خلال الأسابيع الخمسة التي فصلت المؤتمر الديمقراطي عن انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول). وكان بيان البلاشفة في المؤتمر الديمقراطي قد أعلن صيرورة المؤتمر المقبل للسوفييتات "إلى جهاز حاكم للبلاد". "أما هذه فهي قرارات واقتراحات للمؤتمر الحالي فقط... قد تجد طريقها إلى التحقيق، وستصدق من قبل مؤتمر مندوبي العمال والفلاحين والجنود لعموم روسيا". وقال قرار مقاطعة اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، المدعوم من قبل نصف أعضاء اللجنة المركزية ضد النصف الآخر: "إننا نربط مسألة اشتراك حزبنا في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي في الوقت الحاضر مباشرة بالتدابير التي سيتخذها مؤتمر سوفييتات عموم روسيا لإنشاء سلطة ثورية". وظهرت الدعوة إلى مؤتمر السوفييتات في كل الوثائق البلشفية لهذه الفترة دون استثناء.

وأصبحت السوفييتات الدعامة الوحيدة للقوى الخلاقة أمام اضطرام الحرب الفلاحية، واشتداد حدة الحركة الوطنية، وأمام الفوضى المتفاقمة، وهزيمة الجبهة، وإزاء تصدع الحكومة. وأصبحت كافة المسائل عبارة عن مسألة سلطة، وتؤدي مسألة السلطة إلى مؤتمر السوفييتات. وكان من الضروري إعطاء إجابة على كل المسائل، بما فيها مسألة المجلس التأسيسي.

ولم يلغ أي حزب من الأحزاب بما في ذلك الحزب البلشفي، شعار المجلس التأسيسي. ولكن الشعار الديمقراطي الأول في مجرى أحداث الثورة، الذي أعطى لكفاح الجماهير البطولي لونه منذ خمس عشرة سنة أخذ يذبل بصورة متدرجة. وكان هذا الشعار قد سحق بالرمي إلى حد ما، ولم يترك وراءه إلا الدوي وشكلاً فارغًا بدون محتوى، وتقليدًا لا أملاً بعيدًا. وفي هذا السياق لم يكن هناك أحاج وألغاز. فقد أدَّى تطور الثورة إلى التحام مباشر بين طبقتي المجتمع الرئيسيتين من أجل السلطة: البرجوازية والبروليتاريا. ولم يكن المجلس التأسيسي قادرًا على إعطاء أي شيء للأولى أو للثانية. ولا تستطيع برجوازية المدن والأرياف الصغيرة أن تلعب في هذا النزاع سوى دور مساعد ثانوي. وكانت هذه البرجوازية عاجزة على كل حال عن استلام السلطة بنفسها، وإذا كانت الشهور السابقة قد برهنت أو أبرزت شيئًا ما، فهو هذا العجز الواضح. بَيْد أن البرجوازية الصغيرة ما زالت قادرة على الحصول في المجلس التأسيسي على الأكثرية -وقد حصلت عليها فعلاً فيما بعد- فماذا تنفعها الأكثرية؟ تنفعها فقط كي تجهل طريقة استخدامها. وقد أُوِّل كل هذا بالميوعة الحتمية للديمقراطية في منعطف تاريخي عميق. **وتبرز قوة التقليد في أن كلا المعسكرين لم يتنازلا عن اسم المجلس التأسيسي حتى في عشية المعركة الأخيرة**. وكانت البرجوازية في الواقع تستنجد بكورنيلوف من أجل المجلس التأسيسي، على حين كان البلاشفة يستنجدون بمؤتمر السوفييتات.

ومن الممكن أن نقدم ونحن واثقون الفرضية القائلة بأن شرائح واسعة إلى حد ما من الشعب، حتى بعض الشرائح الوسيطة من الحزب البلشفي راودتها بعض الأوهام الدستورية إلى حد ما إزاء مؤتمر السوفييتات، أي أنها ربطت فكرة نقل السلطة بصورة آلية وغير مؤلمة من أيدي الائتلاف إلى أيدي السوفييتات بالمؤتمر، بينما كان من الواجب في الحقيقة انتزاع السلطة بالقوة، وهو أمر لا يمكن أن يتم بالتصويت؛ فالانتفاضة المسلحة وحدها هي التي تستطيع حل هذه المسألة.

ومع ذلك كان وهم "البرلمانية" السوفييتية، في الشروط بمجملها، أقل كل هذه الأوهام خطرًا، هذه الأوهام التي رافقت - كمزيج حتمي - كل حركة شعبية كبرى، بما في ذلك أكثر هذه الحركات واقعية. وكافحت السوفييتات بالفعل للاستيلاء على السلطة وزاد اعتمادها على القوات العسكرية، وأصبحت هي نفسها سلطات في المديريات، وغزت بمعركة كبيرة مؤتمرها الخاص. ولم يبق أي مكان للأوهام الدستورية، وما تبقى من هذه الأوهام كنسه سياق المعركة.

وفي الوقت نفسه غطَّى شعار مؤتمر السوفييتات الإعداد نصف التآمري، ونصف الصريح للانتفاضة، وذلك بالدعوة الدائمة إلى قيام تمثيل شرعي للعمال، والجنود والفلاحين، كما نسق الجهود الثورية لعمال وجنود كل البلاد، وأعطاهم وحدة في الهدف، وحدد لهم مهلة زمنية واحدة لتحقيقه. وكان على مؤتمر السوفييتات فيما بعد، بتسهيله اجتماع القوى من أجل الانتفاضة، أن يقر نتائجه ويصادق عليها، وأن يشكل سلطة جديدة مؤكدة للشعب.

اللجنة العسكرية الثورية

وحافظ الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة على تفوقهم خلال شهر أغسطس (آب) برغم التحول الذي بـدأ فـي نهايـة يوليو (تموز) في الحامية المتجددة لبتروغراد، وبقيت بعض القوات العسكرية مشبعة بحذر شـديد إزاء البلاشـفة. ولـم تكـن البروليتاريا قد حصلت على السلاح بعد؛ فلم يحتفظ الحرس الأحمر إلا ببضع الألوف من البنادق. وكان من الممكن أن تنتهـي الانتفاضة، في مثل هذه الشروط، بهزيمة قاسية، مع أن الجماهير عادت إلى البلاشفة من جديد.

وتعدل الوضع بتدرج في بحر سبتمبر (أيلول). وبعد تمرد الجنرالات وعصيانهم، خسر التوفيقيون بسرعة، الدعم الـذي كانوا يتمتعون به في صفوف الحاميات العسكرية، وحلّ التعاطف مع البلاشفة محل الحذر منهم، وكانت الجماهير تقف إزاءهـم موقف الحياد المتفرج في أسوأ الحالات، ولكن التعاطف لم يكن فعَّالاً. وبقيت الحامية العسكرية، من وجهة النظر السياسية، في منتهى الميوعة، وكثيرة الشكوك، على طريقة الموجيك الذين يتساءلون دومًا: ألا يخدعنا البلاشفة؟ هل سيعطون السلم والأرض بالفعل؟ ولم تكن أكثرية الجنود متأهبة بعد للقتال من أجل تحقيق هذه الأهداف تحت راية البلاشفة. وبما أنه ما يزال هناك أقلية مكابرة في قوات الحامية، ومعادية للبلاشفة (من ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ يونكرز، وثلاثة أفواج من القوزاق، وكتيبة سيارات، وفرقة سيارات مصفحة) فقد كان مخرج النزاع يبدو في سبتمبر (أيلول) مخرجًا مشكوكًا فيه. وجلب سير الأحداث أيضًا درسًا عمـق نظرة جنود بتروغراد إلى مصيرهم، فوجدوا أن هذا المصير مرتبط ارتباطًا لا انفكاك فيه بمصير الثورة والبلاشفة.

إن حق التصرف بقواتٍ مؤلفة من رجال مسلحين هو الحق الأساسي لسلطة الدولة. وقد تعهدت أول حكومـة مؤقتـة، فرضتها اللجنة التنفيذية على الشعب بعدم نزع سلاح بتروغراد، وعدم إخلائها من القطعات التي شـاركت بانتفاضـة فبرايـر (شباط). تلك كانت البداية القاطعة لازدواجية عسكرية غير منفصلة في الحقيقة عن ازدواجيـة الـسلطة. وجـاءت **الـزلازل السياسية الكبرى** للأشهر التالية –بيان أبريل (نيسان)، وأيام يوليو (تموز)، وتحضير الفتنة الكورنيلوفية والقضاء عليها- فأدت في كل مرة بصورة حتمية إلى مسألة إخضاع حامية بتروغراد. بَيْد أن النزاعات فوق هذه الأرض بين الحكومـة والتـوفيقيين اتسمت في النهاية بطابع عائلي، وكانت تنتهي بحل ودي. ومع بلشفة الحامية، اتخذت المسألة إطارًا آخر. ونرى الآن أن الجنود أنفسهم بدأوا يذكرون بالتعهد الذي أعطته الحكومة في مارس (آذار) للجنة التنفيذية المركزية، هذا التعهد الذي خانـه الطرفـان وقاما بخرقه. وبتاريخ ٨ سبتمبر (أيلول) طلب فرع الجنود في السوفييت بعودة كل الأفواج المرسلة إلى الجبهة بعـد أحـداث يوليو (تموز) إلى بتروغراد. بَيْد أن المشتركين في الائتلاف كانوا يصدعون رءوسهم ليتساءلوا كيف يطردون الأفواج الأخرى.

وكان الوضع في عدد وافر من مدن المناطق مماثلاً تقريبًا للوضع في العاصمة. وفي بحر يوليو (تمـوز) وأغـسطس (آب) تعرضت الحاميات المحلية لحملة الإصلاح الوطني. وفي بحر أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول) اعتنقت الحاميـات التـي أعيد تجديدها البلشفية. وكان من الضروري العودة إلى البدء، أي تقويمها من جديد وإعادة بنائها. وقد بدأت الحكومة بالمناطق، بعد أن أعدت ضربة ضد بتروغراد. وأُخفيت الدوافع السياسية بعناية خلف دوافع إستراتيجية. وبتاريخ ٢٧ سبتمبر (أيلول) قرر المجلس الموحد لسوفييتات ريفال، في المدينة والقلعة حول مسألة طرد القطعات ما يلي: عدم قبول إعادة أي تجمع للقـوات إلا بموافقة مسبقة من السوفييتات المعنية. وكان زعماء سوفييت فلاديمير يسألون موسكو عما إذا كان من الواجب عليهم الخضوع لأمر كرنسكي الذي ينص على جلاء كل الحامية. ولاحظ المكتب البلشفي الإقليمي في موسكو أن "الأوامر المشابهة قد أصبحت متواصلة إزاء الحاميات المشبعة بالفكر الثوري". وحاولت الحكومة قبل أن تتنازل عن كل حقوقها استخدام الحق الأساسي الذي يتمتع به نظام الحكم؛ وهو التصرف بالقوات المسلحة.

وأصبح تفتيت حامية بتروغراد ضرورة عاجلة جدًا، وخاصة وأن على مؤتمر السوفييتات المقبل، دفع المعركة بصورة أو بأخرى في سبيل الاستيلاء على السلطة إلى نهايتها. ومن يوم إلى يوم كانت الصحافة البرجوازيـــة، التـــي تـــديرها ريـــتش الكاديت، تكرر بأن من الواجب أن لا يترك للبلاشفة إمكانية "اختيار فرصتهم لإعلان الحرب الأهلية". كان هذا يعنـــي بالنـــسبة لليمين: فلنضرب البلاشفة في وقت ملائم. ونجمت محاولة التعديل الأولى لموازين القوى في الحامية من هنا بالتأكيد. وكانـــت المبررات ذات الطابع الإستراتيجي تبدو مقنعة إلى حد ما بعد سقوط ريغا وسقوط جزر مونسوند. وأرسلت هيئة أركان المنطقة تعليمات تأمر بتقويم قوات بتروغراد بغية إرسالها إلى الجبهة. وكانت المسألة في الوقت نفسه قد نقلت إلى فرع الجنود بمبادرة التوفيقيين. ولم تكن خطة الخصوم سيئة: انتزاع الدعامة العسكرية التي كان يملكها البلاشفة منهم بضربة واحدة، بعد أن قـــدموا إنذارًا إستراتيجيًّا للسوفييت، وإثارة نزاع حاد بين حامية بتروغراد والجبهة التي كانت بحاجة للنجدات وللتبديل.

وكان زعماء السوفييت الذين كشفوا الفخ المنصوب ينوون جس الأرض في بادئ الأمر قبل القيام بخطوة خاطئة. ولـــم يكن رفض تنفيذ الأمر ممكنًا إلا شريطة أن يكونوا واثقين بأن الجبهة ستفهم دوافع الرفض بصورة صـــحيحة. وفـــي الحالـــة المعاكسة، قد يكون من الأجدى إجراء تبديل لقوات الحامية بالاتفاق مع جنود الخط الأول، بالقطعات الثورية في الجبهـــة التـــي كانت محتاجة إلى الراحة. وفي هذه الروح بالضبط، كما رأينا أعلاه، أصدر سوفييت ريفال قراره.

وعالج الجنود المسألة بصورة مباشرة أكثر. فقد كان الذهاب إلى الجبهة الآن، وفي آخر فصل الخريف، والالتزام بحملة شتاء جديدة عبارة عن فكرة لا تروق لهم. وفتحت الصحافة الوطنية النار فورًا على الحامية: إن أفواج بتروغراد، التي ســـمنت في البطالة، تخون الجبهة مرة أخرى. وتوسط العمال لصالح الجنود. وكان عمال مصانع بوتيلوف أول من احتج على انسحاب الأفواج من بتروغراد. وبقيت المسألة على جدول الأعمال لا في الثكنات فحسب، بل في المصانع. وقد ربطت هـــذه المـــسألة قسمي السوفييت، بصورة وثيقة. ومنذ ذلك الوقت دعت الأفواج بحرارة خاصة مطالبة العمال بالسلاح.

واقترح **التوفيقيون** على مجلس السوفييت بتاريخ ٩ أكتوبر (تشرين الأول) **إنشاء "لجنة دفاع ثوري"**، وهـــم يحـــاولون استثارة وطنية الجماهير، ملوحين لها بسقوط بتروغراد، على أن تكون مهمة هذه اللجنة المشاركة في الدفاع عن العاصمة مـــع الدعم الفعَّال للعمال. ومع ذلك لم يسارع مجلس السوفييت أبدًا إلى إصدار حكم على جوهر هذه المسألة، لأنه رفـــض أن يأخـــذ على عاتقه مسئولية "الإستراتيجية المزعومة للحكومة المؤقتة، ومسئولية إجلاء قطعات بتروغراد بصورة خاصة"، ولكنه قـــرر أن يتحقق من دوافعها وأسبابها. وحاول المناشفة الاحتجاج قائلين: ليس من المقبول التدخل بـــالأوامر التـــي تعطيهـــا القيـــادة لعملياتها. ولكنهم قالوا الشيء نفسه عن أوامر المتآمر كورنيلوف قبل ستة أسابيع بالضبط، وقد ذكَّرهم بعض أعضاء المجلـــس بموقفهم هذا. وقد وجدوا أنفسهم بأمس الحاجة إلى جهاز مسئول للتحقق مما إذا كان إجلاء الأفـــواج قـــد أملتـــه الاعتبـــارات العسكرية أم السياسية. و**تبنى البلاشفة فكرة "لجنة للدفاع"**، وذهل التوفيقيون من موقف التأييد الذي اتخذه البلاشـــفة إزاءهـــا؛ فستركز هذه اللجنة بين يديها كل المعطيات المتعلقة بالدفاع عن العاصمة. وكانت خطوة هامة. واحتفظ مجلس السوفييت لنفسه حسب الظروف بإمكانية تغيير قرار إرسال القطعات إلى الجبهة في اتجاه أو في اتجاه آخر. وانتزع بهذا الـــشكل مـــن أيـــدي خصومه سلاحًا خطرًا، ولكن كان هذا السلاح على كل حال، ضد الحكومة والتوفيقيين.

واستولى البلاشفة بصورة طبيعية على المشروع المنشفي لإنشاء لجنة عسكرية. وخاصة وأنهم كانوا قـــد تحـــدثوا فـــي صفوفهم الخاصة أكثر من مرة حول ضرورة تشكيل جهاز سوفييتي مسئول يقود الانتفاضة المقبلة. حتى أن التنظيم العـــسكري التابع للحزب وضع مشروعًا لهذا الغرض. وكانت الصعوبة التي لم يستطيعوا التغلب عليها حتى ذلك الوقت هي تعاون جهـــاز الانتفاضة مع السوفييت المنتخب والعامل بصورة مكشوفة؛ حيث يوجد أيضًا ممثلون للأحزاب المعاديـــة. وجـــاءت **المبـــادرة**

الوطنية للمنشافة في وقتها الملائم كيما تسهل **إنشاء هيئة أركان ثورية، سميت فورًا "اللجنة العسكرية الثورية"** وأصبحت الرافعة الرئيسية للانتفاضة.

وبعد وقوع الأحداث المذكورة هنا بسنتين، كتب مؤلف هذا الكتاب في مقال مكرس لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) ما يلي: "بعد أن نُقل أمر إجلاء القوات من هيئة أركان المنطقة إلى اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد... أصبح واضحًا أن هذه المسألة، ستتخذ أهمية سياسية حاسمة في تطورها المقبل". وبدأت فكرة الانتفاضة فورًا بالتكوُّن. ولم يكونوا بحاجة إلى اختراع جهاز سوفييتي. وقد أشير إلى المهمة الفعلية للجنة المقبلة بطريقة لا تقبل الالتباس عندما اختتم تروتسكي تقريره في الجلسة نفسها بالنداء التالي: "عاش الكفاح المباشر والصريح من أجل السلطة الثورية في البلاد!"، وكان هذا النداء يترجم في لغة الشرعية السوفييتية الأمر اليومي التالي: "عاشت الانتفاضة المسلحة!".

وفي اليوم التالي، بتاريخ ١٠، تبنت اللجنة المركزية للبلاشفة في جلسة سرية اقتراح لينين الذي يجعل من الانتفاضة المسلحة المهمة العملية للأيام القريبة. وتبنى الحزب بعد ذلك موقفًا قتاليًا واضحًا وإلزاميًا. ودخلت لجنة الدفاع في احتمال المعركة المباشرة من أجل الاستيلاء على السلطة.

وأحاطت الحكومة وحلفاؤها الحامية بدوائر متحدة المركز. وبتاريخ ١١، نقل الجنرال تشيريميسوف قائد الجبهة الشمالية إلى وزير الحربية طلبًا تقدمت به لجان الجيش يطالب بإرسال قوات المؤخرة وقوات بتروغراد إلى الجبهة لتبديل القوات المتعبة فيها. ولم تكن هيئة أركان الجبهة، في هذه الحالة، سوى مصلحة إشارة بين التوفيقيين في الجيش وزعمائهم في بتروغراد الذين كانوا يحاولون جاهدين تمويه خطط كرنسكي بصورة شاملة. ورافقت صحافة الائتلاف عملية التطويق بمعزوفة الوطنية المسعورة. ومع ذلك برهنت الاجتماعات اليومية للأفواج والمصانع على أن موسيقى الزعماء لم تحدث لدى القواعد أقل انطباع. وبتاريخ ١٢ رد المؤتمر العام لعمال أكثر مصانع العاصمة ثورية (ستاري – بارفيينن) على هجمات الصحافة البرجوازية المستمرة: "نؤكد بحزم أننا سننزل إلى الشارع عندما نرى أن الضرورة تحتم ذلك. إننا لا نخشى المعركة التي تعلن عن قرب نشوبها، ونؤمن بحزم أننا سنخرج منها منتصرين".

وحددت اللجنة التنفيذية لبتروغراد عندما شكلت اللجنة الفرعية لوضع الأنظمة الأساسية "للجنة الدفاع"، حددت للجهاز العسكري الجديد المهام التالية: الاتصال مع الجبهة الشمالية، ومع أركان منطقة بتروغراد، ومع سوفييت التنظيم المركزي لأسطول البلطيق (تسنتروبالت)، والسوفييت الإقليمي لفنلندا لتوضيح الوضع الحربي واتخاذ الإجراءات الضرورية، والقيام بإحصاء تعداد حامية بتروغراد والمناطق المجاورة لها، وجرد كميات الذخائر والتموين، واتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على الانضباط وسط جماهير الجنود والعمال. وكانت الصيغ عامة جدًا ومبهمة في الوقت ذاته، وكانت تقع كلها تقريبًا على الحد بين الدفاع عن العاصمة والانتفاضة المسلحة. ومع ذلك، اقتربت الآن هاتان المعضلتان، التي تستبعد كل منهما الأخرى، اقتربنا في الواقع، بعد أن استلم السوفييت السلطة بيديه، أصبح لِزامًا عليه أن يتكفل بالدفاع العسكري عن بتروغراد أيضًا. ولم يدخل عنصر تمويه الدفاع بإيحاء من الخارج، ولكنه نجم إلى حد ما من مقتضيات إعداد الانتفاضة.

ولم يوضع على رأس اللجنة الفرعية المكلفة بوضع الأنظمة الداخلية للجنة، رئيس بلشفي، وذلك في سبيل إجراء التمويه ذاته، بل وضع على رأسها الاشتراكي – الثوري لازيمير، وهو موظف شاب بسيط يعمل في المحاسبة. وكان لازيمير واحدًا من هؤلاء الاشتراكيين – الثوريين اليساريين الذين ساروا مع البلاشفة بصدق، منذ ما قبل الانتفاضة، دون أن يتوقعوا، وأيم الحق، إلى أين ستقودهم هذه المسيرة. وعرض المشروع الأولي للازيمير على تروتسكي لكي يصوغه في اتجاهين: تحددت المهام العملية لاكتساب الحامية، ورسمت المسيرة إلى الهدف الثوري العام بالتدريج... وصدق المشروع من قبل اللجنة التنفيذية

برغم اعتراضات اثنين من المناشفة. وأدخل المشروع في اللجنة العسكرية الثورية، كلا من مكاتب السوفييت، وفرع الجنود وممثلين عن الأسطول، وممثلين عن اللجنة الإقليمية لفنلندا، وعن نقابة السكك الحديدية، ولجان المصانع، والنقابات بصورة عامة، وممثلين عن التنظيمات العسكرية للحزب، ولجان المصانع، والنقابات بصورة عامة، وممثلين عن التنظيمات العسكرية للحزب، والحرس الأحمر، ...إلخ، وكانت القاعدة التنظيمية هي نفس القاعدة المتبعة في الحالات الأخرى. ولكن تأليف اللجنة كان محددًا بصورة مسبقة بمهامها الجديدة. وكان من المفترض أن تُرسل التنظيمات ممثلين مسئولين في المسائل العسكرية أو ممثلين على صلة بالحامية. وكانت المهمة تملي عملية تحديد الجهاز.

وكان هناك تشكيل جديد لا يقل أهمية عن هذا التشكيل؛ فقد أنشئ بالقرب من اللجنة العسكرية الثورية مجلس دائم للحامية. وكان فرع الجنود يمثل الحامية من وجهة النظر السياسية؛ إذ انتُخب المندوبون تحت علم الأحزاب. ولكن كان من الواجب أن يتألف مجلس الحامية من لجان الأفواج، التي كانت تشكل تمثيلها "الحرفي" والعملي، والمباشر نظرًا لأنها تدير الحياة اليومية لقطعاتها، وفرض التجانس بين لجان الأفواج والمصانع نفسها. وكان بوسع البلاشفة الاعتماد على العمال بثقة في المسائل السياسية الكبرى بواسطة فرع عمال السوفييت، ولكن كان من الضروري قيادة لجان المصنع للسيطرة في المصانع. وكان تركيب فرع الجنود، يضمن للبلاشفة التعاطف السياسي لغالبية الحامية. ومع ذلك كان من الواجب الاعتماد مباشرة على لجان الفوج للتصرف بالقطعات عمليًا. وهذا ما يفسر، لماذا أخذ مؤتمر الحامية مكانة هامة، في الفترة التي سبقت الانتفاضة واستبعد بالطبع فرع الجنود. وكان أشهر المندوبين من ناحية أخرى يشكلون جزءًا من المؤتمر.

وقام لينين بالتحذير والنصح في مقال كتبه قبل أيام تحت عنوان: الأزمة ناضجة، قال فيه: "ماذا فعل الحزب لدراسة مواقف القطعات؟ ...إلخ"، وبرغم العمل المتجرد للتنظيم العسكري، كانت ملاحظة لينين صحيحة. فقد كانت دراسة القوات والوسائل، من وجهة نظر عسكرية صرفة تنجح بصعوبة في أوساط الحزب؛ فلم يكن الحزب معتادًا على هذه الدراسة، ولا يعرف كيف يعالجها. وتعدل الوضع فجأة اعتبارًا من اللحظة التي ظهر فيها مجلس الحامية على المسرح، ومنذ ذلك الوقت، مرت تحت أنظار الزعماء، ومن يوم إلى يوم، صورة الحاميات. ولم تكن الصورة خاصة بحامية العاصمة فحسب، بل بحاميات المناطق العسكرية المجاورة أيضًا.

وبتاريخ ١٢، فحصت اللجنة التنفيذية التدابير التي وضعتها لجنة لازيمير الفرعية. ورغم السرية كان للمناقشات طابع مبهم إلى حد كبير. وقد كتب سوخانوف وأصاب دون قصد: "كنا نقول شيئًا ونسمع الآن شيئًا آخر". فقد كانت التدابير المتخذة تعد على مقربة من لجنة أقسام الدفاع، والتموين، والاتصال، والمعلومات، ...إلخ؛ كانت هيئة أركان، أو هيئة أركان مضادة. وكان الهدف المؤكد للمجلس هو رفع القدرات القتالية للحامية. ولم يكن في هذا أي خطأ. ولكن من الممكن تطبيق القدرة القتالية بصورة مختلفة. ولاحظ المناشفة، بسخط عاجز أن الفكرة التي طرحوها بهدف وطني قد تحولت إلى تمويه للانتفاضة التي تُجهز. وكان التمويه شيئًا لا يمكن اختراقه، وفهم الجميع الهدف من ذلك. ولكنه بقي هدفًا لا يمكن التغلب عليه في الوقت نفسه، وقد عمل التوفيقيون أنفسهم بالضبط بهذا الشكل عندما جمعوا الحامية حولهم، في اللحظات الحرجة، وأنشأوا أجهزة للسلطة موازية للأجهزة الحكومية. وكان من الواضح أن البلاشفة يتابعون فقط تقاليد ازدواجية السلطات. ولكنهم كانوا يسكبون محتوى جديدًا في القوالب القديمة. وإن ما خدم التوفيقية في السابق يؤدي الآن إلى الحرب الأهلية. وطالب المناشفة أن يسجل في محضر الجلسة أنهم يعارضون المشروع بمجموعه. وأخذ الحاضرون هذا الطلب الأفلاطوني بعين الاعتبار.

وفي اليوم التالي نوقشت مسألة اللجنة العسكرية الثورية ومؤتمر الحامية، في فرع الجنود الذي كان يشكل من وقت قصير حرس التوفيقيين. واحتل قانونًا رئيس التسنتروبالت البحار ديبينكو، وهو عملاق ذو لحية سوداء، لم يعتد مضغ الكلمات، احتل المكان الرئيسي في هذه الجلسة الرائعة إلى حد كبير. ومر خطاب ضيف هلسنغفورز كتيار هواء بحري بارد قارس،

وسط المناخ الثقيل للحامية. وتحدث ديبنكو عن قطع علاقات الأسطول بالحكومة بصورة نهائية، والعلاقات الجديدة مع القيادة. وكان الأميرال قد طلب في مؤتمر البحارة الذي انعقد في هذه الأيام قبل بدء العمليات البحرية الأخيرة، ما إذا كان البحارة سينفذون أوامر القتال. "وأجبنا: سننفذها شريطة أن تكون هناك رقابة من قبلنا ولكن... إذا رأينا أن الأسطول يتعرض لخطر الضياع، فإن الأميرال سيكون أول مشنوق على عارضة الصاري الكبير". وكان هذا الجواب لغة جديدة لحامية بتروغراد. وقد طبقت هذه اللغة في الأسطول منذ عدة أيام فقط. وكانت هذه اللغة لغة الانتفاضة. وكانت المجموعة الصغيرة من المناشفة، مذهولة تزمجر في ركنها. ونظر المكتب بعين الاعتبار المشوب بالقلق إلى تلاحم جمهرة المعاطف الرمادية. فلم يصدر من صفوفهم أي صوت من أصوات الاحتجاج! وكانت العيون تقدح في وجوه حانقة. وسادت المجلس روح الإقدام. وقد صرح ديبنكو، الذي رفعت حماسته الموافقة العامة، بثقة واطمئنان في ختام الجلسة قائلاً: "يتحدثون عن ضرورة زحف حامية بتروغراد للدفاع عن مشارف العاصمة، وعن ريفال، جزئيًّا. لا تؤمنون بهذا. سندافع نحن عن ريفال بأنفسنا. ابقوا هنا وادافعوا عن مصالح الثورة... وعندما نحتاج إلى دعمكم سنطلب هذا الدعم بأنفسنا. وإنني واثق بأنكم ستدعموننا". وأثار هذا النداء، الذي كان أفضل النداءات للدخول في عقول الجنود، عاصفة من الحماس الحقيقي غرقت وسطها نهائيًّا احتجاجات بعض المناشفة. وحُسمت مسألة جلاء الجند عن بتروغراد منذ ذلك الوقت بشكل نهائي.

وتبنت أكثرية مؤلفة من ٢٨٣ عضوًا ضد عضو واحد وامتناع ٢٣ عضوًا عن التصويت مشروع التدابير الذي قدمه لازيمير... وأعطت هذه الأرقام التي لم يكن البلاشفة أنفسهم يتوقعونها صفة ضغط ثوري للجماهير. وكان التصويت يعني أن فرع الجنود نقل رسميًّا وبصراحة قيادة الحامية المنتزعة من هيئة الأركان الحكومية إلى أيدي اللجنة العسكرية الثورية. وقد تأكد فيما بعد أن هذا العمل لم يكن مجرد تظاهرة فحسب.

وفي اليوم ذاته نشرته اللجنة التنفيذية لسوفييتات بتروغراد خبرًا يعلن إنشاء فرع خاص بالحرس الأحمر إلى جانبها. وظهرت **مسألة تسليح العمال**، التي أحبطت في ظل نظام التوفيقيين، وأصبحت سببًا للاضطهاد والملاحقة، ظهرت هذه المسألة كواحدة من أهم المسائل المطروحة أمام السوفييت البلشفي. وطُوي موقف الجنود الحافل بالشكوك إزاء الحرس الأحمر، وضاع منذ وقت طويل في سجل النسيان. وأصبحت كل قرارات الأفواج تقريبًا تطالب على العكس بتسليح العمال. وبعد هذا وقف الحرس الأحمر وجنود الحامية معًا جنبًا إلى جنب. وسيزداد ارتباطهم فورًا بعد تبعيتهم معًا للجنة العسكرية الثورية.

وقلقت الحكومة. وفي صباح ١٤ انعقد اجتماع وزاري في مكتب كرنسكي تمت فيه الموافقة على التدابير التي اتخذتها هيئة الأركان ضد "التظاهرة" التي تحضر. وبدأ أسياد السلطة بالتخمين: هل تقتصر المسألة في هذه المرة على مظاهرة مسلحة أم تتحول إلى عصيان؟ وصرح قائد فرع الجنود لممثلي الصحافة: "نحن مستعدون في كل الحالات". إن المحكومين بالإعدام يحسون أحيانًا بفيض من القوى في عشية تنفيذ حكم الإعدام بهم.

وطالب دان في الجلسة الموحدة للجان التنفيذية، بعد أن استعار الألحان التي استخدمها تسيريتلي في يونيو (حزيران)، والذي التجأ إلى القفقاس، طالب دان البلاشفة بالرد على السؤال التالي: هل يفكرون بالزحف، وإذا كانوا يفكرون بذلك، فمتى سيتم هذا الزحف؟ واستخلص المنشفي بوغدانوف الاستنتاج الذي يفتقر إلى أساس من رَدِّ ريازانوف وهو أن البلاشفة يعدون الانتفاضة، وسيكونون على رأس الثوار. وكتبت صحيفة المناشفة ما يلي: "لقد استندت حسابات البلاشفة لاستلام السلطة في المستقبل على عدم جلاء الحامية". ولكن استلام السلطة كان هنا موضوعًا بين قوسين: فما زال التوفيقيون لا يؤمنون بالخطر بصورة جدية. وكانوا يخشون انتصار البلاشفة أقل من خوفهم من انتصار الثورة المضادة كنتيجة للمصادمات الجدية للحرب الأهلية.

وكان من واجب السوفييت أن يشق لنفسه الطريق إلى مستودعات السلاح، بعد أن كلف نفسه بتسليح العمال. ولكن هذا لم يتم دفعة واحدة. فقد كانت الجماهير هي التي توحي بكل خطوة عملية إلى أمام. وكان من الواجب فقط أخذ اقتراحاتها بعين الاعتبار، والنظر إليها بكل يقظة وبعد أربع سنوات من الأحداث، روى تروتسكي في سهرة مكرسة لرواية ذكريات ثورة أكتوبر (تشرين الأول) ما يلي: "عندما أتى وفد من العمال ليقول لنا بأنه يحتاج للسلاح رددت عليه بما يلي: "ليست الترسانة تحت سيطرتنا". فرد الوفد قائلاً: "لقد ذهبنا إلى مصنع السلاح في سترورتسك". فسألتهم "حسنًا وماذا حدث بعد ذلك؟"، فأضافوا قائلين: "قيل لنا هناك: إذا تلقينا أمرًا من السوفييت، فإننا سنعطيكم السلاح". فأعطيت أمرًا بتسليم ٥,٠٠٠ بندقية استلمها العمال في اليوم ذاته. وكانت أول تجربة". وهاجت صحافة الخصوم وماجت فورًا بسبب تسليم مصنع حكومي السلاح للعمال بأمر فرد متهم بالخيانة العظمى، وأُخلي سبيله بكفالة. وسكتت الحكومة. وظهر على المسرح عندئذ الجهاز الأعلى للديمقراطية، وأصدر قرارًا صارمًا: عدم تسليم السلاح لأي إنسان دون إذن منه، أي إذن من اللجنة التنفيذية المركزية. وبدا أن دان أو غوتز لا يملك أي واحد منهما سلطة كبرى لمنع تسليم السلاح، مثلهما مثل تروتسكي الذي لا يملك سلطة الأمر بتسليم السلاح: فقد كانت المصانع وترسانات الأسلحة من اختصاصات الحكومة. ولكن تجاهل السلطات الحكومية في كل اللحظات الهامة يشكل تقليد اللجنة التنفيذية المركزية، وقد تأصل هذا التجاهل في عادات الحكومة نفسها، لأن ذلك يتجاوب مع طبيعة الأشياء. ومع ذلك جاءت المخالفة المرتكبة للأعراف والعادات من ناحية أخرى: كان العمال والجنود الذين توقفوا عن التمييز بين رعد اللجنة التنفيذية المركزية وبرق كرنسكي، لا يتذكرون هذا أو ذاك.

وكان من الأنسب المطالبة بجلاء الأفواج عن بتروغراد باسم الجبهة، بدلاً من المطالبة بذلك باسم مكاتب المؤخرة. وألحق كرنسكي، منطلقًا من هذه الاعتبارات حامية بتروغراد بالقائد العام لجبهة الشمال تشيريميسوف. وكان كرنسكي يتملق ذاته بإخضاع بتروغراد كقائد عام، بعد أن تنازل عن سلطته على العاصمة من الناحية العسكرية. وبحث الجنرال تشيريميسوف الذي سيتولى فيما بعد مهمة جسيمة عن العون لدى المفوضين وأعضاء اللجان. ووضعت خطة العمليات المقبلة بجهود مشتركة. وبتاريخ ١٧، استدعت هيئة أركان الجبهة، بالاتفاق مع تنظيمات الجيش ممثلي سوفييت بتروغراد إلى بسكوف، لتعبر لهم عن إرادتها المباشرة على أرض الخط الأول.

ولم يبق لسوفييت بتروغراد شيء آخر يعمله غير قبول التحدي. وكان على رأس الوفد المؤلف من بضع عشرات من الرجال والذي شُكل خلال جلسة يوم ١٦، والذي يتألف نصفه تقريبًا من أعضاء السوفييت كما يتألف نصفه الآخر من ممثلي الأفواج، كان على رأس هذا الوفد فيدروروف رئيس فرع العمال وزعماء فرع الجنود والتنظيم العسكري للبلاشفة، لاشوفيتش، وسادوفسكي، وميخونوشين، وداشكيفيتش وآخرون. وتعهد عدد من الاشتراكيين - الثوريين اليساريين والمناشفة الأمميين، المنضمين إلى الوفد بالدفاع عن سياسة السوفييت في بسكوف وتبنوا في مؤتمر الوفد، قبل ذهابهم مشروع بيان أعده سفردلوف.

وحدث نقاش حول وضع اللجنة العسكرية الثورية خلال جلسة السوفييت ذاتها. فما أن تم تشكيل هذه اللجنة حتى اتخذت يومًا بعد يوم مظهرًا مقيتًا في نظر الخصوم. وقد صاح خطيب من المعارضة قائلاً: "إن البلاشفة لا يعطون أي رد على هذا السؤال المباشر: هل يعدون انتفاضة؟ إن عدم إجابتهم يدل على الجبن أو على الافتقار إلى الثقة بقواهم الخاصة" وانفجر الضحك في المجلس، وأخذ الجميع يضحكون ويعلقون: إن ممثل حزب الحكومة يطلب من حزب الانتفاضة أن يفتح له صدره. وأضاف الخطيب قائلاً: ليست اللجنة الجديدة شيئًا آخر سوى "هيئة أركان ثورية لاستلام السلطة". أما المناشفة فلم يدخلوا فيها. وصاح البعض في القاعة موجهين كلامهم إلى المناشفة: "كم عددكم؟". والحقيقة أن عدد المناشفة في مجلس السوفييت قليل جدًا، ولا يتجاوز خمسين عضوًا على الأكثر، ولكنهم يعرفون بصورة أكيدة بأن "الجماهير لا تقر الانتفاضة أبدًا". ولم ينكر تروتسكي في رده أبدًا أن البلاشفة يتأهبون للاستيلاء على السلطة: "إننا لن نجعل من ذلك سرًا". ولكننا لا نستهدف هذا في الوقت

الحاضر. لقد طالبت الحكومة بجلاء القطعات الثورية عن بتروغراد. "وكان علينا أن نقول: نعم أم لا". وصدق على مشروع لازيمير بأكثرية ساحقة. ودعا الرئيس اللجنة العسكرية الثورية إلى البدء بالعمل اعتبارًا من الغد. وهكذا تمت خطوة جديدة أيضًا.

وقدم بولكوفنيكوف قائد المنطقة العسكرية تقريرًا للحكومة في هذا اليوم عن الانتفاضة التي يعدها البلاشفة. وقد صيغ التقرير بعبارات متغطرسة: إن الحامية بمجموعها إلى جانب الحكومة، وقد تلقت مدارس اليونكرز الأمر بالاستعداد. ووعد بولكوفنيكوف في بيان وجَّهه إلى الشعب بتطبيق "أشد التدابير" عند الحاجة. وكان شرايدر عمدة المدينة، وهو اشتراكي - ثوري يتوسل من جهة "بعدم التسبب في الفوضى خوفًا من تعريض العاصمة للمجاعة". وارتفعت لهجة الصحافة إلى أعلى الأنغام وأقواها وهي تهدد وتتضرع، وتتحذلق، وتغرق في الضلال.

وقد أعد استعراض عسكري من نوع مسرحي لأحداث تأثير معنوي على مندوبي سوفييت بتروغراد في بسكوف. وجلس السادة الجنرالات وكبار المفوضين وعلى رأسهم فويتنسكي، وممثلو لجان الجيش حول موائد مغطاة بخرائط مهيبة في مبنى الأركان. وقرأ رؤساء إدارات هيئات الأركان تقارير عن وضع القوات المسلحة البرية والبحرية. وكانت استنتاجات واضعي التقارير تلتقي في نقطة واحدة وهي أنه من الضروري تسيير حامية بتروغراد للدفاع عن مشارف العاصمة. واستنكر المفوضون وأعضاء اللجان بسخط الشكوك التي أثيرت حول سياسة الكواليس: أملت الضرورات الإستراتيجية كل العملية. ولم يكن المندوبون يملكون الأدلة المباشرة على عكس ما يقال: فالأدلة في مثل هذه الأمور لا تجوب الشوارع. ولكن الوضع كله يكذِّب المبررات الإستراتيجية. فالجبهة لا تفتقر إلى الرجال، ولكن الرجال لا يريدون أن يقاتلوا. ولم يكن المناخ الفكري لحامية بتروغراد ليسمح لها بتعزيز الجبهة المتصدعة. وعلاوة على ذلك ما زالت دروس الأيام الكورنيلوفية محفورة في ذاكرة الجميع. وصمد الوفد بسهولة أمام هجوم هيئة الأركان لاقتناعه العميق بأنه على حق. وعاد إلى بتروغراد موحد الرأي أكثر مما كان عندما ذهب.

إن المؤرخ يملك الآن تحت تصرفه الأدلة القاطعة لتي كان المشتركون يفتقرون إليها في ذلك الوقت وتبرهن المراسلات العسكرية السرية على أن الجبهة لم تطالب بأفواج بتروغراد، وأن كرنسكي فرض هذه الفكرة على الجبهة. وقد رد القائد العام للجبهة الشمالية هاتفيًّا على برقية وصلته من وزير الحربية: "سري، ١٧ X إن المبادرة بإرسال قطعات حامية بتروغراد إلى الجبهة قد جاء منكم لا مني... وعندما أصبح واضحًا أن قوات حامية بتروغراد لا تريد الذهاب إلى الجبهة، أي أنها غير قادرة على القتال، قلت في حديث خاص لضابط كان يمثلكم... إن لدينا ما يكفي من القوات المماثلة في الجبهة. ولكن نظرًا لرغبتكم بإرسالها إلى الجبهة لم أرفض، ولن أرفض أيضًا استقبالها إذا ما تابعتم على الاعتقاد بضرورة جلاء هذه القطعات عن بتروغراد". وتفسر لهجة البرقية، التي تشبه نصف مناقشة بأن تشيريميسوف، وهو جنرال ميَّال إلى الإستراتيجية العليا، والذي كان يعتبر في جيش القيصر جنرالاً "أحمر"، والذي أصبح فيما بعد، حسب تعبير ميليوكوف "الرجل الأثير لدى الديمقراطية الثورية" قد توصل إلى الاستنتاج بأنه من الأفضل له أن ينفصل عن الحكومة في نزاعها مع البلاشفة في الوقت الملائم. ويؤكد سلوك تشيريميسوف خلال أيام الانتفاضة هذا الإيضاح.

وتعقدت المعركة من أجل حامية بتروغراد بمعركة أخرى من أجل مؤتمر السوفييتات. ولم يبق أمام التاريخ الذي حدد للمؤتمر مسبقًا سوى أربعة أيام أو خمسة. وكانت "الانتفاضة" متوقعة بمناسبة المؤتمر. وكان من المفترض أن تتطور الحركة كما تطورت خلال أيام يوليو (تموز) حسب نموذج تظاهرة مسلحة للجماهير مع قتال في الشوارع. واعتمد بوتريسوف المنشفي اليميني، على معلومات مكافحة التجسس أو على البعثة العسكرية الفرنسية التي كانت تختلق الأخبار المزورة بوقاحة جريئة، وكتب مقالاً شرح فيه خطة الانتفاضة البلشفية التي ستتم في ليلة ١٦ – ١٧ أكتوبر (تشرين الأول) ونشره في الصحافة

البرجوازية. ولم ينس المؤلفون المختلفون لقصة الانتفاضة أن يتوقعوا بأن البلاشفة سيجرون معهم، في أحد أبواب المدينة "العصابات المتخصصة بالنهب". وأن جنود أفواج الحرس يعرفون كيف يضحكون كما تضحك آلهة هوميروس. ويبدو أن الأعمدة البيضاء وثريات معهد سمولني قد اضطربت بسبب ضحكات الهزء والسخرية التي انفجرت عندما قرئت مقالة بوتريسوف في جلسة السوفييت. وقد أفزع الخبر المختلق السخيف الحكومة العاقلة، التي كانت تعرف بصورة جيدة كيف تتجاهل ما يجري تحت أنظارها، فعقدت اجتماعًا عاجلاً، في الساعة الثانية صباحًا لكي تدحر "عصابات اللصوص". واتخذت الإجراءات الضرورية بعد أن أجرى كرنسكي استشارات جديدة مع السلطات العسكرية؛ استُدعيت مدرستان للملازمين من أورانينبوم، كما استُدعي قطار مدرع من الجبهة الرومانية. وطبقًا لرواية ميليوكوف: "وفي الدقيقة الأخيرة ألغى البلاشفة تحضيراتهم. فلماذا تصرفوا بهذا الشكل، إن الأمر غير واضح". وقد فضل المؤرخ العالم بعد عدة سنوات من الأحداث تصديق خبر مختلق يكذب ذاته بنفسه.

وكلفت السلطات المليشيا باستطلاع أرباض المدينة لتلمس آثار الاستعدادات للانتفاضة. وقدمت تقارير المليشيا مزيجًا من الملاحظات الحية والسخافات البوليسية. ولاحظ المراقبون في حي الكسندر - نييفسكي؛ حيث يقوم عدد وافر من المصانع الكبرى هدوءًا شاملاً. وكانت ضرورة قلب الحكومة معلنة بصورة صريحة في حي فيبورغ ولكن "الهدوء يسود كل المظاهر الخارجية. وفي حي فاسيلي - اوستروف ساد الهياج والسخط والحنق. ولكن لم يلاحظ هنا أيضًا علامات خارجية على وجود انتفاضة مقبلة". وقد نُظمت حملة شديدة في حي نارفا لصالح الانتفاضة. ولكن لا يمكن الحصول على رد من أحد على السؤال التالي: متى ستقع الانتفاضة بالضبط؟ فإما أن اليوم والساعة قد حفظا تحت خاتم سرية مطلقة، أو أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن هذا. وتقرر تعزيز الدوريات على مشارف الضواحي، وأوعز إلى مفوضي المليشيا القيام بتفتيش المخافر عدة مرات.

ويكمل تقرير مراسل الصحيفة الموسكوفية الليبرالية تقرير المليشيا إلى حد ما: "كان تحريض البلاشفة من أجل الانتفاضة في ذروة مدة في الأحياء، وفي مصانع بتروغراد، ونييفسكي، وأوبوخوف وبوتيلوف. والمناخ الفكري للعمال متوتر لدرجة الاستعداد للتحرك في أية لحظة. ويلاحظ في هذه الأيام الأخيرة في بتروغراد مدّ من المجندين الفارين لم يسمع به من قبل... وفي محطة وارسو لا يمكن التخلص من الجموع الغفيرة من الجنود، الذين تبدو عليهم الريبة وتقدح عيونهم بالشر، ويبدون ثائرين... ولدينا معلومات عن وصول عصابات حقيقية من اللصوص الذين يتحينون الفرصة للقيام بضربة قوية. وتنتظم عصابات النشالين والنهابين، وتمتلئ بهم المقاهي والمواخير....". ويتشابك هنا فزع البورجوازي الصغير وقصص البوليس السخيفة مع الحقيقة القاسية. وبلغت الأزمة الثورية التي اقتربت من نهايتها الأبعاد الاجتماعية الداخلية حتى الأعماق. وقد انتفض الفارون، وعصابات اللصوص، والمواخير، انتفضوا بالفعل مع هدير الزلزال الذي كان يقترب وكانت قمم المجتمع تنظر إلى القوى المنفلتة من عقالها، ومن رذائلها وقرحها، بفزع طبيعي. إن الثورة لم تخلقها، بل عرّتها فقط.

وقد كتب البارون بودبرغ من هيئة أركان الفيلق المتمركز في دفينسك، وهو البارون الذي عرفناه، رجعيًّا لاذع الكلمات، والذي لا يخلو من موهبة الملاحظة، والذكاء الغريب الحاذق، كتب قائلاً: "إن الكاديت وأشباه الكاديت، والأكتوبريين والثوريين على مختلف أجناسهم، والتشكيلات القديمة، وتشكيلات مارس (آذار) تحس باقتراب نهايتها، وتتكهن بالمستقبل على قدر استطاعتها وتذكرنا بالمسلمين الذين يحاولون منع خسوف القمر بقرع أدوات موسيقية خشبية بدائية".

وبتاريخ ١٨ استُدعي مؤتمر الحامية لأول مرة. وصدرت برقية تدعو الجنود إلى الامتناع عن القيام بأعمال طائشة، وإلى عدم تنفيذ أي أمر سوى الأوامر الصادرة من هيئة الأركان التي يصادق عليها فرع الجنود بتوقيعه. وحاول السوفييت، بمثل هذا الحزم، استلام الإشراف على الحامية بصورة صريحة. ولم يكن النداء الموجه شيئًا آخر سوى نداء لقلب السلطات القائمة. ولكن كان من الممكن تفسيره لو شئنا، كعمل سلمي لاستبدال التوفيقيين في آلية ازدواجية السلطات بالبلاشفة. لا يتغير

شيء في التفسير عمليًا، ولكن تفسيرًا أكثر مرونة يفسح المجال للأوهام. وقام "بريزيديوم" اللجنة التنفيذية المركزية، الذي يعتبر نفسه سيد سمولني بمحاولة لإيقاف إرسال النداء البرقي، ولم يؤد عمله إلا إلى توريطه في هذه المرة أيضًا. وانعقد مجلس ممثلي لجان أفواج وسرايا بتروغراد والضواحي في الساعة المحددة، وكان عدد أعضاء المجلس وفيرًا إلى حد كبير.

وتركزت تقارير المشتركين في مؤتمر الحامية، بفضل المناخ الذي خلقه الخصوم، على مسألة "الانتفاضة" المقبلة. وتم إحصاء لا ينسى لم يكن الزعماء ليتجرءوا أبدًا على القيام به، ببديهتهم الخاصة. وأعلن المعارضة للانتفاضة: مدرسة ملازمي بيترهوف، وفوج الخيالة التاسع. ومالت سرايا فرسان الحرس إلى الحياد. وأعلنت مدرسة ملازمي أورانيينبوم أنها لن تخضع إلا لقرار اللجنة التنفيذية المركزية. ولكن التصريحات المعادية أو المحايدة اقتصرت على هذا. وأبدت القطعات التالية استعدادها للزحف لدى أول نداء يصدر عن سوفييت بتروغراد: الأفواج إيغرسكي (القناصة)، وموسكوفي، وفولهينسكي، وبافلوفسكي، وكيكهورلمسكي، وسيمينوفسكي، وإسماعيلوفسكي وفوج الرماة الأول، والفوج الاحتياطي الثالث، والفوج الثاني من بحارة البلطيق، وكتيبة الهندسة (الكهربائيين)، وفرقة مدفعية الحرس. وأعلن فوج نخبة الحرس أنه لن يتحرك من ثكنته إلا بناء على دعوة مؤتمر السوفييتات؛ وهذا يكفي. وقد قررت قوات أخرى أقل أهمية أنها ستتبع الأكثرية. ووجد ممثلو اللجنة التنفيذية المركزية، هذه اللجنة التي ما زالت تعتبر حامية بتروغراد من وقت قصير مصدر قوتها، وكان لاعتبارها هذا أسبابه، وجد هؤلاء الممثلين أنفسهم هذه المرة يرفضون الكلام في شبه أجماع تقريبًا. وغادروا المجلس "الذي لا يتمتع بسلطات قانونية". في حالة من الهياج العاجز، وأكد المجلس بناء على اقتراح الرئيس ما يلي: يعتبر كل أمر صادر لا يوقف مجلس السوفييت أمرًا باطلاً.

وكان ما يعد في ضمير أفراد الحامية خلال الشهور الأخيرة، وفي الأسابيع الأخيرة بصورة خاصة يتبلور الآن. ووجدت الحكومة نفسها عاجزة أكثر مما كان متوقعًا. وفي حين كانت المدينة مليئة بالإشاعات عن الانتفاضة والقتال الدموي، حوّل مؤتمر لجان الأفواج، الذي برز فيه التفوق البلشفي الساحق، التظاهرات ومعارك الجماهير إلى أشياء لا جدوى منها. وكانت الحامية تسير بثقة إلى العصيان، ولا تعتبره انتفاضة بل تعتبره تحقيقًا لحق السوفييتات الذي لا يحتمل النقض بالتصرف في مصير البلاد. وكانت هذه الحركة تملك قوة لا تقاوم، ولكنها كانت بطيئة في الوقت ذاته. وكان الحزب محتاجًا لتدبر أعماله بحذق مع الخطوة السياسية للأفواج التي كانت تنتظر أكثريتها نداء من جانب السوفييت، كما كان ينتظر بعضها نداء من مؤتمر السوفييتات.

وكان من الضروري الرد على سؤال يحدث الاضطراب لا في صفوف الأعداء فحسب، بل يحرك الأصدقاء أيضًا، لإبعاد خطر اضطراب في تطور الهجوم حتى ولو كان هذا الخطر سيقع اليوم أو غدًا: هل ستنشب الانتفاضة بالفعل اليوم أو غدًا؟ إن الحديث لا يدور في القطارات وفي الشوارع، وفي المخازن إلا عن الانتفاضة المقبلة. وتقترح أرتال طويلة من الضباط على الحكومة خدماتها في ميدان القصر، وأمام قصر الشتاء، وأمام هيئة الأركان، ويتلقون المسدسات مقابل اقتراحهم بتقديم خدماتهم. وعندما حل الخطر، لم تظهر المسدسات، ولم يظهر أولئك الذين حملوها. وكُرست كل افتتاحيات الصحف اليومية لمسألة الانتفاضة. وطالب غوركي البلاشفة، إذا لم يكونوا "لعبة عاجزة بيد جمهرة متوحشة" أن يكذبوا الشائعات. وتسلل القلق من المجهول إلى الأحياء العمالية أيضًا، والأفواج بصورة خاصة. وهنا، بدأ هؤلاء البسطاء يعتقدون بأن الانتفاضة تعد بدونهم. فمن يعدها؟ لماذا سكت معهد سمولني؟ وكان الموقف المتناقض للسوفييت، كبرلمان مفتوح وكأركان ثورية يخلق في المنعطف الأخير صعوبات كبيرة. وأصبح من المستحيل السكوت مدة أطول.

وقال تروتسكي في نهاية الجلسة المسائية للسوفييت: "منذ عدة أيام والصحافة تزدحم بالأخبار، والإشاعات، والمقالات حول موضوع الانتفاضة المقبلة... وقد نشرت قرارات سوفييت بتروغراد لكي يطلع عليها الجميع. إن السوفييت مؤسسة

منتخبة... ولا تستطيع اتخاذ قرارات غير معروفة من العمال والجنود.... إني أصرح باسم السوفييت: لم تحدد أية تظاهرة مسلحة من قبلنا. ولكن إذا اضطر السوفييت، حسب سير الأحداث، إلى إصدار نداء للقيام بتظاهرة، فسيزحف العمال والجنود بإشارة منه كالرجل الواحد... لقد قيل إنني وقعت أمرًا بتسليم ٥,٠٠٠ بندقية... نعم، لقد وقعت هذا الأمر... و**سيتابع السوفييت تنظيم الحرس العمالي وتسليحه**". وفهم المندوبون أن المعركة قريبة، ولكن إشارة البدء بالمعركة لن تعطى بمعزل عنهم.

ومع ذلك كانت الجماهير بحاجة إلى بعد ثوري واضح، بصرف النظر عن التفسيرات المطمئنة. وربط كاتب هذه السطور السؤالين: جلاء الحامية ومؤتمر السوفييتات المقبل. "قد يتخذ نزاعنا مع الحكومة طابعًا خطيرًا للغاية... ولن نسمح بتجريد بتروغراد من حاميتها الثورية". وكان هذا النزاع مرتبطًا بنزاع آخر يلوح في الأفق. "إن البرجوازية تعرف أن سوفييت بتروغراد سيقترح على مؤتمر السوفييتات استلام السلطة بيديه... وأن الطبقات البرجوازية التي تتوقع نشوب المعركة الحتمية تحاول نزع سلاح بتروغراد". وقد اقترن العصيان سياسيًّا للمرة الأولى في هذا الخطاب بوضوح مطلق: أننا نتهيأ لاستلام السلطة، ونحتاج لحامية الموقع، ولن نسمح لها بأن تفلت منا. "وسنرد على أول محاولة للثورة المضادة لإلغاء المؤتمر، بهجوم معاكس عنيف سندفعه حتى نهايته". وانتهى إعلان قيام الهجوم السياسي الجريء، في هذه المرة أيضًا، بصيغة دفاع مسلح.

وظهر سوخانوف في الجلسة مع مشروع عقيم يحض فيه السوفييت على الاحتفال بالعيد الخمسيني لغوركي. ثم فسر بعد ذلك بصورة لا بأس بها لماذا ربطت الثورة بعقدة متينة في ذلك اليوم... كانت مسألة الحامية بالنسبة لسمولنيي هي مسألة الانتفاضة. أما بالنسبة للجنود، فكانت المسألة تتعلق بمصيرهم. "فمن الصعب تصور نقطة انطلاق لسياسة تلك الأيام حققت نجاحًا أكبر". بَيْد أن هذا لم يمنع سوخانوف من اعتبار سياسة البلاشفة في مجموعها كسياسة تؤدي إلى التهلكة. وكان أخشى ما يخشاه سوخانوف مع غوركي وألوف من المثقفين الراديكاليين، هو هذه الجموع التي يدعون بأنها "متوحشة"، هذه الجموع التي تطور هجومها من يوم إلى يوم وباتساق رائع.

ويملك السوفييت قوة كافية لإعلان برنامج للعصيان في الدولة بصورة صريحة، ويملك القوة أيضًا لتحديد تاريخه. وفي الوقت نفسه -وحتى اليوم وبما فيه اليوم الذي سيحدده لانتصار كامل- فإن السوفييت عاجز في كثير من المسائل الكبيرة والصغيرة. وكان كرنسكي الذي تحول إلى العدم في السياسة يملي المراسيم في قصر الشتاء حتى ذلك الوقت، في حين يعيش لينين ملهم حركة الجماهير التي لا تقاوم حياة سرية. وقد أوصى ماليانتوفيتش وزير العدل من جديد النائب العام في تلك الأيام بإصدار قرار لاعتقاله. ويبدو أن سوفييت بتروغراد القوي القادر لا يعيش في سمولني إلا على الصدقات. فإدارة المعهد، وماليته، وإدارة الأحكام والأوامر، والسيارات، والهواتف ما زالت بين أيدي اللجنة التنفيذية المركزية، هذه اللجنة التي لم تصمد إلا بفضل الخيوط الرفيعة لحق الوراثة.

وروى سوخانوف كيف ذهب في ساعة متأخرة من الليل بعد الجلسة إلى باحة معهد سمولني، وسط الظلمات الكثيفة، وتحت المطر المنهمر بغزارة. وكان جمع محتشد من المندوبين يراوح يائسًا أمام سيارتين متعفنتين ينطلق الدخان منهما، منحتهما المرائب الغنية للجنة التنفيذية المركزية للسوفييت البلشفي. وروى سوخانوف المراقب الحاضر في كل مكان: "وتقدم الرئيس تروتسكي نحو هاتين السيارتين أيضًا. ولكن عندما وقف وألقى نظرة خاطفة ضحك مستهزئًا، ثم ابتعد عن طريق برك المياه واختفى في الظلام". وعلى أرضية إحدى حافلات الترام كان سوخانوف موجودًا بحضور رجل ضئيل ذي مظهر متواضع، ولحية سوداء مدببة. وحاول المجهول تشجيع سوخانوف حتى لا يهتم ببطء حافلات الترام. وقد سأل سوخانوف راكبة بلشفية كانت ترافقه: "من هذا؟" فأجابته المواطنة البلشفية: "إنه مناضل قديم في الحزب، إنه سفردلوف". وبعد أقل من خمسة عشر يومًا، كان هذا الرجل الضئيل ذو العثنون الأسود رئيسًا للجنة التنفيذية المركزية، أعلى جهاز لجمهورية السوفييتات. ومن

المؤكد أن سفردلوف شجع رفيقه في الرحلة بشعور من الاعتراف بالجميل: فقد انعقدت قبل ثمانية أيام، في شــقة ســوخانوف، ودون علمه في الحقيقة، جلسة اللجنة المركزية للبلاشفة التي قررت تنفيذ الانتفاضة المسلحة.

وفي صباح اليوم التالي حاولت اللجنة التنفيذية المركزية توجيه الأحداث في الاتجاه الآخر. واستدعى المكتــب مجلــسًا "شرعيًا" للحامية، دعا إليه أيضًا اللجان الموجودة في المؤخرة، والتي لم تتجدد بالانتخاب منذ زمن طويــل، والتــي لــم تكــن موجودة بالأمس. ولم يؤكد التحقق التكميلي الذي تم بالانتخابات الجديدة للرأي العام الجديد الذي يسود أوساط الحاميــة ســوى لوحة الأمس بجلاء أكبر. وعارض الانتفاضة في هذه المرة: أكثرية لجان القوات التي كانت تعسكر في قلعة بطرس وبــولص، ولجان فرقة السيارات المصفحة. وصرحت هذه اللجان وتلك أنها ستتبع اللجنة التنفيذية المركزية. ومن المستحيل عدم أخذ هــذا الرأي بعين الاعتبار.

وتشرف القلعة على الجسور القريبة. وقد شيدت فوق جزيرة صغيرة يحيط بها نهر النيفا وقناته، بين مركــز المدينــة وناحيتيها. وبالمقابل تشرف القلعة من جهة النهر على مسالك قصر الشتاء، حيث تقيم الحكومة. وتستطيع القلعة المحرومة مــن كل أهمية عسكرية في العمليات الواسعة النطاق أن تكون حاسمة في قتال الشوارع. وفضلاً عن هذا، وربما كان هذا هو الأهم، ترتبط القلعة بترسانة كورنفيرك الغنية؛ إن العمال بحاجة للبنادق، ومن ناحية أخرى فإن أكثر الأفواج ثورية عزلاء تقريبًا. ولا تحتاج أهمية الآليات المصفحة في قتال الشوارع إلى تفسيرات؛ فقد تسبب السيارات المصفحة عددًا لا بأس بــه مــن الــضحايا الأبرياء، إذا ما استخدمتها الحكومة. وإذا ما سيطرت قوات الانتفاضة عليها فإن هذه السيارات المــصفحة ستختــصر طريــق النصر. وسيحتاج البلاشفة إلى توجيه انتباه خاص في الأيام المقبلة للقلعة ولفرقة السيارات المصفحة. ويبقى ميزان القوى فيمــا تبقى من القوات في المؤتمر هو نفسه كما كان بالأمس. واصطدمت محاولة اللجنة التنفيذية المركزية للتصديق علــى قرارهــا المشبوه بمعارضة باردة من قبل الأكثرية الساحقة؛ فلم يكن المؤتمر يؤمن بصلاحيته للتصويت على قرارات، لأنه لــم يــستدع أبدًا من سوفييت بتروغراد. وقد جاء التوفيقيون من تلقاء أنفسهم لتلقي هذه الضربة الأخيرة.

وحاولت اللجنة التنفيذية المركزية الاستيلاء على الحامية بمهاجمتها من الأعلى، بعد أن وجدت المــسلك المــؤدي إلــى الأفواج من الأسفل مسدودًا بالحواجز والمتاريس. وعينت بالاتفاق مع الأركان النقيب ماليفسكي الاشتراكي - الثوري مفوضًــا رئيسًا لفرع الجنود. وصرحت اللجنة التنفيذية أيضًا بأنها تقبل الاعتراف بمفوضي الــسوفييت شــريطة أن يتبعــوا المفــوض الرئيسي. وكانت محاولة الاعتماد على الحامية البلشفية، وبواسطة نقيب لم يسمع به أحد من قبل، محاولة يائسة بالطبع. وأوقف مجلس السوفييت هذه المفاوضات ورفض هذه المحاولة.

ولم تقع الانتفاضة التي حدد بوتريسوف تاريخها في ١٧ أكتوبر (تشرين الأول). وأعطى الخصوم الآن وهــم واثقــون تاريخًا جديدًا: ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول). ويرتبط افتتاح مؤتمر السوفييتات بصورة أولية بهذا اليوم كما هو معروف، وتتبــع الانتفاضة المؤتمر كظله. حقًا لقد تأجل المؤتمر خمسة أيام أخرى. ولكن ليس للتأجيل أهمية كبيرة؛ فقد انتقل الغــرض، وبقــي الظل. واتخذت الحكومة في هذه المرة أيضًا كل التدابير الضرورية لمنع "الانتفاضة". وأقيمت في الأحيــاء مخــافر معــززة. وكانت دوريات القوزاق تجوب الأحياء العمالية طيلة الليل. وكمنت احتياطيات الخيالة في أنحاء مختلفة من بتروغراد. وكانــت المليشيا على أتم استعداد حربي، ويسهر نصفها بصورة دائمة في المفوضيات. ورتبت أمام قصر الشتاء السيارات المــصفحة، والمدفعية الحقيقية، والرشاشات. وحُرست المناطق المجاورة للقصر بدوريات من الجند.

ولم تقع الانتفاضة أيضًا في هذه المرة، هذه الانتفاضة التي لم يعدّها ولم يدع إليها أحد. وانقضى النهار هادئًا أكثر مــن الأيام الأخرى، ولم يتوقف العمل في المعامل والمصانع. واحتفلت الأزفستيا التي يقودها دان بالانتــصار الــذي تحقــق ضــد

البلاشفة: "إن مغامرتهم للقيام بتظاهرة مسلحة في بتروغراد مسألة منتهية". ووجد البلاشفة أنفسهم وقد سحقهم سخط الديمقراطية الموحدة: "إنهم يستسلمون". وبوسعنا أن نعتقد بأن الخصوم قد حددوا هدفهم بعد أن فقدوا رءوسهم، بتضليل "رأيهم العام" وإخفاء خطط البلاشفة، وذلك بإيقاظهم للمخاوف قبل وقوعها، وبإطلاق ضربات بوق الانتصار بصورة أقل ملاءمة أيضًا.

* * *

ولم يمر قرار إنشاء لجنة عسكرية ثورية الذي اتخذ لأول مرة بتاريخ ٩ في اجتماع كامل هيئة السوفييت إلا بعد أسبوع؛ فالسوفييت ليس هو الحزب، وآلته ثقيلة الحركة. وكان من الضروري وجود مهلة أربعة أيام أخرى لتشكيل اللجنة. ومع ذلك لم تضع هذه الأيام العشرة هباء؛ كانوا يهتمون بصورة نشيطة لكسب الحامية، وأتيح لمؤتمر لجان الأفواج الوقت الكافي للبرهان على حيويته، واستمر تسليح العمال، بشكل تمكنت معه اللجنة العسكرية الثورية، التي شرعت بالعمل بتاريخ ٢٠ فقط قبل خمسة أيام من الانتفاضة، تمكنت معه من السيطرة فورًا على وسائل منظمة بصورة كافية. ولم تتألف اللجنة إزاء مقاطعة التوفيقيين لها إلا من البلاشفة والاشتراكيين - الثوريين اليساريين، وقد سهّل هذا التشكيل المهمة وبسَّطها إلى حد كبير. ولم يناضل من الاشتراكيين - الثوريين سوى لازيمير، الذي وُضع على رأس المكتب للإشارة بصورة أفضل إلى الطابع ذي الأصل السوفييتي، لا الطابع الحزبي للمؤسسة. وفي الحقيقة، كانت اللجنة، التي يرأسها تروتسكي، مع المناضلين الرئيسيين بودفويسكي، وأنطونوف - أوفسينكو ولاشوفيتش، وسادوفسكي، وميخونوشين، تعتمد على البلاشفة فقط، ولم تجتمع اللجنة أبدًا بكاملها ولو مرة واحدة، مع مشاركة ممثلي كل المؤسسات المذكورة في الأنظمة الداخلية. وكانت الأمور العادية تسوى من قبل المكتب تحت قيادة الرئيس، وكانوا يدعون سفردلوف في كل الحالات الهامة. وكانت هذه هي هيئة أركان الانتفاضة.

وسجلت نشرة اللجنة خطواتها الأولى بتواضع؛ فقد عين بعض المفوضين في قوات قتال الحامية، وفي بعض المؤسسات وبعض المستودعات "للمراقبة والإدارة". وكان هذا يعني أن السوفييت، بعد أن غزا الحامية من الناحية السياسية، يخضعها إليه الآن من الناحية التنظيمية. ولعب التنظيم العسكري للبلاشفة دورًا كبيرًا في اختيار المفوضين. فمن بين ألف عضو تقريبًا ينتمون إلى التنظيم في بتروغراد، كان هناك عدد وافر من الرجال المصممين والمخلصين للثورة إخلاصًا تامًا، من بين الجنود والضباط الشباب الذين تلقوا، بعد أيام يوليو (تموز) الخميرة الضرورية في سجون كرنسكي. ووجد المفوضون المختارون في وسطهم، أرضًا مهيأة بصورة كافية وسط قوات الحامية، وكان الجنود يقدرونهم لأشخاصهم، ويطيعونهم بحماس.

وغالبًا ما كانت تنجم مبادرة الاستيلاء على المؤسسات العامة من الأدنى. وقد أثر عمال ومستخدمو الترسانة المرتبطين بقلعة بطرس وبولص مسألة ضرورة وجود رقابة على تسليم الأسلحة. ونجح المفوض الذي أرسل إليها بمنع تسليم السلاح الإضافي لليونكرز، وصادر ١٠,٠٠٠ بندقية مخصصة لمنطقة الدون، ومخزونات من الأسلحة أقل أهمية منها كانت ستسلم لعدد معين من التنظيمات والشخصيات المشبوهة. وامتدت الرقابة فورًا فشلمت المستودعات الأخرى، والمستودعات الخاصة بصناع الأسلحة أيضًا. وكان يكفي التوجه إلى لجنة جنود أو عمال أو مستخدمي إحدى المؤسسات أو أحد المخازن لكي تتحطم فورًا مقاومة الإدارة. ولم تعد الأسلحة تُسلم بعد ذلك إلا بأمر من المفوضين.

ولفت عمال الطباعة، بواسطة نقابتهم، انتباه اللجنة إلى انتشار المنشورات والنشرات المغرقة في رجعيتها (المائة السود). وتقرر أن تتوجه نقابة عمال الطباعة، في كل الحالات المشبوهة، إلى اللجنة العسكرية الثورية للحصول على حل لهذه الحالات. وكانت **الرقابة على صحافة التحريض المضادة للثورة بواسطة عمال الطباعة** أكثر الرقابات فعالية بين كل وسائل الرقابة الممكنة.

وحدود السوفييت بصراحة تاريخ الأحد ٢٢ موعدًا للقيام بمظاهرة سلمية لقواته، متجاهلاً كل التجاهل تكذيب إشـــاعات العصيان. ولم يكن الاستعراض بشكل تظاهرات في الشوارع، بل بشكل اجتماعات في المصانع والثكنات، وكل الأبنية الكبيـــرة في العاصمة. وحدد بعض المرائين المشبوهين من المتمسكين بالدين اليوم ذاته للقيام بطواف ديني في شوارع العاصمة بهـــدف إثارة فوضى دموية. وأطلق بعض القوزاق المجهولين نداءً يدعو المواطنين إلى المشاركة في موكب الطواف "كذكرى لتحريـــر موسكو في عام ١٨١٢". وكان الدافع المنتقى للطواف لا يتلاءم مع الأوضاع القائمة، ولا يشكل قضية من قضايا الساعة. ولكن منظمي الطواف تقدموا بصلواتهم للرب القهار كيما يبارك أسلحة القوزاق "للدفاع ضد أعداء الأرض الروسية". الأمـــر الـــذي يرتبط بالطبع بعام ١٩١٧.

ولم يكن هناك أي سبب للخوف من تظاهرة جدية رجعية، وكانت الكنيسة عاجزة في بتروغراد ولم يكن رجـــال الـــدين يستطيعون أن يحركوا تحت رايات الكنيسة ضد السوفييت سوى بقايا عصابات المائة السود البائسين. ولكن لـــم يكـــن هنـــاك استحالة أمام قيام مجازفات دموية بمساعدة المحرضين المجربين لمصلحة مكافحة التجسس ولهيئة ضـــباط القـــوزاق. وبـــدأت اللجنة العسكرية الثورية في تسلسل التدابير الوقائية، بتعزيز نفوذها على أفواج القوزاق. وأقيم نظام أشد قسوة في مقـــر أكثـــر هيئات الأركان ثورية. وقد كتب جون ريد ما يلي: "وأصبح من الصعب تقريبًا بعد الآن الدخول إلى معهد سمولني. وعُدل نظام إجازات المرور كل عدة ساعات لأن الجواسيس كانوا يتسللون دومًا إلى الداخل".

واقترح تروتسكي في مؤتمر الحامية بتاريخ ٢١، هذا المؤتمر المخصص "ليوم السوفييت" في اليوم التالي، سلسلة مـــن التدابير الوقائية ضد الاصطدامات الممكنة في الشارع. وصرح مندوب فوج القوزاق الرابع، وهو أكثر أفواج القوزاق يـــسارية، بأنه لن يشارك أبدًا في موكب الطواف. وأكد فوج القوزاق الرابع عشر أنه سيحارب مؤامرات الثورة المضادة بكل قواه، ولكنه يعتبر في الوقت ذاته أية انتفاضة للاستيلاء على السلطة انتفاضة "في غير محلها". وكان فوج واحد من بـــين أفـــواج القـــوزاق الثلاثة غائبًا وهو فوج الأورال، الموجود في المؤخرة البعيدة، والذي أحضر في يوليو (تموز) إلى بتروغراد لسحق البلاشفة.

واتخذ المؤتمر بناء على تقرير تروتسكي **ثلاثة قرارات مختصرة**: ١ - "تعاهد حامية بتروغراد والمناطق المجاورة لهـــا اللجنة العسكرية الثورية على تقديم دعم كامل لها في كل خطواتها..." ٢ - "إن يوم ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) ســـيكون يـــوم عرض سلمي للقوات... وتتوجه حامية الموقع إلى القوزاق بنداء يقول: ... إننا ندعوكم إلى اجتماعاتنا التي ستنعقد غدًا. أهـــلاً وسهلاً بكم أيها الأخوة القوزاق!" ٣ - "على مؤتمر سوفييتات عموم روسيا أن يستلم السلطة وأن يؤمن السلم والأرض والخبـــز للشعب". ووعدت الحامية بخيلاء بوضع كل قواها تحت تصرف المؤتمر. وقال ممثلوها المفوضون باسمها: "اعتمدوا علينا أيها الممثلون الحقيقيون لسلطة الجنود والعمال والفلاحين. إننا كلنا في مواقعنا، مستعدون للنصر أو الموت". وارتفعت مئـــات مـــن الأيدي تأييدًا لهذه القرارات التي وافقت على منهاج الانتفاضة. وامتنع ٥٧ عضوًا عن التصويت. كان هؤلاء هم "المحايـــدون"، أي الخصوم المترددون، ولم ترتفع أي يد ضد القرارات. وبدأ الحبل يضيق حول عنق نظام فبراير (شباط).

وفي بحر اليوم، عرفنا بأن أصحاب مبادرة الطواف الغامضين قد تخلوا عن التظاهر بناء "على اقتـــراح القائـــد العـــام للمنطقة". إن هذا النجاح المعنوي الجدي، الذي تعادل قيمته أكثر بكثير من قيمة كل قوة ضغط مؤتمر الحامية، أتاح أملاً حازمًا بأن الخصوم عمومًا لن يتجرءوا على الخروج إلى الشارع في اليوم التالي.

وعينت اللجنة العسكرية الثورية ثلاثة مفوضين لهيئة أركان القسم: سادوفسكي، وميخونوشين، ولازيمير. واتُفق على أن لا تصبح أوامر القائد معمولاً بها إلا بعد توقيع أحد الثلاثة. وأرسلت هيئة الأركان سيارة للوفد بناء على أمر هاتفي صدر مـــن

سمولني؛ فعادات ازدواجية السلطة التي ما زالت باقية أيضًا حتى في هذا المجال. ولكن مودة هيئة الأركان لا تعني أبدًا، خلافًا لكل توقع، أنها كانت مستعدة لإجراء تنازلات.

وعندما سمع بولكوفينكوف تصريح سادوفسكي رد بأنه لا يعترف بأي مفوض، وأنه لا يحتاج إلى وصي. وعندما ألمح الوفد إلى أن هيئة الأركان قد تصادف مقاومة من جانب القطعات العسكرية، ردَّ بولكوفينكوف بصورة جافة بأنه يسيطر على الحامية، وأن خضوعها له مضمون. وقد كتب ميخونوشين في مذكراته ما يلي: "كان حزمه صادقًا. ولا يحس المرء فيه بأي شيء مصطنع". ولكي يعود المندوبون إلى معهد سمولني، لم يجدوا سيارة الأركان التي كانت موضوعة تحت تصرفهم.

واتخذ المؤتمر فوق العادة الذي دُعي لحضوره تروتسكي وسفردلوف القرار التالي: الاعتراف بأن القطيعة مع هيئة الأركان أصبحت أمرًا واقعًا، واعتبارها كنقطة انطلاق لهجوم مقبل. وأن أول شرط للنجاح هو أن تطلع دوائر الحزب على كل مراحل المعركة ووقائعها. وينبغي عدم السماح للخصم بأخذ الجماهير على حين غرة. ونشرت الأنباء في كل أنحاء المدينة بواسطة السوفييتات ولجان دوائر الحزب. وأنذرت الأفواج فورًا بكل ما جرى. وصدر التأكيد التالي: عدم تنفيذ أي أمر إلا إذا كان مصدقًا عليه من قبل المفوضين. ودعيت الأفواج إلى تعيين أكثر الجنود الموثوقين في مراكز الحرس.

وكانت هيئة الأركان أيضًا قد قررت اتخاذ بعض التدابير. ودعا بولكوفينكوف، بتحريض من التوفيقيين الذين كانوا ينصحونه على ما يبدو، إلى عقد مؤتمر للحامية في الساعة الواحدة بعد الظهر، على أن يشترك فيه ممثلو اللجنة التنفيذية المركزية. فاستبقَت اللجنة العسكرية خصمها واستدعت مؤتمرًا فوق العادة وحددت موعد انعقاده في الساعة ١١,٠٠ صباحًا، على أن تحضره لجان الأفواج، وتقرر فيه تسوية القطيعة مع الأركان تسوية حاسمة. وكان البيان الذي وُضع بسرعة، ووجه لقطعات بتروغراد وضواحيها يتحدث بلغة إعلان للحرب. "بعد أن قطعت هيئة الأركان اتصالها بالحامية المنظمة للعاصمة، أصبحت هذه الهيئة الأداة المباشرة للقوى المضادة للثورة". وتتنصل اللجنة العسكرية الثورية من تحمل أية مسئولية عن أعمال هيئة الأركان، وتعلن أنها استلمت قيادة الحامية، وأخذت على عاتقها مهمة "المحافظة على النظام الثوري ضد محاولات الثورة المضادة".

كان هذا البيان خطوة حاسمة في طريق الانتفاضة. أو أنه كان عبارة عن مجرد نزاع آخر في الآلية العامة لنزاعات ازدواجية السلطة؟ وبهذا الشكل بالضبط حاولت هيئة الأركان جاهدة تفسير ما حدث، كيما تطمئن نفسها، بعد أن استشارت ممثلي القوات الذين لم يكونوا قد استلموا بعد نداء اللجنة العسكرية الثورية في الوقت الملائم. ونقل وفد أرسل إلى سمولني، بقيادة الملازم البلشفي داشكيفيتش إلى هيئة الأركان قرار مؤتمر الحامية بصورة مختصرة. وأكد العدد البسيط من ممثلي القطعات ولاءهم للسوفييت، ورفضوا تقديم أي اقتراح، وتفرقوا. ونقلت فيما بعد الصحافة التي توجهها هيئة الأركان ما يلي: "بعد تبادل قصير للأفكار، لم يتخذ أي قرار نهائي. ووجد من الضروري انتظار حل النزاع بين اللجنة التنفيذية المركزية وسوفييت بتروغراد". وكانت هيئة الأركان تصور عزلها على أنها مسألة خصومة بين المصالح السوفييتية التي تتنازع حول حق الإشراف على أعمالها. وكان لسياسة التعمية المقصودة هذه ميزة تحاشي إعلان حرب على سمولني، لم يكن أولئك المدبرون يملكون لخوضها قوات كافية. وهكذا أعيد النزاع الثوري الذي كان جاهزًا للانفجار، بمساعدة الأجهزة الحكومية، إلى داخل الإطارات الشرعية لازدواجية السلطة، وكانت هيئة الأركان تتعاون بصورة أكثر من مؤكدة في تمويه الانتفاضة والتستر عليها، لأنها كانت تخشى مواجهة الحقيقة.

ومع ذلك، ألم يكن السلوك الأرعن للسلطات أسلوبًا ساذجًا لإخفاء نواياها الحقيقية؟ ألم تكن هيئة الأركان تتأهب، متسترة بمظاهرة السذاجة البيروقراطية، إلى توجيه ضربة مفاجئة للجنة العسكرية الثورية؟ كانت مثل هذه المؤامرة من جانب الأجهزة

العنيفة واليائسة للحكومة المؤقتة معتبرة في سمولني ضربة ضعيفة الاحتمال. بَيْد أن اللجنة العسكرية الثورية اتخذت مع ذلك كافة التدابير الاحتياطية؛ فوضعت الحرس في أقرب الثكنات نهارًا وليلاً، وكانت هناك سرايا تحت السلاح جاهزة للتحرك بسرعة لدى أول إشارة لنجدة سمولني.

وأعلنت الصحافة البرجوازية، رغم صرف النظر عن موكب الطواف الديني، إن الدماء ستسفك في يوم الأحد. وصرحت صحيفة من صحف التوفيقيين منذ الصباح الباكر ما يلي: "تتوقع السلطات اليوم قيام تظاهرة تشبه إلى حد كبير تظاهرة يوم ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) الأخير". وهكذا لثالث مرة في خلال أسبوع واحد، في ١٧، ٢٠، ٢٢، كان الغلام الفاجر يخدع الشعب وهو يصيح "الذئب! الذئب!". ووقع الغلام في المرة الرابعة، كما تقول القصة القديمة، بين أشداق الذئب.

وكانت صحافة البلاشفة تدعو الجماهير للاجتماع، وهي تتحدث عن إحصاء سلمي للقوات الثورية، في عشية مؤتمر السوفييتات. وكانت هذه الدعوة تتجاوب تمام التجاوب مع تصميم اللجنة العسكرية الثورية: إجراء استعراض ضخم، دون مصادمات، ودون استخدام السلاح، ودون إشهاره أيضًا. وكان من الواجب أن نظهر للقاعدة ذاتها، عددها، وقوتها، وتصميمها. وكان من الواجب إجبار الأعداء على الاختفاء والزوال، وعدم الظهور عن طريق وحدة الحاضرين وإجماعهم. وكان من الواجب أن نمحو آخر الذكريات المدوية لأيام يوليو (تموز) من ضمير العمال والجنود بإظهار عجز البرجوازية أمام التشكيلات الجماهيرية للعمال والجنود. وكان من الواجب أن نتوصل إلى أن تقول الجماهير لنفسها عندما تنظر إلى قوتها وهي تستعرضها: لن يستطيع أحد ولا أية قوة مقاومتنا.

وقد كتب ميليوكوف بعد خمسة أعوام ما يلي: "التزم المواطنون المذعورون منازلهم أو ابتعدوا عن مسرح الأحداث". لقد قبعت البرجوازية في المنازل؛ فقد تولاها الذعر بالفعل وبسبب ما نقلته صحافتها الخاصة. وذهب كل المواطنين الآخرين إلى الاجتماعات منذ الصباح: شبابًا وكهولاً، رجالاً ونساءً، غلمانًا وأمهات وأطفالهن على أذرعتهن. ولم تتم مثل هذه الاجتماعات طيلة الفترة الثورية كلها. ولم تكن بتروغراد كلها، باستثناء طبقاتها العليا، سوى اجتماع ضخم. وكان المستمعون يتجددون خلال ساعات وساعات في قاعات تزدحم بالألوف المؤلفة. وكان العمال، والجنود، والبحارة يتوافدون إلى المباني ويملأونها موجات بعد موجات. وحدث زلزال في شعب المدينة الصغير، الذي أيقظته الزمجرات والإنذارات التي روعته وأرعدت فرائصه. وغمرت عشرات الألوف من الناس مبنى منزل الشعب، وانتشرت في الممرات، وملأت الكتل المتراصة الساخطة، والمتمسكة بالنظام في الوقت نفسه قاعات المسرح، والمماشي، والمناهل، والمقصورات. وتعلقت الأكاليل، وعناقيد من الرءوس البشرية، والسيقان، والأذرع على الأعمدة الحديدية والنوافذ. وكان الجو مشحونًا بطاقة كهربائية تنبئ بصاعقة وشيكة. وكانت الهتافات تدوي: فليسقط كرنسكي! فلتسقط الحرب! السلطة للسوفييت! ولم يجرؤ أحد من التوفيقيين على الظهور أمام هذه الجماهير الهائجة ليواجهها باعتراضات أو تحذيرات. وكانت الكلمة للبلاشفة. وقد تهيأ كل خطباء الحزب، بما فيهم مندوبو المناطق الذين وصلوا لحضور المؤتمر. ونادرًا ما كان بعض الاشتراكيين - الثوريين اليساريين وبعض الفوضويين يتحدثون هنا وهناك. وكان هؤلاء وأولئك يحاولون عدم الخروج في أحاديثهم عن موقف البلاشفة.

وخلال ساعات وقف رجال الضواحي، والرجال الذين يسكنون الأقبية والغرف الموجودة على السطوح، وهم يرتدون المعاطف المرقعة، ويضعون على رءوسهم قبعات سميكة أو مناديل كبيرة. وكانت أحذيتهم مثقلة بوحل الشوارع، وقف هؤلاء الرجال يسعلون سعال الخريف، فيتشبث السعال بحناجرهم، وهم يتزاحمون بالمناكب ويتراصون أكثر فأكثر لكي يفسحوا مكانًا للآخرين، وكانوا يصغون دون تعب، وبشراهة، وبشوق، وهم يطالبون بهضم وتنفيذ ما سمعوه من أقوال، ويخشون أن يفوتهم ما هو أكثر ضرورة من غيره للفهم. ويبدو أن كل الأقوال قد قيلت في الأشهر الأخيرة، وفي الأسابيع الأخيرة، وفي الأيام الأخيرة. ولكن كلا، إن للأقوال اليوم نغمة أخرى؛ فالجماهير تحس بها بصورة جديدة، لا كوعظ، بل كالتزام للعمل. وتطفو

تجربة الثورة والحرب والكفاح المرير، وحياة قاسية بكاملها من أعماق ذاكرة كل رجل سحقته الحاجة، لتتركز في هذه الشعارات البسيطة والملزمة. ولا يمكن للأمور أن تستمر على هذا الشكل. ومن الواجب شق طريق إلى المستقبل.

وتحولت أنظار كل واحد من المناضلين إلى هذا اليوم البسيط والمذهل والذي تتفتح صفحته المشرقة في سجل الثورة. وحُفرت صورة الحشود البشرية التي استوعبتها الحركة الجارفة لهذا اليوم في ذاكرة شهود العيان إلى الأبد. وقد كتب الاشتراكي - الثوري مستيسلافسكي ما يلي: "انقضى يوم سوفييت بتروغراد في اجتماعات لا تعد، كان الحماس فيها رائعًا". ويشهد البلشفي بستكوفسكي، الذي تحدث في مصنعين في فاسيلييفسكي - أوستروف بما يملي: "كنا نتحدث إلى الجماهير بوضوح عن استيلائنا المقبل على السلطة ولم نسمع سوى الموافقة على ذلك". ويروي سوخانوف عن اجتماع منزل الشعب ما يلي: "كان الجو حولي قريبًا من حالة الوجد... وكان تروتسكي يقدم قرارًا مختصرًا عامًا... فمن يصوت لصالح القرار؟ جمهرة مؤلفة من ألوف الأشخاص رفعت أيديها كرجل واحد. لقد رأيت الأيدي المرتفعة وعيون الرجال الملتهبة والنساء، والشبيبة، والعمال، والجنود، والموجيك، وشخصيات تمثل البرجوازية الصغيرة التقليدية.. واستمر تروتسكي في الكلام. وتابعت الجموع التي لا تدع رفع أيديها في الهواء. وكان تروتسكي يقطع الكلمات: فليكن تصويتكم عهدًا منكم... وكانت الجموع التي لا تحصى ترفع أيديها في الهواء. كانت متفقة معه، ولهذا كانت تقسم". وروى البلشفي بوبوف أي قسم حماسي قدم للجماهير: "القسم على الانقضاض عند أول نداء من السوفييت". ويتحدث مستيسلافسكي عن جمع مكهرب أقسم على الولاء للسوفييتات. وتكرر المشهد ذاته، ولو كان ذلك بنسب أقل، في كل أجزاء المدينة، في المركز وفي الضواحي. فكان مئات الألوف من الأشخاص، بآن واحد وفي الساعات ذاتها يرفعون الأيدي ويقسمون على خوض المعركة حتى النهاية.

وإذا كانت الجلسات اليومية للسوفييت، وفرع الجنود، ومؤتمر الموقع ولجان المعامل والمصانع قد صنعت اللحمة الداخلية لطبقة واسعة من القادة. وإذا كانت بعض الاجتماعات الجماهيرية قد جمعت المصانع والأفواج، فإن يوم ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) قد صهر الجماهير الشعبية الحقيقية بدرجة عالية، وفي مرجل واحد جبار. واكتشفت الجماهير ذاتها، ورأت زعماءها، ورأى الزعماء الجماهير واستمعوا إليها. وبقي الطرفان راضيين. واقتنع الزعماء بما يلي: لا يمكن تأجيل الثورة! وقالت الجماهير لنفسها: إن الثورة ستتم في هذه المرة!

وكسح نجاح استعراض قوات البلاشفة في يوم الأحد عُتُو بولكوفنيكوف، وتبجح قيادته العليا. وحاولت هيئة الأركان، بالاتفاق مع الحكومة ومع اللجنة التنفيذية المركزية التفاهم مع سمولني. لماذا لا نعيد إذن سيرة العلاقات الودية القديمة في الاتصال والتوفيق؟ ولم ترفض اللجنة العسكرية الثورية أبدًا إرسال ممثلين عنها لتبادل الآراء؛ فليس هناك من وسيلة أفضل من التعارف. ويقول سادوفسكي في مذكراته: "كانت المباحثات موجزة، وقبل ممثلو المنطقة العسكرية كل الشروط التي قدمها السوفييت من قبل... على أن يُلغى أمر اللجنة العسكرية الثورية الصادر بتاريخ ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول)". وكان الأمر متعلقًا بوثيقة تعلن بأن هيئة الأركان هي أداة قوى الثورة المضادة. وطالب مندوبو اللجنة أنفسهم، الذين طردهم بولكوفنيكوف بصورة لا تتسم بالأدب قبل يومين، طالبوا وتلقوا بأيديهم مشروع اتفاق وقعته هيئة الأركان، لعقد اجتماع يتم في سمولني. وكان من الممكن قبول شروط الاستسلام هذه نصف المشرفة في يوم السبت. ولكنها اليوم، الاثنين، جاءت متأخرة جدًا. وانتظرت هيئة الأركان ردًا على اقتراحها ولكنها لم تتلقاه أبدًا.

وتوجهت اللجنة العسكرية الثورية إلى أهالي بتروغراد، وأعلمتهم بتعيين مفوضين لدى القطعات، وفي أهم نقاط العاصمة والضاحية. "ويتمتع المفوضون بالحصانة لأنهم يمثلون مجلس السوفييت. وتعتبر كل مقاومة للمفوضين مقاومة لسوفييت مندوبي العمال والجنود". وطُلب من المواطنين الاتصال بأقرب مفوض لمكان إقامتهم في حالة وقوع إخلال بالنظام ليقوم المفوض باستدعاء القوات المسلحة. هذه هي لغة السلطة. ولكن اللجنة لم تعط بعد إشارة الانتفاضة الصريحة. وقد تساءل

سوخانوف قائلاً: "هل يرتكب سمولني حماقات ما، أم أنه يلعب مع قصر الشتاء لعبة القط والفأر، مثيرًا هجومًا؟" إن الجواب على سؤاله هو، لا هذا ولا ذاك. إن اللجنة تطرد الحكومة بضغط الجماهير، وبثقل حامية الموقع. وتستولى بدون قتال على ما تستطيع أخذه. وتنقل مواقعها إلى أمام دون رمي أية طلقة من بندقية. وتجمع جيشها وتعززه للهجوم. وتقيس اللجنة بضغطها قوة مقاومة العدو الذي لا يغيب عن أنظارها لحظة واحدة. وتعدل كل خطوة إلى الأمام لصالح سمولني. ويرتفع العمال وأفراد الحامية في طريق الانتفاضة. وسيجد أول من يدعو منهم إلى السلاح نفسه في مد الهجوم وجزره. أما الآن فإن المسألة مسألة ساعات. وإذا وجدت الحكومة الجرأة أو اليأس، في الدقيقة الأخيرة لإعطاء إشارة المعركة، فستقع المسئولية من جديد على قصر الشتاء، ولكن المبادرة تبقى لسمولني أيضًا. وكان عمل ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) يعني تقويض السلطات وقلبها قبل أن تُقلب الحكومة ذاتها. وكانت اللجنة العسكرية الثورية تكبل النظام المعادي من أطرافه قبل أن تجهز عليه بالضربة القاضية. ولم يكن من الممكن تطبيق هذا التكتيك في "الاختراق السلمي" والذي يتضمن تحطيم الهيكل العظمي للعدو وشل ما تبقى له من إرادة بتخديره، لم يكن من الممكن تطبيقه إلا بالتفوق الذي لا مراء فيه للقوى التي تملكها اللجنة، هذه القوى التي كانت تزداد نموًا ساعة بعد ساعة.

وكانت اللجنة تراجع يوميًا الخارطة المفتوحة أمامها للحامية، وتسبر حرارة كل فوج، وتتبع كل تحولات الرأي العام في سجاله، والتأييد الذي يظهر في الثكنات. ولا يمكن أن يحدث شيء غير متوقع من هذه الناحية. ومع ذلك ما زالت على الخارطة بعض البقع السوداء. وكان من الواجب القضاء عليها أو تخفيض عددها على الأقل. واعتبارًا من تاريخ ١٩ تبين أن أكثرية لجان قلعة بطرس وبولص كانت في أوضاع سيئة أو غامضة. وبعد أن صمدت الحامية الآن لصالح اللجنة، وطُوقت القلعة سياسيًّا على الأقل، فقد حان الوقت للاستيلاء عليها بصورة حاسمة. وصادف الملازم الأول بلاغونرافوف، الذي عُين مفوضًا، بعض المقاومة؛ فقد كان قائد القلعة، المفوض من قبل الحكومة يرفض الاعتراف بالوصاية البلشفية. ويتبجح -حسب بعض الإشاعات- باعتقال الوصي الشاب. وكان من الضروري العمل فورًا. واقترح أنطونوف إدخال كتيبة موثوقة من فوج بافلوفسكي إلى القلعة ونزع سلاح القوات المعادية. ولكن مثل هذه العملية ستكون خطيرة جدًا، وسيستغلها الضباط ذريعة ومبررًا لإراقة الدماء، وتحطيم وحدة قوات الحامية. وهل كان من الضروري بالفعل اللجوء إلى تدبير بمثل هذا التطرف؟ وقد روى أنطونوف في مذكراته ما يلي: "ولمناقشة هذه المسألة دعونا تروتسكي. ولعب تروتسكي دورًا حاسمًا؛ فقد فهم بحدسه الثوري بما عليه أن ينصحنا: فاقترح الاستيلاء على هذه القلعة من الداخل. وقال: "لا يمكن أن لا يتعاطف الجند داخل القلعة معنا". ولقد كان على حق. وذهب تروتسكي ولاشوفيتش إلى اجتماع في القلعة". وكان الموجودون في سمولني ينتظرون بانفعال كبير نتائج مشروع يبدو محاطًا بالمخاطر. وقد تعرض تروتسكي لهذه الأمور فيما بعد قائلاً: "وبتاريخ ٢٣ ذهبت إلى القلعة في الساعة الثانية بعد الظهر. كان هناك اجتماع في الباحة. وكان خطباء الجناح اليميني مشبوهين ومراوغين إلى أعلى الدرجات... كان الجنود يصغون إلينا، ويتبعوننا". وفي الطابق الثالث من سمولني تنفس الجميع الصعداء عندما أعلن الهاتف النبأ المفرح: إن حامية بطرس وبولص تعهدت باحتفال مهيب أن لا تطيع بعد الآن سوى اللجنة العسكرية الثورية.

لم يكن التحول الذي تم في وعي قوات القلعة محصلة خطاب أو خطابين بالطبع؛ فقد أعد الماضي هذا التحول بصورة متينة وكان الجنود أكثر يسارية من لجانهم. ولم يبق سوى القشرة المتشققة من الانضباط القديم، التي بقيت خلف الأسوار وقتًا أطول مما بقيت فيه في ثكنات المدينة. ولكن كانت هزة واحدة كافية لكي تسقطها مزقًا.

وكان بوسع بلاغونرافوف الآن أن يتوطد بثقة أكبر في القلعة، وأن ينظم هيئة أركانه الصغيرة، ويقيم الاتصال مع السوفييت البلشفي للدائرة المجاورة، ومع أقرب لجان الثكنات إليه. وفي غضون ذلك، جاءت وفود المصانع والتشكيلات العسكرية تطالب بتسليمها السلاح. وسادت القلعة في ذلك الوقت حيوية لا توصف. "كان الهاتف يرن بلا انقطاع؛ لينقل أخبارًا

عن نجاحاتنا الجديدة في الاجتماعات والمؤتمرات". وكانت الأصوات المجهولة الهوية تعلن أحياناً عن قدوم مفارز تأديبية من الجبهة ووصولها إلى المحطة. وكان التحقق الفوري من الخبر يظهر أنه محض كذب واختلاق روجه العدو وأشاعه.

وتميزت جلسة السوفييت في مساء ذلك اليوم بازدحام استثنائي، ونشاط خاص. فقد كان احتلال قلعة بطرس وبولص والاستيلاء نهائيًّا على ترسانة كرونفيرك؛ حيث تتكدس ١٠٠,٠٠٠ بندقية، كان كل هذا يشكل ضمانة جديدة للنجاح. وقدم أنطونوف تقريرًا باسم اللجنة العسكرية الثورية. وقد رسم في هذا التقرير بملامح متتابعة لوحة طرد الأجهزة الحكومية من قبل إتباع اللجنة العسكرية الثورية، وقد استقبل هؤلاء في كل مكان كرجال أهل للثقة. وكان الجميع يطيعونهم بوعي، لا بدافع الخوف. "وتصل الطلبات من كل الجهات تلح على تعيين المفوضين". وحذت القوات الموجودة حذو القوات الأمامية. وقدم فوج بريوبراجينسكي الذي كان في يوليو (تموز) أول فوج صدق إشاعة الذهب الألماني، بواسطة مفوضه تشودنوفسكي، احتجاجًا عنيفًا ضد الإشاعات التي تتهم الفوج بالعمل لصالح الحكام. وكانت مثل هذه الفكرة تعتبر من أقوى الإهانات في نظر الفوج!... وروى أنطونوف ما يلي: حقًا إن الحرس مقام كالعادة، ولكن بموافقة اللجنة. ولم تنفذ أوامر هيئة الأركان حول تسليم الأسلحة والسيارات. وقد أتيحت لهيئة الأركان بهذا الشكل إمكانية تامة لمعرفة من هو سيد العاصمة.

وسُئل أنطونوف عما إذا كانت اللجنة تملك معلومات عن حركة القطعات الحكومية في الجبهة وفي المناطق المجاورة، وعن التدابير التي اتُخذت لدرئها؛ فأجاب بما يلي: لقد جئ بقوات الخيالة من الجبهة الرومانية، ولكنها حجزت في بسكوف. ورفضت فرقة المشاة ١٧ الذهاب إلى مسافة أبعد عندما علمت خلال الطريق الجهة التي ستُرسل إليها، والهدف من زحفها. وفي فندق تمرد فوجان على أمر الزحف على بتروغراد، ورفضا تنفيذه. وبقي أيضًا مصير القوزاق واليونكرز مجهولاً، ومن المحتمل أنهم أرسلوا إلى كييف، كما كانت قطعات الصدام المستدعاة من تساركويه - سيلا مجهولة المصير أيضًا. "لا يتجرأ أحد ولن يتجرأ أحد على المساس باللجنة العسكرية الثورية". ولم يكن وقع هذه الأقوال سيئًا في قاعة سمولني البيضاء.

وكان الانطباع الذي تركه تقرير أنطونوف عند تلاوته بأن هيئة أركان الانتفاضة قد عملت بمنتهى الصراحة والوضوح. وفي الحقيقة: ليس لدى سمولني أي شيء تخفيه. فالظرف السياسي للانتفاضة ملائم جدًا لدرجة غدت معها الصراحة ذاتها نوعًا من التمويه، فهل تتم الانتفاضة بهذا الشكل؟ ومع ذلك لم ينطق أي زعيم من الزعماء بكلمة "انتفاضة". ولم يكن عدم نطقها بدافع من الحذر فحسب، بل لأن التعبير لا يتلاءم أبدًا مع الوضع الحقيقي. وقد يقال إن على حكومة كرنسكي أن تنتفض. وفي تقرير للأزفستيا قيل حقًا إن تروتسكي اعترف في جلسة ٢٣ للمرة الأولى بصراحة أن الاستيلاء على السلطة هو هدف اللجنة العسكرية الثورية. ومما لا شك فيه أن الجميع قد ابتعدوا عن نقطة الانطلاق التي صرحوا فيها بأن التحقق من المبررات الإستراتيجية لتشيريميسوف هو مهمة اللجنة. وكان جلاء الأفواج قد طوى في سجل النسيان. ولكن كان الموضوع في ٢٢ لا يتعلق بالانتفاضة، بل "بالدفاع" عن المؤتمر المقبل للسوفييتات، والدفاع بالسلاح عند الحاجة. وبهذه الروح صيغ القرار حول تقرير أنطونوف.

فكيف تم تقدير الأحداث الجارية في الدوائر الحكومية العليا؟ بعد أن أعلم كرنسكي هاتفيًا ومباشرة في ليلة ٢١/ ٢٢ دوخونين رئيس هيئة أركان القيادة العامة للقوات المسلحة بمحاولات اللجنة العسكرية الثورية لعزل الأفواج عن القيادة استطرد كرنسكي قائلاً: "إنني أعتقد بأننا سنسوي هذا الأمر بسهولة". ولم يتأخر وصوله أبدًا كقائد أعلى إلى المقر العام لهيئة الأركان العامة بسبب الخوف من انتفاضات معينة؛ "فسيسوون الوضع، حتى بدوني نظرًا لأن كل شيء معد". وصرح كرنسكي للوزراء المذعورين بصورة مطمئنة أنه شخصيًّا على العكس سعيد جدًا بأن يرى وقوع الانتفاضة لأن ذلك سيعطيه إمكانية "التخلص من البلاشفة دفعة واحدة". ورد رئيس الحكومة على الكاديت نابوكوف الذي كان يتردد على قصر الشتاء: "سأكون مستعدًا كل الاستعداد للقيام بالمراسيم الدينية بعد عملية الإجهاز (على البلاشفة) إذا وقعت التظاهرة". وعندما سأله نابوكوف: "ولكن هل

أنت واثق من قدرتك على قمعها؟" أجابه كرنسكي: "إنني أملك من القوات أكثر مما أحتاج إليه؛ وسيسحق البلاشفة بصورة نهائية".

وكانت سخرية أعضاء الكاديت من التفاؤل الطائش لكرنسكي، تعني أنهم أصيبوا بفقدان الذاكرة؛ فقد كان كرنسكي في الحقيقة يقدر الأحداث بحسب وجهة نظرهم الخاصة. فبتاريخ ٢١ كتبت **صحيفة ميليوكوف**: لو تجرأ البلاشفة، الذين تأكلهم أزمة داخلية عميقة، على التظاهر، فسيسحقون في مكانهم ودون عناء. وأضافت صحيفة أخرى من صحف الكاديت: "هناك عاصفة في الهواء، ولكنها قد تطهر الجو". ويشهد دان أن الكاديت والمجموعات القريبة منهم كانوا يحملون في أروقة اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي أحلامًا كبيرة في أن يروا البلاشفة يتظاهرون بأسرع ما يمكن: "سيُهزمون هزيمة تامة في معركة نظامية"، وكان بعض أعضاء الكاديت البارزين يقولون لجون ريد ما يلي: إذا سُحق البلاشفة في الانتفاضة، فإنهم لن يستطيعون رفع رأسهم أبدًا في المجلس التأسيسي.

وفي خلال يومي ٢٢ و٢٣ كان كرنسكي يستشير زعماء اللجنة التنفيذية المركزية تارة، وهيئة أركانه تارة أخرى ويسألهم: أليس من الملائم اعتقال أعضاء اللجنة العسكرية الثورية؟ وكان التوفيقيون لا يوافقون على هذا الرأي؛ فسيحاولون هم تسوية مسألة المفوضين. وكان بولكوفنيكوف يقدر أيضًا أن ما من سبب يدعو إلى التسرع في الاعتقالات؛ فنحن نملك من القوات العسكرية عند الحاجة "أكثر مما نحتاج إليه". وكان كرنسكي يصغي لبولكوفنيكوف، ولكنه كان يستمع بإصغاء أكبر للأصدقاء التوفيقيين. كان يأمل أن تهرع اللجنة التنفيذية المركزية، عند الخطر، وبرغم خلافاتها الداخلية مع الحكومة، لمساعدته في الوقت المناسب؛ فقد تم الأمر على هذا الشكل في يوليو (تموز)، وفي أغسطس (آب). فلماذا لا يستمر في مثل هذا الوضع؟

ولكننا لم نكن أبدًا في يوليو (تموز) ولا في أغسطس (آب). كنا في أكتوبر (تشرين الأول). وكانت تهب على ميادين وأرصفة بتروغراد رياح البلطيق الباردة الرطبة القادمة من كرونشتادت. وكان اليونكرز يقومون بالعرض في الشوارع بمعاطفهم الطويلة المنسدلة إلى أعقابهم، وهم يغنون ألحان الشجاعة التي تخنق القلق، وكان أفراد فرسان المليشيا يسيرون في الاستعراض ومسدساتهم في غلافات جديدة تمامًا. كلا، كانت السلطة ما تزال تملك الهيبة والجلال! أو ربما لم يكن ذلك سوى سراب؟ وكان جون ريد الأمريكي ذو العينين الساذجتين والنفاذتين يشتري آنذاك في زاوية من زوايا شارع نييفسكي **كتيبًا للينين** عنوانه: **هل سيحتفظ البلاشفة بالسلطة؟** ويدفع ثمنه بالطوابع البريدية التي كانت رائجة في ذلك الوقت رواج العملات الصغيرة.

لينين يدعو إلى الانتفاضة

إلى جانب المصانع والثكنات، والقرى والجبهة، والسوفييتات كان للثورة مختبر آخر هو عقل لينين. وقد اضطر لينين خلال ١١١ يومًا؛ من ٦ يوليو (تموز) إلى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) إلى اختصار مقابلاته، حتى مع أعضاء اللجنة المركزية ملتزمًا بحياة سرية. وكان يحصر فكره بصورة أقوى على المسائل الجوهرية للثورة، ولا يتصل اتصالاً مباشرًا بالجماهير، ولا يحتك بالتنظيمات، وارتفع بهذه المسائل –هذا الارتفاع الذي كان لديه مطلبًا وقاعدة في الوقت ذاته– إلى المسائل الأساسية للماركسية.

وكانت الحجة الأساسية للديمقراطيين، ولأكثرهم يسارية من بين هذا العدد الوافر من أعضاء المؤتمر في معارضة الاستيلاء على السلطة هي عجز العمال عن إدارة جهاز الدولة. تلك كانت في الحقيقة مخاوف العناصر الانتهازية في داخل البلشفية ذاتها. وكان "جهاز الدولة" المبدأ الغامض الذي ربي على الخضوع إليه كل بورجوازي صغير. ويرتفع هذا المبدأ فوق الأشخاص والطبقات. ويحتفظ المثقف الجبان في أعماقه بنفس الرعشة التي استبدت بجسم أبيه أو جده، البائع أو الفلاح الثري إزاء المؤسسات القوية الجبارة التي تتقرر فيها مسائل الحرب والسلم، وحيث تسلم الشهادات التجارية، ويسقط منها حساب الضرائب، وحيث تتم العقوبة، ويتم الغفران نادرًا، وحيث يطبع الزواج كما تطبع الولادات بالطابع الشرعي، وحيث ينبغي أن يأخذ الموت دوره في القائمة قبل اعتراف جهاز الدولة به. إنه جهاز الدولة! ويرفع البورجوازي الصغير قبعته احترامًا لهذا الجهاز، ويخلع زوج أحذيته أيضًا، ويسير على رءوس أصابعه. وهو يدخل محراب الصنم المعبود –سواء كان يدعى كرنسكي، أو لافال، أو ماكدونالد، أو هيلفردينغ– عندما يتيح له حظه أو تتيح له قوة الظروف أن يصير وزيرًا. وهو لا يستطيع أن يبرر هذه الميزة بصورة مغايرة إلا بخضوعه بتواضع "لجهاز الدولة". وكان المثقفون الراديكاليون الروس الذين لا يجرءون، حتى في وقت الثورة، على الانضمام إلى السلطة إلا من وراء ظهر الملاكين النبلاء، وأصحاب رأس المال، كان هؤلاء المثقفون ينظرون إلى البلاشفة بفزع وسخط: إن محرضي الشوارع هؤلاء، أولئك الديماغوجيون يتصورون أنه بوسعهم الاستيلاء على جهاز الدولة!

وبعد أن أنقذت السوفييتات الثورة في معركتها ضد كورنيلوف بالرغم من جبن الديمقراطية الرسمية وعجزها كتب لينين يقول: "فليتعلم من هذا المثل كل الرجال ضعاف الإيمان. وليستحِ أولئك الذين يقولون: "إننا لا نملك جهازًا ليحل محل الجهاز القديم، هذا الجهاز الذي يميل حتمًا إلى الدفاع عن البرجوازية". لأن هذا الجهاز موجود. إنه جهاز السوفييتات. ولا تخافوا مبادرة الجماهير وعفويتها، وثقوا بالتنظيمات الثورية للجماهير وسترون ظهور القوة ذاتها والعظمة ذاتها في كل مجالات حياة الدولة وعدم إمكان قهر العمال والفلاحين الذين برهنوا على وحدتهم واندفاعهم ضد حركة كورنيلوف".

وقد كتب **لينين** في الأشهر الأولى من حياته السرية **كتابه: الدولة والثورة،** الذي جمع وثائقه عندما كان مهاجرًا أثناء الحرب. وطرح لينين في هذا الكتاب **المعضلات النظرية للدولة** بنفس الدقة والعناية اللتين يعمل بهما عندما يتأمل المعضلات اليومية. فهو لا يستطيع أن يفعل ما يخالف هذا؛ فالنظرية بالنسبة إليه دليل للعمل فعلاً. ولم يستهدف لينين في أية لحظة إدخال كلمة جديدة في النظريات. بل على العكس أعطى لكتابه طابعًا في غاية التواضع، مشيرًا إلى أنه يتحدث كتلميذ لمن سبقه. وكانت مهمته على حد قوله إعادة وضع "العقيدة الماركسية الحقيقية حول الدولة".

وقد يبدو الكتاب الذي يتميز باختيار لينين الدقيق للاستشهادات وتفسيرها الجدلي التفصيلي، تحذلقًا وادعاء بسعة العلم... وذلك للمدعين الحقيقيين، الذين لا يستطيعون، عند تحليل النصوص، الإحساس بالنبضات القوية للفكر وللإرادة. وقد قام لينين

بإعادة تأليف للنظرية الطبقية للدولة على قاعدة جديدة، أعلى من الناحية التاريخية، فأعطى لأفكار ماركس طابعًا جديدًا ملموسًا، ومعنى جديدًا بالتالي. بيد أن الكتابة عن الدولة تتخذ أهمية كبرى نظرًا لأنها أولاً مدخل علمي لأكبر انتفاضة عرفها التـــاريخ. وكان **"المعلق" على كتابات ماركس يعد حزبه لغزو سدس العالم ثوريًا**.

ولو كان من الممكن بكل بساطة تلاؤم الدولة مع مطالب نظام جديد، لما كان هناك ثورات أبدًا. غيـــر أن البرجوازيـــة ذاتها لم تتوصل إلى السلطة، حتى هذا الوقت، إلا بالانتفاضات. وقد جاء الآن دور العمال للقيام بمثلهـــا. **وقـــد أعطـــى لينـــين للماركسية معناها في هذه المسألة أيضًا كأداة نظرية للثورة البروليتارية.**

ألا يستطيع العمال السيطرة على جهاز الدولة؟ ويعلمنا لينين ردًا على هذا السؤال. ولكن ليس الهدف أبدًا هو الاســـتيلاء على الآلة القديمة للدولة بغرض تحقيق أهداف جديدة؛ إن ذلك يعتبر طوباوية رجعية. فالاختيار الذي تم للأفـــراد فـــي الجهـــاز القديم، وتربيتهم، وعلاقاتهم المتبادلة. كل هذا يتعارض مع المهام التاريخية للبروليتاريا. وليس المطلوب عند الاســـتيلاء علـــى السلطة إعادة تعليم الجهاز القديم بل من الواجب هدمه تمامًا. فبم يمكن استبداله؟ نستبدله بالسوفييتات. وتصبح السوفييت التـــي تتزعم الجماهير الثورية، هذه الجماهير التي تعتبر أجهزة الانتفاضة، أجهزة نظام الدولة الجديدة.

ولم يجد الكتاب، في زخم الثورة، سوى عدد قليل من القراء. ولم يطبع طبعة ثانية إلا بعد الانتفاضة. وقد درس لينـــين مسألة الدولة قبل كل شيء لاقتناعه الخاص الداخلي، وللمستقبل فيما بعد. وكان الاحتفاظ بالإرث الأيديولوجي أحـــد اهتماماتـــه الثابتة. وفي يوليو (تموز) كتب لينين إلى كامنييف ما يلي: "**الكلام بسرك**، إذا ما قتلت يومًا، فأرجوك أن تطبـــع كراســـي **Le marxisme sur l'etat** **الماركسية والدولة** (الذي ترك في ستوكهولم). وإن جلده الأزرق مشبك بسلك. وقد جمعـــت كـــل الاستشهادات بماركس وآنجلس، كما جمعت كذلك كل الاستشهادات من كاوتسكي ضد بانيكوك. وفي الدفتر عدد لا بأس به من الملاحظات والتعليقات ينبغي ترتيبها. وإني أعتقد أن من الممكن طبع الكتاب بعد ثمانية أيام من العمل. وإني أقدر أن هذا العمل مهم لأن بليخانوف وكاوتسكي لم يكونا وحدهما اللذين شوشا في هذا الموضوع. وهناك شرط واحد: كل هذا بيننا قطعًا". واهتم زعيم الثورة، الذي كان مطاردًا كعميل لدولة معادية بطبع دفتر "أزرق" مع استشهادات من ماركس وآنجلس، لأن كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار احتمال تآمر الخصم عليه واغتياله، وكانت هذه هي وصيته السرية. وينبغي أن تفيد الكلمـــة العاديـــة "قـــد يقتلونني" كترياق للغة المحركة للعواطف التي كان يمقتها: وكانت وصيته التي أعطاها، ذات طابع مثير للمشاعر في الحقيقة.

وكان لينين، الذي ينتظر تلقي طعنة في ظهره يعد هو نفسه طعنة يوجهها إلى صدر خصومه. فبينما كان يرتب الـــدفتر الثمين الذي استلمه من ستوكهولم، وهو يقرأ الصحف، ويرسل بالتعليمات، لم تبق الحياة في موقعها. فقد اقتربت الساعة التـــي ينبغي حل مسألة الدولة فيها عمليًا.

وكتب لينين في سويسرا، بعد قلب النظام الملكي فورًا ما يلي: "... لسنا بلانكيين، ولا أنصارًا لاســـتيلاء أقليـــة علـــى السلطة..." وطور الفكرة ذاتها عندما وصل إلى روسيا: "نحن حاليًا أقلية، ولا تثق الجماهير بنا في الوقت الحاضر. وســـنعرف كيف ننتظر... وستتجه الجماهير وتنحاز إلينا، وعندئذ سنقول، ونحن نحسب موازين القوى ما يلي: لقد حان وقتنـــا". وكانـــت مسألة الاستيلاء على السلطة مطروحة في هذه الأشهر الأولى كمسألة كسب الأكثرية في السوفييتات.

وأعلن لينين بعد عملية سحق حركة يوليو (تموز) ما يلي: لا يمكن الاستيلاء على السلطة بعد الآن إلا بانتفاضة مسلحة. وهنا ينبغي بالتأكيد الاعتماد على لجان المصانع لا على السوفييتات، التي أقنطها التوفيقيون. وينبغي أن يعاد تـــشكيل مجـــالس السوفييتات، كأجهزة للسلطة، بعد الانتصار. وفي الواقع فقد انتزع البلاشفة بعد شهرين السوفييتات من التوفيقيين. وكانت طبيعة

خطأ لينين في هذه المسألة خاصة مميزة لعبقريته الإستراتيجية إلى أعلى الدرجات؛ فقد كان يحسب أجرأ تصوراته طبقًا لأقل المقدمات احتمالاً. حتى أنه كان يتوقع عندما غادر ألمانيا في إبريل (نيسان) إلى روسيا الذهاب من المحطة إلى السجن مباشرة. وهكذا قال في ٥ يوليو (تموز): "ربما سيعدموننا جميعًا". وهو يفكر الآن. أن التوفيقيين لن يتركوننا نحصل على الأكثرية في السوفييتات.

وقد كتب نابليون إلى الجنرال برتييه ما يلي: "ليس هناك رجل أكثر جبنًا مني عندما أضع خطة حربية. إذ أضخّم لنفسي تقدير كل الأخطار وكل المآسي الممكنة... وعندما اتخذ قراري أنسى كل شيء فيما عدا ما يمكن أن يصنع النجاح"، وإذا تجاوزنا عن بعض التصنع في كلمة ضعيفة التلاؤم وهي "جبن" فمن الممكن تطبيق جوهر الفكرة على لينين. فعندما يحل لينين مسألة إستراتيجية، كان يزود العدو مسبقًا بقراره الخاص وبذكائه. وكانت أخطاء لينين التكتيكية في غالب الأحيان المحصلات الثانوية لقوته الإستراتيجية. وفي الحالة الراهنة لا يمكن الحديث عن خطأ؛ فعندما يتوصل التشخيص إلى تحديد مرض من الأمراض بعد استبعاد الإصابة بالأمراض الأخرى بصورة متتابعة، لا يبدو حدسه الافتراضي، بدءًا من أسوأ الأمراض خطأ، بل طريقة للتحليل.

وعندما استولى البلاشفة على سوفييتات العاصمتين قال لينين: "لقد جاء وقتنا"، على حين كان في إبريل (نيسان) وفي يوليو (تموز) يحاول أن يكون معتدلاً. وفي أغسطس (آب) كان يهيئ المرحلة المقبلة من الناحية النظرية. وابتداءً من منتصف سبتمبر (أيلول) كان يدفع ويضغط بكل قواه. ولم يعد هناك الآن خطر من المسير بسرعة كبيرة، بل أصبح الخطر من التأخر." ولا يمكن أن يكون هناك الآن شيء سابق لأوانه في هذا المجال".

وقد حلل لينين الوضع في المقالات والرسائل التي أرسلها إلى اللجنة المركزية، مبينًا الشروط الدولية في المقام الأول في كل مرة. وكانت أعراض ووقائع يقظة البروليتاريا الأوروبية بالنسبة إليه، تجيء في آخر أحداث الحرب، دليلاً لا ينقض على أن التهديد المباشر من طرف الإمبريالية الأجنبية للثورة الروسية سينكمش أكثر فأكثر. واضطرته اعتقالات الاشتراكيين في إيطاليا، والتمرد الذي وقع في الأسطول الألماني خاصة، على إعلان وقوع تحول هائل في العالم كله: "**نحن على أبواب ثورة بروليتارية عالمية**".

ويفضل تاريخ الجيل الثاني السكوت على نقطة انطلاق لينين؛ لأن حساب لينين يبدو وكأن الأحداث قد كذبته، ولأن على الثورة الروسية أيضًا حسب النظريات التي جاءت فيما بعد، أن تنتصر من تلقاء ذاتها في كل الشروط. غير أن الحكم الذي أصدره لينين على الوضع الدولي كان من أقل الأحكام بطلانًا، فالأعراض التي لاحظها عبر مصفاة الرقابة العسكرية لكل البلاد تظهر بالفعل قدوم العاصفة الثورية. وقد صدّعت هذه العاصفة بعد عام البناء القديم، حتى شمل التصدع كل الأسس العميقة للمجتمع القديم في إمبراطوريات أوروبا الوسطى. وحرمت هذه العاصفة أيضًا الطبقات الحاكمة في البلدان الظافرة إنكلترا، وفرنسا، دون أن نستشهد بإيطاليا، ولمدة طويلة من حرية عملها. ولم يكن بوسع الثورة البروليتارية في روسيا المنعزلة، والتي لا تملك الوقت الكافي لتعزز نفسها أن تصمد حتى لبضعة شهور في مواجهة أوروبا الرأسمالية، المتينة، المحافظة، الواثقة من نفسها. ولكن أوروبا هذه لم تكن موجودة أبدًا. حقًا أن الثورة في الغرب لم تجلب البروليتاريا أبدًا إلى السلطة –فقد أنقذ الإصلاحيون النظام البورجوازي– ولكنها كانت مع كل هذا من القوة بحيث حملت الجمهورية السوفييتية في المرحلة الأولى، التي كانت أكثر مراحل وجودها خطورة.

ولا تعبر أممية لينين العميقة عن نفسها في أنه كان يضع دومًا تقدير الوضع الدولي في الاعتبار الأول؛ فقد كان الاستيلاء على السلطة ذاته في روسيا يعتبر من قبل لينين، وقبل كل شيء، كاندفاع نحو الثورة الأوروبية، التي ينبغي أن يكون

لها أهمية أكبر بصورة لا تقارن بالنسبة لمصائر البشرية من ثورة روسيا المتخلفة. وقد كرر لينين هذا الكلام أكثر من مرة. فكم كان يهزأ من البلاشفة الذين لا يفهمون واجبهم كأمميين ويقول لهم: "فلنتخذ قرارًا بالتعاطف مع المتمردين الألمان. ولنستبعد الانتفاضة في روسيا. وسيكون ذلك أممية معقولة! أليس كذلك؟".

وقد كتب لينين إلى اللجنة المركزية خلال أيام المؤتمر الديمقراطي قائلاً: "إن بوسع البلاشفة، بعد أن حصلوا على الأكثرية في سوفييتي العاصمتين... أن يستولوا على سلطة الدولة، وأن الواجب يحتم عليها ذلك..."، وكان لواقعة تصويت أكثرية مندوبي الفلاحين في المؤتمر الديموقراطي المزيف ضد الائتلاف مع الكاديت، كان لهذه الواقعة في نظر لينين أهمية حاسمة؛ فليس أمام الموجيك الذين لا يريدون الائتلاف مع البرجوازية أبدًا من سبيل سوى دعم البلاشفة. "لقد مل الشعب من مراوغات المناشفة والاشتراكيين – الثوريين. وأن انتصارنا في العواصم وحده سيجر الفلاحين خلفنا". إن مهمة الحزب هي ما يلي: "وضع الانتفاضة المسلحة في بتروغراد وموسكو على جدول الأعمال، والاستيلاء على السلطة، وتشتيت الحكومة..." ولم يكن هناك أي شخص حتى ذلك الوقت قد طرح مسألة الانتفاضة بمثل هذه اللهجة الآمرة، وبمثل هذه الصراحة.

وقد تحرَّى لينين بدقة متناهية عن كل الانتخابات في البلاد، وجمع باعتناء الأرقام التي يمكن أن توجه بعض الأضواء على ميزان القوى الحقيقي. أما لامبالاة بعض الأعضاء نصف – الفوضوية إزاء الإحصاءات الانتخابية فلم تلاق لدى لينين سوى الازدراء. وكان لينين في الوقت ذاته لا يشخص آثار البرلمانية أبدًا كموازين القوى الحقيقية: وكان يقدم دومًا التصحيح للعمل المباشر. وقد ذكر لينين بما يلي: "... إن قوة البروليتاريا الثورية، ومن وجهة نظر أثرها على الجماهير وقيادتها في المعركة، أكبر بكثير في معركة تنشب خارج نطاق البرلمانية منها في معركة برلمانية. وهذه ملاحظة هامة جدًا في مسألة الحرب الأهلية".

وكان لينين أول من لاحظ بفكره الثاقب والنافذ أن الحركة الزراعية قد دخلت مرحلة حاسمة، واستخلص من ذلك فورًا كل الاستنتاجات. إن الموجيك لا يريدون أن ينتظروا أبدًا، مثلهم مثل الجنود. وكتب لينين: "وأمام حدث كانتفاضة الفلاحين في نهاية سبتمبر "أيلول" لن يكون لكل الأعراض السياسية الأخرى أية أهمية على الإطلاق، حتى ولو كانت مخالفة لهذا النضج في الأزمة العامة للأمة"، **إن المسألة الزراعية أساس الثورة ذاتها**. وسيكون انتصار الحكومة على انتفاضة الفلاحين "دفنًا للثورة...". ولا نستطيع أن نأمل بتحقق شروط أكثر ملاءمة. هذه هي ساعة العمل! "إن الأزمة ناضجة. وقد وضع كل مستقبل الثورة الروسية على الخارطة كما وضع كل مستقبل الثورة العمالية الأممية من أجل الاشتراكية على الخارطة. إن الأزمة ناضجة".

ودعا لينين إلى الانتفاضة. وتنبعث أكثر المشاعر حدة وتأثيرًا من كل سطر بسيط خال من التصنع مهما تجهم. وكتب في مطلع أكتوبر (تشرين الأول) إلى مؤتمر الحزب في بتروغراد قائلاً: "ستضيع الثورة إذا لم تقلب حكومة كرنسكي من قبل البروليتاريين والجنود في وقت قريب جدًا... وينبغي تجنيد كل القوى لترسيخ فكرة الضرورة المطلقة لشن معركة يائسة، وأخيرة، وحاسمة في أذهان العمال، في سبيل قلب حكومة كرنسكي".

وقد قال لينين أكثر من مرة بأن الجماهير أكثر يسارية من الحزب. وكان يعرف أن الحزب أكثر يسارية من قيادته التي تتألف من شريحة "البلاشفة القدامى". وكان يعرف جيدًا التجمعات الداخلية في اللجنة المركزية واتجاهاتها بشكل لا يجعله ينتظر منها السير بخطوات جريئة. وبالمقابل، كان يخشى الحذر المفرط، وروح المماطلة، وإهمال وضعٍ من هذه الأوضاع التاريخية التي أعدتها عشرات السنين وهيأت لها. ولا يثق لينين باللجنة المركزية... بدون لينين، وهنا يكمن سر رسائله التي كتبت من أعماق مخبئة السري. ولم يكن لينين على خطأ كبير في عدم ثقته باللجنة المركزية.

وكان لينين أيضًا دائم النقد لسياسة اللجنة المركزية مستندًا إلى وجهة نظر يسارية عندما يضطر إلى توضيح وجهة نظره في معظم الحالات بعد قرار يتخذ في بتروغراد. وكانت معارضته تنصب على جوهر مسألة الانتفاضة، ولكنها لم تكن تقتصر عليها. وقد قدر لينين بأن اللجنة المركزية تولي عنايتها باللجنة التنفيذية التوفيقية، وبالمؤتمر الديمقراطي وبالفوضى البرلمانية في القيادات السوفييتية عامة. وعارض لينين بشدة البلاشفة الذين اقترحوا تأليف مكتب ائتلافي في سوفييت بتروغراد. ووصم قرار المشاركة في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي "بالعار". واستشاط غيظًا عند نشر قائمة المرشحين البلاشفة في المجلس التأسيسي في نهاية سبتمبر (أيلول). فقد **وجد في هذه اللائحة أسماء كثير من المثقفين، وعددًا قليلاً جدًا من العمال. "إن ملء المجلس التأسيسي بالخطباء والأدباء يعني السير في دروب الانتهازية والشوفينية. وهذا لا يليق بالأممية الثالثة**". وفضلاً عن هذا كانت اللائحة تضم عددًا من الأعضاء الحزبيين الجدد الذين لم يختبروا في المعركة! وكان لينين يرى إجراء بعض التحفظات: "من الطبيعي... أن أحدًا لن ينكر مثلاً ترشيح رجل مثل ل. د. تروتسكي لأن تروتسكي يحتل منذ وصوله موقعًا أمميًا. وفي المقام الثاني، كافح تروتسكي في **منظمة المناطق** من أجل الدمج. وثالثًا، أظهر تروتسكي خلال الأيام العصيبة في يوليو (تموز) أنه على مستوى المهمة، ومخلص لأنصار حزب البروليتاريا الثورية. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نقول مثل هذا الشيء عن عدد كبير من أعضاء الحزب الذين انتسبوا إليه بالأمس...".

ويبدو أن أيام إبريل (نيسان) قد عادت، وعارض لينين من جديد اللجنة المركزية. وطرحت المسائل بصورة مختلفة، ولكن الروح العامة لمعارضته هي نفسها: أن اللجنة المركزية سلبية أكثر من اللازم، وتتنازل كثيرًا أمام الرأي العام للدوائر المثقفة. وهي متساهلة أكثر من اللازم إزاء التوفيقيين. وتنظر هذه اللجنة إلى مسألة الانتفاضة بروح تتسم بالقدرية واللامبالاة لا بروح بلشفية.

وقد حان الوقت للانتقال من الأقوال إلى الأفعال: "إن لحزبنا الآن، في المؤتمر الديمقراطي، مؤتمره العام الحقيقي، وعلى هذا المؤتمر الأخير أن يحدد (أراد أم لا) مصير الثورة" ولا يمكن تصور سوى حل واحد: الانتفاضة المسلحة. ووضع لينين تحفظًا أيضًا في هذه الرسالة الأولى عن الانتفاضة قائلاً: "ليست المسألة موضوع "يوم" الانتفاضة، بل موضوع "لحظة قيامها" بالمعنى الحرفي للكلمة. ولن يتقرر هذا إلا بصوت كل أولئك الذين هم على اتصال بالعمال والجنود، والجماهير". ولكن بعد يومين أو ثلاثة أيام (فقد كانت رسائل هذا الوقت غير مؤرخة اعتياديًا: لا بدافع النسيان، ولكن بصورة مقصودة) ألح لينين، متأثرًا بالانطباع الواضح لتمزق المؤتمر الديمقراطي، على الانتقال الفوري إلى العمال وصاغ فورًا خطة عملية.

"علينا في المؤتمر أن نضم فورًا صفوف المجموعة البلشفية دون أن تشغلنا مسألة العدد وعلينا أن نصوغ بيانًا مختصرًا للبلاشفة... ومن واجبنا توجيه كل مجموعتنا للتوجه إلى المصانع والثكنات. وينبغي علينا في الوقت ذاته ودون أن نضيع دقيقة واحدة تنظيم هيئة أركان المفارز الثائرة، وتوزيع القوات، ودفع الأفواج الموالية إلى أهم النقاط، وتطويق **الكسندرينكا** (المسرح الذي انعقد فيه المؤتمر الديمقراطي) واحتلال قلعة بطرس وبولص، واعتقال هيئة الأركان العامة والحكومة، ومن واجبنا أن نرسل إلى اليونكرز، والفرقة "الوحشية" مفارز مستعدة للموت، في سبيل منع العدو من التقدم إلى مراكز المدينة. وعلينا تعبئة العمال المسلحين، ودعوتهم إلى معركة أخيرة ضاربة، واحتلال مباني البرق والهاتف فورًا، وإقامة مقر هيئة أركاننا للانتفاضة في المركز الهاتفي، ربط كل المصانع والأفواج، وكل نقاط النضال المسلح إلخ... بها، ولم تعد مسألة تاريخ الانتفاضة مطروحة مرتبط بشكل مع "أصوات أولئك المتصلين بالجماهير". واقترح لينين العمل فورًا: الخروج من مسرح الكسندرا مع إنذار نهائي بالعودة إليه على رأس الجماهير المسلحة. وينبغي أن تكون الضربة القاضية موجهة لا ضد الحكومة فحسب، بل أيضًا وبآن واحد، ضد الجهاز الأعلى للتوفيقيين.

وقد شهر سوخانوف بلينين قائلاً ما يلي: "... إن لينين، الذي كان يطالب في رسائله الخاصة باعتقال أعضاء المؤتمر الديمقراطي، اقترح على صفحات الصحف كما نعلم "تسوية": أن يستولي المناشفة والاشتراكيون – الثوريون على كل السلطة، وعندئذ سنرى ما سيقوله مؤتمر السوفييتات..، وقد اقترح تروتسكي بإصرار الفكرة ذاتها في المؤتمر الديمقراطي وحوله" ورأى سوخانوف لعبة مزدوجة؛ حيث لم يكن هناك أي ظل للعبة. وكان لينين قد اقترح على التوفيقيين تسوية فورية بعد الانتصار على كورنيلوف، في الأيام الأولى من سبتمبر (أيلول). ولكن التوفيقيين رفضوا الاقتراح بهز أكتفاهم. وتحول المؤتمر الديمقراطي من قبلهم إلى تمويه لائتلاف جديد مع الكاديت ضد البلاشفة. واختفت إمكانية الاتفاق من جراء هذا نهائيًا. ولا يمكن حل مسألة السلطة بعد الآن إلا بكفاح مكشوف. وقد خلط سوخانوف بين مرحلتين تسبق المرحلة الأولى منهما المرحلة الثانية زمنيًا بخمسة عشر يومًا وتختلف عنها من الناحية السياسية.

ولكن إذا كانت الانتفاضة تنجم بصورة لا تقاوم عن الائتلاف الجديد، فإن انعطاف لينين المفاجئ أخذ قيادات حزبه الخاص على حين غرة. فقد كان جمع المجموعة البلشفية في المؤتمر، حتى "دون أن تشغلنا مسألة العدد" مستحيلاً بالطبع. وكان المناخ الفكري للمجموع ضعيفًا لدرجة أنها رفضت بـ٧٠ صوتًا مقابل ٥٠ مقاطعة اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، أي أنها رفضت الخطوة الأولى نحو الانتفاضة. ولم تجد خطة لينين أي دعم. وبعد أربع سنوات روى بوخارين في سهرة مخصصة لاستعراض ذكريات الثورة، روى بمبالغاته وكلماته الطريفة التي تميزه، حقيقة هذه الواقعة بصورة صحيحة تقريبًا. "كانت الرسالة (رسالة لينين) مكتوبة بلهجة تتسم بمنتهى العنف، وكان يهددنا فيها بكل أنواع العقوبات (؟). وقد انعقد لساننا منها. ولم يكن أحد حتى الآن قد طرح المسألة بمثل هذا العنف.. وكان الكل في البدء يعيشون في جو تحوطه الشكوك. وبعد أن تشاورنا، قررنا إحراق رسالة لينين... وربما كانت هذه الحالة، الحالة الوحيدة في تاريخ حزبنا التي قررت فيها اللجنة المركزية أمرًا بالإجماع، وفكرنا بأننا سننجح من دون شك في استلام السلطة في بتروغراد وموسكو، ولكننا قدرنا أننا لن نستطيع الصمود في المناطق أيضًا، ولن نستطيع بدون أدنى شك أن نعزز موقفنا في باقي أنحاء روسيا إلا إذا استولينا على السلطة وطردنا أعضاء المؤتمر الديمقراطي".

ولم يتقرر إحراق عدة نسخ من الرسالة الخطيرة، هذا الحرق الذي دفعت إليه اعتبارات تآمرية بالإجماع، بل بستة أصوات مقابل أربعة وامتناع ستة أعضاء عن التصويت. ومن حسن الحظ أنه احتفظ بنسخة من الرسالة للتاريخ. ولكن الصحيح في رواية بوخارين هو أن كل أعضاء اللجنة المركزية رفضوا الاقتراح، وإن كانت دوافعهم مختلفة؛ فقد عارض البعض الانتفاضة بصورة عامة، وقدر البعض أن وقت انعقاد المؤتمر كان أقل الأوقات ملاءمة لقيام الانتفاضة. وتردد الجزء الثالث وبقي في موقف المتفرج.

واتصل لينين بسميلغا بعد أن اصطدم بمقاومة مباشرة. وكان سميلغا في فنلندا، ويملك بصفته رئيسًا للجنة الإقليمية للسوفييتات سلطة حقيقية هائلة. وكان سميلغا في عام ١٩١٧ في أقصى الجناح اليساري للحزب، وكان ميالاً في يوليو (تموز) إلى دفع المعركة إلى نهايتها، وكان من عادة لينين أن يجند من يعتمد عليه دومًا في منعطفات السياسة. وكتب لينين إلى سميلغا بتاريخ ٢٧ سبتمبر (أيلول) رسالة طويلة، قال فيها: "... ماذا نعمل؟ إننا نتبنى الاقتراحات فقط؟ إننا نضيع الوقت، ونحدد "تواريخ" (٢٠ أكتوبر [تشرين الأول] –مؤتمر السوفييتات– أليس من المضحك التأجيل بهذا الشكل؟ أليس من المضحك أن نعتمد على هذا المؤتمر؟) إن البلاشفة لا يتابعون عملاً مضطردًا لإعداد قواتهم العسكرية بغرض قلب كرنسكي... ينبغي أن نحرك الحزب لكي نواجه الانتفاضة المسلحة بصورة جدية... أما دورك... فهو خلق لجنة سرية مؤلفة من العسكريين الموثوقين ولتحري الوضع من كل وجوهه معهم، (وأن نتحقق بواسطتكم) والتقاط أدق المعلومات (والتحقق منها بواسطتكم شخصيًا) عن تأليف القطعات وموقعها في بتروغراد وقرب بتروغراد، وعن نقل القطعات الفنلندية إلى بتروغراد، وعن حركة

الأسطول...إلخ"، وطلب لينين بقيام "حملة دعائية متواصلة في صفوف القوزاق الموجودين في فنلندا... وينبغي **التحري عن كل المعلومات حول معسكرات القوزاق،** وتنظيم إرسال **مفارز من المحرضين المختارين** إليهم من بين أفضل قوات بحارة وجنود فنلندا". وأخيرًا: "ينبغي **نشر الشعار** التالي لإعداد الأفكار بصورة ملائمة: على السلطة أن تنتقل فورًا إلى أيدي سوفييت بتروغراد، الذي سينقلها بدوره إلى مؤتمر السوفييتات؛ إذ ماذا يجدي تساهلنا في استمرار الحرب ثلاثة أسابيع أخرى وفي إفساح المجال أمام تحضيرات كرنسكي الكورنيلوفية".

إن أمامنا الآن خطة جديدة للانتفاضة: "لجنة سرية من العسكريين الرئيسيين" في هلسنغفورز، كأركان للقتال: "إن المورد الوحيد الذي نستطيع أن نحصل عليه، وهو على ما يبدو، بيدنا تمامًا، ويلعب دورًا عسكريًّا جديًّا، هو الجند الروس المعسكرون في فنلندا وأسطول البلطيق". وكان لينين ينوي بهذا الشكل توجيه أقسى ضربة للحكومة من خارج بتروغراد. وفي الوقت نفسه كان "التحضير الملائم للأفكار" ضروريًّا في الوقت ذاته، لكيلا يكون قلب القوات العسكرية في فنلندا للحكومة عملاً مفاجئًا لمجلس سوفييت بتروغراد، وينبغي أن يظهر هذا المجلس، إلى أن ينعقد مؤتمر السوفييتات، وكأنه الوريث الشرعي للسلطة.

ولم تطبق المسودة الجديدة للخطة، مثلها مثل السابقة. ولكنها لم تبق معطلة. وقد أعطت الفتنة في صفوف فرق القوزاق نتائج فورية، وقد سمعنا ذلك من أقوال ديبنكو. ودخل النداء الذي نظم لمساهمة بحارة البلطيق في توجيه الضربة الرئيسية للحكومة، دخل أيضًا في الخطة التي اعتمدت فيما بعد. ولكن الشيء الجوهري ليس هنا: أن لينين لم يكن ليسمح لأحد بتجنب مسألة قد أصبحت خطيرة إلى أقصى الدرجات، أو المخاتلة فيها. وما كان غير ملائم كاقتراح مباشر للتكتيك أصبح عقلانيًا كتحقيق للأوضاع الفكرية في اللجنة المركزية، وكدعم للمصممين أمام المترددين، وكدفع إضافي نحو اليسار.

وبذل لينين كل جهوده واستخدم كل الوسائل التي كان يملكها في عزلة مخبئه السري، لإجبار كوادر الحزب على الإحساس بخطورة الموقف وقوة ضغط الجماهير. واستدعى إلى ملجئه عددًا مختلفًا من البلاشفة وأخذ يستجوبهم بحرارة، وراقب أقوال الزعماء وأفعالهم، وأرسل شعاراته إلى الحزب بطرق ملتوية في الأدنى، وفي العمق، ليضع اللجنة المركزية أمام ضرورة العمل والحركة إلى النهاية.

وبعد أن كتب لينين رسالته إلى سميلغا بيوم واحد، صاغ الوثيقة التي أشرنا إليها أعلاه "**الأزمة ناضجة**"، وختمها بنوع من إعلان الحرب على اللجنة المركزية: "ينبغي أن نعترف بالحقيقة: يوجد لدينا، في اللجنة المركزية، وفي قيادات الحزب اتجاه أو رأي عام يقترح انتظار مؤتمر السوفييتات ويعارض الاستيلاء الفوري على السلطة، وعلى الانتفاضة الفورية". ولا بُدَّ من تخطي هذا الاتجاه مهما كان الثمن. "إن علينا تحقيق الانتصار في بادئ الأمر على كرنسكي، ودعوة المؤتمر فيما بعد". أما تضييع الوقت بانتظار مؤتمر السوفييتات "فهو بلاهة تامة أو خيانة كاملة..." فحتى انعقاد المؤتمر المحدد بتاريخ ٢٠، يبقى أكثر من عشرين يومًا؛ "فالأسابيع وحتى الأيام تقرر الآن كل شيء". وأن تأجيل النهاية يعني الامتناع عن الانتفاضة بجبن لأن الاستيلاء على السلطة خلال المؤتمر سيصبح مستحيلاً؛ "فسيجلبون القوزاق في اليوم "المحدد" بشكل يسيء إلى الانتفاضة ويقضي عليها".

وتدل لهجة الرسالة لوحدها كم كانت تبدو سياسة المعتدلين من زعماء بتروغراد سياسة قاتلة للينين. ولكنه لم يقتصر في هذه المرة على القيام بنقد مستميت، بل استقال من اللجنة المركزية محتجًا على هذه التصرفات. وكانت بواعث استقالته: إن اللجنة المركزية لم ترد منذ بدء المؤتمر على طلباته المتعلقة بالاستيلاء على السلطة. **ونشرت هيئة تحرير صحيفة الحزب (ستالين) مقالاته بتأخير متعمد ومقصود، مع شطب بعض الإشارات** إلى "أخطاء البلاشفة الصارخة كالخطيئة المخجلة المتمثلة بالاشتراك في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي" ...إلخ، وقدر لينين أنه ليس من الممكن تغطية هذه السياسة أمام الحزب.

وقال: "إنني مضطر لطلب الخروج من اللجنة المركزية، وهذا ما سأفعله، وسأحتفظ لنفسي بحق التحريض في قاعـدة الحـزب وفي مؤتمره".

وطبقًا للوثائق لا نرى أبدًا كيف سويت هذه المسألة بصورة قاطعة فيما بعد. وعلى كل حال، لم يخرج لينين من اللجنـة المركزية. وعندما قدم استقالته، التي لم تكن بالنسبة إليه نتيجة لحظة من لحظات الانفعال، كان لينين يحتفظ بالطبع فـي سـره بإمكانية التملص عند الحاجة من الانضباط الداخلي للجنة المركزية؛ فلم يكن يشك، كما لم يشك في إبريـل (نيـسان) أن نـداء مباشرًا يوجهه إلى القاعدة سيضمن له الانتصار. ولكن طريق التمرد المكشوف ضد اللجنة المركزية يفترض إعداد مؤتمر فوق العادة، ويتطلب بالتالي وقتًا. بَيْد أنه كان يفتقر إلى الوقت. وتابع لينين بحرية أكبر تطوير هجومه على خطوط العمليات الداخلية محتفظًا برسالة استقالته كاحتياط، ولكنه لم يخرج تمامًا عن حدود شرعية الحزب. ولم تصل رسـائله الموجهـة إلـى اللجنـة المركزية إلى لجنتي بتروغراد وموسكو فحسب، بل أنه اتخذ أيضًا تدابير لكي تصل نسخ منها إلى أوثـق مناضـلي الأحيـاء. وكان لينين قد تجاوز اللجنة المركزية، وكتب في بداية أكتوبر (تشرين الأول) إلى لجنتي بتروغراد وموسكو مباشرة ما يلـي: "ليس من حق البلاشفة أن ينتظروا مؤتمر السوفييتات، وأن من واجبهم استلام السلطة فورًا... والتأخر جريمـة. وأن انتظـار مؤتمر السوفييتات لعبة تافهة من أجل الشكليات، إنها لعبة مخجلة في التمسك بالشكليات، إنها خيانة للثورة". ولم تكـن أعمـال لينين من وجهة نظر العلاقات التسلسلية غير قابلة للنقد. ولكن الأمر كان يتعلق بشيء أكبر من اعتبارات الانضباط القاسي.

وقد قال **سفيشنيكوف** -أحد أعضاء لجنة ناحية فيبورغ- **في مذكراته** ما يلي: "وكان أيليتش يكتب في عزلته ويكتب بلا كلل أو ملل، وكانت **ناديجدا كونستانتينوفنا (كروبسكايا)** تقرأ لنا غالبًا هذه المخطوطات في اللجنة... وكانت الأقوال الملتهبـة للزعيم تضيف قوى جديدة إلى قوتنا... وأنني لأتذكر كما لو أن ذلك قد تم بالأمس، أتذكر ناديجدا كونستانتينوفنا وقد انحنـت، في إحدى قاعات قيادة الناحية حيث كان ضاربو الآلة الكاتبة يعملون، وكانت تقارن باعتناء الطبع مع الـنص الأصـلي وإلـى جانبها "ديايا" و"جينيا" تطالبان بالحصول على نسخة". دياديا (العم) وجينيا (أوجيني)، كانا اسـمين حـركيين لـزعيمين فـي المؤامرة. وروى نأوموف أحد مناضلي الناحية ما يلي: "منذ مدة ليست طويلة تلقينا من أيليتش رسـالة لنقلهـا إلـى اللجنـة المركزية... قرأنا الرسالة وقلنا "أواه!"، يبدو أن لينين يطرح منذ وقت طويل مسألة الانتفاضة أمام اللجنـة المركزيـة. فقمنـا بالاحتجاج، وبدأنا بالضغط على المركز". وكان هذا بالضبط ما يجب فعله.

وفي الأيام الأولى من أكتوبر (تشرين الأول) دعا لينين مؤتمر الحزب في بتروغـراد ليقـول كلمتـه بحـزم لـصالح الانتفاضة. وبمبادرته "رجا المؤتمر اللجنة المركزية بإلحاح لاتخاذ كل التدابير من أجـل قيـادة **انتفاضـة العمـال والجنـود، والفلاحين الحتمية**". وفي هذه الجملة الواحدة تمويهان أحدهما قانوني والآخر دبلوماسي حول قيادة "الانتفاضة الحتمية" بدلاً من الإعداد المباشر للانتفاضة، وقد قيل هذا لكي لا تعطى كثير من فرص النجاح للقضاء. و"رجا المؤتمر اللجنة المركزيـة"، فلـم يطالب ولم يحتج أبدًا، كان ذلك ضريبة طبيعية لنفوذ أكبر مؤسسة في الحزب. ولكن قيل أيضًا في قرار آخر، صـاغه لينـين بصراحة أكبر: "... يلاحظ بعض التذبذب وسط قيادات الحزب، كخوف من القتال للاستيلاء على السلطة، وميل إلى اسـتبدال هذه المعركة بالقرارات، والاحتجاجات، والمؤتمرات". وهذا يعني مواجهة مكشوفة بين الحزب واللجنة المركزية. ولـم يبـت لينين، ولم يتخذ خطواته بصورة طائشة. ولكن مصير الثورة في كفة القدر، ولهذا فإن كل الاعتبارات الأخرى تعود إلى الصف الثاني.

وبتاريخ ٨ أكتوبر (تشرين الأول) توجه لينين إلى المندوبين البلاشفة في مؤتمر الشمال الإقليمي المقبل قائلاً ما يلي: "لا يمكن انتظار مؤتمر سوفييتات عموم روسيا، الذي تستطيع اللجنة التنفيذية المركزية تأجيله حتى نوفمبر (تـشرين الثـاني)، ولا

يمكن التأجيل مع السماح لكرنسكي بجلب قطعات كورنيلوفية أيضًا". وعلى المؤتمر الإقليمي، الذي تمثل فيه فنلندا، وأسطول ريفال، أن يتخذ مبادرة "زحف فوري على بتروغراد"، والدعوة المباشرة إلى الانتفاضة الفورية موجهة في هذه المرة إلى ممثلي عشرات السوفييتات. وجاء النداء من لينين شخصيًا: ليس هناك قرارات للحزب، فلم تنطق حتى الآن أعلى هيئة في الحزب برأيها.

وكان من الواجب التحلي بأكبر ثقة إزاء البروليتاريا، والحزب، واتخاذ أكبر حذر جدي إزاء اللجنة المركزية كيما يثير لينين، بصورة مستقلة عنها، وعلى مسئوليته الشخصية، ومن أعماق مخبئة بواسطة رسائل مكتوبة على ورق صغير مغطاة بكتابة دقيقة، الاضطراب والحماس للانتفاضة المسلحة. فكيف حدث إذن أن لينين الذي رأيناه معزولاً وسط قيادات حزبه الخاص في بداية إبريل (نيسان)، قد عزل من جديد في الوسط ذاته في سبتمبر (أيلول) وفي بداية أكتوبر (تشرين الأول)؟ لا يمكن فهم هذه العزلة إذا أضفنا اعتقادنا بالأسطورة التي تمثل تاريخ البلشفية كشيء يصدر بصورة بسيطة وخالصة عن فكرة ثورية. والحقيقة، تطورت البلشفية في وسط اجتماعي معين، تعرض لانعكاسات مختلفة، منها نفوذ تطويق بورجوازي صغير، ووضع ثقافي متخلف. وكان الحزب لا يتلاءم مع كل وضع جديد إلا بأزمة داخلية.

ولكي تبدو المعركة الحادة، التي سبقت أكتوبر (تشرين الأول) في قمم البلشفية بصورة واضحة كل الوضوح، ينبغي أن نلقي أيضًا نظرة إلى الخلف على التطورات في الحزب التي بحثت في الجزء الأول من هذا الكتاب. وتزداد ضرورة هذه النظرة، وخاصة في هذه اللحظة، **لأن جناح ستالين يبذل جهودًا جبارة، حتى على المستوى الدولي، ليمحو من التاريخ كل ذكرى لكل ما عُمل فعلاً وتحقق بانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول).**

واتخذ البلاشفة في الصحافة الشرعية خلال السنوات التي سبقت الحرب لقب "الديموقراطيين المنسجمين مع أنفسهم". إن هذه التسمية لم تنتق عن طريق الصدفة. إن البلشفية والبلشفية وحدها هي التي كانت تملك جرأة دفع شعارات الديمقراطية الثورية حتى النهاية. ولكنها لم تكن لتتجاوزها أبدًا. بَيْد أن الحرب التي ربطت الديمقراطية البرجوازية ارتباطًا لا ينفصم بالإمبريالية، قد أظهرت بصورة نهائية أن منهاج "الديمقراطية المنسجمة مع نفسها" لا يتحقق إلا بثورة بروليتارية. ومن لم يجد من البلاشفة هذا التفسير للحرب، سيؤخذ حتمًا على حين غرة بالثورة، ويتحول إلى رفيق طريق ليسار الديمقراطية البرجوازية.

بَيْد أن الدراسة الدقيقة للوثائق التي تميز حياة الحزب خلال الحرب وفي بداية الثورة، بالرغم من الثغرات الهائلة المقصودة، وبدءًا من عام ١٩٢٣، وبالرغم من ازدياد **الفكر المغرض،** أن هذه الدراسة تظهر أكثر فأكثر **الانزلاق الأيديولوجي الضخم** الذي قامت به الشريحة العليا للبلاشفة خلال الحرب، عندما توقفت حياة الحزب النظامية بالفعل. وكان **سبب الانزلاق مزدوجًا: القطيعة مع الجماهير، والقطيعة مع المهاجرين السياسيين،** أي مع لينين قبل كل شيء، **وكنتيجة لكل هذا: الوقوع في العزلة والإقليمية.**

ولم يكتب أحد من البلاشفة القدامى في روسيا، عندما كان يختلي بنفسه وثيقة واحدة خلال الحرب يمكن أن تعتبر على الأقل علامة دالة على الطريق من الأممية الثانية إلى الثالثة. وقد كتب أطونوف – سارانوفسكي أحد أعضاء الحزب القدامى، منذ عدة سنوات ما يلي: "كانت ترتسم أمامنا مسائل السلم وطبيعة الثورة الصاعدة، ودور الحزب في الحكومة المؤقتة المقبلة ...إلخ بصورة مشوشة أو أنها لا تدخل أبدًا في حقل تأملاتنا". وحتى الآن لم يُنشر في روسيا مؤلَّف واحد، أو صفحة واحدة، أو رسالة واحدة أعرب فيها ستالين، ومولوتوف أو الزعماء الآخرون الحاليون ولو بشكل عابر، وحتى لو من طرف خفي عن آرائهم حول أبعاد الحرب والثورة. وهذا لا يعني بالطبع أن "البلاشفة القدامى" لم يكتبوا شيئًا حول هذه المسائل أثناء سنوات الحرب، وانهيار الحزب الاشتراكي – الديموقراطي، وإعداد الثورة الروسية. فقد كانت الأحداث التاريخية تطالب بصورة

إلزامية بإعطاء الإجابة، وكان السجن والنفي، يتيحان أوقات كافية للتأملات والمراسلات. ولكن لا يوجد شيء في كل ما كتب حول هذه الموضوعات ما يمكن تفسيره، حتى ولو تجاوزنا حدود التفسير، كتقدم نحو أفكار ثورة أكتوبر (تشرين الأول). ويكفي أن نشير إلى أن **معهد تاريخ الحزب** محروم من إمكانية نشر ولو سطر واحد كُتب بريشة ستالين بين عام ١٩١٤ و١٩١٧. وهو مضطر إلى إخفاء أهم الوثائق المتعلقة بمارس (آذار) ١٩١٧. وقد تركت صفحة بيضاء لتاريخ سنوات الحرب في السير التاريخية السياسية الرسمية لأكثرية الشريحة الحاكمة حاليًا. تلك هي الحقيقة بكل بساطة.

ولم يستطع بابيفسكي أحد المؤرخين الشبان الجدد، الذي كلف بصورة خاصة لإظهار كيفية تطور قيادات الحزب أثناء الحرب في اتجاه الثورة البروليتارية، بالرغم من مرونة الوجدان العلمي الذي برهن عليها، لم يستطع أن يستخلص أية مادة، فيما عدا هذا التصريح التافه: "لا يمكن متابعة مسار هذا التطور، ولكن بعض الوثائق والذكريات تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك أن فكر الحزب قد قام بصورة سرية بأبحاث في اتجاه موضوعات أبريل (نيسان) للينين". وكأنما الهدف هو القيام بأبحاث سرية لا بتقديرات علمية، وأفكار سياسية!

وحاولت **برافدا** بتروغراد في بداية الثورة اتخاذ موقف أممي، متناقض تمام التناقض؛ لأنها لم تخرج من إطارات الديمقراطية البرجوازية. وأعطى البلاشفة لمأذون لهم، الذين عادوا من المنفى للصحيفة المركزية إدارة ديمقراطية – وطنية. وذكر كالينين ردًا على الاتهامات التي وجهت إليه ووصمته بالانتهازية، ذكر بتاريخ ٣٠ مايو (آيار) أن من الواجب "الاحتذاء بمثل البرافدا. ففي البدء سارت البرافدا على سياسة معينة فوَصل ستالين ومورانوف وكامنييف وأداروا مقود البرافدا في اتجاه آخر".

وقد كتب مولوتوف منذ عدة سنوات ما يلي: "ينبغي أن نقول ذلك بوضوح. لم يكن الحزب يملك الآراء الواضحة والقرار الذي تتطلبه اللحظة الثورية... ولم يكن للإثارة والتحريض، ككل العمل الثوري للحزب بمجموعه، قاعدة متينة أبدًا، لأن الفكر لم يكن قد توصل بعد إلى استنتاجات جريئة حول ضرورة الكفاح المباشر من أجل الاشتراكية والثورة الاشتراكية". "ولم يبدأ التحول إلا خلال الشهر الثاني من الثورة". ويشهد مولوتوف أيضًا: "وعندما وصل لينين إلى روسيا في أبريل (نيسان) ١٩١٧ أحس حزبنا بأنه يملك أرضًا صلبة تحت قدميه... وما زال الحزب حتى لحظة وصول لينين، يجس الأرض بصورة ضعيفة ودون ثقة ليتلمس طريقه".

إن التوصل **بصورة مسبقة** إلى أفكار ثورة أكتوبر (تشرين الأول) لم يكن ممكنًا في سيبريا، أو في موسكو، أو في بتروغراد، بل **كان ممكنًا فقط في مفترق الطرق التاريخية العالمية**. وكان على مسائل الثورة البرجوازية المتأخرة أن تلتقي مع احتمالات الحركة البروليتارية العالمية لكي يكون من الممكن صياغة منهاج ديكتاتورية البروليتاريا، الذي يمس روسيا. وكنا نحتاج لمخفر أعلى للمراقبة، ولساحة رؤية غير وطنية بل أممية، دون أن نتحدث عن سلاح أكثر جدية من السلاح الذي كان يستخدمه أولئك الذين يسمون "**الزعماء العمليون الروس للحزب**".

وكان قلب الملكية وتقويضها يفتح، في نظرهم، عهد روسيا الجمهورية "الحرة"، التي يتأهبون فيها للبدء بالكفاح من أجل الاشتراكية على غرار مثل الدول الغربية. وقد أبرق ثلاثة من البلاشفة القدامى هم: ريكوف، وسكفورتسوف وبغمان "بتفويض من الاشتراكيين – الديموقراطيين في إقليم ناريم الذين حرَّرتهم الثورة"، أبرقوا من تومسك في مارس (آذار) يقولون: "إننا نحيي البرافدا التي جددت الحياة فيها، والتي أعدت بكثير من النجاح الكوادر الثورية لكسب الحرية السياسية. وإننا نعبر عن قناعتنا العميقة بأنها ستنجح لتجميعهم حول علمها لمتابعة الكفاح باسم الثورة الوطنية". ويبرز من هذه البرقية الجماعية تصميم عام يفصل بينه وبين أفكار أبريل (نيسان) للينين هوة كبيرة. **وكانت انتفاضة فبراير (شباط) قد حولت الشريحة الحاكمة للحزب مع**

كامنييف وريكوف وستالين على رأسها إلى ديمقراطيين من دعاة الدفاع الوطني يتطورون نحو اليمين، في اتجاه التقارب مع المناشفة. وقد أصدر ياروسلافسكي الذي أصبح مؤرخاً للحزب فيما بعد، بالتعاون مع أوردجونيكيدزه الذي أصبح فيما بعد رئيس لجنة الرقابة المركزية وبتروفسكي الذي أصبح فيما بعد أيضًا رئيس اللجنة التنفيذية المركزية في أوكرانيا، أصدر هؤلاء في مارس (آذار) بالتحالف الوثيق مع المناشفة في ياكوتسك **مجلة الاشتراكي – الديموقراطي** التي كانت تقف على حدود الإصلاحية الوطنية والليبرالية، وقد جمعت أعداد مجلتهم بدقة في السنوات التي تلت وأتلفت.

وكتب أنغارسكي -وهو رجل هذا الوسط الذي نتحدث عنه عندما كان مسموحًا بكتابة أشياء مماثلة- ما يلي: "ينبغي أن نعترف بصراحة أن عددًا كبيرًا من البلاشفة القدامى، كانوا يتمسكون بوجهات النظر البلشفية القديمة لعام ١٩٠٥، حتى أن مؤتمر الحزب الذي انعقد في أبريل (نيسان)، تبنى نفس وجهات النظر هذه، حول مسألة طابع ثورة ١٩١٧، وقد كان من الصعب التنازل عن وجهات النظر هذه والقضاء عليها". وينبغي أن نضيف إلى أن الأفكار البالية لعام ١٩٠٥ لم تعد في عام ١٩١٧ "وجهات نظر بلشفية قديمة" وإنما أصبحت أفكارًا إصلاحية وطنية.

وذكرت إحدى النشرات التاريخية الرسمية ما يلي: "حقًا، إن أفكار أبريل (نيسان) للينين لم تلاق نجاحًا في لجنة بتروغراد. وقد أدلى عضوان فقط بصوتيهما تأييدًا لهذه الأفكار الهامة مقابل ١٣ أدلوا بأصواتهم لمعارضتها، وامتناع عضو واحد عن التصويت". وكتب بودفويسكي قائلاً: "يبدو أن استنتاجات لينين كانت جريئة أكثر مما يجب، حتى بالنسبة لأكثر تلاميذه حماسة واندفاعًا". وبحسب رأي لجنة بتروغراد والتنظيم العسكري: وضعت تصريحات لينين "... حزب البلاشفة في عزلة، وأزّمت من جراء هذا وضع البروليتاريا والحزب إلى آخر درجة من الدرجات".

وفي نهاية مارس (آذار) تبنى ستالين الدفاع الوطني، وأيد الدعم المشروط للحكومة المؤقتة، والبيان السلمي لسوخانوف، والاندماج مع حزب تسيريتلي. وكتب ستالين بنفسه فيما بعد، في عام ١٩٢٤ ما يلي: "لقد شاركت في هذا الموقف الخاطئ مع بعض الرفاق الحزبيين الآخرين، ولم أتنازل عنه نهائيًا إلا في منتصف أبريل (نيسان) عندما انضممت إلى أفكار لينين. كان لا بُدَّ من توجيه جديد. وقد أعطى لينين هذا التوجيه الجديد للحزب في أفكار إبريل (نيسان) المشهورة...".

وكان كالينين، يتمسك، حتى في نهاية أبريل (نيسان) بقيام كتلة انتخابية تضم المناشفة. وكان لينين يقول في مؤتمر الحزب: "سأعارض كالينين بكل قوتي، لأن كتلة مع... الشوفينيين فكرة لا يمكن تصورها... إنها خيانة للاشتراكية". ولم تكن الحالة الفكرية لكالينين استثناء، حتى في بتروغراد. وقد قيل في المؤتمر: "إن المناخ الخانق للاتحاد قد بدأ يتبدد تحت تأثير لينين".

واستمرت مقاومة أفكار لينين في المناطق مدة أطول، وبقيت في عدد من الأقاليم، حتى أكتوبر (تشرين الأول) تقريبًا. وحسب رواية سيفستوف أحد عمال كييف: "لم يتمثل التنظيم البلشفي في كييف الآراء المعروضة في أفكار (لينين). وكان عدد وافر من الرفاق منهم ج بياتاكوف، معارضًا لهذه الأفكار..."، وروى مورغونوف أحد عمال السكك الحديدية في خاركوف ما يلي: "كان البلاشفة القدامى يتمتعون بنفوذ كبير وسط جماهير عمال السكك الحديدية... وكان عدد الذين لا ينتمون من البلاشفة القدامى إلى مفرزتنا كبيرًا... وانضم بعضهم بعد ثورة فبراير (شباط) إلى المناشفة خطأ، ثم سخروا من ذلك بأنفسهم، وتساءلوا كيف أمكن حدوث هذا". والشهادات من هذا النوع وهذا الطراز متوفرة كثيرًا.

ورغم كل هذا، فإن إشارة بسيطة إلى قيام لينين بإعادة تسليح الحزب في أبريل (نيسان) تعتبر الآن من قبل التأريخ الرسمي للحوادث كتدنيس للمقدسات. وقد استبدل المؤرخون الأخيرون المعيار التاريخي بمعيار هيبة وحدة شكل الحزب. حتى

أن هؤلاء المؤرخين لا يملكون حق الاستشهاد في هذا الموضوع بستالين، الذي كان مضطرًا في عام ١٩٢٤ إلى الاعتراف بكل عمق تحول أبريل (نيسان). "كانت أفكار أبريل (نيسان) المشهورة للينين ضرورية لكي يتمكن الحزب دفعة واحدة من المسير في طريق جديد". "توجيه جديد" و"طريق جديد" هذا هو إعادة تسليح الحزب. ومع هذا فقد طورد ياروسلافسكي بعد ست سنوات عندما ذكر كمؤرخ بأن ستالين قد اتخذ في بداية الثورة "موقفًا خاطئًا في المسائل الأساسية" طورد بشكل عنيف من كل الجهات. إن طاغوت الهيبة، هو من بين كل الوحوش أكثرها افتراسًا.

وأجبر التقليد الثوري للحزب وضغط عمال القاعدة، ونقد لينين في القمة، أجبر كل هذا، الشريحة العليا للحزب، في بحر إبريل (نيسان) – مايو (أيار)، حسب التعابير الذي استخدمها ستالين بذاته على "المسير في طريق جديد". ولكن لكي نقبل بأن مجرد التصويت بالموافقة على أفكار لينين يعني التنازل الفعلي والكامل عن "الموقف الخاطئ المتخذ في المسائل الأساسية"، لكي نقبل هذا لا بُدَّ من أن نكون جاهلين بالنفسية السياسية جهلاً تامًا. وفي الحقيقة، بقيت وجهات النظر الديمقراطية المبتذلة والتي تعززت عضويًا خلال سنوات الحرب، مع أنها تلاءمت مع برنامج جديد، بقيت تعارض هذا البرنامج معارضة صامتة.

وبتاريخ ٦ أغسطس (آب) أيد كامنييف في اللجنة التنفيذية، رغم قرار مؤتمر البلاشفة في إبريل (نيسان)، وجهة النظر القائلة بالمشاركة في المؤتمر الاشتراكيين – الوطنيين الذين كان يعد في ستوكهولم. ولم يلق تصريح كامنييف في الجهاز المركزي للحزب أية معارضة. وكتب لينين مقالة صاعقة لم تظهر مع ذلك إلا بعد خطاب كامنييف بعشرة أيام. ولكي تتم طباعة احتجاج لينين، كان لا بُدَّ من ضغط لينين الجبار ذاته، وبعض الأعضاء الآخرين في اللجنة المركزية، على هيئة التحرير التي كان ستالين على رأسها.

وانتشرت حركات حافلة بالتردد والتشنج في أوساط الحزب بعد أيام يوليو (تموز)؛ فقد أفزعت عزلة الطليعة البروليتارية عددًا من الزعماء، وخاصة في المناطق. وحاول هؤلاء الرعاديد التقارب من التوفيقيين في الأيام الكورنيلوفية، الأمر الذي كانت نتيجته صدور صرخة تحذير جديد من لينين.

وبتاريخ ٣٠ أغسطس (آب) **نشر ستالين** بصفته رئيسًا للتحرير **مقالة لزينوفييف** دون أي تحفظ عليها، كان **عنوانها: ما ينبغي أن لا نفعله**. وكانت هذه المقالة موجهة ضد إعداد الانتفاضة "ينبغي أن ننظر إلى الحقيقة أمامنا: إن أمامنا في بتروغراد ظروفًا عديدة تسمح باندلاع انتفاضة من نموذج كومونة باريس في عام ١٨٧١...". وبتاريخ ٣ سبتمبر (أيلول) كتب لينين في تسلسل جديد للأفكار، ودون أن يشير إلى زينوفييف، ولكنه هاجمه بصورة غير مباشرة: "إن الإشارة إلى الكومونة إشارة مصطنعة وسخيفة. لأن البلاشفة قد تعلموا على كل حال شيئًا جديدًا منذ عام ١٨٧١، فهم لن يتركوا مصرفًا خلفهم دون أن يستولوا عليه، ولن يمتنعوا عن القيام بهجوم على قصر فرساي. ولو أن مثل هذه الشروط تحققت لكومونة باريس لاستطاعت الكومونة الغلبة والانتصار. وبالإضافة إلى هذا، لم تكن الكومونة قادرة على أن تقترح على الشعب للوهلة الأولى ما سيستطيع البلاشفة اقتراحه إذا أصبحت السلطة بيدهم. وبوسع البلاشفة اليوم أن يقترحوا: الأرض للفلاحين، الاقتراح الفوري بالسلم". كان هذا الإنذار عامًا ولكنه لا يحتمل اللبس والغموض، لا لزينوفييف فحسب، بل لستالين **محرر البرافدا** أيضًا.

وقسمت مسألة اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي اللجنة المركزية إلى قسمين. فقد أيدت قرار مجموعة المؤتمر بالمشاركة في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي عدة لجان محلية، أن لم نقل أكثرية هذه اللجان. وكان الأمر على هذا الشكل في كييف مثلاً. ولقد كتب **إي. بوخ** في **مذكراته** ما يلي: "حول مسألة الدخول إلى اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي.... أيدت أكثرية اللجنة قرار الاشتراك وانتخبت ممثلها بياتاكوف". ومن الممكن أن نميز تعاقبًا في الارتياب والشكوك في كثير من الحالات، كمثل كامنييف، وريكوف وبياتاكوف وآخرين: معارضة أفكار لينين في أبريل (نيسان)، ومعارضة قرار مقاطعة

اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي في سبتمبر (أيلول)، ومعارضة الانتفاضة في أكتوبر (تشرين الأول). وعلى العكس تبنت الشريحة التالية من الكوادر البلشفية، الأقرب إلى الجماهير، والأكثر جدة من الناحية السياسية، تبنت هذه الشريحة بسهولة شعار المقاطعة، وأجبرت اللجان فجأة على تغيير رأيها ومن هذه اللجان اللجنة المركزية. وأدلى مؤتمر مدينة كييف، تحت تأثير لينين بأكثرية ساحقة، برأي معارض لرأي لجنته. وهكذا كان لينين يعتمد على الشرائح الدنيا للجهاز ضد الشرائح العليا في معظم المنعطفات السياسية القاسية، أو يعتمد على جماهير الحزب ضد جهاز الحزب بصورة عامة.

وفي هذه الشروط، لم تكن الترددات التي سبقت أكتوبر (تشرين الأول) لتستطيع أن تأخذ لينين على حين غرة. فقد كان محصناً مسبقًا بحذر حاد، وسهر على مراقبة الأعراض المنذرة بالخطر، وانطلق من أسوأ التخمينات والاحتمالات. واعتبر الضغط مرة أخرى أيضًا عملاً ملائمًا بدلاً من إظهار التساهل.

ومما لا شك فيه أن المكتب الإقليمي لموسكو قد تبنى في نهاية سبتمبر (أيلول) قرارًا قاسيًا ضد اللجنة المركزية، بوحي من لينين. وقد اتهم المكتب اللجنة المركزية في هذا القرار بعدم التصميم، والتردد، ونشر البلبلة في صفوف الحزب. وطالب القرار اللجنة "باتخاذ خط واضح ومحدد للانتفاضة". وقد نقل لوموف بتاريخ ٣ أكتوبر (تشرين الأول) هذا القرار إلى اللجنة المركزية باسم مكتب موسكو. ونقرأ في عضو الجلسة ما يلي: "لقد تقرر عدم فتح المناقشات حول التقرير". واستمرت اللجنة المركزية في تجنب بحث المسألة: فما العمل؟ ولكن ضغط لينين بواسطة موسكو لم يبق بدون أثر: وقررت اللجنة المركزية بعد يومين الانسحاب من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي.

وكانت هذه الخطوة مدخلاً على طريق الانتفاضة. كان هذا واضحًا للأعداء والخصوم. وقد كتب سوخانوف ما يلي: "كان تروتسكي بإجلاء جيشه عن اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، يتجه بوضوح إلى الانتفاضة العنيفة". وانتهى تقرير سوفييت بتروغراد عن الانسحاب من اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي بالصرخة التالية: "عاش الكفاح المباشر والمكشوف من أجل السلطة الثورية في البلاد!" كان هذا في ٩ أكتوبر (تشرين الأول).

وتمت في اليوم التالي الجلسة المشهورة للجنة المركزية، بناء على طلب لينين، حيث طرحت مسألة الانتفاضة بكل حدتها. وفي ختام هذه الجلسة كان لينين يربط سياسته الداخلية باللجنة المركزية أو ضدها. وقد كتب سوخانوف ما يلي: "أواه! يا لها من دعابات جديدة لآلهة التاريخ المرحلة!. فقد تمت هذه الجلسة الحاسمة لكبار الزعماء في منزلي، ودومًا في نفس الشارع كاربوفكا (٣٢، شقة رقم ٣١). ولكن كل هذا حدث دون معرفتي". فقد كانت زوجة المنشفي سوخانوف بلشفية. "وفي هذه المرة، اتخذت تدابير خاصة لكي أقضي الليلة في مكان آخر: ولقد جمعت زوجتي كل معلوماتها الصحيحة على الأقل من نواياي وأعطتني نصيحة ودية ومتجردة، وهي أن لا أرهق نفسي بعد سفرة طويلة. وعلى كل حال، كان المجلس السامي للبلاشفة محميًا تمامًا من أي تسلل من جانبي". وقد حُرس المؤتمر وأمنت حمايته وهو أمر أكثر أهمية، من أي هجوم تثنه شرطة كرنسكي.

وكان اثنا عشر عضوًا من أصل ٢١ عضوًا هم أعضاء اللجنة المركزية حاضرين. ووصل لينين، يرتدي على رأسه شعرًا مستعارًا، وعلى وجهه زوج نظارات، وقد حلق ذقنه. واستمرت الجلسة قرابة العشر ساعات دون انقطاع حتى ساعة متأخرة من الليل. وشرب الأعضاء الشاي، وأكلوا خبزًا ومقانق لاستعادة قواهم في فترة من فترات الاستراحة. وكانوا يحتاجون فعلاً إلى هذه الراحة؛ فقد كان الهدف هو الاستيلاء على السلطة في إمبراطورية القياصرة القديمة، وابتدأت الجلسة، كالعادة، بتقرير قدمه سفردلوف عن التنظيم. وكانت المعلومات التي قدمها، في هذه المرة، مخصصة للجبهة، وكانت بالطبع منسقة مع لينين مسبقًا كيما تعطيه دعمًا في الاستنتاجات الضرورية منها، وكان هذا العمل يتجاوب تمامًا مع أساليب لينين الاعتيادية. وقد

أعلم ممثلو جيوش جبهة الشمال بواسطة سفردلوف أن القيادة المضادة للثورة تعد "عملية مريبة بإعادة قطعات إلى المؤخرة". ومن منسك، ومن هيئة أركان الجبهة الغربية، وصلت معلومات عن إعداد مغامرة كورنيلوفية جديدة فيها. ونظرًا للحالة الفكرية الثورية للحامية المحلية، فقد أمرت هيئة الأركان بتطويق المدينة بقوات من القوزاق: "وهناك مباحثات ذات طابع مريب بين هيئات الأركان والمقر العام للقوات المسلحة". ومن الممكن الاستيلاء على هيئة أركان منسك: أن الحامية المحلية مستعدة لنزع سلاح القوزاق الذين يطوقونها. ومن الممكن أيضًا إرسال فيلق ثوري من منسك للزحف على بتروغراد. وفي الجبهة، يسود الشعور بالتعاطف مع البلاشفة، والاستعداد للزحف ضد كرنسكي. تلك كانت المقدمة، ولم تكن واضحة بشكل كاف في كل أجزائها، ولكنها تتسم بطابع مشجع.

وانتقل لينين إلى الهجوم فورًا، "منذ بدء سبتمبر (أيلول) يلاحظ نوع من اللامبالاة إزاء الانتفاضة". وهناك من يتعللون ببرود الجماهير وخيبة أملها. أن هذا لا يدهش: "فقد ملت الجماهير من الأقوال والقرارات" وينبغي دراسة الوضع بمجمله. وتتم الأحداث في المدن الآن على خلفية حركة فلاحية جبارة. وستحتاج الحكومة إلى قوات هائلة كي تخنق الانتفاضة الزراعية. "وهكذا فالوضع السياسي جاهز تمامًا. وينبغي أن نتحدث من الناحية التقنية. وكل هذا يعود إليها. ونحن ميالون، بعد أنصار الدفاع الوطني، إلى اعتبار الإعداد المطرد للانتفاضة كنوع من الإثم السياسي". وقد عدل لينين بالطبع من تعابيره؛ فقد طفح كيله من موقف اللجنة المركزية. "وينبغي الاستفادة من المؤتمر الإقليمي لسوفييتات الشمال ومن اقتراح منسك للقيام بعمل حازم".

وافتتح مؤتمر الشمال جلساته في نفس يوم جلسة اللجنة المركزية وانتهى بعد يومين أو ثلاثة أيام. وكان لينين يعتبر "القيام بعمل حازم" مهمة الأيام المقبلة، فلا يمكن الانتظار، ولا يمكن التأجيل؛ فالخصم يعد في الجبهة انقلابًا –وقد سمعنا ذلك من سفردلوف– هل سيكون هناك مؤتمر للسوفييتات؟ إننا لا نعرف شيئًا. ينبغي الاستيلاء على السلطة فورًا، دون انتظار أي مؤتمر. وكتب تروتسكي بعد عدة سنوات: "بقيت الروح العامة لهذه الاقتراحات الحازمة والعنيفة، والمشبعة برغبة لينين في نقل فكره وإرادته وثقته وشجاعته إلى المعارضين، والمترددين، والمتشككين، بقيت هذه الروح غير قابلة للترجمة، ولا يمكن التعبير عنها..

وكان لينين يتوقع مقاومة كبيرة. ولكن مخاوفه تبددت بسرعة. فقد كان للإجماع الذي رفضت فيه اللجنة المركزية في سبتمبر (أيلول) اقتراح القيامة بانتفاضة فورية طابع عارض؛ فقد عارض الجناح اليساري "تطويق مسرح الكسندرا" آخذًا الظرف بعين الاعتبار. كما عارض الجناح اليميني لأسباب ودوافع تتعلق بالإستراتيجية العامة، لم تبحث حتى هذه اللحظة بعمق وإمعان. وخلال الأسابيع الثلاثة المنقضية تطورت اللجنة المركزية بصورة هائلة إلى اليسار. وأيد الانتفاضة عشرة أصوات مقابل صوتين. وكان هذا انتصارًا جديًا!

وبعد الانتفاضة بفترة قصيرة، وفي مرحلة جديدة من الصراع في داخل الحزب ذكر لينين، خلال المناقشات التي تمت في لجنة بتروغراد كيف شعر في جلسة اللجنة المركزية، وكيف "تملكه الخوف من انتهازية بعض الأمميين الوحدويين، ثم تبدد هذا الخوف. وكان بعض أعضاء حزبنا (في اللجنة المركزية) لا يتفقون معنا حول هذا الرأي. وقد أحزنني هذا الموقف كثيرًا" وإذا استثنينا تروتسكي الذي لم يكن لينين يقصده بقوله فقد كانت اللجنة المركزية تضم من "الأمميين"، أيوفيه الذي أصبح سفيرًا في برلين، وأوريتسكي، الذي أصبح رئيسًا للتشيكا في بتروغراد، وسوكولنيكوف الذي خلق فيما بعد **التشيرفونيتز**[1]. وقد انحاز الثلاثة إلى لينين، وعارض اثنان من البلاشفة القدامى لينين، مع أن هذين العضوين كانا أقرب الأعضاء إلى لينين في نضالهما الحزبي السابق وهما: زينوفييف وكامنييف. وعندما قال لينين: "وقد أحزنني هذا الموقف كثيرًا" كان يقصدهما. وكانت جلسة ١٠ مخصصة لنقاش مثير مع زينوفييف وكامنييف: كان لينين يقود الهجوم، وكان الاثنان يبرزان إليه بالتتابع.

وكان القرار الذي كتبه لينين بسرعة، بقلم صغير وعلى ورقة مربعة مدرسية، كان هذا القرار مكتوبًا بشكل لا يتسم بالكمال، ولكنه أعطى بالمقابل دعمًا قويًا للتيار الذي يسير في اتجاه الانتفاضة. "تعترف اللجنة المركزية بأن الوضع الدولي للثورة الروسية (انتفاضة الأسطول في ألمانيا كأقصى تعبير عن ازدياد الثورة الاشتراكية العالمية في كل أوروبا ومن ثم تهديد الإمبرياليين للسلم بهدف خنق الثورة في روسيا) والوضع العسكري أيضًا (القرار المؤكد للبرجوازية الروسية، وكرنسكي وشركاه بتسليم بتروغراد إلى الألمان)، كل هذا بالارتباط مع الانتفاضة الفلاحية ومع تحول الثقة الشعبية نحو حزبنا (الانتخابات في موسكو)، وأخيرًا الإعداد الطبيعي لمغامرة كورنيلوفية ثانية (إجلاء القطعات عن بتروغراد، إرسال القوزاق إلى بتروغراد، تطويق القوزاق لمنسك و...)"، تعترف اللجنة المركزية بأن كل هذا يضع الانتفاضة المسلحة على جدول الأعمال. وأن اللجنة المركزية باعترافها بهذا الشكل بحتمية الانتفاضة المسلحة، وبنضجها، تدعو كل منظمات الحزب إلى التوجه على هذا الأساس، وإلى مناقشة كل المسائل العملية وحلها من وجهة النظر هذه (مؤتمر سوفييتات إقليم الشمال، سحب القطعات من بتروغراد، حركات قطعات موسكو ومنسك ...إلخ).

وما يلفت النظر سواء في تقدير الموقف في تلك اللحظة الراهنة، أو في خاصية واضع القرار هو ترتيب شروط الانتفاضة في المقام الأول، نضوج الثورة العالمية. ولا تعتبر الانتفاضة في روسيا إلا كحلقة من السلسلة العامة. وأن موقف الانطلاق الثابت للينين هو مقدماته الكبيرة؛ فهو لا يستطيع أن يفعل خلاف ذلك. فقد طرحت مهمة الانتفاضة كمهمة الحزب، ولم تعالج المسألة الصعبة للاتفاق مع السوفييتات حول تحضير الانتفاضة في الوقت الحاضر. وليس هناك أية كلمة لاستدعاء مؤتمر سوفييتات عموم روسيا. وكانت نقاط استناد الانتفاضة هي المؤتمر الإقليمي للشمال، و"حركة قطعات موسكو ومنسك". ثم أضيف إليها بناء على اقتراح تروتسكي "إجلاء القطعات عن بتروغراد"، وكان هذا التلميح الوحيد لخطة الانتفاضة التي فرضت نفسها في العاصمة بسير الأحداث ذاته. ولم يقترح أحد أي تعديل من وجهة النظر التكتيكية للقرار الذي حدد نقطة الانطلاق الإستراتيجية للانتفاضة ضد زينوفييف وكامنييف، اللذان كانا ينكران ضرورة الانتفاضة ذاتها.

وقد أحبطت الوقائع والوثائق فيما بعد كل المحاولات التي قام بها التاريخ غير الرسمي، لإظهار الأمور كما لو أن زعماء الحزب، باستثناء زينوفييف وكامنييف أيدوا الانتفاضة. ودون أن نتجنب القول بأن الذين صوتوا مؤيدين للانتفاضة كانوا مستعدين في كثير من الحالات لتأجيلها إلى أجل غير مسمى، فلا بُدَّ من القول بأن زينوفييف وكامنييف لم يكونا معزولين، حتى داخل إطار اللجنة المركزية؛ فقد كان ريكوف ونوغين، اللذان كانا غائبين في جلسة ١٠ يشاطرانهما هذا الرأي، كما كان ميليوتين قريبًا منهما. "وكان من الملاحظ وسط قيادات الحزب ذبذبات، ونوع من الخوف من الصراع من أجل السلطة". هذه هي شهادة لينين نفسه. وكان ميليوتين الذي وصل بعد ١٠ يتحدث حسب رواية أنطونوف – ساراتوفسكي "عن رسالة وصلته من إيليتش يطالب إيليتش فيها "باتخاذ موقف حازم"، متحدثًا عن مراوغات اللجنة المركزية، وعن "الإخفاق" الأولي لاقتراح لينين، وعن سخط لينين. وأخيرًا فإن كل شيء يتجه إلى الانتفاضة في نهاية المطاف". وكتب البلشفي سادوفسكي فيما بعد حول موضوع "الافتقار إلى بعض الثقة والتصميم الذي كان يسود في ذلك الوقت. وكان هناك، كما هو معروف، احتكاكات، ونزاعات في داخل لجنتنا المركزية وتلك الفترة، وكنا نتساءل كيف نبدأ وما إذا كان من الواجب أن نبدأ".

وكان سادوفسكي نفسه، في تلك الفترة، أحد زعماء الفرع العسكري للسوفييت، والتنظيم العسكري للبلاشفة. ولكن كان أعضاء التنظيم العسكري، كما نرى ذلك في عدد وافر من المذكرات، ينظرون إلى فكرة القيام بانتفاضة بحذر شديد في أكتوبر (تشرين الأول)؛ فقد دفع الطابع الخاص للتنظيم، الزعماء إلى التقليل من أهمية الشروط السياسية، وإلى تضخيم أهمية الشروط التقنية. وبتاريخ ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) كتب كريلنكو في أحد التقارير قائلاً: "إن أكثرية المكتب **(مكتب التنظيم العسكري)** تجد من الضروري عدم دفع المسألة من الناحية العملية إلى أبعد من ذلك، ولكن الأقلية كانت تجد أن بالإمكان اتخاذ هذه

المبادرة على مسئوليتها". وبتاريخ ١٨ قال عضو بارز آخر من أعضاء التنظيم العسكري هو لاشوفيتش ما يلي: "أليس من الواجب استلام السلطة فورًا؟ أني أقدر بأنه لا ينبغي أن لا نعجل سير الأحداث... فلا شيء يضمن لنا إمكانية الاحتفاظ بالسلطة... فالخطة الإستراتيجية التي يقترحها لينين تعرج من قوائمها الأربع". وقد روى أنطونوف – أوفسينكو المقابلة التي تمت بين لينين وبين المناضلين الرئيسيين في التنظيم العسكري؛ "كان بودوفويسكي يعبر عن شكوكه، وكان نفسكي يدعمه تارة، ويتراجع أمام اللهجة الواثقة لإيليتش تارة أخرى؛ فعرضت الوضع في فنلندا... وكان لثقة إيليتش وحزمه أثر مقوٍ فيَّ، وشجعا نفسكي، ولكن بودفويسكي استمر في عناده وشكوكه". وينبغي أن لا يغيب عن بالنا أبدًا أن الشكوك قد رسمت بألوان مائية في كل الذكريات من هذا النوع، أما مواقف الثقة فمرسومة بألوان زيتية فاقعة.

وعارض تشودنوفسكي الانتفاضة بحزم. وكان مانويلسكي متشائمًا يكرر دومًا بأن "الجبهة ليست معنا" محذرًا من قيام الانتفاضة. وعارض تومسكي الانتفاضة أيضًا. وكان فولودارسكي يدعم زينوفييف وكامنييف. وكان خصوم الانتفاضة لا يبدون آراءهم جميعًا بصراحة. وقد قال كالينين في جلسة لجنة بتروغراد في ١٥ ما يلي: "إن قرار اللجنة المركزية هو من أفضل القرارات التي تبنتها في حياتها... وقد وصلنا فعلاً من الناحية العملية إلى ضرورة الانتفاضة المسلحة. ولكن متى سيصبح قيامها ممكنًا؟ لربما يصبح ممكنًا خلال عام. لا نعرف عن ذلك شيئًا". وكان "اتفاق" من هذا النوع مع اللجنة المركزية من أكثر الاتفاقات تميزًا بالنسبة لكالينين، ولكنه لم يكن خاصًا به فقط. فقد كان عدد الذين أيدوا القرار ليكون تأييدهم ضمانة في صراعهم ضد الانتفاضة كبيرًا جدًا.

وتم أقل إجماع في موسكو في الدوائر القيادية للحزب. فقد كان المكتب الإقليمي يؤيد لينين. وكانت الذبذبات كبيرة جدًا في لجنة موسكو، وكان الرأي الغالب هو التأجيل. واتخذت لجنة المنطقة موقفًا غير محدد، وكان مكتب المنطقة يقدر بالإضافة إلى هذا، طبقًا لتعابير ياكوفليفا أن تمثيل لجنة المنطقة إلى جانب خصوم الانتفاضة في اللحظة الحاسمة.

وروى ليبيديف أحد المناضلين من ساراتوف كيف تنزه مع ريكوف عندما جاء إلى موسكو زائرًا، قبل قيام الانتفاضة بوقت قصير، وكيف كان ريكوف يشكو، وهو يشير بأصبعه إلى الأبنية الحجرية، والمخازن الفارهة، وحركة الشارع المكتظ بالناس من صعوبات المهمة التي ينبغي القيام بها. "هنا في وسط موسكو البرجوازية، نحس بأننا بالفعل كأقزام يفكرون بقلب جبل".

وكان هناك في كل تنظيم للحزب، وفي كل لجنة من لجان المناطق التابعة له أعضاء لديهم نفس مواقف زينوفييف وكامنييف ذاتها. وكانوا يشكلون الأكثرية في عدد من اللجان. واتخذت الخلافات شكلاً خطيرًا وسط الزعماء الكبار، حتى في البؤرة البروليتارية لإيفانوفو فوزنيسنسك؛ حيث يسيطر البلاشفة دون مشاركة أي من التنظيمات الأخرى. وفي عام ١٩٢٥، في حين كانت الذكريات والأفكار تتطابق مع متطلبات المسار الجديد، كتب المناضل البلشفي القديم كيسيليف ما يلي: "إن العناصر العمالية للحزب، فيما عدا بعض الاستثناءات الفردية، تتبع لينين، بينما تعارضه مجموعة قليلة العدد من مثقفي الحزب وبعض العمال المنعزلين". وكان خصوم الانتفاضة يستعيرون الحجج المماثلة لحجج زينوفييف وكامنييف في المناقشات العامة. وأضاف كيسيليف ما يلي: "ولكن الجدل –في المناقشات الخاصة– يتخذ أشكالاً أكثر حدة وصراحة، ويتوصل هؤلاء المعارضون إلى القول بأن "لينين مختل وأنه يدفع بالتأكيد الطبقة العاملة إلى الدمار، وأنه لن ينتج عن هذه الانتفاضة المسلحة أي شيء، وأننا سنهزم، وسيسحق الحزب والطبقة العاملة، وسيسبب كل هذا تراجع الثورة وانحسار مدها لسنوات طويلة إلخ..."، ذلك هو المناخ الفكري بصورة خاصة لفرونزيه، مع أنه شجاع جدًا من الناحية الشخصية، لكنه لم يكن يتميز أبدًا بسعة آرائه.

وكان انتصار الانتفاضة في بتروغراد بعيدًا عن أن يحطم في كل مكان عطالة الموقف المتفرج للجناح اليميني ومقاومته المباشرة. وكادت ميوعة القيادة تؤدي إلى انهيار الانتفاضة في موسكو بالتالي. وفي كييف، نقلت اللجنة التي يرأسها بياتاكوف، التي كانت تخوض سياسة دفاعية صرفة، نقلت في نهاية المطاف المبادرة إلى الرادا، ثم نقلت إليها السلطة فيما بعد. وروي فراتشيف ما يلي: "كان تنظيم حزبنا في فورونيج مترددًا إلى أقصى الحدود. وقد تم الانقلاب حتى في فورونيج... لا من قبل لجنة الحزب، بل من قبل أقليتها النشيطة التي كان مويسييف على رأسها". وقد شكل البلاشفة في عدد من عواصم المناطق جبهة مع التوفيقيين "لمحاربة الثورة المضادة"، كما لو أن التوفيقيين لم يكونوا في ذلك الوقت أحد أهم دعامات هذه الثورة المضادة. وكان من الواجب في كل مكان تقريبًا، وفي معظم الأحيان، القيام بدفع من الأعلى ومن القاعدة بآن واحد لتحطيم الترددات الأخيرة للجنة المحلية، وإجبارها على قطع علاقاتها مع التوفيقيين وقيادة الحركة. وقد قال شليابنيكوف الذي دفع بنفسه ضريبة كبيرة للتردد ما يلي: "وكانت نهاية أكتوبر (تشرين الأول) وبداية نوفمبر (تشرين الثاني)، كانتا حقًا أيام "اضطراب عميق" في أوساط حزبنا. وكان هناك عدد كبير ممن كانوا يتركون زمام أنفسهم ليسيطر عليها الجو العام بسرعة".

كانت كل هذه العناصر في بداية الثورة، في معسكر المناشفة، كبلاشفة خاركوف، ثم تساءلوا فيما بعد بدهشة كبيرة "كيف أمكن أن يكونوا في معسكر البلاشفة"، ولم يجدوا خلال أيام أكتوبر (تشرين الأول) أين يقفون كقاعدة عامة، وترددوا، وتمهلوا، وفي فترة الرد الأيديولوجي، طالبوا بحقوقهم "كبلاشفة قدامى" بقسط أكبر من الثقة. وقد كان العمل المخصص لإخفاء مثل هذه الوقائع ضخمًا جدًا في هذه السنوات الأخيرة. وبصرف النظر عن المصنفات السرية، غير الميسورة في الوقت الحاضر لعلماء التاريخ والمثقفين، فما يزال في صحف ذلك الوقت، وفي المذكرات، وفي المجلات التاريخية عدد لا بأس به من الشهادات التي تثبت بأن جهاز أكثر الأحزاب ثورية جابه الانتفاضة قبيل اندلاعها بقوة مقاومة كبيرة. فالفكر المحافظ يتمركز في البيروقراطية حتمًا. ولا يستطيع الجهاز القيام بوظيفة الثورية إلا عندما يبقى أداة في خدمة الحزب أي تابعًا لفكرة، ومُراقبًا من قبل الجماهير.

واتخذ قرار ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) أهمية كبيرة. فقد ضمن فورًا أرضًا صلبة أتاحت حقوقًا في الحزب لأنصار الانتفاضة الحقيقيين. وبدأت أكثر العناصر تصميمًا باحتلال المكان الأول في تنظيمات الحزب، وفي كل الخلايا. وتجمعت تنظيمات الحزب، بدءًا من تنظيمات بتروغراد، وحسبت قواها ومواردها ووثقت اتصالاتها وأعطت للحملة من أجل الانتفاضة طابعًا أكثر تركيزًا.

ولكن القرار لم يضع حدًا للخلافات في اللجنة المركزية. بل هيأها على العكس، وأظهرها إلى الخارج. ولاحظ زينوفييف وكامنييف اللذان كانا يحسان مؤخرًا، في جزء من الدوائر القيادية، بجو من الود والتعاطف، لاحظا بذعر سرعة الحركة إلى اليسار. فقررا عدم إضاعة الوقت، ونشروا في اليوم التالي نداءً طويلاً إلى أعضاء الحزب. وقد كتبا في هذا النداء ما يلي: "إننا لا نملك الحق الآن في أن نغامر بالمستقبل كله على خارطة الانتفاضة المسلحة، أمام التاريخ، وأمام البروليتاريا الأممية، وأمام الثورة الروسية والطبقة العاملة الروسية".

وكان مخططهما البعيد، الدخول في المجلس التأسيسي كمعارضة قوية تابعة للحزب، هذا المجلس "الذي لا يستطيع الاعتماد إلا على السوفييتات في عمله الثوري". ومن هنا كانت الصيغة التالية: "المجلس التأسيسي والسوفييتات، هذا هو النموذج المركب للمؤسسات الحكومية التي نسير نحوها". المجلس التأسيسي الذي يفترض أن يشكل البلاشفة أقلية منه، والسوفييتات التي يشكل البلاشفة فيها الأكثرية، أي أن من الواجب "دمج" جهاز البرجوازية وجهاز البروليتاريا في النظام السلمي لازدواجية السلطات. وهذا الأسلوب لم ينجح، حتى في ظل سيطرة التوفيقيين. فكيف يمكن أن ينجح مع سوفييتات بلشفية؟

وقال زينوفييف وكامنييف في ختام بيانهما: "أنه لخطأ تاريخي عميق طرح مسألة انتقال السلطة إلى الحزب البروليتاري بالطريقة التالية: **إما فورًا، أو أبدًا**. كلا! أن حزب البروليتاريا سيكبر، وسيتوضح منهاجه لجماهير تتسع في ازدياد". وكان الأمل اضطراد نمو البلشفية، بصورة مستقلة عن المسار الحقيقي للنزاعات الطبقية، يتناقض بصورة مؤكدة مع نظريات لينين في تلك الفترة: "يتعلق نجاح الثورة الروسية والعمالية بيومين أو ثلاثة أيام من الكفاح".

وليس من الضروري أبدًا أن نضيف إلى أن لينين كان على حق في هذا الحوار الدرامي. ومن المستحيل أن يمتلك المرء على هواه وضعًا ثوريًا. ولو لم يستلم البلاشفة السلطة في أكتوبر (تشرين الأول) – نوفمبر (تشرين الثاني)، لما استلموها بالتأكيد أبدًا، ولوجدت الجماهير لدى البلاشفة بدلاً عن القيادة الحازمة، نفس الاختلافات المملة بين القول والعمل، ولانفصلت عن الحزب الذي خيب آمالها خلال شهرين أو ثلاثة، كما انفصلت هذه الجماهير عن الاشتراكيين – الثوريين والمناشفة. ولوقع جزء من العمال وسط اللامبالاة، ولأفنوا قواهم في حركات تشنجية، وفي انفجارات فوضوية، وفي مناوشات أنصار، وفي رعب الانتقام واليأس. ولاستفادت البرجوازية بعد أن تلتقط أنفاسها من هذا الوضع لتبرم سلمًا منفردًا مع الهوهنزولرن ولسحقت التنظيمات الثورية. ولدخلت روسيا من جديد في دائرة الدول الإمبريالية، كدولة نصف إمبريالية نصف استعمارية. ولتأجلت الانتفاضة إلى أجل غير مسمى. ولكن فهم لينين العميق لهذا الاحتمال دفعه لأن يصيح صيحة الإنذار التالية: "يتعلق نجاح الثورة الروسية والعالمية بيومين أو ثلاثة أيام من الكفاح".

وقد تعدل الوضع في الحزب بعد يوم ١٠ جذريًا. ولم يعد لينين "معارضًا" منعزلاً ترفض اللجنة المركزية اقتراحاته. وغدًا الجناح اليميني الآن معزولاً. ولم يعد لينين بحاجة إلى كسب حريته في الإثارة والتحريض مقابل استقالته؛ فالشرعية الآن إلى جانبه، وعلى العكس، وجد زينوفييف وكامنييف اللذين نشرا وثيقتهما الموجهة ضد القرار الذي تبنته أكثرية اللجنة المركزية وجدا نفسيهما وقد خرقا انضباط الحزب. بَيْد أن لينين لا يترك أية خطيئة للخصم خلال الكفاح دون أن يعاقب عليها!

وفي جلسة ١٠ انتُخب **مكتب سياسي** مؤلف من سبعة أعضاء بناء على اقتراح دزيرجنسكي، وهم: لينين، وتروتسكي، وزينوفييف، وكامنييف، وستالين، وسوكولنيكوف، وبوبنوف. بَيْد أن المؤسسة الجديدة أثبتت أنها غير صالحة أبدًا، فقد كان لينين وزينوفييف مختفيان. وبالإضافة إلى هذا كان زينوفييف وكامنييف مستمرين في خوض الصراع ضد الانتفاضة. ولم يجتمع المكتب السياسي الذي شُكل في أكتوبر (تشرين الأول) مرة واحدة. وطواه النسيان فورًا بكل بساطة، كما طوى النسيان تنظيمات أخرى شكلت لأغراض محددة في دوامة الأحداث.

ولم ترسم أية خطة عملية للانتفاضة، حتى ولو كانت تقريبية، في جلسة ١٠. وقد اتفق، دون الإشارة في القرار، إلى أن على الانتفاضة أن تسبق مؤتمر السوفييتات وأن نبدأ قدر الإمكان بتاريخ ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) على أبعد تقدير. ولم يقبل هذا التاريخ طواعية من قبل الجميع: فقد قرب هذا التاريخ لدرجة لا تسمح بالحصول على الزخم الضروري في بتروغراد. ولكن الإلحاح على مهلة معينة كان يعني دعم اليمينيين وإحباط الخطة. وبالإضافة إلى كل هذا، لن يكون الوقت متأخرًا أبدًا لتأجيل الانتفاضة!

وقد كشف تروتسكي في مذكراته عن لينين في عام ١٩٢٤، أي بعد سبع سنوات من الأحداث تحديد هذا التاريخ بيوم ١٥. وأنكر ستالين فورًا هذا الخبر، وزادت حدة النقاش حول الموضوع في الأدبيات التاريخية الروسية. ولم تقع الانتفاضة في الحقيقة، كما هو معروف إلا في ٢٥، ولم يتم التقيد بالتاريخ المحدد بصورة أولية. ويقدر تأريخ الجيل الثاني أنه لا يمكن أن يكون هناك أخطاء أو تأخير في سياسة اللجنة المركزية. وكتب ستالين بصدد هذا الموضوع قائلاً: "نتج عن ذلك أن اللجنة المركزية قد حددت تاريخ ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) تاريخاً للانتفاضة، وأنها هي التي نقضت (!) هذا القرار، بتأجيل

الانتفاضة إلى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول). فهل هذا صحيح؟ كلا أنه خطأ". ويتوصل ستالين إلى الاستنتاج بأن "تروتسكي قد خانته ذاكرته". وأشار كدليل على أقواله إلى أن قرار ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) لم يشر إلى أي تاريخ.

إن مسألة تاريخ الانتفاضة التي يثور حولها الجدل والإنكار مسألة هامة جدًا لفهم إيقاع الأحداث، وهي تحتاج إلى إيضاح. والقول بأن قرار يوم ١٠ لا يحتوي على تاريخ، قرار صحيح تمامًا. ولكن هذا القرار العام يرتبط بالانتفاضة في كل البلاد، وكان مخصصًا لمئات وألوف من الزعماء، وسط مناضلي الحزب. وكان من الممكن أن يكون إدخال التاريخ المحدد للتآمر من أجل الانتفاضة في بتروغراد في يوم قريب جدًا قمة الطيش، **ولنتذكر بأن لينين لم يكن يؤرخ رسائله في هذه الفترة، بدافع الحذر**. والأمر يتعلق في الحالة الحاضرة بقرار هام جدًا وبسيط جدًا في الوقت ذاته يستطيع كل المشتركين فيه أن يحفظوه في ذاكرتهم دون عناء، وخاصة وأن هذا التاريخ سيحل بعد عدة أيام. وعندما يتعلل ستالين بنص القرار، فهناك سوء تفاهم كامل هنا.

ومع ذلك فنحن مستعدون للاعتراف بأنه إذا كان أحد المشتركين يعتمد على ذاكرته الخاصة، وكان ينكر ما يتذكره بصورة خاصة مشترك آخر، فإن هذا لا يكفي لدراسة تاريخية. ومن حسن الحظ أن المسألة محلولة بصورة مسلم بها على مستوى تحليل الظروف والوثائق.

وكان افتتاح مؤتمر السوفييتات مقررًا بتاريخ ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول). وهناك فترة عشرة أيام بين اليوم الذي انعقدت فيه اللجنة المركزية وتاريخ المؤتمر. وكان من واجب المؤتمر عدم إثارة الاضطراب من أجل سلطة السوفييتات، بل الاستيلاء على هذه السلطة. ولكن بضع مئات من المندوبين عاجزة بحد ذاتها عن الاستيلاء على السلطة. كان من الواجب انتزاعها من أجل المؤتمر وقبل المؤتمر "إن علينا تحقيق الانتصار على كرنسكي في بادئ الأمر، ودعوة المؤتمر فيما بعد". كانت هذه الفكرة هي محور كل التحريض اللينيني، بدءًا من النصف الثاني من سبتمبر (أيلول). وكان كل أولئك الذين يؤيدون الاستيلاء على السلطة بصورة عامة متفقين حول هذا الموضوع، من الناحية المبدئية. ولم تكن اللجنة المركزية لتستطيع لهذا السبب، أن تعتذر عن إعطاء نفسها مهمة محاولة القيام بالانتفاضة بين ١٠ و٢٠ أكتوبر (تشرين الأول). ولكن لما كان من غير الممكن التنبؤ بالمدة التي ستستغرقها المعركة، فقد تحدد موعد الانتفاضة بيوم ١٥. **وكتب تروتسكي في مذكراته عن لينين** قائلاً: "إنني أتذكر جيدًا أنه لم يحدث أي جدل حول التاريخ ذاته. وكان الجميع يفهمون أنه لم يكن للتاريخ سوى طابع تقريبي، بل طابع توجيهي، وأن من الممكن، حسب الأحداث، أما تقريبه بعض الوقت أو تأجيله، شريطة أن لا يتجاوز التقريب أو التأجيل أيامًا على الأكثر. وكانت ضرورة وجود تاريخ، وتاريخ قريب جدًا بالإضافة إلى ذلك، مسألة بديهية كل البداهة".

والخلاصة، فإن شهادة المنطق وحدها هي التي تستطيع قفل باب النقاش في هذه المسألة. ولكننا لا نفتقر إلى البراهين الإضافية. فقد اقترح لينين بإصرار، وفي عدة مناسبات، استخدام المؤتمر الإقليمي لسوفييتات الشمال للبدء بالعمليات العسكرية. وتبنى قرار اللجنة المركزية هذه الفكرة. وكان من الواجب أن ينتهي المؤتمر الإقليمي، الذي افتتح بتاريخ ١٠ قبل ١٥ بالضبط.

وقد صرح زينوفييف في المؤتمر الذي انعقد بتاريخ ١٦ تأجيل القرار المتخذ قبل ستة أيام: "علينا أن نقول لأنفسنا بكل وضوح بأننا لا ننظم الانتفاضة في الأيام الخمسة التالية". وكان يقصد الأيام الخمسة الباقية إلى أن يعقد مؤتمر السوفييتات. وذكّر كامنييف الذي كان يبرهن في المؤتمر ذاته على أن "تحديد تاريخ الانتفاضة، يعني القيام بمغامرة"، ذكر كامنييف أيضًا بما يلي: "كنا نقول منذ هنيهة بأن الانتفاضة ينبغي أن تتم قبل ٢٠". ولم يعارض قوله هذا أحد، ولم يستطع أن يرد عليه أحد. وكان كامنييف يفسر تأجيل الانتفاضة هذا على أنه تدمير لقرار لينين. وكان يقول، ونحن ننقل هنا التعابير التي استخدمها كامنييف "إننا لم نفعل شيئًا للانتفاضة في هذا الأسبوع الأخير" ونجد هنا مبالغة طبيعية: فقد وجد الجميع أنهم مضطرون إلى وضع

التاريخ المحدد في خططهم بدقة تامة وزيادة سرعة إيقاع العمل. ولكن مما لا شك فيه أن مهلة الخمسة أيام المحددة لجلسة يوم ١٠ قد وجدت مهلة قصيرة. وكان إعطاء مهلة أخرى يفرض نفسه وبتاريخ ١٧ فقط أجلت اللجنة التنفيذية المركزية افتتاح مؤتمر السوفييتات إلى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول). وجاء هذا التأجيل في محله.

وألح لينين على عقد اجتماع يضم اللجنة المركزية وممثلي الفروع الرئيسية للمناضلين في العاصمة، بعد أن أقلقته المخاتلات وعملية التسويف، وظهرت له الاحتكاكات الداخلية في عزلته بأشكال مبالغ فيها من دون شك. وعقد هذا المؤتمر، بتاريخ ١٦، في ليسني، في ضاحية المدينة، وقدم زينوفييف وكامنييف مبرراتهما المذكورة فيما سبق لتأجيل التاريخ الذي تحدد سابقًا، وعارضًا تحديد تاريخ جديد.

وعادت الخلافات من جديد، وكانت حدتها هذه المرة مضاعفة. وكان ميليوتين يقدر بأننا "لم نكن مستعدين لتوجيه الضربة الأولى... فنجم احتمال آخر: نزاع مسلح... إنه يتضخم، وتقترب إمكانيته. وينبغي علينا أن نكون مستعدين لهذا الصدام. ولكن هذا الاحتمال مختلف عن الانتفاضة". وتبنى ميليوتين موقفًا دفاعيًا اقترحه بوضوح أكبر زينوفييف وكامنييف. وكان العامل البتروغرادي القديم شوتمان الذي عاش تاريخ الحزب كله، يؤكد بأن المناخ الفكري في مؤتمر المدينة وفي لجنة بتروغراد، وفي التنظيم العسكري أقل استعدادًا للقتال مما في اللجنة المركزية. "إننا لا نستطيع أن نزحف حتى الآن، ولكن علينا أن نستعد". وهاجم لينين ميليوتين وشوتمان لتقديرهما المتشائم لميزان القوى: "إن الموضوع لا يتعلق بمعركة ضد الجيش، بل بمعركة جزء من الجيش ضد الجزء الآخر... وتثبت الأحداث أننا نملك التفوق على العدو. فلماذا لا تستطيع اللجنة المركزية أن تبدأ؟".

كان تروتسكي غائبًا عن الجلسة: إذ كان في هذه الساعات ذاتها يحمل السوفييت على تبني نظام اللجنة العسكرية الثورية. ولكن وجهة النظر التي توضحت بصورة نهائية في سمولني خلال الأيام الأخيرة، كان مدافعًا عنها من قبل كريلنكو، الذي بدأ يقود المؤتمر الإقليمي لسوفييتات الشمال جنبًا إلى جنب مع تروتسكي وأنطونوف – أوفسينكو. وكان كريلنكو يعتقد من دون شك "بأن الماء قد غلى بما فيه الكفاية". وأن تأجيل القرار حول الانتفاضة "سيكون أفدح خطأ". وكان مع كل هذا على خلاف مع لينين "حول مسألة معرفة من سيبدأ ومتى يبدأ". وليس من العقلاني أيضًا في الوقت الراهن تحديد يوم الانتفاضة بصورة واضحة. "ولكن مسألة إجلاء القطعات هو بالضبط الدافع الذي سيثير المعركة... إن واقعة الهجوم ضدنا موجودة، وبوسعنا استخدامها... وليس من المفيد أن نقلق لمعرفة من سيبدأ، لأن ذلك قد بدأ فعلاً". وكان كريلنكو يعرض ويقترح السياسة التي تفيد كأساس للجنة العسكرية الثورية ولمؤتمر الحامية. وستتطور الانتفاضة فيما بعد على هذا الطريق بالضبط.

ولم يرد لينين بأية كلمة على أقوال كريلنكو: فاللوحة الحية للأيام الستة الأخيرة في بتروغراد لم تتم تحت أنظاره. كان لينين يخشى المماطلات. وكان انتباهه موجهًا إلى الخصوم المباشرين للانتفاضة. وكان ميالاً إلى تفسير كل التحفظات، وكل الصيغ التقليدية وكل الأجوبة غير القاطعة، إلى أنها دعم غير مباشر لزينوفييف وكامنييف اللذين كانا يعارضانه بجرأة رجال حرقوا مراكبهم خلفهم. وكان كامنييف يعلل الأحداث ويبررها كالتالي: "تظهر نتائج الأسبوع أنه ليس هناك في هذه اللحظة معطيات ملائمة للانتفاضة. وأننا لا نملك أي جهاز لها. في حين نجد أن الجهاز لدى أعدائنا أقوى بكثير، ومن المحتمل أن تكون قوته قد ازدادت خلال هذا الأسبوع... **هنا يتصارع تكتيكان: تكتيك المؤامرة وتكتيك الثقة المعطاة للقوات العاملة للثورة الروسية**". ويعطي الانتهازيون ثقتهم دومًا "للقوى العاملة" في اللحظة التي ينبغي فيها شن القتال.

ورد لينين قائلاً: "إذا قدرنا بأن الانتفاضة ناضجة، فمن العبث التحدث عن مؤامرة. فإذا كانت الانتفاضة حتمية من الناحية السياسية، إذن ينبغي اعتبارها فنًا". وفي هذا الخط بالضبط سار النقاش الأساسي للحزب، المبدئي بالفعل، الذي يحدد حله

في هذا الاتجاه أو ذاك مصائر الثورة. **ومع ذلك، نبعت مسائل ثانوية ولكنها هامة للغاية، ضمن الإطار العام لمحاكمة لينين،** ضمت أكثرية اللجنة المركزية: كيف نتوصل للانتفاضة على أساس وضع سياسي وصل إلى مرحلة النضج؟ وما هــو الممــر الذي نختاره للعبور من سياسة الانتفاضة إلى تقنية الانتفاضة؟ وكيف نوجه الجماهير على هذا الممر؟

وكان أيوفيه الذي ينتمي إلى الجناح اليساري يدعم قرار يوم ١٠. ولكنه كان يعارض لينين في نقطة واحدة: "ليس مــن الصحيح أن تكون المسألة تقنية فقط حتى الوقت الحاضر. وينبغي اعتبار مسألة الانتفاضة الآن من وجهة نظر سياســية". وقــد أظهر الأسبوع الأخير بالفعل، للحزب، وللسوفييت، وللجماهير على أن الانتفاضة لم تعد مسألة تقنية بسيطة. ولهذا بالضبط لــم يستطع أحد أن يحفظ التاريخ الذي تحدد يوم ١٠.

وطرح لينين قراره الجديد، الذي يدعو "كل المنظمات وكل العمال والجنود إلى إعداد الانتفاضة المسلحة بــشكل كثيــف متعدد الأطراف"، فوافق عليه عشرون عضوًا، وعارضه عضوان هما زينوفييف وكامنييف، مع امتناع ثلاثـــة أعــضاء عــن التصويت. ويتعلل المؤرخون الرسميون بهذه الأرقام ليبرهنوا على التفاهة الكاملة للمعارضة. بيد أنهم يبسطون المــسألة بهــذا التعليل. فقد كان الاندفاع إلى اليسار وسط الجماهير العميقة للحزب بارزًا جدًا، حتى أحس خصوم الانتفاضة، الذين لم يقــرروا معارضتها بصورة مكشوفة، بأن من مصلحتهم محو خط تقسيم المبادئ بين المعسكرين. فإذا لم تتحقق الانتفاضة، بالرغم مــن التاريخ الذي حدد سابقًا، قبل ١٦ ألا يمكن أن نحصل فيما بعد على الاقتصار على إتباع "المسار إلـــى الانتفاضـــة؟" بــصورة أفلاطونية. فلم يكن كالينين معزولاً كل العزلة، وقد برز هذا بوضوح في الجلسة ذاتها. وقد رُفِض قرار زينوفييف التـــالي: "إن قيام التظاهرات قبل التفاوض مع المجموعة البلشفية لمؤتمر السوفييتات أمر غير مقبول". وجاء الرفض بخمسة عــشر صـــوتًا مقابل ستة أصوات وامتناع ثلاثة عن التصويت. وهنا تم التحقق الفعلي من الآراء. كان عدد وافر من "أنصار" قــرار اللجنـــة المركزية يريدون في الحقيقة تأجيل القرار إلى أن ينعقد مؤتمر السوفييتات، وإلى أن ينعقد مؤتمر جديد مع بلاشـــفة المنـــاطق، وهم في معظمهم من أكثر الأعضاء اعتدالاً. وكان عدد هؤلاء الأخيرين، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عدد الذين امتنعــوا عــن التصويت يصل إلى تسعة أعضاء من أصل ٢٤ عضوًا، أي أكثر من ثلث أعضاء اللجنة، وكانوا يشكلون ولا شك أقلية، ولكــن لهم وزنهم بالنسبة لهيئة الأركان. وجاء ضعف هيئة الأركان من أنها لم تكن تتمتع بأي دعم في قاعدة الحــزب وفـــي الطبقـــة العمالية.

وفي اليوم التالي سلم كامنييف، بالاتفاق مع زينوفييف إلى **صحيفة غوركي**[٢] تصريحًا ينطوي على معارضـــة القــرار الذي اتخذ بالأمس. وعبر كامنييف في المقال قائلاً ما يلي: "لسنا الوحيدين زينوفييف وأنا اللـــذان يجـــدان أن قيامنـــا بمبـــادرة الانتفاضة في الوقت الحاضر، ونظرًا لموازين القوى الاجتماعية، وبصورة مستقلة عن مؤتمر السوفييتات وقبل انعقاده بــضعة أيام، سيكون خطوة غير مقبولة وخطرة على البروليتاريا والثورة، لسنا الوحيدين، وإنما يشاطرنا هذا الرأي عــدد وافــر مــن الرفاق المناضلين... إن المغامرة بكل شيء على خارطة الانتفاضة في هذه الأيام المقبلة سيكون عملاً يائسًا. إن حزبنـــا قـــوي جدًا، كما أن المستقبل المفتوح أمامه أكبر من أن يسمح له بالقيام بمثل هذه الخطوات...". إن الانتهازيين يستشعرون دومًا "بأنهم أقوى" من أن يشتركوا في الصراع.

وكانت رسالة كامنييف إعلانًا حقيقيًا بالحرب ضد اللجنة المركزية، وحول مسألة لم يكن أي إنسان ينوي أن يعبث بهـــا. واتخذ الوضع فورًا حدة هائلة. وتعقد بعدة وقائع أخرى فردية كان لها منبع سياسي مشترك. وفي جلسة ســـوفييت بتروغـــراد، بتاريخ ١٨، صرح تروتسكي ردًا على المسألة التي طرحها الخصوم بأن مجلس السوفييت لم يحدد أبدًا الانتفاضة فـــي الأيـــام القريبة التالية، ولكنه إذا وجد من الضروري أن يحددها، فسيزحف العمال والجنود زحف رجل واحد. ووقف كـــامنييف، الـــذي كان يجلس في المكتب بجوار تروتسكي، وأخذ يدلي بتصريح قصير؛ فقد صدق على كل قولٍ لفظه تروتسكي. وكان عمله هـــذا

لعبة مخادعة؛ ففي حين كان تروتسكي يموه سياسة الهجوم من الناحية القانونية، بصيغة دفاعية في ظاهرها، حـاول كـامنييف استخدام صيغة تروتسكي التي كان على خلاف جذري معها ليموه سياسة متعارضة معها بصورة مباشرة.

ولكي يشل تروتسكي أثر مناورة كامنييف قال في اليوم ذاته في تقرير موجه إلى مؤتمر عموم روسيا للجان المـصانع والمعامل: "إن الحرب الأهلية محتمة. وينبغي تنظيمها فقط، بأقل الأشكال دموية، وأقلها ألمًا. ولا نتوصل إلى ذلك بالمراوغـة والتردد، بل نصل إليها بنضال مستميت وشجاع للاستيلاء على السلطة". واتضح للجميع أن كلمة **المراوغـات** موجهـة إلـى زينوفييف وكامنييف، وكل من يشاركونهما الرأي.

وعرض تروتسكي بالإضافة إلى هذا تصريح كامنييف في مجلس السوفييت لدراسته من قبل اللجنة المركزية في أقـرب جلسة. وفي غضون ذلك، استقال كامنييف من اللجنة المركزية، لأنه كان راغبًا بتحرير يده للقيام بالإثـارة والتحـريض ضـد الانتفاضة. ونوقشت المسألة في غيابه. وألح تروتسكي على القول "بأن الوضع الذي حدث أصبح خطيرًا لا يمكن التساهل فيـه" وأصر على قبول استقالة كامنييف(٣).

وقرأ سفردلوف الذي دعم اقتراح تروتسكي رسالة من لينين يهاجم فيها زينوفييف وكامنييف لأنهما أدليا بتـصريح فـي **جريدة غوركي**، واتهمهما بتحطي الإضرابات، وطالب بطردهما من الحزب. وقد كتب لينين قائلاً: "إن مكر كامنييف في جلسة سوفييت بتروغراد يتسم بالدناءة. فهل ترون ذلك؟ إنه متفق تمام الاتفاق مع تروتسكي. ولكن أمن الصعب أن نفهم أن تروتسكي **لا يستطيع أن يقول عن ذلك أمام الأعداء أكثر مما قاله**، وبأنه لا يملك الحق بذلك، وأنه لا ينبغي له أن يفعل ذلك؟ فهل مـن الصعب أن نفهم بأن القرار حول ضرورة الانتفاضة المسلحة، وعن نضجها الكامل، وإعدادها من كل جوانبها ...إلخ، يلزم في التصريحات العلنية، لا على إلقاء تبعة الخطيئة على الخصم فحسب، بل إلقاء تبعة المبادهة عليه أيضًا... إن حيلة كامنييف هي مخاتلة وسرقة مكشوفة".

وعندما أرسل لينين احتجاجه الساخط بواسطة سفردلوف، لم يكن قد علم بعد بأن زينوفييف قد صرح في رسالة وجههـا إلى إدارة تحرير الصحيفة الرسمية للحزب، بأن آراءه هو، أي زينوفييف، "بعيدة جدًا عن الآراء التي يناقـشها لينـين" وهـو (زينوفييف) "ينضم إلى التصريح الذي أعلنه تروتسكي في سوفييت بتروغراد". وبنفس الروح نشر خصم ثالث للانتفاضة هـو لوناتشارسكي آراءه في الصحف. وبالإضافة إلى التشويشية الخائنة، كانت رسالة زينوفييف، التي نشرت في الصحيفة الرسـمية في الليلة السابقة على جلسة اللجنة المركزية بتاريخ ٢٠، كانت هذه الرسالة مصحوبة بمذكرة تعبـر عـن ود هيئـة التحريـر وتعاطفها: "إننا نعبر بدورنا عن أملنا باعتبار المسألة منتهية، بفضل التصريح الذي أدلى به زينوفييف (كالتصريح الذي أدلى به كامنييف في السوفييت). ولم يبدل عنف اللهجة في مقال لينين شيئًا مما يلي، وهو أننا نبقى مـن نفـس الـرأي فـي الأمـور الجوهرية". وكانت طعنة خنجر جديدة في الظهر، ومن جهة لم نكن نتوقعها. ففي حين كان زينوفييف وكامنييف يثيـران فـي الصحافة المعادية تحريضًا مكشوفًا ضد قرار اللجنة المركزية عن الانتفاضة، لامت الصحيفة المركزية "عنـف" لهجـة لينـين ولاحظت وحدة آرائه مع زينوفييف وكامنييف "في الأمور الجوهرية". وكما لو أنه كانت هناك مسألة في تلك اللحظة أكثر أهمية وجوهرية من مسألة الانتفاضة. وقد صرح تروتسكي تبعًا لمحضر الجلسة المختصر، في جلسة اللجنة المركزيـة "أن رسـائل زينوفييف ولوناتشارسكي إلى الصحيفة المركزية غير مقبولة، كما أن مذكرة هيئة التحرير غير مقبولة أيضًا". وأيد سـفردلوف الاحتجاج.

وكان ستالين وسوكولنيكوف جزءًا من هيئة التحرير. ويقول محضر الجلسة ما يلي: "أن سوكولنيكوف يعلن بأنـه لـم يلعب أي دور في تصريح هيئة التحرير فيما يتعلق برسالة زينوفييف، وأنه يعتبر هذا التصريح خاطئًا". واكتُشف بـأن سـتالين

شخصيًا –ضد عضو آخر من هيئة التحرير وأكثرية اللجنة المركزية– قد دعم كامنييف وزينوفييف في آخر اللحظات، قبل بدء الانتفاضة بأربعة أيام، بتصريح ودي وتعاطفي. وكان الغضب من جراء هذا العمل كبيرًا.

ورفض ستالين قبول استقالة كامنييف مبرهنًا على أن "كل وضعنا كان متناقضًا" أي أنه كلف نفسه مهمة الدفاع عن التشويشية والارتباك في الأفكار التي نشرها عضوا اللجنة المركزية اللذان أعلنا عن معارضتهما للانتفاضة. وقُبلت استقالة كامنييف بخمسة أصوات مقابل ثلاثة. وصودق على قرار يعارض موقف ستالين من جديد بستة أصوات، ويمنع هذا القرار كلاً من كامنييف وزينوفييف من قيادة معركة ضد اللجنة المركزية. ويقول محضر الجلسة ما يلي: "أعلن ستالين انسحابه من هيئة التحرير". ورفضت اللجنة المركزية استقالة ستالين كي لا تؤزم وضعًا لم يكن بمثل هذه السهولة.

ويبدو هذا السلوك الذي اتخذه ستالين غير قابل للتفسير على ضوء الأسطورة التي نُسجت حوله. والحقيقة، كان هذا السلوك يتطابق تمام التطابق مع إعداده الفكري ومع طرقه السياسية. إن ستالين يتراجع دومًا أمام المعضلات الكبرى، لا لأنه يفتقر إلى الشخصية ككامنييف، ولكن لأن له آراء ضيقة جدًا ويفتقر إلى الخيال المبدع. فهو حذر يتسم حذره بالشكوك ويضطره عضويًا تقريبًا إلى الانسحاب في الظل عند لحظات القرار الخطير والخلاف العميق، ويدفعه هذا الحذر لأن يضمن لنفسه، إذا كان بالإمكان، موقفًا صالحًا لحالتين محتملتين. وقد صوت ستالين مع لينين لصالح الانتفاضة. وكان زينوفييف وكامنييف يناضلان بصورة مكشوفة ضد الانتفاضة. ولكن إذا نبذنا "عنف لهجة" النقد اللينيني "تبقى، من نفس الرأي، في الأمور الجوهرية". ولم يضع ستالين مذكرته بدافع الطيش أبدًا؛ فقد كان على العكس يزن الظروف والكلمات بدقة. ولم يكن بتاريخ ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) يعتقد بإمكان قطع الجسور المؤدية إلى ساحة خصوم الانتفاضة دون عودة.

إن نصوص محاضر الجلسات التي اضطررنا إلى الاستشهاد بها وفق النص الرسمي الذي وضعت مستشارية ستالينية لا وفق نصوص المحاضر الأصلية لا يبرز المواقف الحقيقية لشخصية اللجنة المركزية البلشفية فحسب، بل يعرض أيضًا رغم الإيجاز والجفاف "الصورة المجسمة" الحقيقية لقيادة الحزب، كما كانت بكل تناقضاتها الداخلية ومراوغاتها الفردية الحتمية. ولا تبرز هذه النصوص التاريخ بمجمله فحسب، بل تبرز أيضًا بأن أجرأ الانتفاضات تتحقق برجال يتسمون بكل الصفات البشرية. فهل يمكن أن يخفف هذا من أهمية ما تحقق؟

وإذا ما عرضنا على الشاشة ألمع انتصارات نابليون، لأظهر لنا الفيلم، مع العبقرية، وسعة العمليات وامتدادها، والاكتشافات، والبطولة، صورة أخرى عن عدم تصميم بعض المارشالات، وأخطاء الجنرالات الذين لا يعرفون قراءة خارطة، وبلادة الضباط، والذعر الذي أصاب مفارز بكاملها، ولأبرز لنا هذا الفيلم أيضًا أزمات "المغص" التي يسببها الخوف. وستبرهن هذه الوثيقة الواقعية أن جيش نابليون لا يتألف من تماثيل متحركة أسطورية فقط، بل من فرنسيين أحياء تعلموا عند تقاطع قرنين. ولن تؤدي لوحة نقاط الضعف البشرية إلا إلى زيادة أهمية وعظمة مجموع ما تحقق.

إن تنظير الانتفاضة بعد قوات الأوان أسهل من تمثلها وهضمها بصورة كاملة قبل أن تتحقق. وقد أثار تقريب الانتفاضة حتمًا وسيثير أزمات في الأحزاب الثورية. بهذا تشهد تجربة أكثر الأحزاب التي جربت بصورة أفضل، وأكثر الأحزاب التي عرفها التاريخ حتى الآن ثورية. ويكفي أن نلاحظ أن لينين وجد نفسه مضطرًا قبل المعركة بعدة أيام إلى المطالبة بطرد اثنين من أقرب تلاميذه إليه، ومن أكثرهم شهرة في الحزب. وقد استوحيت المحاولات التي تمت فيما بعد لإعادة أسباب النزاع إلى "ظروف عارضة" تتعلق بالطابع الشخصي للزعماء، استوحيت هذه المحاولات من تصور ماضي الحزب وتمثله بصورة مثالية كنائسية خالصة. وكما عبر لينين بصورة أكمل وأكثر تصميمًا من الآخرين، خلال أشهر خريف عام ١٩١٧ عن الضرورة الموضوعية للانتفاضة وإرادة الجماهير الموجهة نحو الانتفاضة، كذلك فقد جسد زينوفييف وكامنييف بصراحة أكبر من

صراحة الآخرين الاتجاهات المتحفظة في الحزب، وروح التردد، وتأثير العلاقات مع البورجوازيين الصغار، وضغط الطبقات الحاكمة.

ولو أن كل المؤتمرات، والمناقشات، والمجادلات الخاصة، التي تمت داخل قيادة الحزب البلشفي في أكتوبر (تشرين الأول) اختُزلت، لاستطاعت الأجيال المقبلة التحقق من ضراوة المعركة الداخلية التي تشكلت بواسطتها، في قمم الحزب، الجرأة الضرورية للانتفاضة. ولأظهر الاختزال أيضًا في الوقت نفسه كم يحتاج الحزب الثوري إلى ديمقراطية داخلية؛ فلا توضع إرادة الكفاح في صيغ باردة، ولا تُملى من الأعلى، بل تُجدد في كل مرة، وتتقوى من جديد.

وقد **تساءل ستالين في عام** ١٩٢٤ معللاً تأكيدًا لما يقوله المؤلف في هذا الكتاب **بأن "الأداة الأساسية للثورة البروليتارية هي الحزب"**، تساءل ستالين **قائلاً: "كيف استطاعت ثورتنا الغلبة إذا اعتبرنا "أن أداتها الأساسية" كانت لا تساوي شيئًا؟"**. إن السخرية لا تخفي البهتان البدائي لهذا الرد. فبين القديسين كما تصفهم الكنيسة، والشياطين كما يمثلهم المرشحون للقدسية يقف الرجال الأحياء؛ فهم الذين يصنعون التاريخ. ولا تبرز العجينة القوية للحزب البلشفي، في انعدام الخلافات، والتردد، والتصدع، ولكن هذه العجينة تبرز عندما كان هذا الحزب يخرج في الوقت الملائم من الأزمات الداخلية، في أصعب الظروف، ويضمن إمكانية التدخل الحاسم في الأحداث. وهذا يعني أيضًا أن الحزب بمجموعه كان أداة ملائمة تمامًا للثورة.

ويجد الحزب الإصلاحي عمليًا أن أسس النظام الذي يستعد لإصلاحه أسس لا يمكن تصديعها. وبهذا يرتبط بصورة محتمة بأفكار وأخلاق الطبقة الحاكمة. وقد أصبح الحزب الاشتراكي – الديمقراطي الذي ارتفع فوق العمود الفقري للبروليتاريا حزبًا بورجوازيًا، ولكنه حزب بورجوازي من الدرجة الثانية. **وخلقت البلشفية نموذج الثوري الحقيقي الذي يربط شروط وجوده الفردي، وأفكاره، وأحكامه الأخلاقية بأهداف تاريخية لا تتفق مع المجتمع المعاصر**. وقد حوفظ على المسافات الضرورية إزاء الأيديولوجية البرجوازية في الحزب بتشدد يقظ كان لينين ملهمه. ولم يتوقف عن العمل بالمشرط، فقطع الأربطة التي خلقها المحيط البورجوازي الصغير بين الحزب والرأي العام الرسمي. وكان لينين في الوقت ذاته يعلم الحزب كي ما يشكل رأيه العام الخاص، مستندًا إلى فكر ومشاعر الطبقة التي كانت تصعد. وهكذا خلق الحزب البلشفي وسطه، بالانتقاء والتعليم، وفي معركة متواصلة. ولم يخلق في وسطه السياسي فحسب، بل المعنوي أيضًا، وتم الخلق بصورة مستقلة عن الرأي العام البورجوازي ومتعارضة معه بصورة لا تنقص. هذا هو الذي سمح للبلاشفة بالقضاء على التردد في صفوفهم الخاصة، والمحافظة على القرار المقدام الذي لولاه لاستحال انتصار أكتوبر (تشرين الأول).

الهوامش

١. وحدة نقدية رئيسية استخدمت في الاتحاد السوفييتي من عام ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤. المعربان.

٢. "نوفايا جيزن".

٣. قيل في محاضر جلسات اللجنة المركزية لعام ١٩١٧، التي نشرت في عام ١٩٢٩، أن تروتسكي فسر تصريحه في السوفييت بما يلي: "إن كامنييف هو الذي اضطره إليه". وفي هذا السرد خطأ واضح في تسجيل الأقوال، أو أن هذا الخطأ نجم فيما بعد عن صياغة غير صحيحة. ولا يحتاج تصريح تروتسكي إلى التوضيح خاصة؛ فقد نجم عن الظروف ذاتها. ومن عجائب الصدف أن لجنة موسكو الإقليمية نفسها، وهي التي كانت تدعم لينين تمامًا، وجدت نفسها مضطرة في اليوم ذاته، بتاريخ ١٨ إلى نشر تصريح في إحدى صحف موسكو، استخدمت فيه تقريبًا صيغة تروتسكي كلمة بكلمة: "نحن لسنا حزبًا من صغار المتآمرين، ونحن لا نحدد سرًا التواريخ لتظاهراتنا... وعندما نقرر الزحف، سنقوله في صحافتنا..." ولا يمكن إعطاء رد مختلف على المسائل التي لها علاقة بالأعداء. ولكن إذا لم يكن تصريح تروتسكي ولا يمكن أن يكون أبدًا انسياقًا وراء موقف كامنييف، فإن هذا التصريح قد شوه عندما أعلن كامنييف تضامنه الكاذب معه ولأنه لم ينشر كاملاً، في ظروف لم يكن تروتسكي يملك فيها إمكانية وضع النقاط الضرورية على الحروف.

فن الانتفاضة

لا يقوم الناس بالثورة طواعية، كما لا يخوضون الحرب عن رضى أبدًا. ومع ذلك فإن الفرق بين الحرب والثورة هـو أن الدور الحاسم في الحرب هو دور الإلزام والقسر. أما في الثورة فليس هناك من إلزام سوى إلزام الظروف وقسرها. وتنفجر الثورة عندما لا يبقى هناك سبيل آخر. ولا يمكن أن تحدث الانتفاضة، التي ترتفع فوق الثورة كقمة في سلسلة أحداثها، بصورة ارتجالية، كما لا يمكن ارتجال الثورة بمجملها. فالجماهير تهاجم وتتراجع في عديد من المرات قبل أن تقرر القيام بالانقضاض الأخير.

ويتعارض التآمر عادة مع الانتفاضة كمشروع دبرته الأقلية أمام الحركة الأولية للأكثرية. والواقع: تتميز الانتفاضة الظافرة، هذه الانتفاضة التي لا يمكن أن تكون إلا من صنع طبقة مخصصة لزعامة الأمة بمعناها التاريخي وبطرقها بصورة عميقة عن انقلاب مجموعة من المتآمرين يعملون من وراء ظهر الجماهير.

والحقيقة، هناك تناقض كافٍ في كل مجتمع طبقي، كيما يكون بالإمكان تخطيط مؤامرة في ثغراته. وتبرهن التجربة التاريخية مع ذلك على أن يكون المجتمع مريضًا إلى درجة معينة -كما في أسبانيا والبرتغال، وأمريكا الجنوبية- لكي تجد سياسة التآمر غذاءها باستمرار. ولا تستطيع المؤامرة أن تعطي -في الحالة الصرفة- حتى ولو انتصرت سوى استبدال رجال الدولة. ولم يحدث انتصار نظام اجتماعي على نظام آخر في التاريخ إلا بانتفاضة الجماهير. وفي حين تشكل المؤامرات الدورية في الغالب التعبير عن هزال المجتمع وعفنه، وتنبعث الانتفاضة عادة على العكس، كنتيجة لتطور سابق سريع، يخرق التوازن القديم للأمة. ولا تملك "الثورات" المزمنة لجمهوريات أمريكا الجنوبية أي شيء مشترك مع الثورة الدائمة. وعلى العكس، فهي متعارضة معها إلى حد ما.

ومع ذلك لا يعني ما قلناه أعلاه أبدًا أن الانتفاضة الشعبية والمؤامرة تستبعد كل منهما الأخرى في كل الظروف؛ فعنصر التآمر في هذا التدبير أو ذاك يدخل تقريبًا ودومًا في الانتفاضة. وليست الانتفاضة الجماهيرية، كمرحلة تصنعها الثورة تاريخيًا في بعض الظروف، أولية بصورة صرفة. وحتى عندما تنفجر الانتفاضة بصورة مرتجلة بالنسبة لمعظم المشتركين فيها، فهي ملقحة بالأفكار التي يجد المتمردون فيها مخرجًا للشقاء الذي يعانونه في حياتهم. ولكن من الممكن أن تكون الانتفاضة الجماهيرية متوقعة ومعدة. ومن الممكن أن تنظم مسبقًا. وفي هذه الحالة، تكون المؤامرة مرتبطة بالانتفاضة، وتخدمها، وتسهل سيرها، وتسارع في انتصارها. وكلما كان المستوى السياسي لحركة ثورية رفيعًا، وكانت قيادتها جدية. كلما كان المكان الذي تحتله المؤامرة في الانتفاضة الشعبية أكبر.

ومن الضروري فهم العلاقة بين الانتفاضة والمؤامرة بصورة صحيحة، فيما يجعلها متعارضتين، وفيما يكمل بينهما بالتبادل، ونظرًا لأن لاستخدام كلمة "مؤامرة" أو تآمر مظهرًا متناقضًا في الأدبيات الماركسية، حسبما يكون الأمر متعلقًا بمحاولة مستقلة لأقلية تتخذ المبادرة، أو بإعداد الأقلية لانتفاضة الأكثرية.

حقًا، إن التاريخ يبرهن على أن الانتفاضة الشعبية تستطيع أن تنتصر في بعض الظروف، حتى بدون مؤازرة. وتستطيع الانتفاضة جر جزء من الجيش، وشل قوى العدو، وقلب السلطة القديمة، عندما تنبعث عن دفع "أوَّلي" لتمرد عام، واحتجاجات مختلفة، ومظاهرات وإضرابات، وصدامات في الشوارع. وقد كانت الانتفاضة في روسيا على هذا الشكل في فبراير (شباط) ١٩١٧. وكانت لدينا نفس اللوحة في تطور الثورتين الألمانية والنمساوية - الهنغارية خلال خريف ١٩١٨. وفي هاتين

الحالتين، ضمن الحد الذي لم يكن فيه على رأس المتمردين حزب مشبع بصورة عميقة بمصالح الانتفاضة ونواياها، كان لا بُــدَّ من أن ينقل انتصار هذه الانتفاضة السلطة إلى أيدي الأحزاب التي عارضت الانتفاضة حتى اللحظة الأخيرة.

إن قلب السلطة القديمة وتقويضها شيء، والاستيلاء على السلطة شيء آخر. وتستطيع البرجوازية في ثورة من الثورات الاستيلاء على السلطة لا لأنها ثورية، بل لأنها البرجوازية: فهي التي تسيطر على الممتلكات، والتعليم، والصحافة، وشبكة من نقاط الاستناد، وتسلسل في المؤسسات. ويختلف الوضع بالنسبة للبروليتارية؛ إذ لا تستطيع البروليتاريا المتمــردة الاعتمــاد إلا على ظلها، وتماسكها، وكوادرها، وأركانها، لأنها محرومة من المزايا الاجتماعية الموجودة خارجها.

وكما أن الحداد لا يستطيع أن يمسك بيده العارية الحديد الحامي، فإن البروليتاريا لا تستطيع، وأيديها عارية، الاســتيلاء على السلطة؛ فهي تحتاج إلى تنظيم خاص بهذه المهمة. ويكمن في مزج انتفاضة الجماهير بالمؤامرة. وفــي تبعيــة المــؤامرة للانتفاضة، وفي تنظيم الانتفاضة من خلال المؤامرة، يكمن في هذا المزيج المجال المعقد والثقيل لمسئوليات الــسياسة الثوريــة التي سماها ماركس وآنجلز "فن الانتفاضة". وهذا يفترض قيادة عامة صحيحة للجماهير، ومرونة في التوجيــه إزاء الظــروف المتبدلة، وخطة للهجوم تم الإمعان فيها، وحذرًا في الإعداد التقني وجرأة في توجيه الضربة.

ويسمي المؤرخون والسياسيون عادة حركة الجماهير المرتبطة بعدائها للنظام القديم، والتي لا تملك أهدافًا واضــحة، أو طرق كفاح موضوعة، أو قيادة تؤدي إلى النصر بصورة واعية، انتفاضة قوى أولية. وانتفاضة القوى الأولية أمر معترف بــه طوعًا من قبل المؤرخين الرسميين، والديمقراطيين على الأقل، كمصيبة حتمية تقع مسئوليتها على النظام القــديم. وأن الــسبب الحقيقي لهذا الرفق هو أن انتفاضات القوى "الأولية" لا تستطيع أن تخرج من إطارات النظام البورجوازي.

ويسير في الخط ذاته أيضًا الحزب الاشتراكي - الديمقراطي؛ فهو لا ينكر الثورة أبدًا بصورة عامة كمأساة اجتماعيــة، كما لا ينكر أبدًا الهزات الأرضية، وثورات البراكين، وكسوف الشمس، ووباء الطاعون. ولكنه ينكر "البلانكية" وينكر ما يعتبره أسوأ منها، أي البلشفية، وهذا يعني أنه ينكر الإعداد الواعي للانتفاضة، والخطة، والتآمر. وبعبارات أخــرى أن الاشــتراكية - الديمقراطية مستعدة للموافقة على الانقلابات التي تنقل السلطة إلى أيدي البرجوازية بعد وقت ما، وتدين بتشدد في الوقت ذاتــه الطرق التي تستطيع وحدها نقل السلطة إلى البروليتاريا. وهكذا نرى أن سياسة الدفاع عن المجتمع الرأسمالي تختفي تحت قناع موضوعية مزيفة.

استنتج أوغست بلانكي من ملاحظاته وتأملاته حول إخفاق عدد من الانتفاضات التي شارك فيها، أو التي كــان شــاهدًا عليها، عددًا من القواعد التكتيكية، يتعرض انتصار الانتفاضة بدونها إلى صعوبات كبيرة، أو يصبح مستحيلاً. وطالب بلانكــي بإنشاء مفارز ثورية نظامية في الوقت الملائم، ومركزة قيادتها، وتموينها بالذخيرة بصورة جيدة، كما طالــب بــإجراء توزيــع محسوب جيدًا للمتاريس التي يعد بناؤها، والدفاع عنها بصورة متواصلة لا بصورة عارضة. وينبغي حتمًا تعديل هذه القواعــد، الناجمة عن المشكلات العسكرية للانتفاضة، لتتفق مع الشروط الاجتماعية والتقنية العسكرية في الوقت ذاته. ولكن هذه القواعد، في حد ذاتها، ليست أبدًا من "البلانكية" بالمعنى الذي نفهمه تقريبًا من "الانقلابية" لدى الألمان أو "روح المغامرة" الثورية.

إن الانتفاضة فن له قوانينه ككل فن. وكانت قواعد بلانكي تشكل المطالب الواقعية للحرب الثورية. وكان خطأ بلانكــي كامنًا لا في نظريته المباشرة، ولكن في نظيرها وعكسها. فنظرًا لأن العجز التكتيكي يحكم على الانتفاضــة بالفــشل، اســتنتج بلانكي بأن التقيد بقواعد تكتيك الانتفاضات قادر بحد ذاته على تأمين النصر. واعتبارًا من هنا فقط من الــشرعي أن نعــارض البلانكية بالماركسية. فالتآمر لا يحل محل الانتفاضة. ولا تستطيع الأقلية الفاعلة من البروليتارية، مهما كانت منظمة الاســتيلاء

على السلطة بمعزل عن الوضع العام للبلاد، وفي هذا، يحكم التاريخ على البلانكية. ولكن في هـذا فقـط. وتحـتفظ النظريـة المباشرة بكل قوتها. وللاستيلاء على السلطة لا تكتفي البروليتاريا بانتفاضة القوى الأولية؛ فهي بحاجة إلى تنظيم ملائم، وتحتاج إلى خطة، وتحتاج إلى مؤامرة. بهذا الشكل يطرح لينين المسألة.

ويعتمد نقد آنجلس الموجه ضد عبارة المتاريس على تطور التقنية العامة والتقنية العسكرية. ويتجاوب تكتيك الانتفاضـة في البلانكية مع طبيعة باريس القديمة، ومع بروليتاريا يتألف نصفها من الصناع، كما يتجاوب هذا التكتيك مع الشوارع الضيقة، والنظام العسكري للويس فيليب. وإن خطأ البلانكية من الناحية المبدئية هو في تشبيه الثورة بالانتفاضة. ويتضمن الخطأ التقنـي للبلانكية في تشبيه الانتفاضة بالمتراس. وقد وجه النقد الماركسي ضد الخطأين. ولم يكتشف آنجلس الذي وجـد بالاتفـاق مـع البلانكية أن الانتفاضة فن، المكان الثانوي للانتفاضة في الثورة، بل اكتشف الدور الزائل للمتراس في الانتفاضـة. ولا يحتـوي نقد آنجلس على أي شيء مشترك مع الامتناع عن استخدام الطرق الثورية البرلمانية الخالصة، كما حاول الرهان علـى ذلـك جبناء الحزب الاشتراكي - الديمقراطي الألماني في ذلك الوقت بمساعدة رقابة الهوهنزولرن. وتبقى مسألة المتـاريس بالنـسبة لآنجلس مسألة أحد العناصر التقنية للانتفاضة. بَيْد أن الإصلاحيين حاولوا، أمام إنكار القيمة الحاسمة للمتراس، أن يستنتجوا من ذلك رفض العنف الثوري بصورة عامة. وكانوا في استنتاجهم هذا أشبه بمن فكر بالهبوط المحتمل لأهمية الخندق في الحـرب المقبلة، فاستنتج من ذلك انهيار العسكريتاريا.

وليست السوفييتات التنظيم الذي تستطيع البروليتاريا بواسطته قلب النظام القديم فحسب، بل الحلول محله أيضًا. ولم يكن ما أصبح فيما بعد مسألة تجربة تاريخية حتى انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) سوى تشخيص نظري، معتمد حقًا على التجربـة الأولية لعام ١٨٠٥. إن السوفييتات هي أجهزة إعداد الجماهير للانتفاضة، وهي أجهزة الانتفاضة، وأجهزة السلطة بعد انتـصار الانتفاضة.

ورغم هذا لا تحسم السوفييتات بحد ذاتها المسألة. وتستطيع حسب المنهاج والقيادة أن تكون ذات فائدة لأغراض مختلفة. وقد أعطى الحزب منهاج السوفييتات. فإذا استولت السوفييتات، في ظروف ثورة ما -وهي مستحيلة بـصورة عامـة خـارج الثورة- على كل الطبقة، باستثناء الشرائح المتخلفة تمامًا، السلبية أو المفككة المعنويات، فإن الحزب الثوري يقود الطبقـة. ولا يمكن حل مسألة الاستيلاء على السلطة إلا بمزج الحزب مع السوفييتات أو مع تنظيمات جماهيرية أخرى تعادل السوفييتات إلى حد ما.

ويتجه السوفييت، الذي يتزعمه حزب ثوري، بوعي وفي الوقت الملائم، للاستيلاء على السلطة. ويعد الحزب، منظمًـا نفسه استنادًا إلى تبدلات الوضع السياسي، وعلى المناخ الفكري للجماهير، نقاط استناد الانتفاضة، ويربط مفارز الصدام بوحـدة التصور، ويضع خطة الهجوم مسبقًا، وخطة الانقضاض الأخير؛ وهذا يعني بالضبط إدخال المؤامرة المنظمـة فـي انتفاضـة الجماهير.

وقد اضطر البلاشفة أكثر من مرة وقبل انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) إلى دحض الاتهامـات التـي وجههـا إلـيهم خصومهم، هؤلاء الخصوم الذين كانوا يعزون للبلاشفة المكائد التآمرية والبلانكية. بَيْد أنه لم يكن هناك أحـد كلينـين خـاض معركة تماثل في ضراوتها ضراوة المعركة التي خاضها لينين ضد أسلوب المؤامرة الصرف. وقد حمى انتهازيو الاشتراكية - الديمقراطية أكثر من مرة التكتيك الاشتراكي - الثوري القديم للإرهاب الفردي ضد عملاء القيصرية، وقاوموا نقـد البلاشـفة الشديد، هؤلاء البلاشفة الذين كانوا يعارضون الروح الفردية المغامرة **للأنتليجنـسيا** ويقاومونهـا بالاتجـاه إلـى الانتفاضـة الجماهيرية. ولكن لينين وهو يرفض كل أنواع البلانكية والفوضوية، لم ينحن لحظة واحـدة أمـام القـوة الأوليـة "المقدسـة"

للجماهير. فقد تأمل لينين بعمق كبير وقبل الآخرين العلاقة بين العوامل الموضوعية والذاتية للثورة، وبين حركة القوى الأولية وسياسة الحزب، بين الجماهير الشعبية والطبقة المتقدمة، بين البروليتاريا وطليعتها، بين السوفييتات والحزب، بين الانتفاضة والمؤامرة.

ولكن إذا كان صحيحًا بأنه لا يمكن لأي حزب أن يثير انتفاضة على هواه، وأنه من الضروري للانتصار في الوقت ذاته، وفي وقت ملائم، تنظيم الانتفاضة، فإن مسألة التشخيص الصحيح تطرح نفسها من جراء هذا كله على القيادة الثورية. فمن الواجب في الوقت الملائم، مفاجأة الانتفاضة الصاعدة لتكميلها بالمؤامرة. ويبقى تدخل القابلة في الولادة، مع أننا بالغنا كثيرًا باستخدام هذا التشبيه، هو أقوى تفسير لتدخل واعٍ في التطور الأولي. وكان هيرزن في الماضي يتهم صديقه باكونين بأنه كان يعتبر دوما في كل مشروعاته الثورية الشهر الثاني للحمل وكأنه الشهر التاسع للحمل. أما هيرزن، فقد كان مستعدًا لإنكار الحمل ذاته في الشهر التاسع. ولم تكن مسألة تاريخ ولادة الانتفاضة مطروحة أبدًا في فبراير (شباط) نظرًا لأن الانتفاضة قد انفجرت "بصورة غير متوقعة" وبدون قيادة مركزية. ولهذا بالضبط لم تنتقل السلطة إلى أولئك الذين حققوا الانتفاضة، بل إلى أولئك الذين أبطأوا حركتها. وكان الوضع مختلفًا كل الاختلاف في الانتفاضة الجديدة، فلقد كانت معدة من قبل الحزب البلشفي بصورة واعية. وكانت المسألة: من واجب هيئة الأركان البلشفية أن تلتقط اللحظة المناسبة لإعطاء إشارة الهجوم.

وينبغي أن لا نفهم كلمة "لحظة" حرفيًا، كيوم وساعة محددين؛ فقد أتاحت الطبيعة، حتى بالنسبة للأطفال، فروقًا في الزمن هائلة لا تهم حدودها فن المولد فحسب، بل تهم أيضًا علم حق الوراثة أيضًا. فبين اللحظة التي تكون فيها محاولة إحداث انتفاضة ما سابقه لأوانها بصورة محتمة وتؤدي إلى إجهاض ثوري، واللحظة التي ينبغي فيها اعتبار الوضع الملائم وضعًا قد ضاع بالتأكيد، بين هذا الوضع وذاك تنقضي فترة معينة من الثورة -ويمكن حسابها ببضعة أسابيع، وببضعة شهور أحيانًا- يمكن في بحرها تحقيق الانتفاضة بفرص كبيرة للنجاح إلى حد ما. إن تمييز هذه الفترة القصيرة نسبيًا واختيار لحظة معينة فيما بعد، بالمعنى الدقيق لليوم والساعة، لتوجيه الضربة الأخيرة، هو أثقل عبء من المسئولية على القيادة الثورية. ومن الممكن بحق تسميتها عقدة المسألة، لأنها تربط السياسة الثورية بتقنية الانتفاضة: فهل من الواجب أن نذكر بأن الانتفاضة، كالحرب، هي امتداد للسياسة، بوسائل أخرى؟

إن الحدس والتجربة ضروريان للقيادة الثورية، وضروريان أيضًا لكل مجالات الفن الخلاق الأخرى أيضًا. ولكن هذا لا يكفي. ويمكن لفن التجبير أيضًا (فن المعالجة الطبية دون شهادة طبيب) أن يعتمد على الحدس والتجربة بنجاح أيضًا. ولا يفيد فن التجبير السياسي مع ذلك إلا لفترات ومراحل يسود فيها الروتين سابقًا. ولا تتقبل فترة المنعطفات التاريخية الكبرى أعمال المجبرين السياسيين. فحتى التجربة، التي يوحي بها الحدس لا تكفيها؛ فهي بحاجة إلى طريقة مادية تسمح باكتشاف الحركة الحقيقية لأجسام المجتمع خلال الظلال الصينية، للمناهج والشعارات.

وتكمن الدلائل الأساسية لثورة من الثورات في أن النظام الاجتماعي القائم يجد نفسه عاجزًا عن حل المشاكل الأساسية لتطور الأمة. ومع ذلك لا تصبح الثورة ممكنة إلا في الحالة التي يوجد فيها ضمن تركيب المجتمع طبقة جديدة قادرة على زعامة الأمة لحل المسائل التي طرحها التاريخ. ويشتمل سياق إعداد الثورة على أن المهام الموضوعية، والمحددة بتناقضات الاقتصاد والطبقات، تشق طريقًا في وعي الجماهير البشرية الحية، وتعدل مظاهرها وتخلق موازين جديدة للقوى السياسية.

وتفقد الطبقات الحاكمة، كنتيجة لعجزها الواضح بإخراج البلاد من الطريق المسدود، تفقد إيمانها بذاتها، وتتفكك الأحزاب القديمة، وتقوم معركة مستميتة بين المجموعات والشلل، وتتعلق الآمال بمعجزة أو بصانع للمعجزات. كل هذا يشكل إحدى الدلائل السياسية للانتفاضة، المهمة إلى حد كبير، مع أنها دلالة سلبية.

وينشأ عداء شرس للنظام المستتب، وتتولد النية بالمغامرة بأكثر الجهود البطولية، وبذل الضحايا، لجر البلاد إلى طريق النهوض. هذا هو الوعي السياسي الجديد للطبقة الثورية الذي يشكل الباكورة التكتيكية الرئيسية للانتفاضة.

ومع ذلك لا يشكل المعسكران الرئيسيان -كبار الملاكين والبروليتاريا- في المجموع كل الأمة؛ إذ تدخل بينهما شرائح واسعة من البرجوازية الصغيرة، التي تلعب كل ألوان الموشور الاقتصادي والسياسي. ويشكل استياء الشرائح الوسيطة، وخيبات أملها إزاء سياسة الطبقة الحاكمة، ومللها وتمردها، واستعدادها لدعم المبادرة الثورية الجريئة للبروليتاريا، يشكل كل هذا الشرط السياسي الثالث للانتفاضة. وهو شرط سلبي جزئيًا ضمن الحد الذي يشل فيه قمم البرجوازية الصغيرة، كما أنه فعال ضمن الحد الذي يدفع فيه قواعد البرجوازية الصغيرة إلى الكفاح مباشرة، جنبًا إلى جنب مع العمال.

إن التبادل الشرطي لهذه البواكير أمر طبيعي؛ فكلما عملت البروليتاريا بحزم وثقة، وكلما زادت إمكانية جر الشرائح الوسيطة، كلما عزلت الطبقة الحاكمة، وزادت حدة تثبيط عزيمتها ومعنوياتها. وعلى العكس يجلب تفتت الزعماء الماء إلى طاحونة الطبقة الثورية.

ولا تستطيع البروليتاريا أن تتشبع بالثقة الضرورية بقواها الخاصة من أجل الانتفاضة، إلا في الحالة التي ينكشف فيها أمامها بعد واضح، وإلا إذا كانت تملك إمكانية التحقق بصورة فعالة من موازين القوى التي تتبدل لصالحها، وأحست فوقها بقيادة حاذقة حازمة وجريئة. ويقودنا هذا إلى الشرط، الذي يعتبر الأخير في تعدادنا، لكنه ليس الأخير في أهميته للاستيلاء على السلطة، وهو وجود الحزب الثوري كطليعة موحدة بصورة وثيقة ومجربة للطبقة.

وقد وجدت البروليتاريا الروسية على رأسها حزبًا موهوبًا بصورة استثنائية بالوضوح السياسي، وبتجربة لا مثيل لها بفضل مزج ملائم للشروط التاريخية، الداخلية والدولية، وهذا ما سمح وحده لطبقة شابة وقليلة العدد بتحقيق مهمة تاريخية واسعة وشاملة لم يسمع بسعتها وشمولها من قبل. وكانت أضعف حلقة في المسألة الشروط حتى الآن في كل الثورات بصورة عامة، كما يشهد التاريخ على ذلك هي حلقة الحزب بدءًا من كومونة باريس، والثورتين الألمانية والنمساوية في عام ١٩١٨، وسوفييتات هنغاريا وبافاريا، والثورة الإيطالية في عام ١٩١٩، والأزمة الألمانية في عام ١٩٢٣، والثورة الصينية لسنوات ١٩٢٥ – ١٩٢٧، والثورة الأسبانية لعام ١٩٣١؛ إن أصعب شيء للطبقة العاملة هو إنشاء تنظيم ثوري على مستوى مهامها التاريخية. وهناك قوى هائلة في أقدم البلدان وأكثرها تمدينًا تعمل على إضعاف وتفتيت الطليعة الثورية. ويُرى جزء هام من هذا العمل في صراع الاشتراكيين - الديموقراطيين ضد "البلانكية" وهي تسمية يرمزون من ورائها إلى الروح الثورية للماركسية.

ومهما تعددت الأزمات الاجتماعية والسياسية الكبرى، فإن تطابق كل الشروط الضرورية لانتفاضة بروليتارية ظافرة وثابتة، لم ير حتى الآن في التاريخ إلا مرة واحدة: في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ في روسيا. فالوضع الثوري ليس أبديًا. وإن أقل الدلائل ثباتًا من كل دلائل الانتفاضة هو الحالة الفكرية البرجوازية الصغيرة. وتسير هذه الطبقة في وقت الأزمات الوطنية خلف الطبقة التي توحي إليها بالثقة لا بالقول فحسب، بل بالعمل أيضًا. ولا تملك البرجوازية الصغيرة القادرة على القيام باندفاعات محركة، وبجنون ثوري، أية مقاومة، وتفقد شجاعتها بسهولة في حالة الفشل، وتسقط من آمالها المحتدمة إلى خيبة الأمل. وهذه هي بالضبط التبدلات العنيفة والسريعة لأوضاعها الفكرية التي تعطي عدم استقرار كبير لكل وضع ثوري. وإذا لم يكن الحزب البروليتاري مصممًا بما فيه الكفاية لنقل انتظار وآمال الجماهير الشعبية إلى عمل ثوري في الوقت الملائم، يتحول المد فورًا إلى جزر، وتحول الشرائح الوسيطة أنظارها عن الثورة، وتبحث عن منقذ في المعسكر المضاد. وكما أن

البروليتاريا تقود البرجوازية الصغيرة خلفها في المد الصاعد، فإن البرجوازية الصغيرة تقود خلفها عند الجزر شرائح هامة من البروليتاريا. هذه هي جدلية الموجات الشيوعية والفاشية في التطور السياسي لأوروبا بعد الحرب.

وقد أنكر المناشفة أن يكون من المقبول النضال من أجل ديكتاتورية البروليتاريا في روسيا المتخلفة؛ حيث ما زالت الرأسمالية لم تستهلك تمامًا، **وحاولوا الاستناد إلى الكلمة الموجزة لماركس: لا يختفي أي نظام من المسرح قبل أن يستنفذ كل إمكانياته**. وفي هذه المحاكمة خطيئتان، كل منهما قاتلة. فليست الرأسمالية نظامًا وطنيًا، ولكنها نظام عالمي. وقد أظهرت الحرب الإمبريالية وآثارها أن النظام الرأسمالي قد انتشر على المستوى العالمي. وكانت الثورة في روسيا مكسر أضعف حلقة في النظام الرأسمالي العالمي.

ولكن خطأ التصور المنشفي يبدو واضحًا أيضًا من وجهة النظر الوطنية. فمن الممكن أن نؤكد عند التمسك بتجريد اقتصادي -ولنسلم بذلك- على أن الرأسمالية في روسيا لم تستنفد كل إمكاناتها. ولكن التطورات الاقتصادية تمت في مكان آخر غير الدوائر المجردة، فقد حدثت في وسط تاريخي واقعي. وليست الرأسمالية تجريدًا؛ إنها نظام حي للعلاقات الطبقية التي تحتاج قبل كل شيء إلى سلطة حكومية. ولا ينكر المناشفة أبدًا أن الملكية التي تشكلت الرأسمالية الروسية تحت حمايتها قد استنفذت كل إمكاناتها. وقد حاولت ثورة فبراير (شباط) إقامة نظام حكومي وسيط تتبعنا تاريخه خطوة بخطوة؛ فقد استنفذ هذا النظام في خلال ثمانية شهور. فما هو النظام الحكومي الذي كان يستطيع في هذه الشروط تأمين التطور اللاحق للرأسمالية الروسية؟

ولقد وضع ميليوكوف التقدير الصائب التالي:

"إن الجمهورية البرجوازية، التي يدافع عنها فقط الاشتراكيون ذوو الاتجاهات المعتدلة، والذين لم يكونوا يجدون دعمًا وسط الجماهير... إن هذه الجمهورية لا تستطيع البقاء. وقد تآكل كل ما فيها من أساسي، ولم يبق منها سوى القشرة". وكان من الواجب أن يكون مصير النظام المتآكل حسب رأيه هو مصير النظام القيصري ذاته؛ "فكلاهما مهدا الأرض للثورة، وكلاهما لم يجد مدافعًا واحدًا عنهما يوم الثورة".

ومنذ يوليو (تموز) - أغسطس (آب) كان ميليوكوف يحدد الوضع بضرورة الاختيار بين اسمين: كورنيلوف أم لينين. ولكن كورنيلوف قام بضربته التجريبية التي انتهت بإخفاق محزن. ولم يعد هناك مكان أبدًا لنظام كرنسكي على كل حال. وشهد سوخانوف أنه مهما اختلفت الأوضاع الفكرية "لم يكن هناك وحدة إلا في الحقد على الكرنسكية". وكما أصبحت الملكية القيصرية في النهاية مستحيلة في نظر قمم طبقة النبلاء وأفراد العائلة المالكة في الوقت ذاته، أصبحت حكومة كرنسكي مكروهة أيضًا من قبل ملهمي النظام، و"كبار الزعماء" من قمم التوفيقيين. ويكمن في هذا الاستياء العام، وفي هذا الضيق السياسي الحاد لكل الطبقات أحد أهم أعراض وضع ثوري وصل إلى مرحلة النضوج. وهكذا فقد توترت بشدة كل عضلة، وكل عصب، وكل وتر من الجهاز العضوي في عشية خرق الخراج الضخم.

وقد أشار قرار المؤتمر البلشفي في يوليو (تموز)، والذي حذر العمال من النزاعات السابقة لأوانها، إلى أن من الضروري قبول المعركة "عندما ستخلق أزمة كل الأمة والانتفاضة العميقة للجماهير شروطًا ملائمة لانضمام عناصر فقيرة من المدن والأرياف لقضية العمال". وقد أتت هذه اللحظة في سبتمبر (أيلول) - أكتوبر (تشرين الأول).

ومنذ ذلك الوقت كان من حق الانتفاضة أن تأمل بالنجاح، لأنها كانت تستطيع الاعتماد على أكثرية شعبية حقيقية. ومن الواجب أن لا نفهم ذلك، بالطبع، فهمًا لفظيًّا. فلو أننا نظمنا مسبقًا استفتاء على مسألة الانتفاضة، لأعطى الاستفتاء نتائج متناقضة بصورة كلية ومتذبذبة. فالاستعداد الداخلي لدعم الانتفاضة لا يمكن أن يحدد أبدًا بالقدرة على رؤية ضرورة الانتفاضة مسبقًا وبوضوح. وبالإضافة إلى هذا، فإن الأجوبة على الاستفتاء سترتبط، إلى حد كبير، بطريقة طرح السؤال ذاته، وبالجهاز الذي سيدير التحقيق، أو ببساطة القول، بالطبقة التي ستوجد في السلطة.

إن للطرق الديمقراطية حدودها. ومن الممكن أن نسأل كل مسافري أحد القطارات لنعرف نموذج العربة التي تلائمهم بصورة أفضل، ولكن لا يمكن سؤالهم جميعًا لمعرفة ما إذا كان من الواجب إيقاف القطار المندفع بسرعة للخروج من سكته. بَيد أن إجراء عملية الأمن بصورة حاذقة وفي الوقت الملائم، سيؤمن لنا موافقة الركاب بلا شك.

وتتم الاستشارات البرلمانية كلها في الوقت ذاته. ولكن الشرائح الشعبية المختلفة تتوصل إلى نفس الاستنتاج في زمن الثورة مع بعض تأخر بعض الشرائح الحتمي، القصير جدًا أحيانًا، عن البعض الآخر. وفي حين تحترق الطليعة من نفاذ صبرها الثوري، تبدأ الشرائح المختلفة بالنهوض فقط. وكانت كل التنظيمات الجماهيرية في بتروغراد وموسكو تحت قيادة البلاشفة. ولم تظهر المجموعة البلشفية في سوفييت منطقة طامبوف، التي تعد أكثر من ثلاثة ملايين مواطن، أي أقل بقليل من العاصمتين معًا، لم تظهر المجموعة البلشفية للمرة الأولى إلا قبل انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) بفترة قصيرة.

ولا تتطابق القياسات المنطقية للتطور الموضوعي أبدًا -يومًا بيوم- مع القياسات المنطقية لتفكير الجماهير العميق. وعندما يصبح قرار عملي كبير، يتعلق بسير الأمور، عاجلاً وملحًا، فإن اتخاذه لا يسمح بإجراء استفتاء. وتتقلص اختلافات المستوى والوضع الفكري للشرائح الشعبية المختلفة عندما يبدأ العمل؛ فتجر عناصر الطليعة المترددين وتعزل المعارضين. ولا تقوم الأكثرية بتعداد نفسها، بل تغزو نفسها. وتندفع الانتفاضة بالضبط عندما لا يرى المخرج من التناقضات إلا في طريق العمل المباشر.

وقد انضمت طبقة الفلاحين العاجزة بذاتها عن استخلاص الاستنتاجات السياسية الضرورية من حربها ضد الملاكين النبلاء، انضمت هذه الطبقة مع ذلك مسبقًا بحكم انتفاضتها الزراعية إلى انتفاضة المدن، ونادت بانتفاضة المدن وطالبت بها. ولم تعبر عن إرادتها بواسطة نشرة بيضاء بل بواسطة "الديك الأحمر" (الحريق)؛ كان الحريق استفتاء أكثر جدية. وفي الحدود الذي كان فيها دعم الطبقة الفلاحية ضروريًا لإقامة الديكتاتورية السوفييتية، كان هذا الدعم موجودًا. وقد رد لينين على المترددين قائلاً: "ستعطي هذه الديكتاتورية الأرض للفلاحين، وكل السلطات للجان الفلاحين في المديريات، كيف يمكن لأحد أن يشك بدعم الفلاحين لهذه الديكتاتورية إلا إذا جن جنونه؟" فلكي يعرف الجنود والفلاحون، ولكي تعرض القوميات المضطهدة، الهائمة في العاصفة الثلجية للبطاقات الانتخابية، لكي يعرف كل هؤلاء كيف يعمل البلاشفة، ينبغي أن يستلم البلاشفة السلطة.

ما هو ميزان القوى الذي كان من الواجب أن يسمح للبروليتاريا بالاستيلاء على السلطة؟ لقد كتب لينين فيما بعد ما يلي مفسرًا انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول): "ينبغي أن نملك تفوقًا ساحقًا في القوى في لحظة حاسمة، وفي نقطة حاسمة. إن هذا القانون في النجاحات العسكرية هو أيضًا قانون النجاح السياسي، وخاصة في هذه الحرب المستميتة، الفائرة، للطبقات، هذه الحرب التي تسمى بالثورة. وتقرر العواصم أو المراكز التجارية والصناعية الكبرى بصورة عامة... إلى حد كبير المصائر السياسية للشعب، شريطة أن تدعم المركز بالطبع بقوات محلية ريفية كافية، حتى لو لم يصل الدعم فورًا". وكان لينين يتكلم عن الأكثرية الشعبية بهذا المعنى الديناميكي، ويشير إلى المعنى الحقيقي الوحيد لمفهوم الأكثرية.

كان الخصوم الديموقراطيون يعزون أنفسهم بالتفكير بأن الشعب الذي كان يتبع البلاشفة لم يكن إلا من المادة الأولية، ومن الطينة اللينة للتاريخ، وسيكون الديموقراطيون بالتعاون مع البورجوازيين المتعلمين القوالب التي سيسكبونها. وقد تساءلت صحيفة المناشفة قائلة ما يلي: "ألا يرى هؤلاء الناس أن بروليتاريا بتروغراد وحاميتها لم تكن في يوم من الأيام معزولة بمثل هذه القوة عن كل الشرائح الاجتماعية الأخرى؟". وكانت تعاسة البروليتاريا وحامية بتروغراد أنها كانت "معزولة" عن الطبقات التي كانت تتأهب لانتزاع السلطة منها.

فهل من الممكن في الحقيقة الاعتماد بصورة جدية على تعاطف ودعم الجماهير الجاهلة في المناطق وفي الجبهة؟ لقد كتب سوخانوف بازدراء أن بلشفية هذه الجماهير "لم تكن شيئًا آخر سوى الحقد على الائتلاف والطمع بالحصول على الأرض والسلم". وكأن هذا لا يكفي! وكان الحقد على الائتلاف يشير إلى جهد لانتزاع السلطة من البرجوازية. وكان الطمع بالأرض والتطلع إلى السلم يشكلان منهاجًا ضخمًا يتأهب الفلاحون والجنود لتحقيقه تحت قيادة العمال. ونجمت عدمية الديمقراطيين حتى أكثر اليساريين تطرفًا من بينهم، عن افتقار المتشائمين "المتعلمين" إلى الثقة بالجماهير الغامضة التي تأخذ الظواهر بمجموعها متجاهلة التفاصيل والفوارق. وكان الموقف الفكري، الأرستوقراطي زورًا وبهتانًا، المزدري للشعب، غريبًا عن البلشفية ومخالفًا لطبيعتها ذاتها. ولم يكن البلاشفة رجالاً ذوي أيادٍ بيضاء، وأصدقاء للشعب يعملون في المكاتب ويتظاهرون بالعلم والمعرفة. إن البلاشفة لا يخافون من الشرائح المتخلفة، التي كانت ترتفع للمرة الأولى، من الدرك الأسفل للمجتمع. وكان البلاشفة يأخذون الشعب كما صنعه التاريخ، وكما كان مخصصًا لتحقيق الثورة. ويعتبر البلاشفة أن مهمتهم قيادة هذا الشعب. وقد عارض "الكل" الانتفاضة وأدلوا بدلوهم في معارضتها فيما عدا البلاشفة. ولكن كان البلاشفة هم الشعب.

وتكمن القوة السياسية الأساسية لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) في البروليتاريا، وفي التركيب الذي احتل فيه عمال بتروغراد المكان الأول. ومن ناحية أخرى كان حي فيبورغ يقف في طليعة العاصمة. وقد اختارت خطة الانتفاضة هذا الحي البروليتاري أساسًا كقاعدة للانطلاق في تطوير الهجوم.

وحاول التوفيقيون من كل الاتجاهات بعد الانتفاضة، بدءًا من مارتوف تصوير البلشفية على أنها اتجاه لجنود بسطاء. وتبنى الاشتراكيون - الديموقراطيون، وهم فرحون، هذه النظرية. وهنا أغلقوا عيونهم عن الوقائع التاريخية الأساسية، وهي أن البروليتاريا كانت أول من انحاز إلى جانب البلاشفة، وأن عمال بتروغراد هم الذين دلُّوا عمال كل البلاد على الطريق. وأن الحاميات والجبهة استمرت مدة أطول في دعم التوفيقيين، وأن الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة منحوا الجنود كل أنواع المزايا في نظام السوفييتات، على حساب العمال، وكافحوا ضد تسليح العمال، وأثاروا الجنود ضدهم وحرضوهم. وأن تحولاً قد حدث في الرأي العام للقطعات بنفوذ العمال وتأثيرهم فقط. وأن قيادة الجنود في اللحظة الحاسمة كانت بيد العمال. وأخيرًا أن الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الألماني اعتمد على الجنود في معركته ضد العمال بعد عام طبقًا للمثال الذي أعطاه أضرابه من الروس.

وفي الخريف، كان التوفيقيون اليمينيون قد فقدوا نهائيًا إمكانية الخطابة في المصانع والثكنات. ولكن اليساريين منهم ما زلوا يحاولون إقناع الجماهير بأن الانتفاضة محض جنون. وقد وجد مارتوف، الذي قاتل هجوم الثورة - المضادة في يوليو (تموز) دربًا إلى ضمير الجماهير وعاد منه الآن إلى عمل لا أمل منه. وقد اعترف هو بنفسه بتاريخ ١٤ أكتوبر (تشرين الأول) في جلسة اللجنة التنفيذية المركزية ما يلي: "إننا لا نستطيع أن نعد أنفسنا بأن يستمع إلينا البلاشفة". ومع ذلك كان يعتبر أن من واجبه تحذير "الجماهير"، بَيْد أن الجماهير كانت تريد عملاً لا دروسًا في الأخلاق. وحتى في الحالة التي كانت الجماهير تستمع فيها بصبر نسبي للمخدر المعروف جيدًا، حتى في هذه الحالة استمرت هذه الجماهير حسب اعتراف مستيسلافسكي "على التفكير بطريقتها كالسابق". وروي سوخانوف أنه حاول إقناع عمال مصانع بوتيلوف تحت سماء ممطرة بإمكانية تسوية المسألة

دون عصيان. فقوطع بأصوات رجال ملُّوا ونفذ صبرهم. واستمع إليه العمال دقيقتين أو ثلاث دقائق، وقاطعوه أيضًا. "فتخليت بعد عدة محاولات؛ إذ لم تكن الأمور تجري كما ينبغي... وبللنا الرذاذ". وكان شكل الديموقراطيين اليساريين البؤساء تحت السماء القليلة الرأفة في أكتوبر (تشرين الأول) وحسب وصوفهم الخاصة، شكل دجاجات مبللة بالماء.

وكان الدافع السياسي المفضل لخصوم الانتفاضة "اليساريين"، هو افتقار القاعدة للزخم القتالي، كما كان هناك خصوم من أمثالهم وسط صفوف البلاشفة. وقد كتب زينوفييف وكامنييف بتاريخ ١١ أكتوبر (تشرين الأول) ما يلي: "إن المناخ الفكري للعمال ولجماهير الجنود لا يُذكر أبدًا، حتى بالمناخ الفكري الذي كان سائدًا قبل ٣ يوليو (تموز)". ولم يكن هذا الكلام مجردًا من الدوافع. فثمة هناك في أوساط بروليتاريا بتروغراد فجيعة محددة ناجمة عن انتظار طويل. حتى أن هذه الأوساط قد بدأت تيأس من البلاشفة؛ فهل سيخيب البلاشفة أملها أيضًا؟ وبتاريخ ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) تحدث راخيا -وهو من أكثر العناصر البلشفية في بتروغراد تصميمًا على القتال، وهو فنلندي الأصل- فقال في مؤتمر اللجنة المركزية: "من الطبيعي أن شعارنا قد بدأ يتراجع لأننا نشك بقدرتنا على تنفيذ ما ندعو إليه". ولكن الملل والتعب من الانتظار، الذي كان يشبه الذبول والارتخاء، لم يستمر حتى إشارة القتال الأولى.

إن المهمة الأولى لكل انتفاضة هي ضم القطعات العسكرية إليها. ويساعد الإضراب العام، والتظاهرات الجماهيرية، والصدامات في الشوارع، ومعارك المتاريس، على تحقيق هذه المهمة. وإن الطرافة الخاصة بانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) والتي لم تلاحظ أبدًا في أي مكان بمثل هذه الدرجة من الكمال هي أن الطليعة البروليتارية، بفضل مساعدة مؤاتية من الظروف، نجحت في جر حامية العاصمة إلى جانبها حتى قبل بداية الانتفاضة. ولم تنجح هذه الطليعة في جر الحامية فحسب، بل نجحت بتعزيز كسبها بواسطة التنظيم، وبفضل مؤتمر الحامية. ولا يمكن فهم ميكانيكية انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) دون أن نعي تمامًا بأن أهم مسألة تخضع لحساب أولي من أصعب الحسابات كانت في الأساس قد حلت في بتروغراد قبل المعركة المسلحة.

وهذا لا يعني أبدًا مع ذلك أن الانتفاضة قد أصبحت لا فائدة منها. حقًا، لقد انضمت الأكثرية الساحقة من حامية الموقع إلى جانب العمال، ولكن الأقلية كانت ضد العمال، وضد الانتفاضة، وضد البلاشفة. وكانت هذه الأقلية الصغيرة تتألف من أفضل عناصر الجيش وأكثرها كفاءة: الضباط، **اليونكرز**، كتائب الصدام، وربما القوزاق أيضًا. ولم يكن من الممكن كسب هذه العناصر من الناحية السياسية؛ كان لا بُدَّ من قهرها وهكذا كان لمسألة الانتفاضة في جزئها الأخير، هذه الانتفاضة التي دخلت التاريخ تحت إشارة أكتوبر (تشرين الأول)، كان لهذه المسألة طابع عسكري صرف. فلا بُدَّ من أن يأتي الحل، في المرحلة الأخيرة، من البنادق، والحراب، والرشاشات، وربما من المدافع. وقد سار حزب البلاشفة في هذا الطريق.

فما هي القوات العسكرية للنزاع الذي كان يتهيأ؟ لقد روي بوريس سوكولوف الذي كان يدير العمل العسكري للحزب الاشتراكي - الثوري: "تفتت كل تنظيمات الأحزاب في الأفواج، فيما عدا تنظيمات البلاشفة. ولم تكن الظروف ملائمة أبدًا لتشكيل تنظيمات جديدة. وكان رأي الجنود قد تبلشف بصورة واضحة، ولكن بلشفتهم كانت سلبية. وكانوا محرومين من كل ميل طبيعي لاستخدام السلاح بصورة فعالة" وذلك في الفترة التي سبقت الانتفاضة. ولم ينس سوكولوف أن يضيف ما يلي: "كان يكفي فوج أو فوجان مخلصان تمام الإخلاص وقادران على القتال لإلحاق الهزيمة بكل قطعات الحامية". ومن المؤكد أن الجميع، بدءًا من جنرالات الملكية إلى المفكرين "الاشتراكيين"، كانوا يفتقرون "إلى فوج أو فوجين" لمحاربة الثورة البروليتارية. ولكن الصحيح أيضًا أن الحامية بأكثريتها الساحقة المعادية للحكومة عداء مستحكمًا، لم تكن مع كل هذا مستعدة للقتال، ولم تنضم أبدًا إلى جانب البلاشفة. ويعود السبب في ذلك إلى القطيعة النهائية بين البنية العسكرية القديمة للقطعات وبنيتها السياسية الجديدة. ويتشكل العمود الفقري لأي عنصر من القطعات المقاتلة من القيادة. وكانت هذه القيادة معارضة للبلاشفة أيضًا. ومن وجهة النظر السياسية كان البلاشفة يشكلون العمود الفقري للقطعة. ومع ذلك، لم يكن البلاشفة يجهلون فن القيادة فحسب، بل

كانوا في معظم الحالات يجهلون استخدام السلاح أيضًا. ولم تكن كتلة الجنود متماسكة. وشكلت العناصر العاملة والمقاتلة الأقلية كما يحدث دومًا. وكانت أكثرية الجنود متعاطفة مع البلاشفة، وتصوِّت لهم، وتنتخبهم، ولكنها لا تتوقع منهم حلاً. وكانت العناصر المعادية للبلاشفة في القطعات تافهة بشكل لا يسمح لها بأن تغامر بأية مبادرة من أي نوع. وهكذا كان الرأي العام السياسي للحامية ملائمًا بصورة استثنائية للانتفاضة. ولكن لم يكن ذا وزن ثقيل من وجهة النظر القتالية، هذا ما كان واضحًا مسبقًا.

ومع كل هذا، لم يكن من الملائم أبدًا طرح الحامية من حسابات العمليات العسكرية. فقد كان الألوف من الجنود المستعدين للقتال إلى جانب الثورة مبعثرين وسط كتلة أكثر سلبية، وكانوا لهذا يجرونها ويقودونها إلى حد كبير نوعًا ما. وحافظت قوات مختلفة، ذات تشكيل أكثر نجاحًا، على الانضباط وعلى قدرتها القتالية. ووجدت نويات ثورية متينة في كل التشكيلات، وفي الكتيبة الاحتياطية السادسة التي تعد عشرة آلاف جندي تقريبًا، تميزت السرية الأولى دائمًا على السرايا الخمس. وكانت هذه السرية قد حصلت تقريبًا منذ بداية الثورة على سمعة انتمائها للبلشفية، وقد برهنت أنها أهل لذلك طيلة أيام أكتوبر (تشرين الأول). وكانت أفواج الحامية غير موجودة كأفواج متوسطة في قيمتها وأيم الحق، وكانت آلية قيادتها مختلة، ولم تكن قادرة على بذل جهد عسكري طويل. ولكن كانت مع ذلك تشكل تجمعات بشرية مسلحة، مرت أكثريتها بتجربة القتال والتعميد تحت النار. وكانت كل القوات مرتبطة بالمناخ الفكري الواحد ذاته: قلب كرنسكي بأسرع ما يمكن، والعودة إلى المنازل، والقيام بالإصلاحات الزراعية. وهكذا اضطرت الحامية، المتفتتة تفتتًا كاملاً إلى ضم صفوفها مرة أخرى أيضًا خلال أيام أكتوبر (تشرين الأول)، وإلى القيام بقعقعة سلاح مهيبة قبل أن تنحل نهائيًا.

فما هي القوة التي كان يشكلها عمال بتروغراد من وجهة النظر العسكرية؟ إن هذا السؤال يتعلق بالحرس الأحمر. فقد جاء الوقت للحديث عنه بالتفصيل: إن الحرس الأحمر مخصص للأيام المقبلة لكي يدخل المسرح الكبير للتاريخ.

وقد ولد الحرس العمالي من جديد مع ثورة فبراير (شباط) بتقاليده التي ترجع إلى عام ١٩٠٥، وشارك فيما بعد متاعب مصير هذه الثورة. وكان كورنيلوف القائد العام لمنطقة بتروغراد العسكرية في ذلك الوقت يؤكد بأن المسئولين عن مستودعات المدفعية قد هربوا ٣٠,٠٠٠ مسدس و٤٠,٠٠٠ بندقية خلال أيام قلب النظام الملكي إلى أيدي الشعب. وبالإضافة إلى هذا، وقعت كمية هائلة من الأسلحة بين أيدي الشعب بسبب نزع سلاح الشرطة وبفضل الأفواج المتعاطفة مع الشعب. وعندما طالبت الحكومة بإعادة الأسلحة، لم يتجاوب أحد مع هذا الطلب. وقد علمت الثورة أفراد الشعب بأن يحصل كل فرد منهم على بندقية. ولم يستطع العمال المنظمون مع ذلك أن يحصلوا إلا على جزء صغير جدًا من هذه الغنيمة غير المتوقعة.

ولم تكن مسألة الانتفاضة مطروحة أبدًا بالنسبة للعمال خلال الأشهر الأربعة الأولى. لأن النظام الديموقراطي لازدواجية السلطات، أتاح للبلاشفة إمكانية الحصول على الأكثرية في السوفييتات. وكانت السرايا العمالية غير النظامية (دروجيني) تشكل أحد عناصر المليشيا الديمقراطية. ولكن كان كل هذا في الشكل بالأحرى أكثر من الجوهر. فقد كانت البندقية بين يدي العامل تعني مبدأ تاريخيًا مختلفًا تمام الاختلاف عن المبدأ التاريخي لبندقية بين يدي طالب.

وقد أقلق حصول العمال على السلاح الطبقات المالكة منذ البدء، نظرًا لأن موازين القوى قد تبدلت في المصانع من جراء هذا. وكانت المليشيا العمالية لا تبدو مثيرة للتهديد إلى حد كبير في بتروغراد؛ حيث كان جهاز الدولة، الذي تدعمه اللجنة التنفيذية المركزية يمثل في البدء قوة لا جدال فيها. ولكن تعزيز الحرس العمالي في المناطق الصناعية في الريف أشار إلى أن كل الموازين قد قلبت وقوضت لا في داخل المؤسسات فحسب، بل بعيدًا عنها أيضًا وفي المناطق المجاورة لها. وكان العمال المسلحون يعزلون رؤساء الورش، والمهندسين ويعتقلونهم أحيانًا. وقد دفعت مرتبات الحرس الأحمر في بعض الأحيان من

ميزانيات المؤسسات بناء على قرار صادر عن مؤتمر المصنع. وفي الأورال، حيث كانت ما تزال تسود تقاليد كفاح الأنـــصار لعام ١٩٠٥، وحيث تأصلت فأصبحت تقاليد عريقة، أشرفت السرايا العمالية غير النظامية على حفظ النظام واستتبابه تحت قيادة المناضلين القدامى. وقضى العمال المسلحون على السلطة الرسمية شيئًا فشيئًا، واســتبدلوها بــأجهزة الــسوفييتات. وفــرض التخريب الذي مارسه الملاكون والإداريون على العمال عبء حماية المشروعات: الآلات، والمستودعات، واحتيــاطي الفحــم والمواد الأولية. فقد عكست الأدوار. وكان العامل يضغط بقوة على بندقيته ليحمي المصنع الذي كان يرى فيه مــصدر قوتــه. وهكذا استقرت عناصر الديكتاتورية العمالية في المؤسسات والنواحي واستتبت حتى قبل أن تستولي البروليتاريا بمجموعها على سلطة الدولة.

وعارض التوفيقيون بكل قواهم تسليح عمال العاصمة وقللوه إلى الحد الأدنى، وعكسوا كما كانوا يعكسون دومًا مخاوف الملاكين. وكان كل تسليح ناحية نارفا يتألف حسب رأي مينيتشيف "من ١٥ بندقية وبعض المسدسات". وفي خلال هذا الوقــت تضاعفت في المدينة أعمال النهب والعنف. وكانت الإشاعات المرعبة تتقاطر من كل حدب وصوب، تعلن عن حدوث زعــازع جديدة. وفي عشية تظاهرة يوليو (تموز) كانوا يتوقعون احتراق الناحية. وكان العمال يبحثون عــن أســلحة، ويطرقــون كــل الأبواب للحصول عليها، ويقتحمون هذه الأبواب أحيانًا.

وحصل عمال بوتيلوف على غنيمة من مظاهرة ٣ يوليو (تموز): رشاش مع خمسة صــناديق علــب أشــرطة. وروي مينيتشيف هذه الواقعة قائلاً: "كنا سعداء كالأطفال". وكانت بعض المصانع أفضل تسليحًا. وحسب رواية ليتشكوف كان عمــال مصنعه يملكون ٨٠ بندقية و٢٠ مسدسًا ضخمًا. إنها لثروة بالنسبة إليهم! وحصلوا بواسطة أركــان الحــرس الأحمــر علــى رشاشين. ربض أحدهما في المطعم، وربض الثاني في العلية. وروى ليتشكوف ما يلي: "كان رئيسنا كوتشيروفــسكي، وكــان أقرب معاونيه إليه طومتشاك، الذي قتله الحرس الأبيض خلال أيام أكتوبر (تشرين الأول) قرب تساركويه - سيلا، وإيفيمــوف الذي أعدمته عصابات البيض قرب إيامبورغ". وتسمح هذه السطور الشحيحة بإلقاء نظرة في داخل مخبــر المــصانع؛ حيــث تشكلت كوادر انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول)، وكوادر الجيش الأحمر المقبل؛ حيث اختيرت، وتمرست على فن القيادة، قيادات من أمثال طومتشاك وإيفيموف، ومئات وألوف من العمال المجهولين الذين استولوا على السلطة، ثم دافعوا عنها بإقــدام ضــد العدو، وسقطوا فيما بعد فوق كل ساحات المعارك.

وعدلت أحداث يوليو (تموز) وضع الحرس الأحمر فورًا. وتم نزع سلاح العمال بصورة مكشوفة وصريحة، باســتخدام القوة لا باستخدام الإقناع. وبحجة تسليم السلاح، لم يسلم العمال سوى السلاح البالي والعتيق. وأخفى باعتنــاء كــل ســلاح ذي قيمة. ووزعت البنادق على الموثوق من أعضاء الحزب. ودُفنت الرشاشات بعد أن شُحمت. وانسحبت مفارز الحرس وانتقلــت إلى الحياة السرية، مرتبطة بصورة أقوى وأوثق بالبلاشفة.

كانت مهمة تسليح العمال مركزة بصورة أولية بين أيدي لجان المصانع ولجان النواحي التابعة للحزب. واهــتم التنظــيم العسكري للبلاشفة بعد أن أعيد وتجدد بعد عملية السحق التي تمت في يوليو (تموز)، واهتم لأول مرة بتدريب الحرس الأحمر، ووفر للعمال مدربين وأسلحة في بعض الحالات، بعد أن كان لا يعمل في السابق إلا وسط الحامية وفي الجبهة. وأعد احتمــال الانتفاضة المسلحة التي أشار إليها الحزب، العمالَ المتقدمين شيئًا فشيئًا لمهمة جديدة في الحرس الأحمر. ولم تعد هنــاك أبــدًا مليشيا المصانع والأحياء العمالية، بل هناك كوادر جيش الانتفاضة المقبل.

وفي أغسطس (آب) أصبحت الحرائق في المصانع والمعامل كثيرة جدًا. وفي تتابع الأزمات، كانت كــل أزمــة منهــا مسبوقة بانقلاب في الوجدان الجماعي الذي يرسل موجة مثيرة للذعر أمامه. وكانت لجــان المــصانع تعمــل بــدأب لحمايــة

المشروعات من المؤامرات. وأخرجت البنادق التي كانت قد أُخفيت. وحولت انتفاضة كورنيلوف الحرس الأحمر إلى حرس شرعي نهائيًا. وانتسب إلى السرايا العمالية حوالي ٢٥,٠٠٠ شخص، الذين لم يكن من الممكن تسليحهم كلهم بالبنادق وتسليح بعضهم بالرشاشات. وجلب العمال من مصنع البارود في شلوسلبورغ مركبًا عبر نهر النييفا محملاً بالقنابل والمتفجرات، ضد كورنيلوف! ورفضت اللجنة التنفيذية المركزية للتوفيقيين هذه الهبة. ووزع جنود الحرس الأحمر في ضاحية فيبورغ هذه الهدايا الخطرة على الأحياء خلال الليل.

وروى العامل سكرانكو ما يلي: "إن التدريبات المتعلقة بفن استخدام البندقية، الذي تم التدريب استنادًا إليها في السابق في المساكن والأكواخ تتم الآن في الهواء الطلق، وفي الحدائق، والشوارع الرئيسية". وقال العامل راكيتوف في **مذكراته**: "لقد تحولت الورشة إلى موقع عسكري. وأمام المخارط كان عمال الفريزة يتقلدون المزاود وبنادقهم فوق آلاتهم". ثم تطوع في صفوف الحرس كل العمال الذين يعملون في الورشة التي تصنع فيها القنابل باستثناء الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة. وكان جميع العمال الذين يعملون في الورشة التي تصنع فيها القنابل باستثناء الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة. وكان جميع العمال يصطفون عند سماع صفارة انتهاء العمل في الباحة من أجل التمرين. "ويصغي العامل الملتحي وبجانبه العامل المبتدئ إلى المدرب بانتباه...". وبينما كانت تتفتت نهائيًا القطعات القيصرية القديمة، كانت أسس الجيش الأحمر المقبل تُرسَى في المصانع.

وما أن تم تخطي مرحلة الخطر التي يمثلها كورنيلوف، حتى بدأ التوفيقيون في المماطلة بتنفيذ تعهداتهم؛ فلم يسلموا سوى ٣٠٠ بندقية لـ٣٠,٠٠٠ عامل في مصانع بوتيلوف. ثم أوقفوا تسليم السلاح نهائيًا؛ فقد أصبح الخطر الآن منبعثًا من اليسار لا من اليمين. وكان على التوفيقيين أن يحاولوا حماية هذا الوضع بواسطة اليونكرز لا بواسطة البروليتاريين.

وسبب الافتقار إلى هدف عملي مباشر، وعدم كفاية التسليح جزرًا في حماسة العمال الذين بدأوا يتركون صفوف الحرس الأحمر. ولكن لم تكن هذه سوى عطالة قصيرة. فقد أتيح الوقت الكافي للكوادر الأساسية لضم صفوفها في كل مؤسسة. وتوطدت علاقات متينة بين السرايا المختلفة. وعرفت الكوادر بالتجربة أنها تملك احتياطًا كبيرًا يمكن تجهيزه في ساعة الخطر.

وعدل انتقال السوفييت إلى أيدي البلاشفة وضع الحرس الأحمر جذريًا. وأصبح الحرس الأحمر بعد أن كان في السابق مطاردًا أو متسامحًا بنشاطه جهازًا رسميًا للسوفييت الذي بدأ يمد ذراعه نحو السلطة. ووجد العمال الفرص مرارًا للتزود بالسلاح ولم يطلبوا من السوفييت سوى التصريح بالحصول عليه. ومنذ نهاية سبتمبر (أيلول)، ومنذ ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) بصورة خاصة وضعت الاستعدادات للانتفاضة بصورة مكشوفة على جدول الأعمال. وبدأ الجميع قبل شهر من الانتفاضة، في عشرات المصانع والمعامل في بتروغراد، يمارسون التدريب العسكري بصورة نشيطة، ويتدربون على الرمي أساسًا. وفي منتصف أكتوبر (تشرين الأول) ازداد الاهتمام باستخدام السلاح أيضًا. وفي بعض المؤسسات، تطوع كل العمال تقريبًا وانضموا إلى السرايا العمالية.

وازداد طلب العمال بإلحاح على الأسلحة من السوفييت، ولكن كانت هناك بنادق أقل بكثير من الأيدي الممدودة لاستلامها. وروي المهندس كوزمين ما يلي: "كنت أجيء كل يوم إلى سمولني. وأرى كيف كان العمال والبحارة يقتربون من تروتسكي قبل جلسة السوفييت وبعدها، يقدمون السلاح للعمال أو يطالبون به لهم، ويعملون بتوزيع الأسلحة، ويطرحون الأسئلة: متى نبدأ إذن؟ وكان الملل كبيرًا...".

وبقي الحرس الأحمر مستقلاً عن الأحزاب من الناحية الصورية. ولكن كلما اتجه الوضع إلى النهاية، كان البلاشفة ينتقلون إلى المرتبة الأولى في السيطرة عليه؛ فقد شكل البلاشفة نواة كل سرية في الحرس الأحمر، وسيطروا على جهاز

القيادة، وأقاموا الاتصال مع المصانع الأخرى والنواحي. وتبع العمال غير الحزبيين والاشتراكيين - الثوريون اليساريون البلاشفة.

ومع ذلك ما زالت صفوف الحرس الأحمر قليلة العدد في أمسية الانتفاضة. وبتاريخ ١٦، قدر أوريتسكي عضو اللجنة المركزية للبلاشفة أن تعداد الجيش العمالي في بتروغراد ارتفع إلى ٤٠,٠٠٠ حربة، ولكن هذا الرقم مبالغ فيه. فما زالت مصادر التسليح محدودة جدًا، ومهما تكن الحكومة ضعيفة، فمن غير الممكن الاستيلاء على الترسانات إلا بالسير في طريق الانتفاضة.

وبتاريخ ٢٢ انعقد مؤتمر الحرس الأحمر لكل المدينة، وقد ضم حوالي مائة من المندوبين يمثلون تقريبًا ٢٠,٠٠٠ مقاتل. ولا ينبغي أن يؤخذ الرقم حرفيًا؛ فلم يظهر العاملون أنهم كلهم فعالون. وبالمقابل، كان المتطوعون يتوافدون بأعداد كبيرة في حالات الخطر، للانضمام إلى المفارز. وعرفت الأنظمة التي طبقها المؤتمر في اليوم التالي الحرس الأحمر بأنه "تنظيم القوات المسلحة البروليتارية لمحاربة الثورة المضادة وللدفاع عن مكاسب الثورة". ولنلاحظ هذا: قبل الانتفاضة بأربع وعشرين ساعة، كانت مهمة القوات محددة ضمن إطار الدفاع عن الثورة لا الهجوم على السلطة.

وكانت التشكيلة الأساسية هي المجموعة المؤلفة من عشرة جنود. وتشكل كل أربع مجموعات فصيلة. وتتألف السرية من ثلاث فصائل. وتضم الكتيبة ثلاث سرايا. وتعد الكتيبة مع القيادة والقوات الخاصة أكثر من ٥٠٠ جندي. وتشكل كتائب الناحية مفرزة. وقد أنشئ في المصانع الكبرى كمصنع بوتيلوف مفارز مستقلة. وكانت المجموعات الخاصة بالتقنيين – النقابين، سائقو السيارات، عمال البرق، رماة الرشاشات، المدفعيون، تجند في المؤسسات الخاصة بهم، وتضم إلى مفارز المشاة، أو تعمل بصورة مستقلة، حسب طبيعة المهمة المطروحة. وتتم القيادة كلها بالانتخاب. وليس في هذا الانتخاب أية خطورة؛ فكل الموجودين هنا متطوعون يعرفون بعضهم بعضًا بصورة جيدة.

وأنشأت العاملات مفارز صحيحة. وأعلن مصنع صنع عتاد المستشفيات العسكرية عن إعداد دورات للتمريض. وقد كتبت ناتيانا غراف ما يلي: "هناك في كل المصانع تقريبًا مصالح منتظمة للعاملات، تعمل في الإسعاف الطبي، ومزودة بعتاد التضميد الضروري". وكان التنظيم فقيرًا جدًا بالموارد المالية والتقنية. وأرسلت لجان المصانع العتاد لوحدات الإسعاف ولوحدات الفدائيين تدريجيًا. وخلال ساعات الانتفاضة، تطورت بعض الخلايا الضعيفة بسرعة. ووجدت تحت تصرفها فورًا موارد تقنية هائلة. وبتاريخ ٤ أوصى سوفييت حي فيبورغ "بمصادرة كل السيارات فورًا... وجرد كل عتاد التضميد لسيارات الإسعاف، ووضع خدمة مناوبة فيها".

وكان عدد متزايد من العمال اللاحزبيين يجيء للقيام بتمارين الرماية والمناورة. وازداد عدد قطعات الحراسة. وكانت الحراسة في المصانع مؤمنة نهارًا وليلاً. واستقرت هيئات أركان الحرس الأحمر في أبنية أوسع. وفي مصنع صنع غلافات الخراطيش، أجري بتاريخ ٢٣ اختبار لمعارف الحرس الأحمر. وغرقت محاولة أحد المناشفة لمهاجمة الانتفاضة في حديثه إلى الوحدات العمالية وسط عاصفة من السخط، وأخذ العمال يصيحون: كفى، لقد ولّى زمن المناقشات! وكانت حركتهم لا تقاوم، حتى أن روح المقاومة هذه استولت على المناشفة أيضًا. وروت تاتيانا غراف ما يلي: "كان العمال يتطوعون في الحرس الأحمر، ويغدون جزءًا من كل الخدمات المنظمة ويظهرون بديهة أيضًا". ووصف سكورانكو كيف تآخى مع البلاشفة داخل المفرزة في ٢٣ كافة الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة في المفرزة، شيبًا وشبانًا، وكيف عانق سكورانكو بفرح شديد أباه الذي كان يعمل في المصنع ذاته. وروى العامل بسكوفويه ما يلي: "كان في المفرزة المسلحة عمال شبان، عمرهم ١٦ سنة تقريبًا، وشيوخ تصل أعمارهم إلى الخمسين عامًا". وأضاف هذا الاختلاف الكبير بين الأعمار "نشاطًا وروحًا مقاتلة".

كان حي فيبورغ يستعد للمعركة بحماسة خاصة جدًا. وكانوا يلقون القبض على رؤساء الجسور المتحركة المنصوبة في الحي، ويدرسون النقاط الضعيفة فيه، وينتخبون لجنتهم العسكرية الثورية، ولجان المصانع، وينظمون المناوبات. وكتب كييوروف حول موضوع عمال فيبورغ بكبرياء شرعي؛ "كانوا أول من دخل المعركة ضد الأوتوقراطية وأول من شرَّع تحديد ساعات العمل اليومي بثماني ساعات في ناحيتهم، وأول من خرج بالسلاح للاحتجاج ضد الوزراء الرأسماليين العشرة، وأول من احتج بتاريخ ٧ يوليو (تموز) ضد المطاردات التي تعرض لها حزبنا، ولم يكونوا الأخيرين في يوم ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) الحاسم". وما هو حق هو حق!

إن تاريخ الحرس الأحمر هو إلى حد كبير تاريخ ازدواجية السلطات؛ فقد أعطت هذه الازدواجية بتناقضاتها الداخلية ونزاعاتها للعمال سهولة أكبر لإنشاء قوة مسلحة مهيبة، منذ ما قبل الانتفاضة. وكان توطيد كل المفارز العمالية في طول البلاد وعرضها في وقت الانتفاضة مهمة غير ممكنة التحقيق تقريبًا، وفي الوقت الحاضر على الأقل. وعلى كل حال، فقد شكل عشرات وعشرات الألوف من العمال المسلحين كوادر الانتفاضة. وكان معين الوحدات الاحتياطية لا ينضب تقريبًا.

وبقي تنظيم الحرس الأحمر بالطبع بعيدًا عن الكمال. فكان كل شيء يتم بسرعة، وبصورة إجمالية تقريبية، وبشكل غير حاذق دومًا. وكان معظم أفراد الحرس الأحمر سيئي الإعداد، وتنتظم مصالح الارتباط ارتباطًا رديئًا، كما كان التموين لا يسير بصورة جيدة، وكان الفرع الصحي متخلفًا. ولكن الحرس الأحمر كان بعد تكملته بأكثر العمال استعدادًا للتضحية، يتحرق شوقًا لقيادة المعركة حتى النهاية في هذه المرة. وهذا ما حسم المسألة نهائيًّا.

ولم يكن الفارق بين المفارز العمالية وأفواج الفلاحين محددًا باختلاف التركيب الاجتماعي لهؤلاء وأولئك فقط. بَيْد أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الجنود الخشنين، الذين عادوا إلى قراهم واقتسموا فيما بينهم أرض الملاكين، قاتلوا بشراسة ضد الحرس الأبيض، أولاً في مفارز الأنصار، ثم في الجيش الأحمر. وبصرف النظر عن الفارق الاجتماعي، هناك فارق مباشر آخر هو: في حين كانت الحامية تشكل تجمعًا إجباريًّا من الجنود القدامى الذين يرفضون الحرب، كانت مفارز الحرس مشكلة بصورة مجددة، بانتقاء فردي، وعلى قاعدة جديدة وبتصورات جديدة.

وكانت اللجنة العسكرية الثورية تملك سلاحًا ثالثًا أيضًا: بحارة البلطيق. وكان وسط البحارة بتركيبهم الاجتماعي أقرب إلى العمال من جنود المشاة. وتضم صفوف البحارة عددًا لا بأس به من عمال بتروغراد. وكان المستوى السياسي للبحارة أعلى بكثير من مستوى الجنود، كما كان مستواهم مختلفًا عن الاحتياطيين الضعيفين من الناحية القتالية، والذين نسوا استخدام البندقية؛ ذلك لأن البحارة ما زالوا في الخدمة الفعلية.

وبالنسبة للعمليات الفعَّالة، كان من الممكن الاعتماد بصورة جدية على الشيوعيين المسلحين، وعلى مفارز الحرس الأحمر، وعلى طليعة البحارة، وعلى الأفواج التي احتفظت بكيانها بصورة أفضل من غيرها. وكانت عناصر هذا التجمع العسكري تتكامل فيما بينها. وكانت الحامية العديدة لا تملك إرادة كافية للنضال. ولم تكن مفارز البحارة قوية عدديًّا بما فيه الكفاية. وافتقر الحرس الأحمر إلى التجربة. وأظهر العمال مع البحارة قوة وإقدامًا واندفاعًا. وشكلت أفواج الحامية احتياطًا ضعيف الحركة يفرض هيبته بوفرة عدده وبكتلته الساحقة.

ووعى البلاشفة بعد احتكاكهم اليومي مع العمال والجنود والبحارة، الفوارق الكيفية العميقة بين عناصر الجيش التي سيدفعونها إلى القتال. وقد بُني جزء كبير من خطة الانتفاضة ذاتها على حساب هذه الفوارق.

وكانت القوة الاجتماعية للمعسكر الآخر مؤلفة من الطبقات المالكة المتحكمة. وهذا يعني أنها حددت ضعفها العسكري. أما الشخصيات الهامة لرأس المال، والصحافة، والكراسي الجامعية، فمتى قاتلت؟ وأين قاتلت؟ كانت هذه الشخصيات معتادة على الاستعلام بالهاتف أو البرق عن نتائج المعارك التي ستحدد مصيرها الخاص. فمتى وأين قاتل الجيل الجديد والأبناء والطلاب؟ كانوا كلهم تقريبًا معادين لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول). ولكن كان معظمهم ينتظرون مع آبائهم نتيجة القتال، وهم بعيدون عن المعارك. وانضم جزء فيما بعد إلى الضباط وإلى اليونكرز الذين كانوا يجندون في الماضي من أوساط الطلاب. ولم يكن الملاكون يملكون الشعب إلى جانبهم. وقد تحوّل العمال والجنود والفلاحون ضدهم وأظهر انهيار الأحزاب التوفيقية أن الطبقات المالكة بقيت دون جيش.

وإذا كان للسكك الحديدية أهميتها في حياة الدول الحديثة، فإن مسألة عمال السكك تتخذ في الحسابات السياسية لكلا المعسكرين أهمية كبيرة ملائمة. وأتاح التأليف التسلسلي لموظفي السكك الحديدية إمكانات في منتهى التلون السياسي، وخلقت الإمكانات بهذا الشكل شروطًا ملائمة للديبلوماسيين التوفيقيين. واحتفظت **الفيكجل** التي تشكلت مؤخرًا بجذور أقوى في أوساط المستخدمين، والعمال، من جذور لجان الجيش في الجبهة مثلاً. ولم يتبع البلاشفة في السكك الحديدية إلا أقلية بسيطة مؤلفة من عمال المستودعات والورش أساسًا. وكان أقرب عمال السكك إلى الحزب هم عمال شبكتي بتروغراد وموسكو حسب تقرير شميدت، أحد الزعماء البلاشفة في الحركة النقابية.

وقد حدث تحول مفاجئ إلى اليسار بدءًا من ساعة إضراب عمال السكك الحديدية في نهاية سبتمبر (أيلول)، ولوحظ هذا التحول حتى في كتلة المستخدمين والعمال التوفيقيين. وارتفع مد الاستياء الذي أثارته **الفيكجل** عندما ورطت نفسها بمخاتلاتها، وازداد تصميم هذا الاستياء. وكتب لينين بأن "جيوش عمال السكك ومستخدمي البريد مستمرون في نزاعهم الحاد مع الحكومة". وكان هذا كافيًا تقريبًا من وجهة نظر المسائل الفورية للانتفاضة.

وكان الوضع أقل ملاءمة في إدارة البريد والبرق. وحسب رأي البلشفي بوكيه "يقوم أعضاء الكاديت بالحراسة على مقربة من الأجهزة اللاسلكية - الهاتفية". ولكن هنا أيضًا قاوم الموظفون الصغار الموظفين الكبار بعداء. وكان هناك بين صفوف سعاة البريد مجموعة مستعدة للاستيلاء على البريد في اللحظة المناسبة.

وكان من العبث على كل حال التفكير بإقناع كل عمال السكك الحديدية ومستخدمي البريد بالقول فحسب. ولو أن البلاشفة كانوا مترددين لانتصر الكاديت وانتصر الموظفون الكبار من أتباع التوفيقيين. ولو كانت القيادة الثورية مصممة، لجرت القاعدة خلفها الطبقات الوسيطة حتمًا، ولعزلت زعماء **الفيكجل**. وأن الإحصاءات لوحدها لا تكفي في حسابات الثورة؛ إذ لا بُدَّ من أن يدخل في الحساب عامل العمل الحي.

ومع ذلك وجد خصوم الانتفاضة، في صفوف الحزب البلشفي ذاته، دوافع كافية لاستنتاجات متشائمة. وأعطى زينوفييف وكامنييف إنذارًا بعدم التقليل من أهمية قوى الخصم. "إن بتروغراد تقرر، ولكن الخصوم في بتروغراد يملكون قوات هامة: ٥,٠٠٠ **يونكرز** مسلحين تمام التسليح، ويعرفون كيف يقاتلون، بالإضافة إلى هيئة أركان، وكتائب الصدام، والقوزاق، وقسم كبير من حامية الموقع، ومدفعية هائلة منتشرة كمروحة حول بتروغراد. وفضلاً عن هذا سيحاول الخصوم بمعونة اللجنة التنفيذية المركزية بالتأكيد جلب قطعات من الجبهة...". وهذا التعداد يفرض الهيبة والجلال، ولكنه ليس سوى تعداد. وإذا كان الجيش يعتبر بمجموعة نوعًا من التجمع الاجتماعي، فإنه عندما ينقسم بصورة مكشوفة يصبح الجيشان تجمعين لمعسكرين متضادين. وكان جيش المالكين يحمل في تكوينه سوس العزلة والتفتت.

وكانت الفنادق والمطاعم، وأندية القمار بعد قطيعة كرنسكي مع كورنيلوف مكتظة بالضباط المعادين للحكومة. ومع ذلك كان حقدهم على البلاشفة أقوى وأكثر حدة. وكان الضباط الملكيون يمارسون أكبر نشاط لصالح الحكومة، وكان هذا النشاط متفقًا مع القاعدة العامة. وقد تضرع الضابط سينغوب -أحد المدافعين الهامين- عن قصر الشتاء في يوم الانتفاضة، تضرع وابتهل قائلاً ما يلي: "أعزائنا كورنيلوف وكريموف، قد ننجح في ما لم تستطيعا القيام به، والله المعين...". ولكن لم يكن هناك مع كل هذا إلا وحدات نادرة أظهرت بالفعل أنها مستعدة للمعركة، مع أن تعداد هيئة الضباط كان كبيرًا. وكانت مؤامرة كورنيلوف قد أظهرت أن الضباط الذين انهارت معنوياتهم حتى الحضيض، لا يشكلون قوة مقاتلة.

وكان التركيب الاجتماعي **لليونكرز** غير متجان؛ إذ لم يكن هناك إجماع على رأي واحد فيما بينهم. وانتشر في صفوفهم عدد وافر من العناصر الانتهازية، التي جندت لحاجات الحرب منذ أيام الملكية إلى جانب العسكريين بالوراثة، أبناء الضباط وأحفادهم. وقال رئيس مدرسة الهندسة لأحد الضباط: "لقد انتهينا، أنت وأنا وأصبحنا محكومًا علينا... ألسنا من النبلاء وبوسعنا أن نفكر بصورة مختلفة؟". إن هؤلاء السادة المتبجحون، الذين نجوا من الموت ميتة نبيلة، يتحدثون عن **اليونكرز** ذوي الأصل الديمقراطي كما يتحدثون عن البهائم والفلاحين الفقراء. "ذوي القسمات الغليظة النابية". وهكذا رُسم خط فاصل عميق بين رجال الدم الأحمر ورجال الدم الأزرق في داخل **مدارس اليونكرز**. وكان أكثر المتحمسين من بينهم لحماية السلطات الجمهورية هم أولئك الذين ندموا أكثر من غيرهم النظام الملكي. وقد صرح **اليونكرز الديمقراطيون** بأنهم يعارضون كرنسكي، ولكنهم يؤيدون اللجنة التنفيذية. **وفتحت الثورة للمرة الأولى أبواب مدارس اليونكرز لليهود. وأظهر أبناء الأسر البرجوازية اليهودية روحًا عدائية ضد البلاشفة، وحاولوا أن يكونوا أهلاً للامتيازات التي حصلوا عليها.** ولكن هذا لم يكن كافيًا لإنقاذ النظام ولا كافيًا أيضًا للدفاع عن قصر الشتاء. وأعطى التركيب المتنافر للمدارس العسكرية وعزلتها التامة عن الجيش النتيجة التالية: وهي أن اليونكرز بدأوا في الساعات الحرجة أيضًا بعقد المؤتمرات التي عالجوا فيها الأمور التالية: كيف سيتصرف القوزاق؟ هل هناك قطعات أخرى ستزحف غيرنا؟ هل تستحق الحكومة المؤقتة عناء القتال من أجلها بصورة عامة؟

وكانت مدارس بتروغراد العسكرية تضم حوالي ١٢٠ طالبًا اشتراكيًا من **اليونكرز** بينهم ٤٢ أو ٤٣ بلشفيًا، حسب تقرير وضعه بودفويسكي في بداية أكتوبر (تشرين الأول)، واستطرد التقرير قائلاً: "ويقول اليونكرز إن كل قيادة المدارس تتمتع بروح مضادة للثورة. وإن هذه القيادة تعدهم علانية لمقاومة المظاهرات، ولسحق الانتفاضة... إن عدد الاشتراكيين، والبلاشفة بصورة خاصة، كما نرى، عدد تافه جدًا. ولكن هؤلاء يتيحون لسمولني إمكانية معرفة كل الأمور الأساسية التي تحدث في وسط **اليونكرز**، وفضلاً عن هذا، فإن بنية كل المدارس العسكرية غير ملائمة **لليونكرز** إلى حد كبير. فهم منتشرون وسط الثكنات. ومع أنهم يتحدثون عن الجنود بازدراء إلا أنهم يقدرونهم إلى حد كبير".

وكان لمخاوفهم ما يبررها. وتراقب ألوف النظرات المعادية الصادرة من الثكنات المجاورة والأحياء العمالية اليونكرز. وتزداد قوة هذه المراقبة نظرًا لأن هناك مفرزة جنود في كل مدرسة، تتقيد بالحياد في أقوالها، ولكنها في الحقيقة تميل إلى جانب الثوار. كما أن مستودعات أسلحة المدارس بين أيدي الجنود الذين خرجوا من الصف. وقد كتب ضابط من مدرسة الهندسة ما يلي: "لم يكتف هؤلاء الأنذال بفقدان مفاتيح المستودع بشكل جعلني مضطرًا إلى اقتحام الباب، ولكنهم عمدوا أيضًا إلى نزع أقفال الرشاشات وإخفائها في مكان أجهله". ومن الصعب في مثل هذه الظروف توقع معجزات بطولية من اليونكرز.

ألم تكن انتفاضة بتروغراد مهددة بضربة من الخارج، ومن الحاميات المجاورة؟ ألم تتوقف الملكية خلال أيامها الأخيرة عن الاعتماد على الحلقة الصغيرة من القطعات التي كانت تطوق العاصمة. لقد أخطأت الملكية الحساب. ولكن ماذا سيحدث في

هذه المرة؟ إن ضمان الشروط التي تستبعد كل خطر، يعني إلغاء فائدة الانتفاضة، أن هدف الانتفاضة هو كسر الحواجز التي لا يمكن القضاء عليها بواسطة السياسة. ولا يمكن استباق حساب كل شيء. ولكن الحساب شمل كل ما كان توقعه ممكناً.

وفي بداية أكتوبر (تشرين الأول) انعقد في كرونشتادت مؤتمر سوفييتات منطقة بتروغراد. وكانت لهجة مندوبي حاميات الضاحية غاتشينا، وتساركويه - سيلا، وكراسنويه - سيلا وأورانينبوم، وكرونشتادت ذاتها مرتفعة جدًا، حسب سلم أصوات واحتجاجات بحارة البلطيق. وانضم إلى قرارهم سوفييت مندوبي فلاحي منطقة بتروغراد؛ فقد مال الموجيك، الذين تجاوزوا الاشتراكيين - الثوريين اليساريين إلى البلاشفة بحماسة.

ورسم العامل ستيبانوف في اجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد بتاريخ ١٦ لوحة ملونة إلى حد ما عن حالة القوات في المنطقة، ولكن حيث كانت تسود مسبقًا بوضوح صيغة البلشفية. إن العمال في سستروريتسك وكولبينو يتسلحون، وإن المناخ الفكري مؤيد للمعركة ضد النظام. وقد توقف العمل في نوفي - بترهوف في الفوج الذي تفكك تنظيمه. وفي كراسنويه - سيلا انحاز الفوج ١٧٦ (نفس الفوج الذي قام بالحراسة أمام قصر توريد بتاريخ ٤ يوليو (تموز) والفوج ١٧٢ إلى البلاشفة، "ولكن هناك خيالة بالإضافة إلى هذين الفوجين". وفي لوغا، تحولت حامية تضم ٣٠,٠٠٠ جندي إلى جانب البلشفية، وتردد جزء منها. وما زال السوفييت منحازًا إلى جانب دعاة الدفاع الوطني. والفوج في غدوفا بلشفي. وقد هبطت الحماسة من جديد في كرونشتادت؛ فلقد كانت فورة الحاميات قوية جدًا خلال الأشهر السابقة، وكانت أفضل عناصر البحارة الموجودة في الأسطول مشغولة بعمليات حربية. ومنذ وقت طويل أصبح السوفييت في شلوسلبورغ على بعد ٦٠ فرستا من بتروغراد السلطة الوحيدة. وكان عمال مصنع البارود مستعدين في أية لحظة لدعم العاصمة.

فإذا أضفنا المعلومات حول وحدات احتياط الخط الأول إلى نتائج مؤتمر السوفييتات الذي انعقد في كرونشتادت، وجدنا الصورة مشجعة كل التشجيع. وكانت الموجات التي انبعثت من انتفاضة فبراير (شباط) كافية للقضاء على الانضباط في المناطق البعيدة المحيطة بالعاصمة. ومن الممكن أن ننظر الآن بمزيد من الثقة إلى أقرب الحاميات من العاصمة عندما تكون تدابيرها معروفة مسبقًا بصورة كافية.

ويرتبط احتياط الخط الثاني بقطعات الجبهتين الفنلندية والشمالية. وهنا تبدو المسألة أكثر ملاءمة أيضًا. وأعطى عمل سميلغا وأنطونوف وديبنكو نتائج لا تقدر بثمن. وتحول الأسطول مع حامية هلسنغفورز على أرض فنلندا إلى سلطة ذات سيادة. ولم تعد للحكومة أية سلطة عليها. وأتيح الوقت الكافي لفرقتين من القوزاق أدخلتا إلى هلسنغفورز -خصصهما كورنيلوف لتوجيه ضربة ضد بتروغراد- للاقتراب من البحارة بصورة وثيقة، ودعمتا البلاشفة أو الاشتراكيين - الثوريين اليساريين، الذين لا يختلفون كثيرًا عن البلاشفة في أسطول البلطيق.

ومدت هلسنغفورز يديها إلى بحارة قاعدة ريفال، الذي كان موقفهم أقل تصميمًا منها حتى ذلك الوقت. وجاء المؤتمر الإقليمي لسوفييتات الشمال، الذي تم بمبادرة أيضًا من أسطول البلطيق، ليجمع سوفييتات أقرب الحاميات من بتروغراد في دائرة واسعة جدًا شملت موسكو من جهة وارخانجلسك من جهة أخرى. وقد كتب أنطونوف قائلاً: "بهذه الوسيلة تحققت فكرة تحصين عاصمة الثورة ضد الهجمات المحتملة لقطعات كرنسكي". وعاد سميلغا من المؤتمر إلى هلسنغفورز ليعد مفرزة خاصة بالبحرية، والمشاة، والمدفعية، مخصصة لكي ترسل إلى بتروغراد لدى أول إشارة. وكان الجناح الفنلندي للانتفاضة أفضل الأجنحة ضمانة. ومن الممكن أن لا تتوقع الانتفاضة منه ضربة بل أن تتوقع العون والمدد.

وسارت الانتفاضة في قطاعات أخرى من الجبهة أيضًا بصورة جيدة جدًا، وبصورة أفضل على كل حال مما كان يتصوره أكثر المتفائلين من البلاشفة. وفي بحر أكتوبر (تشرين الأول) تمت انتخابات جديدة للجان الجيش، وكان التحول إلى جانب البلاشفة واضحًا جدًا فيها. وفي الفيلق المعسكر في دفينكس وجد "الجنود القدامى المتعلقون أنفسهم مرفوضين في انتخابات لجان الفوج والسرية. واحتل مواقعهم "المواطنون الغامضون والجهلة... ذوو العيون التي تقدح الغضب، ويتطاير الشرر منها، ولهم "أشداق كأشداق الذئاب". وحدث الشيء ذاته في قطعات أخرى. "وقد تمت انتخابات جديدة للجان في كل مكان، وانتخب البلاشفة والانهزاميون في كل مكان". وبدأ مفوضو الحكومة يتجنبون القيام بالمهامات وسط الأفواج. فقد قال البارون بودبرغ عنهم ما يلي: "إن وضعهم في هذا الوقت ليس أفضل من وضعنا". وتغير موقف فوجين من فيلقه من الخيالة الخفيفة وقوزاق الأورال الذين بقوا تحت سيطرة رؤسائهم مدة أطول من مدة الأفواج الأخرى ولم يرفضوا سحق الفتن، تغير موقف هذه القطعات فجأة وطالبت "بإعفائها من أدوار التأديب والدرك". وكان المعنى التهديدي لهذا الإنذار بالنسبة للبارون أوضح من أي معنى آخر. فقد كتب معلقًا على هذا يقول: "لا يمكننا الصمود أمام جمع من الضباع، وبنات آوى والأغنام ونحن نلعب بالقيثارة... ولا تتم عملية الإنقاذ إلا عن طريق الكي بالحديد المحمي على أوسع نطاق"، وفي هذا اعتراف مأساوي: "فالحديد مفقود ولا يعرف أحد أين يجده".

وإذا كنا لا نشير إلى شهادات مماثلة في فيالق وفرق أخرى، فذلك لأن قادتها لم يتسموا بدقة ملاحظة بودبرغ، أو أنهم لم يكونوا يكتبون مذكراتهم الخاصة، أو لأن هذه المذكرات لم تظهر بعد إلى السطح. ولكن الفيلق المعسكر في دفينسك لا يتميز بشيء أساسي، عن الفيالق الأخرى للجيش الخامس إلا بأسلوب قائده. ولم يكن هذا الجيش متقدمًا عن القوات الأخرى إلا بصورة بسيطة جدًا.

وتابعت اللجنة التوفيقية للجيش الخامس، التي بقيت معلقة مدة طويلة، إرسال البرقيات إلى بتروغراد تهدد بإعادة توطيد النظام في المؤخرة بقوة الحراب. وقد علَّق بودبرغ على ذلك قائلاً: "ليس هذا سوى تبجح وقبض ريح". وكانت اللجنة تعيش أيامها الأخيرة. وبتاريخ ٢٣، أعيد انتخابها. وكان رئيس اللجنة البلشفية الجديدة هو الدكتوي سكايانسكي، وهو شاب منظم ممتاز أفسح المجال لمواهبه في مجال تشكيل الجيش الأحمر فيما بعد.

وأبلغ معاون المفوض الحكومي لجبهة الشمال بتاريخ ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) وزير الحربية بأن الأفكار البلشفية تحقق في الجيش نجاحات مطردة، وأن جموع الجنود تريد السلم، وأن المدفعية التي قاومت هذه الأفكار حتى اللحظة الأخيرة قد أصبحت "مهيأة لقبول الدعاية الانهزامية". كان هذا التشخيص هامًا جدًا أيضًا. وعبَّر أحد عملاء الحكومة المؤقتة عن ذلك في تقرير وجهه إليها قبل الانتفاضة بثلاثة أيام قائلاً ما يلي: "لا تتمتع الحكومة المؤقتة بأية سلطة".

ولم تكن اللجنة العسكرية الثورية تعرف في ذلك الوقت كل هذه الوثائق. ولكن ما كانت تعرفه منها كان كافيًا تمامًا. وبتاريخ ٢٣ سار ممثلو مختلف قوات الجبهة بعرض أمام سوفييت بتروغراد مطالبين بالسلم. وهددوا بانقضاض القطعات على المؤخرة إذا لم يتحقق السلم. "ستقضي هذه القطعات على كل الطفيليين الذين يتأهبون للقتال عشر سنوات أخرى". وكان رجال الجبهة يقولون لأعضاء السوفييت، خذوا السلطة، "وستؤيدكم الخنادق".

وكان البلاشفة في الجبهتين الأبعد والأكثر تخلفًا، أي في الجبهة الجنوبية - الغربية والجبهة الرومانية يشكلون قطعًا نادرًا، وعناصر غريبة. ولكن كانت تدابير الجنود هناك هي التدابير ذاتها. وقد روت أوجيني بوش أنه كان هناك بلشفي شاب واثنان من أنصار البلاشفة في الفيلق الثاني للحرس، المعسكر في جوار جميرنكا من أصل ٦٠,٠٠٠ جندي. ولكن هذا لم يمنع الفيلق من الزحف لدعم الانتفاضة خلال أيام أكتوبر (تشرين الأول).

وعلقت الدوائر الحكومية كل آمالها على القوزاق حتى الساعة الأخيرة. ولكن سياسيي معسكر اليمين الذين كـــانوا أقـــل عمًى من الدوائر الحكومية فهموا أن المسألة تبدو من هذه الزاوية أيضًا سيئة جدًا. وكان كل ضباط القوزاق من الكورنيلـــوفيين تقريبًا. في حين كان جنود القوزاق يميلون إلى اليسار أكثر. ولمدة طويلة، لم تفهم الأوساط الحكومية هذا، وقـــدرت أن بـــرود أفواج القوزاق إزاء قصر الشتاء ناجم عن الجور الذي لحق بكاليدين. ولكن أصبح واضحًا في النهاية حتى بالنسبة لوزير العدل ماليا نتوفيتش أن كاليدين "لم يكن خلفه سوى ضباط القوزاق في حين كان جنود القوزاق ميَّالين إلى البلشفية بكل صراحة ككـــل الجنود".

ولم يبق من هذه الجبهة التي كانت تقبل في الأيام الأولى من مارس (آذار) يد وقدم المضحي الليبرالي، وتحمـــل علـــى كتفيها وزراء الكاديت وكأنهم منتصرون، وتسكر من خطب كرنسكي وتعتقد بأن البلاشفة كانوا عملاء لألمانيا، لم يبق من هذه الجبهة شيء. فقد اندرست الأوهام البهيجة في وحل الخنادق التي رفض الجنود أن يعجنوها مدة أطول بأحذيتهم المثقوبة. وقـــد كتب بودبرغ في يوم انتفاضة بتروغراد ذاته قائلاً ما يلي: "إن الخاتمة تقترب، ولا يمكن أن يكون هناك أي شك فـــي نهايتهـــا؛ فليس على جبهتنا الآن وحدة واحدة... لا تخضع لسيطرة البلاشفة".

الاستيلاء على العاصمة

لقد تبدل كل شيء، ومع هذا فقد بقي كل شيء على حاله. وهزت الثورة البلاد، وعمقت التفتت، وأرهبت البعض، وأوغرت صدر البعض الآخر غيظًا وسخطًا، ولكنها لم تجرؤ على قيادة أي شيء حتى النهاية ولم تحل محل أي شيء. وتبدو مدينة سان بطرسبورغ الإمبراطورية غارقة في سبات عميق لا ميتة. وقد رفعت الثورة أعلامها الحمراء على التماثيل الحديدية للملكية. وكانت الأقمشة الكبيرة القرمزية اللون ترفرف على واجهات المباني الحكومية. وكانت القصور والوزارات وهيئات الأركان تعيش بمعزل عن أعلامها الحمراء التي بهت لونها وسط أمطار الخريف. وانتزعت النسور ذات الرأسين، مع الصولجان والكرة حيث أمكن ذلك، وغطيت في معظم الأحيان بالقماش على عجل أو طليت باللون الأحمر. ويبدو أنها أخفيت. وقد توارت كل روسيا القديمة وهي تصر على أسنانها وسط غضبها.

وكانت الشخصيات المضحكة لرجال المليشيا الواقفين على مفترقات الطرق تذكر في الغالب بالانتفاضة التي كنست "الفراعنة". وكان منظر رجال المليشيا مماثلاً لمنظر أنصاب حية. وبالإضافة إلى هذا، أصبحت روسيا منذ شهرين "جمهورية". ونفيت الأسرة المالكة الإمبراطورية إلى طوبولسك. كلا! إن إعصار فبراير (شباط) لم ينته دون أن يترك آثاره على البلاد. ولكن جنرالات لقيصر بقوا جنرالات، واحتفظ النواب بمقاعدهم في المجلس، كما احتفظ المستشارون السِريون بمراكزهم الكبيرة، وبقي سلم التسلسل الإداري ساريًا، وتذكر الأنسجة المحملية المزينة، والشارات المستديرة بالتسلسل البيروقراطي، كما تشير الأزرار الصفراء التي نقشت عليها شعارات النسر إلى الطلاب. ولكن الأمر الأساسي في كل هذا هو أن الملاكين ما زالوا ملاكين، وأن الشعب لا يرى نهاية للحرب، وأن الدبلوماسيين التابعين لدول الحلفاء يوجهون روسيا الرسمية بوقاحة لم تعرف من قبل.

وقد بقي كل شيء كما كان في الماضي، ومع ذلك لا يتعرف أحد على المكان الذي هو فيه. وأحسست الأحياء الأرستوقراطية بأنها دفعت إلى خلفية الأحداث. وتقاربت أحياء البرجوازية الليبرالية مع الأحياء الأرستقراطية بشكل أوثق من ذي قبل. وأصبح الشعب واقعًا رهيبًا بعد أن كان خرافة وطنية. واهتز كل شيء تحت الأقدام وانهار. وانفجر بقوة هائلة في الأوساط التي كانت منذ فترة خلت تسخر من خرافات الملكية وتطيرها.

وبدأ رجال البورصة والمحامون وراقصات الباليه يلعنون فساد الأخلاق الجديد. وأخذ الإيمان بالمجلس التأسيسي يتبدد يومًا بعد يوم. وتنبأ غوركي في صحيفته بانهيار الحضارة. وشاع الفرار من بتروغراد، الساخطة الجائعة بغرض الوصول إلى المناطق الهادئة والتي يتوفر الغذاء فيها بصورة أفضل، بعد أن قوي هذا الفرار منذ أيام يوليو (تموز). وحاولت العائلات الميسورة التي لم تنجح بمغادرة العاصمة، حماية نفسها من الحقيقة بجدران من الحجر وسقوف من الصفيح. ونفذت أصداء العاصفة من كل مكان: من السوق حيث أصبح كل شيء أغلى مما كان عليه، وحيث تندر كل المواد، ومن الصحافة المفكرة جيدًا، تلك التي لم تكن سوى عواء من الحقد والذعر. ومن الشارع الذي يغلي، والذي تنطلق منه أحيانًا طلقات نارية تحت النوافذ. ونفذت العاصفة أخيرًا من سلم الخدم، بواسطة الخدم الذين لم يعودوا يريدون الطاعة العمياء. وربما ضربت الثورة هنا في أكثر الأمكنة حساسية؛ فمقاومة عبيد المنازل تدمر نهائيًّا استقرار المنزل العائلي.

ومع هذا كانت الرتابة اليومية تدافع عن نفسها بكل قواها. فالتلاميذ في المدارس ما زالوا يدرسون كتبًا مدرسية قديمة، وما زال الموظفون يكتبون أوراقًا لا يحتاج إليها أحد، ويقطر الشعراء أبياتًا لا يقرؤها أحد، وتروي المربيات أسطورة إيفان تساريفيتش، وتتعلم بنات الطبقة النبيلة وطبقة التجار التي تصل من الريف الموسيقي أو تفتش عن الخُطاب. ويعلن المدفع القديم

الرابض فوق جدار قلعة بطرس وبولص إشارة الظهر، ويُعرض في مسرح ماري "باليـه" جديـد، ويجـد وزيـر الخارجيـة تيريشتشنكو الذي يعتبر ضليعًا في فن الرقص والإيقاع وأقوى فيهما من الدبلوماسية، يجد الوقت -وهذا ما ينبغي أن نعتقد به- للإعجاب برقص الراقصة الأولى على رؤءوس أصابعها، ليبرهن بهذا الشكل على صلابة النظام.

وما زالت فضلات المآدب القديمة كثيرة وغزيرة. وبوسع المرء أن يحصل على كل ما يريد مقابل مبالغ ضخمة. وترن مهاميز ضباط الحرس عندما يضمون أعقاب أحذيتهم، ويبحث هؤلاء الضباط عن المغامرات في الغرف الخاصـة بالمطـاعم الفخمة، ويرتمون وسط الدعارة والمجون اللذين لا نهاية لهما. وينقطع نور الكهرباء في منتصف الليل، بَيْد أن هـذا لا يمنـع رخاء دور القمار؛ حيث تتلألأ الشمبانيا على ضوء الشموع، وحيث يسلب أصحاب الرتب النبيلة الجواسيس الألمـان الـذين لا يقلون عنهم وجاهة في لعب الورق، وحيث يقول بعض المتآمرين من أنصار الملكية "استنكف عن اللعب" أمام بعض المهـربين الساميين، وحيث تدل الأرقام الخيالية للمقامرات على انتشار الفجور واتساع التضخم.

فهل من الممكن أن تتوجه حافلة ترام بسيطة، أعتني بها بصورة سيئة، وقذرة، وبطيئة، وقد تعلقت بها العناقيد البشرية، هل من الممكن أن تتوجه هذه الحافلة من سان بطرسبورغ التي تحتضر إلى الأحياء العماليـة التـي تعـيش بكـل مـشاعرها الضاغطة على أمل جديد؟ وتشير القباب الزرقاء المذهبة لمعهد سمولني من بعيد إلى مقر هيئة أركان الانتفاضة؛ فعلى حـدود المدينة القديمة، حيث يقف خط الترام، وحيث يرسم نهر النييفا منعطفًا حادًا نحو الجنـوب، يفـصل الـضواحي عـن مركـز العاصمة، هناك مبنى رمادي مؤلف من ثلاثة طوابق كان من قبل مقرًا لتعليم بنات النبلاء، هذه هي الآن قلعة السوفييتات. وفي هذا المبنى ممرات وأروقة لا تنتهي، وطنانة يبدو أنها صنعت لتعليم قوانين البعد. وعلى أبواب عدد كبير من القاعات ما زالت هناك كتابات على المينا: "قاعة الأساتذة"، "الصف الثالث"، "الصف الرابع"، "مدرسات الصف". وقد لصقت إلى جانب اللوحـات القديمة أو فوقها، هنا وهناك أوراق نقشت عليها الحروف الهيروغليفية العجيبـة للثـورة:[1] تـس. ك.، ب. س. ر.، س. د. مناشفة. س.د. بلاشفة، اشتراكيون - ثوريون يساريون، فوضويون - شيوعيون، **مفرزة التسايكا (اللجنة التنفيذية المركزيـة للسوفييتات)** ...إلخ. وقد لاحظت العين الثاقبة لجون ريد على الجدران الكتابات التالية: "أيها الرفاق تقيدوا بالنظافـة، مراعـاة لصحتكم!" ومن المؤسف أن أحدًا لا يتقيد بالنظافة بدءًا من الطبيعة ذاتها. وعاشت بتروغراد أكتوبر (تشرين الأول) تحت سـيل من الأمطار. فالشوارع التي لم تنظف منذ مدة طويلة أصبحت قذرة جدًا. وأصبحت باحة سمولني عبارة عن مستنقعات واسعة. وانتقل الوحل إلى الممرات والقاعات بنعال الجنود. ولكن لم يكن أحد ينظر في تلك اللحظة إلى الأرض، وتحت قدميـه، كلهـم كانوا ينظرون إلى الأمام.

وأخذت المجموعة الموجودة في سمولني تقود بمزيد من الحزم والسلطة، ورفعها للولاء العاطفي للجماهير. ولـم تمتـد الإدارة المركزية بصورة مباشرة إلا إلى وسائل العمل العليا للنظام الثوري، الذي ينبغي عليه، بمجموعـه، إنهـاء الانتفاضـة. وتحققت أهم مهنة في القاعدة وكأنها تمت من تلقاء ذاتها. وكانت المصانع والثكنات هي بؤر التاريخ في تلك الأيام. وحشد حي فيبورغ كما حشد في فبراير (شباط) القوى الأساسية للثورة. وهو يملك الآن، خلافًا لما كان يملك في فبراير (شـباط): تنظيمًـا قويًّا، علنيًّا، يعترف به الجميع. وتمتد الخيوط من الأحيـاء، ومطـاعم المـصانع، والنـوادي، والثكنـات نحـو ٣٣ شـارع سامبسونييفسكي؛ حيث استقرت لجنة دائرة البلاشفة، وسوفييت فيبورغ وهيئة أركان القتال. واندمجت مليشيا الناحية مع الحرس الأحمر. وأصبح الحي كله تحت سلطة العمال. ولو أن الحكومة سحقت سمولني لاستطاعت ناحية فيبورغ وحدها إعادة التوازن وتأمين متابعة الهجوم.

وكانت النهاية قريبة جدًا، ولكن الزعماء قدروا أو تظاهروا بالاعتقاد بأنه ليس هناك ما يدعو لقلقهـم. وتلقـت سـفارة بريطانيا - العظمى، التي كانت لديها أسبابها لمتابعة أحداث بتروغراد بمزيد من الانتباه، تلقت تبعًا لما رواه سفير روسيا الـذي

كان في لندن آنئذٍ معلومات مؤكدة عن الانتفاضة المتوقعة. ورد تيريشتشنكو على الأسئلة القلقة لبوكانان خلال حفلة غداء دبلوماسية محتمة، بتأكيدات قاطعة: لا يمكن أن يحدث "شيء من هذا". فالحكومة تمسك بحزم بكل الزمام بيديها. وأعلمت سفارة روسيا في لندن بالانتفاضة ببرقية صادرة عن الوكالة اللاسلكية الهاتفية البريطانية.

وقد سأل أورباخ أحد أصحاب صناعات المناجم في زيارة قام بها في تلك الأيام للوزير بالتشينسكي، سأله دون أن يبدو عليه شيء، بعد حديث حول أمور أكثر جدية عن رأيه "في الغيوم السوداء فوق الأفق السياسي"، وحصل منه على رد مطمئن جدًا: عاصفة أخرى ستمر ويعود الجو صافيًا من جديد: "قم بصفقة جيدة"، ولم يعان بالتشينسكي الأرق سوى ليلة أو ليلتين قبل أن يعتقل.

وكلما أظهر كرنسكي أنه أقل تقيدًا بالأبهة في معاملته للزعماء التوفيقيين، كان شكه يتضاءل بأن هؤلاء الزعماء سيهبون في ساعة الخطر لتخليصه في الوقت الملائم. وكلما ازداد التوفيقيون ضعفًا، كانوا ينسجون حولهم جوًا من الأوهام! وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون الذين كانوا يتبادلون من على مناصبهم العالية في بتروغراد كلمات التشجيع المتبادلة مع التنظيمات العليا للمنطقة والجبهة، كانوا يخلقون صورة جديدة معارضة للرأي العام، ولا يوقعون خصومهم في الخطأ وهم يقنعون عجزهم ويخفونه، بل كانوا يوقعون أنفسهم في هذا الخطأ. وكان جهاز الدولة، المثقل، العاجز، مزيجًا من اشتراكية مارس إلة الحرب وببيروقراطية القيصر، أفضل الأجهزة تكيفًا لكي يخدع نفسه. وكان الاشتراكي حديث العهد بالاشتراكية يخشى أن يظهر أمام الموظف كرجل دولة لا يتمتع بالنضج الكافي، وكان الموظف يخشى أن يظهر قليل الاحترام للأفكار الجديدة. وهكذا خلق تشابك في الأكاذيب الرسمية، كان الجنرالات، والمدعون العامون، والصحفيون والمفوضون ومساعدوهم يكذبون خلاله، ويزدادون في اختلاق الأكاذيب كلما أصبحوا قريبين من مراكز السلطة. وكان قائد منطقة بتروغراد العسكرية يقدم تقارير مطمئنة لأن كرنسكي كان بأمس الحاجة إلى ذلك إزاء الحقائق التي تطمئن كثيرًا.

وكانت تقاليد ازدواجية السلطة تعمل في الاتجاه ذاته. والواقع، كانت الأوامر العادية لهيئة الأركان الإقليمية التي تصدق عليها اللجنة العسكرية الثورية تنفذ دون تردد. واحتلت مخافر الحرس في المدينة كالعادة بقوات من الحامية، وينبغي أن نقول إن الأفواج لم تكن قد قامت بمهمة الحراسة منذ مدة طويلة بمثل هذه الحمية التي أخذت تظهرها في الوقت الحاضر. فما هو استياء الجماهير؟ "إنهم عبيد عصاة" وهم دومًا مستاءون. ولا يشترك في محاولات الشغب سوى حثالة سكان العاصمة. هل يعارض فرع الجنود هيئة الأركان؟ ولكن الفرع العسكري للجنة التنفيذية المركزية موال بالمقابل لكرنسكي. وتدعم كل الديمقراطية المنظمة، فيما عدا البلاشفة، الحكومة. وهكذا تحول الإكليل البهيج الوردي لمارس (آذار) إلى بخار أزرق داكن يكشف المحيطات الحقيقية للأشياء.

وعندما حدثت القطيعة بين سمولني وهيئة الأركان فقط حاولت الحكومة معالجة النزاع بجدية أكثر؛ فليس هناك من خطر مباشر. ولكن ينبغي في هذه المرة استغلال الفرصة لتصفية البلاشفة. وبالإضافة إلى هذا، مارس الحلفاء البورجوازيون الضغط بكل قواهم على قصر الشتاء. وفي ليلة ٢٤/٢٣ قررت الحكومة بعد أن استجمعت أطراف شجاعتها ما يلي: ملاحقة اللجنة العسكرية الثورية أمام القضاء. ومنع الصحف البلشفية التي تدعو إلى الانتفاضة. ودعوة قوات موثوقة من ضواحي العاصمة ومن الجبهة. وأجل تنفيذ اقتراح اعتقال اللجنة العسكرية الثورية كلها، هذا الاقتراح الذي صدق عليه مبدئيًّا؛ إذ ينبغي تأمين دعم اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي في مثل هذا المشروع الخطير.

وانتشرت إشاعة القرارات التي اتخذتها الحكومة في المدينة فورًا. وفي أبنية هيئة الأركان العامة، إلى جانب قصر الشتاء، خلال ليلة ٢٤/٢٣ كان جنود فوج بافلوفسكي، وهو واحد من القطعات الأكثر ولاء للجنة العسكرية الثورية، يقومون

بالحراسة. وذكرت فكرة لدعوة اليونكرز وقطع الجسور والقيام بالاعتقالات أمام جنود الفوج الذين نقلوا إلى النواحي وإلى سمولني فورًا كل ما كان بوسعهم أن يسمعوه ويتذكروه. ولم يكونوا يعرفون في المركز الثوري كيف يستخلصون المعلومات دومًا من مكافحة التجسس العفوية هذه. ولكنهم كانوا يحققون عملاً لا يمكن التعويض عنه. فقد كان عمال وجنود كل المدينة على علم بنوايا العدو، ويعززون مواقعهم ويتقوون في إجراءاتهم للمقاومة.

وفي الصباح الباكر بدأت السلطات استعداداتها للاشتباك. وألقت مدارس اليونكرز في العاصمة الأمر باتخاذ تدابيرها للقتال. وكان على الطراد **اورور** الموجود في نهر النيفا، والذي يحمل بحارة موالين للبلاشفة، أن يخرج إلى البحر لينضم إلى عمليات الأسطول. واستدعيت قوات من الضاحية: كتيبة الصدام التابعة لتساركويه - سيلا، ويونكرز أورنينبوم، ومدفعية بافلوفسكي. وطلب من هيئة أركان الجبهة الشمالية أن تأمر فورًا قطعاتها الموثوقة بالزحف إلى العاصمة. وصدر الأمر التالي كتدابير فورية لاحتياطات عسكرية: تعزيز قطعات حرس قصر الشتاء. وقطع جسور نهر النيفا. وعلى اليونكرز مراقبة السيارات، وقطع اتصالات سمولني الهاتفية. وأوصى ماليانتوفيتش -وزير العدل- باعتقال البلاشفة الذين أفرج عنهم في السابق بكفالة، وبرهنوا من جديد على نشاط مضاد للحكومة، وكانت الضربة موجهة قبل كل شيء ضد تروتسكي. ومن مساوئ الأقدار ومهازلها أن ماليانتوفيتش كان محاميًا عن تروتسكي في عام ١٩٠٥ كما كان زارودني سلفه، وكانت القضية تتعلق في ذلك الوقت بقيادة سوفييت بتروغراد. وكان طابع الاتهامات الموجهة واحدًا في القضية الأولى والثانية، ولكن في هذه المرة أضيف إلى التهمة السابقة أن المدافعين السابقين عن المتهم أصبحوا اليوم هم المتهمين، وأضافوا إلى جريمة تروتسكي تهمة الحصول على الذهب الألماني.

وأظهرت هيئة أركان المنطقة العسكرية نشاطًا محمومًا بصورة خاصة في مجال الطباعة. فكانت الأوامر تصل تباعًا: لن يسمح بالقيام بأية تظاهرة، ويتعرض المذنبون لأخطر المسئوليات، وتبقى قوات الحامية محجوزة في الثكنات، إلا إذا صدر أمر معاكس من هيئة الأركان العامة. "ينبغي طرد كل مفوضي سوفييت بتروغراد"، وفتح تحقيق عن لا شرعية أعمالهم "لإحالتهم أمام المجالس العرفية". ومع ذلك فإن هذه الإنذارات التهديدية لا تشير أبدًا إلى من سيقوم بالتنفيذ، وكيف سيكون هذا التنفيذ. وطلب قائد المنطقة من أصحاب السيارات وضع سياراتهم تحت تصرف هيئة الأركان "كي يحولوا دون الاستيلاء الكيفي عليها"، وقد صدر هذا الأمر على مسئوليته الشخصية. ولكن كل الناس أصموا آذانهم.

ولم تبخل اللجنة التنفيذية المركزية هي أيضًا بالنصائح والتهديدات. وقد سارع في أعقابها: اللجنة التنفيذية الفلاحية، ومجلس دوما البلدية، واللجان المركزية للمناشفة، والاشتراكيين - الثوريين. وكانت كل هذه المؤسسات غنية إلى حد ما بالموارد الأدبية. وكانوا يتحدثون بصورة ثابتة في المنشورات المنتشرة على الجدران والملصقة على الأسيجة عن عصابة صغيرة من المجانين، وعن خطر المعارك الدموية لثورة مضادة حتمية.

وفي الساعة ٥:٣٠ صباحًا حضر إلى مطبعة البلاشفة مفوض للحكومة مع مفرزة يونكرز. وبعد أن طوق كل المنافذ، قدم تفويضًا من رئاسة الأركان العامة يأمر بإغلاق **الصحيفة المركزية للبلاشفة وصحيفة الجندي**. فأجابه عمال المطبعة ماذا؟ وكيف؟ الأركان؟ هل للأركان وجود حتى الآن؟ هنا لا نقبل أي أمر إذا لم تصادق عليه اللجنة العسكرية الثورية. ولكن ردهم لم يفد في شيء؛ فقد حُطمت "الكليشاهات"، وختمت الأبنية بالشمع الأحمر. واستطاعت الحكومة تسجيل أول نجاح لها.

وهرع عامل وعاملة من المطبعة البلشفية وهما يلهثان إلى سمولني. فوجدا هناك بودفويسكي وتروتسكي وطلبا منهما ما يلي: إذا أعطتهم اللجنة قوة من الحرس لمقاومة اليونكرز، فإن العمال سيطبعون الصحيفة. وهكذا وجدت الطريقة للبدء بالرد على هجوم الحكومة. وأصدرت اللجنة العسكرية الثورية أمرًا إلى الفوج الليتواني: أرسلوا فورًا سرية لحماية المطبعة العمالية.

وأصر مبعوثا المطبعة على تحريك كتيبة النقابيين السادسة: إن جنودها جيران قريبون وأصدقاء أوفياء. ونقلت البرقيات الهاتفية فورًا إلى الوحدتين. وتحرك الليتوانيون والنقابون فورًا وبدون تأخير. وانتزعت الأختام الموضوعة على البناء، وأعيد صب القوالب، وعاد العمل في المطبعة إلى أقصى ذروة نشاطه. وظهرت الصحيفة التي منعت الحكومة صدورها متأخرة عن موعدها بضع ساعات تحت حماية قطعات اللجنة العسكرية، هذه اللجنة التي صدر أمر باعتقال أعضائها. كانت هذه هي الانتفاضة. وبهذا الشكل تطورت.

في غضون ذلك، كان المسئولون في سمولني يطرحون السؤال التالي حول الطراد اورور: هل يجب أن يخرج إلى البحر أو يبقى في مياه النييفا؟ إن نفس البحارة الذين كانوا يحمون في أوغسطس (آب) قصر الشتاء ضد كورنيلوف يحترقون الآن رغبة لتسوية حساباتهم مع كرنسكي. وألغي الأمر الحكومي الصادر إلى الطراد من قبل اللجنة فورًا. وتلقى البحارة الأمر رقم ١٢١٨، كان هذا الأمر يتضمن ما يلي: "إذا هوجمت حامية بتروغراد من قبل القوى المضادة للثورة، فإن على الطراد أن يستولي على القاطرات والمراكب والزوارق البخارية". وقام الطراد بحماسة مهمة كان ينتظرها.

وبقي هذان العملان اللذان اقترحهما العمال والبحارة لمقاومة الحكومة وتما بموافقة الحامية بلا قصاص من طرف الحكومة، وأصبحا حدثين سياسيين بالغي الأهمية. وسقطت آخر بقايا التمجيد للسلطة وتحولت إلى رماد. وقال أحد المشتركين: "أصبح واضحًا فجأة أن المسألة قد سويت تمامًا". وإذا لم تكن قد سويت بعد، فقد ظهرت على كل حال أبسط بكثير مما بدت بالأمس.

وكانت محاولة الحكومة لمنع الصحف، وقرار إحالة اللجنة العسكرية الثورية إلى القضاء، والأمر بطرد المفوضين، وقطع الاتصالات الهاتفية مع سمولني، كانت كل وخزات الدبوس هذه كافية لاتهام الحكومة بإعداد انقلاب مضاد للثورة. ومع أن الانتفاضة لا تستطيع أن تنتصر إلا بشكل هجوم، فقد تطورت بنجاح كبير نظرًا لأنها كانت تأخذ مظهرًا أقرب للدفاع. لقد ختمت الحكومة باب الصحيفة العمالية بالشمع، وكان هذا الشمع القليل لا يمثل شيئًا كثيرًا كتدبير حربي. ولكنه كم كان إشارة رائعة لبدء المعركة! وصدر أمر إلى كل الدوائر وإلى قوات الحامية يعلمها بما حدث. "لقد قام أعداء الشعب بالهجوم خلال الليل... وتقود اللجنة العسكرية الثورية المقاومة ضد هجوم المتآمرين". وكان المتآمرون هم أجهزة السلطة الرسمية. ولهذا التعريف طنين غير متوقع تحت قلم المتآمرين الثوريين. ولكنه يتجاوب تمامًا مع الظروف ومع الرأي العام للجماهير. وقامت الحكومة فورًا بعد أن طردت من كل مكامنها، واضطرت إلى السير في هجوم متأخر، بأعمال متفرقة لا تتسم بالتفكير، وغير منسقة، اتخذت في نظر الجماهير شكل مؤامرات غادرة. وقد أوصى الأمر الذي أصدرته اللجنة العسكرية الثورية بما يلي: "إعداد الفوج للقتال وانتظار التعليمات". كان صوتًا يتميز بالسلطة. وتابع مفوضو اللجنة الذين يستحقون الطرد من قبل الحكومة في طرد كل العناصر غير المرغوب بها بمزيد من الثقة.

ولم يكن الطراد اورور الراسي في مياه النييفا وحدة قتال ممتازة في خدمة الانتفاضة فحسب، بل كان محطة إذاعة لاسلكية جاهزة. وكان وجوده يشكل ميزة لا تقدر بثمن. وقد قال البحار كوركوف في **مذكراته** ما يلي: "أعلمنا تروتسكي أن من الضروري أن نذيع لاسلكيًا... بأن الثورة المضادة ابتدأت بالهجوم". وكانت جماهير الدفاع هنا أيضًا تحدد نداء إلى الهجوم، موجهًا هذه المرة إلى كل البلاد. وتلقت الحاميات التي تدافع عن مشارف بتروغراد والمنافذ المؤدية إليها من إذاعة اورور أمرًا بإيقاف حركة القوات المضادة للثورة، وباستخدام القوة عندما لا يكفي تحذيرها وإنذارها. وفرض على كل التنظيمات الثورية بأن "تجتمع بصورة دائمة وأن تلتقط كل المعلومات عن خطة المتآمرين وأعمالهم". وهكذا نرى أن اللجنة العسكرية الثورية لم تكن تفتقر إلى البيانات. ولكن القول عندها لا يختلف عن الفعل، فالفعل يفسر القول فقط.

وبُدِء بتحصين سمولني جديًّا رغم أن هذا العمل جاء متأخرًا. وعندما ترك جون ريد المعهد في الساعة الثالثة صباحًا في ليلة ٢٣/ ٢٤ لفتت انتباهه الرشاشات الرابضة في المداخل، والدوريات القوية التي كانت تحرس الباب الكبير منذ الأمس معززة بسرية من الفوج الليتواني، وبسرية رماة، مع ٢٤ رشاشًا. فقد كان الحرس في تزايد مستمر طيلة اليوم. وقد كتب شليابنيكوف ما يلي: "لاحظت في مقر قيادة سمولني مشاهد كنت أعرفها، ذكرتني بالأيام الأولى من ثورة فبراير (شباط) حول قصر توريد". نفس الجموع من الجنود والعمال والأسلحة المختلفة الأنواع. وعدد لا يحصى من أكداس أخشاب التدفئة، في الباحة. ويمكن استخدام هذه الأكداس كمساتر عند التراشق بالنيران. وتجلب سيارات النقل المؤن والذخائر. وقد روى راسكولنيكوف ما يلي: "تحول كل معهد سمولني إلى معسكر حربي. وفي الخارج صوبت المدافع أمام الأعمدة. وتمركزت بالقرب منها الرشاشات... وعلى كل سطح وفي كل الممرات تقريبًا تجد نفس رشاشات "مكسيم" الشبيهة بالمدافع الصغيرة... وكان البحارة والمحرضون والجنود والعمال يتحركون بسرعة، وضوضاء، وفرح". ولقد اتهم سوخانوف منظمي الانتفاضة بالافتقار إلى روح التنظيم العسكري دون أن يخلو اتهامه من بعض الصدق فقال: "بدأت المفارز المسلحة للحرس الأحمر والجنود تتجمع حول سمولني في يوم ومساء ٢٤ فقط، للدفاع عن هيئة أركان الانتفاضة... وفي مساء ٢٤، كان حرس سمولني في أوج نشاطه".

ولا تخلو هذه المسألة من الأهمية. فقد تجمعت الآن في سمولني التي انتقلت اللجنة التنفيذية التوفيقية منها سرًا إلى مبنى هيئة الأركان الحكومية رءوس كل التنظيمات الثورية التي يقودها البلاشفة. وهنا انعقدت أيضًا في هذا اليوم جلسة اللجنة المركزية للحزب لكي تتخذ آخر القرارات قبل أن تضرب الضربة الكبرى. وكان أحد عشر عضوًا منها حاضرين. وكان لينين لم يخرج بعد من مخبئه السري في حي فيبورغ. وكان زينوفييف متغيبًا. "وكان يختفي ولا يشترك في عمل الحزب"، حسب التعبير الصارخ لدزيرجنسكي، وبالمقابل كان كامنييف الذي يشارك زينوفييف أفكاره نشيطًا جدًا في هيئة أركان الانتفاضة. وكان ستالين متغيبًا: وكان لا يظهر في سمولني في الأعم والأغلب، ويقضي وقته في تحرير الصحيفة الرسمية. وتمت الجلسة كالعادة برئاسة سفردلوف. وكان محضر الجلسة الرسمية مختصرًا ولكنه سجل كل الأمور الجوهرية. وكان سفردلوف لا يضاهى في تقييمه لزعماء الانتفاضة ولتوزيعه للمهام فيما بينهم.

وكان هدف الانتفاضة الاستيلاء على بتروغراد نهائيًّا خلال أربع وعشرين ساعة. وهذا يعني الاستيلاء على المؤسسات السياسية والتقنية الباقية بين يدي الحكومة. وينبغي على مؤتمر السوفييتات أن ينعقد تحت لواء السلطة السوفييتية. وكانت التدابير العملية للانقضاض الليلي قد وضعت من قبل أو وضعتها اللجنة العسكرية الثورية والتنظيم العسكري للبلاشفة. وكان على اللجنة المركزية أن تضع اللمسة الأخيرة عليها.

وتبنى الجميع قبل كل شيء اقتراح كامنييف التالي: "لا يسمح اليوم لأي عضو في اللجنة المركزية، بالخروج من سمولني إلا بقرار خاص". وتقرر بالإضافة إلى هذا تعزيز خدمة المناوبة في سمولني لأعضاء لجنة الحزب في بتروغراد. ويقول محضر الجلسة فيما بعد ما يلي: "وقد اقترح تروتسكي وضع عضوين من اللجنة المركزية تحت تصرف اللجنة العسكرية الثورية لإقامة الاتصال مع مصالح البرق والبريد، وعمال السكك الحديدية، ووضع عضو ثالث لمراقبة الحكومة المؤقتة". وكان القرار المتخذ ردًا على الاقتراح: إيفاد دزيرجنسكي إلى مصالح البرق والبريد، وبوبنوف إلى السكك الحديدية. وكان الرأي الغالب في بادئ الأمر، وربما كان ذلك بمبادرة من سفردلوف، تكليف بودفويسكي بمراقبة الحكومة المؤقتة. وقد سجل محضر الجلسة ما يلي: "اعتراض على إرسال بودفويسكي. ويكلف سفردلوف بهذه المهمة". وكلف ميليوتين، الذي يعتبر رجل اقتصاد بالتموين. وأوكلت مهمة المباحثات مع الاشتراكيين - الثوريين اليساريين إلى كامنييف الذي يتمتع بسمعة برلماني ماهر، مع أنه ميال إلى المسايرة والمصالحة أكثر مما يجب: توفيقي، هذا ما تفهمه البلشفية عن موقفه. "واقترح تروتسكي تنظيم

هيئة أركان احتياطية في قلعة بطرس وبولص، وتعيين عضو من اللجنة المركزية لهذا الهدف". وكان القرار: "تكليف لاشوفيتش وبلاغونرافوف بالمراقبة العامة. وأوكلت مهمة الحفاظ على اتصال دائم بقلعة بطرس وبولص إلى سفردلوف". وبالإضافة إلى هذا: "يزود كل أعضاء اللجنة المركزية بتصاريح للمرور إلى القلعة".

وهكذا جمعت كل الخيوط بين أيدي سفردلوف، ضمن خط الحزب. فقد كان سفردلوف يعرف الكوادر البلشفية معرفة لا ينازعه فيها أحد. وربط سفردلوف سمولني بجهاز الحزب، ووفر المناضلين الضروريين للجنة العسكرية الثورية، وكان مدعوًا إليها للمفاوضة والحديث في كل الأوقات الحرجة. ونظرًا لأن تأليف اللجنة كان واسعًا جدًا، ومتحركًا بصورة خاصة، فقد طبقت قمة التنظيم العسكري للبلاشفة أكثر التدابير سرية، أو طبقها سفردلوف شخصيًّا، الذي كان بالفعل، لا من الناحية الرسمية "السكرتير العام" لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول).

وكان المندوبون البلاشفة الذين يصلون إلى مؤتمر السوفييتات يقابلون سفردلوف قبل أي إنسان آخر، ولا يبقون ساعة دون عمل معه. وفي ٢٤ كان هناك في بتروغراد حوالي مائتين أو ثلاثمائة من رجال المناطق، وقد دخلت أكثريتهم بشكل أو بآخر في آلية الانتفاضة. وفي الساعة الثانية بعد الظهر، اجتمعوا في سمولني، في جلسة لمجموعة الحزب، لسماع المقرر في اللجنة المركزية للحزب. وكان بينهم بعض المترددين الذين كانوا يفضلون على غرار زينوفييف وكامنييف إتباع سياسة التفرج، وكان هناك أيضًا حزبيون لا يمكن الاعتماد عليهم. ولم يكن من الممكن عرض خطة الانتفاضة أمام المجموعة كلها؛ فما يقال في مجلس يضم عددًا كبيرًا من الأشخاص، حتى ولو كان هذا المجلس سريًّا، ينتشر دومًا إلى الخارج. ولا يمكن أيضًا تمزيق غلاف الدفاع الذي غطي به الهجوم، دون المغامرة بإحداث اضطراب في ضمير الوحدات المختلفة للحامية. ولكن من الضروري في الوقت ذاته أن يعطي المقرر ما يفهم منه بأن المعركة الحاسمة قد بدأت، وأن على المؤتمر أن ينهيها فقط.

وبرهن تروتسكي، وهو يذكر الحاضرين بآخر مقالات لينين بأن "**التآمر لا يتعارض أبدًا مع المبادئ الماركسية**"؛ إذا كانت العلاقة الموضوعية تحتم الانتفاضة وتجعلها ممكنة "وينبغي التغلب على العائق المادي الذي يقف في طريق السلطة بضربة عنيفة...". ومع هذا لم يتجاوز سياسة اللجنة العسكرية الثورية حتى ذلك الوقت إطار الدفاع. ومن الواجب بالطبع فهم هذا الدفاع بصورة واسعة نوعًا ما. فإذا كانت الصحافة البلشفية واثقة من طبعها وظهورها في الأسواق بمساعدة القوات المسلحة، أو كان الطراد اورور قادرًا على البقاء في النيفا، "هل هذا دفاع، أيها الرفاق؟ إنه دفاع!" وإذا قررت الحكومة اعتقالنا في هذه المرة، فإن الرشاشات منصوبة على سطح سمولني. "إنه دفاع أيضًا، أيها الرفاق!". وتلقى تروتسكي في إحدى الأوراق المرسلة إليه السؤال التالي: ماذا نعمل بالحكومة المؤقتة؟ فرد عليه قائلاً: إذا حاول كرنسكي عدم الخضوع لمؤتمر السوفييتات فستخلق مقاومة الحكومة "مسألة بوليسية لا مسألة سياسية". وكان الوضع في جوهره بهذا الشكل.

وفي هذا الوقت دعي تروتسكي للحديث مع وفد من مجلس دوما البلدية الذي جاء مؤخرًا. وكان كل شيء في العاصمة والحق يقال هادئًا في ذلك الوقت، ولكن الإشاعات المنذرة بالخطر منتشرة. وطرح عمدة المدينة أسئلة عديدة. هل يتهيأ السوفييت لتنظيم انتفاضة؟ وكيف تتم المحافظة على النظام في المدينة؟ وماذا سيحدث للدوما إذا لم يعترف بالانتفاضة؟ وكانت هذه الشخصيات المحترمة تريد معرفة كثير من الأشياء عن الانتفاضة. وقال تروتسكي ردًا على هذه الأسئلة: ترتبط مسألة السلطة بقرار مؤتمر السوفييتات. وهل سينتهي الأمر إلى معركة مسلحة "لا يتعلق نشوب هذه المعركة بالسوفييتات، بل بالذين يحتفظون بسلطة الدولة بين أيديهم، رغم الإرادة الموحدة للشعب".

فإذا رفض المؤتمر السلطة يخضع سوفييت بتروغراد. ولكن الحكومة ذاتها فتشت بالطبع عن النزاع. وأعطي الأمر باعتقال اللجنة العسكرية الثورية. ولم يكن العمال والجنود يستطيعون الرد على هذا إلا بمقاومة عنيدة. عمليات نهب وعنف

العصابات الإجرامية؟ ويقول أمر للجنة طبع في هذا اليوم ما يلي: "سيقضي على المجرمين لدى أول محاولة تقوم بها الحثالة لإحداث الاضطرابات في شوارع بتروغراد، أو القيام بالنهب، والقتال بالسكين أو بطلقات الرصاص". وبوسعنا في حالة النزاع تطبيق الطريقة الدستورية إزاء دوما البلدية: حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة. وذهب وفد مجلس الدوما البلدي غير راض عن الإجابات. ولكن على ماذا كان يعتمد؟

كانت الزيارة الرسمية للنظار لمعسكر المترددين تظاهرة مكشوفة جدًا تدل على عجز الحكام. وقد قال تروتسكي الذي عاد بعد المقابلة إلى مجموعة البلاشفة "أيها الرفاق! لا تنسوا أننا حصلنا منذ عدة أسابيع على الأكثرية، ولم نكن إلا أقلية صغيرة لا نملك مطبعة، ولا صندوقًا، ولا فروع، والآن ها هو وفد منتدب من مجلس دوما البلدية يجيء إلى اللجنة العسكرية الثورية، الصادر بحقها مرسوم اعتقال، ليسألها عن مصير المدينة والدولة".

وتعززت اليوم قلعة بطرس وبولص التي احتلت في اليوم السابق فقط من الناحية السياسية. واتخذت جماعة رماة الرشاشات التي تعتبر أكثر القوى ثورية نظام المعركة. وبدأت بتنظيف الرشاشات بنشاط، وكانت تملك ٨٠ رشاشًا. وربضت الرشاشات على أسوار القلعة لمراقبة الأرصفة وجسر ترويتسكي (جسر الثالوث الأقدس). وعززت الحراسة على الباب الكبير. وأرسلت الدوريات إلى الأحياء المجاورة. ولكن اكتشف وسط حمى ساعات الصباح أنه لا يمكن اعتبار الوضع موثوقًا جدًا في داخل القلعة ذاتها. وكان مصدر الشك ناجمًا عن كتيبة راكبي الدراجات النارية. ويشكل سائقو الدراجات النارية، كالفرسان الذين ينتمون إلى عائلات الفلاحين الميسورين والأغنياء، أكثر العناصر محافظة في الجيش. وهذا موضوع يهم علماء النفس المثاليين؛ فيكفي لرجل، خلافًا لآخرين أن يحس بأنه راكب على عجلتين مع محور لنقل حركتهما، في بلد فقير كروسيا على الأقل لكي يبدأ إعجابه بنفسه بالتضخم كعجلتيه. وفي أمريكا لكي يحصل المرء على مثل هذا الأثر، ينبغي أن يركب سيارة.

وقد استولت كتيبة راكبي الدراجات التي استدعيت لسحق حركة يوليو (تموز) على قصر كشيسينسكايا بحماس في وقت ما. ثم أمرت القيادة بتمركزها، بصفتها وحدة موثوقة بشكل خاص، في القلعة. ولم يشترك راكبو الدراجات كما علمنا فيما بعد، في الاجتماع الذي تم في اليوم السابق والذي حسم مصير القلعة، فقد كان الانضباط سائدًا في صفوفهم لدرجة أن الضباط نجحوا في منع الجنود من الظهور في باحة القلعة. وكانت قيادة القلعة المعتمدة على راكبي الدراجات النارية رافعة رأسها، وهي تتصل مرارًا بالهاتف مع هيئة أركان كرنسكي وتتهيأ كما يبدو، حتى لاعتقال المفوض البلشفي. فلا يمكن التساهل في الوضع المتردد دقيقة واحدة أكثر! وبناء على أمر صادر عن سمولني قطع بلاغونرافوف الطريق على الخصم؛ اعتقل قائد القلعة في منزله، وأمر بقطع الاتصالات الهاتفية الموجودة في كل منازل الضباط. واستفسرت هيئة الأركان الحكومية بلهجة تنطوي على القلق والخطر عن سبب عدم رد القائد وما يجري في القلعة بصورة عامة. ورد بلاغونرافوف بالهاتف باحترام أن القلعة لن تنفذ بعد الآن إلا أوامر اللجنة العسكرية الثورية، التي اتصلت الحكومة بها فيما بعد.

وقبلت كل قوات حامية القلعة اعتقال القائد برضى تام. ولكن سائقي الدراجات اتخذوا موقفًا متهربًا. فماذا يختفي وراء صمتهم الفج: عداء مستور أو تردد أخير؟ وكتب بلاغونرافوف ما يلي: "قررنا تنظيم مؤتمر خاص لسائقي الدراجات، وأن ندعو إليه أفضل محرضينا، وعلى رأسهم تروتسكي، الذي يتمتع بسلطة واسعة ونفوذ كبير في أوساط الجنود". وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر تجمعت كل الكتيبة في المبنى المجاور لميدان الألعاب الحديث. وتكلم الجنرال باروديلوف كمدافع عن جانب الحكومة. وكان يعتبر في عداد الاشتراكيين - الثوريين. وكانت اعتراضاته مشبوهة لدرجة بدت مريبة وغامضة. وكان هجوم مندوبي اللجنة ثقيلاً أكثر. وانتهت المعركة الخطابية من أجل كسب قلعة بطرس وبولص كما كان ينبغي توقعها، وافقت الكتيبة بالإجماع فيما عدا ثلاثين صوتًا على قرار تروتسكي. وهكذا حل نزاع من النزاعات المسلحة التي كان من المحتمل وقوعها، وهكذا حل نزاع من النزاعات المسلحة التي كان من المحتمل وقوعها، حل قبل المعركة دون إراقة للدماء. هذه هي انتفاضة

أكتوبر (تشرين الأول). وهذا هو أسلوبها. ومن الممكن بعد الآن الاعتماد على القلعة في منتهى الهدوء. وسلمت بعض الأسلحة من الترسانة دون صعوبة. واصطف مندوبو المؤسسات بالرتل الأحادي في سمولني، في غرفة لجان المصانع والمعامل للحصول على أوامر باستلام السلاح. لقد رأت العاصمة، خلال سنوات الحرب كثيرًا من الناس يقفون في أرتال طويلة، والآن يصطف الناس لأول مرة للحصول على البنادق. وكانت سيارات النقل تأتي إلى الترسانة من كل النواحي. وقد كتب العامل سكورانكو ما يلي: "لا يمكن التعرف على قلعة بطرس وبولص. ويخرق سكونها دوي السيارات، صرير الآليات، والأصوات. ويتدافع الناس بصورة خاصة... وأمامنا هنا، أحضر الجنود الثائرون أول الأسرى: **ضباط ويونكرز**". وفي هذا اليوم تسلح الفوج ١٨٠ مشاة بالبنادق، وكان سلاحه قد نزع لأنه اشترك بصورة فعالة في انتفاضة يوليو (تموز).

وظهرت نتائج ميدان الألعاب الحديث في أمكنة أخرى أيضًا؛ فقد تخلى سائقو الدراجات الذين كانوا يقومون بالحراسة منذ شهر يوليو (تموز) على قصر الشتاء، تخلوا عن الخدمة طواعية، وصرحوا بأنهم لن يوافقوا أبدًا على حماية الحكومة. كانت ضربة جدية. وكان من الواجب تبديل سائقي الدراجات البخارية باليونكرز، وازداد ضعف الدعم العسكري للحكومة في مدارس الضباط، ولم يتقلص هذا الدعم إلى آخر درجة فحسب، بل كشف نهائيًّا تركيبه الاجتماعي.

وعرض عمال الأرصفة في بوتيلوف، وعرض غيرهم من العمال أيضًا القيام بأسرع ما يمكن بنزع سلاح اليونكرز. ولو أن هذا التدابير الذي أعد بصورة ملائمة، بالاتفاق مع الزمر غير المقاتلة في المدارس، طبق في ليلة ٢٤/ ٢٥، لَما تعرض الاستيلاء على قصر الشتاء لأية مقاومة، ولَما حدثت محاولة الانتفاضة - المضادة بتاريخ ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني). وكان الزعماء يظهرون أيضًا في عدد من النقاط "مروءة وشهامة"، وكانت هذه الشهامة في الحقيقة إفراطًا في الثقة المتفائلة، ولم يعيروا انتباههم إلى الصوت العاقل للقاعدة، وكان لغياب لينين تأثير حساس أيضًا في هذه النقطة. واضطرت الجماهير إلى تصحيح نتائج وآثار الإهمال المتعمد، وسقط عدد من الضحايا بدون فائدة من كلا الجانبين. وليس في المعارك الجدية شراسة أسوأ من "شهامة" في غير محلها.

وأعطى كرنسكي في جلسة يوم اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي آخر أمر أتيح له إعطاؤه. وقد تولى الذعر سكان روسيا وسكان العاصمة بشكل خاص منذ بعض الوقت؛ "تنشر نداءات للانتفاضة يوميًّا في صحف البلاشفة". واستشهد كرنسكي بمقالات مجرم تبحث عنه سلطات الدولة هو فلاديمير أوليانوف - لينين. وكانت الاستشهادات رائعة وتبرهن بلا جدال على أن الشخصية المشار إليها تدعو إلى الانتفاضة. ولكن متى؟ إنه يدعو إلى العصيان في حين كانت الحكومة تناقش مسألة نقل الأراضي إلى لجان الفلاحين واتخاذ التدابير لإنهاء الحرب. ولم تتعجل السلطات، حتى هذا اليوم، ضرب المتآمرين لإعطائهم إمكانية إصلاح موقفهم. وصاح بعض أفراد الشلة التي يديرها ميليوكوف: "هذا أمر سيء". ولكن كرنسكي لم يندهش أبدًا: "إني أفضل بصورة عامة أن تعمل السلطة ببطء أكبر، ولكن بصورة واثقة بالمقابل، وفي اللحظة الملائمة، بتصميم أكبر". ولمثل هذه الأقوال رنة غريبة في فمه! وعلى كل حال "تجاوزوا كل المهل في الوقت الحاضر"، ولكن البلاشفة لم يندموا فحسب، بل إنهم استدعوا سريتين من الجنود وقاموا بتوزيع السلاح والذخيرة بصورة عفوية. وتنوي الحكومة في هذه المرة وضع حد لفوضى الرعاع. "أتكلم بصورة واعية جدًا: أقول الرعاع". واستقبل اليمين هذه الإهانة بعاصفة من التصفيق، مع أنها إهانة موجهة للشعب. أما كرنسكي فقد أعطى الأوامر للقيام بالاعتقالات الضرورية. "من الضروري بصورة خاصة ملاحظة الخطب التي يلقيها برونشتاين تروتسكي رئيس سوفييت بتروغراد"، نعم فلنعرف ذلك: إن الحكومة تملك من القوات أكثر مما تحتاج إليه. وتطالب الجبهة دومًا باتخاذ تدابير حاسمة ضد البلاشفة.

في هذه اللحظة، نقل كونوفالوف إلى الخطيب أمرًا صادرًا عن اللجنة العسكرية الثورية موجهًا إلى قوات الحامية: "إعداد الفوج للقتال وانتظار التعليمات". وأنهى كرنسكي كلامه بأبهة: "في لغة القانون والسلطة القانونية، يسمى هذا تمردًا".

ويشهد ميليوكوف على ذلك قائلاً: "نطق كرنسكي هذه الأقوال بلهجة المحامي الراضي الذي نجح أخيرًا في مفاجأة خصمه". وأن المجموعات والأحزاب التي تجرأت فاحتجت ضد الدولة "معرضة للتصفية الفورية والحاسمة والنهائية". وصفقت كل القاعة، فيما عدا اليسار الذي امتنع عن التصفيق بصورة واضحة. وانتهى الخطاب بمطلب؛ فلنقل اليوم، في هذه الجلسة ذاتها ما إذا كانت الحكومة تستطيع أن تقوم بواجبها مع ثقتها بدعم مجلسكم العالي".

وعاد كرنسكي إلى هيئة الأركان دون أن ينتظر نتائج التصويت، وهو واثق كما أكد هو بذاته من أنه سيتلقى قبل انقضاء ساعة واحدة القرار الذي طالب به، ولا ندري لماذا كان واثقًا هكذا. ومع ذلك كان الأمر خلافًا لما توقع. وتمت من الساعة ٢ إلى الساعة ٦ مشاورات بين المجموعات، وفي داخل المجموعات لوضع صيغ انتقالية، وكان أنصار هذه الفكرة يبدون غير فاهمين أن موضوع الانتقال بالنسبة إليهم، يعني الانتقال إلى العدم. ولم تقرر أية مجموعة من التوفيقيين التشبه بالحكومة. وقال دان: "نحن المناشفة مستعدون للدفاع عن الحكومة المؤقتة حتى آخر قطرة من دمنا. ولكن فلتعط هذه الحكومة للديمقراطية إمكانية التجمع حولها". وفي المساء، وبعد أن تعبت المجموعات اليسارية في البحث عن مخرج، اتفقت كلها معًا حول صيغة استعارها دان من مارتوف، إنها لا تحمّل البلاشفة وحدهم مسئولية الانتفاضة، بل تحمل هذه المسئولية للحكومة أيضًا، وتطالب بتسليم الأراضي فورًا إلى اللجان الزراعية، كما تطالب ببذل الجهود لدى الحلفاء لتأييد محادثات السلم ...إلخ، وهكذا كان دعاة التوسط يبذلون جهدهم حتى الدقيقة الأخيرة؛ للتلاؤم مع شعارات كانوا حتى اليوم السابق يهاجمونها ويتهمونها بالديماغوجية المغامرة. ووعدت الحكومة بدعم لا تَحَفظ فيه من قبل المتعاونين، وبدعم من الكاديت والقوزاق بالإضافة إلى الدعم السابق. وكانت المجموعتان المدعمتان تتأهبان لقلب كرنسكي عندما تسنح أول إمكانية لذلك. ولكنهما ما زالتا أقلية. فلم يكن بوسع دعم اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي أن يضيف شيئًا إلى مزايا الحكومة. ولكن ميليوكوف كان على حق؛ فقد انتزع رفض الدعم للحكومة منها آخر بقايا السلطة؛ لأن الحكومة هي التي كانت قد حددت تشكيل اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي قبل عدة أسابيع.

وفي حين كان المؤتمرون في قصر ماري يبحثون عن صيغة للخلاص كان سوفييت بتروغراد يتجمع في سمولني للاستعلام عن الأحداث. ويرى كاتب هذه السطور أن من واجبه التذكير هنا أيضًا بأن اللجنة العسكرية الثورية تشكلت "كجهاز للانتفاضة، ولكن كجهاز على أرضية الدفاع عن الثورة". ولم تسمح اللجنة لكرنسكي بأن يسحب القطعات الثورية من بتروغراد ودافعت عن الصحافة العمالية. "هل يشكل هذا انتفاضة؟" فالطراد **اورور** موجود اليوم حيث كان موجودًا في الليلة الأخيرة. "فهل هذا يعتبر انتفاضة"، "إننا نملك نصف سلطة لا يؤمن الشعب بها ولا تؤمن بنفسها لأنها ميتة من الداخل. وينتظر نصف السلطة هذا ضربة تكنيس تاريخية لإعداد مكان السلطة الحقيقية للشعب الثوري". وغدًا سيبدأ مؤتمر السوفييتات أعماله. ومن واجب الحامية والعمال أن يضعوا تحت تصرف المؤتمر كل قواهم. "ومع ذلك إذا حاولت الحكومة الإفادة من الأربع والعشرين أو الثمانية والأربعين ساعة التي تملكها اليوم لتطعن بالخنجر ظهر الثورة، فإننا نعلنها مرة أخرى أيضًا: سترد طليعة الثورة ضربة بضربة، وسترد على الحديد بالفولاذ". وكان هذا التهديد المعلن تمويهًا سياسيًا في الوقت ذاته للضربة التي ستوجه في الليل. وختم تروتسكي كلمته قائلاً بأن مجموعة الاشتراكيين - الثوريين اليساريين في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، بعد الخطاب الذي ألقاه كرنسكي اليوم والمجموعات التوفيقية التي سادت البلبلة أوساطها قد أرسلت إلى سمولني وفدًا وأعلنت عن استعدادها للدخول في اللجنة العسكرية الثورية بصرة رسمية. وحتى السوفييت بفرح، تحول الاشتراكيين - الثوريين اليساريين ورأى فيه انعكاس تطورات أعمق بكثير: الاتساع المتزايد للحرب الفلاحية وتقدم انتفاضة بتروغراد.

ولقد كتب ميليوكوف يفسر تقارير رئيس سوفييت بتروغراد قائلاً: "كانت خطة تروتسكي الأولية احتمالاً على الشكل التالي: بعد أن استعد السوفييت للمعركة فإنه سيضع الحكومة أمام "إرادة الشعب الموحدة" التي عبَّر عنها في مؤتمر السوفييتات،

وسيعطي السلطة الجديدة بهذا الشكل صفة الشرعية. ولكن كانت الحكومة أضعف مما توقعه المجلس. وقد سقطت السلطة بين يديه قبل أن يتاح للمؤتمر الوقت للاجتماع والإدلاء برأيه". وفي هذه التعابير تجاوز ضعف الحكومة حقًا كل التوقعات. ولكن تضمنت الخطة منذ البدء الاستيلاء على السلطة قبل افتتاح المؤتمر. وقد اعترف ميليوكوف على كل حال بهذا في موضوع آخر، عندما كتب قائلاً: "كانت النوايا الفعلية لزعماء الانتفاضة أبعد بكثير من هذه التصريحات الرسمية لتروتسكي..؛ إذ ينبغي وضع مؤتمر السوفييتات أمام الأمر الواقع".

وكانت الخطة تتضمن بصورة أولية من وجهة النظر العسكرية الصرفة تأمين ارتباط بحارة البلطيق بالعمال المسلحين لفيبورغ، وكان على البحارة أن يصلوا بالسكة الحديدية وأن ينزلوا في محطة فنلندا، كانت هذه المحطة قريبة من حي فيبورغ. ومن هذا الموقع كان على الانتفاضة بعد أن تضم إليها مفارز الحرس الأحمر وقوات الحامية أن تمتد إلى أقسام أخرى، وأن تدخل المركز بعد أن تستولي على الجسور لتوجه الضربة النهائية. وتستند هذه الخطة الناجمة بالطبع عن الظروف التي صاغها انطونوف على وجه التأكيد إلى النظرية القائلة بأن بوسع الخصم مواجهة الانتفاضة بمقاومة هائلة. بَيْد أن هذه النقطة بالذات كانت موضع رفض فيما بعد؛ فلم يكن هناك ثمة حاجة للاستناد إلى موقع عسكري معين. وكانت مواقع الحكومة مكشوفة للهجوم حيثما وجد الثوار أنه من الضروري توجيه الضربة. وخضعت الخطة الإستراتيجية لتعديلات أيضًا من ناحية التوقيت، وفي اتجاهين مختلفين؛ بدأت الانتفاضة بتاريخ مبكر وانتهت بعد التوقيت المحدد لها. وقد أثارت المؤامرات الحكومية التي وقعت في الصباح مقاومة فورية من جانب اللجنة العسكرية الثورية. ولكن عجز السلطات الذي ظهر جليًّا في هذه الحالة، دفع سمولني، في بحر اليوم، للقيام بأعمال هجومية أخذت مع ذلك طابعًا متذبذبًا، تحضيريًّا، نصف مموه. وكانت الضربة الرئيسية معدة في الليل كالسابق، ومن هذه الزاوية بقيت الخطة سارية المفعول. ومع ذلك خالفتها اللجنة عند التنفيذ، ولكن في اتجاه معاكس تمامًا. وكانوا يفكرون باحتلال كل المواقع المشرفة خلال الليل، ولا سيما قصر الشتاء؛ حيث تتحصن السلطة المركزية. ولكن حساب الوقت في انتفاضة من الانتفاضات أصعب بكثير من حسابه في حرب نظامية. وقد تأخر زعماء الانتفاضة عدة ساعات في حشد قواتهم وفي عملياتهم ضد قصر الشتاء، هذه العمليات التي لم ينجحوا في البدء بها أثناء الليل. وتشكل هذه العمليات فصلاً خاصًا من الانتفاضة لم ينته إلا في ليلة ٢٦، أي بتأخير ٢٤ ساعة. إن بعض الانتصارات الرائعة لا تتحقق بدون التعرض لبعض الكبوات الجدية!

وحاولت السلطات توسيع هجومها بعد تصريحات كرنسكي في اجتماع اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي. واحتلت مفارز من اليونكرز المحطات. ووضعت في نواصي الشوارع الرئيسية مفارز حراسة كان من واجبها مصادرة السيارات الخاصة التي لم تسلم إلى هيئة الأركان العامة. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، قطعت الجسور المتحركة، باستثناء جسر القصر الذي بقي مفتوحًا للسير تحت حراسة مشددة من اليونكرز. وقد أملى هذا الإجراء الذي طبقته الملكية في الماضي في كل الأوقات التي ينتشر فيها عدم الأمن، وخلال أيام فبراير (شباط) للمرة الأخيرة، أملى هذا الإجراء الخوف من الأحياء العمالية. وكان رفع أرضيات الجسور في نظر الشعب تأكيدًا رسميًّا بأن الانتفاضة قد بدأت. وردت هيئات أركان الثورة على العملية الحربية للحكومة بالطريقة الملائمة؛ إذ أرسلت إلى الجسور مفارز مسلحة. ولم يكن أمام سمولني إلا أن تطور هذه المبادرة. فقد كان للمعركة من أجل الاستيلاء على الجسور طابع اختبار للقوى من كلا الجانبين. وضغطت مفارز العمال المسلحين والجنود على اليونكرز والقوزاق، مستخدمة الإقناع أحيانًا، والتهديد أحيانًا أخرى. وانتهى الأمر بحراسة الحكومة إلى الاقتناع، فلم يكونوا ليجرءوا على المغامرة بأنفسهم في نزاع مباشر. حتى أن بعض الجسور قطعت ثم أعيدت في عدة مناسبات.

وتلقى الطراد **اورور** أمرًا مباشرًا من اللجنة العسكرية الثورية يقول: "أعيدوا السير بكل الوسائل التي تملكونها على جسر نيقولا". وحاول قائد الطراد تمييع هذا الأمر، ولكنه قاد الطراد بوداعة بعد اعتقاله رمزيًّا هو وكل ضباطه. وسارت على

ضفتي النهر أرتال البحارة. وروى كوربوف أنه لم يبق أي أثر لليونكرز عندما كان الطراد **اورور** يحاول الرسو أمام الجسر، ولم يكن قد أتيح له الوقت الكافي لذلك. وأعاد البحارة المرور على الجسر ووطدوا حراستهم. وكان جسر القصر هو الوحيد الذي بقي عدة ساعات أيضًا بين يدي جند الحرس الحكومي.

وبرغم الفشل الواضح للمحاولات الأولى، حاولت بعض عناصر السلطة فيما بعد توجيه ضربات أخرى أيضًا. فقد جاءت مفرزة من المليشيا في المساء إلى مطبعة خاصة كبرى لمنع طبع **صحيفة سوفييت بتروغراد: العامل والجندي**. وقبل اثنتي عشرة ساعة من وقوع هذا الحادث هرع عمال المطبعة البلشفية، في حالة مماثلة، إلى سمولني يطلبون منه النجدة. أما الآن، فكل هذا لم يعد ضروريًا. فقد أنقذ عمال الطباعة مع اثنين من البحارة كانا موجودين هناك السيارة فورًا وهي مليئة بالصحف، وانضم إليهم فورًا عدد من رجال المليشيا الحكومية. وفر مفتش المليشيا. وسلمت الصحيفة المستعادة دون صعوبة إلى سمولني. وأرسلت اللجنة العسكرية الثورية مجموعتين من فوج بريوبراجينسكي لحماية الطبعات التالية. ونقلت الإدارة المذعورة إدارة المطبعة فورًا إلى سوفييت نقابات العمال.

ولم تفكر السلطات القضائية أبدًا بالدخول إلى سمولني للقيام بالاعتقالات فيه؛ فقد كان من الواضح أن دخوله سيعطي إشارة الحرب الأهلية وهزيمة مؤكدة مسبقة للحكومة. وبالمقابل، ووسط تشنج إداري وقعت محاولة لاعتقال لينين في حي فيبورغ، هذا الحي الذي كانت السلطات تتحاشى حتى إلقاء نظرة عليه في أفضل أيامها. فقد دخل عقيد ومعه عشرة من اليونكرز في ساعة متأخرة من الليل إلى النادي العمالي خطأ، بدلاً من الذهاب إلى هيئة التحرير البلشفية الموجودة في المبنى ذاته، وكان هؤلاء المحاربون، يفترضون، ولا ندري لِمَ هذا الافتراض، أن لينين ينتظرهم في مبنى هيئة التحرير. ومن النادي أنذرت هيئة أركان الحرس الأحمر فورًا. وبينما كان العقيد يتيه في الطوابق المختلفة، ووصل إلى المباني التي يحتلها المناشفة أيضًا، وصل الحرس الأحمر في الوقت الملائم لاعتقاله مع اليونكرز، وسلموه إلى هيئة أركان ناحية فيبورغ، ومن هناك، أرسل إلى قلعة بطرس وبولص. وهكذا كان الهجوم الصاخب الذي يستهدف البلاشفة يلاقي صعوبات لا يمكن التغلب عليها في كل خطوة، ويتحول إلى هجمات مفككة وغير مرتبة، وإلى اشتباكات صغيرة مضحكة، ويتبخر الهواء ويسير إلى العدم.

كانت اللجنة العسكرية الثورية تعمل في غضون ذلك على الدوام، وكان المفوضون يناوبون على مقربة من القوات. ويعلم سكان العاصمة بإنذارات خاصة كانت تعين لهم الأمكنة التي ينبغي أن يتوجهوا إليها عند وقوع المؤامرات المضادة للثورة، "وعمليات التصفية ضد اليهود"؛ "حتى تهرع النجدة فورًا". وكانت زيارة مفوض فوج كيكهولمسكي إلى المقسم الهاتفي كافية لإعادة الاتصالات الهاتفية مع سمولني. فالاتصال الهاتفي، هو أسرع الاتصالات، ويعطي للعمليات الجارية ضمانًا وانتظامًا مطردًا.

ووسعت اللجنة العسكرية الثورية وعززت مواقع الانطلاق للهجوم المقبل، وهي مستمرة في إدخال المفوضين في المؤسسات التي لم تسقط بعد تحت رقابتها. وسلم دزيرجنسكي خلال النهار لبستكوفسكي، وهو ثوري قديم، مِزَقًا من ورقة تتضمن تعيينه مفوضًا لمقسم البرقيات. وأخذ المفوض الجديد يتساءل في دهشة "كيف يحتل التلغراف؟ فالمقسم محروس من قبل فوج كيكهولمسكي، وهو من أفواجنا!" ولم يكن بستكوفسكي يحتاج إلى تفسيرات طويلة. يكفي جنديان من الفوج، يحملان بندقيتهما بيديهما، بالقرب من البدالة للحصول على تسوية مؤقتة مع الموظفين المعادين في التلغراف، الذين لا يوجد بينهم بلشفي واحد.

وفي الساعة التاسعة مساء احتل ستارك -مفوض آخر من اللجنة العسكرية الثورية- بمفرزة صغيرة من البحارة بقيادة المهاجر القديم سافين -وهو بحار أيضًا- الوكالة البرقية الحكومية، وحدد بهذا الشكل مصير هذه المؤسسة ومصيره الخاص إلى حد ما؛ إذ أصبح ستارك أول مدير سوفييتي للوكالة قبل أن يصبح وزيرًا للسوفييتات في أفغانستان.

فهل كانت هاتان العمليتان المتواضعتان هجمات تمردية أو أنهما كانتا واقعتين من وقائع ازدواجية السلطة، هذه الازدواجية التي انحرفت بالفعل عن جادة التوفيقيين لتنتقل إلى جادة البلشفية؟ لقد بدت المسألة، وكأنها مسألة تبريرية ولكنها احتفظت مع ذلك بكل أهميتها لتمويه الانتفاضة. وكان لواقعة مهاجمة مبنى الوكالة ذاته أيضًا من قبل البحارة المسلحين طابع متردد؛ فمن الناحية الرسمية لم يكن الهدف هو الاستيلاء على المؤسسة، بل وضع رقابة على البرقيات. وهكذا نجد أن حبل سرة "الشرعية" لم يقطع نهائيًا حتى ليلة ٢٤، بل استمرت الحركة خفية تحت بقايا تقاليد ازدواجية السلطات.

وكانت القيادة في سمولني تعلق آمالاً ضخمة عند وضع خطط الانتفاضة على بحارة البلطيق كمفرزة قتال تجمع بين التصميم البروليتاري، وتدريب عسكري قوي. وقد أعد مجيء البحارة إلى بتروغراد مع افتتاح مؤتمر السوفييتات. ولو أن بحارة البلطيق استدعوا قبل موعد المؤتمر، لكان معنى هذا العمل السير في طريق الانتفاضة بصورة مكشوفة. من هنا نجم عائق أدَّى إلى تأخير الانتفاضة.

وفي يوم ٢٤ وصل إلى سمولني مندوبو سوفييت كرونشتادت إلى المؤتمر وهم: البلشفي فليروفسكي، والفوضوي يارتشوك اللذين كانا يسبقان البلاشفة. واجتمعا بتشود نوفسكي الذي كان قادمًا من الجبهة، في إحدى قاعات سمولني، وكان تشود نوفسكي يعارض الانتفاضة في مرحلة قريبة جدًا متعللاً بالمناخ الفكري للجنود. وقد روى فليروفسكي ما يلي: "دخل تروتسكي إلى القاعة إبان احتدام النقاش... ودعاني بعد أن انفرد بي في أحد أركان القاعة إلى العودة فورًا إلى كرونشتادت، وقال لي: "إن الأحداث تنضج بسرعة كبيرة جدًا ومن الواجب أن يكون كل واحد منا في موقعه...". وقد أحسست من هذا التوجيه المختصر بقوة انضباط الانتفاضة القادمة. وتوقف النقاش". وكتم تشود نوفسكي -النشيط والذي لا ينفعل ولا يتأثر- شكوكه ليشارك في وضع الخطط الحربية. وزود فليروفسكي ويارتشوك بأمر ينص على ما يلي: "على القوات المسلحة لكرونشتادت أن تزحف عند الفجر للدفاع عن مؤتمر السوفييتات".

وأرسلت اللجنة العسكرية الثورية ليلاً، بواسطة سفردلوف برقية إلى سميلغا رئيس اللجنة الإقليمية للسوفييتات في هلسنغفورز: "أرسل التماثيل". وكان هذا يعني: "أرسل فورًا ١٥٠٠ بحار من نخبة بحارة البلطيق، والمدججين بالسلاح". ومع أن بحارة البلطيق لا يستطيعون الوصول إلا في بحر اليوم التالي، فلم يكن هناك أي سبب لتأجيل الاشتباكات؛ فالقوى الداخلية كافية، وليس هناك من إمكانية للتأجيل؛ فقد بدأت العمليات. وإذا وصلت النجدات من الجبهة لدعم الحكومة، فإن البحارة سيظهرون في وقت مبكر لضربهم، من الجانب أو من المؤخرة.

وكانت الخطة التكتيكية ومخطط الاستيلاء على العاصمة من صنع التنظيم العسكري البلشفي أساسًا. وقد اكتشف ضباط هيئة أركان القيادة العامة للقوات المسلحة الروسية في الخطة التي وضعها هؤلاء المدنسون للمقدسات كثيرًا من اللمحات الفذة. ولا يشارك ضباط أكاديميات الحرب العليا عادة في إعداد انتفاضة بروليتارية. ومع هذا فقد أعد في الخطة كل ما هو ضروري. وقسمت المدينة إلى قطاعات قتالية، تابعة لأقرب هيئات الأركان. وحشدت سرايا الحرس الأحمر في أهم النقاط، وربطت بوحدات عسكرية مسلحة مجاورة؛ حيث تسهر سرايا مناوبة على قدم الاستعداد. وحددت مسبقًا أهداف كل عملية خاصة، والقوات المكلفة بها. وكان كل المشتركين بالانتفاضة، من المستوى الأعلى إلى الأدنى مشبعين -وهنا تكمن قوة الملاحظة، كما يكمن ضعفها أيضًا في بعض اللحظات- بالثقة بأن النصر سيتحقق بدون ضحايا.

وبدأت العمليات الرئيسية في الساعة الثانية صباحًا. واحتلت المحطات ومركز توليد الكهرباء، وترسانات الأسلحة، ومستودعات التموين، ومصلحة المياه، وجسر القصر، ومقاسم الهاتف، ومصرف الدولة، والمطابع الكبرى، وتم الاحتلال بمجموعات عسكرية صغيرة، معها عادة نواة من العمال المسلحين أو البحارة، بقيادة المفوضين. وقد احتلت كل هذه الأماكن بآن واحد أو بالتتابع، وتم تأمين اللاسلكي والبريد. وكان الثوار يضعون في كل مكان حرسًا موثوقًا.

وجاءت التقارير المتعلقة بوقائع الليل هزيلة ولا لون لها، وكانت هذه التقارير تشبه محاضر للشرطة. واستولى على جميع المشتركين حمى عصبية. ولم يكن لدى أي شخص الوقت للملاحظة والتسجيل. ولم تكن المعلومات التي تصل إلى هيئات الأركان لتسجل على الورق، وإنما كانت تكتب بخفة، كما كانت هذه الأوراق والمذكرات تتعرض للضياع. وتتسم الذكريات التي نشرت فيما بعد بأنها جافة وغير صحيحة دومًا؛ لأنها جاءت، في معظمها، من شهود عاصروا الأحداث بصورة عارضة. وسار العمال والبحارة والجنود الذين كانوا يشكلون القوى الملهمة والقائدة للعمليات، ساروا على رأس مفارز الجيش الأحمر الأولي، وسقط معظمهم في ساحات معارك الحرب الأهلية. ويصطدم المؤرخ بتشويش كبير تزيد من حدته التقارير الصحفية إذا ما أراد تحديد طابع وترتيب الوقائع المختلفة. ويبدو أحياناً احتلال بتروغراد في خريف ١٩١٧ أسهل من تكرار وصف العملية نفسها بعد خمس عشرة سنة.

وكلفت السرية الأولى، وهي أقوى سرايا كتيبة النقابيين وأكثرها ثورية بالاستيلاء على محطة نيقولا المجاورة. وبعد ربع ساعة احتلت مواقع المحطة دون إطلاق رصاصة واحدة من قبل مفارز قوية، واختفت القوات الحكومية وسط الظلمات. وكانت تلك الليلة القارسة البرد حافلة بالإشاعات المثيرة للشكوك، وبالحركات الغامضة. وكان الجنود الذين تغلبوا على القلق العميق يوقفون المارة بصورة وجدانية كما يوقفون الأفراد المارين بالسيارات، ويتحققون بدقة من أوراقهم. ولم يكونوا دومًا يعرفون كيف يتصرفون، كانوا يترددون، ويخلون سبيل الأفراد في غالب الأحيان. ولكنهم تمتعوا بمزيد من الثقة من ساعة إلى أخرى. وفي الساعة السادسة صباحًا أوقف النقابيون سيارتي نقل محملتين باليونكرز، تحملان حوالي ٦٠ شخصًا، فنزعوا سلاحهم وأرسلوهم إلى سمولني.

وتلقت الكتيبة ذاتها الأمر بإرسال خمسين جنديًّا لحراسة مستودعات التموين، وإرسال ٢١ جنديًا لحراسة مركز توليد الكهرباء. وجاءت المفارز الواحدة بعد الأخرى من سمولني، ومن الناحية. ولم يكن أي فرد يعارض أو يتذمر. وكانت الأوامر طبقًا لتقرير أحد المفوضين تنفذ "فورًا وبدقة". واتخذت تنقلات الجنود وضوحًا لم تتسم به منذ زمن طويل. وبرغم تفتت الحامية وتفككها، هذه الحامية التي لم تكن تصلح في السابق إلا للنبذ والطرد، فقد استيقظ الانضباط العسكري فيها في تلك الليلة، وشدَّد من عضلاتها في هذه المرة الأخيرة لخدمة العهد الجديد.

وتلقى المفوض أورالوف **تفويضين**: **أولهما** لاحتلال مطبعة الصحفية الرجعية **روسكايافوليا**، التي أسسها بروتوبوبوف قبيل تعيينه وزيرًا لداخلية نيقولا الثاني. **والتفويض الثاني** للحصول على قوة من جنود فوج حرس سيمينوفسكي الذي استمرت الحكومة استنادًا إلى ذكريات قديمة في اعتباره واحدًا من أفواجها. وكان جنود فوج سيمينوفسكي ضروريين لاحتلال المطبعة، وكنا نحتاج إلى المطبعة لطبع الصحيفة البلشفية على نطاق واسع وبأعداد ضخمة. وكان الجنود يقومون بتحضيراتهم للنوم. وعرض عليهم المفوض بصورة موجزة هدف مهمتهم، وصرح قائلاً فيما بعد: "لم يتح لي الوقت لأنهي كلامي حتى دوت هتافات "هورا" من كل ناحية. وانتصب الجنود وأحاطوا بي وضيَّقوا حولي". ووصلت سيارة نقل محملة بالجنود من فوج سيمينوفسكي إلى المطبعة. واجتمعت فورًا في قاعة المطبعة الوردية الليلية. وعرض المفوض سبب مجيئه. "وهنا أيضًا، كما في الثكنة، رد العمال بهتافات التأييد وهتاف: "عاشت السوفييتات!" ونفذت المهمة. وبهذا الشكل تقريبًا تمت المصادرات في

المؤسسات الأخرى. ولم تكن هناك حاجة إلى استخدام العنف لأنه لم تكن هناك مقاومة. كانت الجماهير الثائرة تتدافع بمناكبها وتطرد أسياد الأمس إلى الخارج.

ونقل قائد المنطقة العسكرية إلى مقر هيئة الأركان العليا وإلى أركان الجبهة الشمالية بواسطة الخطوط الهاتفية الخاصة ما يلي: "إن الوضع رهيب في بتروغراد. ليس هناك مظاهرات ولا فوضى في الشوارع. ولكن هناك احتلال مطرد للمؤسسات، والمحطات، كما أن هناك اعتقالات... ويتخلى اليونكرز عن مواقعهم دون مقاومة... وليس هناك ما يضمن عدم وجود محاولة للسيطرة على الحكومة المؤقتة". ولقد كان بولكوفينكوف على حق؛ إذ لم يكن هناك بالفعل أية ضمانة.

وتدَّعى الدوائر العسكرية بأن عملاء اللجنة العسكرية الثورية قد سرقوا من قيادة بتروغراد، ومن على طاولتها "كلمات السر"، وكلمات التعارف الخاصة بخفر الحامية. ولم يحدث شيء لا يمكن تصوره كهذا؛ فللانتفاضة عدد كاف من الأصدقاء وسط الموظفين الصغار في المؤسسات. بَيْد أن الرواية المتعلقة بسرعة "كلمات السر" اختلقت بالتأكيد لتفسير السلبية المغيظة التي استولت معها مخافر الحرس البلشفية على المدينة.

ووزع سمولني في خلال الليل أمرًا على قوات الحامية يقضي باعتقال الضباط الذين لا يعترفون بسلطة اللجنة العسكرية الثورية. فقد نجح في هذه الأيام عدد وافر من القادة في إخفاء عدد من الأفواج، وهم ينتظرون في مكان أمين نهاية هذه الأيام المثيرة للقلق. وفي قوات أخرى، طرد الضباط أو اعتقلوا. وتشكلت في كل مكان اللجان الثورية أو هيئات الأركان التي كانت تعمل باتفاق كامل مع المفوضين. وكان جليًّا واضحًا أن القيادة المرتجلة لم تكن على مستوى مهمتها أبدًا. ولكنها كانت بالمقابل، قيادة موثوقة. وكانت المسألة ستتقرر قبل كل شيء على المستوى السياسي.

ومع كل هذا، أظهرت هيئات أركان مختلف القوات مبادرة هائلة برغم عدم تجربتها. وأرسلت لجنة فوج بافلوفسكي كشافين إلى هيئة أركان المنطقة كي تعرف ما يجري فيها. وكانت "الكتيبة الكيميائية" الاحتياطية تراقب جيرانها المشاغبين بانتباه: يونكرز مدرستي بافلوفسكي وفلاديميروفسكي وطلاب فيلق الكاديت. وغالبًا ما كان الكيميائيون ينزعون سلاح اليونكرز في الشوارع، وهكذا كانوا يفرضون عليهم إلقاء سلاحهم. وحرصت هيئة أركان كتيبة الكيميائيين بعد أن ارتبطت بقوات جنود مدرسة بافلوفسكي على أن تُبقي مفاتيح التسليح بين أيدي هذه القوة.

ومن الصعب تحديد كمية القوات التي اشتركت مباشرة بالاستيلاء على العاصمة ليلاً؛ لا لأن أحدًا لم يعدها ولم يسجلها، بل بسبب طابع العمليات ذاتها. فقد اختلطت وحدات احتياط الخط الثاني والثالث بوحدات الحامية تقريبًا. ولكن ليس من الممكن اللجوء إلى الوحدات الاحتياطية إلا بصورة طارئة. وكانت قوات الخط الأول والثاني التي احتل الثوار العاصمة بواسطتها مؤلفة من عدة ألوف من الحرس الأحمر ومن ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ بحار -وقد تضاعف عددهم ثلاث مرات تقريبًا في اليوم التالي بوصول جنود كرونشتادت- وحوالي عشرين سرية ومفرزة مشاة.

وفي الساعة ٣,٢٠ صباحًا نقل المنشفي شير مدير الإدارة السياسية في وزارة الحربية إلى القفقاس ما يلي: "هناك جلسة للجنة التنفيذية للسوفييتات يتمتع فيها البلاشفة بأكثرية ساحقة. وقد استقبل تروتسكي بالترحاب والتصفيق. وصرح بأنه يأمل بمخرج لا دموي للانتفاضة، نظرًا لأنهم يملكون القوة بين أيديهم. وقد بدأ البلاشفة بالعمل المباشر؛ إذ استولوا على جسر نيقولا، ووضعوا عليه سيارات مصفحة. ووضع فوج بافلوفسكي، في شارع ميليونايا قرب قصر الشتاء دوريات من الحرس، وقطع المرور، وبدأ بالاعتقالات وأرسل المعتقلين إلى سمولني. وقد اعتقل الوزير كاراتاشيف وهالبيرين الأمين العام للحكومة

المؤقتة. وسقطت محطة البلطيق في أيدي البلاشفة أيضًا. وإذا لم تتدخل الجبهة، فلن يكون لدى الحكومة القوة للمقاومة بالقطعات التي تملكها".

بدأت الجلسة الموحدة للجنتين التنفيذيتين التي يتحدث عنها بيان الملازم الأول شير في سمولني بعد منتصف الليل. وكان مندوبو المؤتمر يملأون القاعة كمدعوين. واحتلت الممرات والأروقة بمفارز معززة من الحرس. وكانت المعاطف الرمادية، والبنادق، والرشاشات تُرى في النوافذ. وغرق أعضاء اللجنة التنفيذية وسط جموع أبناء المناطق الريفية، ورءوس متعددة معادية. وبدا الجهاز الأعلى "للديمقراطية" وقد أصبح أسيرًا للانتفاضة. وعلى المنصة، لا يرى أحد الوجه العادي للرئيس تشخيدزه. وكان المقرر تسيريتلي غائبًا. وكان كل منهما قد سلم المركز الذي كان مسئولاً عنه بعد أن ذعرا من سير الأحداث، قبل نشوب المعركة بعدة أسابيع وعادا إلى جورجيا موطنهما الأصلي، بعد أن قاما بإشارة تدل على يأسهما من بتروغراد. ولم يبق من زعماء الكتلة التوفيقية سوى دان. وكان دان لا يملك السذاجة الخبيثة لتشخيدزه، ولا فصاحة تسيريتلي المحركة للمشاعر. وبالمقابل، كان دان يتجاوز كلا الاثنين بقصر نظره المكابر. وافتتح غوتز الجلسة. وتكلم دان وسط صمت كبير بدا لسوخانوف دليلاً على الخور، ولكنه بدا لجون ريد "مفعمًا بالتهديد". وكانت حجة المقرر هي القرار الجديد الذي اتخذته اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، التي كانت تسعى لمواجهة الانتفاضة بصدى شعاراتها الضعيف. وقال دان: "سيكون الوقت متأخرًا جدًا إذا لم تأخذوا هذا القرار بعين الاعتبار"، وهو يلوح بالتهديد بالمجاعة المحتمة وهبوط معنويات الجماهير. "فلم تكن الثورة المضادة في أي وقت مضى بمثل قوتها في اللحظة الراهنة"، أي في ليلة ٢٤/ ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧! فالبورجوازي الصغير الذي يتولاه الذعر إزاء الأحداث الكبرى لا يلاحظ سوى المخاطر والعقبات. ومورده الوحيد هو لغة الخوف المحركة للمشاعر. "إن صحافة المائة - السود تلاقي في المصانع والثكنات نجاحًا أكبر مما تلاقيه صحافة الاشتراكيين". ويقود المجانين الثورة إلى الضياع، كما حدث في عام ١٩٠٥. "وعندما يكون على رأس سوفييت بتروغراد واحد من أمثال تروتسكي" ولكن لا. إن اللجنة التنفيذية المركزية لن تسمح بالسير حتى العصيان: "أصبح هذا المجلس جثة!". وقد أحس بصحة هذا التعجب كل المستمعين؛ إذ كانت تتشابك فوق جثة التوفيقيين حراب البرجوازية والبروليتاريا. وضاع صوت المقرر وسط ضجة معادية. فقد كان الضرب على الطاولات لا يؤثر، كما كانت المواعظ لا تؤثر على أحد، ولا ترهب التهديدات أبدًا. لقد كان كل هذا متأخرًا جدًا، متأخرًا جدًا.

ورد عليه تروتسكي باسم اللجنة العسكرية الثورية، وباسم الحزب البلشفي، وباسم عمال وجنود بتروغراد، وسفه آخر الصيغ التقليدية. قال تروتسكي: نعم، إنها الانتفاضة! نعم، إن الجماهير معنا وسنقودها إلى الانقضاض! ثم أضاف موجهًا كلامه إلى مندوبي المؤتمر من فوق رأس اللجنة التنفيذية المركزية: "إذا كنتم لا ترتعدون، فلن يكون هناك حرب أهلية، لأن الأعداء سيستسلمون فورًا، وستحتلون المكان الذي يحق لكم احتلاله بالحق وهو مكان أسياد الأرض الروسية". ولم يجد أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية القوة للاحتجاج بعد أن أذهلهم كلام تروتسكي. وكان الحديث المفخم الدفاعي في سمولني يغذي فيهم شعلة صغيرة متذبذبة من الأمل برغم كل الوقائع. ولكن هذه الشعلة الحماسية قد انطفأت الآن. فقد انتصب رأس الانتفاضة عاليًا جدًا في هذه الساعات من الليل البهيم.

وانتهت الجلسة الحافلة بالأحداث في الساعة الرابعة صباحًا. وكان الخطباء من البلاشفة يصعدون إلى المنصة ويتكلمون ثم يعودون فورًا إلى اللجنة العسكرية الثورية؛ حيث كانت تصل من كل أنحاء المدينة معلومات ملائمة تمامًا: إن مخافر الحرس في الشوارع يقظة وساهرة. واحتلت المؤسسات بعد أخرى، ولا يبدي الخصم أية مقاومة.

وكان من المفروض أن يكون المقسم محروسًا جيدًا، ولكن زمرة من فوج كيكهولمسلي احتلته في الساعة السابعة صباحًا دون إطلاق رصاصة واحدة. ولم يعد الثوار قلقين خوفًا من قطع الاتصال فيما بينهم، وتمكنوا بالإضافة إلى ذلك من مراقبة الاتصالات الهاتفية لخصومهم. وقد قطعت الخطوط الهاتفية بين قصر الشتاء وهيئة الأركان العليا للحكومة فورًا.

وفي الوقت ذاته تقريبًا استولت مفرزة من بحارة ركب الحرس، مؤلفة من ٤٠ جنديًّا على أبنية مصرف الدولة وعلى قناة كاترين. وقد قال أحد مستخدمي البنك والتسيفيتش في مذكراته "إن مفرزة البحارة تصرفت بصورة خاطفة". ووضعت الحراس فورًا في المراكز الهاتفية لمنع كل نجدة ممكنة من الخارج. وتم الاستيلاء على المؤسسة "دون أية مقاومة، رغم وجود مفرزة من فوج سيمينوفسكي". وقد أعطوا للاستيلاء على المصرف معنى رمزيًّا. وكانت كوادر الحزب قد ربيت وعلمت على النقد الماركسي لكومونة باريس في عام ١٨٧١، هذه الكومونة التي لم يجرؤ زعماؤها -كما هو معروف- على رفع يدهم ضد مصرف فرنسا المركزي. وكان عدد من البلاشفة يقولون لأنفسهم قبل ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) بمدة طويلة "كلا، لن نعود إلى مثل هذا الخطأ". وانتشر خبر الاستيلاء على أقدس مؤسسات الدولة البرجوازية، ثم انتقل إلى النواحي بسرعة هائلة، وأثار هيجانًا حماسيًّا.

واحتل الثوار محطة وارسو في ساعات الصباح الباكر، و**مطبعة بيرجيفييه فيديموستي (المعلومات المصرفية)**، وجسر القصر الواقع تحت نوافذ غرفة كرنسكي ذاتها. وأمر مفوض اللجنة جنود فوج فولهينسكي، الذي كان مناوبًا، بإطلاق سراح عدد من الموقوفين حسب لائحة وضعها مجلس السوفييت. وحاولت الإدارة المختصة بالسجون الحصول على تعليمات من وزير العدلية، وكان لدى الوزير عمل آخر يقوم به في ذلك الوقت. وعين البلاشفة الذين أخلي سبيلهم، وكان من بينهم روشال زعيم كرونشتادت الشاب، في مراكز قتال فورًا.

وفي الصبيحة، أحضرت إلى سمولني مجموعة من اليونكرز اعتقلها النقابون في محطة نيقولا. وكان هؤلاء الطلاب الضباط قد ذهبوا من قصر الشتاء بسيارة نقل بغرض التموين. وروى بودفويسكي هذه الواقعة قائلاً: "وصرح لهم تروتسكي بأنهم أحرار شريطة أن يتعهدوا بعدم العمل ضد السلطة السوفييتية. وبوسعهم بالإضافة إلى ذلك العودة إلى مشاغلهم المدرسية. وقد ذهل هؤلاء الأطفال الذين كانوا يتوقعون اقتصاصًا دمويًّا منهم، بصورة يعجز التعبير عن وصفها". فإلى أي حد كان التوسع في الاعتقالات الفورية عملاً صائبًا؟ إن هذا السؤال يغلفه الشك حتى الآن. فلم يكن الانتصار قد تحقق نهائيًّا، لأن اليونكرز كانوا يشكلون القوة الرئيسية للخصم. ومن ناحية أخرى، ونظرًا للتردد الذي كان يسود المدارس العسكرية، فقد كان من المهم إلى حد كبير إفهام اليونكرز بأن استسلامهم لرحمة المنتصرين لن يعرضهم لأي اقتصاص. وكانت الدوافع، في اتجاه توقيفهم أو إخلاء سبيلهم تبدو متوازنة إلى حد ما.

وفي الصباح اتصل الجنرال ليفيتسكي -(المرافق العسكري لكرنسكي) من وزارة الحربية التي لم يحتلها الثوار بعد- هاتفيًّا بالجنرال دوخونين في مقر القيادة العليا ونقل إليه ما يلي: "انضمت بعض عناصر من حامية بتروغراد... إلى البلاشفة. ووصل من كرونشتادت بحارة وطراد خفيف. وقد أصلحوا الجسور التي قطعت. والمدينة كلها مغطاة بمخافر حرس الحامية، ولكن ليس هناك أية تظاهرة (!) إن المقسم الهاتفي بين يدي جنود الحامية. ولا تحرسه القوات الموجودة في قصر الشتاء إلا شكليًّا، لأنهم صمموا أن لا يعملوا فعلاً. وهناك انطباع عام بأن الحكومة المؤقتة تجد نفسها في العاصمة وكأنها في عاصمة بلد معاد أنهى تعبئته العامة، لكنه لم يبدأ عدوانه". إنها لشهادة عسكرية وسياسية لا تقدر بثمن! وفي الحقيقة، لقد استبق الجنرالات الأحداث عندما قال بأن عددًا من البحارة قد وصل من كرونشتادت؛ فهم لم يصلوا بالفعل إلا بعد عدة ساعات. وقد أعاد الطراد **اورور** حركة المرور على الجسر بالفعل. وكان الأمل الذي عبر عنه الجنرال في نهاية تقريره ساذجًا جدًا، وهو أن البلاشفة "الذين يملكون بالفعل منذ وقت طويل إمكانية التخلص منا جميعًا... إن هؤلاء البلاشفة لن يجرءوا على الرأي العام في الجبهة".

إن الأوهام حول الجبهة هو كل ما بقي للجنرالات الديموقراطيين في المؤخرة. وعلى العكس، ستدخل صورة الحكومة المؤقتة التي وجدت نفسها "في العاصمة وكأنها في عاصمة بلد معاد" ستدخل هذه الصورة التاريخ إلى الأبد كأفضل تفسير يمكن إعطاؤه لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول).

وكانت الاجتماعات مستمرة في سمولني. وكان بعض المحرضين والمنظمين، ومدراء المصانع، وقادة الأفواج، ورؤساء النواحي يظهرون في سمولني لمدة ساعة أو ساعتين، ولعدة دقائق أحياناً بهدف الاطلاع على الأخبار، والتحقق من عملهم الخاص، ثم يعودون إلى مراكزهم. وكان هناك تجمع يعجز التعبير عن وصفه أمام القاعة رقم ١٨؛ حيث استقرت مجموعة البلاشفة في مجلس السوفييت. وكان الزوار الذين هدهم التعب والإرهاق ينامون مرارًا في قاعة الجلسات، وهم يسندون رءوسهم التي أثقلها النعاس إلى عمود أبيض، أو إلى جدار ممر من الممرات وقد ضموا بنادقهم بين أذرعتهم. وكانوا ينامون أحياناً على الأرضية المبللة والقذرة. وكان لاشوفيتش يستقبل المفوضين العسكريين ويعطيهم آخر التعليمات. وكانت التقارير التي تصل من كل الأنحاء تتحول في مبنى اللجنة العسكرية الثورية في الطابق الثالث إلى قرارات: هنا كان قلب الانتفاضة يخفق.

وكانت مراكز النواحي لوحة مماثلة للوحة سمولني، ولكن على نطاق ضيق فقط. وقد تشكل معسكر كامل في حي فيبورغ، قبالة هيئة أركان الحرس الأحمر، على شارع بامبسونييفسكي؛ فقد ازدحمت أرضية الطريق بالعربات المجرورة، وبالسيارات الخفيفة، وبسيارات النقل. وازدحمت مؤسسات الحي بالعمال المسلحين. وكان مجلس السوفييت، ومجلس الدوما، والنقابات، ولجان المصنع كانت كل هذه التنظيمات تخدم الانتفاضة في هذا الحي. وحدث في المصانع، وفي الثكنات، وفي المؤسسات نفس ما حدث في كل العاصمة، ولكن على مقياس ضيق؛ كانوا يستبعدون البعض وينتخبون البعض الآخر، وكانوا يقطعون ما تبقى من أربطة قديمة، ويعززون ويُمَتِّنُون أواصر جديدة. وكان المتخلفون يصوتون على قرارات الخضوع للجنة العسكرية الثورية. وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يربضون عن بعد خائفين مع إدارة المصانع وهيئة الضباط. وكان الثوار يعطون معلومات طازجة في اجتماعات مستمرة، ويغذون الثقة القتالية، ويُمَتِّنون الاتصال. وكانت الجماهير البشرية تتجمع حول محاور جديدة. وكانت أطراف الانتفاضة تكتمل.

وقد حاولنا في هذا الكتاب خطوة أثر خطوة تعليم تحضير انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول)، الاستياء المتزايد للجماهير العمالية، والسوفييتات تضع نفسها تحت أعلام البلشفية، غضب الجيش، وانتفاضة الفلاحين على الملاكين النبلاء، فجور الحركة الوطنية، الخوف والاضطرابات المتزايدة لدى المالكين والزعماء، وأخيرًا المعركة في داخل الحزب البلشفي للانتفاضة. وبدت الانتفاضة التي أنهت كل شيء، بعد كل هذا، قصيرة جدًا، وجافة جدًا، وعملية أكثر مما يجب، وكما لو أنها لا تتجاوب مع اتساع النطاق التاريخي للأحداث. وقد أحس القارئ بنوع من زوال الوهم. وهو يشبه سائحًا في الجبل اكتشف فجأة أنه وصل إلى القمة أو قريبًا منها، مع أنه كان يتوقع أن يصطدم بأضخم الصعوبات. فأين الانتفاضة؟ إن اللوحة لم تنته. والأحداث لا تصنع لوحة. وتبقى العمليات الصغيرة المحسوبة والمحصرة مسبقًا متميزة عن بعضها بعضًا في المجال وفي الزمان. وهي مرتبطة بوحدة الهدف والتصور، ولكنها ليست مرتبطة أبدًا بوحدة المعركة ذاتها. فالجماهير الكبيرة ليست في العمل. وليس هناك صدامات مأساوية مع القطعات. وليس هناك من شيء يربطه الخيال المدرب حسب وقائع التاريخ بمفهوم الانتفاضة.

وقد أعطى الطابع العام للانتفاضة في العاصمة دافعًا لمازاريك فيما بعد ليكتب ما يلي: "لم تكن انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول).. حركة شعبية جماهيرية أبدًا. كانت من صنع الزعماء الذين عملوا من أعلى، وفي الكواليس". وفي الحقيقة كانت هذه الانتفاضة أكبر انتفاضة جماهيرية في التاريخ كله. فلم يكن العمال بحاجة للخروج إلى الساحة لكي يندمجوا ويتلاحموا؛ فقد كانوا يشكلون بدون ذلك، سياسيًّا ومعنويًّا كلاً واحدًا. وقد مُنع الجنود أيضًا من الخروج من الثكنات دون إذن، وفي هذا المجال،

تطابق أمر اللجنة العسكرية الثورية مع أمر بولكوفنيكوف. ولكن هذه الجماهير غير المرئية تحركت أكثر من أي وقت مـضى حركة تتفق مع إيقاع الأحداث. ولم تفقد المصانع والثكنات الاتصال مع هيئات أركان النواحي، ولا فقدت النواحي الاتصال مـع سمولني لحظة واحدة. واستشعرت مفارز الحرس دعمها من قبل المصانع. ووجدت مفارز الجنود، وهي تعود إلى الثكنة، قـوة جاهزة لتبديلها. وقد استطاعت القوات الثورية الزحف وهي واثقة من الوصول إلى غاياتها لأنها تملك خلفها احتياطـًا ضـخمًا. وعلى العكس، امتنعت المخافر الحكومية عن فكرة المقاومة ذاتها لأنها مخافر مشتتة، مغلوبة علـى أمرهـا مـسبقًا بعزلتهـا الخاصة. وكانت الطبقات البرجوازية تتوقع المتاريس، وأضواء الحرائق، وبحرًا من الدماء. وفي الحقيقة كان يسود هدوء أشـد إرهابًا من كل هدير العالم. وتحركت الأرض الاجتماعية دون ضجيج، كمشهد دوار، وجلبت الجماهير الشعبية إلـى المرتبـة الأولى وجرفت أسياد الأمس إلى عالم آخر.

فمنذ الساعة العاشرة صباحًا من يوم ٢٥، قدرت القيادة في سمولني إن بالإمكان إذاعة بيان الانتصار في العاصمة وفـي البلاد؛ "لقد خلعت الحكومة المؤقتة. وانتقلت سلطة الدولة إلى أيدي اللجنة العسكرية الثورية". وكان هذا التصريح سابقًا للأحداث بكثير في معنى ما. فالحكومة ما زالت قائمة، على أرض قصر الشتاء على الأقل. والمقر العام للقوات المسلحة الروسية ما زال قائمًا دومًا. ولم تُدل المناطق برأيها حتى الآن. ولم يفتتح مؤتمر السوفييتات جلساته حتى الآن. ولكـن زعمـاء الانتفاضـة لا يعملون كمؤرخين؛ فقد كانوا مضطرين إلى استباق الأحداث ليعدوا للمؤرخين حوادث يسردونها فيما بعد. لقـد غـدت اللجنـة العسكرية الثورية في العاصمة سيدًا مطلقًا للموقف. ولم يكن هناك أي شك في تصديق المؤتمر وموافقتـه. وكانـت المنـاطق تنتظر مبادرة بتروغراد. فللاستيلاء على السلطة الكاملة، ينبغي البدء بالعمل كسلطة. ودعت اللجنة في بيانهـا الموجـه إلـى التنظيمات العسكرية في الجبهة وفي المؤخرة الجنود إلى مراقبة سلوك القيادة بيقظة تامة، واعتقال الضباط الذين لا ينـضمون إلى الثورة، ودعتهم أيضًا إلى عدم التردد باستخدام القوة عند محاولة إرسال أية قوات معادية للزحف على بتروغراد.

ووصل ستانكيفتيش من الجبهة في اليوم السابق، بصفته المفوض الرئيسي للمقر العام للقوات المسلحة الروسية، فلم يشأ أن يبقى عاطلاً عن العمل في مملكة السلبية والعفن، وحاول في الصباح إجلاء البلاشفة عن المقسم الهاتفي الذي يحتلونه. وقـام بهذا العمل على رأس نصف سرية من اليونكرز التابعين لمدرسة الهندسة. وعرف اليونكرز، بهذه المناسبة، وللمـرة الأولـى بصورة خاصة من يحتل المقسم. وقد صاح الضابط سينيغوب وهو يصر على أسنانه قائلاً: "من هؤلاء ينبغي أن نـتعلم القـوة الفاعلة. ولكن أين يجدون مثل هذه القيادة؟". وكان بوسع البحارة الذين كانوا يحتلون المقسم الهاتفي أن يبيـدوا اليـونكرر دون صعوبة بالرمي عليهم من النوافذ. ولكن الثوار بذلوا كل جهدهم لكي يتجنبوا إراقة الدماء. وأمر ستانكيفيتش من جهته بـصورة مشددة بعدم إطلاق النار؛ حتى لا يتهم أحد اليونكرز بإطلاق النار على الشعب. وأمعن الضابط تأمله وقال: "ولكن ما أن يستتب النظام لصالحنا، فمن ذاك الذي يجرؤ أن ينبث بكلمة؟". وأنهى تأملاته صائحًا: "مهرجون ملاعين". وكانت هذه العبـارة تمثـل رأي هيئة الضباط في الحكومة. وأرسل سينيغوب، بمبادرته الشخصية، يطلب من قصر الشتاء قنابل وأكياسًـا مـن البـارود القطني. وفي غضون ذلك، اشتبك الملازم الأول الملكي بنقاش سياسي على عتبة الباب الكبير لمركز الهاتف مع مـلازم ثـان بلشفي، وعلى طريقة أبطال هوميروس، استهل الاثنان النزال بالتلاحي. وفيما بين هاتين النارين، اللتين لـم تتجـاوزا حـدود الملاسنة الفصيحة، فرَّت عاملات الهاتف وقد استطارت فرقًا. فما كان من البحارة إلا أن صرفوهن إلـى منـازلهن. وأخـذوا يتساءلون "ما هذا؟... نساء!...." وهرعت العاملات خارج المبنى وهن يطلقن صرخات هيستيرية. وروى سينيغوب ما يلـي: "أصبح شارع مورسكايا المقفر فجأة مبرقشًا بالهاربات، والألبسة النسائية المزركشة، والقبعـات الـصغيرة". وتهيـأ البحـارة لاستخدام الأجهزة الهاتفية بصورة جيدة. وظهر في باحة المركز الهاتفي سيارة مصفحة يركبها الحمر، لم يـسيئوا أبـدًا إلـى اليونكرز المذعورين. واستولى اليونكرز على سيارتي نقل وسدوا باب المركز من الخارج. وظهر من ناحية شـارع نيفـسكي

سيارة مدرعة ثانية، ثم ثالثة. واقتصر العمل كله على مناورات ومحاولات إرهاب متبادلة. وحسمت المعركة من أجل الاستيلاء على المركز دون استخدام البارود القطني، ورفع ستايكيفتش الحصار شريطة السماح لليونكرز بالمرور.

ولم تكن الأسلحة حتى ذلك الحين سوى علامة خارجية على القوة؛ فالطرفان لا يستخدمانها تقريبًا. واصطدمت نصف سرية ستانكيفيتش بمفرزة من البحارة الجاهزين لإطلاق النيران، وهي في طريقها إلى قصر الشتاء. وكان الخصمان يتوعد كل منهما الآخر بنظراته. ولم يكن أي طرف من الطرفين راغبًا بقتال الآخر؛ الطرف الأول يحس بقوته، والطرف الثاني يحس بضعفه. وكان الثوار، والعمال خاصة، يسارعون إلى نزع سلاح خصمهم عندما تلوح لهم الفرصة. وقد نزع الحرس الأحمر والجنود سلاح نصف السرية الثاني من هندسة اليونكرز بمساعدة السيارات المصفحة وأسروا أفرادها، بعد أن طوقوها. ومع ذلك، هنا أيضًا، لم يقع قتال: فلم يبد اليونكرز أية مقاومة. وحسب شهادة ستانكيفيتش: "وهكذا انتهت أول محاولة فعالة أعرفها لمقاومة البلاشفة". وعزم ستانكيفيتش على القيام بعمليات خارج نطاق قصر الشتاء.

وعند الظهر، احتلت قطعات اللجنة العسكرية الثورية الشوارع بجوار قصر ماري. وقد كان أعضاء اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي قد وصلوا لتوهم للدخول إلى قاعة الجلسات. وحاول المكتب الحصول على آخر الأنباء، وحدث انهيار مفاجئ عندما علموا بقطع المواصلات الهاتفية. وتساءل مجلس الوجهاء والعمداء عن كيفية التصرف. وكان المندوبون يدندنون في زوايا القاعة. وجاء أفكسانتييف بأخبار مشجعة: لقد ذهب كرنسكي إلى الجبهة وسيعود فورًا ليسوي كل شيء. وتوقفت سيارة مصفحة أمام الباب الكبير. ودخل جنود من الفوج الليتواني وفوج كيكهولمسكي وبحارة مركب الحرس إلى المبنى، واصطفوا على طول السلم، واحتلوا القاعة الأولى. ودعا رئيس المفرزة المندوبين إلى مغادرة القصر فورًا. وروى نابوكوف قائلاً: "كان الانطباع مذهلاً". وقرر أعضاء اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي أن يتفرقوا "وأن يوقفوا نشاطهم مؤقتًا". وصوت ٤٨ عضوًا من اليمين ضد الخضوع إلى العنف. وكان هؤلاء يعرفون أنهم سيبقون أقلية. ونزل المندوبون على السلم الرائع سلميًّا بين سياجين من حملة البنادق. وأكد هذا المشهد شهود العيان. وكتب الوطني الليبرالي نابوكوف قائلاً: "لم يكن هنا شيء مأساوي في كل هذا". واستطرد يقول عن الجنود والبحارة الروس: "إنها دومًا نفس السحنات البليدة والغليظة، والقبيحة". وفي الأسفل عند المخرج كان رؤساء المفارز يتحققون من الأوراق الشخصية ويدعون كل الناس يخرجون. وقد شهد ميليوكوف الذي أخلي سبيله مع آخر ممن أخلي سبيلهم قائلاً: "كنا نتوقع فرزًا لأعضاء اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي كما كنا نتوقع اعتقالات. ولكن هيئة الأركان الثورية كانت مشغولة باهتمامات أخرى". لم يكن هذا فحسب؛ فهيئة الأركان الثورية لا تملك سوى تجربة قليلة. وكان الأمر الصادر يقول: اعتقلوا أعضاء الحكومة إذا كان بين الموجودين أحد منهم. ولكن لم يكن هناك بين الموجودين أحد من أعضاء الحكومة. وأخلي سبيل أعضاء اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي دون صعوبات، ومن بينهم، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد منظمي الحرب الأهلية.

وقد عاش البرلمان الهجين الذي انتهى وجوده قبل انتهاء وجود الحكومة باثنتي عشرة ساعة ثمانية عشرة يومًا، وهي الفاصلة الزمنية بين خروج البلاشفة من قصر ماري إلى الشارع وغزو هذا القصر بواسطة جماهير الشارع المسلحة. وربما كان المجلس الجمهوري الروسي أغرب من كل عمليات تزوير التمثيل النيابي التي يزخر بها التاريخ.

وغادر الأكتوبري شيدلوفسكي المبنى المشئوم وهام على وجهه في المدينة كي يراقب المعارك: كان هؤلاء السادة يقدرون أن الشعب سوف ينتفض للدفاع عنهم. ولكن لم يحدث أي اضطراب. وبالمقابل، كان الرأي العام في الشوارع حسب رأي شيدلوفسكي - والرأي العام المختار لشارع نييفسكي يضحك ملء شدقيه. وكانت التعليقات كما يلي: "هل سمعتم: هل استولى البلاشفة على السلطة؟ لن يصمدوا فيها سوى ثلاثة أيام على الأكثر. آه! آه! آه!". وقرر شيدلوفسكي البقاء في العاصمة "طيلة الوقت الذي تقدره الإشاعة العامة لحكم البلاشفة". ومن المعروف أن الأيام الثلاثة امتدت فترة طويلة.

ولم يبدأ سكان شارع نييفسكي بالضحك بصخب إلا في المساء، وكان الخوف في الصبيحة كبيرًا جدًا حتى أن عددًا قليلاً من سكان الأحياء البرجوازية قد تجرأ على الظهور في الشوارع. وقد ركض الصحفي كنيجنيك في الساعة التاسعة صباحًا يبحث عن صُحفه في شارع كامينو - أوستروفسكي، ولكنه لم يجد باعة الصحف. وكان بعض الأفراد يروون وسط جمع صغير من الناس بأن البلاشفة قد احتلوا الهاتف خلال الليل، كما احتلوا البرق، والمصرف المركزي. وكانت دورية من الجنود تستمع إلى هذه الأقوال وأخذت ترجو هؤلاء الناس بعدم إحداث جلبة. "ولكن حتى بدون طلب لهذا، كان الجميع يلتزمون الهدوء التام". وقامت مفارز عمالية مسلحة بالعرض. وسارت حافلات الترام كالعادة، أي ببطء. وقد كتب كنيجنيك حول موضوع شارع نييفسكي قائلاً: "استشعرت الضيق عندما لاحظت ندرة المارة". وكانت المطاعم تقدم وجبات الطعام، ولكن زبائن المطاعم كانوا يفضلون القاعات الخلفية. وعند الظهر دوّى المدفع الذي يعلن ساعة الظهر كعادته دون أن يقوى دويه أو يضعف، من أعلى سور قلعة بطرس وبولص، التي يحتلها البلاشفة. وكانت الجدران والأسيجة مغطاة بنداء إلى السكان يحذرهم من القيام بأية تظاهرة. ولكن هناك بيانات أخرى تعلن انتصار الانتفاضة. ولم يتسن للثوار الوقت الكافي للصقها، فكانت السيارات تقوم بتوزيعها على الناس. وكانت رائحة الحبر الطازج تفوح من الأوراق، كما تفوح من الأحداث ذاتها.

وخرجت مفارز الحرس الأحمر من أقسامها، العامل ومعه بندقيته، والحربة فوق قبعته أو قلنسوته، والنطاق على معطفه المدني. ولا تنفصل هذه الصورة عن تاريخ ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) وكان العامل المسلح يوطد النظام في العاصمة التي احتلها لمصلحته بحذر ودون ضمانة أيضًا.

وأشاع هدوء الشوارع طمأنينة في القلوب. وبدأ السكان بالخروج من منازلهم. وفي المساء لوحظ وسطهم قلق أقل من القلق الذي كان سائدًا في الأيام السابقة. وتوقف العمل، في الحقيقة، في المؤسسات الحكومية والمصالح العامة. ولكن بقيت كثير من المخازن مفتوحة للزبائن. وأغلقت بعض المتاجر من تلقاء ذاتها بدافع الحذر والحرص لا بدافع الضرورة التي أملتها الأحداث. الانتفاضة! أين مظاهر الانتفاضة؟ هل هذه هي الانتفاضة؟ هل هكذا يثور الناس ويتمردون؟ إن حرس فبراير (شباط) هو الذي استبدل بحرس أكتوبر (تشرين الأول) بكل بساطة.

وفي المساء كان شارع نييفسكي مزدحمًا أكثر من أي يوم آخر بالجمهور الذي يعطي البلاشفة مهلة ثلاثة أيام في الحكم فقط. وما زال جنود فوج بافلوفسكي لا يوحون بالخوف لأي إنسان، مع أن خنادقهم حصنت بالآليات المصفحة وبمدفع مضاد للطائرات أيضًا. حقًا إن هناك شيئًا جديًّا يحدث حول قصر الشتاء، ولا يتيسر للمرء الذهاب إلى تلك الناحية. ولكن مع كل هذا لا يمكن أن تتركز كل الانتفاضة في ميدان القصر. وشاهد صحفي أمريكي شيوخًا يرتدون معاطف ثمينة مبطنة بالفرو يرفعون قبضاتهم المغلفة بالقفازات في وجوه جنود فوج بافلوفسكي، كما شاهد نساء أنيقات تمطرنهم بالشتائم. "وكان رد الجنود رقيقًا، وهم يبتسمون ابتسامات باهتة". وكان هؤلاء الجنود يستشعرون الضياع في شارع نييفسكي الراقي، هذا الشارع الذي لم يكن قد تسمَّى بعد "شارع ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول)".

وقد اندهش كلود آني أحد الصحفيين الفرنسيين شبه الرسميين في بتروغراد بصدق وقال ما يلي: إن هؤلاء الروس غير المتماسكين يقومون بثورة مخالفة لما قرأت في الكتب القديمة. "إن المدينة هادئة!". واستعلم آني هاتفيًّا، واستقبل بعض الزوار في مكان إقامته، وخرج من منزله. وكان الجنود الذين قطعوا عليه الطريق على المويكا يسيرون بنظام حسن وكأنهم يسيرون "في ظل النظام القديم". وكانت عدة دوريات تجوب شارع ميليونايا. وليست هناك طلقة بندقية واحدة. وكان الميدان الواسع لقصر الشتاء، في هذه الساعة من الظهيرة مقفرًا تمامًا. وكانت الدوريات تجوب المورسكايا والنييفسكي. ويتمتع الجنود بالنشاط، ويرتدون بزة نظيفة. ولدى إلقاء أول نظرة على هذه المفارز المتحركة تبدو وكأنها بالتأكيد قطعات حكومية، وفي ميدان قصر ماري فكر آني بالدخول إلى مقر اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، فأوقفه الجنود والبحارة "المهذبون جدًا في الحقيقة".

ووضعت حواجز ومتاريس مؤلفة من سيارات وعربات على الشارعين المؤديين إلى القصر. وقد تم كل هذا بأوامر سمولني. وأرسلت اللجنة العسكرية الثورية دوريات إلى كل أنحاء المدينة، ووضعت مخافر الحرس، وحلت اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، وأصبحت سيدة العاصمة، ووطدت النظام فيها "هذا النظام الذي لم يره أحد أبدًا منذ بدء الثورة". وفي المساء أعلمت بوابة المنزل الذي كان يقطن فيه آني المستأجرين الفرنسيين بأن هيئة أركان السوفييتات قد وزعت أرقام الهواتف الضرورية في حالة الطوارئ لطلب النجدة من القوة المسلحة عند وقوع أي هجوم أو مصادرة مريبين. وأضاف آني يقول: "وفي الحقيقة، لم نكن محروسين في أي يوم مضى بصورة أفضل من حراستنا في تلك الفترة".

وفي الساعة ٢,٣٥ بعد الظهر -كان الصحفيون الأجانب ينظرون إلى ساعاتهم، على حين لم يكن لدى الروس الوقت لإلقاء نظرة على ساعاتهم- افتتحت الجلسة فوق العادة لسوفييت بتروغراد بتقرير من تروتسكي، الذي صرح باسم اللجنة العسكرية الثورية بأن الحكومة المؤقتة أصبحت غير موجودة. وأضاف يقول: "قيل لنا بأن الانتفاضة ستغرق الثورة في أنهار من الدماء... إننا لم نُعلم بوقوع أية ضحية". ونحن لا نجد مثلاً في التاريخ لحركة ثورية امتزجت بها مثل هذه الجماهير الهائلة وكانت بمثل هذه التكاليف البسيطة. واستطرد يقول: "لم نستول بعد على قصر الشتاء، ولكننا سنستولي عليه قريبًا". وأظهرت الساعات الاثنتي عشرة القادمة أن هذه النبوءة كانت متفائلة جدًا.

ونقل تروتسكي للمجلس ما يلي: سيرت قطعات من الجبهة للزحف ضد بتروغراد. ومن الضروري إرسال مفوضين من السوفييت فورًا إلى الجبهة وإلى كل أنحاء البلاد لإعطاء المعلومات عن الانتفاضة التي تحققت. وانطلقت صيحات التعجب من اليمين الوافر العدد في المجلس، وكانت هذه الصيحات تقول: "أنتم تسبقون إرادة مجلس السوفييتات". ورد تروتسكي قائلاً: "لقد تحدد إرادة المجلس سابقًا بانتفاضة العمال والجنود التي بدأت في هذه الليلة. والآن لم يبق أمامنا إلا أن نمد انتصارنا".

ورسم لينين الذي ظهر للمرة الأولى علنًا منذ أن خرج من مخبئه السري، رسم **باختصار منهاج الثورة: تحطيم جهاز الدولة القديم. وإنشاء نظام حكومي بواسطة مجالس السوفييتات. واتخاذ التدابير لإنهاء الحرب فورًا بالاعتماد على الحركة الثورية في البلدان الأخرى، وإلغاء ملكية النبلاء، وكسب ثقة الفلاحين بهذا الشكل، وإقامة الرقابة العملية على الإنتاج.** وأضاف لينين قائلاً: "وعلى الثورة الروسية الثالثة أن تقود أخيرًا إلى انتصار الاشتراكية".

الهوامش

١. تس. ك: اللجنة المركزية، ب. س. ر: الحزب الاشتراكي - الثوري، س. د. مناشفة: الاشتراكيون الديموقراطيون المناشفة، س. د. بلاشفة: الاشتراكيون الديموقراطيون البلاشفة. (المعربان).

الاستيلاء على قصر الشتاء

استقبل كرنسكي وهو في أقصى درجات السخط ستانكيفيتش الذي وصل من الجبهة يحمل بعض التقارير، كــان قادمًــا لتوه من المجلس الجمهوري؛ حيث أدان انتفاضة البلاشفة بشكل قاطع، وعندما شرح كرنسكي الوضع تعجب ستانكيفيتش قائلاً: عصيان؟ فرد عليه كرنسكي قائلاً: ولكن كيف نجهل أن هناك عصيانًا مسلحًا؟ فضحك ستانكيفيتش قــائلاً: هيــا! إن الــشوارع هادئة تمامًا، فهل يبدو العصيان المسلح الحقيقي بهذا الشكل؟ ولكن ينبغي على كل حال أن ننتهي من هذه الهــزات المــستمرة. وكان كرنسكي متفقًا مع ستانكيفيتش على ضرورة وضع حد لهذا؛ فهو ينتظر فقط قرار اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي.

وفي الساعة التاسعة مساء اجتمعت الحكومة في قاعة الأعمدة في قصر الــشتاء لإعــداد وســائل "التــصفية الحاســمة والنهائية" للبلاشفة. وأعلم ستانكيفيتش الذي أرسل إلى قصر ماري للإسراع بعملية القضاء على البلاشفة، أعلم وهو ساخط ناقم بأنه قد تم التصويت على صيغة ثقة واهية بالحكومة. وطبقًا لقرار اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي ينبغــي أن توكــل مهمــة مقاومة الانتفاضة إلى لجنة خاصة بالسلامة العامة لا إلى الحكومة. وكانت أول حركة قام بها كرنسكي عندما علم بذلك هي أن صرح قائلاً بأنه ضمن هذه الشروط "لن يبقى دقيقة واحدة على رأس الحكومة". واستُدعي الزعمــاء التوفيقيــون هاتفيًّــا إلــى القصر. وأذهلهم احتمال استقالة كرنسكي، الذي لم يقل ذهوله عن ذهولهم من القرار الذي اتخذوه. وحاول افكــسانتييف تبريــر الموقف بقوله: إنهم يعتبرون القرار على كل حال "نظريًّا صرفًا، وعارضًا، ولم يكونوا يفكرون بأنه سيؤدي إلى نتائج عمليــة". نعم، هم أنفسهم يرون الآن أن القرار "ربما لم تتم صياغته بصورة جيدة". ولم يضع هؤلاء الناس فرصة لم يُظهروا فيها قيمتهم الحقيقية.

ويبدو الحديث الذي تم ليلاً بين الزعماء الديموقراطيين ورئيس الحكومة حــديثًا لا يــصدق عــن جــوهر الانتفاضــة المتطورة. وطالب دان، أحد الذين وأدوا نظام فبراير (شباط) بأن تلصق الحكومة فورًا في الليل إعلانات في كل أنحاء المدينــة تعلن بأنها اقترحت على الحلفاء البدء بمفاوضات السلم. ورد كرنسكي بأن الحكومة لا تحتاج إلى مثل هذه النصائح. وبوســعنا أن نعتقد بأن الحكومة كانت تفضل قرارًا جيدًا وحازمًا. ولكن دان لم يكن قادرًا على تقديم مثل هذا القرار. وحــاول كرنــسكي بالطبع إلقاء مسئولية العصيان على محدثيه. وأجابه دان بأن الحكومة هولّت الأحداث بتأثير "هيئة أركانها الرجعية". وليس هناك أي داع لاستقالة الحكومة على كل حال؛ فقد كان القرار المرفوض ضروريًّا لتغيير مناخ الجماهير الفكري. وسيضطر البلاشفة "منذ الغد" إلى حل هيئة أركانهم إذا قبلت الحكومة اقتراحات دان. وفسر كرنسكي بسخرية في محلها "وفي اللحظة ذاتها تمامًــا، احتل الحرس الأحمر المباني الحكومية مبنًى أثر آخر".

وما كاد العتاب الحافل مع أصدقاء اليسار يصل إلى نهايته حتى استقبل كرنسكي وفدًا من سوفييت قطعات القوزاق يمثل أصدقاء اليمينيين. وتظاهر الضباط بأنهم مستعدون لتعديل سلوك أفواج القوزاق الثلاثة المعــسكرة فــي بتروغــراد. وقــدموا لكرنسكي شروطًا مخالفة تمامًا لشروط دان: لا تنازل ولا امتيازات للسوفييتات. ينبغي أن يتم قمع البلاشفة في هذه المرة حتــى النهاية، لا كما تم في يوليو (تموز)؛ حيث سقط عدد من القوزاق ضحية لهذا الموقف. ووعد كرنسكي، الذي كان يرغــب فــي ذلك من صميم جوارحه، بكل ما طلب منه. واعتذر من محدثيه بأنه لم يعتقل تروتسكي حتى الآن لأسباب تتعلق بالحكمة، نظرًا لأنه رئيس سوفييت بتروغراد. وودعه المندوبون مؤكدين له بأن القوزاق سيقومون بواجبهم. وأرسل فورًا من هيئــة الأركــان أمر إلى أفواج القوزاق يقول: "باسم حرية وشرف ومجد الأرض الأم، ازحفوا لمساعدة اللجنة التنفيذية المركزيــة، ولمــساعدة الحكومة المؤقتة في سبيل إنقاذ روسيا المعرضة للأخطار". وهكذا نرى أن هذه الحكومة المغرورة التي حرصت كل الحــرص على استقلالها عن اللجنة التنفيذية المركزية مضطرة في كل المناسبات إلى التواري بخجل وراء ظهر هذه اللجنة فــي ســاعة

الخطر. وأرسلت الأوامر المكملة أيضًا إلى مدارس اليونكرز في بتروغراد وفي الضواحي. وأرسلت التوصية التالية إلى مصلحة السكك الحديدية: "توجه أرتال القطعات القادمة من الجبهة إلى بتروغراد دون أي تأخير. وتوقف عند الحاجة حركة قطارات المسافرين".

ثم تفرقت الحكومة بعد قيامها بكل ما كان بوسعها القيام به. وبين الساعة الواحدة والثانية صباحًا، لم يبق في القصر مع كرنسكي سوى مساعده كونوفالوف، وهو تاجر ليبرالي من موسكو. وجاء بولكوفنيكوف -قائد المنطقة- إليهما لكي يقترح تنظيم حملة للاستيلاء على قصر سمولني بمساعدة القطعات الموالية. وتبنى كرنسكي دون تردد هذه الخطة الرائعة. ولكن حديث قائد المنطقة، لا يسمح لنا بأن نعرف ماهية القوات التي كان ينوي الاعتماد عليها. وهنا فقط ظهر لكرنسكي، وباعترافه الشخصي، أن تقارير بولكوفنيكوف التي أكدت منذ عشرة أيام إلى أثنى عشر يومًا، استعداده للبدء بالمعركة ضد البلاشفة "لم تكن مستندة أبدًا إلى أساس". وكأن كرنسكي لا يملك في الحقيقة مصادر أخرى لتقدير الوضع السياسي والعسكري سوى تقارير مكتب عقيد قليل الذكاء وضع على رأس المنطقة لسبب مجهول. وفي حين، كان رئيس الحكومة مستسلمًا لتأملات سوداوية كان روغوفسكي مفوض **غرادونات – شالستوفو (مديرية شرطة المدينة)** يجلب فيضًا متتابعًا من الأخبار: دخلت عدة سفن من أسطول البلطيق، معدة للقتال في مياه النيفا. وقد صعد بعضها النهر حتى جسر نيقولا وقام بقطعه. وتقدمت مفارز من العصاة إلى جسر القصر. ولفت روغوفسكي انتباه كرنسكي بصورة خاصة إلى "أن البلاشفة يحققون خطتهم بإحكام تام، ولا يصادفون مقاومة من جانب القطعات الحكومية في أي مكان". فما هي القطعات التي يجدر أن نعتبرها "حكومية"؟ إن الحديث الذي تم بينهما لا يشير إلى ذلك بوضوح.

وخرج كرنسكي وكونوفالوف من القصر بسرعة للانتقال إلى هيئة الأركان العامة: "ليس أمامنا دقيقة واحدة نضيعها". وكان المبنى الأحمر المهيب لهيئة الأركان يعج بالضباط. وقد جاءوا إلى المبنى لا ليحلوا مشاكل قطعاتهم، بل لكي يفروا منها. "وكان يتجول وسط هذا الجمع من العسكريين وفي كل الأنحاء مدنيون لا يعرفهم أحد". وأقنع كرنسكي تقرير جديد قدمه بولكوفنيكوف باستحالة الاعتماد على قائد المنطقة وضباطه. وقرر رئيس الحكومة أن يجمع حوله شخصيًّا "كل المخلصين لواجبهم". وطلب كرنسكي هاتفيًّا أن ترسل إليه سرايا قتال من الاشتراكيين - الثوريين بعد أن تذكر أنه حزبي -هكذا يتذكر البعض الكنيسة وسط أهوال الاحتضار- وقبل أن تتمكن هذه الدعوة غير المتوقعة للقوات المسلحة لحزب الاشتراكيين - الثوريين -إذا كانت تستطيع ذلك فعلاً- من أن تحقق نتائجها، كان من الواجب حسب تعابير ميليوكوف "إبعاد كل العناصر اليمينية المتطرفة عن كرنسكي، هذه العناصر التي تنظر إليه نظرة تنطوي على نية سيئة". إن عزلة كرنسكي التي برزت بصورة واضحة خلال أيام انتفاضة كورنيلوف، اتخذت الآن طابعًا قاتلا أكثر. وقد قال كرنسكي مستعيدًا جملة نطق بها في أغسطس (آب) "امتدت الساعات الطويلة من هذا الليل بصورة مؤلمة".

ولم تصل النجدات من أية ناحية من النواحي. وعقد القوزاق الجلسات، وقال ممثلو الأفواج بأنهم يستطيعون الزحف على كل حال -ولم لا؟- ولكنهم يحتاجون إلى رشاشات، وآليات مصفحة، ومشاة بصورة خاصة. ووعدهم كرنسكي دون تردد بالسيارات المصفحة التي كانت تستعد للتخلي عنه، كما وعدهم بالمشاة التي لا يملكها. وقيل له بأن الأفواج ستذهب لمناقشة كل هذه المسائل و"ستبدأ بإسراج الخيول". ولم تعط قوات قتال الاشتراكيين - الثوريين أية دلالة على وجودها على قيد الحياة. فهل ما زالت هذه القوات موجودة؟ وأين يوجد الحد بين الحقيقة والوهم؟ واتخذ الضباط الذين اجتمعوا في هيئة الأركان من القائد الأعلى ورئيس الحكومة موقفاً متزايدًا في إثارته. وأكد كرنسكي أيضًا أن بعض أوساط الضباط تتحدث عن اعتقاله. وكان مبنى الأركان خاليًا من الحراسة كما كان في السابق، وتمت المحادثات الرسمية بوجود أطراف خارجية، وتخللتها مناقشات بيزنطية حادة ومملة. وكان الإحساس بالوهن والتفتت يتسلل قادمًا من هيئة الأركان إلى قصر الشتاء. وكان اليونكرز غاضبين كما كانت

مفرزة السيارات المصفحة في حالة هياج. وليس هناك أي دعم من القاعدة، والعقول في الأعلى مختلفة. فهل يمكن في هذه الأحوال أن يفلت كرنسكي من الضياع؟

وفي الساعة الخامسة صباحًا استدعى كرنسكي مدير وزارة الحربية إلى مبنى الأركان العامة. وقد أوقفت دوريات الثوار الجنرال مانيكوفسكي بالقرب من جسر ترويتسكي، وأرسل إلى ثكنة فوج بافلوفسكي ثم أخلي سبيله بعد استجواب قصير، ويعتقد بأن الجنرال برهن لمن اعتقلوه بأن اعتقاله سيدمر كل الآلية الإدارية وسيؤدي إلى أضرار تحل بجنود الجبهة. وفي الوقت ذاته تقريبًا أوقفت سيارة ستانكيفيتش أمام قصر الشتاء، وينبغي أن نلاحظ أيضًا أن لجنة الفوج أفرجت عنه فورًا. وروى هذا المعتقل ما يلي: "كانوا عصاة يعملون مع كل هذا بثقة ضعيفة. وقد اتصلت هاتفيًا من منزلي بقصر الشتاء وأعلمتهم بالحادث، ولكنني تلقيت من القصر ضمانة مؤكدة أنه كان هناك سوء تفاهم". وفي الواقع فإن سوء التفاهم هو أن الثوار أفرجوا عن ستانكيفيتش، وقد حاول ستانكيفيتش بعد عدة ساعات -كما يعرف القارئ- انتزاع المركز الهاتفي من أيدي البلاشفة.

وطالب كرنسكي هيئة الأركان العامة في موهيليف، وهيئة أركان الجبهة الشمالية المتمركزة في بسكوف بارسال الأفواج الموالية فورًا. وأكد دوخونين هاتفيًا من هيئة الأركان العامة بأن التدابير قد اتخذت لتسيير القطعات وزحفها إلى بتروغراد وأن بعض القوات لا بُدَّ وأنها قد بدأت تصل، ولكن القوات لم تصل. وكان القوزاق حتى ذلك الحين "يسرجون خيولهم". وتفاقم الوضع في المدينة ساعة بعد ساعة. وعندما عاد كرنسكي وكونوفالوف إلى القصر ليستريحا وليلتقطا أنفاسهما، وصل مراسل يحمل نبأ عاجلاً: لقد قُطعت الاتصالات الهاتفية مع القصر. واحتل حرس من البحارة جسر القصر الواقع تحت نوافذ غرفة كرنسكي. وبقي الميدان أمام قصر الشتاء مقفرًا. "وليس للقوزاق أي أثر فيه". ولكن هنا أيضًا لم تكن الأخبار مطمئنة. فقد تلقى اليونكرز من البلاشفة إنذارًا بمغادرة القصر، وكانوا في منتهى الاضطراب. وليست الآليات المصفحة في وضع يسمح لها بالحركة، فقد اكتشف فيها وفي وقت غير ملائم "فقدان" بعض القطع الأساسية. ولم تكن هناك أية معلومات عن القطعات التي ينبغي أن تأتي من الجبهة. ولم تكن منافذ القصر وهيئة الأركان محروسة أبدًا، وإذا كان البلاشفة لم يظهروا حتى الآن، فذلك لأنهم لا يملكون معلومات وافية. وبدأ المبنى الذي كان يزدحم بالضباط مساء يخلو بسرعة؛ كان ذلك تطبيقًا للشعار القائل انجوا بأنفسكم. وظهر فجأة وفد من اليونكرز؛ إنهم مستعدون للقيام بواجبهم حتى النهاية "إذا كان هناك أمل بوصول النجدات". ولكن كانت النجدات والتعزيزات هي ما تفتقر إليه الحكومة.

واستدعى كرنسكي الوزراء عاجلاً إلى مبنى الأركان. وكان معظمهم لا يملك السيارات؛ فكانت وسائل المواصلات الهامة هذه التي تعطي سرعة مطردة للانتفاضة الحديثة، قد صادرها البلاشفة أو وضعت بعيدًا عن متناول الوزراء بواسطة مخافر الثوار. وفي بادئ الأمر، لم يصل سوى كيشكين، ثم انضم إليه بعد فترة طويلة ماليانتوفيتش. فماذا يستطيع أن يعمل رئيس الحكومة؟ الذهاب فورًا لملاقاة أرتال القطعات لكي يجعلها تتغلب على كل الحواجز، أن أحدًا لا يستطيع أن يقترح شيئًا آخر.

وأمر كرنسكي بأن تحضر إليه "سيارته الرائعة المكشوفة". وقد تدخل هنا في سياق الوقائع عامل جديد، مقنع بمظهر التضامن الذي لا تنفصم عراه، هذا التضامن الذي يربط بين حكومات الحلفاء في الهزائم والنجاحات. وقد صرح كرنسكي قائلاً فيما بعد: "لا أعرف كيف عرفت سفارات الحلفاء خبر ذهابي". وعبَّر ممثلا بريطانيا - العظمى والولايات المتحدة الأمريكية عن تمنياتهما فورًا بأن يرفع رئيس الحكومة الذي كان يتأهب للفرار من العاصمة "العلم الأمريكي على سيارته". واعتبر كرنسكي ذاته هذا الاقتراح غير مجد ومزعجًا أيضًا، ولكنه قبله كتعبير عن تضامن الحلفاء معه.

وقدم دافيد فرانسيس -سفير الولايات المتحدة- رواية أخرى لهذه الحادثة أكثر واقعية؛ فقد واكبت سيارة ركب فيها ضابط روسي على ما يبدو السيارة الأمريكية حتى مبنى السفارة الأمريكية، وطلب هذا الضابط إعطاء كرنسكي السيارة الدبلوماسية للذهاب إلى الجبهة. وبعد أن تشاور موظفو السفارة توصلوا إلى الاستنتاج بأنه منذ اللحظة "التي تصادر فيها السيارة" -وكان هذا غير صحيح بالمرة- لا يبقى أمامهم سوى الخضوع للقوة. وقد رفض الضابط الروسي برغم الاحتجاجات المزعومة للسادة الدبلوماسيين نزع العلم الأمريكي. وأن هذا التصرف لا يدهش أبدًا؛ فالعلم يضمن حصانة السيارة. وقد وافق فرنسيس على سلوك موظفي السفارة ولكنه طلب إليهم "كتمان الأمر".

وإذا ما قارنا الشهادتين اللتين تلتقيان على خط الحقيقة بتحريف بسيط، تصبح الصورة واضحة بعض الشيء؛ فلم يفرض الحلفاء السيارة على كرنسكي، ولكنه طلبها، بنفسه، ولكن اضطرار الدبلوماسيين إلى الادعاء بعدم التدخل في الشئون الداخلية، جعلهم يختلقون رواية "مصادرة" السيارة، و"احتجاج" السفارة على استغلال علم بلادها. وعندما سويت هذه المشكلة الدقيقة، ركب كرنسكي سيارته الخاصة. وسارت السيارة الأمريكية خلفها كاحتياط. وقد روى كرنسكي فيما بعد ما يلي "ولا فائدة من القول أن كل المارين في الشارع والجنود قد تعرفوا عليَّ فورًا. وكنت أحيي -كما كنت أفعل دائمًا- بنوع من اللامبالاة وأنا ابتسم ابتسامة خفيفة"، وكان نظام فبراير (شباط) يسير بهذا الشكل إلى مملكة الأفول. وكان هناك في كل مكان على أبواب المدينة مخافر حرس ودوريات من العمال المسلحين. وعندما رأى الحرس الأحمر سيارتين مندفعتين بأقصى سرعتهما، هرع إلى الطريق ولكنه لم يقرر إطلاق النار. وربما أحدث العلم الأمريكي أثره. وسارت السيارتان بدون صعوبات.

وقد سأل ماليانتوفيتش الذي عاش حتى تلك الساعة تحت سيطرة الحقائق القانونية الأبدية، سأل بذهول: "إذن، ألا يوجد في بتروغراد قطعات جاهزة للدفاع عن الحكومة المؤقتة؟ فأجابه كونافالوف قائلاً: لا أعرف شيئًا عن ذلك، ورفع ذراعيه إلى السماء. وأضاف قائلاً: إن الوضع سيء. فرد عليه ماليانتوفيتش بخبث: وما هي القطعات التي ستأتي؟ فرد عليه كونوفالوف، يبدو لي أنها كتيبة الدراجات". وتنهد الوزيران. وكان عدد الجنود في بتروغراد وضواحيها حوالي ٢٠٠,٠٠٠ جندي. وإذا كان رئيس الحكومة مضطرًا إلى الفرار بأقصى سرعة للقاء كتيبة الدراجات مع علم أمريكي يرفرف خلفه فهذا يعني أن أمور النظام تسير بصورة سيئة!

ولو أن الوزراء عرفوا بأن كتيبة الدراجات البخارية المرسلة من الجبهة توقفت من تلقاء ذاتها في محطة بيرودولسكايا وطلبت برقيًا من سوفييت بتروغراد تحديد الهدف الذي استدعيت من أجله، لتنهدوا من أعماق قلوبهم. وقد بعثت اللجنة العسكرية الثورة بتحياتها الأخوية إلى الكتيبة ودعتها لكي ترسل ممثليها فورًا. وبحثت السلطات عن جنود هذه الكتيبة الذين وصل مندوبوهم في اليوم ذاته إلى سمولني فلم تجدهم.

* * *

وكان الثوار ينوون احتلال قصر الشتاء في ليلة ٢٤/ ٢٥، طبقًا لحسابات أولية قاموا بها، واحتلال كل مراكز القيادة الأخرى في العاصمة في الوقت ذاته. فقد شكلت منذ ٢٣ قيادة ثلاثية لإدارة عملية احتلال القصر، كان الوجهان الرئيسيان فيها هما بودفويسكي وانطونوف. وكان ضابط الهندسة سادوفسكي الوجه الثالث في هذه القيادة، ولكنه تخلى عن مهمته لانشغاله بشئون الحامية. وحل محله تشودنوفسكي الذي وصل مع تروتسكي في مايو (مايس) من معسكر اعتقال في كندا، والذي قضي ثلاثة شهور في الجبهة كجندي. وقد شارك لاشوفيتش، البلشفي القديم الذي وصل إلى رتبة ضابط صف، مشاركة مباشرة بالعمليات. وبعد الثورة بثلاثة أعوام تذكر سادوفسكي كيف كان يناقش مع بودوفويسكي وتشودنويسكي بحماسة بالغة في غرفته الصغيرة على الخارطة أفضل خطة عمل للاستيلاء على القصر. وبعد المناقشات تقرر في النهاية إحاطه دائرة القصر بخط

أهليلجي الشكل يكون محوره الرئيسي هو ضفة النيفا. وينبغي أن يعتمد التطويق من ناحية النهر على الاتصال بقلعة بطرس وبولص، وعلى الطراد أورور وسفن أخرى استدعيت من كرونشتادت ومن الأسطول الحربي المشتبك بالمعارك. وقد تقرر وضع قوات تغطية هامة مؤلفة من مفارز ثورية للحيلولة دون تدخل القوزاق، أو لشل محاولات القوزاق أو اليونكرز للهجوم على المؤخرة.

وكانت الخطة بمجموعها مثقلة أكثر مما يجب ومعقدة بالنسبة للهدف الذي ينبغي أن تحققه. وظهرت المهلة المحددة للتحضيرات غير كافية. وكانت تظهر بعض الأخطاء الصغيرة، وبعض الحسابات الخاطئة كالعادة في كل خطوة. فهنا كان الاتجاه المعين غير صحيح. وهناك تخلف الزعيم وتأخر لأنه لم يفهم التوجيهات بصورة جيدة. وفي مكان آخر كنا نتوقع الإنقاذ من آلية مصفحة. وكان إخراج المجندين من القطعة ودمجهم مع الحرس الأحمر، واحتلال قطاعات القتال، وتأمين الارتباط فيما بينهم ومع الأركان، كان كل هذا يحتاج إلى وقت أكبر مما افترضه الحزبيون الذين كانوا يتناقشون على خارطة بتروغراد.

وعندما صرحت اللجنة العسكرية الثورية في الساعة العاشرة صباحًا بأن الحكومة قد قلبت، لم تكن مدة التأخر واضحة بعد، حتى بالنسبة لزعماء العملية المباشرين. وكان بودوفويسكي قد وعد بسقوط قصر الشتاء عند الظهيرة على أبعد تقدير. وكان كل شيء يسير بصورة جيدة حتى تلك اللحظة على خط العمليات العسكرية لدرجة أن أحدًا لم يكن لديه أسباب للشك في هذه المهلة. ولكن ما أن حلت الظهيرة حتى ظهر بأن مواقع الحصار لم تكن قد احتلت بعد بكاملها، وأن رجال كرونشتادت لم يصلوا بعد. وفي غضون ذلك، كان دفاع القصر قد تعزز وتقوَّى. وكان ضياع الوقت كما يحدث دومًا سببًا في تأجيل جديد. وتحدد موعد الاستيلاء على القصر في الساعة ٣ تحت ضغط اللجنة الشديد، وكان الموعد في هذه المرة "نهائيًّا". وقد عبر مقرر اللجنة العسكرية الثورية في الجلسة الصباحية لمجلس السوفييت مستندًا إلى الساعة المحددة الجديدة عن أمل اللجنة بسقوط قصر الشتاء في اللحظة التالية، ولكن انقضت ساعة أيضًا ولم يسقط قصر الشتاء. وأكد بودفويسكي، الذي كان يحترق تلهفًا لاحتلاله، أكد هاتفيًّا بأنه سيستولي عليه مهما كلفه ذلك من ضحايا. ومع ذلك لم تكن القناعة الأولى قد وجدت أبدًا. وفي الحقيقة، دقت الساعة السادسة، لكن النهاية لم تأت. وبعد ازدياد حنق بودفويسكي وانطونوف من تأنيب القيادة في سمولني رفضا تحديد توقيتات معينة بعد الآن. وقد سبب هذا التأخير قلقًا جديًّا. وكان الجميع قد قدروا من الناحية السياسية ضرورة احتلال كل العاصمة وسيطرة اللجنة العسكرية الثورية على كل أنحائها عند افتتاح أول جلسات مؤتمر السوفييتات؛ فاحتلال كل أنحاء العاصمة سيسهل مهمة مواجهة المعارضة في داخل المؤتمر، وذلك بوضعها أمام الأمر الواقع. ومع ذلك فقد جاءت الساعة المحددة لافتتاح المؤتمر، وذلك بوضعها أمام الأمر الواقع. ومع ذلك فقد جاءت الساعة المحددة لافتتاح المؤتمر، فأجلت، ثم حانت من جديد، وكان قصر الشتاء صامدًا دومًا. وأصبح حصار القصر الذي طال إلى حد كبير، أصبح خلال اثنتي عشرة ساعة على الأقل المعضلة الرئيسية للانتفاضة.

وبقيت هيئة الأركان العامة العليا في سمولني؛ حيث كانت كل الخيوط بيد لاشوفيتش. وكانت هيئة الأركان الميدانية متمركزة في قلعة بطرس وبولص، التي كان بلاغونرافوف مسئولاً عنها. وكانت هناك **ثلاث هيئات أركان** تابعة: **إحداها** فوق الطراد أورور، **والأخرى** في ثكنات فوج بافلوفسكي، **والثالثة** في ثكنات ركب الأسطول. وكان القادة في ساحة العمل: بودفويسكي وانطونوف، اللذان لم يكن لهما ظاهريًّا دراية واضحة بعلاقة كل منهما بالآخر.

وفي هيئة الأركان العليا التابعة للحكومة، كان هناك أيضًا ثلاثة أشخاص منكبين على الخارطة: العقيد بولكوفنيكوف قائد المنطقة، والجنرال باجراتوني رئيس هيئة الأركان العامة، والجنرال الكسييف، الذي دعي إلى المؤتمر كأعلى سلطة عسكرية. وكانت خطط الدفاع بالرغم من القيادة المتمتعة بالكفاءة أقل وضوحًا بكثير من خطط المهاجمين. ولم يكن مارشالات الانتفاضة الذين لا يتمتعون بأية تجربة يعرفون حقًا كيفية حشد قطعاتهم بسرعة وتوجيه الضربة في الوقت الملائم. لكن قطعاتهم كانت

موجودة بالفعل. وكان لدى مارشالات الدفاع آمال غامضة، ولكن لم تكن لديهم قطعات، ربما يستعيد القوزاق زمام الأمــور... وربما سنجد قوات موالية في الحاميات المجاورة، ربما سيحضر كرنسكي معه قطعات من الجبهة. وانكشف المنــاخ الفكــري لبولكوفنيكوف في البرقية التي أرسلها خلال الليل إلى هيئة الأركان العامة: إنه يعتبر العملية خاسرة. وفر الكسييف الذي كــان أقل ميلاً إلى التفاؤل، وغادر هذا المركب التائه.

واستُدعي مندوبو مدارس اليونكرز، للاتصال بهيئة الأركان؛ حيث حاول أعضاء هذه الهيئة رفع معنوياتهم مؤكدين لهم وصول قطعات من غاتشينا ومن تساركويه - سيلا ومن الجبهة خلال فترة قصيرة جدًا. بَيْد أن اليونكرز، رغم هذا لم يكونــوا ليثقوا أبدًا بهذه الوعود الغامضة. وانتشرت في المدارس العسكرية إشاعات مثبطة للعزائم: "إن الذعر يسود هيئة الأركــان، ولا يقوم أحد بأي عمل أبدًا". وكان الوضع فعلاً على هذه الشاكلة. ووجد ضباط القوزاق الذين جاءوا إلى الأركان العامة ليقترحــوا الاستيلاء على الآليات المصفحة التي كانت في مرآب مضمار ميخائيلوفــسكي لتــرويض الخيــل، وجــد هــؤلاء الــضباط بولكوفنيكوف جالسًا على مسند إحدى النوافذ، في حالة وهن شامل. وسألوه هل نحتل مضمار ترويض الخيل؟ "احتلوه، أما أنــا فليس لدي أحد، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا وحدي".

وفي حين كانت تتم تعبئة بطيئة لمدارس الطلاب الضباط، ومدارس ضباط الصف بغرض الدفاع عن قصر الشتاء، كان الوزراء يصلون بالسيارة لعقد جلستهم. ولم يكن الميدان الواقع أمام القصر ولا الشوارع المجاورة قد احتلت من قبل الثوار بعد. وفي زاوية شارع مورسكايا وشارع نييفسكي كان الجنود المسلحون يوقفون السيارات المارة وينزلون منها الركــاب. وكانــت جموع السكان تتساءل ما إذا كان الجنود يطيعون الحكومة أو يطيعون اللجنة العسكرية الثورية. وكان الوزراء، في هذه المرة، يتمتعون بمزايا كراهية الشعب لهم: فلم يكن أحد ليهتم بهم، وربما لم يكن هناك شخص يستطيع التعرف عليهم في الشارع. وقد وصل كل الوزراء إلى الاجتماع باستثناء بروكوبوفيتش الذي اعتقل بالصدفة في إحدى العربات، ثم أفرج عنه في بحــر ذلــك اليوم.

وقد ظل في القصر الخدم القدامى الذين رأوا كثيرًا من الأشياء، والذين لا يدهشون لشيء، ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم بعد من الخوف. كان هؤلاء الخدم على درجة عالية من التهذيب، ويرتدون بزة رسمية زرقاء، ذات ياقة حمراء، وموشاة بــشرائط مذهبة. وكان بقايا العهد البائد هؤلاء يشيعون في المبنى المهيب جوًا من النظام والوقار، وربما كان هؤلاء الخدم، في ذلك اليوم المليء بالمخاطر الوحيدين الذين أوحوا للوزراء بوهم السلطة.

وقررت الحكومة أخيرًا أن تضع أحد أعضائها على رأس الدفاع عن القصر، ولم تتمكن من اتخاذ هذا القرار أخيرًا قبل الساعة الحادية عشرة. وكان الجنرال مانيكوفسكي قد رفض عند الفجر المهمة المشرفة التي عرضها عليه كرنــسكي. وكــان الأميرال فرديرفسكي -وهو عسكري آخر وعضو في الحكومة- في وضع فكري أقل قدرة علــى إدارة العمليــات الحربيــة؛ فاضطر كيشكين -المدني وهو وزير المساعدات العامة- إلى تولي مهمة قيادة الدفاع. ووقع تعيينه فورًا من قبل كل الــوزراء وكأن تعيينه مرسوم يحتاج إلى تصديق مجلس الشيوخ؛ فما زال هؤلاء الناس يجدون الوقت للعب بأوراقهم البيروقراطية. ولــم يفكر أي شخص بأن كيشكين كان ممقوتًا من الجنود، في المؤخرة وفي الجبهة بصفته أحد أعضاء حــزب الكاديــت. واختــار كيشكين بالتشينسكي وروتنبرغ كمعاونين له. وكان بالتشينسكي الرجل الذي يحمل تفويضًا من الــصناعيين، وحــامي تحــالف أرباب العمل؛ وهذا ما يجعله مكروهًا إلى حد كبير من العمال. وكان روتنبرغ المعاون الثاني لكيشكين مــساعدًا لــسافنيكوف المطرود من الحزب الأممي للاشتراكيين - الثوريين، نظرًا لأنه كورنيلوفي. وعزل الوزراء بولكوفنيكوف لارتيــابهم بولائــه للحكومة. وعين الجنرال باجراتوني الذي لم يكن يتميز عنه بشيء في منصبه. ومع أن الاتصالات الهاتفية بين قصر الــشتاء، وهيئة الأركان العامة من جهة، وبين هاتين الهيئتين والمدينة من جهة أخرى قد قطعت، ومع كل هذا بقي قصر الــشتاء علــى

اتصال بأهم المؤسسات بواسطة هاتفه الخاص، وبوزارة الحربية خاصة؛ حيث كان الاتصال المباشر مع القيادة العليا للقوات المسلحة الروسية ينطلق منها. ومن المؤكد أن بعض الأجهزة الهاتفية في المدينة ظلت تعمل لأن عملية قطع الاتصالات تمت على عجل. ومن وجهة النظر العسكرية لم يتح الاتصال الهاتفي للحكومة أية ميزة، ومن الناحية المعنوية عكر هذا الاتصال بالذات الوضع لأنه بدد الأوهام.

ومنذ الصباح طالب المسئولون عن الدفاع الحامية بإرسال النجدات، وانتظروا نجدات الجبهة. وكان هناك في المدينة بعض الأفراد الذين حاولوا المجيء للمساعدة. وقد عرض الدكتور فايت -عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي - الثوري الذي اشترك بهذه العملية عن قرب- عرض بعد عدة سنوات في إحدى القضايا "تحول المناخ الفكري المدهش والسريع في القوات العسكرية". وكان المعسكر الموالي للحكومة يؤكد من أوثق المصادر أن هذا الفوج أو ذاك كان مستعدًا للدفاع عن الحكومة، ولكن كان يكفي الاتصال هاتفيًّا بالثكنات بصورة مكشوفة لكي ترفض كل القطعات العسكرية الواحدة بعد الأخرى، الزحف إلى جانب الحكومة بصورة مكشوفة. وقد قال الشعبي القديم: "إن النتيجة معروفة لديكم؛ فلم تزحف أية قوة لمساندتكم، وقد استولى الثوار على قصر الشتاء". والحقيقة أنه لم يكن هناك أي تحول طارئ سريع في المناخ الفكري للحامية. ولكن ما بقي عالقًا من أوهام لدى الأحزاب الحكومية انهار بالفعل بصورة صاعقة.

وانقسمت السيارات المصفحة التي كانت الحكومة والقيادة العليا تعتمدان عليها بشكل خاص إلى مجموعتين: مجموعة البلاشفة ومجموعة المسالمين. ولم يكن هناك أية مجموعة انحازت إلى جانب الحكومة. وفي الطريق إلى قصر الشتاء، وقعت فصيلة من يونكرز الهندسة على سيارتين مصفحتين، فاستبد بها الأمل والخوف معًا: هل أنتم أصدقاء أم أعداء؟ واتفق إن كانت المصفحتان محايدتين فلم تخرجا إلا بغرض معارضة الصدام بين الخصوم. ومن أصل ست سيارات قتال كانت موجودة في قصر الشتاء بقيت واحدة فقط لحراسة العتاد والأشياء الثمينة في القصر. أما السيارات الأخرى فقد ولت. وكلما كانت الثورة تحرز بعض النجاح، كان عدد السيارات المصفحة البلشفية يزداد، ويذوب جيش المحايدين؛ هذا هو مصير النزعة السلمية عامة في كل معركة حاسمة.

واقترب الظهر، وبقي الميدان الكبير الواقع أمام القصر مقفرًا. ولا تملك الحكومة شخصًا واحدًا لملئه. ولا تحتل قطعات اللجنة هذا الميدان لأنها مشغولة بتنفيذ برنامج معقد جدًا. وكانت القطعات والمفارز العمالية والسيارات المصفحة تستمر في التجمع ضمن نطاق خطة عامة واسعة. وأصبح محيط القصر يشبه مكانًا موبوءًا بمرض سار، يحاصر من جميع الجهات، أبعد ما يمكن من بؤرة العدوى ذاتها.

وكانت باحة قصر الشتاء المطلة على الميدان مزدحمة بمتاريس من الحطب كباحة سمولني. وترتسم من اليسار واليمين المناظر الجانبية السوداء للمدافع ٧٥ مم. وقد شبكت البنادق في بعض الأماكن. وتجمع الحرس القليل للقصر في المبنى ذاته. وانتشر في الباحة وفي الدور الأرضي أفراد مدرستي طلاب ضباط أورانينبوم وبيترهوف، اللتين لم تكونا كاملتين، وبطارية من مدرسة مدفعية كونستانتين، مع ستة مدافع.

ووصلت بعد الظهر إلى قصر الشتاء كتيبة يونكرز الهندسة التي خسرت نصف سرية وهي في طريقها إلى القصر. وكان مشهد مثل هذا الوضع غير قادر على رفع الروح القتالية لليونكرز، هذه الروح التي كانت قاصرة منذ البداية حسب شهادة ستانكيفيتش. ولوحظ نقص التموين في القصر: فلم يهتم أحد بهذه المسألة في الوقت الملائم. وقد أوقفت دوريات اللجنة العسكرية الثورية سيارة محملة بالخبز كانت متجهة إلى المدافعين. وكان جزء من اليونكرز يقوم بالحراسة، على حين كان الآخرون يبددون وقتهم في العطالة. وكان المدافعون يعيشون في جو يخيم عليه الشك، والجوع.... ولا يستشعرون وجود أية

قيادة لهم... وظهرت في الميدان أمام القصر من ناحية الرصيف مجموعات صغيرة من المـارة، يـدل مظهرهـا علـى روح مسالمة، كانت تنتزع من الحراس بنادقهم تحت التهديد بمسدس، وهي سائرة في طريقها بصورة عادية.

وكشف "المحرضون" عن أنفسهم وسط صفوف اليونكرز. فهل نفذوا إلى صفوفهم من الخارج؟ كلا، إنهم ليسوا بـالطبع إلا مهيجين للمشاعر من الداخل. وقد نجحوا في إحداث خميرة تمرد وسط صفوف طلاب مدرسـتي أورانينبـوم وبيترهـوف، ونظمت لجان هذه المدارس اجتماعًا تم في القاعة البيضاء وطالبت بممثل عن الحكومة للحصول على إيضاحات. ووصل كـل الوزراء، وكونافالوف على رأسهم. واستغرقت المناقشات المملة ساعة كاملة. وقد قوطع كونوفالوف عدة مرات واضطر فـي النهاية إلى السكوت. وتكلم ماسلوف وزير الزراعة بصفته من قدامى الثوريين. وأوضح كيشكين لليونكرز بـأن الحكومـة قـد قررت الصمود حتى آخر جندي. وحاول أحد الطلاب - الضباط، حسب شهادة ستانكيفيتش التعبير عن التصميم علـى المـوت في سبيل الحكومة ولكن "البرودة الواضحة لرفاقه حدَّت من اندفاعه وحماسته وأحدثت الخطب المملة للوزراء الآخرين بعد ذلك سخطًا حقيقيًا. فقاطعهم اليونكرز، وأطلقوا الصرخات، ويبدوا أنهم صفروا. وكان أصحاب الدم الأزرق يفسرون سلوك أكثريـة اليونكرز بسبب أصولهم الاجتماعية المنحطة؛ "كل هذا ناجم من المحراث، إنهم أميون تقريبًا، إنهـم بهـائم جاهلـة... إنهـم قرويون".

بَيْد أن الاجتماع انتهى في القصر المحاصر بلهجة المهادنة والمصالحة، ووافق اليونكرز على الدفاع عن القصر عنـدما وعدوا بقيادة فعالة وبمعلومات صحيحة عن الأحداث. وكان مدير مدرسة الهندسة الذي عين قائدًا للدفاع يرسم خطوطًا بقلم من الرصاص على مخطط القصر، ويسجل أسماء المفارز المعينة. ووزعت القوات الموجودة على قطاعات. ووضع القسم الأكبـر من اليونكرز في الدور الأرضي. وكانت مهمتهم إطلاق النار على الميدان من النوافذ. ولكن منعوا من البدء بـإطلاق النـار. واقتيدت كتيبة مدرسة الهندسة إلى باحة القصر لحماية المدفعية وشكلت مفارز لأعمال الحواجز والمتـاريس. وشـكلت أيـضًا مفرزة للاتصال تضم أربعة رجال من كل مجموعة. وكلفت بطارية المدفعية بحماية الباب الرئيسي ومنع الانقـضاض عليـه. وأقيمت في الباحة وأمام هذا الباب تحصينات مصنوعة من جذعات الحطب للدفاع. وتوطد ما يشبه النظام. واستشعرت مخـافر الحرس الثقة.

إن الحرب الأهلية في مراحلها الأولى، وإلى أن يتم تشكيل الجيوش النظامية وإلى أن تتمرس هذه الجيـوش وتتـضرس على القتال حرب معنويات ومضاء وعزيمة. وعندما ظهر تقدم طفيف في نشاط اليونكرز الذين كسحوا الميدان عنـدما فتحـوا النار من وراء متاريسهم، بالغ معسكر المهاجمين بتقدير قوة الدفاع عن قصر الشتاء وكثرة وسائله إلـى حـد كبيـر. وقـرر الزعماء، رغم استياء الحرس الأحمر والجنود، تأجيل الانقضاض إلى أن يتم حشد القوات الاحتياطية. وكان الزعماء ينتظـرون خاصة وصول بحارة كرونشتادت.

وأتاح تأخر الهجوم عدة ساعات للمحاصرين وصول عدة نجدت صغيرة لهم. فعندما وعد كرنسكي وفدًا مـن القـوزاق بدعم قطعاتهم بالمشاة. اجتمع مجلس سوفييت قطعات القوزاق وعقد جلسة للجان الأفواج، وجلسة للمجالس العامـة للأفـواج. وكان القرار المتخذ هو أن يذهب إلى قصر الشتاء لسحق البلاشفة سريتان من القوزاق، ومفرزة رشاشات مـن فـوج الأورال، الذي وصل من الجبهة في يوليو (تموز)، على أن لا تزحف بقية أفواج القوزاق قبل تحقيق الوعود المعطاة بصورة فعليـة، أي بعد وصول نجدت المشاة. ولكن الأمور لم تسر على ما يرام؛ إذ وقعت الاحتكاكات والاصطدامات حتى من أجل قرار إرسـال السريتين. وكان القوزاق الشبان يعارضون دعم الحكومة. وحبس "القدامى" من جنود القوزاق الجنود الشبان في الأسطبل لكـيلا يمنعهم هؤلاء الشبان من ارتداء بزة الميدان. ووصل أبناء الأورال الملتحون إلى القصر عند الغسق عندما انقطع أمل الجميـع

بوصولهم. واستقبلوا كمنقذين. ولكنهم كانوا يبدون ضجرين مستوحشين. فلم يكونوا معتادين على القتال في القصور، كما أنهـم لا يعرفون بوضوح حقيقة الوضع.

وبعد مرور بعض الوقت وصل أربعون فارسًا من فرسان القديس جورج بصورة غير متوقعة بقيادة قائد سرية مـشوه ذي ساق خشبية. وكان هذا القائد يمثل المشوهين الوطنيين كآخر احتياط للديمقراطية... ولكن كان هؤلاء الفرسان على كل حال يستشعرون تجدد عزيمتهم. ثم انضمت إليهم أيضًا سرية الصدام التابعة للكتيبة النسائية. وما كان مشجعًا بصورة خاصة هو أن النجدات مرت دون أن تضطر للقتال. فقد كانت خطوط المحاصرين لا تستطيع أو لا تتجرأ على سد طريق قصر الشتاء عليهم. وهكذا أصبحت المسألة واضحة بعد مرور النجدات؛ فقد أخذ الضباط يقولون لبعضهم لكي يتشجعوا ويشجعوا اليونكرز: الخصم ضعيف "وشكرًا لله، لقد بدأ الأمر بالتحسن" وعُين القادمون الجدد في مراكز قتال لتبديل القوات المتعبة. ومع ذلك، كان جنـود الأورال ينظرون شذرًا للنساء المزودات بالبنادق ويتساءلون: ولكن أين قطعات المشاة الحقيقية؟

كانت قوات الحصار تضيع الوقت بالطبع. فقد تأخر رجال كرونشتادت حقًا، إن التأخر لم يكن خطأ منهم وإنمـا وقـع الخطأ لأنه لم يتم استدعاؤهم في الوقت الملائم. وبعد اجتماعات ليلة حامية، ركبوا سفنهم عند الفجـر، وسـارت **سـفينة زرع الألغام آمور وسفينة النقل ياستريب (البازر)** إلى بتروغراد مباشرة. وكان من واجب **البارجة القديمة زاريا سفوبودي (فجـر الحرية)** التي قامت بإنزال قرب أورانينبوم، لتنزع سلاح اليونكرز، كان من واجبها أن تكمن عند مدخل قناة مورسـكويا لكـي تسد بنيرانها عند الحاجة سكة حديد البلطيق. وانطلق ٥٠٠٠ بحار وجندي من جزيرة كوتلين لكي يلقوا مراسيهم على مقربة من الثورة الاجتماعية. وكان الصمت الكئيب يخيم على مربع الضباط: إنهم يقودون هؤلاء الناس للقتال من أجل قضية يحتقرونهـا. وصرح لهم البلشفي فليروفسكي مفوض المفرزة قائلاً: "نحن لا نعتمد على تعاطفكم، ولكننا نطالبكم بأن تبقوا في مراكـزكم... وسنوفر عليكم المرور باختبارات لا فائدة منها". وكان الرد كلمة مختصرة قالها بحار: "مفهوم!" واتخذ كل منهم موقعه، وصعد القبطان إلى سطح المركب.

وفي مصب النييفا، تعالت هتافات الفرح؛ إذ كان البحارة يستقبلون رفاقهم. وعلى **الطراد أورور** الذي يتحرك وسط النهر سمع صوت الجوقة. كان أنطونوف يلقي كلمة ترحيب بالذين وصلوا: "ها هو قصر الشتاء... ينبغي الاستيلاء عليه". وتطـوع أكثر الرجال تصميمًا وشجاعة من تلقاء ذاتهم للعمل في مفرزة كرونشتادت. وسيزحف هؤلاء البحارة ذوي الأرديـة الـسوداء ببنادقهم وجعب خراطيشهم، دون أن ينتابهم الوهن. وانتهى النزول بسرعة إلى الشارع المسمى "حرس الفرسان". ولم يبق على المركب إلا مفرزة احتياطية للقتال.

إن اللجنة العسكرية الثورية تملك الآن قوات أكثر من حد الكفاية. فهناك في شارع نييفسكي حلقات متينة مـن الجنـد. وعلى جسر قناة إيكاتيرينينسكي وجسر المويكا سيارات مصفحة ومدافع مضادة الطائرات مصوبة إلى قـصر الـشتاء. ومـن العدوة الأخرى للمويكا أربض العمال الرشاشات خلف المتاريس. وسهرت سيارة مصفحة على المورسكايا. واحتل المهـاجمون نهر النييفا وكل معابره. وتلقى تشودنوفسكي والملازم داشكيفيتش الأمر بإرسال أفواج الحرس، وحلقات من الجند إلـى سـاحة مارس. وكانت مهمة بلاغونرافوف تنص على التحرك من القلعة عبر الجسر للاتصال بحلقة فوج بافلوفسكي. وعلـى رجـال كرونشتادت أن يتصلوا بالقلعة وبأول ركب للأسطول. وبعد رمي المدفعية، يبدأ الانقضاض على القصر.

وفي غضون ذلك وصل من أسطول البلطيق المقاتل خمس سفن حربية: طراد، وقاذفا طوربيد، وسـفينتان صـغيرتان. وكتب فليروفسكي يقول: "أصبحنا واثقين جدًا من الانتصار بقوانا الخاصة، فقد أعطت نجدة الأسطول المقاتـل للجميـع حميـة

عظيمة للجند" وكان بوسع الأميرال فرديرفسكي أن ينظر بعين الاعتبار من أعلى نوافذ قاعة الأعمدة إلى الأسطول الصغير المهيب للمشاغبين الذي لا يسيطر على القصر وجواره فحسب، بل يسيطر عل كل مشارف بتروغراد.

وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر استدعى كورنوفالوف هاتفيًّا إلى القصر الرجال السياسيين المقربين من الحكومة؛ فقد كان الوزراء المحاصرون بحاجة على الأقل لدعم معنوي. ولم يأت من بين كل الشخصيات المدعوة سوى نابوكوف. وفضل الآخرون التعبير عن تعاطفهم وتأييدهم هاتفيًّا. وكان الوزير تربتياكوف يشكو من كرنسكي ومن المصير الذي ينتظرهم جميعًا قائلاً: لقد فر رئيس الحكومة، وترك زملاءه بدون أي دفاع. ولكن ربما سنَتلقى النجدات؟ ربما. ومع ذلك لماذا لم تصل النجدات حتى الآن؟ وعبر نابوكوف عن عزائه، واختلس نظرة إلى ساعته وسارع إلى توديع زملائه. وقد خرج في اللحظة الملائمة. وبعد الساعة السادسة كان القصر قد طوق بإحكام بقطعات اللجنة العسكرية الثورية: ولم يعد هناك أي مسلك للنجدات وللمارة أيضًا.

وكان سوار الحصار الأهليلجي يتجمع ويضيق من جهة الشارع المسمى "حرس الفرسان"، ورصيف الأميرالية وشارع مورسكايا، وشارع نييفسكي، وساحة مارس، وشارع ميليونايا، ورصيف القصر. وكانت خطوط مهيبة تستطيل بدءًا من السياج الحديدي لحديقة قصر الشتاء، التي سقطت بين أيدي قوات الحصار، لتشمل قوس النصر، بين ميدان القصر وشارع مورسكايا، والقنوات الصغيرة المجاورة، وقصر الأيرميتاج، وزوايا مبنى الأميرالية، وشارع نييفسكي المجاورة للقصر. ومن الناحية الأخرى للنهر كانت قلعة بطرس وبولص تهدد قوات الحكومة بشكلها المتجهم. وفي النييفا كان الطراد أورور يسدد مدافعه من عيار ستة إنشات على قصر الشتاء. وكانت زوارق الطوربيد تقوم بالدورية، وهي تسير مع مجرى النهر أو تعاكسه. وظهرت الانتفاضة في تلك الأيام كمناورة عسكرية على نطاق واسع.

وظهرت في ميدان القصر الذي أخلاه اليونكرز قبل ثلاث ساعات الآليات المصفحة التي احتلت مداخل القصر ومخارجه. وكانت الأسماء الوطنية المسجلة على السيارات سابقًا ما زالت مقروءة على الدروع الخارجية، مع أن تسميات جديدة أخرى كتبت بالأحمر فوقها على عجل. واستشعر المهاجمون مزيدًا من الثقة بالنفس في الميدان تحت حماية هذه الوحوش المعدنية. واقتربت إحدى السيارات المصفحة من باب القصر الرئيسي، وابتعدت عنه دون أي عائق بعد أن نزعت سلاح اليونكرز.

ومع أن الحصار التام تم أخيرًا بصورة كاملة، فإن قوات الدفاع عن القصر بقيت متصلة بالعالم الخارجي بواسطة الخطوط الهاتفية. حقًا، إن قوة من فوج كيكهولمسكي احتلت أبنية وزارة الحربية التي تصل قصر الشتاء بمقر هيئة الأركان العامة منذ الساعة الخامسة. ولكن حتى بعد هذا بقي ضابط على ما يبدو عدة ساعات أمام جهاز هاتفي من نوع هيوغز في علية في أعلى طابق في مبنى الوزارة لم يخطر ببال المنتصرين أن يلقوا نظرة عليها. ومع هذا لم يعط الاتصال كما في السابق أية نتيجة. وأصبحت ردود الجبهة الشمالية تتسم بالمراوغة. ولم تصل النجدات. ولم تكشف كتيبة الدراجات الغامضة عن وجودها. وبدا أن كرنسكي ذاته قد اختفى. واكتفى أصدقاؤه في المدينة بتعبيرات ودية مختصرة جدًا.

كان الوزراء يقتلون وقتهم بالانتظار. ولم يكن لديهم شيء يقولونه لبعضهم، كما لا يحدوهم أي أمل؛ كانوا ينفرون من بعضهم وكان كل واحد منهم يصطرع مع نفسه. وبقي البعض جالسًا في ذهول، في حين كان الآخرون يجيئون ويروحون بخطوات آلية. وألقى الميالون إلى التعميم نظرة إلى الوراء، إلى الماضي، يبحثون عن المسؤولين. ولم يكن من الصعب إيجادهم: **الديمقراطية!** إنها هي التي أرسلتهم إلى الحكومة، وفرضت عليهم العبء الضخم وتركتهم بدون دعم عندما لاح الخطر. وفي هذه المرة، كان الكاديت متضامنين مع الاشتراكيين، نعم، كانت الديمقراطية هي المسئولة. حقًا، إن المجموعتين قد

أدارتا ظهرهما عند تشكيل الائتلاف للمؤتمر الديموقراطي الذي كان قريبًا جدًا منهما. لأن الاستقلال أخيـرًا إزاء الديمقراطيـة يشكل الفكرة الرئيسية للائتلاف. ولكن ما أهمية ذلك؟ ما جدوى وجود الديمقراطية، إذا لم يكن هذا الوجود بغرض إنقاذ حكومة برجوازية وقعت في ضيق؟! وكتب ماسلوف وزير الزراعة، وهو اشتراكي - ثوري يميني، مذكرة أوصى بأن لا تفتح إلا بعد موته، آخذًا على نفسه عهدًا بألا يموت إلا بعد أن ينزل أقسى اللعنات بالديمقراطية. وقد نقل زمـلاؤه هاتفيًّا هـذه الوصـية الجنائزية إلى مجلس الدوما فورًا. حقًا، إن موته بقي في حيز المشروع الذي لم ينفذ، ولكن اللعنات حلت على الديمقراطية.

وكان هناك في الطابق العلوي لقصر الشتاء، على مقربة من غرفة الضباط مطعم قام خدم القصر بإعداد "عشاء فـاخر وخمور" فيه لهؤلاء السادة. وهكذا كان من الممكن نسيان خيبة الأمل في لحظة من اللحظات. وكان الضباط في هـذا الوقـت يقومون بحسابات الأقدمية، ويهتمون بالمقارنات الغيورة، ويشتمون السلطة الجديدة بسبب بطء تـرفيعهم. وكـانوا يهـاجمون كرنسكي بصورة خاصة؛ فقد أقسم كرنسكي بالأمس في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي بأن يموت في موقعه، ولكنـه تنكـر اليوم بلباس ممرضة ولاذ بالفرار. وحاول بعض الضباط البرهان لأعضاء الحكومة على سخف المقاومة في المستقبل؛ فاتهمهم بالتشينسكي العنيف بأنهم بلاشفة، حتى أنه حاول اعتقالهم.

وكان اليونكرز راغبين بمعرفة ما سيحدث، ويطالبون الحكومة بردود كانت هذه الحكومة عاجزة عن إعطائها. وخـلال مؤتمر جديد تم بين اليونكرز والوزراء وصل كيشكين من هيئة الأركان الرئيسية يحمل إنذارًا استلمه من قلعة بطرس وبولس. وكانت الحامية الثورية للقلعة قد أرسلته بواسطة إحدى السيارات وسلمته إلى الجنرال بوراديلوف ناظر الموقع. ويقول الإنـذار الذي وقعه أنطونوف ما يلي: "استسلموا وانزعوا سلاح حامية قصر الشتاء. فإذا رفضتم فإن القلعة والسفن الحربية ستفتح النار. لديكم مهلة عشرين دقيقة للتفكير واتخاذ القرار". وبدت هذه المهلة قصيرة جدًا. وطلب بوراديلوف مهلة عشرة دقـائق أخـرى. وكان العسكريان العضوان في الحكومة مانيكوفسكي وفرديرفسكي يأخذان المسألة على أنها في منتهى البسـاطة؛ نظـرًا لأنـه ليست هناك أية إمكانية للقتال، فمن الواجب أن نفكر بالاستسلام، أي بقبول الإنذار. ولكن الوزراء المـدنيين لـم يتزعزعـوا. وأخيرًا تقرر عدم الرد على الإنذار، بل اللجوء إلى مجلس الدوما البلدي، بصفته جهاز الحكم الشرعي الوحيد فـي العاصـمة. وكان النداء الموجه إلى الدوما آخر محاولة لإيقاظ ضمير الديمقراطية النائم.

وقدم بوراديلوف الذي قدر ضرورة الامتناع عن أية مقاومة تقريرًا طالب فيه بإحالته على البطالة في الخدمة: "لأنـه لا يثق بسلامة الطريق الذي اختارته الحكومة المؤقتة". وقد وجد لشكوك الجنرال حل قبل أن تقبل الحكومة استقالته. فقد تقـدمت مفرزة من الحرس الأحمر، والبحارة، والجنود بقيادة ملازم من فوج بافلوفسكي واحتلت بعد نصف ساعة من تقديمه الاسـتقالة هيئة الأركان الرئيسية دون أن تصادف أية مقاومة، واعتقلت الجنرال قائد الموقع الذي كانت معنوياته منهارة إلى حـد بعيـد. وكان من الممكن تنفيذ الاستيلاء على هيئة الأركان منذ مدة طويلة. فلم يكن هناك دفاع داخلي عن مبناها، ولكـن المهـاجمين كانوا يخشون أن يخرج اليونكرز من القصر ويقطعوا عليهم الطريق وكل طرق الاتصال، إلى أن ظهرت الآليـات المـصفحة فبددت مخاوفهم.

واستشعر المدافعون عن قصر الشتاء بعد سقوط مبنى الأركان أنه أصبح متروكًا للقدر، وقد تخلَّى الجميع عنه. وانتقـل الوزراء من قاعة الأعمدة التي تطل نوافذها على نهر النييفا والتي كان منظرها يشكل هـدفًا ممتـازًا للطـراد أورور، انتقـل الوزراء إلى غرفة من الغرف العديدة في القصر تطل نوافذها على الباحة. وأطفئت الأنوار. ولم يكن على الطاولة إلا مـصباح كهربائي واحد ما زال مضاءً، ومحميًّا أيضًا من جهة النوافذ بصحيفة قديمة.

وسأل الوزراء زميلهم في البحرية. ماذا يهدد القصر إذا فتح الطراد أورور النار عليه؟

فرد الأميرال بحيوية لا تخلو من الشعور بالاعتزاز بمدفعية البحرية قائلاً: سيتحول إلى أنقاض. وكان فرديرفسكي يفضل الاستسلام، وكان مستعدًا لإرهاب الوزراء المدنيين الذين كانوا يتبجحون بدون أي مبرر، ولكن الطراد أورور لم يطلق النار، وسكتت القلعة أيضًا، ربما لم يصمم البلاشفة على تنفيذ تهديدهم؟

ووجد الجنرال باجراتوني -الذي عين بدلاً عن بولكوفنيكوف الذي لم يكن حازمًا بصورة كافية- أن الفرصة قد أصبحت ملائمة ليقدم استقالته ويتخلى عن التزامات قيادة المنطقة العسكرية. وعزل الجنرال فورًا بأمر من كيشكين، وطلب إليه مغادرة القصر فورًا. وما أن خرج القائد السابق من القصر حتى اعتقله البحارة وأرسلوه مخفورًا إلى ثكنات ركب أسطول البلطيق. وكان من الممكن أن تدور الدائرة عليه لولا أن بودفويسكي الذي كان يفتش القطاعات قبل الهجوم الأخير أخذ هذا الجنرال التعيس تحت حمايته.

ولاحظ الكثيرون في الشوارع المجاورة والأرصفة أن القصر، الذي كان مضاءً منذ فترة قصيرة بمئات من المصابيح الكهربائية قد غرق فجأة وسط الظلام الكثيف. وكان هناك بين المراقبين أيضًا أصدقاء للحكومة مثل: ريدميستر أحد رفاق كرنسكي في الكفاح. وقد لاحظ ريدميستر ما يلي: "يشكل الظلام الذي غرق فيه قصر الشتاء تهديدًا يكتنفه الغموض". ولم يبادر الأصدقاء بعمل أي شيء لمعرفة سر هذا الغموض. وينبغي أن نعترف أيضًا بأن إمكاناتهم لهذا الغرض لم تكن كبيرة.

وكان اليونكرز الذين احتموا وراء أكوام من جذعات الحطب يراقبون بانتباه حاد التشكيلات التي تتحرك في الميدان، ويستقبلون كل حركة يقوم بها العدو بطلقات من البنادق والرشاشات. وكان الثوار يردون عليهم رصاصة برصاصة. وحمي وطيس التراشق بالنيران في الليل. ووقع أول القتلى والجرحى. ومع ذلك كان عدد الضحايا بالآحاد. وتكيف المهاجمون مع الأمكنة في الميدان، وعلى الرصيف، وفي شارع ميليونايا، واختفوا وراء نتوءات الأبنية، واحتموا في الفجوات، أو التصقوا بالجدران. وكان الجنود وأفراد الحرس الأحمر التابعين للقوات الاحتياطية يتدفأون حول أكوام من الحطب ارتفع الدخان منها عند هبوط الليل، وهم يهاجمون بعنف بطء الزعماء في الاستيلاء على القصر.

وكان اليونكرز يحتلون في القصر مراكز في الأروقة، وعلى السلالم، وأمام المداخل، وفي الباحة. وكانت المراكز الخارجية ملتصقة بالسور وبالجدران. وكان بوسع المبنى أن يستوعب الألوف من الجنود، بَيْد أنه لم يكن يحتوي إلا على بضع مئات. وبدت الأبنية الواقعة إلى ما وراء منطقة الدفاع ميتة. واختفى معظم خدم القصر أو فروا. والتجأ عدد وافر من الضباط إلى المقصف حيث أجبروا الخدم الذين لم يتح لهم الوقت للاختفاء كي يحملوا لهم مجموعة جديدة من زجاجات المشروبات الروحية. ولم يبق إدمان الضباط للخمور في القصر المحتضر سرًا على اليونكرز، والقوزاق، والعجزة من مشوهي الحرب، ونساء كتيبة الصدام؛ فقد كانت نهاية قصر الشتاء تعد لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضًا.

وجاء أحد الضباط لينتقل فجأة إلى قيادة الدفاع عن القصر بأن المدافع قد أعدت للرحيل وأن اليونكرز سيعودون من حيث أتوا، تنفيذًا لأمر تلقوه من مدير مدرسة كونستانتين. كانت طعنة خيانة في الظهر! وحاول القائد الرد قائلاً: "ليس هناك أي شخص، سواي أنا، يستطيع أن يعطي الأوامر". وقد فهم اليونكرز ذلك جيدًا، بَيْد أنهم كانوا يفضلون إطاعة قائد المدرسة، هذا القائد الذي كان يعمل من ناحيته تحت ضغط مفوض اللجنة العسكرية الثورية. وغادر معظم المدفعيين مع أربعة مدافع من أصل ستة مدافع القصر. وعندما أوقفتهم دوريات الجنود في شارع نييفسكي حاولوا المقاومة، ولكن مجموعة حراسة من فوج بافلوفسكي هرعت إلى هناك ومعها سيارة مصفحة، فنزعت سلاحهم وأرسلتهم مع مدفعين إلى ثكناتهم. وربض مدفعا الميدان الآخران في شارع نيفسكي وعلى جسر المويكا، وفوهتاهما مصوبتان إلى قصر الشتاء.

وانتظر الـ٢٠٠ أورالي وصول جماعتهم عبثًا. فحاول سافنيكوف المرتبط ارتباطًا وثيقًا بمجلس سوفييت قطعات القوزاق، وكان هذا المجلس قد أدخله في اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، حاول بمساعدة الجنرال الكسييف تحريك القوزاق، ولكن كان تأثير الزعماء الكبار للسوفييت ضعيفًا جدًا، حسب ملاحظة صحيحة لميليوكوف. فقد لاحظ ميليوكوف قائلاً: "لئن كان تأثير زعماء القوزاق على قطعاتهم يشوبه الضعف، إلا أن هيئة الأركان كانت لا تتمتع أبدًا بحرية التصرف بقطعات الحامية". وصرحت أفواج القوزاق أخيرًا بعد أن ناقشت المسألة من كل جوانبها بأنها لن تزحف بدون مشاة، وعرضت اللجنة العسكرية الثورية خدماتها لحماية الممتلكات العامة. وفي الوقت ذاته، قرر فوج الأورال إرسال مندوبين إلى قصر الشتاء لاستدعاء السريتين الموجودتين هناك وإعادتهما إلى الثكنة. وكان هذا الإجراء يتجاوب بصورة أفضل مع الاستعدادات الفكرية التي تكونت بصورة نهائية لدى "قدامى" جنود الأورال. وكانت العناصر الأجنبية عنهم تحدق بهم من كل جانب: اليونكرز الذين يوجد بينهم عدد من اليهود، والضباط المشوهون، ونساء كتيبة الصدام. فجمع القوزاق حقائبهم، وهم متجهمون مقطبو الحواجب. ولم يكن للتأنيب والنصح أي أثر فيهم. فمن بقي للدفاع عن كرنسكي؟ "اليهود والنساء... ولكن الشعب الروسي بالذات بقي مع لينين". وتبين أن القوزاق كانوا يجرون مفاوضات سرية مع قوات الحصار، وقد فتحت لهم هذه القوات ممرًا حرًا من منفذ كان الدفاع يجهله حتى تلك اللحظة. وفي الساعة التاسعة مساء غادر الأوراليون قصر الشتاء. ووافقوا فقط على التخلي عن رشاشاتهم للمدافعين عن قضية خاسرة.

وكان البلاشفة قد وجدوا من الطريق ذاته ومن جهة الميليونايا معبرًا إلى القصر لكي ينقلوا عدوى الثورة ضد الحكومة إلى خصومهم. وأخذ يزداد ظهور شخصية غريبة في الممرات، جنبًا إلى جنب مع اليونكرز. وكانت الأحاديث بينهم تنصب على عدم جدوى المقاومة، وعلى أن الثوار قد استولوا على المدينة وعلى مخافر الحراسة، وأنه لا جدوى من وصول أية نجدة إلى القصر في المستقبل، وأن "العطالة هي التي تدفع عجلة الدفاع بصورة مصطنعة". فأخذ الطلاب الضباط يسألون وما العمل إذن؟ ورفضت الحكومة إعطاء أوامر حاسمة، وأصر الوزراء على قرارهم السابق. أما الآخرون فليتدبروا أمرهم. وكان هذا يعني أن كل فرد حر بالخروج من القصر إذا رغب بذلك. ولم يبق في سلوك الحكومة فكر ولا إرادة. وانتظر الوزراء مصيرهم بصورة سلبية. وقد روى ماليانتوفيتش فيما بعد قائلاً: "كان يطوف في المصيدة الكبرى رجال، ويتجمعون أحيانًا معًا أو بمجموعات، وتتم بينهم الأحاديث القصيرة، رجال محكوم عليهم، ومعزولون، وقد تخلى الجميع عنهم... وكان الفراغ يحيط بنا، وكان الفراغ في داخلنا. وصدر من هذا الفراغ قرار أرعن يقضي بالاكتفاء بعدم الاكتراث.

وقد اتفق أنطونوف - اوفسينكوف مع بلاغونرافوف على ما يلي: عندما يتم تطويق القصر، يرفع مصباح أحمر على سارية القلعة. وعندما تصدر هذه الإشارة يطلق الطراد أورور طلقة مدفع خلبية للتخويف. وإذا ثابر المحاصرون على عنادهم، تبدأ القلعة بالرمي على القصر بقذف المدافع الخفيفة. وإذا لم يستسلم قصر الشتاء رغم هذا، يفتح الطراد أورور نارًا حقيقية من مدافع عيار ستة إنشات. وقد وضع هذا التصعيد بهدف تقليل الضحايا والأضرار إذا لم يكن من الممكن تجنبها. ولكن الحل المعقد لمسألة بسيطة هدد بإعطاء نتائج عكسية. ولا بُدَّ من أن تظهر صعوبات التنفيذ حتمًا. وقد بدأت هذه الصعوبات بالظهور منذ أن بدئ بوضع المصباح الأحمر؛ فلم يكن تحت يد الثوار مصباح واحد. وبحثوا، وبددوا الوقت، وأخيرًا وجدوا مصباحًا، بَيْد أنه لم يكن من السهل تثبيته على السارية لكي يكون مرئيًّا من كل الجهات وتعددت المحاولات التي كانت نتائجها مشكوكًا فيها، وضاع وقت ثمين.

بَيْد أن الصعوبات الهائلة ظهرت مع ذلك عندما بدأت المدفعية بالرمي. وكان من الممكن البدء برمي المدفعية اعتبارًا من الظهر حسب تقرير بلاغونرافوف عند إعطاء أول إشارة. ولكن ما حدث كان مغايرًا. ونظرًا لعدم وجود مدفعية دائمة في القلعة، باستثناء مدفع كان يلقم من فوهته بواسطة حشوة من البارود وكان يعلن ساعة الظهر، فإنه كان من الضروري وضع

مدافع الميدان على الأسوار. وقد تم هذا الجزء من البرنامج عند الظهر، ولكن لم يتم هذا من قبل رجال المدفعية. فمن المعروف مسبقًا أن سرية المدفعية التي لم تكن موالية للبلاشفة في يوليو (تموز) كانت لا تضم عناصر جد موثوقة. وقد قامت هذه السرية بالأمس في منتهى الطاعة بحراسة جسر بأمر من هيئة الأركان. وكنا لا نتوقع منها طعنة في الظهر، ولكنها لا تتأهب للدخول في أتون المعركة من أجل السوفييتات. وعندما حانت ساعة العمل قدم أحد الملازمين التقرير التالي: إن المدافع فاسدة، وتفتقر أجهزة ارتدادها إلى الزيت، ومن المستحيل إطلاق النار منها. ومن المحتمل جدًا أن تكون المدافع في حالة سيئة جدًا، ولكن جوهر المسألة لا يكمن هنا، بل في أن المدفعيين يتهربون من المسئولية فقط. ويخدعون بمنتهى السهولة المفوض الذي لا يتمتع بأية تجربة. وهرع أنطونوف بسرعة في زورق سريع، وكان ثائرًا فسأل: من الذي يعمل على إحباط الخطة؟ فروى له بلاغونرافوف قصة المصباح والزيت الناقص وقصة تقرير الملازم. وذهب الاثنان للتفتيش على المدافع. كان الليل حالك الظلام، وكانت باحة القصر بعد الأمطار الغزيرة الأخيرة قد تحولت إلى برك ومستنقعات. وكان يدوي من الناحية الأخرى للنهر تبادل إطلاق نيران عنيف وصوت الرشاشات. وضل بلاغونرافوف الطريق في الليل. وسار الاثنان في المستنقعات المليئة بالوحل، وهم يحترقون من طول الانتظار، وتعثروا وغطسا بالوحل، وضل أنطونوف طريقه، وهو يلحق بالمفوض في الباحة التي يخيم عليها ظلام الليل. وروى بلاغونرافوف ما يلي: "وأمام مصباح كان يتلألأ بصورة ضعيفة توقف أنطونوف فجأة وألقى عليّ من فوق نظارتيه، نظرة فاحصة مباشرة، وقد قرأت في عينيه قلقًا حاول إخفاءه". ففي لحظة من اللحظات شك أنطونوف بوجود خيانة مع أنه لم يكن هناك سوى الطيش.

ووجدا أخيرًا موقع المدافع. وعاند المدفعيون: الصدأ... أجهزة الارتداد التي تعمل بالزيت... فأمر أنطونوف بإحضار رجال مدفعية البحرية، وإعطاء الإشارة بالمدفع القديم الذي يعلن عادة ساعة الظهر. ولكن المدفعيين داروا مدة طويلة وبصورة مشبوهة حول المدفع الذي يعلن ساعة الظهر، وقد أحسوا بالطبع أن القيادة عندما لا تكون بعيدة، وعلى مقربة من الهاتف بل قريبة منهم لا تقرر بحزم استخدام المدفعية الثقيلة. وتفترض خطة القصف الفكرة الواحدة ذاتها: ربما نستطيع الاستغناء عن المدفعية؟

واندفع واحد وسط ظلمات القصر، واقترب وهو يخوض في برك الوحل ثم تعثر، وسقط وأطلق إحدى الشتائم ولكن بدون احتداد، وصاح بفرح وبصوت يختنق: "استسلم القصر، ورجالنا بداخله!" وبدأ العناق الحماسي بين الجنود. كم كان رائعًا أن يحدث هذا الارتباك! "إننا... كنا نفكر تفكيرًا سليمًا..." ونسي الجنود الزيت الناقص فورًا. ولكن لماذا لا يتوقف إطلاق النيران من الناحية الأخرى من النهر؟ ربما ما زالت هناك مجموعات من اليونكرز تعاند بعد الاستسلام؟ وربما كان هناك خلاف؟ كان سوء التفاهم هذا خبرًا سارًا، لم يكن قصر الشتاء هو الذي تم احتلاله وإنما مبنى الأركان الرئيسي. واستمر حصار القصر.

ودخل تشودنوفسكي الجبار القصر للقيام بمفاوضات بعد اتفاق سري تم مع مجموعة من طلاب - ضباط مدرسة أورانيينبوم: إن خصم الانتفاضة هذا لا يبدد أبدًا أية فرصة لإلقاء نفسه في النار. وأمر بالتشينسكي باعتقال هذا الوقح الجريء، ولكنه اضطر إلى إطلاق سراحه تحت ضغط مدرسة أورانيينبوم، كما اضطر إلى إطلاق سراح جزء من اليونكرز. وجر اليونكرز معهم عددًا من فرسان القديس جورج، وزرع ظهور اليونكرز غير المتوقع في الميدان الاضطراب في خطوط قوات الحصار. وبالمقابل لم تتوقف صيحات الفرح عندما علم أفراد هذه القوات بأن أمامهم رجالاً قد استسلموا. ومع كل هذا كان المستسلمون لا يشكون سوى أقلية صغيرة. واستمر الآخرون في المقاومة خلف متاريسهم. وأصبح إطلاق النيران من قبل المهاجمين أغزر وأقوى. وأتاح ضوء كهربائي كبير كان في الباحة سهولة التصويب بالنيران على اليونكرز. ووجد هؤلاء

صعوبات كبيرة في إطفاء هذا المصباح. فقد كانت هناك يد خفية تعيد إضاءته. وأطلق اليونكرز النار على المصباح، واكتشفوا فيما بعد يد العامل الكهربائي وأجبروه على قطع التيار.

وأعلنت كتيبة الصدام النسائية فجأة نيتها بالخروج من القصر. فطبقًا للمعلومات التي تلقتها مقالات هذه الكتيبة انحاز العاملون في مبنى الأركان الرئيسي إلى لينين واعتقلوا الجنرال الكسييف الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ روسيا بعد أن جردوا عددًا من الضباط من سلاحهم وقالت تلك المجندات: ينبغي تخليصه مهما كان الثمن. ولم يكن القائد يملك القوة لمنعهن وهن في هذا الاندفاع الهيستيري. وفي اللحظة التي أردن الخروج فيها، أضيء النور فجأة في الشمعدانات الكبيرة الكهربائية الموجودة في زاويتي الباب. وانقض أحد الضباط فورًا على الخدم لكي يكتشف العامل الكهربائي المختص؛ فقد اعتبر خدم القيصر القدامى عملاء للثورة. وهو يثق ثقة أقل بكهربائي القصر وقال له: "لو لم نكن بحاجة إليك، لأرسلتك إلى العالم الآخر". ومع أن العامل المختص لم يجد أية وسيلة لإصلاح الكهرباء تحت التهديد بالمسدس، فقد قطعت لوحة قاطع التيار، واحتل البحارة المقسم الكهربائي وسيطروا على النور. ولم تصمد المقاتلات للنيران واستسلم معظمهن. وأرسل قائد الدفاع ملازمًا أول إلى الحكومة ليعلمها بأن خروج النساء المجندات في كتيبة الصدام من القصر "قادهن إلى حتفهن"، وأن القصر يعج بالمحرضين. وأعطى عدم نجاح خروج النساء المجندات المحاربات فترة استراحة امتدت تقريبًا من عشر ساعات إلى إحدى عشرة ساعة. واهتمت قوات الحصار في هذه الفترة بتحضير رمي المدفعية.

وأيقظت هذه الفترة بعض الأمل لدى قوات الدفاع عن القصر، وحاول الوزراء أيضًا تشجيع أنصارهم في المدينة وفي البلاد: "إن الحكومة بكاملها في موقعها، فيما عدا بروكوبوفيتش. إن الوضع ملائم... إنهم يرمون على القصر بالبنادق فقط دون أن يحصلوا على أية نتيجة. ومن الواضح أن الخصم ضعيف". وفي الحقيقة كان الخصم قويًّا جدًا، ولكنه لم يقرر بعد استخدام قوته بصورة لا مناص منها. ووزعت الحكومة بيانًا في كل أنحاء البلاد حول موضوع الإنذار، وحول موضوع الطراد أورور، وقالت في هذا البيان أنها كحكومة لا تستطيع تسليم السلطة إلا للمجلس التأسيسي، كما ذكرت أيضًا بأن أول هجوم على قصر الشتاء قد دحر. "وليرد الجيش والشعب على كل هذا!" ولكن الوزراء لم يشيروا إلى كيفية الرد.

وكان لاشوفيتش قد أرسل في غضون ذلك إلى القلعة اثنين من رجال مدفعية البحرية، لم يكونوا في الحقيقة مجربين كثيرًا. ولكنهما كانا بلشفيان مستعدين للرمي بمدافع علاها الصدأ، دون زيت في أجهزة الارتداد. وكان هذا ما طلب إليهما فقط؛ فدوي المدفعية هو في الوقت الراهن أهم من دقة رمي الطلقات. وأمر أنطونوف بفتح النار. وروعي التصعيد المعد في السابق، ونفذ بدقة. وروى فليروفسكي: "زمجر أورور بعد رمي الطلقة المتفق عليها. إن رعد الرمي الخلبي وحزمة لهيب رمية أكثر هيبة من رمي القتال. وجرى الفضوليون بعيدًا عن سترة الرصيف المؤلف من الغرانيت، وتعثروا، وزحفوا...". وسارع تشودنوفسكي إلى طرح المسألة التالية: ألا نقترح الاستسلام على المحاصرين؟ واتفق معه أنطونوف فورًا. وهكذا حلت هدنة جديدة. واستسلمت مجموعة من مجندات كتيبة الصدمة ومجموعة من اليونكرز. وأراد تشودنوفسكي أن يترك لهم سلاحهم ولكن أنطونوف عارض عن حق هذه الشهامة. وبعد أن وضع المستسلمون بنادقهم على الرصيف ذهبوا تحت الحراسة من شارع ميليونايا.

كان قصر الشتاء صامدًا دومًا. كيف ينبغي أن ننتهي منه؟ وأعطي الأمر؛ ففتحت النار، ولكن دون غزارة، وبصورة أقل فعالية. ومن أصل ٣٥ طلقة نارية أطلقت في خلال ساعة ونصف أو ساعتين أصابت طلقتان هدفهما فقط، ولم تتأثر منهما سوى قشرة المبنى. ومرت القذائف الأخرى عالية جدًا، ولم تحدث في المدينة لحسن الحظ أي ضرر. فهل كان سبب ذلك هو الافتقار إلى المهارة في الرمي حقًا؟ لقد كانوا يرمون عبر النييفا مباشرة على هدف بحجم كتلة القصر، وإصابة مثل هذا الهدف لا يتطلب كثيرًا من المهارة. ألم يكن من الأصح أن نفترض أن مدفعيي لاشوفيتش أطالوا مدى الرمي متعمدين بأمل أن تنتهي

المسألة دون أضرار أو ضحايا؟ إن من الصعب جدًا في الوقت الحاضر تحديد الدوافع التي قادت هذين البحارين المجهولين، وهما لم يعطيا أية إشارة على بقائهما على قيد الحياة، فهل ضاعا في خضم الحملة الروسية الكبيرة، أم سقطا قتيلين في الحرب الأهلية كما سقط عدد من مقاتلي أكتوبر (تشرين الأول) في الشهور والسنوات التالية؟

وبعد طلقات المدفع الأولى، أحضر بالتشينسكي للوزراء شظية قنبلة، وكشف الأميرال فرديرفسكي أن معدن الشظية يدل على أن القنابل من بحريته، من الطراد أورور. ولكن الطراد رمى رميًا خلبيًا. فقد اتفق على الرمي الخلبي، وهذه هي شهادة فليروفسكي، وإفادة أحد البحارة فيما بعد في مؤتمر السوفييتات. فهل انخدع الأميرال؟ فمن يلقي الأضواء إذن على مسألة طلقة من مدفع، وسط الليل البهيم، صدرت عن سفينة بحرية متمردة على قصر القيصر؛ حيث اندثرت آخر حكومة للمتسلطين؟

وقد انخفض تعداد حامية القصر إلى حد كبير. وإذا كان هذا التعداد قد وصل إلى ١٥٠٠ مقاتل وربما إلى ألفين عندما وصل الأوراليون ومشوهو الحرب ومجندات كتيبة الموت إلى القصر، إلا أنه قد انخفض الآن إلى ١٠٠٠ وربما أقل من هذا الرقم بكثير. ولا يمكن أن تتم عملية الإنقاذ إلا بمعجزة. وفجأة، وفي غمرة اليأس الذي ساد القصر، لم تظهر المعجزة في الحقيقة، وإنما بدت أمائرها. ونقل بالتشينسكي ما يلي: لقد تلقينا هاتفيًا من مجلس الدوما البلدي بأن بعض المواطنين يتأهبون للانطلاق منه لتخليص الحكومة. وقد أمر بالتشينسكي سينيغوب: "بلغ الجميع بمجيء الشعب إلينا". فأشاع الضابط على السلالم وفي الممرات الخبر المفرح. واصطدم في الطريق بضباط سكارى يتبارزون بالسيف دون إهراق الدماء. ورفع الطلاب - الضباط رءوسهم. وتضخمت الإشاعة وهي تنتقل من فم إلى فم، وأصبحت أكثر أهمية. وزحف الرجال السياسيون، والباعة، والشعب، ورجال الدين على رأسهم لرفع الحصار عن القصر. الشعب مع رجال الدين: "إنه لجمال آسر!". وأعطت بقايا القوة بريقها الأخير. "هورا، عاشت روسيا!". وغير يونكرز مدرسة أورانينبوم الذين استعدوا للفرار من القصر رأيهم وبقوا.

لكن الشعب ومعه رجال الأكليروس يقترب ببطء. وازداد عدد المحرضين في القصر. وكان المدافعون يتهامسون في الممرات، وانتقلت همساتهم من فم إلى فم تقول: سيفتح الطراد أورور النار فورًا. وفجأة دوًى انفجاران. ودخل البحارة إلى القصر وقذفوا أو ألقوا بقنبلتين من أحد الدهاليز، فجرحوا اثنين من اليونكرز جروحًا خفيفة. واعتقل البحارة، وضمد كيشكين الجرحى بصفته طبيبًا.

كان عناد العمال والبحارة كبيرًا جدًا في أعماقهم، ولكنه لم يتحول بعد إلى استماتة. ولم يتجرأ المحاصرون نظرًا لأنهم الجزء الأضعف من اتخاذ تدابير قاسية إزاء عملاء أعدائهم الذين تسللوا إلى القصر خوفًا من إثارة شراستهم. وبدأ المتسللون في الظهور لا فرادى ولكن جماعات، وعندما كان اليونكرز ينقضون على المهاجمين كان المهاجمون يستسلمون لنزع سلاحهم. وكان بالتشينسكي يقول بلهجة الازدراء: "يا لهم من جيف! يا لهم من فاقدي المروءة والشهامة!" كلا إن هؤلاء الرجال ليسوا بأنذال. فللتسلل إلى القصر الذي يعج بالضباط واليونكرز، يحتاج المرء إلى شجاعة كبرى. وفي تيه مبنى مجهول، وممرات قاتمة، وأمام أبواب لا تعد ولا تحصى تؤدي إلى المجهول وتهدد بأي شيء، لا يملك الصناديد إلا أن يستسلموا. وازداد عدد الأسرى. وتسللت مجموعات جديدة. وليس من السهل دومًا أن نفهم من الذين استسلموا ومن الذين جردوا من سلاحهم. فالمدفع يدوي بلا توقف.

ولم تتوقف الحياة في الشارع حتى ساعة متأخرة من الليل، باستثناء الدائرة الملاصقة لقصر الشتاء. كانت المسارح ودور السينما مفتوحة. وكانت الأوساط الغنية والمتعلمة في العاصمة قليلة الاكتراث على ما يبدو بتعرض الحكومة لقصف المدافع. ولاحظ ريد ميستر على مقربة من جسر ترويتسكي المارة يتوقفون بهدوء لأن البحارة لم يتركوهم يذهبون إلى مسافة أبعد. "ولم يكن هناك أي شيء غير طبيعي". والتقى ريد ميستر ببعض معارفه من الأصدقاء بجانب بيت الشعب، فقصوا عليه

وسط ضجيج المدفع، أن الممثل شاليابين كان رائعًا لا مثيل له في مسرحيته دون كارلوس. وكان الوزراء مستمرين في هياجهم داخل المصيدة.

"أصبح من الواضح الآن أن المهاجمين ضعفاء". وربما إذا صمدنا ساعة أخرى تصل النجدات؟ واتصل كيشكين هاتفيًا، وفي الليل بوزير المالية خروتشيتشيف من أعضاء حزب الكاديت ورجاه أن ينقل إلى زعماء الحزب أن الحكومة بحاجة على الأقل إلى مساعدة صغيرة للصمود حتى الصبيحة، وحتى الساعات التي سيصل فيها كرنسكي أخيرًا مع القطعات. وصاح كيشكين ساخطًا: "ما هذا الحزب الذي لا يستطيع إرسال ٣٠٠ رجل مسلحين!"، والحقيقة: ما هو هذا الحزب؟ إن الكاديت الذين جمعوا في بتروغراد في الانتخابات عشرات الألوف من الأصوات، لا يستطيعون في لحظة الخطر التي تهدد النظام البورجوازي أن يقدموا ٣٠٠ مقاتل. ولو أن الوزراء قد خطرت لهم فكرة البحث في مكتبة القصر عن كتاب المادي هويس لقرءوا في حواره عن الحرب الأهلية أنه لا ينبغي أن ننتظر أو نطالب بشجاعة الباعة الأغنياء... هؤلاء الباعة الذين يفقدون صوابهم تمامًا لمجرد فكرة أن من الممكن سلب مالهم". ولكن هناك شكًا كبيرًا في أن يتمكنوا من العثور على كتاب هويس في مكتبة القيصر. وكان الوزراء بعيدين عن الاهتمام بفلسفة التاريخ. وكان الاتصال الهاتفي لكيشكين آخر اتصال قام به قصر الشتاء.

وكان معهد سمولني يطالب بإنهاء الهجوم فورًا. فلا يمكن مد الحصار حتى الصباح، وإبقاء المدينة في هذا التوتر، وإثارة مؤتمر المجلس، ووضع كل النجاحات تحت إشارة استفهام. وأرسل لينين مذكرات غاضبة. وانطلقت النداءات الهاتفية من اللجنة العسكرية الثورية نداء بعد آخر. ووبخ بودفويسكي وزمجر. فمن الممكن إرسال حشود للهجوم، لأن أعداد المتطوعين وافرة. ولكن كم يسقط من الضحايا؟ ماذا سيحدث للوزراء واليونكرز؟ ومع ذلك كانت ضرورة دفع المسألة حتى النهاية رئيسية وهامة جدًا. ولم يبق إلا حديث مدافع البحرية. وأحضر أحد البحارة من قلعة بطرس وبولص أمرًا على الطراد أورور: افتحوا النار فورًا على القصر. وقد اتضح كل شيء على ما يبدو! وليس مدفعيو الأورور هم الذين سيوقفون عملية القصف. ولكن الزعماء لا يملكون بعد تصميمًا كافيًا. وجرت محاولة جديدة لتجنب الحسم بالقوة. فقد كتب فليروفسكي: "قررنا أن ننتظر أيضًا ربع ساعة أخرى، بعد أن أحسسنا غريزيًّا باحتمال تبدل الوضع". وينبغي أن نفهم أنه كان هناك أمل غريزي بانتهاء المشكلة بوسائل تظاهرية. وفي هذه المرة لم تخدع "الغريزة" أبدًا؛ ففي خلال ربع ساعة وصل مبعوث جديد من قصر الشتاء مباشرة: لقد تم احتلال القصر.

إن القصر لم يستسلم ولكنه احتُل هجومًا، في لحظة كانت فيها قوة المقاومة قد استمرت وقتًا طويلاً فاستنفدت نهائيًّا. ودخل من أحد الممرات، لا من مدخل سري، بل من الباحة المملوءة بالحواجز والمتاريس عدد من الثوار يبلغ المائة رجلاً ظنه حرس القصر الذي انهارت معنوياته أنه وفد من مجلس الدوما. بَيد أن قوات الدفاع تمكنت من نزع سلاحهم. وغادرت المبنى وسط فوضى كبيرة، مجموعة من اليونكرز. وتابع الآخرون، أو جزء منهم على الأقل، الحراسة. ولكن كان حاجز الحراب والرمي بين المحاصرين والمحاصرين قد تحطم بصورة نهائية.

وعج جزء من القصر الملاصق للدير بالأعداء. وحاول أفراد اليونكرز تطويق هذا الجزء من المؤخرة. ووقعت في الممرات لقاءات ونزاعات غريبة. كانت كل الأطراف مسلحة، ولكن كانوا يتضاربون بقبضات المسدسات، وبأحزمة القنابل. ولكن لم يكن أحد يطلق النار، ولم يفجر أحد قنابله لأنهم جميعًا يحدثون جلبة وصخبًا لا يستطيعون معه تمييز بعضهم من بعض. فليكن! إن مصير القصر قد سوي منذ زمن.

وكان العمال والبحارة والجنود يندفعون من الخارج، بخطوط، وبمجموعـات، ويـدحروا اليـونكرز ويـصدوهم عـن المتاريس، ويدخلون إلى الباحة، ويصطدمون على السلالم باليونكرز، ويدحرونهم، ويقلبونهم، ويطاردونهم أمامهم. وانبعث من المؤخرة مد ضاغط جديد. فأغرق الميدان الباحة، كما أغرقت الباحة القصر، وانصب هذا المد على السلالم والممرات. وعلـى الأرضيات الممرغة والمتسخة والمغطاة بالفرش وفضلات الخبز، كان بعض الرجال ممددين، ويحتفظون إلى جـانبهم بالقنابـل والبنادق. وعلم المنتصرون بأن كرنسكي ليس هنا، فامتزجت المرارة وخيبة الأمـل بفـرحتهم الطاغيـة. وكـان أنطونـوف وتشودنوفسكي في القصر. أين الحكومة؟ ها هو الباب الذي صمد أمامه اليونكرز في آخر موقف من مواقف الحكومة. وهـرع رئيس مخفر الحرس إلى الوزراء ليسألهم عما إذا كانوا يأمرون بمتابعة القتال حتى النهاية. كلا، كلا! إن الـوزراء لا يـأمرون بهذا. ولكن القصر قد احتل على كل حال. لا تريقوا دماءكم. ينبغي الإذعان للقوة. إن الوزراء يريدون استسلامًا لائقًـا، وقـد جلسوا أمام طاولة لكي يتخذ وضعهم هيئة جلسة من الجلسات. وقد وجد قائد الدفاع الوقت لتسليم القصر وهو يطلب في شروطه حماية حياة اليونكرز الذين لم يكن أحد يريد التآمر على حياتهم، ورفض أنطونوف أية مفاوضات حول مصير الحكومة.

ونزع سلاح اليونكرز أمام آخر الأبواب المحروسة. وهاجم المنتصرون قاعة الوزراء. "وكان يسير على رأس الجمـع الزاحف، ويحاول كبح جماح الصفوف المتدافعة رجل ذو مظهر بائس. كانت ثيابه مفككة الأزرار وكان يغطي رأسـه بقبعـة عريضة من اللبد منكسة إلى الجانب. وكان يضع نظارة على عينيه. وكانت عيناه تلمعان من الانتصار وتقـدحان حقـدًا علـى المغلوبين". بهذه العبارات المحزنة وصف المغلوبون أنطونوف. وليس من الصعب أن نعتقد أن ملابسه وقبعته كانتا في حالـة مزرية، ويكفي أن نتذكر كيف سار ليلاً في برك ومستنقعات قلعة بطرس وبولص. ومما لا شك فيه أن النصر ينبغي أن يقـرأ في نظراته. ولكن مما لا شك فيه أن نظراته كانت تعبر عن الحقد على المغلوبين. "باسم اللجنة العسكرية الثورية أعلـن لكـم بصفتكم أعضاء في الحكومة المؤقتة بأنكم موقوفون". وكانت الساعة قد أعلنت الثانية وعـشر دقـائق ليلـة ٢٥/ ٢٦ أكتـوبر (تشرين الأول). ورد عليه كونوفالوف قائلاً: "إن وزراء الحكومة المؤقتة يستسلمون أمام القوة ولتجنب إهراق الـدماء". وقـد روعيت هذه الطقوس بدقة متناهية.

واستدعى أنطونوف ٢٥ رجلاً مسلحًا، انتخبتهم المفارز الأولى التي اقتحمت القصر وكلفهم بحراسة الـوزراء. واقتيـد الموقوفون بعد إجراء محاضر التحقيق إلى الخارج، إلى الميدان. وانفجرت وسط الجموع التي سقط منها كثير من الجرحـى أو القتلى ثورة غضب حقيقية على المغلوبين. وانطلقت أصوات من وسط هذه الجموع تقول: "اقتلوهم، الموت لهم!" وحاول بعض الجنود ضرب الوزراء، ولكن الحرس الأحمر ردع هؤلاء الثائرين، وصاح صوت يقول: لا تلطخوا بالدم الانتصار البروليتاري أبدًا! وأحاط العمال المسلحون بالأسرى وحرسهم إحاطة دقيقة. "إلى الأمام سر!" ولم يكن أمامهم مسافة كبرى يقطعونهـا. فقـد كان عليهم أن يمروا من شارع ميليونايا وجسر ترويتسكي فقط. ولكن هياج الجماهير جعل هذا الملك القـصير طـويلاً جـدًا ومحفوفًا بالمخاطر. وكتب الوزير نيكيتين فيما بعد، وكان على حق بأنه لولا التدخل الحازم لأنطونوف، لكانت النتائج "فادحـة جدًا". وزاد الطين بلة أن قافلة الوزراء المعتقلين تعرضت أيضًا على الجسر لرشقة عارضة من النـار: واضـطر المعتقلـون وحرسهم إلى الانبطاح على أرضية الطريق. ولكن هنا أيضًا لم تقع أية ضحايا؛ كان الرمي في الهواء بقصد الإرهاب.

وتجمع في القلعة، في المبنى الضيق لنادي الحامية -الذي ينيره مصباح زيت ينبعث منه دخان ورائحـة كريهـة؛ فقـد انقطعت الكهرباء في ذلك اليوم- تجمع عشرات من الرجال. وقام أنطونوف بحضور مفوض القلعة بتفقد الوزراء. وكان عددهم ثمانية عشر وزيرًا، بما فيهم نواب الوزراء. وتمت آخر الإجراءات الشكلية معهم، واقتيد الوزراء الأسرى إلى زنزانات قلعـة ترويتسكي التاريخية. ولم يعتقل من عناصر الدفاع أي إنسان، وأخلي سبيل الضباط اليونكرز بعد أن تعهدوا شفويًّا بعدم العمـل ضد السلطة السوفييتية. وكان عدد من كانوا أمناء لهذا التعهد ضئيلاً جدًا.

وبعد الاستيلاء على قصر الشتاء انتشرت الشائعات في الدوائر البرجوازية عن إعدام أفراد اليونكرز، واغتصاب النساء المجندات المقاتلات في كتيبة الصدام، وعن نهب محتويات القصر الثمينة. وقد كذبت هذه الروايات منذ فترة طويلة بعد أن كتب ميليوكوف في **تاريخه** ما يلي: "وتعرضت مقاتلات كتيبة الصدام -اللواتي لم يقتلن بالرصاص وأسرهن البلاشفة في ذلك المساء وفي الليل- لشتائم مرعبة من الجنود، وتعرضن للاغتصاب والإعدامات". والحقيقة لم يقع أي إعدام ولا يمكن أن يحدث شيء من هذا في تلك الفترة استنادًا إلى وضع الطرفين. كما لا يمكن تصور حدوث عمليات الاغتصاب في القصر بصورة خاصة أيضًا، نظرًا لأن العمال الثوريين المسلحين دخلوا إلى القصر بالمئات إلى جانب بعض العناصر التي جاءت من الشارع بصورة طارئة.

أما عمليات النهب والسلب فقد حدثت بالفعل، لكنها كانت تعبر عن طبيعة انضباط المنتصرين. وقد روى جون ريد - الذي لم تفلت منه أية واقعة مأساوية من وقائع الثورة والذي دخل إلى قصر الشتاء متتبعًا الآثار الحارة جدًا لتشكيلات الانقضاض الأولى- روى جون ريد كيف انقضت مجموعة من الجنود في أحد الأقبية على الصناديق الكبيرة وانهالت عليها بأعقاب بنادقها تهشم أغطيتها، وأخرجت منها السجاد والستائر والألبسة، والأطباق الصينية والأوعية الزجاجية. ومن المحتمل أن يكون بعض اللصوص الحقيقيين قد ناوروا متنكرين بثياب الجنود، لأنهم كانوا يتنكرون في السنة الأخيرة من الحرب بالمعطف الرمادي للجندي، وقبعة اللبد، وكان نهب محتويات الصناديق قد بدأ عندما صاح صوت قائلاً: "أيها الرفاق، لا تلمسوا شيئًا! لا تأخذوا شيئًا! هذا ملك الشعب". ووقف اثنان من الحرس الأحمر ضابط وجندي يحملان المسدسات بينما جلس أحد الجنود خلفهما إلى إحدى الطاولات وبيده ريشة وورق. وخضع كل من خرج إلى التفتيش. وأعيد كل غرض مسروق وسجل. وهكذا صودرت مجموعة من الأشياء المتنوعة: تماثيل صغيرة، وزجاجات حبر، وشمعدانات، وخناجر، وألواح صابون، وريش من ريش النعام. وقد تم التفتيش الدقيق أيضًا على أفراد اليونكرز التي كانت جيوبهم منتفخة بالمسروقات من الأشياء الصغيرة. وكانت تدوي من ناحية الجنود صيحات الشتائم والتهديدات للوينكرز، ولكنها اقتصرت على ذلك الحد. وفي غضون ذلك تشكل حرس القصر برئاسة البحار بريخودكو. وتمركز الحراس في كل مكان، وطرد الدخلاء من القصر. وبعد عدة ساعات عين تشودنوفسكي قائدًا للقصر.

ولكن أين إذن ذهب الشعب الذي كان رجال الدين في طليعته، والذي زحف لتحرير القصر؟ من الضروري أن نتحدث عن هذه المحاولة البطولية التي حركت نبأها في لحظة من اللحظات مشاعر اليونكرز. كان مركز القوى المضادة للبلاشفة في مجلس دوما البلدية. وكان مبنى البلدية القائم على النييفسكي في حالة غليان. وكانت الأحزاب والشراذم، وفروعها والتجمعات، والعناصر المستقلة، وبعض الشخصيات ذات النفوذ تناقش هناك المؤامرة المجرمة للبلاشفة. وكانوا ينتقلون من آن إلى آخر إلى الوزراء الذين كانوا يطيلون الانتظار في قصر الشتاء أن على العصيان أن يخنق حتمًا، وأن الجميع يستنكرون هذا العصيان استنكارًا ساحقًا. وفي غضون ذلك حسمت المدفعية الموقف. وشكى الوزير بروكوبوفيتش الذي اعتقل في صبيحة ذلك اليوم ثم أخلي سبيله، شكى بلهجة باكية أنه فقد إمكانية مشاركة رفاقه مصيرهم. فعبر له أعضاء المجلس وعدد من الشخصيات عن مشاعر التعاطف الحارة، ولكن التعبير عن هذه المشاعر يحتاج إلى وقت طويل.

ومن تراكم الأفكار ومن الخطب التي ألقيت انبعثت إلى حيز الوجود، وسط عاصفة من التصفيق شملت كل القاعة الخطة العملية التالية: ينبغي على مجلس الدوما أن ينتقل بكامل هيئته إلى قصر الشتاء ليموت فيه إذا اقتضى الأمر مع أعضاء الحكومة المؤقتة. وأبدى الاشتراكيون - الثوريون والمناشفة والمتعاونون استعدادهم أيضًا إما لإنقاذ الوزراء أو للموت معهم. ونوى الكاديت، الذين لا يميلون عمومًا إلى المشروعات الخطيرة، في هذه المرة، أن يضحوا بأنفسهم مع الآخرين. وطلب

بعض أبناء المناطق الذين وجدوا بالصدفة في القاعة، وبعض الصحفيين من مجلس الدوما، وبضع شخصيات عامة، طلب كل هؤلاء بأقوال بليغة إلى حد ما السماح لهم بمشاركة الدوما مصيره. وقد أذن لهم بذلك.

وحاولت مجموعة البلاشفة تقديم نصيحة شائعة؛ فبدلاً من التيه في ظلمات الشوارع بحثًا عن الموت، من الأفضل إقناع الوزراء هاتفيًّا بالاستسلام دون الوصول إلى مرحلة سفك الدماء. ولكن الديموقراطيين ثاروا وسخطوا؛ إن أتباع الانتفاضة لا يريدون أن ينتزعوا منهم السلطة فحسب، بل أن ينتزعوا منهم أيضًا حقهم بالموت بشجاعة! وقرر مستشاروا البلدية في الوقت نفسه، لمصلحة التاريخ، القيام بالتصويت بالأسماء. ففي نهاية المطاف لم يكن الأمر متأخرًا جدًا للموت، حتى ولو كان موتًا تكلله الأمجاد. وأكد هذا ٦٢ مستشارًا من الدوما، نعم، إنهم سيذهبون بالفعل للموت تحت أنقاض قصر الشتاء، وقد سجلوا أسماءهم لهذه الغاية. ورد البلاشفة الأربعة عشر الموجودون في المجلس أن من الأفضل الانتصار مع سمولني من الهلاك مع قصر الشتاء، واتجهوا فورًا إلى جلسة مؤتمر السوفييتات. ولم يكن هناك سوى ثلاثة من المناشفة الأمميين الذين قرروا البقاء داخل جدران الدوما؛ فهم لا يعرفون إلى أين يذهبون ولا يفهمون لِم يموتون.

وكان مستشارو الدوما على وشك التحرك للاختبار الأخير عندما رن الهاتف معلنًا بأن اللجنة التنفيذية لمندوبي الفلاحين ستنضم إليهم بكاملها. وحدثت عاصفة من التصفيق لا نهاية لها. وقد أصبحت الصورة الآن تامة وواضحة؛ فسيذهب ممثلو الطبقة الفلاحية التي تضم ١٠٠ مليون فلاح مع ممثلي كل طبقات سكان المدن ليموتوا تحت ضربات قبضة تافهة من دعاة العنف. وكانت الخطب كثيرة كالتصفيق.

وعندما وصل مندوبو الفلاحين، تحرك الركب إلى شارع نييفسكي. وتقدم في الطليعة: شرايدر عمدة المدينة، والوزير بروكوبوفيتش. ولاحظ جون ريد في الموكب الاشتراكي - الثوري أفكسانتييف، رئيس اللجنة المركزية الفلاحية، والزعيمين المنشفيين خينتشوك وأبراموفيتش، وكان أحدهما من اليمين، والآخر من اليسار. وكان كل من بروكوبوفيتش وشرايدر يحمل مصباحًا كهربائيًا؛ فقد اتفق على هذه العلامة مع الوزراء لكي يتعرف اليونكرز على الأصدقاء ولكيلا يشكوا بأنهم خصوم. وكان بروكوبوفيتش يحمل بالإضافة إلى المصباح مظلة كغيره من الكثيرين. وكان رجال الكنيسة غائبين. وقد تخيل البعض رجال الكنيسة استنادًا إلى حقب غامضة من التاريخ الوطني اختلقها خيال اليونكرز الضيق. ولكن لم يكن هناك أحد من الشعب على الإطلاق. وقد حدد غياب الشعب طابع هذا المشروع: ٣٠٠ أو ٤٠٠ "مندوب" ليس معهم واحد ممن يمثلونهم. وقد روى الاشتراكي - الثوري زينزينوف في **مذكراته** ما يلي: "كانت ليلة مدلهمة، ولم تكن المصابيح في شارع نييفسكي مضاءة، وكنا نسير في موكب منظم، ولا نسمع سوى النشيد الوطني الفرنسي "المارسيليز". وكانت تدوي من بعيد طلقات المدافع؛ كان البلاشفة يتابعون قصف قصر الشتاء".

وانتشر خط من البحارة المسلحين أمام قناة كاترين، عبر شارع نييفسكي، وقطع الطريق على موكب الديموقراطيين. وقد صرح الذين أدانوا أنفسهم بأنفسهم: "سنتقدم! فماذا تستطيعون أن تفعلوا بنا؟" ورد البحارة دون لبس بأنهم سيستخدمون القوة: "عودا إلى منازلكم واتركونا بسلام!". واقترح أحد أعضاء الموكب التضحية بالنفس هنا في المكان ذاته، ولكن هذه الخطة البديلة لم تكن معدة في القرار المتخذ بالتصويت العلني في مجلس الدوما. وتسلق الوزير بروكوبوفيتش على مرقاة وتوجه إلى المتظاهرين" "وهو يهز مظلته" -غالبًا ما تمطر السماء في بتروغراد في الخريف- وهو يدعوهم إلى عدم تحريض هؤلاء الرجال المخدوعين الجهلة الذين لا يتورعون بالفعل عن استخدام سلاحهم؛ "فلنعد إلى مجلس الدوما وسنبحث وسائل إنقاذ البلاد والثورة".

كانت الدعوة تلك رصينة حقًا. وفي الحقيقة يبقى المشروع الأولي في هذه الحالة غير نافذ. ولكن ما العمل إزاء هؤلاء الهمج المسلحين الذين لا يسمحون حتى لزعماء الديمقراطية بالموت ببطولة؟ وقد كتب ستانكيفيتش هازئًا -وكان أحد أفراد الموكب- "بقينا في موقعنا، وتجمدنا من البرد، وقررنا العودة". ولكن الركب على العكس عاد عن طريق شارع فيفسكي في صمت مطلق دون أن ينشد "المارسيليز" لمجلس دوما البلدية. فسيجد هناك أخيرًا "وسائل إنقاذ البلاد والثورة".

وما أن استولت اللجنة العسكرية الثورية على قصر الشتاء حتى أصبحت سيدة العاصمة بلا منازع. وكما أن أظافر وشعر الميت تستمر في النمو، تبدت مظاهر الحياة عبر الصحافة الرسمية للحكومة المعزولة. وسكتت **صحيفة الفشنيك فيريمينوفو برافيتيلستفا (الصحيفة الرسمية للحكومة المؤقتة)** فجأة بتاريخ ٢٥، مع أنها أعلنت بتاريخ ٢٤ إحالة هيئة المستشارين السريين إلى التقاعد (المعاش) مع حقهم بارتداء البزة وتقاضي المعاش. وبالمقابل ظهرت من جديد بتاريخ ٢٦، كأن شيئًا لم يحدث. وقد ظهر في صفحتها الأولى: "نظرًا لعطل أصاب التيار الكهربائي فإن عدد ٢٥ لم يصدر". وكانت حياة الدولة، فيما تبقى من الصفحات تسير بنشاطها المعتاد، باستثناء قطع التيار الكهربائي. وأعلنت **صحيفة الحكومة الرسمية** -هذه الحكومة التي كانت قد اعتقلت في حصن تروتسكي- تعيين عشرة شيوخ جدد. وفي زاوية الأنباء الإدارية، أوصت نشرة دورية صادرة عن نيكيتين -وزير الداخلية- مفوضي المناطق "بعدم التأثر بالأنباء المختلفة حول أحداث بتروغراد؛ حيث يسود الهدوء الشامل". ولم يكن الوزير على ضلال كبير؛ فقد مرت أيام الانتفاضة في هدوء شامل، إذا أسقطنا من اعتبارنا قصفًا مدفعيًّا اقتصرت آثاره على مجال السمع. ومع ذلك لن يكون المؤرخ على ضلال أبدًا إذا ما قال إنه في خلال ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) لم يقطع التيار الكهربائي في المطبعة الحكومية فحسب، بل إن صفحة عظيمة في تاريخ البشرية جمعاء قد فتحت.

انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول)

إن الأحوال المتشابهة المستخلصة من التاريخ الطبيعي والتي تطبق على أحوال الثورة قد فرضت نفسها إلى درجة أصبح بعضها استطرادات شائعة متداولة: "كثورة البركان" "وولادة طبقة جديدة" و"الدرجة التي يحدث فيها الغليان".. وتكمن هنا القوانين المستنبطة بالحدس "**للديالكتيك**"، أي لمنطق التطور بمعنى آخر تحت مظهر صورة أدبية بسيطة.

ذلك أن الثورة بمجملها بالنسبة للتطور هي كالانتفاضة المسلحة بالنسبة للثورة ذاتها فالنقطة الحرجة هي النقطة التي تتحول فيها الكمية بالانفجار إلى نوعية أخرى. ولكن الانتفاضة ذاتها ليست عملاً متجانسًا وغير قابل للتجزئة؛ ففيها نقاط حرج وأزمات متعددة واندفاعات داخلية.

إن الفترة القصيرة التي تسبق "الغليان" فورًا أي عشية الانتفاضة هامة جدًا من وجهتي النظر السياسية والنظرية، وتعلمنا الفيزياء أنه إذا توقف التسخين المنتظم فجأة يحتفظ السائل لفترة من الوقت بحرارة ثابتة، ويغلي بعد أن يمتص كمية إضافية من الحرارة. وتأتي الأمثلة الشائعة هنا لمساعدتنا أيضًا لتحديد حالة الهدوء الكاذب والركون قبل الانفجار "وكأنه هدوء يسبق العاصفة".

عندما انتقلت أكثرية عمال وجنود بتروغراد إلى جانب البلاشفة بصورة لا تحتمل النقاش والجدال، كان الجو العام على ما يبدو قد وصل إلى درجة الغليان. وفي هذه اللحظة بالضبط أعلن لينين ضرورة قيام الانتفاضة فورًا. ولكن المدهش هو أن الانتفاضة كانت تفتقر إلى شيء ما. وكان لا بُدَّ للعمال والجنود خاصة، من امتصاص كمية معينة من الطاقات الثورية الإضافية.

ولم يكن هناك أي تناقض وسط الجماهير بين القول والفعل. ولكن لكي يتم الانتقال من القول إلى الفعل، وحتى إلى مجرد إضراب بسيط، وكذلك إلى الانتفاضة، هناك حتمًا احتكاكات داخلية وتجمعات جزيئية: فالبعض يسيرون إلى أمام، والآخرون ينكمشون إلى الخلف. **وتشتهر الحرب الأهلية في خطواتها الأولى عمومًا بافتقار كبير إلى التصميم.** ويتعثر المعسكران إلى حد ما على الأرض الوطنية ذاتها، ولا يستطيع أحد منهما أن ينتزع نفسه من محيطه الخاص بشرائحه الوسيطة واستعداده للمصالحة.

وقد أومأ الهدوء قبل العاصفة وسط الجماهير إلى وجود حرج خطير في صفوف الطبقة الحاكمة. وظهرت الأجهزة والمؤسسات التي تشكلت في فترة الاستعدادات الهادئة نسبيًا -فللثورة فترات سكونها كما أن للحرب أيامًا يسود فيها الهدوء أيضًا- حتى في أفضل حزب متمرس، غير متكيفة أو ليست متكيفة أبدًا مع وسائل الانتفاضة؛ فأصبحت ضرورة القيام بعملية النقل أو التقويم ضرورة حتمية في أحرج اللحظات. كان مندوبو سوفييت بتروغراد الذين صوتوا لصالح مؤتمر السوفييتات بعيدين عن التشبع الكافي بفكرة تحول الانتفاضة المسلحة إلى مهمة يومية ملحة. وكان من الضروري نقلهم إلى طريق آخر، مع أقل سجال ممكن، بغية تحويل السوفييت إلى جهاز للانتفاضة. ولا يحتاج الأمر في حالة نضوج الأزمة إلى انتظار شهور ولا حتى انتظار عدة أسابيع لهذا الغرض، ولكن كان أخطر أمر بالضبط في الأيام الأخيرة هو التخلص من هذا الوضع، وإعطاء الأمر بالقفزة الكبرى قبل أن يكون السوفييت مستعدًا للقيام بها، وتحريك الصفوف، واستقلال الحزب عن مجلس السوفييت، ولو لمدة أربع وعشرين ساعة.

وقد كرر لينين أكثر من مرة بأن الجماهير أكثر يسارية من الحزب، كما أن الحزب أكثر يسارية من لجنته المركزيـــة. كان هذا الكلام صحيحًا تمامًا بالنسبة للثورة بمجموعها، ولكن هناك تذبذبات داخلية حتى في هذه العلاقات المتبادلة. وفي إبريل (نيسان) ويونيو (حزيران) وفي بداية يوليو (تموز) خاصة نفد صبر العمال والجنود، فدفعوا الحـــزب فـــي طريـــق الأعمـــال الحاسمة. وبعد عملية السحق التي تمت في يوليو (تموز) أصبحت الجماهير أكثر تعقلاً. كانت تريد الانتفاضة كما كانت تريدها في السابق وأكثر مما تريدها من قبل، ولكنها كانت تخشى إخفاقًا جديدًا بعد أن أحرقت أصابعها بالنار. وفي خلال شهر يوليـــو (تموز) وأغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول) كان الحزب يكبح جماح العمال والجنود الذين كـــان الكورنيلوفيـــون علـــى العكـــس يثيرونهم بكل الوسائل ويحرضونهم على النزول إلى الشارع. وقد طورت التجربة السياسية للشهور الأخيرة المراكـــز المعدلـــة بقوة، لا لدى القادة فحسب، بل لدى الجماهير المقادة أيضًا. ومن ناحية أخرى كانت النجاحات المتتابعـــة للاضـــطراب تغـــذي عطالة الأشخاص المستعدين للتفرج. ولم تعد الجماهير لتكتفي بتوجيه سياسي جديد؛ كانت تحتاج إلى أن تعيد بناء ذاتها نفـــسيًا. وكلما تحكم زعماء الحزب الثوري بالأحداث كلما حضنت الانتفاضة الجماهير.

وطرحت المسألة الصعبة للانتقال من سياسة الإعداد إلى تقنية الانتفاضة في كل البلاد، تحت أشـــكال مختلفـــة، ولكـــن بالطريقة ذاتها عمومًا. وقد روى مورالوف أن الرأي كان موحدًا في تنظيم البلاشفة العسكري فـــي موســـكو حـــول ضـــرورة الاستيلاء على السلطة. ومع ذلك "عندما حاولنا حل مسألة معرفة كيفية الاستيلاء على السلطة بصورة عملية، لم يكـــن هنـــاك حل". فقد كانت الحلقة الأخيرة مفقودة أيضًا.

وفي الأيام التي كانت بتروغراد مهددة فيها بجلاء الحامية عنها، كانت موسكو تعيش في منـــاخ نـــزاع الاضـــطرابات المستمر. وقدمت المجموعة البلشفية في السوفييت، بناءً على مبادرة لجان المصنع الخطة التالية: حـــل النزاعـــات الاقتـــصادية بمراسيم. واستغرقت الخطوات الأولية وقتًا هامًا. وبتاريخ ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) فقط تبنـــت أجهـــزة ســـوفييت موســـكو "المرسوم الثوري رقم ١": لا يمكن تشغيل وطرد العمال والمستخدمين في المعامل والمـــصانع بعـــد الآن إلا بموافقـــة لجـــان المصنع. وكان معنى هذا أن السوفييت بدأ بالعمل كسلطة حكومية. وكانت نية المحركين لهذا العمل هو أن مـــن الواجـــب أن تجمع المقاومة الحتمية للحكومة الجماهير حول مجلس السوفييت بصورة أوثق، وأن تقود هذه المقاومة إلى نزاع مكشوف معها. ولكن هذه الخطة لم توضع موضع التنفيذ، نظرًا لأن انتفاضة بتروغراد أعطت لموسكو كما أعطت لبقية أنحاء الـــبلاد، دافعًـــا ملزمًا أكثر لكي تنتفض، وتوجب دعم الحكومة السوفييتية التي تشكلت فورًا.

إن المصلحة الدائمة للطرف الذي يهاجم أن يقدم نفسه وكأنه في حالة الدفاع عن النفس. ومن مصلحة كل حزب ثـــوري أن يقنع عملية بقناع من التمويه الشرعي. وكان مؤتمر السوفييت الوشيك هو المجلس الفعلي للانتفاضة بحكم الأمر الواقع، وهو في الوقت ذاته مالك السلطة أو نصفها على الأقل في نظر الجماهير الشعبية. وكانت الانتفاضة انتفاضة عنصر مـــن عناصـــر ازدواجية السلطة ضد العنصر الآخر. وعندما لجأت اللجنة العسكرية الثورية من أجل الانتفاضة إلى المؤتمر، وكأنها تلجأ إلـــى مصدر السلطة، كانت تتهم الحكومة مسبقًا بتحضير مؤامرة ضد السوفييتات. وتفرع هذا الاتهام من الوضع ذاته. ولمـــا كانـــت الحكومة لا تنوي الاستسلام بدون قتال، كانت لا تستطيع الاستغناء عن الاستعدادات لدفعها عن نفسها. ولكن حتى في استعدادها ذاته كانت معرضة للاتهام بالتآمر ضد الجهاز الأعلى للعمال والجنود والفلاحين. وقد وجهت الحكومة قبـــضتها إلـــى مـــصدر السلطة ذاته الذي خرج منه كرنسكي في معركتها ضد مؤتمر السوفييتات الذي كان عليه أن يقلب كرنسكي.

وأنه لمن الخطأ الفادح ألا نرى في كل هذا سوى فوارق دقيقة حقوقية لا علاقة للشعب بها: فعلى العكس، انعكست تحت هذا الشكل بالضبط الوقائع الأساسية للثورة في ضمير الجماهير. وكان من الواجب استخدام هذا السياق الملائم بصورة استثنائية حتى النهائية. وعندما لبينا الرغبة الطبيعية للجنود بعدم مغادرة الثكنات للاتجاه إلى الجبهة، كان لعملنا هذا معنى سياسي كبيـــر،

وعندما جندت القيادة الثورية الحامية للدفاع عن مؤتمر السوفييتات لم تكن تقيد أيديها أبدًا فيما يتعلق بتاريخ الانتفاضة. وكان اختيار اليوم والساعة مرتبطًا بالسير المقبل للنزاع. وكانت حرية المناورة إلى جانب الأقوى.

كان لينين يخشى أن تستبدل الانتفاضة بلعبة دستورية؛ ولهذا كان يكرر ما يلي: "تحقيق الانتصار على كرنسكي في بادئ الأمر، ودعوة المؤتمر فيما بعد". ولم يكن لينين بالطبع قد أتيح له الوقت لتقدير عامل جديد دخل في تحضير الانتفاضة وبدّل كل طبيعتها وهو: النزاع الخطير بين حامية بتروغراد والحكومة. فإذا كان من واجب مؤتمر السوفييتات أن يحل مسألة السلطة، وإذا كانت الحكومة تريد تجزئة قوات الحامية لمنع المؤتمر من أن يصبح سلطة، وإذا كانت الحامية ترفض الخضوع للحكومة دون انتظار مؤتمر السوفييتات، فهذا يعني بمجمله أن الانتفاضة قد بدأت دون انتظار مؤتمر السوفييتات ولو كانت مقنعة بغطاء سلطته. وهكذا فإن من الخطأ إذن التمييز بين التحضيرات للانتفاضة والتحضيرات لمؤتمر السوفييتات.

ومن الأفضل فهم الخصائص المميزة لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) بمقارنتها بانتفاضة فبراير (شباط). وباللجوء إلى هذه المقارنة، ليس هناك مجال، كما في الحالات الأخرى، إلى قبول التماثل التقليدي لكل الشروط المتنوعة. ولكنها متماثلة في الحقيقة، لأن الأمر يتعلق في حالتي بتروغراد: بأرض الصراع ذاتها، والتجمعات الاجتماعية نفسها، والبروليتاريا نفسها والحامية ذاتها. ولقد حصل الانتصار في الحالتين لأن أكثرية الأفواج الاحتياطية انتقلت إلى جانب العمال. ولكن كم كان الفارق كبيرًا ضمن إطار هذه الملامح العامة الأساسية! فانتفاضتا بتروغراد، اللتان تكمل إحداهما الأخرى تاريخيًّا خلال ثمانية شهور، بتناقضاتهما، تبدوان وقد تمتا مسبقًا للمساعدة بصورة أفضل على فهم طبيعة الانتفاضة عمومًا.

لقد قيل عن انتفاضة فبراير (شباط) أنها كانت انتفاضة للقوى الأولية. وقد قدمنا في المكان الملائم كل تحفظاتنا الضرورية على هذا التعريف. ولكن من الصحيح على كل حال أن أحدًا في فبراير (شباط) لم يشر مسبقًا إلى طرق الانتفاضة. ولم يصوت أحد في المصانع والثكنات على مسألة الثورة. ولم يكن هناك أحد من الزعماء قد دعا إلى الانتفاضة. فقد انفجر الغضب الذي تراكم خلال سنوات، وكأنه غير متوقع إلى حد بعيد من الجماهير ذاتها.

وقد حدث ما يخالف هذا كل المخالفة في أكتوبر (تشرين الأول). فقد مرت الجماهير خلال ثمانية أشهر بحياة سياسية حافلة. ولم تكن هذه الجماهير تحرك الأحداث وتوقدها فحسب، بل كانت تتعلم كيف تفهم الارتباط فيما بينها. وكانت تقوم بالتقدير النقدي للنتائج بعد كل عمل. وأصبحت البرلمانية السوفييتية الجهاز اليومي للحياة السياسية للشعب. وكانت هذه البرلمانية تحل مسائل الإضراب، والتظاهرات في الشوارع، وإرسال الأفواج إلى الجبهات بالتصويت، فهل كان بوسع الجماهير في مثل هذا الوضع أن تمتنع عن حل مسألة الانتفاضة بنفسها؟

ورغم كل هذا نجمت عن هذا الكسب الذي لا يقدر بثمن والفريد في بابه لثورة فبراير (شباط)، صعوبات جديدة. لم يكن بوسعنا أن ندعو الجماهير إلى المعركة باسم السوفييت دون أن نطرح بشكل حاسم المسألة أمام السوفييت، أي بدون أن نجعل مسألة الانتفاضة موضوعًا لمناقشات مفتوحة، وبمشاركة ممثلي المعسكر المعادي أيضًا. وكانت ضرورة إنشاء جهاز سوفييتي خاص، مستور قدر الإمكان، لقيادة الانتفاضة أمرًا طبيعيًّا. ولكن هذه الضرورة أيضًا فرضت الطرق الديمقراطية بكل ميزاتها وكل معوقاتها. ومع ذلك لم يوضع القرار الذي اتخذته اللجنة العسكرية الثورية بتاريخ ٩ أكتوبر (تشرين الأول) موضع التنفيذ نهائيًّا إلا بتاريخ ٢٠. ورغم هذا لا تكمن الصعوبة الرئيسية هنا؛ فاستخدام الأكثرية في السوفييت وإنشاء لجنة مؤلفة من البلاشفة فقط سيثير استياء اللاحزبيين، هذا إذا لم نضع في الحسبان استياء الاشتراكيين - الثوريين اليساريين وبعض المجموعات الفوضوية. وخضع بلاشفة اللجنة العسكرية الثورية لقرار من اللاحزبيين والاشتراكيين - الثوريين اليساريين. وكان الحصول منهم على قرار مسبق بالانتفاضة وتحديد يوم لها أمرًا لا يمكن تصوره، حتى أن مجرد طرح المسألة أمامهم

كان أمرًا في منتهى الطيش. وكان من الممكن فقط بواسطة اللجنة العسكرية الثورية جر الجماهير للانتفاضة، بزيـــادة احتـــدام الوضع يومًا بعد يوم بجعل النزاع أمرًا لا مفر منه.

وهنا لا بُدَّ من طرح السؤال التالي: ألم يكن من الأسهل، في مثل هذه الحالة الدعوة إلى الانتفاضة مباشرة باسم الحزب؟ كانت المزايا الجدية لمثل هذا الأسلوب في العمل نتائج لا ريب فيها. ولكن ربما كانت المحاذير أكثر وضوحًا. ومن الضروري أن **نميز بين ثلاثة شرائح** وسط ملايين الرجال الذين كان الحزب يعتمد عليهم: **شريحة** كانت تسير **إلى جانب البلاشفة** في كل الشروط. و**شريحة** أخرى أكثر عددًا منها، تدعم **البلاشفة** عندما كان هؤلاء يعملون بواسطة السوفييتات. وا**لــشريحة الثالثـــة**، التي كانت **تتبع السوفييتات** مع أن البلاشفة يشكلون الأكثرية فيها.

لم تتميز هذه الشرائح الثلاثة بمستواها السياسي فحسب، بل تميزت أيضًا، وفي جزء كبير منها بتركيبهـــا الاجتمـــاعي. وسار في الصف الأول خلف البلاشفة كحزب العمال الصناعيين، هؤلاء البروليتاريون بالوراثة في بتروغراد. وســـارت أكثـــر الجنود خلف البلاشفة، ضمن الحد الذي كانوا يملكون فيها الضمانة السوفييتية الشرعية. وسارت خلف السوفييتات، بمعـــزل أو برغم توطد الضغط الشديد للبلاشفة فيها، أكثر تشكيلات الطبقة العاملة محافظة، والمناشفة القدامى، والاشتراكيون - الثوريـــون الذين كانوا يخشون العزلة عن بقية الجماهير وأكثر العناصر محافظة في الجيش بما فيها القوزاق، والفلاحون الـــذين تخلـــصوا من قيادة الحزب الاشتراكي - الثوري وارتبطوا بجناحه الأيسر.

وأنه لمن الخطأ البين أن نشخص قوة الحزب البلشفي بقوة السوفييتات التي كان يقودها؛ فقد كانت قوة السوفييتات أكبـــر بكثير من قوة الحزب. ومع ذلك كانت قوة السوفييتات تتحول إلى عجز بدون قوة الحزب. وليس في هذا أي شيء غريب؛ فقـــد نجمت النسبة بين الحزب والسوفييت عن عدم تطابق حتمي في فترة ثورية بين التأثير الـــسياسي الهائـــل للبلـــشفية، وضـــعف سيطرتها التنظيمية. وتعطي الرافعة مع اليد إذا ما استخدمت استخدامًا حسنًا إمكانية رفع ثقل يتجاوز القوة اليدوية كثيرًا. ولكـــن عند انعدام اليد الفاعلة لا تكون الرافعة سوى قضيب لا حياة فيه.

وبرهن أحد المندوبين في المؤتمر الإقليمي للبلاشفة في موسكو، في نهاية سبتمبر (أيلول) علـــى مـــا يلـــي: "إن نفـــوذ البلاشفة في إيغوريفسك نفوذ لا شك فيه. ولكن تنظيم الحزب ضعيف بحد ذاته، وقد انتابه الإهمال إلى حد بعيـــد. ولـــيس فيـــه تسجيل منتظم ولا اشتراكات للأعضاء". وكان عدم تناسب نفوذ الحزب مع التنظيم ظاهرة عامة، بَيد أنه لم يكـــن بمثـــل هـــذا الوضوح في كل مكان. وكانت الجماهير العريضة تعرف الأوامر اليومية البلشفية والتنظيم السوفييتي. وقد التحمـــت الأوامـــر اليومية والتنظيم بالنسبة إليها نهائيًا في نهاية سبتمبر (أيلول) - أكتوبر (تشرين الأول). وانتظر الشعب لكي يعرف بالضبط ماذا ستحدد له السوفييتات، ومتى وكيف يتحقق منهاج البلاشفة.

وكان الحزب ذاته يعلم الجماهير ضمن إطار هذه الروح بصورة متواصلة. وعنـــدما انتـــشرت شـــائعة التحـــضيرات للانتفاضة في كييف، واجهتها اللجنة التنفيذية البلشفية بتكذيب قوي: "ينبغي عدم قيام أية تظاهرة بدون دعوة من الـــسوفييتات.. ينبغي عدم التحرك إلا بأمر من السوفييت". وقال تروتسكي بتاريخ ١٨ مكذبًا الشائعات التي انتشرت عن قيام الانتفاضة وتحديد يوم ٢٢ تاريخًا لها: "إن السوفييت مؤسسة منتخبة... ولا يستطيع اتخاذ قرارات تكون مجهولة من العمال والجنود..." وكان هذا النوع من الصيغ الذي يكرر ويرسخ عمليًا كل يوم، يتأصل بصورة متينة.

وطبقًا لرواية الملازم الثاني برزين، في المؤتمر العسكري للبلاشفة الذي انعقد في بـــأكتوبر (تـــشرين الأول) بموســـكو صرح بعض المندوبين قائلين: "من الصعب القول ما إذا كانت القطعات ستزحف عند نداء لجنة البلاشفة فـــي موســـكو. ومـــن

المحتمل أن يزحف الجميع عند دعوة السوفييت". غير أن ٩٠٪ من أصوات حامية موسكو قد أيـدت البلاشـفة منـذ سـبتمبر (أيلول). ونقل بوكيه باسم لجنة الحزب في مؤتمر ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) ما يلي: "سيزحف الجميع بدعوة من السوفييت لا من الحزب". في قسم موسكو، وفي دائرة نييفسكي "سيزحف الجميع خلف الـسوفييت". ولخـص فولودارسـكي فـورًا منـاخ بتروغراد الفكري بالعبارات التالية: "إن الانطباع العام هو أن أحدًا لا يتحرق شوقًا للنزول إلى الشارع، ولكن الجميع سيكونون متأهبين عند أول نداء من السوفييت". ووضعت **أولغارافيتش** هنا التصحيح التالي: "أشار بعضهم بأنهم سيزحفون أيضًا بـدعوة من الحزب". وفي مؤتمر حامية بتروغراد بتاريخ ١٨ نقل المندوبون بأن أفواجهم تنتظر نداء من السوفييت لكي تزحف. لم يكن أحد يتحدث عن الحزب، مع أن البلاشفة كانوا على رأس عدد من القوات: ولم يكن من الممكن المحافظة علـى الوحـدة فـي التكتلات إلا بإقامة الاتصال بين الموالين والمترددين والعناصر نصف المعادية، بواسطة نظام مجلس السوفييت. وأعلـن فـوج نخبة الحرس أنه لن يتحرك إلا بأمر مؤتمر السوفييتات. وتظهر هذه الواقعة التي تدل على أن المحرضين والمنظمين يفرقـون بين السوفييت والحزب، الأهمية الكبيرة لهذه المسألة من وجهة نظر الدعوة إلى الانتفاضة.

وروى السائق ميتريفيتش كيف جعل البلاشفة الجميع يتبنون اقتراحًا وسطًا في مفرزة سيارات النقل، لم ينجح أحد فيهـا في الحصول على قرار لصالح الانتفاضة: "لن نزحف لصالح البلاشفة ولا لصالح المناشفة بل... سـننفذ دون أي تـأخير كـل أوامر المؤتمر الثاني للسوفييتات". وطبق بلاشفة مفرزة سيارات النقل تكتيك التطويق ذاته الذي لجأت إليه اللجنـة العـسكرية الثورية ولكن بصورة مصغرة. أن ميتريفيتش لا يبرهن، بل يروي وأن شهادته أكثر إقناعًا بهذا الشكل.

ولم تعط المحاولات التي تمت لقيادة الانتفاضة مباشرة بواسطة الحزب أية نتيجة في أي مكان. وقد احتفظنا بشهادة هامة إلى أقصى الدرجات حول تحضير الانتفاضة في كينيشما. وهي مركز مهم من مراكـز صـناعة النـسيج. فعنـدما وضـعت الانتفاضة في منطقة موسكو على جدول الأعمال، انتخبت لجنة الحزب في كينيشما مجلسًا خاصًا مؤلفًا مـن ثلاثـة أعـضاء لإحصاء القوات العسكرية، والوسائل وتحضير الانتفاضة المسلحة. وقد سمي هذا المجلس لسبب نجهله **مجلس المديرين**، وقـد كتب أحد أعضاء هذا المجلس قائلاً: "ينبغي القول مع كل هذا أن الأعضاء المنتخبين الثلاثة لم يقوموا بعمل كبير على ما يبدو. فقد سارت الأحداث في مجرى مختلف بعض الشيء... ولقد استغرقنا إضراب المنطقة تمامًا، وفي ساعة الأحداث الحاسمة، نقل مركز التنظيم إلى لجنة الإضراب إلى السوفييت...". وتكررت حركة المناطق على نطاق أضيق مما حدث في بتروغراد.

ولقد استثار الحزب مجلس السوفييت، واستثار السوفييت العمال، والجنود وجزء من الفلاحين. وما كنا نربحه في صميم الجماهير، كنا نخسر مقابله عامل السرعة. فلو تمثلنا جهاز نقل الحركة هذا بشكل جهاز تحريك يعمل بدواليب مـسننة -وهـي مقارنة لجأ إليها لينين في ظرف آخر وفي حين آخر- لأمكن القول: إن محاولة متسرعة لتعشيق أسنان دولاب الحزب الصغير مباشرة بأسنان دولاب الجماهير العملاق يعرض أسنان دولاب الحزب لخطر التهشم، ولا يمكنه من تحريك جماهير واسعة.

ولا يقل عن هذا التشبيه صحة قولنا: إن هناك خطرًا مقابلاً يترتب من إفلات وضع ملائم تخوفًا من احتكاك في داخـل النظام السوفييتي ذاته. وأن أفضل الأوقات ملاءمة للانتفاضة من الناحية النظرية يتحدد في لحظة زمنية معينة. وليست القضية هي في تسقط هذه اللحظة المثالية من الناحية العملية. فبوسع الانتفاضة أن تندفع بنجاح في منحنى صاعد، متقربة مـن أقـصى قمة مثالية. وبوسعها أيضًا أن تندفع في منحنى نازل إذا لم يتحول ميزان القوى تحولاً جذريًا، وبدلاً من توقع "لحظة" يمكـن أن ينتج مجال زمني يمكن قياسه بأسابيع أو بأشهر أحيانًا. وكان بوسع البلاشفة الوصول إلى السلطة في بتروغراد اعتبـارًا مـن مطلع يوليو (تموز). إلا أنه لم يكن بوسعهم الاحتفاظ بها في هذه الحالة. واعتبارًا من منتصف سبتمبر (أيلول) لم يكـن بوسـع البلاشفة أن يأملوا بالاستيلاء على السلطة فحسب، بل كان بوسعهم الاحتفاظ بها أيضًا. ولو أن البلاشفة تأخروا بالانتفاضة فـي نهاية أكتوبر (تشرين الأول)، لكان من المحتمل أن يكون مقدورهم لوقت ما أن يربحوا من جديد أرضًا ضائعة، ولكن ذلـك لا

يرقى إلى مرتبة اليقين. وبوسعنا أن نسلم بتحفظ أن الأمائر السياسية للانتفاضة كانت موجودة باستمرار خلال ثلاثة أشـــهر أو أربعة، من سبتمبر (أيلول) إلى ديسمبر (كانون الأول). وعلى سبيل المثال، فقد كانت هذه الأمائر ناضجة لم تسقط عن شجرتها بعد. وفي هذه الحدود التي نستطيع معها أن نقرر الأشياء بعد حدوثها أكثر مما نستطيع التقرير فيها أثناء العمل ذاته، كان لدى الحزب حرية انتقاء تشتمل على خلافات لا يمكن تجنبها، وهي أحيانًا على درجة من الخطورة ذات طابع عملي واقعي.

وقد اقترح لينين إطلاق الانتفاضة منذ أيام انعقاد المؤتمر الديموقراطي. وفي نهاية سبتمبر (أيلول) كان يعتبر كل تلكـؤ لا يؤدي إلى المخاطر فحسب، بل إنه هو الخطر نفسه. وقد كتب لينين في مطلع أكتوبر (تـشرين الأول) قـائلاً: "إن انتظـار مؤتمر السوفييتات لهو عبث صبياني مشين. إنه يعني خيانة الثورة للمحافظة على الشكليات". ومن المريب مع كل هذا أن يجر أحد زعماء البلاشفة باعتبارات شكلية بحتة إلى درك هذه المسألة. وعندما طالب زينوفييف مثلاً بعقد مؤتمر تحضيري تحضره المجموعة البلشفية في السوفييتات، لم يكن يتحرى الالتزام بالشكليات، بل كان يعتمد فقط على الدعم السياسي لمندوبي المنـاطق ضد اللجنة المركزية. ولكن واقع الأمر هو أن ارتباط الحزب بالسوفييت، الذي يرتبط بدوره بمؤتمر الـسوفييتات يـشكل فـي مسألة تاريخ الانتفاضة عنصر عدم الدقة الذي كان يثير مخاوف لينين بحق وإلى حد كبير.

وترتبط مسألة معرفة متى تطلق الدعوة للانتفاضة ارتباطًا وثيقًا بمسألة معرفة من الذي سيطلقها. وكانت مزايا الـدعوة إلى الانتفاضة باسم السوفييت واضحة كل الوضوح بالنسبة للينين، ولكنه كان يرى قبل كل شيء الصعوبات التي ستعترض هذا السبيل. ولا يستطيع أن يتجنب المخاوف، وخاصة عن بعد، من أن تكون العناصر المعترضة من بين زعماء السوفييت، أقـوى بكثير في داخل مجلس السوفييت منها في داخل اللجنة المركزية التي يعتبر سياستها سياسة غير حازمة. وحول مسألة من سيبدأ الانتفاضة، السوفييت أم الحزب، كان لدى لينين حلول بديلة، ولكنه اتجه في الأسابيع الأولى بحزم إلى ضرورة قيـام الحـزب بمبادرة مستقلة. ولم يكن في اتجاهه هذا أي ظل لمعارضة المبادئ؛ فقد كان الهدف هو معالجة مسألة الانتفاضة اسـتنادًا إلـى القاعدة الوحيدة نفسها، وفي ظروف متماثلة، وفي التصور الوحيد نفسه، ولكن طرق مواجهة المسألة كانت مع كل هذا مختلفة.

وكان اقتراح لينين بتطويق مسرح الكسندرا واعتقال أعضاء المؤتمر الديمقراطي ناجمًا من أنـه لا ينبغـي أن يكـون السوفييت على رأس الانتفاضة، ولا بُدَّ من أن يكون على رأسها الحزب الذي سيدعو المصانع والثكنات مباشرة، ولا يمكـن أن يكون الأمر خلاف ذلك، وكان من غير المتصور إلى حد كبير جعل السوفييت يتبنى مثل هذه الخطة. وكان لينين يعـي تمـام الوعي أن تصميمه سيصادف بعض العقبات حتى وسط قيادات الحزب. وأوصى المجموعة البلشفية في المؤتمر مـسبقًا "بعـدم اللهاث خلف الأكثرية العددية" فإذا عملنا بحزم في القمة يكون العدد مضمونًا في القاعدة. واتسمت خطة لينين الجريئـة بمزايـا مؤكدة في سرعتها ومواجهتها لكل ما هو غير متوقع. ولكنه كان يكشف الحزب كثيرًا، ويخاطر في بعض الحـدود بمواجهتـه للجماهير. حتى أنه كان بوسع سوفييت بتروغراد، الذي أخذ بالانتفاضة على حين غرة، أن يخسر أكثريته البلـشفية لـدى أول إخفاق. وهي أكثرية ما زالت ضعيفة.

واقترح قرار ١٠ أكتوبر (تشرين الأول) على التنظيمات المحلية للحزب حل كل المـسائل عمليًّـا مـن وجهـة نظـر الانتفاضة. أما فيما يتعلق بالسوفييتات كأجهزة للانتفاضة، فلا يتعرض لها قرار اللجنة المركزية. وقال لينين فـي مـؤتمر ١٦: "تبرهن الوقائع على أننا نملك التفوق على الخصم فلماذا لا تستطيع اللجنة المركزية أن تبدأ؟" ولم يكن لهذه المسألة بين شـفتي لينين أي طابع للتصنع. كان لينين يعني: لماذا نضيع الوقت، وقد ألفنا الجهاز المعقد للسوفييت إذا كانت اللجنة المركزية تستطيع أن تعطي الإشارة فورًا؟ ومع ذلك انتهى القرار الذي اقترحه لينين في هذه المرة بالتعبير "عن ثقته بأن تحدد اللجنـة المركزيـة والسوفييت في الوقت المطلوب اللحظة الملائمة ووسائل العمل المعقولة". وكانت الإشارة إلى السوفييت، إلى جانـب الحـزب،

والصيغة الأكثر مرونة حول موضوع تاريخ الانتفاضة ناجمة عن مقاومة الجماهير التي أحس لينين بها عن طريق زعماء الحزب.

وفي اليوم التالي لخص لينين في محاورة تمت مع زينوفييف وكامنييف النقاش الذي دار بالأمس: "كان الجميع متفقين على النقطة التالية؛ وهي أن العمال سيزحفون كرجل واحد عند دعوة السوفييتات وللدفاع عنها". وكان الكلام يعني أنه إذا لم يكن الجميع متفقين على الرأي معه، أي مع لينين، حول إمكانية إطلاق الدعوة باسم الحزب، فالجميع متفقون على أنه ربما تطلق الدعوة باسم السوفييتات.

وكتب لينين في مساء ٢٤ قائلاً: "من ينبغي أن يتسلم السلطة؟ إن هذا لا أهمية له في الوقت الحاضر": فلتستلم السلطة اللجنة العسكرية الثورية أو "أية مؤسسة أخرى" تعلن أنها ستعيد السلطة إلى ممثلي مصالح الشعب الحقيقيين فقط... "وأن تعبير" "المؤسسة الأخرى" الذي يتألف من كلمات موضوعة بين قوسين محاطين بالألغاز تشير في لغة تآمر إلى اللجنة المركزية للبلاشفة. وقد جدد لينين هنا اقتراحه الذي قدمه في سبتمبر (أيلول): العمل مباشرة باسم اللجنة المركزية في الحالة التي تمنع فيها الشرعية السوفييتية اللجنة العسكرية الثورية من وضع المؤتمر أمام الأمر الواقع للانتفاضة.

وفضلاً عن أن كل هذا الصراع حول مدد وطرق الانتفاضة قد استمر عدة أسابيع، لم ينتبه كل من شاركوا فيه إلى دلالته وأهميته. وقد كتب ستالين في عام ١٩٢٤ قائلاً: "اقترح لينين استلام السلطة من قبل السوفييتات، سوفييت لينينغراد أو موسكو، لا من وراء ظهر السوفييتات. فلماذا احتاج تروتسكي إلى هذه الأسطورة المغرقة في غرابتها عن لينين؟" وأضاف قائلاً: "إن الحزب يعرف لينين بصفته أعظم ماركسي في زمننا... بعيدا عن كل ظل للبلانكية". في حين كان تروتسكي يمثل "قزمًا بلانكيًا... لا لينين العملاق". وهو لا يتهم تروتسكي بالبلانكية فحسب، بل يتهمه بأنه قزم أيضًا. وفي الحقيقة، لم تتقرر مسبقًا من أي مذهب من المذاهب مسألة معروفة باسم من ستتم الانتفاضة ولأية مؤسسة ستسلم السلطة. وتبدو الانتفاضة أمام الشروط العامة لأي عصيان كمسألة فنٍ عملي يمكن حلها بوسائل مختلفة. وفي هذا الجزء، كانت الخلافات في اللجنة المركزية مماثلة لمناقشات ضباط هيئة الأركان العامة، المدربين على العقيدة العسكرية الواحدة ذاتها، ويضعون أحكامًا مماثلة للوضع الإستراتيجي بمجمله، ولكنهم يقترحون للمعضلة القادمة حلولاً تبادلية هامة في الحقيقة استثنائيًا، ولكنها جزئية مع ذلك. والزج بالماركسية والبلانكية في هذه المسألة يعني عدم فهم هذه أو تلك.

وأنكر الأستاذ بوكروفسكي معنى **الإحراج الثنائي (الدايلما)** أيضًا: السوفييت أم الحزب؟ وقد صرح هازئًا، أن الجنود لا يتمسكون بالشكليات أبدًا؛ أنهم لم يكونوا بحاجة إلى مؤتمر السوفييتات لكي يقبلوا كرنسكي. ومهما تكن طرافة طرح المسألة بهذا الشكل، فإنها تترك نقطة غير واضحة: فلماذا إذن ننشئ السوفييتات إذا كان الحزب وحده يكفي؟ وتابع الأستاذ قائلاً: "من الغريب أنه في كل هذا الجهد المبذول لعمل كل شيء بصورة شرعية، لم ينتج أي شيء شرعي من وجهة النظر السوفييتية، ولم يستلم السوفييت السلطة في اللحظة الأخيرة بل استلمها حزب واضح بأنه (غير شرعي) ومشكل لهذا الغرض". وزعم بوكروفسكي بأن تروتسكي اضطر إلى إعلان قلب حكومة كرنسكي "باسم اللجنة العسكرية الثورية" لا باسم مجلس السوفييت. حقًا إنه لمبرر غير متوقع أبدًا! كانت اللجنة العسكرية الثورية جهازًا منتخبًا من قبل السوفييت، ولا يتعارض الدور القيادي للجنة في الانتفاضة بأية حال من الأحوال مع الشرعية السوفييتية التي يتهكم الأستاذ عليها، والتي كانت الجماهير مع ذلك تنظر إليها بكثير من الغيرة والحرص. وقد شكل **مجلس مفوضي الشعب** أيضًا لهذا الغرض، الأمر الذي لم يمنعه من أن يكون وأن يبقى **جهاز السلطة السوفييتية**، وأن يبقى فيه بوكروفسكي ذاته، كمعاون لمفوض الشعب للتعليم العام.

لقد تمكنت الانتفاضة من الاستمرار على أرضية الشرعية السوفييتية وفي إطارات تقاليد ازدواجية السلطات، إلـى حـد كبير، بفضل ولاء حامية بتروغراد خاصة ولاءً تامًا للسوفييت ابتداءً من تاريخ ما قبل الانتفاضة. وقد اعتبر هذا الواقـع فـي كثير من المذكرات والمقالات التي كتبت بمناسبة الذكرى السنوية للانتفاضة، وفي المحاولات التاريخية الأولى لكتابـة تـاريخ الانتفاضة، اعتبر هذا الواقع الذي أكدته كثير من الوثائق واقعًا لا جدال فيه. وقد ذكر أول كتيب عن ثـورة أكتـوبر (تـشرين الأول) كتبه مؤلف هذا الكتاب في أوقات الفراغ بين جلسات محادثات بريست - ليتوفسك، استنادًا إلى ذكريات حديثـة، وهـو كتيب اعتبره الحزب خلال سنوات كتابًا من كتب تاريخ الثورة: "وتطور النزاع في بتروغراد حول مسألة مـصير الحاميـة". وصرح سادوفسكي، وهو أحد الأعضاء المنظمين المباشرين للانتفاضة، بوضوح أكبر: "إن المسألة الأساسية التي شيدت حولها ونظمت كل الحركة في أكتوبر (تشرين الأول) هي مسألة تحريك أفواج الحامية إلى الجبهة الشمالية..." ولم تخطر علـى بـال أحد من زعماء الانتفاضة المباشرين الذين شاركوا في النقاش المشترك الذي يستهدف مباشرة إعادة تاريخ الأحداث، لم تخطـر على بال أحد منهم فكرة معارضة سادوفسكي في قوله هذا أو تصحيحه. وقد اكتشفنا فجأة فقط منذ عـام ١٩٢٤ أن تروتـسكي يبالغ في أهمية الحامية الفلاحية على حساب أهمية عمال بتروغراد: اكتشاف علمي يتوج الاتهام بتقليل أهمية الطبقة الفلاحيـة على وجه لا يمكن أن يكون هناك أفضل منه.

وقد فسر لنا عشرات من المؤرخين الشباب وعلى رأسهم الأستاذ بوكروفسكي فـي هـذه الـسنوات الأخيـرة أهميـة البروليتاريا في الثورة البروليتارية، وكانوا ساخطين عندما رأوا أننا لم نتحدث أبدًا عن العمال في السطور التي تحدثنا فيها عن الجنود، وأقنعونا بأنهم حللوا السير الحقيقي للأحداث بدلاً من أن يكرروا الدرس كتلميذ من التلامذة. ولخص بوكروفسكي نتـائج هذا النقد بالاستنتاج التالي: "فضلاً عن أن تروتسكي يعرف تمامًا بأن العمل المسلح قد تقرر من قبل الحزب... ومع أننـا نجـد كل حجة للعمل بأنها ذات أهمية ثانوية بالطبع، رغم كل هذا نجد حامية بتروغراد بالنسبة إليه في مركز الاهتمام -وكما لو أنه لم يكن من الممكن التفكير بالانتفاضة لولا حامية بتروغراد". والمهم فقط بالنسبة لمؤرخنا هـو "قـرار الحـزب" فقـط حـول الانتفاضة. ولكن كيف حدثت الانتفاضة بالفعل، إن حدوثها "مسألة ثانوية"، وبوسعه أن يجد مبـرر حـدوثها دومًـا. ويـسمى بوكروفسكي "المبرر" وسيلة كسب الجند، أي بالضبط حل المسألة التي يتلخص فيهـا مـصير كـل الانتفاضـة. وأن الثـورة البروليتارية ستحدث من دون شك، حتى ولو لم يكن هناك نزاع حول موضوع إجلاء الحامية عن العاصمة. وكان الأستاذ على حق في هذه النقطة. ولكنها ستكون عندئذ انتفاضة أخرى، وستتطلب عرضًا تاريخيًّا مختلفًا. إلا أن أمامنا الأحداث التي وقعـت في الحقيقة.

وألح مالاخوفسكي -وهو أحد المنظمين الذي أصبح فيما بعد مؤرخ الحرس الأحمر- ألح من جهته على النقطة التاليـة، وهي أن العمال المسلحين، المتميزين عن الحامية نصف السلبية هم الذين أظهروا المبادرة والتصميم والمقاومة في الانتفاضـة. فقد كتب مالاخوفسكي يقول: "احتلت مفارز الحرس الأحمر خلال انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) المؤسسات الحكومية، ومركز البريد والبرق، وكانت في الطليعة ساعة القتال... إلخ"، كل هذا لا يقبل النقاش. ومع ذلك ليس من الصعب أن نفهم أنه إذا تمكن الحرس الأحمر بكل بساطة من "احتلال" المؤسسات، فقد تم ذلك لأن الحامية كانت متفقة معه، وتدعمه، أو لا تعارضـه علـى الأقل. وهذا هو الذي قرر مصير الانتفاضة.

وعندما يتوصل إلى التساؤل فقط عمن كان أهم للانتفاضة، الجنود أم العمال، ندلل على مستوى نظري محزن لا يبقـى معه أي مجال للنقاش. كانت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) معركة للبروليتاريا ضد البرجوازية من أجل السلطة. ولكن الموجيـك هو الذي قرر نتيجة المعركة في نهاية المطاف. ووجد هذا المشهد العام الذي انتشر في كل البلاد، وجد في بتروغـراد أكمـل تعبير عنه. وأن الذي أعطى للانتفاضة في العاصمة طابع ضربة موجهة بسرعة مع أحداث الحد الأدنى مـن الـضحايا، هـو

المزيج بين المؤامرة الثورية، والانتفاضة البروليتارية ومعركة الحامية الفلاحية من أجل سلامتها الخاصة. وقاد الحزب الانتفاضة. وكانت القوة المحركة الرئيسية هي البروليتاريا. وشكلت المفارز العمالية المسلحة قبضة الصدام الضاربة. بَيد أن نتيجة المعركة قد تقررت بواسطة الحامية الفلاحية، التي كان من الصعب تحريضها على العصيان.

وفي هذه المسألة بالضبط يظهر التشابه التام بين انتفاضتي فبراير (شباط) وأكتوبر (تشرين الأول). كانت الحامية تمثل في عشية قلب النظام الملكي عاملاً مجهولاً بالنسبة للطرفين المتنازعين. وكان الجنود أنفسهم يجهلون أيضًا كيف ستكون ردود أفعالهم تجاه الانتفاضة. وكان الإضراب العام وحده هو الذي أقام الأرضية الضرورية للقاءات الجماهيرية بين العمال والجنود، للتحقق من وجود الجند في ساحة العمل، ولانتقال الجنود إلى صفوف العمال. ذلك هو المحتوى المأساوي لأيام فبراير (شباط) الخمسة.

وفي عشية قلب الحكومة المؤقتة انحازت الأكثرية الساحقة للحامية إلى جانب العمال بصورة مكشوفة. ولم تستشعر الحكومة في أي مكان من أنحاء البلاد مثل عزلتها في عقر دارها؛ فلم تكن على خطأ أبدًا عندما حاولت الفرار من العاصمة. ولكن بدون جدوى؛ فالعاصمة المعادية لها لم تدعها تغادرها. وأخيرًا ضاعت الحكومة نهائيًا عندما حاولت عبثًا إبعاد الأفواج الثورية عن العاصمة.

وكان تفسير سياسة كرنسكي السلبية إزاء الانتفاضة بعزوها إلى صفاته الشخصية وحدها هو انحراف عن جادة الصواب. فكرنسكي لم يكن وحيدًا. وكان هناك في الحكومة رجال مثل بالتشينسكي لا يفتقرون إلى القوة. وكان زعماء اللجنة التنفيذية يعرفون جيدًا أن انتصار البلاشفة سيؤكد موتهم السياسي. ومع هذا أصاب الشلل الجميع، وأصابهم فرادى أو جماعات وبقوا، كما بقي كرنسكي في نوع من الاستكانة المطلقة، وهي استكانة الإنسان الذي يستشعر رغم الخطر الداهم عجزه عن رفع يده لدفعه.

ولم ينجم تآخي العمال والجنود أبدًا في أكتوبر (تشرين الأول) عن نزاع مكشوف في الشوارع كما تم في فبراير (شباط)، ولكنه سبق الانتفاضة. وإذا كان البلاشفة لم يدعوا في هذه المرة إلى الإضراب العام، فلم يكن ذلك بسبب منعهم من ذلك، ولكن لأنهم لم يروا حاجة لذلك فقط. واستشعر اللجنة العسكرية الثورية منذ ما قبل الانتفاضة أنها سيدة الموقف؛ كانت تعرف كل قوة في الحامية، ومناخها الفكري، وتجمعاتها الداخلية. وكانت تتلقى التقارير الصادقة يوميًا، وهي تعبر عن كل ما يجري. وكان بوسعها في الوقت المطلوب، أن ترسل مفوضًا مطلق الصلاحية إلى أي فوج، ودراجة نارية تحمل أمرًا، كما كان بوسعها أن تستدعي هاتفيًا لجنة أية قوة، أو ترسل أمرًا يوميًا إلى أية سرية. واحتلت اللجنة العسكرية الثورية إزاء القطعات وضع هيئة أركان حكومية لا وضع هيئة أركان لمجموعة من المتآمرين.

حقًا، إن مراكز قيادة الدولة بقيت بين يدي الحكومة، ولكن قواعدها المادية انتزعت من يديها. وقامت الوزارات وهيئات الأركان على فراغ. واستمر الهاتف والبرق في خدمة الحكومة، كما استمر مصرف الدولة. ولكن الحكومة لا تملك أبدًا القوات العسكرية الضرورية لكي تحتفظ بالسيطرة على هذه المؤسسات. ويبدو أن قصر الشتاء ومعهد سمولني قد بدلا موقعهما. ووضعت اللجنة العسكرية الثورية الحكومة - الظل في وضع لا تستطيع معه هذه الحكومة القيام بأي عمل دون أن تحطم الحامية أولاً. ولم تؤد كل محاولات كرنسكي لضرب القطعات إلا إلى التعجيل بالنهاية.

ورغم كل هذا بقيت مسألة الانتفاضة دون حل. وكان كل نابض وكل ترس في جهاز ساعة الانتفاضة بين يدي اللجنة العسكرية الثورية. ولكن الساعة تفتقر إلى المينا والعقارب. وعندما تفتقر الساعة لمثل هذه الأجزاء الدقيقة تصبح آلة لا فائدة

منها. ولم تكن اللجنة العسكرية الثورية تستطيع أن تحكم وهي لا تتصرف بالبرق والهاتف، ومصرف الدولة، وهيئة أركان. لقد كانت اللجنة تتصرف بما يشبه كل الأمائر الحقيقية، وبعناصر السلطة، ولكنها لا تتصرف بالسلطة ذاتها.

ولم يكن العمال يفكرون في فبراير (شباط) بالاستيلاء على مصرف الدولة، وعلى قصر الشتاء، بل كانوا يفكرون بتحطيم مقاومة الجيش. وكانوا يكافحون لا لكسب بعض مراكز القيادة، بل لكي يكسبوا نفسية الجندي. وعندما تحقق الانتصار على هذه الأرضية في أكتوبر (تشرين الأول)؛ حيث حلت كل المعضلات الأخرى من تلقاء ذاتها، فعندما تخلى النظام الملكي عن كتائب حرسه، لم يحاول أبدًا الدفاع عن قصوره ولا عن هيئات أركانه.

وفي أكتوبر (تشرين الأول) عندما خسرت حكومة كرنسكي نفسية الجندي إلى غير عودة، تعلقت أيضًا بمراكز القيادة. ولم تكن هيئات الأركان، والمصارف والهواتف تشكل بين أيديها إلا واجهة السلطة. وعندما انتقلت هذه المؤسسات إلى أيدي السوفييتات كان عليها أن تؤمن الاستيلاء التام على السلطة. ذلك هو الوضع في عشية الانتفاضة؛ فقد كان هذا الوضع يحدد طرق العمل في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة.

ولم تقع أية مظاهرة، أو معارك في الشوارع، ولم تقم المتاريس، ولم يحدث كل ما يفهم عادة من كلمة "الانتفاضة"؛ إذ لم تكن الثورة بحاجة إلى حل مسألة قد حلت سابقًا. وكان من الممكن أن يتم الاستيلاء على الجهاز الحكومي حسب خطة، وبمساعدة مفارز مسلحة ضعيفة العدد نسبيًّا، تنطلق من مركز موحد. وكان من الممكن احتلال الثكنات، والقلعة، والمستودعات، وكل المؤسسات التي يعمل فيها العمال والجنود، بالقوات الداخلية الخاصة لهذه المؤسسات. ولكن لم يكن من الممكن احتلال قصر الشتاء، ومبنى اللجنة التحضيرية للمجلس النيابي، وهيئة أركان المنطقة، والوزارات، ومدارس اليونكرز من الداخل. وكان الوضع على هذه الشاكلة بالنسبة للهاتف والبرق، والبريد، ومصرف الدولة، ورغم هذا، كان مستخدمة هذه المؤسسات، الذين كانوا يملكون بعض الثقل في تركيب القوى العام، كانوا رغم هذا أسيادًا داخل هذه المؤسسات من الخارج إلى أن يتم النفاذ إلى قيادات البيروقراطية ذاتها. وحل العنف محل الوسائل السياسية خلال الاستيلاء على هذه المؤسسات. ولكن بما أن طرد الحكومة مؤخرًا من قواعدها العسكرية جعل مقاومتها شبه مستحيلة، فقد تم الاستيلاء على مراكز القيادة الأخيرة بدون صدام بوجه عام.

ولم تتم الانتفاضة مع كل هذا دون وقوع بعض المعارك؛ كان لا بُدَّ من الهجوم على قصر الشتاء. ولكن نظرًا لأن مقاومة الحكومة قد اقتصرت على الدفاع عن القصر، فإن هذا الواقع يحدد بوضوح مكان ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) في تطور المعركة. وكان قصر الشتاء آخر معقل لنظام تحطم سياسيًّا خلال ثمانية أشهر من وجوده، ونزع سلاحه نزعًا تامًا في خلال الخمسة عشر يومًا الأخيرة.

وقد احتلت عناصر المؤامرة، التي نعني بها خطة المؤامرة والقيادة المركزية للمؤامرة في ثورة فبراير (شباط) مكانًا تافهًا. وقد نجم هذا عن ضعف وعزل المجموعات الثورية بعضها عن بعض من جراء وطأة الهجوم القيصري، وبسبب الحرب. ولهذا كانت المهمة مهمة أكبر بالنسبة للجماهير. فقد كان للثوار تجربتهم السياسية، وتقاليدهم، وشعاراتهم اليومية، وزعماؤهم المجهولون. ولكن إذا كانت عناصر القيادة المبعثرة للانتفاضة كافية لقلب النظام الملكي، إلا أنها كانت بعيدة عن أن تكون وفيرة لكي تتيح للمنتصرين ثمار نصرهم الخاص.

وقد أعطى الهدوء في الشوارع في أكتوبر (تشرين الأول)، وغياب الجماهير، وانعدام المعارك، أعطى كل هذا الخصوم دوافع للتحدث عن مؤامرة أقلية لا ثقل لها، ومغامرة حفنة من البلاشفة. وقد استخدمت هذه الصيغة في الأيام والشهور، وحتى

في السنوات التي تلت الانتفاضة في عدة مناسبات. وكتب ياروسلافسكي حول موضوع ٢٥ أكتوبر (تـشرين الأول) محـاولاً تجديد السمعة الحسنة للانتفاضة البروليتارية: "ووقف الجماهير القوية من بروليتاريا بتروغراد، عندما وجهت اللجنة العسكرية الثورية دعوتها، وقفت هذه الجماهير تحت رايات اللجنة واجتاحت شوارع بتروغراد". ونسي المؤرخ الرسمي أن يفسر الهدف الذي من أجله دعت اللجنة العسكرية الثورية الجماهير إلى الشارع، وماذا عملت هذه الجماهير في الشوارع بالضبط.

وقد جاءت المبالغة بتمجيد ثورة فبراير (شباط) على الصعيد الرسمي من مزيج من القوة والضعف فيها، وصورها هـذا التمجيد على أنها من صنع كل الأمة بمقارنتها مع انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) المعتبرة كمؤامرة. وفي الحقيقة، كان بوسـع البلاشفة أن يعيدوا المعركة من أجل السلطة في اللحظة الأخيرة إلى "مؤامرة"، لا لأنهم كانوا أقلية صغيرة، بل على العكس لأن وراءهم في الأحياء العمالية والثكنات أكثرية ساحقة، متجمعة بقوة، تتمتع بالنظام والضبط.

ولا يمكن فهم انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) بصورة صحيحة إلا إذا نظرنا إليها في كل أبعادها ولـم تقتـصر علـى المشهد الأخير منها. ففي نهاية فبراير (شباط) تمت لعبة شطرنج الانتفاضة بين الخصمين من الشوط الأول وحتى النهايـة، أي إلى أن تخلى الخصم. وأما في نهاية أكتوبر (تشرين الأول) فقد كانت اللعبة الرئيسية جزءًا من الماضي، واقتصر الأمر في يوم الانتفاضة على حل مسألة محددة: هي موت الشاه بحركتين. وبناء على هذا، فإنه من الضروري تأريخ فترة الانتفاضة بدءًا من ٩ أكتوبر (تشرين الأول) عندما بدأ النزاع حول الحامية أو من ١٢ عندما تقرر إنشاء اللجنة العـسكرية الثوريـة. واسـتمرت مناورة التطويق أكثر من خمسة عشر يومًا. ودامت أكثر اللعبات حسمًا من خمسة أيام إلى ستة، منذ اللحظة التي أنشئت فيهـا اللجنة العسكرية الثورية. وقد عمل مباشرة خلال كل هذه الفترة مئات الألوف من الجنود والعمال من أجل الدفاع في الظـاهر، بينما كانوا يعملون في الحقيقة من أجل الهجوم. واستغرقت المرحلة الأخيرة، التي استبعد الثوار خلالها نهائيًّا الأشكال التقليديـة لازدواجية السلطات بشرعيتها المريبة، ولغتها الدفاعية المفخمة، استغرقت ٢٤ ساعة فقط: من الساعة الثانية مـن صـباح ٢٥ حتى الساعة الثانية من صباح ٢٦. وفي هذه الفاصلة الزمنية استخدمت اللجنة العسكرية الثورية الـسلاح بـصورة مكـشوفة للاستيلاء على المدينة واعتقال أعضاء الحكومة، وشارك في العمليات، بمجملها، عدد كاف من القوات لتنفيذ مهمـة محـددة. وكان تعداد هذه القوات أكثر على كل حال من ٢٥,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ جندي.

وقد زار مؤلف إيطالي لا يكتب مؤلفات عن ليالي الخصيان فحسب، بل عن أكبر مشاكل الدولة أيـضًا، زار موسـكو السوفييتية في عام ١٩٢٩، وخرفش بعض الأشياء التي استطاع أن يسمعها من هنا وهناك، وألف على هذا الأساس كتابًا يعالج **تقنية الانقلاب**. وأن اسم هذا المؤلف **مالابارت** يسمح بالتمييز بسهولة بينه وبين أخصائي آخر في الانقلابات يدعى بونابرت.

وقد كتب مالابارت قائلاً: خلافًا "لإستراتيجية لينين" التي تتطابق مع الشروط الاجتماعية والسياسية لروسـيا فـي عـام ١٩١٧، كان "تكتيك تروتسكي لا ينطبق أبدًا على الشروط العامة للبلاد". ويريد المؤلف أن يجيب تروتسكي علـى اعتبـارات لينين عن الأمائر السياسية للانتفاضة بالشكل التالي: "تتطلب إستراتيجيتك كثيرًا من الظروف الملائمة، إن الانتفاضة لا تحتـاج إلى شيء، إنها تكفي نفسها بنفسها". فهل يمكن أن نتصور سخافة مؤكدة أكثر من هذه السخافة. وقد كرر مالابارت فـي عـدة مناسبات أن الانتصار في أكتوبر (تشرين الأول) لم يجئ من إستراتيجية لينين، بل من تكتيك تروتسكي". ويهدد هذا التكتيك في الوقت الحاضر أيضًا هدوء الدول الأوروبية. "إن إستراتيجية لينين لا تشكل إذن خطرًا مباشرًا على حكومات أوروبا؛ فـالخطر الحالي –والدائم- بالنسبة لها هو تكتيك تروتسكي". وبصورة أكثر تحديدًا أيضًا: "ضعوا بوانكاريه في مكان كرنسكي وسـينجح انقلاب مماثل للانقلاب البلشفي في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ أيضًا". وهكذا فإننا نبحث عبثًا عـن الفائـدة التـي تقـدمها إستراتيجية لينين عمومًا، هذه الإستراتيجية المرتبطة بالشروط التاريخية، إذا كان تكتيك تروتسكي قادرًا على حل المسألة ذاتهـا

في كل الظروف. ويجب أن نضيف إلى ذلك أن هذا الكتاب نشر في عدة لغات، وتعلَّم منه كثير من رجال الدولة كيفية إحبـــاط الانقلابات. وعلى هذا فلنتمنى لهم النجاح.

ولم يتم نقد العمليات العسكرية الصرفة التي نفذت يوم ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) حتى الآن. ويتمتع كل ما هو موجود في هذا الموضوع في الأدبيات السوفييتية بطابع لا نقدي، ولكنه تقريظي صرف. وإلى جانب كتابات الجيل الثاني، يتميز النقــد الذي قام به سوخانوف، برغم كل تناقضاته بالملاحظة الدقيقة للأحداث.

وقد أعطى سوخانوف في حكمه على تنظيم انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) في خلال عامين رأيــين متناقــضين كــل التناقض؛ إذ قال في الجزء المكرس لانتفاضة فبراير (شباط): "سأصف فيما يلي واستنادًا إلى ذكريـــاتي الشخــصية انتفاضـــة أكتوبر (تشرين الأول) التي تمت حسب إيقاع معين وكأنها قطعة موسيقية". وكرر ياروسلافسكي حكم سوخانوف هذا حرفيًا فقد كتب يقول: "كانت الانتفاضة في بتروغراد معدة بصورة جيدة ولعبها الحزب وكأنه يلعب معزوفــة موســيقية علــى (نوتــة) موسيقية". ويبدو أن كلود آني -وهو مراقب معاد عبر عن رأيه بتصميم أكبر أيضًا، ولكنه دقيق الملاحظة، مع أنه لا يتمتع بأي عمق- قال آني: "لا يوحي انقلاب ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) إلا بالإعجاب. ولم يحدث أي تصدع وقلبت الحكومة دون أن يتاح لها الوقت للصياح: أواه!". في حين على العكس روى سوخانوف في الجزء المكرس لثورة أكتوبر (تشرين الأول) كيف شرعت سمولني "سرا، وبالتحسس وبحذر وفوضى" في تصفية الحكومة المؤقتة.

وهناك مبالغة في الحكمين الأول والثاني. ولكن من الممكن أن نسلم، من وجهة نظر عامة، بأن الحكمــين مهمــا كانــا متعارضين يستندان إلى الوقائع. فقد نجم الطابع العقلاني لانتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) عن العلامات الموضوعية خاصـــة، وعن نضج الثورة بمجملها، والمكان الذي احتلته بتروغراد في البلاد، والمكان الذي احتلته الحكومة في بتروغراد، وكل العمــل المسبق للحزب، ومن السياسة الحكيمة للانتفاضة. ولكن تبقى أيضًا مسألة التقنية العسكرية. وفي هذه النقطة، كان هنـــاك عــدد وافر من الأخطاء الجزئية إذا ما جمعت تكوَّن لدينا انطباع بأن العمل قد تم بصورة عشوائية.

وقد أشار سوخانوف في عدة مناسبات إلى عجز سمولني من الناحية العسكرية وحتى في الأيام الأخيــرة التــي ســبقت الانتفاضة. وفي الواقع، لم يكن الدفاع عن هيئة أركان الثورة أفضل من الدفاع عن قصر الشتاء. وكانـــت اللجنـــة العــسكرية الثورية تؤمن حمايتها قبل كل شيء بتعزيز اتصالاتها مع الحامية. وحصلت بواسطة الحامية على إمكانية مراقبة كل الحركـــات الإستراتيجية للخصم. واتخذت اللجنة بعض التدابير الأكثر خطورة من وجهة نظر العمليات الحربية قبل ٢٤ ساعة تقريبًا مـــن التدابير التي اتخذتها الحكومة. وأكد سوخانوف بأنه لو أظهرت الحكومة بعض المبادرة في ليلة ٢٣/ ٢٤ لتمكنـــت مـــن إلقـــاء القبض على أعضاء اللجنة، "وكانت مفرزة مؤلفة من ٥٠٠ رجل كافية جدًا للقضاء على سمولني وكافة الموجودين فيه". وهــذا ممكن. ولكن **أولاً**، كانت الحكومة تحتاج إلى التصميم، والذكاء لتحقيق هذا الهدف؛ أي أنها كانت تحتاج إلى صـــفات مــضادة لطبيعتها. **ثانيًا**، كانت الحكومة تحتاج إلى "مفرزة مؤلفة من ٥٠٠ رجل". فمن أين تحصل عليها؟ هل تشكلها من الضباط؟ لقــد رأيناهم في نهاية أغسطس (آب) في دورهم كمتآمرين، وكنا مضطرين إلى الذهاب للبحث عنهم في الملاهي الليلية. وقد تفتــت سرايا (دروجيني) التابعة للتوفيقيين. وفي مدارس اليونكرز، كانت كل مسألة خطيرة تفسح مجالاً لتجمعـــات جديـــدة. وكانـــت الأمور تجري على شاكلة أسوأ من ذلك في صفوف القوزاق. فتشكيل مفرزة بانتقائها من أوساط مختلفة كان يعنـــي أن تخـــدع الحكومة نفسها أضعاف المرات مما خدعت نفسها إلى أن تحقق هذا العمل.

ورغم هذا، لو أن مثل هذه المفرزة قد وجدت لما حسمت الأمر أبدًا. ولكان لأول طلقة تطلق أمـــام ســـمولني صـــداها الرهيب في الأحياء العمالية والثكنات. ولهرع إلى مركز الثورة المهدد، في أية ساعة من النهار أو الليل عشرات الألوف مـــن

الرجال المسلحين أو نصف المسلحين لنجدته. وأخيرًا لم يكن اعتقال أعضاء اللجنة العسكرية الثورية لينقذ الحكومة. وكان لينين موجودًا خارج أسوار سمولني ومعه اللجنة المركزية ولجنة بتروغراد. وكانت هناك في قلعة بطرس وبولص هيئة أركان ثانية، وهيئة أركان ثالثة على الطراد اورور، وهيئات أركان أخرى في الأحياء. ولم تكن الجماهير لتبقى بدون قيادة. وكان العمال والجنود، رغم بطء العمليات، يريدون الانتصار مهما كان الثمن.

ومما لا ريب فيه رغم هذا أنه كان بالإمكان اتخاذ بعض التدابير الإضافية في الحذر الإستراتيجي، وكان لا بُدَّ من اتخاذها قبل بضعة أيام. وفي هذا الصدد كان نقد سوخانوف لهذه الناحية صحيحًا فقد عمل جهاز الثورة العسكري بعشوائية وبطء وإهمال، وكانت الإدارة العامة للثورة تجنح إلى إحلال السياسة محل التقنية. وكانت عين لينين غائبة كثيرًا عن سمولني. وكان الآخرون لم يتعلموا بعد بصورة جيدة.

وكان سوخانوف على حق في القول بأن الاستيلاء على قصر الشتاء في ليلة ٢٤/ ٢٥ أو في صبيحة هذا اليوم كان أسهل بصورة لا تقارن من القيام بهذا العمل في النصف الثاني من اليوم وحتى الليل؛ فقد كان القصر، كما كان المبنى المجاور لهيئة الأركان، محروسًا من قبل الزمر العادية لليونكرز، وكان بوسع هجوم يتم على حين غرة أن ينجح بالتأكيد. وفر كرنسكي بالسيارة في الصباح دون أن تعترضه أية عقبة؛ ويكفي هذا الواقع للبرهان على أنه لم تتم أية مراقبة جدية لقصر الشتاء. وهذه الثغرة واضحة كل الوضوح!

وفي الحقيقة أوكلت مهمة مراقبة الحكومة المؤقتة -بصورة متأخرة: بتاريخ ٢٤!- إلى سفردلوف يعاونه لاشوفيتش وبلاغونرافوف. ومن المشكوك فيه أن يكون سفردلوف، الذي لم يكن يعرف آنذاك أين يركز فكره قد اهتم بهذه المسألة الجديدة. ومن الممكن أيضًا أن يكون القرار، المسجل رغم هذا على محضر الجلسة قد نسي وسط حمى تلك الساعات.

وبرغم كل شيء كان أعضاء اللجنة العسكرية الثورية يبالغون في تقدير القوى العسكرية للحكومة ، وأهمية حراسة قصر الشتاء خاصة. ولو أن الزعماء المباشرين للحصار عرفوا عدد القوات الموجودة داخل القصر، لكان عليهم أن يخشوا أيضًا وصول النجدات إليه عند أول إشارة للخطر من اليونكرز، والقوزاق، وقطعات الصدام. وقد وضعت خطة الاستيلاء على قصر الشتاء بأسلوب عملية واسعة النطاق؛ فعندما ينكب المدنيون أو أنصاف المدنيين على حل معضلة عسكرية صرفة، يجنحون دومًا إلى استخدام الحيل الإستراتيجية؛ فيُظهرون عجزهم الواضح في هذه الحالة، علاوة على حذلقتهم وادعائهم بالمعرفة.

ويفسر عدم التماسك، عند الاستيلاء على القصر، إلى حد ما بالصفات الشخصية للزعماء الرئيسيين؛ إذ كان بودفويسيكي وأنطونوف - أوفسينكو وتشودنوفسكي رجالاً من عجينة بطولية. ولكن ربما كان من الواجب أن نقول إنهم لم يكونوا أبدًا رجالاً يتسمون بالأسلوب والفكر المنضبط. وقد أصبح بودفويسكي الذي كان خلال أيام يوليو (تموز) يتدفق حماسًا ونشاطًا، أكثر حذرًا، وأكثر تشاؤمًا إزاء إبعاد المستقبل القريب، ولكنه بقي في أعماقه مخلصًا لنفسه؛ فقد كان عندما يوضع أمام أية مهمة عملية، يميل عضويًّا إلى التحرر من الإطارات المحددة، وإلى توسيع خطته، وإلى توريط كل الناس، وإلى إشراك الحد الأقصى من القوات حيث يكفي الحد الأدنى. وبوسعنا أن نجد دون صعوبات بصمات فكره مطبوعة على الطابع المتطرف للخطة. وكان أنطونوف – أوفسينكو، بطبيعته متفائلاً مندفعًا، أقدر على الارتجال منه على الحساب والتقدير. ويملك أوفسينكو بصفته ضابطًا سابقًا من الضباط الأعوان بعض المعارف في الفن العسكري. وقد استلم خلال الحرب الكبرى كمهاجر الزاوية العسكرية في **صحيفة ناشيه سلوفو (كلمتنا)** التي ظهرت في باريس، وبرهن أكثر من مرة عن مهارة إستراتيجية. ولم تكن معلومات أوفسينكو العسكرية الملحوظة قادرة على موازنة تحليقات بودفويسكي المتطرفة. أما تشودنوفسكي ثالث القادة

العسكريين فقد عاش عدة أشهر في جبهة هادئة كمحرض، وكان هذا هو كل ما تلقاه من التدريب كرجل حربي. ومع أن تشودنوفسكي يميل إلى الجناح اليميني، إلا أنه رغم هذا كان أول من يشتبك في المعركة ويفتش دومًا عن أخطر المواقع فيها. إن الشجاعة الشخصية والجرأة السياسية كما نعرف لا تتوازنان دومًا. وبعد عدة أيام من الانتفاضة جرح تشودنوفسكي في بتروغراد في مناوشة مع قوزاق كرنسكي، وبعد عدة أشهر قتل في أوكرانيا. ومن الواضح أن تشودنوفسكي المندفع والصريح لا يستطيع أن يعوض ما افتقر إليه الزعيمان الآخران. فلم يكن أي منهما ميالاً إلى بحث التفاصيل، وذلك لسبب بسيط هو أنهما لم يكونا مؤهلين لفهم أسرار المهنة. واستشعر المارشالات الحمر الذين أحسوا بضعفهم في كل ما يتعلق بخدمات الكشافين، والارتباط، والمناورة، الحاجة إلى غمر قصر الشتاء بقوات متفوقة إلى حد كبير حتى أن مسألة القيادة العملية للهجوم لم تطرح أبدًا؛ فقد كانت الأبعاد المفرطة والضخمة للخطة تساوي عدم وجودها تقريبًا. وما قيل أعلاه لا يعني أبدًا وجود قادة عسكريين آخرين أكثر تمرسًا وتجربة في اللجنة العسكرية الثورية أو حولها. وعلى كل حال فإن بوسعنا التأكيد على أنه كان من المتعذر وجود قادة للانتفاضة أكثر إخلاصًا وتجردًا منهم.

وبدأت المعركة للاستيلاء على قصر الشتاء باحتلال كل الدائرة وعلى محيط كبير. وجرت هذه العملية المعقدة ببطء شديد نظرًا لافتقار القادة إلى التجربة، وضعف الاتصال، وعدم صلاحية مفارز الحرس الأحمر، وافتقار القوات النظامية إلى البأس والشدة. وفي نفس الساعات التي كانت فيها مفارز الحرس الأحمر تضيق خناق الحصار تدريجيًّا وتحشد الوحدات الاحتياطية خلفها، كانت سرايا اليونكرز، وسرايا خيالة القوزاق وفرسان القديس جورج، وكتيبة النساء تشق ممرًا لها إلى القصر. وتشكلت قبضة الدفاع في نفس الوقت الذي أطبقت فيه حلقة المهاجمين. ومن الممكن أن نقول بأن المسألة ذاتها نجمت عن الوسيلة الملتوية التي استخدمت لحلها. بَيد أن إغارة ليلية جريئة على القصر أو انقضاضًا مقدامًا يتم خلال النهار لم يكن ليكلف من الضحايا أكثر من عملية تطول وتمتد. وكان من الممكن على كل حال التحقق من الأثر المعنوي لمدفعية اورور قبل اثنتي عشرة ساعة أو ٢٤ ساعة، وكان الطراد يقف مستعدًا للقتال في مياه النيفا، ولم يكن البحارة يشتكون أبدًا من عدم وجود الشحم اللازم لمدافعهم. ولكن قادة العملية كانوا يأملون تسوية الأمر دون قتال، فأرسلوا المفاوضين، وأطلقوا الإنذارات، ولم يهتموا بالمهل المحددة. ولم تخطر لهم فكرة تفتيش مدفعية قلعة بطرس وبولص في الوقت الملائم، لأنهم كانوا يعتمدون بالفعل على إمكانية الاستغناء عنها.

وظهر نقص إعداد القيادة العسكرية بوضوح أكبر في موسكو، حيث اعتبر ميزان القوى ملائمًا جدًا، حتى أن لينين أوصى بإلحاح بالبدء بالانتفاضة من موسكو: "إن النصر مضمون، ولن يقاتل أي إنسان". وفي الحقيقة اتخذت الانتفاضة في موسكو بالضبط طابع معارك طويلة دامت حوالي ثمانية أيام، مع بعض الهدنات المؤقتة. وقد كتب مورالوف -أحد زعماء انتفاضة موسكو الرئيسيين- ما يلي: "في حمى هذا العمل، لم نكن دومًا حازمين ومصممين في كل النقاط. وقد تركنا القتال يستمر طيلة أسبوع، مع أننا نملك تفوقًا عدديًّا ساحقًا يعادل عشرة أضعاف قوة الخصم... ويرجع ذلك إلى ضعف مهارتنا في قيادة الجماهير المقاتلة وافتقار هذه الجماهير للانضباط، والجهل التام بتكتيك قتال الشوارع، سواء لدى القادة أو لدى الجنود". وقد اعتاد مورالوف على تسمية الأشياء بأسمائها؛ وقد كوفئ على ذلك بنفيه إلى سيبريا في الوقت الحاضر. ولكن مورالوف يحمِّل القيادة العسكرية في الحالة الراهنة أضخم خطيئة ارتكبتها القيادة السياسية، هذه القيادة التي تميزت في موسكو بعدم ثباتها وسرعة تأثرها بالعناصر التوفيقية. وقد فعل مورالوف هذا لأنه تجنب تحميل الآخرين تبعة مسئوليته. ورغم هذا ينبغي أن لا يغيب عن نظرنا أن عمال موسكو القديمة، وعمال النسيج وعمال دباغة الجلود كانوا متخلفين إلى حد كبير عن بروليتاريا بتروغراد. ولم يكن على موسكو في فبراير (شباط) أن تثور وتنتفض؛ فقد كان قلب النظام القيصري من صنع بتروغراد وحدها. وحافظت موسكو من جديد في يوليو (تموز) على هدوئها. وأحسسنا بهذا الهدوء في أكتوبر (تشرين الأول)؛ كان العمال والجنود لا يملكون تجربة المعارك.

وأكملت تقنية الانتفاضة ما لم تفعله السياسة. وأضعف النمو الجبار للبلشفية بصورة لا ريب فيها الانتباه للناحية العسكرية من المسألة، وكان لتحذيرات لينين الشديدة ما يبررها تمامًا وتبدَّت القيادة العسكرية أضعف بصورة لا تقارن من الإدارة السياسية. وهل يمكن أن تكون على غير ذلك؟ وقد أظهر السلطة الثورية الجديدة فيما بعد خلال شهور وشهور أيضًا عدم كفاءة كبيرة كلما أصبح من الضروري اللجوء إلى السلاح.

بَيد أن القيادة العسكرية التابعة للحكومة أعطت في بتروغراد تقديرًا مصانعًا مبالغًا فيه عن الإدارة العسكرية للانتفاضة. وقد أبلغت وزارة الحربية قصر القيادة العليا للقوات المسلحة هاتفيًّا ومباشرة بعد سقوط القصر بما يلي: "يحافظ المتمردون على النظام والانضباط. ولم يقع نهبٌ، ولا "تصفيات دموية". بل قامت دوريات الثوار على العكس باعتقال الجنود الذين أخلوا بالانضباط... إن خطة الانتفاضة وضعت بلا جدال مسبقًا وطبقت بمواظبة وبنظام تام... ولم يسو كل شيء تمامًا "وفق الإيقاع الموسيقي المحدد". هكذا كتب فيما بعد سوخانوف وياروسلافسكي، ومع هذا فلم يكن هناك كثير من "الفوضى" التي أكد سوخانوف وجودها فيما بعد. وبالإضافة إلى هذا، وأمام أقسى حكم نقدي، فإن النجاح هو الذي كلل العملية.

مؤتمر الديكتاتورية السوفييتية

كان من المفترض أن يبدأ بتاريخ ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) في سمولني برلمان من أكثر البرلمانات التي عرفها تاريخ العالم ديمقراطية. ومن يدري؟ ربما كان هذا البرلمان أهمها أيضًا.

وأرسلت سوفييتات المناطق مندوبيها من العمال والجنود أساسًا بعد أن تحررت من نفوذ الأنتليجنسيا التوفيقية. ولم يكن معظم هؤلاء المندوبين يتمتع بأية شهرة، ولكنهم كانوا بالمقابل رجالاً متمرسين اكتسبوا ثقة كبيرة في مديرياتهم. وكان جنود الصف هم الوحيدين الذين اخترقوا الصفوف كمندوبين للجيش والجبهة عبر الحصار الذي فرضته لجان الجيش وهيئات الأركان. وكان معظمهم لا يعرف الحياة السياسية ولم يمارسها إلا منذ الثورة. فقد أهلتهم تجربة ثمانية أشهر، وكان ما يعرفه عبارة عن أشياء قليلة. بَيد أنهم يعرفون هذا القليل بصورة جيدة. وقد كشف المظهر الخارجي للمؤتمر عن تركيبه. فقد اختفت تقريبًا شرائط رتب الضباط، ونظارات المثقفين وربطات عنقهم تمامًا. وكان اللون الرمادي في الألبسة والوجوه هو اللون السائد في المؤتمر. وكانت الحرب قد أجهدتهم جميعًا. وقد ارتدى عدد وافر من العمال معاطف الجنود. ولم تكن هيئة مندوبي الخنادق هيئة مقبولة؛ فهم لم يحلقوا ذقونهم وشعورهم منذ مدة طويلة، ويتدثرون بمعاطف قديمة ممزقة، وقبعات ثقيلة من الوبر مملوءة بالخروق، فوق شعر متشعث. وكانت وجوههم قاسية أثرت عليها الأحوال الجوية، كما انتفخت أيديهم وغطتها القروح، واصفرت أصابعهم من كثرة تدخين لفافات التبغ الرخيصة، كما كانت أزرار معاطفهم منتزعة، وحمالات سراويلهم مدلاة، وانتفخت أحذيتهم واحمرت. وظهر واضحًا أنها لم تصبغ منذ زمن طويل. وقد أرسلت الجماهير الشعبية للمرة الأولى تمثيلاً شريفًا غير مزور، يمثلها ويشبهها.

إن إحصاء أعضاء المؤتمر الذي انعقد في ساعات الانتفاضة إحصاء غير دقيق. ويقدر عدد المشتركين فيه عند افتتاحه بـ٦٥٠ مشتركًا يتمتعون بحق التصويت. وكان للبلاشفة ٣٩٠ مندوبًا في المؤتمر، لم يكونوا كلهم أعضاء في الحزب، ولكنهم كانوا بالمقابل زبدة الجماهير ذاتها. ولم يكن قد بقي أمام هذه الجماهير سبل أخرى غير سبل البلشفية. وكان عدد المندوبين الذين وصلوا إلى المؤتمر والذين ما زالت الشكوك تراودهم بشأن الانتفاضة عددًا وافرًا، بَيد أنهم نضجوا بسرعة وسط المناخ الحماسي لبتروغراد.

فكم كان نجاح المناشفة والاشتراكيين - الثوريين في تبديد رأس المال السياسي لثورة فبراير (شباط) كبيرًا! وكان التوفيقيون يملكون في مؤتمر السوفييتات في يونيو (حزيران) أكثرية ٦٠٠ صوت من أصل ٨٣٢ صوتًا. أما الآن، فإن المعارضة التوفيقية تشكل على مختلف أشكالها أقل من ربع المؤتمر. ولا يضم المناشفة من المجموعات القومية المرتبطة بهم أكثر من ٨٠ مندوبًا، نصفهم "يساريون". ويشكل اليساريون من بين ١٥٩ اشتراكيًّا - ثوريًّا، ومن بين ١٩٠ اشتراكيًّا - ثوريًّا، حسب بعض الإحصاءات، ثلاثة أخماسهم. وبالإضافة إلى هذا كان اليمينيون مستمرين في الاضمحلال بسرعة وسط تطور المؤتمر ذاته. وارتفع عدد المندوبين، حسب بعض الإحصاء، إلى ٩٠٠ شخص في نهاية الجلسات. ولكن هذا الرقم يضم عددًا وافرًا من الأصوات الاستشارية، ولا يشتمل من ناحية أخرى على كل الأعداد التي تتمتع بحق التصويت. وتعرضت مراقبة التفويضات إلى توقفات، وضاعت بعض الأوراق، وكانت المعلومات عن الانتماء إلى هذا الحزب أو ذاك غير كاملة. وعلى كل حال بقي تفوق البلاشفة في المؤتمر مؤكدًا لا جدال فيه.

وقد أظهر التحقيق الذي تم مع المندوبين أن ٥٠٥ سوفييت تتمسك بانتقال كل السلطة إلى أيدي السوفييتات: ٨٦ لسلطة "الديمقراطية"، و٥٥ للائتلاف، ٢١ للائتلاف بدون الكاديت. وتعطي هذه الأرقام الواضحة، حتى من هذه الزاوية فكرة مبالغاً بها

لكل ما بقي من نفوذ للتوفيقيين؛ كانت سوفييتات أكثر الأقاليم تخلفًا وأقل المديريات أهمية هي التـــي بنـــت دعـــم الديمقراطيـــة والائتلاف.

وانعقدت في الصباح الباكر من يوم ٢٥ في سمولني اجتماعات المجموعات، ولم يحضر اجتماعات المجموعة البلـــشفية من البلاشفة إلا الذين كانوا معفيين من مهمات القتال. وتأخر افتتاح المؤتمر؛ كانت الإدارة البلشفية تريد في بادئ الأمر الانتهاء من قصر الشتاء. ولكن المجموعات المعادية لم تكن متعجلة أبدًا؛ كانت هي نفسها بحاجة إلى تقرير ماذا ستفعل، ولم يكن ذلـــك سهلاً. ومرت الساعات، وكانت الشلل في داخل المجموعات والتكتلات تتصارع. وحدث الانقسام في صفوف الاشـــتراكيين - الثوريين عندما رفض قرار الانسحاب من المؤتمر بـــ٩٢ صوتًا مقابل ٦٠ صوتًا. وفي ساعة متـــأخرة مـــن المـــساء اجتمـــع الاشتراكيون - الثوريون اليمينيون واليساريون في قاعتين مختلفتين. وطالب المناشفة في الساعة الثامنة بمهلـــة جديـــدة:؛ فقـــد كانت الآراء لديهم مختلفة ومتباينة. وجاء الليل. وطالت عملية الهجوم على القصر، ولكنه أصبح من المستحيل الانتظار مزيـــدًا من الوقت؛ كان من الواجب التحدث بوضوح أمام البلاد التي استيقظت من سياستها.

وقد علمت الثورة فن الضغط. وتجمع المندوبون والزوار والحرس في صالة أعياد بنات الطبقة النبيلة لإدخال الواصلين الجدد بدون توقف. ولم تُجد كل التحذيرات التي وجهت خشية انهيار أرضية القاعة المحتمل، والتحذيرات بعدم التـــدخين. كـــان الجميع يتدافعون ويدخنون أكثر فأكثر. وقد شق جون ريد طريقة بصعوبة عبر هذا الجمع الذي كان يزمجر أمام الباب. وكانت القاعة خالية من التدفئة، ولكن الهواء كان ثقيلاً وحارقًا.

وكان المندوبون ينتظرون بملل أن يقرع الرئيس الجرس معلنًا افتتاح الجلسة، وقد تجمعوا على الأبواب وفي الممـــرات الجانبية، أو جلسوا على مساند النوافذ. ولم يكن تسيريتلي وتشخيدزه وتشيرنوف موجودين على المنصة كما جرت العـــادة فـــي العهد البائد. كان زعماء النسق الثاني هم الوحيدين الذين ظهروا ليحضروا جنازتهم الخاصة. وافتتح الجلسة باسم اللجنة التنفيذية رجل صغير القامة بلباس طبيب - رائد في الساعة ١٠,٤٠. وكان المؤتمر قد اجتمع في "ظروف استثنائية جدًا" لدرجة أن دان الذي كان مشغولاً بتنفيذ إحدى المهام التي كلف بها امتنع عن إلقاء خطاب سياسي:؛ لأن رفاقه الحزبيين موجودون حاليًـــا فـــي قصر الشتاء، ويتعرضون لإطلاق النار، ويقومون بواجبهم كوزراء بمنتهى التجرد". وكان المندوبون لا يتوقعون أبدًا مباركـــة اللجنة التنفيذية المركزية. وكانوا ينظرون إلى المنصة شذرًا، وكأن لسان حالهم يقول: إذا كان لهؤلاء وجود سياسي حتى الآن، فما هي صلتهم بنا وما هي علاقتهم بقضيتنا؟

واقترح أفانيسوف أحد المندوبين عن موسكو تشكيل مكتب للمؤتمر على أساس نـــسبي: ١٤ بلـــشفيًا، ٧ أعـــضاء مـــن الاشتراكيين - الثوريين، و٣ أعضاء من البلاشفة، و١ أممي. ورفض اليمينيون فورًا الانضمام إلى المؤتمر. وامتنعت مجموعة مارتوف مؤقتًا؛ إذ أنها لم تقرر بعد. وانتقلت سبعة أصوات إلى جانب الاشتراكيين - الثوريين اليساريين. وقد لاحظ المـــؤتمر الذي اكفهر جوه هذا الرفض الأولي.

وقرأ أفانيسوف لائحة المرشحين البلاشفة إلى المكتب: لينين، وتروتسكي، وزينوفييف، وكامنييف، وريكوف، ونـــوغين، وسكليانسكي، وكريلنكو، وأنطونوف – أوفسينكو، وريازانوف، ومورانوف، ولوناتشارسكي، وكوالونتاي، وستوتشكا. وقد كتب سوخانوف قائلاً: "تألف المكتب من الزعماء البلاشفة الرئيسيين اليساريين". وقد ضُم زينوفييف وكامنييف إلى المكتب نظرًا لمـــا لهما من شهرة في الحزب، ولنفوذهما فيه، مع أنهما يعارضان الانتفاضة. ودخل ريكوف ونوغين في المكتب كممثلين لسوفييت موسكو. وضم لوناتشارسكي وكوللونتاي لأنهما كانا محرضين شعبيين معروفين في تلك الفترة. أما ريازانوف فقد دخل كممثل للنقابات. ودخل مورانوف كعامل بلشفي قديم تصرف بشجاعة أثناء قضية مندوبي مجلس الدوما الإمبراطوري. أمـــا ستوتـــشكا

فقد انضم كزعيم للتنظيم الليتوني. وانضم كريلنكو وسكليانسكي كممثلين للجيش. كما ضُم أنطونوف - أوفسينكو كقائد للمعارك في بتروغراد. وقد خلت القائمة من اسم سفردلوف لأنه هو الذي وضع اللائحة بنفسه، ولم يخطر ببال أحد أن يعدل قائمة الأسماء وسط الفوضى والحماس. وأنه لمما يسترعي الاهتمام بالنسبة لأخلاق الحزب في تلك الفترة أن المكتب اشتمل على كل هيئة أركان خصوم الانتفاضة: زينوفييف وكامنييف، ونوغين وريكوف ولوناتشارسكي وريازانوف. وكانت سبيريدونوفا، تلك الفتاة النحيلة والشجاعة الوحيدة من بين الاشتراكيين - الثوريين اليساريين التي تتمتع بشهرة واسعة في كل أنحاء روسيا. وقد أمضت سبيريدونوفا سنوات طويلة في المنفى لأنها قتلت أحد الذين قاموا بتعذيب فلاحي طامبوف. ولم يكن هناك "أسماء" أخرى مشهورة بين الاشتراكيين - الثوريين اليساريين. وإذا ما وضعنا جانبًا الأسماء الرنانة التي يتمتع بها مندوبو الجناح اليميني للاشتراكيين - الثوريين وجدنا أنه لم يبق منهم أي شيء تقريبًا.

واستقبل المؤتمر مكتبه بحماس. ولم يكن لينين موجودًا على المنصة. وفي حين كانت المجموعات تجتمع وتتباحث، كان لينين الذي ما زال متنكرًا، بشعره المستعار ونظارتيه السميكتين بصحبة اثنين أو ثلاثة من البلاشفة في غرفة جانبية. ووقف دان وسكوبوليف وهما في طريقهما إلى مجموعتهما أمام طاولة المتآمرين، وأخذا يحدقان بلينين بانتباه، فتعرفا عليه فورًا. وكان كشفه يعني بالنسبة إليه، أنه قد حان وقت رفع قناع التنكر.

ومع ذلك لم يتعجل لينين الظهور أمام المندوبين؛ كان يفضل مراقبة الأشياء عن كثب، وأن يجمع الخيوط بين يديه مع بقائه في الكواليس. وقد كتب تروتسكي في عام ١٩٢٤ في **مذكراته** قائلاً: "تمت في سمولني الجلسة الأولى لمؤتمر السوفييتات الثاني. ولم يظهر لينين. فقد بقي في إحدى قاعات سمولني، وإني أذكر أن تلك القاعة كانت خالية من الأثاث. وفيما بعد جاء أحدهم، ومد على أرضية القاعة بعض الأغطية، ووضع عليها بعض الوسادات. واسترحنا، فلاديمير إيليتش وأنا، ونمنا جنبًا إلى جنب. ولكن بعد عدة دقائق، استدعيت إلى قاعة المؤتمر بعد أن قيل لي: "لقد بدأ دان الكلام، وينبغي الرد عليه". وعدت بعد الرد عليه، ونمت من جديد إلى جانب فلاديمير إيليتش، الذي لم يكن يفكر بالطبع بالنوم. فهل كان بوسعنا أن ننام؟ ففي كل خمسة دقائق أو عشرة كان أحد الأعضاء يهرع من قاعة الجلسات لينقل إلينا ما يجري فيها".

وانتقل جرس رئاسة المجلس إلى يد كامنييف. وكان كامنييف من أولئك الرجال الباردين الذين اختارتهم الطبيعة ذاتها لكي يتزعموا. وأعلن كامنييف ما يلي: هناك ثلاث مسائل في جدول الأعمال: تنظيم السلطة، والحرب والسلم، واستدعاء المجلس التأسيسي. وكان ضجيج المجلس ينبعث إلى الخارج، ووسط هذا الضجيج صاح دوي بهيم خارق للعادة ومثير للفزع: إن قلعة بطرس وبولص هي التي وضعت جدول الأعمال بواسطة رمي المدفعية. ومر تيار عالي التوتر عبر المؤتمر، الذي استشعر أعضاؤه فجأة حقيقته، وهو أنه يشكل المجلس الثوري (الكونفانسيون) للحرب الأهلية.

وطالب لوزوفسكي خصم الانتفاضة بتقرير من سوفييت بتروغراد. ولكن اللجنة العسكرية الثورية قد تأخرت، وكان تراشق المدفعية يشهد بأن التقرير ليس جاهزًا. وكانت الانتفاضة في قمة نشاطها. وكان زعماء البلاشفة يتغيبون في كل لحظة ليصلوا إلى المبنى الذي احتلته اللجنة العسكرية الثورية لتلقي الأخبار أو إعطاء الأوامر. وكانت أصداء المعارك تتلاشى وتذوب في قاعة الجلسات كألسنة نارية؛ فعندما يتم التصويت، ترتفع الأيدي وسط انتصاب الحراب. وكان الدخان المائل إلى الزرقة، واللاذع للماخوركا (التبغ الرخيص) يحفي الأعمدة البيضاء الجميلة والثريات.

وأخذ السجال الخطابي بين المعسكرين معنًى لا مثيل له على صوت التراشق بالمدفعية. وطلب مارتوف الكلام. إن فرصة هذا السياسي الخلاق للتردد الأبدي تحين عندما تتذبذب كفتا الميزان. ورد مارتوف بصوته الأجش، الذي يشبه صوت المسلولين، رد على الصوت المعدني للمدافع قائلاً: "من الضروري إيقاف الاشتباكات من كلا الجانبين.. لقد بدأ حل مسألة

السلطة بطريق التآمر... وقد وضعت كل الأحزاب الثورية أمام الأمر الواقع... وتهدد الحرب الأهلية بانفجار الثورة المضادة. ومن الممكن الحصول على حل سلمي للأزمة بإقامة سلطة تعترف بها الديمقراطية كلها". وصفق عدد كبير من أعضاء المؤتمر. وقد ذكر سوخانوف هازئًا ما يلي: "من الواضح أن عددًا وافرًا من البلاشفة الذين لم يهضموا أفكار لينين وتروتسكي العقائدية كانوا سيغدون سعداء جدًا لو تم السير على هذا السبيل".

وضم اقتراح الشروع بمحادثات سلمية الاشتراكيين - الثوريين اليساريين ومجموعة من الأمميين الموحدين. لقد خدعوا. ودفع البلاشفة لوناتشارسكي، أكثر زعمائهم اتسامًا بالروح السلمية، وأكثر خطبائهم رقة. قال لوناتشارسكي: "ليس لدى المجموعة البلشفية أي اعتراض على اقتراح مارتوف". وذهل الخصوم. وقد علق سوخانوف على هذا قائلاً: "إن لينين وتروتسكي اللذين ذهبا لملاقاة الجماهير التي تنتمي إليهما يسحبان في الوقت ذاته الأرض من تحت أقدام رجالات اليمين". وصُدق على اقتراح مارتوف بالإجماع. وكانت مجموعة مارتوف تفكر على الشكل التالي: "إذا انسحب المناشفة أو الاشتراكيون - الثوريون فورًا، فإنهم يعترفون بالتهم المنسوبة إليهم". وبناء على هذا، من الممكن أن نأمل "بأن يسير المؤتمر في الطريق السليم لإنشاء جبهة ديمقراطية موحدة". إنه لأمل فارغ! فالثورة لا تسير أبدًا على خط مائل قطري "Diagonale".

وصرف الجناح اليميني النظر فورًا عن مبادرة مباحثات السلم التي صدق عليها. وأدلي المنشفي خاراش، مندوب الجيش الثاني عشر، الذي يحمل على كتفه نجوم النقيب بالتصريح التالي: "إن الدجالين السياسيين الذين يسيطرون على هذا المؤتمر قالوا لنا، إن من واجبنا تسوية مسألة السلطة، وها هي تسوى من وراء ظهورنا قبل افتتاح المؤتمر. ولكن الطلقات الموجهة في هذه اللحظة إلى قصر الشتاء ليست إلا المسامير التي تغرز في نعش الحزب السياسي الذي جازف بمثل هذه المغامرة...". وقد رد المؤتمر على دعوة النقيب بضجيج وجلبة.

وحاول الملازم الأول كوتشين الذي تكلم في مؤتمر الدولة الذي انعقد بموسكو باسم الجبهة، حاول هنا أيضًا استخدام سلطة منظمات الجيش فقال: "ينعقد هذا المؤتمر في غير أوانه، كما أنه مشكَّل أيضًا بصورة غير نظامية". فصاح بعض أصحاب المعاطف الممزقة الذين كتب أفراد الجيش تفويضًا لهم عليها بوحل الخنادق، صاحوا به قائلين: "باسم من تتكلم؟ ومن تمثل؟". فعدَّد كوتشين أحد عشر جيشاً. ولكن هذا التعداد لا يخدع أحدًا هنا. ففي الجبهة كما في المؤخرة لا يملك الجنرالات التوفيقيون جنودًا. وأضاف الملازم الأول المنشفي قائلاً: "نحن مجموعة الجبهة نتنصل من مسئولية كل الأحداث السابقة والحالية. ونعتبر أن من الضروري تعبئة كل القوى الثورية الواعية لإنقاذ الثورة". وهذا يعني: الوحدة مع الثورة المضادة ضد السوفييتات. وختم كلمته قائلاً: "لقد صممت مجموعة الجبهة على الانسحاب من المؤتمر. وإننا سنقاتل في الشوارع".

وصعد ممثلو اليمين على المنصة، واحدًا أثر الآخر. لقد خسروا رعيتهم وكنائسهم، ولكنهم احتفظوا بأجراسها. وهم يسارعون للمرة الأخيرة إلى دق النواقيس المتصدعة. ورفض الاشتراكيون والديموقراطيون الذين اتفقوا بكل الوسائل الشريفة أو الدنيئة مع البرجوازية الإمبريالية، رفضوا اليوم بوضوح التفاهم مع الشعب المتمرد. وقد انكشف حسابهم السياسي القائل بما يلي: سيقلب البلاشفة خلال بضعة أيام. ومن الواجب الانفصال عنهم بأسرع ما يمكن، ومن الواجب أيضًا أن نساعد على قلبهم، والحصول بهذا الشكل وقدر الإمكان على ضمانة لأنفسنا في المستقبل.

وتقدم خينتشوك الرئيس السابق لسوفييت موسكو والذي أصبح فيما بعد سفيرًا للسوفييتات في برلين باسم الجناح اليمين للمناشفة بالبيان التالي: "إن المؤامرة العسكرية للبلاشفة... توقع البلاد في حرب داخلية، وتخرب المجلس التأسيسي، وتهدد بكارثة في الجبهة، وتؤدي إلى انتصار الثورة المضادة". والمخرج الوحيد لهذا الوضع هو "المباحثات مع الحكومة المؤقتة حول تشكيل سلطة تعتمد على كل شرائح الديمقراطية". وكان هؤلاء الناس الذين لم يتعلموا شيئًا حتى الآن يقترحون القضاء على

الانتفاضة والعودة إلى حكم كرنسكي. ووسط الضجيج والخوار، ووسط الصفير أيضًا، ميزت بالكاد أقوال ممثل الاشتراكيين - الثوريين اليمينيين. وكان رأي حزبه "استحالة قيام عمل مشترك" مع البلاشفة، وتأكيده بأن مؤتمر السوفييتات ذاته الذي استدعي وافتتح من قبل اللجنة التنفيذية المركزية التوفيقية، ليس مؤلفًا بصورة قانونية.

ولم ترهب تظاهرة اليمينيين أحدًا. ولكنها أثارت القلق والإزعاج. وقد نفد صبر أكثرية المندوبين من تصرف الزعماء المدعين والمحدودين الأفق الذين أشبعوهم في بادئ الأمر جملاً وكلمات، ثم مارسوا ضدهم عملية القمع. فهل من الممكن أن يتأهب إتباع دان وخينتشوك وكوتشين أيضًا للقيادة وإعطاء المثل؟ واتهم بيترسون وهو جندي ليتوني نحيل الوجه، عيناه تلمعان، اتهم خاراش وكوتشين بالدجل والمراوغة. "كفانا قرارات وكفانا كلامًا! نريد أعمالاً! نريد السلطة! فليترك المندوبون المحتالون المؤتمر! فليس الجيش معهم!" وقد برد هذا الصوت القوي المنفعل الأفكار في هذا المؤتمر الذي لم يكن يلتقط سوى الشتائم. وسارع بعض رجال الجبهة الآخرين إلى دعم بيترسون. "إن كوتشين وأمثاله يملثون رأي مجموعات صغيرة تجمعت منذ إبريل (نيسان) في لجان الجيش. إن الجيش يطالب منذ وقت طويل بانتخابات جديدة لهذه اللجان". "إن سكان الخنادق يتمنون من قلوبهم انتقال السلطة إلى أيدي السوفييتات".

بَيد أن رجال اليمين ما زالوا يحتلون أيضًا بعض المراكز الهامة. وصرح ممثل البوند[1] بأن "كل ما يجري في هذه اللحظة في بتروغراد لهو النكبة الرهيبة"، ودعا المندوبين إلى الانضمام إلى ممثلي مجلس الدوما البلدي الذي يتأهب للذهاب إلى قصر الشتاء وهو أعزل من السلاح كيما يموت فيه مع الحكومة. وقد كتب سوخانوف قائلاً: "وسط الجلبة، يميز المرء عددًا من السخريات بعضها فج غليظ، وبعضها لاذع وخبيث" وقد انخدع الخطيب المحرك للمشاعر على ما يبدو بالجمع الذي استمع إليه. وصاح المندوبون والمدعوون، والحرس الأحمر، والجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة خلف الذين خرجوا قائلين: "كفى! أيها الرفاق!" "اذهبوا إلى كورنيلوف! يا أعداء الشعب!".

ولم يحدث انسحاب رجالات اليمين أي فراغ. ورفض مندوبو الجنود الانضمام إلى الضباط واليونكرز للكفاح ضد العمال والجنود. وانسحبت مجموعات مختلفة من الجناح اليميني، أي حوالي ٧٠ مندوبًا تقريبًا، وهو رقم يعادل أكثر من نصف اليمينيين بقليل. واتخذ المترددون مكانهم إلى جانب المجموعات الوسيطة التي قررت ألا تنسحب من المؤتمر. وإذا لم يكن عدد الاشتراكيين - الثوريين الممثلين لكل التيارات قد تجاوز قبل افتتاح الجلسة ١٩٠ عضوًا، فإن عدد الاشتراكيين - الثوريين اليساريين وحدهم قد ارتفع في الساعات الأولى التي تلت إلى ١٨٠ عضوًا؛ فقد انضم إليهم كل الذين لم يكونوا قد قرروا الانضمام بعد إلى البلاشفة، بالرغم من أنهم كانوا مستعدين لدعمهم.

وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يبقون في الحكومة المؤقتة أو في أية لجنة تحضيرية للمجلس النيابي مهما تكن الظروف والأحوال. فهل يمكن في الواقع إجراء القطيعة مع المجتمع المثقف؟ ولكن السوفييتات ليس في آخر المطاف سوى جزء من الشعب. والسوفييتات مفيدة لشيء ما، ما دام من الممكن الاعتماد عليها للتفاهم مع البرجوازية. ولكن هل يمكن تصور التساهل مع سوفييتات تدعي بأنها أصبحت سيدة البلاد؟ وقد كتب الاشتراكي - الثوري زينزينوف فيما بعد قائلاً: "بقي البلاشفة وحدهم. واعتبارًا من هذا الوقت بدأوا بالاعتماد على القوة المادية الشرسة فقط". ومما لا شك فيه أن المبدأ الأخلاقي قد ذهب وهو يصفق الأبواب خلفه، في نفس الوقت ذهاب دان وغوتز. وقد ذهب المبدأ الأخلاقي فيما بعد في موكب حاشد مؤلف من ٣٠٠ شخص مع مصباحين إلى قصر الشتاء ليصطدم أيضًا بالقوة المادية الشرسة للبلاشفة، وليقاتل تراجعيًّا.

وبقي اقتراح مباحثات السلم الذي صدق عليه المؤتمر معلقًا. ولو أن اليمينيين قبلوا فكرة الاتفاق مع البروليتاريا الظافرة، لما سارعوا إلى القطيعة مع المؤتمر. ولا يستطيع مارتوف أن يعتذر عن فهم هذا، ولكنه تعلق بفكرة تسوية استندت إليها كل

سياسته؛ فقد أضاف قائلاً: "من الضروري إيقاف إهراق الدماء...". وصرخ أحدهم في وجهه قائلاً: "ليس كلامك هذا سوى شائعات!". فرد عليه مارتوف: "إننا لا نسمع هنا الشائعات فقط، فإذا ما اقتربت من النوافذ، فلسوف تسمع طهقات المدافع أيضًا!" إنها لحجة لا يمكن دحضها؛ فعندما يسكت المجلس، تسمع طلقات النيران، وهي لا تسمع على مقربة من النوافذ فقط.

وأدان تصريح مارتوف، المعادي تمامًا للبلاشفة، والذي أصابه العقم في استنتاجاته، أدان الانتفاضة لأنها "تحققت من قبل الحزب البلشفي وحده، وبوسائل مؤامرة عسكرية صرفة"، وطالب بإيقاف أعمال المؤتمر إلى أن يتم التفاهم مع "كل الأحزاب الاشتراكية". إن الركض بعد ثورة من الثورات وراء مصلحة عدة قوى، أسوأ بكثير من محاولة إمساك المرء بظله!

وفي غضون ذلك ظهر أيوفيه الذي أصبح أول سفير للسوفييتات لدى حكومة برلين في الجلسة، على رأس المجموعة البلشفية في مجلس الدوما البلدي، التي رفضت الذهاب للبحث عن موت مريب تحت جدران قصر الشتاء. وتجمع أعضاء المؤتمر أيضًا لاستقبال الأصدقاء وتقديم التهاني المليئة بالفرح.

ووجد الحزب البلشفي أن من الضروري الرد على مارتوف ببعض الكلمات. وقد أوكلت هذه المهمة لتروتسكي. وقد اعترف سوخانوف قائلاً: "كان موقفه بعد رحيل اليمينيين متينًا جدًا بقدر ما كان موقف مارتوف ضعيفًا". ووقف الخصوم في المنصة، الواحد إلى جانب الآخر، تحدق بهم من كل الجهات حلقة ضيقة شكلها المندوبون الهائجون إلى حد كبير. وقال تروتسكي: "إن ما حدث هو انتفاضة وليس مؤامرة. ولا تحتاج انتفاضة الجماهير الشعبية إلى تبرير. وقد أعطينا للطاقة الثورية لعمال وجنود بتروغراد جبلتها وصنعنا بصورة مكشفة إرادة الجماهير للانتفاضة ولم نصنعها لمؤامرة عسكرية.. وقد انتصرت انتفاضتنا. وهم يقترحون علينا الآن أن نتخلى عن انتصارنا وأن نعقد معهم اتفاقًا. فمع من نتفق؟ إني أسأل مع من ينبغي علينا أن نتفق؟ أينبغي علينا أن نتفق مع المجموعات الصغيرة البائسة التي خرجت من هنا؟... ولكننا رأيناها جميعًا بكاملها، فهم لا يملكون وراءهم أحدًا في روسيا. أينبغي أن يعقد معهم ملايين العمال والفلاحين، الممثلين في هذه المؤتمر اتفاق الند للند، مع أنهم مستعدون كل الاستعداد، وليس استعدادهم هذا للمرة الأولى، لوضع العمال والفلاحين تحت رحمة البرجوازية؟ كلا، إن الاتفاق هنا لا يساوي شيئًا. وإلى هؤلاء الذين خرجوا من هنا، وإلى كل الذين يتقدمون إلينا باقتراحات مماثلة، علينا أن نقول أنتم منعزلون محزنون، أنتم حثالة، وقد انتهى دوركم فاذهبوا حيث ستكون طبقتكم بعد الآن في قمامة التاريخ!...".

وصاح مارتوف قائلاً: سنخرج إذن دون انتظار تصويت المؤتمر. وقد كتب سوخانوف وهو يشكو قائلاً: "وشرع مارتوف، وهو ثائر ومنفعل، يشق طريق له من المنصة إلى المخرج. أما بالنسبة لي، فقد بدأت باستدعاء أفراد مجموعتي إلى اجتماع فوق العادة...". ولم يكن الموضوع موضوع طريق أو منفذ أبدًا. فقد قام بطل الاشتراكية الديمقراطية مارتوف بخطوة إلى الأمام عندما كانت الثورة تتراجع كما حدث في يوليو (تموز). أما الآن فنظرًا لأن الثورة تستعد للوثوب كحيوان مفترس، فإن مارتوف يتراجع، وقد انتزع منه خروج اليمينيين إمكانية القيام بمناورة برلمانية. ووجد نفسه، دفعة واحدة على غير عادته متضايقًا. وسارع مارتوف إلى الانسحاب من المجلس ليحرر نفسه من الانتفاضة. ورد سوخانوف كما استطاع أن يرد. وانقسمت المجموعة إلى قسمين متساويين، وانتصر مارتوف بأربعة عشر صوتًا مقابل أثنى عشر صوتًا.

واقترح تروتسكي على المؤتمر التصديق على قرار يشكل اتهامًا للتوفيقيين بأنهم أعدوا الهجوم المأساوي بتاريخ ١٨ يونيو (حزيران)، وأنهم دعموا الحكومة التي خانت الشعب، وأنهم أخفوا عن الفلاحين مراوغة الحكومة في المسألة الزراعية، وأنهم ضمنوا نزع سلاح العمال، وأنهم المسئولون عن الإطالة السخيفة للحرب، وأنهم سمحوا للبرجوازية بزيادة حدة الفوضى الاقتصادية، وأنهم عارضوا استدعاء مؤتمر السوفييتات لأنهم فقدوا الثقة بالجماهير. وأخيرًا، قطعوا صلتهم مع السوفييتات بعد أن وجدوا أنهم ليسوا سوى أقلية.

وقدم اقتراح من جديد، والحقيقة، لم يكن لصبر المكتب البلشفي حدود؛ فقد وصل ممثــل اللجنـــة التنفيذيـــة لـــسوفييتات الفلاحين مكلفاً بدعوة الزراعيين إلى مغادرة هذا المؤتمر "غير المناسب" والذهاب إلى قصر الشتاء "للموت مـــع أولئـــك الـــذين أرسلوا إلى هناك لتحقيق إرادتنا". وقد أصبحت الدعوات للموت تحت أنقاض قصر الشتاء مزعجة بانتظامها ورتابتها. وقال أحد بحارة أورور الذي حضر إلى المؤتمر بلهجة هازئة بأنه ليس هناك أنقاض، نظرًا لأن الطراد يرمي رميًّا خلبيًّا. وأضاف البحار قائلاً: "استمروا في أعمالكم بهدوء". وتنفس المؤتمر الصعداء من أقوال هذا البحار الرائع ذي اللحية السوداء الذي يجسد الإرادة البسيطة والملزمة بالانتفاضة. أما مارتوف بأفكاره المتلونة ومشاعره، فإنه ينتمي إلى عالم آخر؛ ولهذا فقد قطع صـــلاته مـــع المؤتمر أيضًا.

وقُدم اقتراح آخر كان في هذه المرة نصف ودي. وقال كامكوف صاحب الاقتـــراح: "لقـــد انـــسحب الاشـــتراكيون - الثوريون اليمينيون، أما نحن اليساريون فقد بقينا". وقد حيي المؤتمر الذين بقوا. ومع ذلك، فـــإن الـــذين بقـــوا يجـــدون مـــن الضروري تحقيق جبهة موحدة ثورية، ويعارضون القرار العنيف الذي اقترحه تروتسكي والذي أغلق الأبواب أمام اتفاق مـــع الديمقراطية المعتدلة.

وفي هذه المرة أيضًا سبق البلاشفة، ويبدو أنهم لم يكونوا أبدًا بمثل هذا الاستعداد لتقديم التنازلات. وأن هذا الموقـــف لا يثير الدهشة؛ إنهم أسياد الموقف، ولا يحتاجون أبدًا للإلحاح على التعابير. ووقف لوناتشارسكي على المنصة من جديد وقـــال: "إن وزن المهمة الملقاة على عاتقنا لا تثير أي شك". وإن توحيد كل العناصر الثورية الديمقراطية فعلاً أمر ضروري. ولكن هل قمنا نحن البلاشفة بأية خطوة تستبعد المجموعات الأخرى؟ ألم نتبنى بالإجماع اقتراح مـــارتوف؟ وردوا علـــى موقفنـــا هـــذا باتهامات وتهديدات، أليس من الواضح أن الذين انسحبوا من المؤتمر "قد أوقفوا نشاطهم التوفيقي وانتقلوا بصورة مكشوفة إلـــى معسكر الكورنيلوفيين"؟

إن البلاشفة لا يلحون على ضرورة التصويت على قرار تروتسكي فورًا، وهم لا يريدون تعطيل المحاولات التي تمـــت للحصول على اتفاق على الأساس السوفييتي. وقد طبقت طريقة دروس الأحداث بنجاح، ويرافقها تراشق الرمي بالمدفعية أيضًا! وكما في السابق يكشف تبني اقتراح مارتوف، والتنازل لكامكوف الآن. يكشف فقط عجز الجهود التوفيقية. ومـــع ذلـــك فـــإن الاشتراكيين - الثوريين اليساريين الذين تميزوا عن المناشفة اليساريين لا يغادرون المؤتمر، إنهم يحسون مباشرة بضغط القرية الثائرة على أكتافهم.

ولقد بالغنا في مسايرة بعضنا بعضًا. وشغلت مواقع الانطلاق. وأعطيت استراحة وكان النقاش يدور حول تبني المراسيم الأساسية وإنشاء حكومة سوفييتية؟ مستحيل؛ فما زالت الحكومة القديمة مجتمعة في قصر الشتاء، في قاعة نصف مظلمة حيـــث حجبت صحيفة قديمة ضوء المصباح الوحيد فيها. وبعد الساعة الثانية صباحًا أعلن "البريزيديوم" تعليق الجلـــسة لمـــدة نـــصف ساعة.

واستخدم المارشالات الحمر بنجاح كل الفترة القصيرة التي منحت لهم. ووقع شيء جديد في مناخ المؤتمر عندما أعيـــد عقد الجلسة، وقرأ كامنييف رسالة هاتفية وصلته من أنطونوف: استولت قطعات اللجنة العسكرية الثورية على قـــصر الـــشتاء، واعتقل كل أعضاء الحكومة المؤقتة، وعلى رأسهم الديكتاتور كيشكين، باستثناء كرنسكي. ومع أن الخبر انتقل فورًا من فم إلى فم فقد كان وقع البيان الرسمي أقوى من وقع صلية مجموعة من المدافع. وقد تم قفز الهوة التي تفصل الطبقـــة الثوريـــة عـــن السلطة. وعاد البلاشفة الذين طردوا في يوليو (تموز) من قصر كشيسينسكايا، ودخلوا اليوم كأسياد إلى قصر الـــشتاء. ولـــيس هناك في روسيا سلطة أخرى غير سلطة هذا المؤتمر. ودوت عاصفة من التصفيق والحماس الممزوجة بالانفعالات والمشاعر:

الانتصار والأمل، والخوف أيضًا. ودوت عاصفة أخرى من التصفيق المشوب بالانفعال. لقد تمت العملية! إن أكثـر مـوازين القوى ملاءمة يُخفي بعض الأمور غير المتوقعة. ويصبح الانتصار مؤكدًا عندما تؤسر هيئة أركان العدو.

وعدَّد كامنييف بصوت مهيب أسماء الشخصيات المعتقلة. وانتزع ذكر الأسماء المعروفة صياحًا معاديًا أو هازئًا. وكان هذا الجمع الغفير يسمع اسم تيريشتشنكو الذي كان يدير المصائر الخارجية لروسيا بحنق خاص. ولكن أين كرنسكي؟ كرنسكي؟ من المعروف أنه كان يمارس فن الخطابة في الساعة العاشرة صباحًا دون نجاح كبير، أمام حامية غاتشينا. "فإلى أين ذهب فيما بعد؟" إننا لا نعرف بالضبط، لقد ذهب إلى الجبهة حسب رواية بعض الشائعات.

ولم يستشعر رفقاء الطريق إلى الانتفاضة الراحة؛ فقد أحسوا بأن سلوك البلاشفة سيكون بعد الآن أكثر حزمًـا. واحـتج أحد المشتركين - الثوريين اليساريين على اعتقال الوزراء الاشتراكيين. وأطلق ممثل الأمميين الموحـدين الإنـذار التـالي: لا يجوز على كل حال أن يكون وزير الزراعة ماسلوف في نفس السجن المنفرد الذي آواه في ظل الملكية. فرد عليه تروتـسكي الذي أوقف في عهد ماسلوف في سجن كرستي، كما اعتُقل في السجن ذاته في عهد نيقولا: "إن اعتقاله مسألة سياسية، لا مسألة انتقام؛ وقد أملتها... اعتبارات عقلانية. وينبغي أن تحال الحكومة إلى المحكمـة، أولاً لاتـصالها الـذي لا جـدال فيـه مـع كورنيلوف... إن الوزراء الاشتراكيين وحدهم هم الذين ستفرض عليهم الإقامة الجبرية بمنازلهم". وكان من الأسهل والأصـح القول بأن اعتقال الحكومة القديمة أملته ضرورات معركة لم تنته بعد. إن الهدف هو القضاء سياسيًا على المعسكر المعـادي لا الاقتصاص منه على الإساءات السابقة.

وقضي على الاستجواب البرلماني حول موضوع الاعتقالات بواقعة ذات أهمية أكبر: لقد انـضمت كتيبـة الـدراجات النارية الثالثة التي أمرها كرنسكي بالزحف إلى بتروغراد إلى الشعب الثوري! وقد بدا أن هذا الخبر الملائم إلى حد كبير يفتقـر إلى الصحة. وقد كان الأمر كذلك:؛ فقد انضمت للانتفاضة قوة منتقاة، وهي أول قوة أفرزت من الجبهة، وتم الانضمام قبـل أن تصل إلى العاصمة. وإذا كان المؤتمر قد أظهر بعض الاعتدال، وسط فرحته بمعرفة اعتقال الـوزراء، إلا أن عاصـفة مـن الحماس الآن سيطرت عليه دون أي تحفظ.

وظهر على المنصة مفوض تساركويه - سيلا البلشفي إلى جانب مندوب كتيبة الدراجات النارية، وقد وصـل كلاهمـا لتقديم تقرير إلى المؤتمر. "إن حامية تساركويه - سيلا تحرس مشارف بتروغراد". وغادر أنـصار الـدفاع الـوطني مجلـس السوفييت. "ووقع كل العمل علينا وحدنا". وعندما علم سوفييت تساركويه - سيلا بقرب وصول راكبـي الـدراجات، اسـتعد للمقاومة. ولكن الإنذار تبدَّى لحسن الحظ إنذارًا لا جدوى منه؛ "فلم يكن هناك بين راكبي الدراجات الناريـة خـصوم لمـؤتمر السوفييتات". وقيل بأن كتيبة أخرى ستصل فورًا إلى تساركويه - سيلا؛ فتأهبنا لاستقبالها وديًا. وشرب المؤتمر هـذا التقريـر وكأنه يشرب الحليب.

واستقبل ممثل راكبي الدراجات بعاصفة مدوية من التصفيق أعقبتها عاصفة أقوى. فقد أرسلت الكتيبة الثالثة من الجبهـة الشمالية الغربية إلى الشمال بأمر بَرقي: "الدفاع عن بتروغراد". وسار راكبو الدراجات و"عيونهم معصوبة" لأنهم لـم يتكهنـوا بالهدف من ذهابهم إلا بصورة غامضة. وفي بيريدولسكايا اصطدموا بنسق تابع لكتيبة الدراجات الخامسة أرسل أيضًا للزحـف إلى العاصمة. وفي اجتماع مشترك انعقد في المحطة ظهر "أنه لا يوجد جندي واحد بين راكبي الدراجات يوافق على الزحـف ضد إخوانه". واتخذوا القرار المشترك التالي: عدم الخضوع للحكومة. وقال أحد جنود كتيبة الدراجات ما يلي: "إننـي أصـرح لكم بشكل ملموس بأننا لن نعطي السلطة لحكومة يرأسها البورجوازيون والملاكون النبلاء!" وكانت كلمة "بشكل ملموس" التـي أدخلتها الثورة في الاستخدام الشعبي ذات رنة في تلك اللحظة!

ألم يهدد المؤتمر منذ وقت قصير بتأديب الجبهة له، ومن على نفس المنصة؟ أما الآن، فقد قالت الجبهة ذات كلمتها "بشكل ملموس" فإذا خربت لجان الجيش المؤتمر، وإذا كانت كتلة الجنود قد نجحت استثنائيًا بإرسال مندوبيها، وإذا كانت بعض الأفواج والفرق لم تتعلم حتى الآن التمييز بين البلشفي والاشتراكي - الثوري، فلا أهمية لكل هذا! إن الصوت الذي جاء من بيريدولسكايا هو الصوت الحقيقي، والصوت المنزه، والصوت الذي لا يدحض للجيش. وليس هناك أي اعتراض على هذا القرار. وقد فهم البلاشفة وحدهم في الوقت الملائم بأن طباخ كتيبة الدراجات يمثل الجبهة بصورة أفضل بكثير من كل أتباع خاراش وكوتشين مع أوراق التفويض المهترئة التي يحملونها. وحدث في المناخ الفكري للمندوبين تحول مفاجئ، كثير المعاني. وقد كتب سوخانوف قائلاً: "بدأنا نحس بأن المسألة تسير وحدها وبصورة ملائمة، وأن المخاطر التي أعلن عنها اليمين لا تبدو رهيبة بالشكل الذي أعلنه، وأن بوسع الزعماء أن يتغلبوا في اللحظات القادمة".

وكانت هذه اللحظة هي الوقت الذي اختاره المناشفة اليساريون الذين يستحقون الرثاء للتذكير بوجودهم. ولاحظ الجميع أنهم لم يخرجوا بعد من المؤتمر؛ فقد كانوا يناقشون في مجموعتهم مسألة معرفة سلوكهم الذي ينبغي التقيد به. وكان كابيلنسكي المكلف بإعلان القرار المتخذ، والذي يحاول جاهدًا جر المجموعات المترددة، قد وجد أخيرًا أكثر الدوافع صراحة للقطيعة مع البلاشفة: "تذكروا أن بعض القطعات تتقدم إلى بتروغراد. إننا مهددون بكارثة". فرد عليه الحاضرون "كيف؟ أما زلتم هنا في المؤتمر". وانطلقت هذه الأصوات من مختلف أنحاء القاعة. "ولكنكم خرجتم مرة!" واتجه المناشفة إلى الباب مشكلين مجموعة صغيرة مصحوبين بصيحات الاستنكار والازدراء. وصرح سوخانوف بلهجة بائسة "خرجنا بعد أن أطلقنا أيدي البلاشفة تمامًا وتنازلنا لهم عن كل أرض الثورة". ولو أن الذين تحدث عنهم سوخانوف لم يذهبوا لبقي شيء قليل. وعلى كل حال، إنهم يغرقون. وأن مد الأحداث وأمواجها الهادرة سيبتلعهم بلا شفقة ولا رحمة.

وحان الوقت للمؤتمر أن يوجه نداءً للشعب، ولكن الجلسة مستمرة تشغلها الاقتراحات. ولم تدخل الأحداث أبدًا في جدول الأعمال. وفي الساعة ٥,١٧ صباحًا تسلق كريلنكو المنصة وهو يترنح من التعب وبيده برقية: إن الجيش الثاني عشر يحيي مؤتمر السوفييتات ويعلن له تشكيل لجنة عسكرية ثورية استلمت قيادة الجبهة الشمالية. وتحطمت المحاولات التي قامت بها الحكومة للحصول على مساعدة مسلحة أمام مقاومة القطعات. وخضع الجنرال تشيريميسوف القائد العام للجبهة الشمالية لسلطة اللجنة. وقدم تويتنسكي مفوض الحكومة المؤقتة استقالته وانتظر إرسال بديله. وصرحت وفود الوحدات التي أرسلت إلى بتروغراد وفدًا بعد آخر للجنة العسكرية الثورية بأنها انضمت إلى حامية بتروغراد. وقد كتب جون ريد ما يلي: "لقد وقع شيء لا يمكن تخيله: كان الناس يبكون من الفرح وهم يتعانقون".

وأتيحت أخيرًا للوناتشارسكي إمكانية قراءة نداء موجه إلى العمال والجنود والفلاحين بصوت عالٍ، ولكنه لم يكن مجرد نداء؛ فقد اقترحت الوثيقة التي كتبت على عجل، وعرضت كل ما جرى، وكل ما يتوقع أن يجري، اقترحت هذه الوثيقة مسبقًا بداية نظام دولة جديدة. "وانتهت السلطات الكاملة للجنة التنفيذية المركزية التوفيقية، وعُزلت الحكومة المؤقتة، واستلم المؤتمر السلطة". وستقترح الحكومة السوفييتية سلمًا فوريًا، وستسلم الأرض للفلاحين، وستطبع الجيش بالطابع الديموقراطي، وستضع رقابة على الإنتاج، وستستدعي المجلس التأسيسي في الوقت الملائم، وستمنح شعوب روسيا حق تقرير مصيرها بنفسها. "وقرر المؤتمر تسليم السلطة للسوفييتات في كل المديريات". وأثارت كل جملة قيلت في المؤتمر عاصفة من التصفيق. "أيها الجنود احترسوا وانتبهوا! يا عمال السكك الحديدية، أوقفوا كل القوافل التي أرسلها كرنسكي إلى بتروغراد!... إن مصير الثورة ومصير السلم الديموقراطي بين أيديكم!".

وتحرك الفلاحون عندما سمعوا بتسليم الأرض. ولا يمثل المؤتمر -حسب النظام- إلا سوفييتات العمال والجنود. ولكنه يتضمن أيضًا مندوبين عن مختلف سوفييتات الفلاحين: يطالب هؤلاء الفلاحون الآن بأن يشار إليهم في الوثيقة. ومنحوا فورًا

حق التصويت. ووقع ممثل سوفييت فلاحي بتروغراد النداء "باليدين والقدمين". وأعلن برزين عضو اللجنة التنفيذية لافكسانتييف، هذا العضو الذي سكت حتى تلك اللحظة أنه من أصل ٦٨ سوفييتًا من سوفييتات الفلاحين الذين ردوا على التحقيق البرقي، أيد نصفها سلطة السوفييتات، وأيد النصف الآخر انتقال السلطة إلى المجلس التأسيسي. فإذا كان هذا هو المناخ الفكري لسوفييتات المناطق، التي يتألف نصفها من الموظفين، فهل يمكن الشك بأن المؤتمر الفلاحي المقبل سيدعم السلطة السوفييتية؟

وقد أرعب النداء بعض رفاق الطريق بطابعه الذي لا يقاوم، بعد أن جمع مندوبي الجنود ووحدهم بصورة أوثق. وقامت بعض المجموعات الصغيرة بالعرض من جديد أمام المنصة. وحدثت القطيعة مع المؤتمر، قطيعة مجموعة صغيرة من المناشفة، ممن هم أكثر يسارية من الآخرين. وخرجوا ولكن للاحتفاظ بإمكانية إنقاذ البلاشفة قائلين: "لو تصرفنا بشكل آخر، فسوف تخسرون أنفسكم، وتخسروننا أيضًا، وتخسرون الثورة". وأيد لابينسكي ممثل الحزب الاشتراكي البولوني تصريح مارتوف الذي قال فيه: "لن يستطيع البلاشفة الإفادة من السلطة التي استولوا عليها"، وزعم أنه بقي في المؤتمر ولم ينسحب منه "للدفاع عن وجهة نظره حتى النهاية". وامتنع الحزب العمالي اليهودي عن التصويت. وحذا الأمميون الموحدون حذوهم. ومع كل هذا، كم يمثل كل هؤلاء "الموحدين" معًا؟ وقد أيد كل الأعضاء النداء وعارضه صوتان، وامتنع ١٢ عضوًا عن التصويت! ولم يكن لدى المندوبين أية قوة للتصفيق.

ورفعت الجلسة أخيرًا في الساعة السادسة. وأفاقت المدينة على صباح خريفي رمادي وبارد. وتلألأت في الشوارع التي أضاءت تدريجيًّا البقع الحمراء الملتهبة لجذعات الحطب التي أشعلها الساهرون طوال الليل. وكانت الوجوه الكالحة للجنود والعمال المسلحين بالبنادق منفعلة وغير عادية. ولو توفر علماء الأرصاد الجوية في بتروغراد، لتمكنوا من ملاحظة دلائل هامة في خريطة الأجرام السماوية.

واستيقظت العاصمة في ظل سلطة جديدة. واندفع عامة الناس والموظفون، والمثقفون، الذين يعيشون بعيدين عن مسرح الأحداث إلى الصحف منذ الصباح ليعرفوا إلى أية ضفة ألقى بهم مد الأحداث التي وقعت في الليل. ولم يكن من السهل إيضاح ما حدث. وفي الحقيقة كانت الصحف تتحدث عن استيلاء المتآمرين على قصر الشتاء واعتقال الوزراء، وكأنها تتحدث عن حادثة طارئة في تاريخ البلاد. لقد ذهب كرنسكي إلى هيئة الأركان العليا، وستقرر الجبهة مصير السلطة. ونقلت التقارير الصحفية عن المؤتمر تصريحات اليمينيين فقط، وعددت أسماء المنسحبين منهم، ونددت بعجز الذين لم ينسحبوا من المؤتمر. واتسمت المقالات السياسية التي كتبت قبل الاستيلاء على قصر الشتاء بتفاؤل لا تشوبه أية شائبة.

وكانت الشائعات في الشوارع غير متطابقة أبدًا مع لهجة الصحف؛ فالوزراء في نهاية المطاف مسجونون في القلعة، وليست هناك أية تعزيزات تحركت من جانب كرنسكي. وتحرك الموظفون والضباط، وأخذوا يعقدون اجتماعات سرية. وتبادل الصحفيون والمحامون النداء بالهاتف. وحاولت هيئات تحرير الصحف جمع أفكارها وتركيزها. وقال حكماء الصالونات: ينبغي تطويق المغتصبين بحصار من الازدراء العام. وأصبح الباعة في وضع لا يستطيعون معه أن يقرروا متابعة البيع والشراء أم يمتنعوا عن ذلك. وقد أمرت السلطات الجديدة بمتابعة النشاط التجاري ففتحت المطاعم. وعادت حافلات الترام إلى حركتها الطبيعية. وانتظرت المصارف وسط إحساسات سيئة. ورسمت آلات تسجيل البورصة منحنيات متقلبة. فمن الطبيعي أن البلاشفة لن يصمدوا مدة طويلة ولكنهم سيسببون لنا نكبات كثيرة قبل أن يسقطوا.

وقد كتب كلود آني -الصحفي الرجعي الفرنسي- في ذلك اليوم: "استهل المنتصرون أغنية الانتصار، وإنهم لعلى حق؛ فقد عملوا وسط كل هؤلاء الثرثارين... وإنهم يجمعون اليوم غلتهم. مرحى لكم! إنه لعمل جميل!" ولكن المناشفة قدروا الوضع

بصورة مغايرة تمامًا. فقد كتبت **صحيفة دان** تقول: "مضت أربع وعشرون ساعة على "انتصار" البلاشفة، وقد بدأت **الحتمية التاريخية** تنتقم منهم بصورة قاسية... إن حولهم الآن فراغاً خلقوه بأنفسهم... إنهم معزولون عن الجميع... ويرفض كل جهاز الموظفين والتقنيين أن يعمل في خدمتهم... إنهم... ينهارون في لحظة انتصارهم ذاتها ويسقطون في الهاوية...".

وكانت الدوائر الليبرالية والتوفيقية تؤمن بصورة غريبة بأن البلاشفة سيعفون عنهم؛ وقد شجعها على هذا الاعتقاد التخريب الذي مارسه الموظفون. وتحدثت هذه الدوائر وكتبت عن البلاشفة بلغة أيام يوليو (تموز): "يا مرتزقة غليوم!"، "إن جيوب رجال الحرس الأحمر مملوءة بالماركات الألمانية"، "إن الضباط الألمان يقودون الانتفاضة"... وكان من واجب السلطة الجديدة أن تبرهن لهؤلاء الناس على قوة قبضتها قبل أن يبدءوا بالإيمان بقوتها. فمنعت أكثر الصحف اندفاعًا منذ ليلة ٢٥/ ٢٦. وصودرت بعض الصحف الأخرى في خلال يوم ٢٦. ولم يشمل المنع الصحافة الاشتراكية في ذلك اليوم: كان من الواجب إعطاء الاشتراكيين - الثوريين اليساريين، وبعض عناصر الحزب البلشفي فرصة الاقتناع بعدم صلابة الآمال بائتلاف مع الديمقراطية الرسمية.

وطور البلاشفة انتصارهم وسط التخريب والفوضى. واهتمت هيئة أركان مؤقتة شكلت ليلاً بالدفاع عن بتروغراد في حالة قيام هجوم من كرنسكي. وأرسل جنود الإشارة العسكريون إلى مركز الهاتف الذي بدأ فيه الإضراب. ودعيت الجيوش لإنشاء لجانها العسكرية الثورية. وأرسلت إلى الجبهة والمناطق مجموعات من المحرضين والمنظمين الذين أصبحوا جاهزين بعد الانتصار. وكتبت **الصحيفة الناطقة باسم الحزب**: "لقد أدلى سوفييت بتروغراد برأيه، وجاء دور السوفييتات الأخرى".

وفي بحر اليوم وصل خبر أثار الاضطراب بصورة خاصة وسط الجنود: لقد فر كورنيلوف. وفي الحقيقة، كان هذا الأسير الوجيه، الذي أقام في بيخوف تحت حراسة رجاله الأمناء من التيك، والذي كانت هيئة أركان كرنسكي العليا تطلعه على مجريات كل الأحداث، كان هذا الأسير قد قرر بتاريخ ٢٥ بأن المسألة تتخذ انعطافاً جديًا، وترك سجنه الوهمي دون أقل صعوبة. وتأكد الاتصال من جديد بين كرنسكي وكورنيلوف، وأصبح واضحًا في أنظار الجماهير. وقد أبرقت اللجنة العسكرية الثورية إلى الجنود والضباط الثوريين تطلب منهم اعتقال هذين القائدين العامين القديمين وتسليمهما لها عند اعتقالهما فورًا.

وقد أصبح معهد سمولني الآن مركز كل وظائف العاصمة والدولة، كما كان قصر توريد في فبراير (شباط)؛ إذ تمركزت فيه كل المؤسسات الحاكمة. وانطلقت منه كل القرارات، أو كان الجميع يبحثون عن القرارات فيه. وكان الجميع يطالبونه بالسلاح، وفيه تسلم الأسلحة والمسدسات المصادرة من الأعداء. وكان الثوار يحضرون إليه الشخصيات الموقوفة من مختلف أنحاء المدينة. وتجمع فيه كل أولئك الذين وجهت إليهم الإهانات والشتائم فجاءوا إلى القصر يطالبون بالعدل. وكان الجمهور البورجوازي وخوذيو العربات، الذين دب الهلع إلى نفوسهم يحيطون قصر سمولني مشكلين حوله دائرة واسعة.

إن السيارة رمز السلطة وهي أقوى من الصولجان والكرة. وكانت السيارات في ظل نظام ازدواجية السلطات موزعة بين الحكومة، واللجنة التنفيذية المركزية، والأفراد. أما الآن، فإن كل الآليات المصادرة قد سلمت إلى معسكر الانتفاضة. وأصبحت دائرة سمولني أشبه بمرآب ريفي هائل. وكانت تفوح من أفضل السيارات رائحة كريهة لمحروقات سيئة. وكانت الدراجات النارية تهز الأرض بملل وبتهديد مع حلول الظلام. وكانت السيارات المصفحة تزمجر بمنبهها. وكان سمولني أشبه بمصنع، ومحطة، ومركز طاقة للانتفاضة.

وانتشر على أرصفة الشوارع المجاورة سيل هادر من الأشخاص. وكانت جذعات الحطب تشتعل أمام الأبواب الداخلية والخارجية. وكان العمال المسلحون والجنود يفتشون إجازات المرور على أضوائها المتذبذبة. واهتزت بعض الآليات المصفحة

في الباحة بتشغيل محركاتها. لم تكن الآلات والأشخاص تريد التوقف. وكانت الرشاشات رابضة على كــل مــدخل، وحولهــا شرائط الذخيرة بأعداد هائلة. وكانت الممرات الطويلة والقاتمة والمضاءة بأنوار باهتة تدوي بــضجيج الخطــوات، ونــداءات التعجب، والدعوات. وكان القادمون والخارجون يتوافدون إلى السلالم الواسعة بعضهم يتسلقها صاعدًا، وبعضهم الآخر نــازلاً. ويصطدم بهذه الكتلة من السائل البشري أفراد من أصحاب السلطة الذين نفد صــبرهم، ومناضــلو ســمولني، والمراســلون، والمفوضون، الذين يمدون أيديهم التي تمسك بتفويض أو أمر، وهم يحملون البندقية على الكتف مربوطــة بحبــل خفيــف، أو يحملون محفظة خفيفة تحت الذراع.

لم تنقطع اللجنة العسكرية الثورية عن العمل لحظة واحدة، واستقبلت المندوبين، والمراسلين، والمخبرين الــذين جــاءوا طواعية، وبعض الأصدقاء المتجردين، وبعض الأنذال، وأرسلت بعض المفوضين إلى كل أنحاء العاصمة، ووضعت أختامًــا لا حصر لها على الأوامر وشهادات السلطة، وقد تم كل هذا عبر طلبات المعلومات المتقاطعة، والبيانــات العاجلــة، والنــداءات الهاتفية وصليل السلاح. وكان الرجال الذين انهدت قواهم، ولم يناموا ولم يأكلوا منذ وقت طويل، ولم يحلقوا ذقونهم، وارتــدوا ألبسة وسخة، وتطاير الشرر من عيونهم، كان هؤلاء الرجال يصيحون بصوت أبح، ويقومون بإشارات مبالغ بهــا. ويبــدو أن هؤلاء الرجال لم يسقطوا على الأرض بلا حركة من شدة الإعياء بفضل المناخ الحماسي الذي جعلهم يقــاومون كــل أنــواع الإجهاد وحملهم على جناحيه الجبارين.

وسار بعض المغامرين، وبعض الفاسقين، وبقايا الأنظمة القديمة مع اتجاه الريح، وحاولوا الدخول إلى سمولني. ووجــد بعضهم وسيلة للدخول. كانوا يعرفون بعض الأسرار الصغيرة للإدارة: من يملك مفاتيح المراسلات الدبلوماسية، كيــف تكتــب الوصلات لدفع الأموال، أين يمكن الحصول على المحروقات أو الآلات الكاتبة، وأين تحفظ بصورة خاصــة أفــضل خمــور القصر. ولم يدخل هؤلاء السجن أو يقتلوا بطلقة مسدس بعد قيامهم بأول محاولة دنيئة بل استطاع بعضهم القيــام بــأكثر مــن محاولة.

ولم تعط أبدًا منذ أن تكوَّن هذا العالم مثل تلك الأوامر شفويًّا وبالقلم الرصاص وعلى الآلة الكاتبة، وهاتفيًّا وكان كل أمر يلحق بأمر آخر -ألوف وعدد لا يحصى من الأوامر- ولم ترسل هذه الأوامر دائمًا من قبل أولئــك الــذين كــان يحــق لهــم إصدارها، ونادرًا ما استلمت من قبل أولئك الذين يسمح لهم وضعهم بتنفيذها. ولكن المعجزة تمثلت في أنه وسط هذه الدوامــة الجنونية، ظهر وعي عميق، وبذل الناس كل ما في وسعهم ليفهم بعضهم البعض الآخر. ونفذ المهم والضروري على كل حال، ومدت الخطوط الأولى لقيادة جديدة بغية الحلول محل جهاز القيادة القديم؛ كانت الثورة تتعزز وتتقوى.

وعملت اللجنة المركزية للبلاشفة خلال اليوم في سمولني، وكان الهدف تشكيل الحكومة الجديدة لروسيا. لم يوضــع أي محضر لاجتماعات أو بالأحرى لم يحتفظ بأي محضر لذلك. ولم يهتم أحد بمؤرخي المستقبل، مع أن الأحداث كانت تعــد لهــم كثيرًا من المشاغل والاهتمامات. وفي الجلسة المسائية للمؤتمر، كان على المجلس إنشاء مجلس وزراء. فهل نعــين وزراء؟ إن هذه الكلمة كلمة مشبوهة! إنها توحي بأعلى مهنة بيروقراطية؛ إذ تشكل تتويجًا لطموح برلماني. **وتقــرر تــسمية الحكومــة**: "**مجلس مفوضي الشعب**" فلهذه التسمية على كل حال شكل جديد. ونظرًا لأن المباحثات عن ائتلاف "كل الديمقراطية" لم يؤد إلى أية نتيجة حتى تلك اللحظة؛ فإن مسألة تأليف الحكومة، سواء تجاه الحزب أم تجاه الشخصيات قد تبسطت. فكان الاشتراكيون - الثوريون اليساريون يتغنجون وينكمشون على أنفسهم، فما كادوا يقطعون صلتهم بحزب كرنسكي حتى أصبحوا يجهلــون مــاذا سيفعلون. وتبنت اللجنة المركزية اقتراح لينين بوصفه الاقتراح الوحيد الذي يمكن قبوله؛ تشكيل حكومة من البلاشفة فقط.

وجاء مارتوف في خلال هذه الجلسة للدفاع عن قضية الوزراء الاشتراكيين المعتقلين. وقد أتيحت له الفرصة قبل فتـرة قصيرة للتدخل لدى الوزراء الاشتراكيين لإطلاق سراح البلاشفة. ودارت عجلة الزمـان الآن دورة رائعـة. وأكـدت اللجنـة المركزية بواسطة أحد أعضائها الذين انتدبتهم للتفاوض مع مارتوف، وهو كامنييف من دون شك، أكدت اللجنة المركزية بـأن الوزراء الاشتراكيين ستفرض عليهم الإقامة الجبرية في منازلهم، وتشير كل الظواهر إلى أن اللجنة المركزية نسيت أن تفكـر في وضعهم، وسط كثير من المسائل الأخرى، أو أنهم تخلوا عن امتيازاتهم حتى أنهم تقيدوا فـي حـصن تروبتـسكي بمبـدأ التضامن الوزاري.

وافتتحت جلسة المؤتمر في الساعة التاسعة مساء. "وكانت الصورة مختلفة بعض الشيء عن صورة الأمس. سلاح أقل، وتجمعات أقل". ووصف سوخانوف المؤتمر بهذه الكلمات لا بصفته مندوبًا كأحد المندوبين، ولكن بصفته إنسانًا اختلط بالعامـة، ووجد بينهم مكانًا له. وكان من الواجب تقرير مسائل السلم والأرض والحكومة في هذه الجلسة. وهكذا كانت المسائل لا تتجاوز ثلاث مسائل: إنهاء الحرب، إعطاء الأرض للشعب، إقامة الديكتاتورية الاشتراكية. وبدأ كامنييف بقراءة تقرير عـن الأعمـال التي قام بها المكتب خلال اليوم؛ فقد **تم إلغاء عقوبة الإعدام في الجبهة**، التي أعادها كرنسكي، **وأعيـدت حريـة التحـريض السياسي. وأعطيت الأوامر لإخلاء سبيل الجنود الذين اعتقلوا بجرائم تتعلق بحرية الرأي**، وأطلق سـراح أعـضاء اللجـان الزراعية. واستدعي كل مفوضي الحكومة المؤقتة. وأعطى الأمر لاعتقال كرنسكي وكورنيلوف وتسليمها بعد الاعتقال. ووافق المؤتمر وأقر كل هذه الإجراءات.

ومن جديد، برهنت مختلف أنواع بقايا العهد البائد على وجودها أمام مؤتمر يتسم بالروح العدوانية، وقـد نفـد صـبر أعضائه، وأعلن البعض بأنهم سينسحبون -"في ساعة انتصار الانتفاضة لا في ساعة الهزيمة"- وعلى العكس، تبجح الآخـرون بالبقاء. وطالب ممثل عمال مناجم الدونيتز باتخاذ التدابير اللازمة لكيلا يوقف كاليدين شحن الفحم إلى الشمال. ومضى بعد ذلك وقت طويل قبل أن تتعلم الثورة اتخاذ التدابير الواسعة بهذا الشكل. وقد أمكن في نهاية الأمر الانتقال إلى الفقـرة الأولـى مـن جدول الأعمال.

وأخذ لينين الذي لم يره المؤتمر بعد الكلام لمعالجة مسألة السلم. وقد أثار ظهوره على المنصة عاصفة مـن التـصفيق المستمر. ونظر مندوبو الخنادق بعيونهم إلى الرجل الغامض الذي علمهم التوفيقيون ازدراءه، فتعلموا كيـف يحبونـه دون أن يعرفوه. وأمسك لينين بأطراف المنبر بينما أخذت عيناه الراعشتان تتجولان في هذا الجمع الحاشد بصورة تدل على أنه لا يحس بهذا التكريم الرائع وموجة التصفيق الحاد التي استمرت عدة دقائق. وعندما انتهت هذه الموجة قال ببساطة: "سننتقل الآن إلـى بناء المجتمع الاشتراكي".

ولا أثر الآن لمحاضر جلسات المجلس. فقد انسحب المختزلون البرلمانيون الذين دعـوا لتـسجيل المناقـشات، وكـان خروجهم من سمولني مع خروج المناشفة والاشتراكيين - الثوريين، وكان عملهم هذا أول عمل من أعمال التخريب. وضاعت الملاحظات التي أخذها أمناء السر نهائيًا في غمرة الأحداث. ولم يبق إلا التقارير السرية والمغرضة التي نقلتها الصحف والتـي كتبت تحت هدير المدفعية، أو عبر صرير أسنان المعركة السياسية. وتعرضت تقارير لينين لهذا الوضع ذاته؛ فلم تكن التقارير ذاتها نظرًا لسرعة إيقاعها، ونظرًا لتعقد بناء المراحل، حتى في أكثر الظروف ملاءمة، صالحة بسهولة لكي تكتب عنها بعـض الملاحظات. ولا نجد أي أثر للجملة التي افتتح بها لينين خطابه، تلك الجمة التي نقلها جون ريد من شفتي لينين، في أي تقريـر صحفي. ولكنها تتفق مع ما في ذهن الخطيب وفكره تمامًا. ولا يمكن لريد أن يخترعها. وبهذه الكلمة بدأ لينـين حديثـه أمـام مؤتمر السوفييتات ببساطة وبدون شقشقة كلامية وبثقة لا تقاوم: "**سننتقل الآن إلى بناء النظام الاشتراكي**".

ولكن ينبغي أن ننهي الحرب لهذا الغرض. وكان **لينين** قد أطلق **الشعار** التالي منذ حياته كمهاجر **في سويسرا**: "**تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية**". **والآن ينبغي أن نحول الحرب الأهلية الظافرة إلى السلم.** وبدأ لينين مباشرة بقراءة مشروع بيان كي تنشره الحكومة التي ينبغي أن تنتخب. وكانت آذان أعضاء المؤتمر صاغية لدى قراءة كل كلمة من الوثيقة[٢].

"إن حكومة العمال والفلاحين المنبثقة عن ثورة ٢٤ – ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) (٦ – ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) والمعتمدة على سوفييتات مندوبي العمال والجنود والفلاحين تقترح على جميع الشعوب والحكومات المتحاربة الشروع فورًا في مفاوضات تهدف إلى تحقيق سلم ديموقراطي عادل". ودعا البيان إلى السلم دون "ضم"، وإلى رفض كل أنواع الدمج أو الضم والتعويضات. "وتعني الحكومة من الدمج أو احتلال الأراضي -استنادًا إلى مفهوم الحقوق الديمقراطية بشكل عام وحقوق الطبقات العاملة بشكل خاص- كل عملية يتم فيها ضم قومية صغيرة أو ضعيفة إلى دولة كبيرة وقوية بدون التعبير الإرادي والواضح والمحدد عن موافقتها، ورغبتها في ذلك أيًّا كان موعد حدوث هذا الدمج القسري، ومهما كان المستوى الحضاري للأمة التي دمجت بالقوة أو فصلت عن حدود دولة أخرى، ولا يؤثر في ذلك إذا كانت هذه الأمة في أوربا أو في البلدان البعيدة فيما وراء البحار". "وفي الوقت نفسه فإن الحكومة تعلن أنها لا تعتبر أبدًا شروط السلم المشار إليها إنذارًا؛ فهي تقبل دراسة كل شروط السلم الأخرى. وتؤكد فقط على قبول اقتراحاتها هذه من قبل أية دولة محاربة بأسرع وقت ممكن لكي تصاغ هذه الاقتراحات بمنتهى الوضوح، ودون أي التباس ودون طبعها بأي طابع سري".

"وقد ألغت حكومتنا الثورية أساليب الدبلوماسية السرية، وهي تعلن من جهتها عن عزمها على القيام بجميع المفاوضات بصورة واضحة ومكشوفة أمام الشعب كله، وسوف تعمل فورًا على نشر النصوص الكاملة لجميع المعاهدات السرية التي صادقت عليها، أو وقعت عليها حكومة الإقطاعيين والرأسماليين، منذ فبراير (شباط) حتى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧. وأن الحكومة ترفض فورًا وبصورة مطلقة كل بنود هذه المعاهدات السرية، الهادفة في معظمها إلى إتاحة المزيد من **الفوائد والامتيازات** لكبار ملاكي الأرض والرأسماليين الروس، وإلى المحافظة على المكاسب أو زيادة التوسع الذي حققه الروس الكبار". واقترحت الحكومة للبدء بالمفاوضات تحديد هدنة مدتها ثلاثة أشهر على الأقل. وقد وجهت حكومة العمال والفلاحين اقتراحاتها بآن واحد "إلى حكومات وشعوب جميع البلدان المتحاربة... وتتوجه بدعوتها في الوقت ذاته وبنوع خاص إلى العمال الواعين في **الأمم الثلاث الأكثر إخلاصًا للإنسانية**، والتي هي في الوقت نفسه المساهمة الكبرى في الحرب الحالية؛ إنكلترا وفرنسا وألمانيا. ونحن واثقون من أن عمال هذه البلدان سيعاونوننا بنشاطاتهم المتعددة وتصميمهم، وطاقتهم، وتجردهم، على إنجاح قضية السلم، وعلى إنجاح قضية تحرير الجماهير العاملة والمستثمرة بكل أساليب الاستثمار والاستعباد في الوقت ذاته".

واكتفى لينين ببعض التفسيرات القصيرة لنص البيان قائلاً: "إننا لا نستطيع أن نتجاهل الحكومات، لأن تجاهلها سيؤخر إمكانية عقد السلم... ولكننا لا نملك الحق في الوقت ذاته من إهمال توجيهه إلى الشعوب. ففي كل مكان نجد أن الحكومات والشعوب ليست على وفاق تام، ومن واجبنا مساعدة الشعوب على التدخل في مسألتي الحرب والسلم". "وسندافع بالتأكيد وبكل الوسائل عن برنامجنا للسلم دون ضم أو تعويضات"، ولكننا لن نفرض شروطنا كإنذار، محترسين من أن نعطي للحكومات مبررًا سهلاً لرفض المحادثات. وسنفحص كل الاقتراحات الأخرى. "سنفحص كل الشروط، وهذا لا يعني أننا سنقبلها".

وكان البيان الذي نشره التوفيقيون بتاريخ ١٤ مارس (آذار) يدعو عمال البلدان الأخرى إلى قلب أصحاب المصارف باسم السلم. ومع هذا فإن التوفيقيين أنفسهم، الذين كانوا بعيدين كل البعد عن قلب مصارفهم الخاصة تحالفوا معهم. "ولقد قلبنا الآن حكومة أصحاب المصارف". ويعطينا هذا الحق بدعوة الشعوب الأخرى لأن تحذو حذونا. وأن لنا كل الأمل بالانتصار،

"وينبغي أن نتذكر بأننا لا نعيش في مجاهل أفريقيا، بل في أوروبا؛ حيث يمكن لكل شيء أن يصبح بسرعة معروفًا من قبل الجميع". وكان **لينين** يرى، كما رأى دومًا، **ضمان الانتصار في تحول الثورة الوطنية إلى ثورة أممية**. "إن الحركة العمالية ستتفوق وستشق الطريق إلى السلم والاشتراكية".

وأرسل الاشتراكيون - الثوريون اليساريون ممثلهم لإعلان انضمامهم إلى البيان الذي قرأه لينين: "فقد كان التصريح بفكره ومعناه قريبًا من فكرهم ومفهومًا لديهم". وأيَّد الأمميون الموحدون البيان، ولكن شريطة إصداره باسم القوى الديمقراطية. ووافق لابينسكي باسم المناشفة البولونيين اليساريين بصوت عالٍ على "**الواقعية البروليتارية السليمة" للوثيقة**. وأيد البيان بدون تحفظ دزيرجينسكي باسم الحزب الاشتراكي - الديموقراطي البولوني والليتواني، كما أيد ستوتشكا باسم الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الليتوني، وكابسوكاس باسم الحزب الاشتراكي - الديموقراطي الليتواني. ولم تحدث أية اعتراضات على البيان إلا من قبل البلشفي إيريمييف الذي طالب بأن تتخذ شروط السلم طابع الإنذار؛ وإذا لم تتخذ شروط السلم شكل إنذار "فإن الإمبرياليين سيفكرون بأننا ضعفاء، وأننا خائفون".

وهاجم لينين بحدة وبحزم وتصميم اقتراح تقديم **شروط السلم كإنذار**، ورد على هذا قائلاً: بهذا الشكل "**سنعطي لخصومنا إمكانية إخفاء كل الحقيقة عن الشعب، وإخفائها وراء تشددنا**". وقد قيل بأن "امتناعنا عن تقديم الإنذار سيبرهن عن عجزنا". لقد **حان الوقت للتخلي عن نفاق المفاهيم البرجوازية في السياسة**. "إن علينا ألا نخشى شيئًا عندما نقول الحقيقة عن تعبنا...". وقد برزت الخلافات المقبلة حول بريست - ليتوفسك عبر هذه الحادثة.

ودعا كامنييف كل أنصار توجيه الدعوة إلى إبراز بطاقات عضويتهم في المؤتمر. وقد كتب ريد: "رفع أحد المندوبين يده للمعارضة، فانفجرت ضده موجة من السخط والغضب، اضطر معها إلى إنزال يده". وصدق على النداء الموجه إلى الشعوب والحكومات بالإجماع. لقد تم الأمر! وشمل هذا العمل كل المشتركين بعظمته المباشرة والقريبة جدًا.

وقد لاحظ سوخانوف، هذا المراقب الدقيق، مع أنه متحامل ومغرض، لاحظ في الجلسة الأولى أكثر من مرة تعب أعضاء المؤتمر. ومما لا شك فيه أن المندوبين، وكل الشعب قد تعب من الاجتماعات، والمؤتمرات، والخطب والقرارات كما تعبوا عمومًا من هذه المراوحة في المكان ذاته. ولم يكونوا واثقين أبدًا بأن هذا المؤتمر يعرف ويستطيع أن يقود هذا العمل العظيم ليتكلل بنهاية حسنة. ألن تضطر عظمة المهام والقوة التي لا يمكن التغلب عليها للمقاومات، ألن تضطر المندوبين في هذه المرة إلى القتال التراجعي أيضًا؟ لقد حدث مد من الثقة عندما علم الأعضاء بسقوط قصر الشتاء، ثم علموا بانضمام راكبي الدراجات إلى الانتفاضة فيما بعد. ولكن كان هذان الحدثان مرتبطين أيضًا بآلية الانتفاضة. وقد اكتشفوا الآن فقط معنى هذا المؤتمر التاريخي فعلاً. فقد وضعت الانتفاضة الظافرة -في مؤتمر العمال والجنود- القاعدة الصلبة للسلطة. ولم يصوت المندوبون في هذه المرة للثورة، بل صوتوا لعمل حكومي له معنى أكبر بكثير.

أيتها الشعوب استمعي! إن الثورة تدعوك إلى السلم. وسوف تتهم هذه الثورة بأنها خرقت المعاهدات. ولكنها فخورة بهذا. إنها فخورة بالقطيعة مع المعاهدات الدموية للجشعين؛ وأنها لميزة كبيرة في التاريخ. لقد تجرأ البلاشفة على ذلك، وكانوا الوحيدين الذين تجرءوا. إن العزة تتفجر في كل القلوب. وقد تضرمت العيون. كان الجميع واقفين. ولم يكن أحد يدخن. ويبدو أن أحدًا لا يتنفس. وتوحد المكتب والمندوبون والمدعوون ورجال الحرس في نشيد الانتفاضة والإخاء. وقد روى جون ريد فيما بعد -كمراقب وكمشترك، وكناقد وشاعر للانتفاضة- "وفجأة، وبزخم عام وجدنا أنفسنا واقفين كلنا، ونحن نردد النشيد الأممي الحماسي. وكان جندي قديم ذو شعر رمادي يبكي كالطفل. وانتشر هذا الانسجام القوي في القاعة كلها، واخترق زجاج النوافذ والأبواب، وصعد عاليًا جدًا إلى السماء".

فهل صعد نحو السماء فعلاً؟ لقد صعد بالأحرى إلى خنادق الخريف التي تخترق أوروبا المصلوبة، صعد نحو المدن والقرى المخربة، صعد نحو النساء والأمهات اللواتي يرتدين ثياب الحداد. "قفوا، أيها المعذبون في الأرض، أيها المحكوم عليكم بالجوع!..." وقد تحررت كلمات النشيد من طابعها التقليدي، واختلطت بالعمل الحكومي. ومن هنا جاء صداها ورنينها كعمل مباشر. واستشعر كل فرد أنه أكبر وأكثر أهمية في تلك اللحظة. واتسع قلب الثورة للعالم كله. "سنحصل على الخلاص...". وقد أعادت الثورة الفكر المستقل، والمبادأة، والجرأة، والمشاعر السعيدة التي حرم منها المضطهدون في المناسبة العادية. **كل هذا أعادته الثورة الآن...** "بيدها!" وبيد قادرة وسيخنق، الملايين من الرجال الذين قلبوا الملكية والبرجوازية، الحرب. إن الحرس الأحمر لحي فيبورغ، والجندي الغامض المشجوج الذي جاء من الجبهة، والثوري القديم الذي أمضى سنوات في المنفى، والبحار الشاب ذا اللحية السوداء، الذي يعمل على ظهر اورور، إن كل هؤلاء قد أقسموا على خوض المعركة الحاسمة والنهائية حتى النهاية "**سنبني عالمًا لأنفسنا، عالمًا جديدًا!**" سنبني! وقد دخلت في هذه الكلمة التي انطلقت من بعض القلوب البشرية، دخلت فيها ضمناً سنوات الحرب الأهلية المقبلة وفترات العمل الخمسية المقبلة، المليئة بالعمل والحرمان. "وكل من لم يكن شيئًا سيصبح كل شيء!" كل شيء! فإذا كانت حقيقة الماضي قد تحولت أكثر من مرة إلى نشيد، فلماذا لا يصبح النشيد حقيقة الغد؟ ولم يعد لمعاطف الخنادق نفس مظهر لباس المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. وانتصبت قبعات اللبد، الممزقة، انتصبت بصورة أخرى على عيون تلمع وتؤكد "يقظة العنصر البشري!" فهل يعقل أن لا يستيقظ هذا العنصر من النكبات والإذلال والوحل ودم الحرب.

"كان كل أعضاء المكتب، ولينين على رأسهم واقفين، يغنون، وكانت علامات الحماسة بادية على وجوههم، وأنظارهم تقدح بالشرر". بهذه الكلمات شهد سوخانوف المتشائم، الذي كان يتأمل بإحساس ثقيل انتصار الآخرين. واعترف سوخانوف قائلاً: "كم أردت أن أنضم إليهم، وأن أمتزج معهم في الشعور الواحد ذاته، وفي المناخ النفسي الواحد، كم أردت أن أمتزج بهذه الكتلة البشرية وزعمائها. ولكني لا أستطيع".

وانتشرت آخر كلمات اللازمة، ولكن المؤتمر بقي واقفًا، وقد تلاحمت الكتلة البشرية كلها، بعد أن حركتها عظمة العمل الذي كانت تعيشه. وكانت الأنظار كلها مركزة على شخصية قصيرة القامة، مربوعة، ذات رأس ضخم مستدير أصلع يغوص بين كتفيه، وعينين صغيرتين، وأنف دقيق، وفم واسع وذقن ثقيلة. ولم يكن أحد قد رآه منذ أربعة أشهر، حتى أن اسمه قد انفصل عن شخصيته الحية. ولكن كلا، إنه ليس أسطورة؛ فها هو وسط جماعته -وكم "من جماعته" الآن!- وهو يمسك بيده أوراق برقية السلم للشعوب. وأحس الجميع، حتى المقربون منه لأول مرة، والذين كانوا يعرفون مكانته في الحزب، أحسوا للمرة الأولى ماذا كان يعني لينين بالنسبة للثورة، والشعب، والشعوب. فهو الذي علمهم. وهو الذي رباهم. وانطلق صوت من أقصى قاعة المؤتمر ببضع كلمات تحية للزعيم. وبدا أن القاعة لا تنتظر سوى هذه الإشارة. عاش لينين! واختلطت المشاعر التي استحوذت على الجميع، والشكوك التي تغلبوا عليها، والاعتزاز بالمبادرة، والانتصار، والآمال الكبار، كل هذا اختلط بفورة بركانية من الاعتراف بالجميل والحماسة. وقد أشار سوخانوف المتشائم إشارة جافة: "لقد حدث ارتقاء في الأفكار لا جدال فيه... كانوا يحيون لينين، كانوا يصرخون "هورا" وكانوا يقذفون بقبعاتهم في الهواء. وأنشدوا النشيد الجنائزي تحية لضحايا الثورة. ومن جديد دوت عاصفة هائلة من التصفيق والصياح، وقذفت القبعات في الهواء".

إن هذه الدقائق التي عاشها المؤتمر، سيعيشها الشعب بكامله في اليوم التالي ولكن بشكل أقل حدة. وقد كتب ستانكيفيتش في **مذكراته** قائلاً: "ينبغي القول بأن الحركة الجريئة للبلاشفة، وقدرتهم على اجتياز الأسلاك الشائكة، وتجاوز السنوات الأربع التي فصلتنا عن الشعوب المجاورة أحدثت من تلقاء ذاتها انطباعًا هائلاً". وعبر **البارون بودبرغ في مذكراته اليومية الخاصة** عن هذا الشيء بصورة أقوى، ولكنها لا تقل وضوحًا عما كتبه ستانكيفيتش: "بدأت الحكومة الجديدة للرفيق لينين بإصدار

مرسوم السلم الفوري... إنها ضربة عبقرية في الوقت الحاضر لجذب جماهير الجنود إليه. وقد لاحظت ذلك من المناخ الفكري لعدة أفواج زرتها اليوم. وقد أحدثت برقية لينين حول الهدنة الفورية التي تستمر ثلاثة أشهر، وعن السلم الذي سيعقبها، أحدثت هذه البرقية في كل مكان انطباعًا هائلاً وأثارت انفجارات من الفرح. لقد خسرنا الآن آخر فرصنا لإنقاذ الجبهة". وأن ما يفهمه هؤلاء الناس عندما يتحدثون عن إنقاذ الجبهة التي خسروها هم بأنفسهم؛ هو سلامة مواقعهم الاجتماعية الخاصة فقط، وذلك منذ وقت طويل.

ولو أن الثورة وجدت روح الإقدام في ذاتها لاجتياز الأسلاك الشائكة في مارس (آذار) - إبريل (نيسان)، لكان بوسعها أيضًا، ولفترة من الوقت، أن توحد صفوف الجيش وتحقق تلاحمها، شريطة تخفيفه في الوقت ذاته إلى نصف أو ثلث تعداده، ولأنشأت بهذا الشكل موقعًا يتمتع بقوة استثنائية لتدعيم سياستها الخارجية. ولكن ساعة الأعمال الجريئة لم تدق إلا في أكتوبر (تشرين الأول) عندما لم يعد من الممكن التفكير أبدًا بإنقاذ أي جزء من الجيش، حتى ولو لفترة من الزمن. ولم يكن من واجب النظام الجديد أن يأخذ على عاتقه، تكاليف الحرب القيصرية فحسب، بل التبذير الذي مارسته الحكومة المؤقتة بطيش أيضًا. وكانت البلشفية هي القوة الوحيدة القادرة على إعادة البلاد إلى الطريق السوي، بفتح مصادر لا تنضب من الطاقة الشعبية بواسطة ثورة أكتوبر (تشرين الأول) في مثل تلك الظروف الرهيبة التي لا مخرج منها بالنسبة للأحزاب الأخرى.

واعتلى لينين المنصة من جديد، ومعه في هذه المرة الصفحات القليلة التي تشكل مرسوم الملكية الزراعية. وبدأ حديثه باتهام الحكومة المؤقتة والأحزاب التوفيقية التي قادت البلاد إلى الانتفاضة الفلاحية بمماطلاتها ومراوغاتها في مسألة توزيع الأراضي "هناك كذب ودجل رخيص فيما يقولونه عن النهب والفوضى في الأرياف. فأين ومتى ثار النهب والفوضى كنتيجة لتدابير عاقلة؟..." ولم يطبع مشروع المرسوم على عدة نسخ لتوزيعه، فقد كان لينين يمسك بين يديه المسودة الوحيدة، وقد كُتبت كما يقول سوخانوف في مذكراته "بصورة سيئة جدًا حتى أن لينين تردد وهو يقرؤها، وتشوش، ثم توقف عن القراءة نهائيًّا. وجاء أحد أفراد الحشد الهائل الذي تجمع حول المنصة لمساعدته. وترك لينين مكانه طوعًا، وترك الورقة التي لا تقرأ". ولا تقلل هذه الصعوبات الصغيرة أبدًا في نظر البرلمان الشعبي، من عظمة ما تحقق.

وكان جوهر المرسوم سطران من المادة الأولى: "**تلغى ملكية الأرض العقارية فورًا ودون تعويض**". **وتنتقل ملكية الملاك العقاريين وكل أرضي الحكومة والأديرة والكنيسة بكل ما عليها من مواشٍ حية أو ميتة، مع أبنيتها وكل ملحقاتها، وتصبح تحت تصرف اللجان الزراعية في النواحي، وسوفييتات مندوبي الفلاحين في المراكز، إلى أن تتم تسوية المسألة الزراعية أمام المجلس التأسيسي. وتعفى أراضي الفلاحين المعدمين، وجنود القوزاق من المصادرة**، وكان المرسوم مؤلفًا من ثلاثين سطرًا: وكان ضربة فأس لقطع العقدة الغوردوسية(٣).

وأضيف إلى النص الأساسي تعليمات أوسع استمدت كلها من الفلاحين أنفسهم. وقد نشرت **أزفستيا سوفييتات الفلاحين** بتاريخ ١٩ أغسطس (آب) خلاصة ٢٤٢ دفترًا أعطاها الناخبون لممثلهم في المؤتمر الأول لمندوبي الفلاحين. ومع أن خلاصة هذه الاقتراحات قد وضعها الاشتراكيون الثوريون(٤)، إلا أن لينين لم يتردد عن إدخال هذه الوثيقة بكاملها وبكل نصوصها إلى المرسوم "بشكل توجيه عام لتحقيق الإصلاحات الزراعية الكبرى". ويقول هذا الميثاق: "إلغاء حق ملكية الأرض إلغاءً تامًا". "إن هبة التمتع بالأرض ممنوحة لكل مواطني الدولة الروسية... الراغبين باستثمارها بعملهم وبمساعدة عائلاتهم أو بشكل جماعي ما داموا قادرين على استثمارها". وتتضمن الوثيقة أيضًا: "إلغاء العمل المأجور في الأرض". "واستثمار الأرض بصورة متساوية، أي توزيع الأرض على عمال الأرياف، مع أخذ الشروط المحلية بعين الاعتبار، حسب معيار للعمل أو الاستهلاك".

ولو بقي النظام البورجوازي على وضعه السابق، دون أن نتحدث عن ائتلافه مع الملاكين النبلاء، لبقي المختصر الذي صاغه الاشتراكيون - الثوريون خيالاً لا يمكن تطبيقه، إلا إذا تحول إلى نوع من الكذب الواعي. ولكان غير قابل للتحقيق حتى في ظل حكم البروليتاريا. ولكن مصير هذا الميثاق تعدل جذريًا، منذ أن عالجته السلطة بصورة جديدة. وأعطت الحكومة العمالية لطبقة الفلاحين مهلة للقيام بتحقيقات فعلية حول برنامجها المتناقض.

وفي أغسطس (آب) كتب لينين ما يلي: "إن الفلاحين يريدون أن يحتفظوا لأنفسهم بالملكية الصغيرة، وأن يحددوا معيارًا متساويًا.. وأن يقوموا دوريًا بعمليات تساو جديدة... وحسنًا، فليكن الأمر كذلك! فحول هذه النقطة لن يكون هناك أي اشتراكي عاقل في خلاف مع الفلاحين المعدمين. فإذا صودرت الأراضي، تقوضت سيطرة البنوك. وإذا صودرت الآلات والتجهيزات الزراعية، تقوضت سيطرة رأس المال أيضًا و... بما أن السلطة السياسية قد انتقلت إلى البروليتاريا، فإن الإجراءات الباقية... ستستلهم من التطبيق ذاته".

وكان الذين لم يفهموا هذا الموقف الحاذق، والتربوي، كتدبير هام للحزب البلشفي إزاء الطبقة الفلاحية ومنهاجها الزراعي، كان هؤلاء يشكلون عددًا كبيرًا لا من الأعداء فحسب بل من الأصدقاء أيضًا. وقو ردت **روزالوكسبمورغ** مثلاً، بأن توزيع الأرض بالتساوي ليس فيه من الاشتراكية أي شيء. ولكن في هذا الموضوع أيضًا ليس لدى البلاشفة بالطبع أية أحلام. وعلى العكس، فإن بنية المرسوم ذاته تشهد على يقظة المشروع الحادة. ففي حين كان ملخص الدفاتر يعلن بأن الأرض، أرض الملاكين النبلاء وأرض الفلاحين، "أصبحت ملكًا لكل الأمة" فقد سكت القانون الأساسي على الشكل الجديد للملكية الزراعية. حتى أن على المشروع ذي الآفاق الواسعة أن يتوقف مذعورًا أمام واقع هو أن **تأميم الأرض**، وهو مبدأ اجتماعي جديد يتمتع بأهمية تاريخية عالمية، قد وضع بشكل توجيه أضيف إلى القانون الأساسي. ومع ذلك ليس السبب هو الإهمال في الصياغة. فقد كان لينين لا يريد خاصة تقييد الحزب بصورة أولية والسلطة السوفييتية، في مجال تاريخي لم يُكتشف بعد. وكان يجمع في موقعه هذا بين الجرأة النادرة التي لا نظير لها والحذر الكبير. ويبقى أيضًا أن نحدد بالتجربة كيف يفهم الفلاحون ذاتهم أن الأرض قد أصبحت "ملك الأمة بكاملها". فبعد قيام الحزب بوثبة إلى الأمام، كان من الواجب تقوية المواقع؛ إذ ربما اضطر الوضع إلى التراجع، وكان توزيع أراضي الملاكين النبلاء على الفلاحين، الذي لا يشكل بحد ذاته ضمانة ضد الثورة المضادة البرجوازية، يستبعد على كل حال إعادة الملكية الإقطاعية.

ولا يمكن الحديث عن "الأبعاد الاشتراكية" إلا بشرط إقامة سلطة البروليتاريا والحفاظ عليها. بَيد أن الاحتفاظ بهذه السلطة لا يتم إلا بإعطاء الفلاح عونًا صادقًا في مشروعة الثوري. وإذا كان توزيع الأراضي يعزز الحكومة الاشتراكية سياسيًا، فإنه كان مبررًا كل التبرير كإجراء فوري. وكان من الواجب أخذ الفلاح كما وجدته الثورة. فلا يمكن تعليمه من جديد إلا في ظل نظام جديد خلال عدة سنوات، وخلال عدة أجيال، بمساعدة تقنية جديدة، وتنظيم اقتصادي جديد، لا دفعة واحدة. ولم يكن المرسوم، ومعه ملخص الدفاتر يعني بالنسبة لديكتاتورية البروليتاريا الالتزام بأخذ مصالح العامل الزراعي بعين الاعتبار فحسب، بل يعني التسامح أيضًا بأوهامه كملاك صغير. وكان من الواضح مسبقًا أن هناك عددًا من المراحل والمنعطفات في الثورة الزراعية. ولم يكن التوجيه الملحق بالمرسوم هو آخر كلمة للثورة الزراعية. كان هذا التوجيه يمثل نقطة انطلاق فقط، قبل العمال احتلالها، وهم يساعدون الفلاحين على تحقيق مطالبهم التقدمية، ويحولون في الوقت ذاته دون قيامهم بخطوات خاطئة.

وقال لينين في تقريره ما يلي: "لا نستطيع أن نتجاهل قرار القاعدة الشعبية حتى ولو لم نكن متفقين معها بالرأي... إن علينا أن نعطي الجماهير الشعبية حرية العمل الخلاق التامة... وأخيرًا، وهذا هو المهم، على الطبقة الفلاحية أن تثق بشدة بأن

ملكية النبلاء لم تعد موجودة في الريف، وأن على الفلاحين منذ الآن أن يقرروا كل شيء، وأن ينظموا وجودهم بأنفسهم" فهل هذا انتهازية؟ كلا إنه واقعية ثورية.

وقبل أن تنتهي الاحتفالات الترحيبية، قدم الاشتراكي - الثوري اليميني بيانيخ، الذي يمثل اللجنة التنفيذية الفلاحية، احتجاجًا صارخًا على الاعتقالات التي شملت الوزراء الاشتراكيين. وصرخ الخطيب ضاربًا المنضدة بيده بكل غضب "يتم في الأيام الأخيرة شيء ما. شيء لم نره من قبل في أية ثورة. إن رفيقينا أعضاء اللجنة التنفيذية؛ ماسلوف وسالازكين سجينان. ونحن نطالب بإطلاق سراحهما فورًا!" وتحدث مندوب آخر يرتدي معطف جندي بصوت مفعم بالتهديد "إذا ما سقطت شعرة واحدة من رأسيهما!" وبدا هذان الخطيبان أمام المؤتمر وكأنهما شبحان قادمان من العالم الآخر.

* * *

وكان السجناء البلاشفة في دفينسك عند اندلاع الانتفاضة حوالي ٨٠٠ شخص، وكان عددهم في منسك ٦ آلاف، وفي كييف ٥٣٥، أغلبهم من الجنود. وكان في كافة أرجاء البلاد عدد كبير من أعضاء اللجان الفلاحية السجناء! وأخيرًا، فإن عددًا كبيرًا من مندوبي المؤتمر، بما في ذلك أعضاء المكتب، عرف بعد يوليو (تموز) الاعتقال في سجون كرنسكي. وليس من المستغرب أن سخط أصدقاء الحكومة المؤقتة لم يحدث في هذا المجلس أثرًا كبيرًا. وزاد الطين بلة أن مندوبًا مجهولاً من الجميع، وهو فلاح من إقليم تفير، طويل الشعر، يرتدي معطفًا من فراء خروف، وقف أمام المجلس وحي الحاضرين بأدب، منحنيًا نحو أركان القاعة الأربعة. وطالب المؤتمر باسم ناخبيه أن لا يتردد باعتقال لجنة أفكسانتييف التنفيذية كلها؛ "إنهم لا يمثلون الفلاحين، إنهم كاديت... ومكانهم في السجن"؛ وهكذا تجابهت شخصيتان: الاشتراكي - الثوري بيانيخ، وهو نائب محنك، يؤيد سلطة الوزراء، ويعادي البلاشفة ويحقد عليهم. وفلاح مغمور من تفير، حمل إلى لينين أحر التهاني باسم ناخبيه. إنهما يمثلان شريحتين اجتماعيتين، وثورتين متباينتين. لقد كان بيانيخ يتحدث باسم ثورة فبراير (شباط). على حين كان فلاح تفير يناضل من أجل ثورة أكتوبر (تشرين الأول). ورحب المؤتمر بالمندوب الذي يرتدي معطف فراء الخروف ترحيبًا حارًا. وخرج مبعوثو اللجنة التنفيذية وهم يطلقون الشتائم والتهديدات.

ويقول كاليغاييف بأن "مجموعة الاشتراكيين - الثوريين اليساريين استقبلت مشروع لينين وكأنه انتصار لفكرتها". ولكن نظرًا لأهمية المسألة كلها، فإن من الضروري مناقشتها مطولاً في كافة المجموعات. وطالب أحد المتطرفين التابعين لأقصى يسار الحزب الاشتراكي - الثوري الذي تفتت، بإجراء تصويت مباشر "إن علينا أن نقدم التقدير والاحترام إلى الحزب الذي يطبق مثل هذا التدبير منذ اليوم الأول، وبدون ثرثرات عقيمة". وأصر لينين على أن يكون تعليق الجلسة على كل حال قصيرًا إلى أبعد حد ممكن. أن أنباءً تتمتع بهذه الأهمية بالنسبة لروسيا، لا بُدَّ وأن تطبع منذ الصباح. وبدون تأخير!" لأن المرسوم الخاص بالمسألة الزراعية لا يشكل أساس النظام الجديد فحسب، ولكنه بالإضافة إلى ذلك أداة الانتفاضة التي ينبغي عليها أن تكتسب تأييد البلاد. وسمع جون ريد في هذه اللحظة صوتًا آمرًا يخترق الضوضاء السائدة في القاعة: "١٥ محرضًا إلى الغرفة رقم ١٧. فورًا! للذهاب إلى الجبهة!".

وفي الساعة الواحدة صباحًا، حضر وفد من القطعات الروسية المتمركزة في بلاد مقدونيا مشتكيًا من أن هذه القطعات تعرضت للنسيان والإهمال من قبل الحكومتين اللتين تعاقبتا على بتروغراد، أن الدعم من أجل السلام والأرض يأتي من الجنود المتمركزين في مقدونيا؟ هذا هو الاختبار الجديد للحالة الفكرية التي يحملها جيش يعيش في هذه الحالة في ركن قصي من جنوب شرقي أوروبا. وأعلن كامنييف بعد ذلك مباشرة: بأن كتيبة راكبي الدراجات العاشرة التي استدعتها الحكومة من الجبهة،

قد دخلت هذا الصباح إلى بتروغراد، وحذت حذو القطعات التي سبقتها، وأعطت تأييدها لمؤتمر السوفييت. وصفق الحاضرون طويلاً لهذا النبأ. وكان تصفيقهم دليلاً على أن تأييد القطعات المستمر لن يفقد أهميته في أية لحظة.

وأخذ المؤتمر بالإجماع وبدون مناقشة قرارًا ينص على أن من واجبات شرف السوفييتات المحلية منع عمليات التصفية الموجهة ضد اليهود أو أية مجموعة أخرى، من قبل أشخاص فاسدين. وما أن تم ذلك، حتى بدأ التصويت على مشروع القانون الزراعي. ووافق المؤتمر وسط جو من الحماس على مرسوم يضع حدًا لنظام القنانة، قاعدة قواعد المجتمع الروسي القديم. ولم يعترض على هذا القانون سوى صوت واحد، وامتنع ثمانية أعضاء عن التصويت. واكتسبت الثورة الزراعية شرعيتها منذ تلك اللحظة. وحصلت الثورة البروليتارية على دعم قوي.

وبقيت معضلة واحدة أخيرة وهي: تشكيل الحكومة. وقرأ كامنييف المشروع الذي أعدته اللجنة المركزية للبلاشفة. تُسلم إدارة مختلف شئون الدولة إلى لجان مهمتها تنفيذ البرنامج الذي أعلنه المؤتمر "بالتعاون الوثيق مع تنظيمات الجماهير العمالية، والعمال، والبحارة، والجنود، والفلاحين، والمستخدمين". وتُركز السلطة الحكومية بِيد لجنة تضم رؤساء اللجان الفرعية الآنفة الذكر، وتحمل اسم "سوفييت مفوضي الشعب". ويخضع نشاط الحكومة لمؤتمر السوفييتات، ولجنته التنفيذية المركزية.

ولتشكيل أول سوفييت لمفوضي الشعب، تم تعيين ١٥ مفوضًا من بينهم ٧ أعضاء من اللجنة المركزية للحزب البلشفي، وكان لينين رئيسًا للحكومة، وريكوف مفوض الشعب للداخلية، وميليوتين للزراعة، ونوغين للتجارة والصناعة، وتروتسكي للخارجية، ولوموف للعدل، وستالين كرئيس للجنة القوميات، وسلمت شئون الحربية والبحرية للجنة تضم أنطونوف - أوفسينكو، وكريلنكو، وديبنكو، وتقرر تعيين شليابنيكوف على رأس مفوضية العمل، ولوناتشارسكي للتعليم، وألقيت مهمة التموين الصعبة المعقدة على عاتق تيودورفيتش، كما أُلقيت مهمة البرق والبريد على عاتق العامل غليبوف. ولم يتم في تلك الآونة تعيين مفوض الشعب للمواصلات، وترك الباب بذلك مفتوحًا للتفاهم مع منظمات عمال السكك الحديدية.

وكان هؤلاء المرشحون الخمسة عشر عبارة عن ٤ عمال و١١ مثقفًا. وهم جميعًا ممن ذاقوا مرارة سنوات السجن والنفي واللجوء. كما دخل خمسة منهم السجن في عهد الجمهورية الديمقراطية. ولم يكن رئيس مفوضي الشعب المقبل قد خرج من مخبئه الإجباري الذي لجأ إليه في ظل الديمقراطية إلا منذ عهد قريب. ولم يدخل كامنييف وزينوفييف مفوضية الشعب؛ إذ كان الأول يشغل منصب رئيس اللجنة التنفيذية المركزية الجديدة، على حين كان الثاني مكلفًا بتحرير الصحيفة الرسمية للسوفييتات. ويقول ريد: "وعندما تلا كامنييف لائحة أسماء مفوضي الشعب، انفجر التصفيق مرة تلو الأخرى بعد كل اسم، وخاصة بعد ذكر اسمي: لينين، وتروتسكي"، ويضيف سوخانوف إلى ذلك اسم لوناتشارسكي.

ووقف ضد التشكيلة الحكومية المطروحة آفيلوف ممثل الأمميين الموحدين، الذي كان من قبل بلشفيًّا، وغدا الآن محررًا لصحيفة غوركي. وألقي آفيلوف خطابًا طويلاً بهذا الصدد. وعدد بكل وعي الصعاب الجسيمة التي تنتصب أمام الثورة في مجالات السياستين الداخلية والخارجية. إن علينا "أن نلاحظ بوضوح شيئًا هامًا هو: إلى أين نذهب... وتنتصب أمام الحكومة المسائل القديمة نفسها وأهمها: مسألة الخبز، ومسألة السلم. وستنقلب الحكومة إذا لم تستطع حل هاتين المسألتين". وتحس البلاد بنقص الخبز. وهو بين أيدي الفلاحين الموسرين. ولا يمكن تقديم أي شيء بديلاً عن الخبز، نظرًا لانهيار الصناعة بسبب نقص المحروقات والمواد الأولية. وتخزين القمح عن طريق استخدام التدابير القسرية أمر صعب علاوة على كونه بطيء وخطير. ولذا فإن من الضروري خلق حكومة لا تتمتع بتعاطف الفلاحين الفقراء فحسب، بل تتمتع بتعاطف الفلاحين الموسرين أيضًا. وهذا ما يتطلب ائتلافًا.

"ولكن تحقيق السلم أصعب من ذلك أيضًا" ولسوف لا تعطي حكومات الحلفاء ردًا على نداء المؤتمر الداعي لوقف إطلاق النار الفوري. وها هم سفراء دول الحلفاء مستعدون للرحيل. وستجد الحكومة المؤقتة نفسها معزولة. وسيبقى اقتراحها السلمي معلقًا. ولا تزال الجماهير الشعبية في البلاد المتحاربة بعيدة حتى الآن عن الثورة. وهناك احتمالان متوقعان: سحق الثورة بقوات الهوهنزولرن، أو عقد صلح منفرد. ولا يمكن أن تكون شروط السلام في الحالتين إلا شروطًا مجحفة بالنسبة لروسيا. ولا يمكن الانتهاء من كل هذه الصعوبات إلا بمشاركة "غالبية الشعب". ولكن المأساة كامنة في انشقاق الديمقراطية، التي يود جناحها اليساري في سمولني خلق حكومة بلشفية بحتة، على حين ينظم جناحها اليميني في دوما البلدية لجنة السلامة العامة. ولا يتم خلاص الثورة إلا عن طريق تشكيل سلطة تضم الجناحين.

بمثل هذه الأقوال تحدث ممثل الاشتراكيين - الثوريين اليساريين كاريلين. وأكد بأن من المتعذر تنفيذ البرنامج الذي تم إقراره إلا بعد مشاركة الأحزاب المنسحبة من المؤتمر. والحقيقة "أن البلاشفة غير مسئولين عن انسحابهم". لقد كان على البرنامج أن يوحد كل التنظيمات الديمقراطية. "إننا لا نود السير على سبيل عزل البلاشفة. لأننا نرى بأن مصير الثورة كلها متعلق بمصيرهم، وبأن ضياعهم يعني ضياع الثورة نفسها" فإذا كان الاشتراكيون - الثوريون اليساريون يرفضون مع ذلك اقتراح الانضمام إلى الحكومة، فإن خطتهم منبثقة من النية الحسنة: إنهم يودون الحفاظ على أيديهم حرة للتدخل بين البلاشفة والأحزاب المنسحبة من المؤتمر. "ويرى الاشتراكيون - اليساريون أن تدخلهم... يشكل في هذه اللحظة، مهمتهم الرئيسية. إنهم سيدعمون نشاط السلطة الجديدة خلال عملها لحل المسائل الملحة"، ولكنهم يصوتون مع ذلك ضد الحكومة المقترحة. وهذا يعني أن الحزب الفتى كان يشوش الأمور على قدر استطاعته.

ويذكر سوخانوف الذي كان متعاطفًا إلى أبعد حد مع آفيلوف، وكان يوحي بأفكاره وراء الكواليس إلى كاريلين، "وتقدم تروتسكي للدفاع عن حكومة تضم البلاشفة وحدهم. وكان رائعًا وكان محقًا في عدد كبير من النقاط. ولكنه لم يكن يود أن يفهم أين يقع مركز حجة الخصوم..." لقد كان مركز الحجة يقع خط مائل قطري "Diagonale" مثالي. لقد حاول الكثيرون في مارس (آذار) رسم هذا الخط بين البرجوازية والسوفييتات التوفيقية. ويحلم سوخانوف وأمثاله الآن برسم خط مائل قطري "Diagonale" يصل الديمقراطية التوفيقية مع ديكتاتورية البروليتاريا. ولكن الثورة لا تتطور على خط مائل قطري "Diagonale" أبدًا.

وقال تروتسكي: "لقد قلقنا أكثر من مرة خوفًا من العزلة المحتملة للجناح اليساري. وعندما طُرحت مسألة الانتفاضة بشكل مكشوف منذ عدة أيام، قيل لنا بأننا نسير إلى حتفنا. والحقيقة أنه لو حكمنا على الأمور وفق أقوال الصحافة السياسية، وتجمعات القوى التي كانت قائمة، لوجدنا أن الانتفاضة كانت تحمل لنا تهديدًا مؤكدًا بكارثة محتومة لا مناص منها. ولم تقف ضدنا عصابات الثورة المضادة فحسب، بل وقف إلى جانبها كافة أنصار الدفاع الوطني من كل لون. ولم نجد من يعمل معنا في اللجنة العسكرية الثورية بكل شجاعة سوى جناح من الاشتراكيين - الثوريين اليساريين. أما الجناح الآخر فقد وقف متفرجًا على الحياد. ومع هذا، ووسط كل هذه الظروف غير الملائمة انتصرت الانتفاضة في اللحظة التي ظهرنا فيها وكأننا وحيدون، تخلى عنا الجميع...

فكيف أمكننا تحقيق النصر بدون سفك دماء تقريبًا، إذا كانت القوى الحقيقية ضدنا فعلاً؟ كلا. لم نكن نحن المعزولين. بل كانت العزلة تلف الحكومة والديموقراطيين المزعومين؛ إذ أن ترددهم وأساليبهم التوفيقية، جعلتهم يُبعدون أنفسهم عن صفوف الديمقراطية الحقيقية. إن ميزتنا الكبرى كحزب تتمثل في أننا عقدنا ائتلافًا مع القوى الطبقية، عندما خلقنا اتحاد العمال، والجنود، وأشد الفلاحين فقرًا.

إن المجموعات السياسية زائلة، ولا يبقى سوى المصالح الطبقية الأساسية. والنصر معقود للحزب الذي يكتشف المتطلبات الأساسية للطبقة ويحققها... إننا فخورون بالائتلاف الذي تم في موقعنا، وخاصة ائتلاف الفلاحين مع الطبقة العمالية. ولقد تعرض هذا الائتلاف للتجربة تحت النار. ودخلت حامية موقع بتروغراد والبروليتاريا بآن واحد الصراع الكبير الذي سيصبح المثل التقليدي في تاريخ ثورة كل الشعوب. "لقد تحدث آفيلوف عن الصعاب الجسيمة التي تنتظرنا، وهو يقترح تجاوز هذه الصعاب عن طريق الائتلاف. ولكنه لا يحاول هنا تقديم معنى هذه الصيغة ولا يحدد ماهية هذا الائتلاف، هل هو بين مجموعات طبقية، أو بين عدد من الصحف فقط...؟

"يقال بأن انشقاق الديمقراطية ناجم عن سوء تفاهم. ولكن هل يمكن التحدث عن سوء تفاهم بعد أن وجه كرنسكي ضدنا كتائب الصدام، وبعد أن قُطعت اتصالاتنا الهاتفية بموافقة اللجنة التنفيذية المركزية، وفي لحظة من أخطر لحظات صراعنا ضد البرجوازية، وبعد أن تعرضنا للضربات المتتالية..؟

"ويقول لنا آفيلوف: بأننا لا نملك سوى القليل من الخبز، والائتلاف ضروري مع أنصار الدفاع الوطني. ولكن هل سيؤدي هذا الائتلاف إلى زيادة كمية الخبز؟ أن مسألة الخبز هي مسألة برنامج عمل. ويتم الصراع ضد الفوضى باستخدام أسلوب محدد مصمم في الأسفل، لا بحكومات سياسية في الأعلى.

"وتحدث آفيلوف عن حلف مع الطبقة الفلاحية، ومرة أخرى نتساءل عن أية طبقة فلاحية يتحدث؟ فاليوم، تحدث ممثل فلاحي إقليم تفير أمامكم هنا مطالبًا باعتقال أفكسانتييف. ولا بُدَّ من الاختيار بين فلاح تفير هذا وأفكسانتييف الذي ملأ السجون بأعضاء اللجان الزراعية. إننا نرفض رفضًا باتًّا أي ائتلاف مع العناصر الفلاحية الموسرة (الكولاك) باسم ائتلاف الطبقة العمالية مع أشد الفلاحين فقرًا، إننا نقف إلى جانب فلاحي تفير ضد أفكسانتييف، وسنتماسك معهم إلى النهاية بشكل لا يقبل الانفصام.

"إن من يتبع ظل الائتلاف يعزل نفسه نهائيًّا عن الحياة. وسيفقد الاشتراكيون اليساريون دعم الجماهير كلما رأوا أن عليهم مجابهة حزبنا. إن كل مجموعة تعارض حزب البروليتاريا، الذي انضمت إليه العناصر الريفية المعدمة، تعزل نفسها بنفسها عن الثورة.

"لقد رفعنا راية الانتفاضة بشكل مكشوف أمام الشعب كله. والصيغة السياسية لهذه الانتفاضة هي: كل السلطة للسوفييتات - عن طريق مؤتمر السوفييتات. ويقال لنا: إنكم لم تنتظروا المؤتمر للقيام بانقلابكم. لقد كان بودنا أن ننتظر. ولكن كرنسكي لم يشأ الانتظار. ولم يكن أعداء الثورة نائمين. إننا نعتبر أن مهمتنا كحزب هي أن نخلق الإمكانية الحقيقية أمام مؤتمر السوفييتات كيما يستطيع أخذ السلطة بيده. وكيف كان بوسع المؤتمر أن يأخذ السلطة لو حاصره اليونكرز وضغطوا عليه. ولتحقيق هذه المهمة كان لا بُدَّ من وجود حزب ينتزع السلطة من الثورة المضادة ليقول لكم بعد ذلك: "ها هي السلطة. ويتمثل واجبكم في استلامها!" (عاصفة مستمرة من التصفيق).

"وبالرغم من أن أنصار الدفاع الوطني من كل لون لم يحجموا خلال الصراع معنا أمام أي شيء، فإننا لم نرفضهم، واقترحنا على المؤتمر كله استلام السلطة. ولكم كان عليهم أن يشوهوا الحقيقة ليتحدثوا بعد كل ما جرى، ومن فوق هذه المنصة بالذات عن "تشددنا"! عندما تقدم الحزب إليهم مجللاً ببارود المدافع، وقال لهم: "فلنستلم السلطة معًا!"، هرعوا إلى دوما البلدية، وتحالفوا هناك مع أعداء الثورة الحقيقيين. أنهم خونة الثورة الذين لم نتحالف معهم أبدًا!

"يقول آفيلوف بأن الصراع في سبيل السلم يتطلب ائتلافاً مع التوفيقيين. ولكنه يقر في الوقت نفسه بأن الحلفاء لا يودون تحقيق السلم... ولقد أعلن آفيلوف، بأن الحلفاء سخروا من سكوبوليف الديموقراطي المزيــف. ولكــن إذا شــكلتم كتلــة مــع الديموقراطيين المزيفين تحقق السلم بلا ريب.

"هناك **سبيلان للنضال** من أجل السلم؛ **أولهما**: مجابهة حكومات الحلفاء والأعداء بقــوة الثــورة المعنويــة والماديــة. **وثانيهما**: تشكيل كتلة مع سكوبوليف، أي تشكيل كتلة مع تشيريشتشنكو. والخضوع المطلق لإمبريالية الحلفاء. إن بياناتنا حول السلام موجهة إلى الحكومة والشعوب بآن واحد. ولكن هذا تناظر شكلي بحت. لأن من المؤكد أننــا لا نأمــل بالتــأثير علــى الحكومات الإمبريالية عن طريق بياناتنا، ولكننا لا نستطيع تجاهل هذه الحكومات ما دامت قائمة. ونحن نضع كل آمالنا فــي أن تؤدي ثورتنا إلى اندلاع الثورة الأوربية. فإذا لم تقم شعوب أوروبا الثائرة بسحق الإمبريالية تعرضنا نحن للسحق؛ هذا أمــر لا جدال فيه. فإما أن تثير الثورة الروسية زوبعة الصراع في الغرب، أو تخنق رأسماليات كافة البلاد ثورتنا".

وانطلق صوت من القاعة قائلاً: "**هناك سبيل ثالث**".

فتابع تروتسكي حديثه مجيبًا على هذا الاعتراض "السبيل الثالث هو **سبيل اللجنة التنفيذية المركزية** التي ترسل الوفــود إلى عمال أوروبا الغربية من جهة، وتتحالف من جهة أخرى مع كيشكين وكونوفالوف وأضرابهما. إنه سبيل الكذب، والــدجل، الذي لن نسير عليه أبدًا!

"ومن المؤكد، أننا لا نقول بأن يوم انتفاضة العمال الأوروبيين وحده هو الذي سيحدد تاريخ توقيع معاهدة الــسلم. فمــن المحتمل أن تعمد البرجوازية الخائفة من انتفاضة المضطهدين الواسعة إلى الإسراع بإحلال السلام. وليست المدد هنا محــددة. ومن المستحيل توقع كيف سيتم ذلك بصورة ملموسة. ولكن من المهم والضروري تحديد أسلوب النضال الحقيقي المحدد بمبــدأ سواء في مجال السياسة الخارجية أو في حقل السياسة الداخلية. إن وحدة المضطهدين في كل مكان وأينما حلوا - هي سبيلنا".

ويذكر جون ريد "وحي مندوبو المؤتمر هذا الخطاب بعاصفة طويلة من التصفيق. بعد أن أشعلت فكــرة الــدفاع عــن الإنسانية الحماس في نفوسهم". وعلى كل حال، فإن أحدًا من البلاشفة لم يفكر بالاحتجاج على أن خطابًا رسميًّا باســم الحــزب البلشفي قد ربط مصير الاتحاد السوفييتي ربطًا مباشرًا مع تطور الثورة العالمية.

وكان القانون المأساوي في هذا المؤتمر يتمثل في إنجاز كل عمل هام كان يصادف دائمًا فاصلة قصيرة، يظهر خلالهــا على المسرح فجأة شخص من المعسكر الآخر، ليقدم احتجاجًا، أو ليهدد، أو ليطلق الإنذار النهائي. وطالب منــدوب الفيكجــل (اللجنة التنفيذية لاتحاد عمال السكك الحديدية في عموم روسيا) أن يسمح له بالحديث فورًا وبدون تأخير، إنه يود إلقــاء قنبلــة وسط المجلس قبل أن يتم التصويت على مسألة السلطة. وبدأ الخطيب -الذي قرأ ريد على وجهــه عــداءً مــستحكمًا- باتهــام البلاشفة: إن تنظيمه "وهو أقوى تنظيم في روسيا" لم يُدع إلى المؤتمر. وصاح به الحاضرون من كــل جانــب: -"إن اللجنــة التنفيذية المركزية هي المسئولة الوحيدة عن عدم دعوتكم!"- فليعلم الجميع: أن القرار المبدئي الذي أخذته الفيكجل لدعم مــؤتمر السوفييتات قد تأجل! ولم يلبث الخطيب أن قرأ الإنذار النهائي الذي حملته البرقيات من قبل إلى كافة أنحاء البلاد: تدين الفيكجل الاستيلاء على السلطة من قبل حزب واحد، وعلى الحكومة أن تكون مسئولة أمام "الديمقراطية الثورية كلها"، وبانتظــار خلــق سلطة ديمقراطية، تبقى الفيكجل السيد الوحيد لشبكة السكك الحديدية. وأضاف الخطيب قوله بأنه سيتعذر على القوات المــضادة للثورة الوصول إلى بتروغراد. ولم يتم تحرك القوات بصورة عامة منذ الآن إلا بناء على أمر صادر مــن اللجنــة التنفيذيــة المركزية بتشكيلها السابق. وإذا ما تعرض عمال السكك الحديدية للقمع. فإن الفيكجل ستضطر إلى قطع التموين عن بتروغراد!

وانتفض المؤتمر تحت هذه الضربة. إن زعماء نقابة عمال السكك الحديدية يودون التحدث مع حكومة الشعب بلهجة الند للند. وكقوة تتحدث مع قوة. وفي الوقت الذي يمسك به العمال والجنود والفلاحون بيدهم زمام الدولة، تجيء الفيكجل لتفــرض قوانينها على العمال والجنود والفلاحين. إنها تود إعادة نظام ازدواجية السلطة الذي قُلب منذ أمد قريب، مستخدمة لذلك حججًـا واهية وقوى ضعيفة. وكانت رغبة ديموقراطيي الفيكجل بعدم الاعتماد على عددهم، والاستناد إلى الأهمية البالغة التي تتمتع بها السكك الحديدية بالنسبة لحياة البلاد الاقتصادية والثقافية، تكشف ضعف موازين الديمقراطية الــشكلية فـــي مــسائل الــصراع الاجتماعي الأساسية. والحقيقة أن الثورة لا تبخل أبدًا بإعطاء الدروس الثمينة.

ومع هذا، فقد كانت اللحظة التي اختارها التوفيقيون لتسديد ضربتهم حرجة لا تخلو من الخطــورة. وأحــس أعــضاء المكتب بالقلق. ومن حسن الحظ أن الفيكجل لم تكن تملك السيادة المطلقة على خطوط المواصلات. وكان عمال السكك الحديدية في عدد من المدن يشكلون جزءًا من السوفييتات البلدية. ولاقى إنذار الفيكجل النهائي هنا، في قلب المؤتمر مقاومة حادة. وأعلن مندوب طشقند: "إن كافة جماهير عمال السكك الحديدية في منطقتنا يؤيدون تسليم السلطة كلها للسوفييتات"، وقال أحــد عمــال السكك الحديدية عن الفيكجل بأنها مجرد "إطار سياسي" فقط. فإذا ما أسقطنا من كل هذه الأقوال ما تحويه من مبالغة، وجدنا أن الفيكجل اعتمدت على الشريحة العليا من مستخدمي السكك الحديدية، وهي شريحة واسعة كبيرة العدد، الأمر الذي جعــل هــذه النقابة تحتفظ بقوى حية تفوق قوة تنظيمات التوفيقيين الأخرى. ولكنها كانت مع هذا من نوع مشابه للجان الجــيش، أو للجنــة التنفيذية المركزية. فلقد قادها مسارها إلى سقوط سريع. وانفصل العمال في كل مكان عن المستخدمين. ووقــف المــستخدمون الصغار ضد رؤسائهم. وجاء إنذار الفيكجل النهائي الصفيق ليزيد سرعة هذا التحول.

وأعلن كامنييف بشدة "لم يعد هناك مجال للقول بأن المؤتمر غير نظامي. إن تحديد الأكثرية المطلوبة لقرارات المــؤتمر لم يتم من قبلنا، بل من قبل اللجنة التنفيذية المركزية السابقة... ويمثل المؤتمر الجهاز الأعلى لجماهير العمال والجنود" وانتقــل البحث بعد ذلك إلى موضوع الساعة.

وحصل سوفييت مفوضي الشعب على أكثرية ساحقة. وحصل اقتراح آفيلوف، وفق تقييم سوخانوف الذي لا يخلو مـــن المبالغة، على ١٥٠ صوتًا تقريبًا، وكان معظم مؤيديه من الاشتراكيين - الثوريين اليساريين. ووافق المؤتمر بالإجمــاع علـــى تشكيل اللجنة التنفيذية المركزية الجديدة وعددها ١٠١ عضو، من بينهم ٦٢ بلشفيًّا، و٢٩ اشتراكيًّا - ثوريًّا يساريًّا. وكان علـــى اللجنة المركزية أن تكمل عددها فيما بعد بممثلين عن سوفييتات العمال، وتنظيمات الجيش المنتخبة حديثًا. واحتفظ للمجموعات المنسحبة من المؤتمر بحق إرسال مندوبيها إلى اللجنة التنفيذية المركزية على أساس التمثيل النسبي.

وهكذا تم تنفيذ مهمة المؤتمر الملحة. وخُلقت سلطة السوفييتات. وحُدد برنامجها. ويمكن البدء بالعمل. والمهمات في هذا المجال كثيرة لا تحصى. وفي الساعة ٥,١٥ صباحًا، أعلن كامنييف انفضاض المؤتمر التأسيسي للنظــام الــسوفييتي. فهــرع البعض إلى المحطة! وهرع البعض الآخر إلى مكان إقامته! وتحرك قسم من المندوبين باتجاه الجبهة، والمــصانع، والثكنــات، والمناجم، والقرى النائية! وكانوا يحملون معهم مراسيم المؤتمر، وينقلون بها خميرة الانتفاضة البروليتارية إلى كافــة أرجــاء البلاد.

وفي هذا الصباح، كتبت **صحيفة البلاشفة المركزية** التي استعادت اسمها السابق **البرافدا (الحقيقة)** ما يلي: "يــودون أن نستلم السلطة لوحدنا، حتى نكون وحيدين خلال مجابهة الصعوبات الرهيبة التي تتعرض لها البلاد... حسنًا، ســنأخذ الــسلطة لوحدنا، مستندين إلى انتخابات البلاد، ومعتمدين على دعم البروليتاريا الأوروبية الودي ولكننا سنسدد بعد استلام السلطة ضربة

حديدية قاضية إلى جميع أعداء الثورة أو الراغبين بتخريبها. لقد حلموا بديكتاتورية كورنيلــوف... وســنقدم لهــم ديكتاتوريــة البروليتاريا...".

الهوامش

١. كان أبراموفيتش هو ممثل البوند (العصبة) وهو حزب الاشتراكيين - الديموقراطيين اليهود. (المعربان).
٢. يسمى هذا التصريح في كل الكتب والمختارات، نداء إلى شعوب جميع الأمم المتحاربة وحكوماتها. (المعربان).
٣. Noeud gordien "عقدة غوردوسية": نسبة إلى العقدة الصعبة التي ربط بها الملك غوردوس عربته الحربية، فلم يستطع أحد حلها، فجاء الإسكندر الأكبر، و لم يجشم نفسه عناء حلها، بل قطعها بسيفه. (المعربان).
٤. هذا ما يسمى بالوصية الإلزامية للفلاحين - وهي مرفقة "بمرسوم الأرض". (المعربان).

استنتاج

نلاحظ خلال تطور الثورة الروسية استمرارية رائعة للمراحل، ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى أن هذه الثورة كانت عملاً شعبيًّا حقيقيًّا حرك عشرات ملايين الرجال. وتتوالى الأحداث فيها كما لو أنها خاضعة لقانون الثقالة. ويتم التحقق مـن ميـزان القوى في كل مرحلة بشكلين؛ إذ تبدأ الجماهير بعرض قوة اندفاعها، ثم تحاول الطبقات المالكة الرد على ذلك، فتكتشف عزلتها بشكل أوضح.

ففي فبراير (شباط)، انتفض عمال بتروغراد وجنودها، لا رغم الإرادة الوطنية لكافة الطبقات المالكة المتعلمة فحسب، بل بالرغم من حسابات التنظيمات الثورية أيضًا. وبدت الجماهير قوة لا تقاوم. ولو أنها وعت ذلك لاستولت على السلطة منذ تلك اللحظة، ولكنها كانت تفتقر لحزب ثوري قوي مصمم يقودها. وسقطت السلطة بين يدي الديمقراطية البرجوازية الصغيرة، المموهة تحت الأردية الوطنية. وكان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون عاجزين عن الإفادة من ثقة الجماهير، واستخدامها بعمل آخر غير دعوة البرجوازية الليبرالية إلى القيادة. ولم يكن بوسع هذه الأخيرة سوى أن تضع السلطة التي استلمتها من التوفيقيين في خدمة دول الحلفاء.

وخلال أيام أبريل (نيسان)، نزلت الأفواج والجماهير الثائرة إلى شوارع بتروغراد دون تلقي الدعوة من أي حزب، وطرحت فكرة مقاومة السياسة الإمبريالية التي تتبعها حكومة فرضها التوفيقيون على الشعب. وحصلت المظاهرة المسلحة على نتيجة هامة. وأُبعد زعيم الإمبريالية الروسية ميليوكوف عن الحكم. ودخل التوفيقيون الحكومة وكأنهم ممثلون لسلطة الشعب، ولكنهم كانوا في الحقيقة وكلاء البرجوازية في السلطة.

ولما رأت حكومة الائتلاف أنها لم تحل أية معضلة من المعضلات التي سببت الثورة، لجأت إلى خرق الهدنة القائمة فعلاً على الجبهة، وشنت هجومًا عسكريًّا. وبهذا التصرف سدد نظام فبراير (شباط)، الذي يمثل انهيار ثقة الجماهير بالتوفيقيين، ضربة قاضية لنفسه. ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة الإعداد المباشر لثورة جديدة.

وفي بداية يوليو (تموز)، رأت الحكومة أن وراءها كافة الطبقات المالكة والمثقفة، فمنعت كل تظاهرة ثورية، واعتبرتها خيانة للوطن، ومساعدة أكيدة للعدو. وناضلت التنظيمات الرسمية للجماهير، كالسوفييتات، والأحزاب الاشتراكية - الوطنية، بكل قواها ضد الهجوم العمالي. وضبط البلاشفة عمالهم وجنودهم بدوافع تكتيكية، ومنعوهم من النزول إلى الشارع. ومع هذا بدأت الجماهير بالحركة والاضطراب. وبدت الحركة عامة لا تقاوم. ولم يعد أحد يلحظ وجود الحكومة. واختبأ التوفيقيون. وغدا العمال والجنود سادة الموقف في العاصمة. وتحطم الهجوم، أمام نقص أعداد المقاطعات والجبهة.

وفي نهاية شهر أغسطس (آب)، كانت كافة أجهزة ومؤسسات الطبقات المالكة تستعد للقيام بانقلاب مضاد للثورة، وعملت دبلوماسية الحلفاء، والبنوك، واتحاد الملاكين الصناعيين والزراعيين، وحزب الكاديت، وهيئات الأركان والضباط والصحافة الكبرى على تحقيق ذلك. ولم يكن منظم الانقلاب شخصًا آخر غير القائد الأعلى، الذي كان يعتمد على القيادة العليا لجيش يضم عدة ملايين من الرجال. واختيرت القطعات من كافة الجبهات بصورة خاصة، وأرسلت باتجاه بتروغراد وفقًا لاتفاق سري مع رئيس الحكومة. وغُطيت هذه الحركة بالضرورات الإستراتيجية.

وظهر الأمر في العاصمة، وكأن كل شيء معد لنجاح المشروع؛ فلقد جردت السلطات العمال من سلاحهم بمساعدة التوفيقيين، وتعرض البلاشفة لضربة إثر أخرى، وأُبعدت أكثر الأفواج ثورية عن المدينة، وجُمع مئات الضباط المختارين لتشكيل وحدة صدمة، وكان على هؤلاء الضباط أن يشكلوا مع مدارس اليونكرز وقطعات القوزاق قوة كبيرة فعالة. وماذا ينبغي بعد كل هذا؟ ولكن المؤامرة التي ظهرت وكأنها محمية من قبل الآلهة نفسها لم تصمد لحظة، وما أن اصطدمت بالشعب الثوري حتى غدت هباءً منثورًا.

وكان بين حركتي بداية يوليو (تموز) ونهاية أغسطس (آب) علاقة تشبه العلاقة القائمة بين النظرية وبرهانها. وأكدت أيام يوليو (تموز) على عجز الزعماء الكامل. وأشار ميزان القوى الذي ظهر آنذاك إلى حتمية وقوع صراع جديد. وخلال هذا الوقت انضمت المقاطعات والجبهة إلى العاصمة بشكل أوثق. وكان هذا دليلاً مسبقًا على انتصار أكتوبر (تشرين الأول).

ويقول الكاديت نابوكوف: "إن السهولة التي استطاع بها لينين وتروتسكي قلب آخر حكومة ائتلافية شكلها كرنسكي، برهنت على عجز هذه الحكومة الداخلي. ولقد سبب هذا العجز كثيرًا من الاستغراب، حتى لدى الأشخاص المطلعين على بواطن الأمور آنذاك"، ويبدو أن نابوكوف نفسه لم يتخيل أن الأمر كان يتعلق بعجزه هو، وعجز طبقته، وبنظامه الاجتماعي كله.

ومنذ مظاهرة يوليو (تموز) المسلحة، صعد منحنى الأحداث نحو انتفاضة أكتوبر. وكانت حملة كورنيلوف أشبه بتدريب نهائي على حملة الثورة المضادة التي شنتها كرنسكي في الأيام الأخيرة من أكتوبر. وما أن هرب قائد الديمقراطية الأعلى تحت راية السفارة الأمريكية، حتى التجأ إلى الجبهة لينجو من البلاشفة وليبحث عن قوة تدعمه، فلم يجد سوى فيلق الخيالة الثالث، الذي كلفه كورنيلوف قبل شهرين بقلب كرنسكي نفسه. كان على رأس هذا الفيلق قائده السابق جنرال القوزاق كراسنوف. الملكي القح، الذي عينه كورنيلوف في هذا المنصب من قبل: ولم يكن من الممكن إيجاد رجل حربي أفضل منه للدفاع عن الديمقراطية.

ولكن هذا الفيلق لم يحتفظ إلا باسمه؛ إذ أن القيادة خفضت عدده، فلم يعد يضم سوى عدة سرايا قوزاق. وبدأ هؤلاء القوزاق يتآخون مع البحارة الثوريين بعد محاولة هجوم فاشلة على الحمر قرب بتروغراد. ثم سلموا كراسنوف للبلاشفة. ورأى كرنسكي أن عليه بعد ذلك أن يهرب من القوزاق والبحارة. وهكذا وجد العمال بعد ثمانية أشهر من قلب الملكية أنهم غدوا على رأس البلاد. فتمسكوا بهذا الوضع بكل صلابة.

وكتب الجنرال الروسي زاليسكي عن هذا الأمر بمرارة وسخط فقال: "من يصدق أن صبيًا من غلمان البلاط، أو حارسًا في قصر العدل، وصل فجأة إلى منصب الرئاسة في مجلس قضاة الصلح؟ أو أن ممرضًا غدا رئيسًا لوحدة إسعاف؟ وأن حلاقًا ارتقى حتى أصبح موظفًا كبيرًا، وأن حاجبًا أو عاملاً مأجورًا غدا حاكم منطقة بأسرها! إن من كان بالأمس يشحم عجلات القاطرات أصبح اليوم رئيس قسم من شبكة المواصلات أو مدير محطة... ويعمل صانع الأقفال الآن رئيس ورشة!".

"من يصدق؟". ولكن من الضروري تصديق ذلك. ولا يمكن تجاهل هذه الحقيقة، طالما أن الملازمين أسقطوا الجنرالات، وأن حاكم المقاطعة الذي كان بالأمس عاملاً مأجورًا قد تغلب على سادة المدينة، وأن مشحمي العجلات أمنوا النقل بشكل جيد، وأن صانعي الأقفال، رفعوا مستوى الصناعة عندما عملوا كمديرين.

وتقول القاعدة الإنكليزية الشهيرة، بأن مهمة النظام السياسي الرئيسية تتمثل في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب "the right man in the right place"[1] فكيف تبدو تجربة عام ١٩١٧ إذا ما نظرنا إليها وفق وجهة النظر هذه؟ لقد كانت روسيا في الشهرين الأول والثاني لا تزال خاضعة لأوامر حق الملكية الوراثية، ويتربع على رأسها رجل حرمته الطبيعة من الميزات، ويؤمن بالأحجية ويخضع لراسبوتين. وفي الأشهر الثمانية التي تلت ذلك، حاول الديموقراطيون والليبراليون من مواقعهم الحكومية الرفيعة إقناع الشعب بأن الثورات تتم ليبقى كل شيء كما كان عليه في الأزمان الغابرة. وليس من المستغرب أن يمر هؤلاء الناس فوق البلاد كأشباح، دون أن يتركوا أثرًا. ومنذ ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول)، تربع على رأس القيادة في روسيا لينين، أكبر شخصية عرفها التاريخ السياسي لهذه البلاد. وكانت تحيط به هيئة أركان من المساعدين، الذين أنصفهم حتى أشرس أعدائهم، واعترفوا بأنهم يعرفون ما يريدون، وعلى استعداد للقتال بغية تحقيق أهدافهم. فأي نظام من هذه الأنظمة الثلاث كان قادرًا في الظروف الملموسة التي عاشها على أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

وإذا أخذنا ارتقاء الإنسانية بمجمله وجدنا أنه عبارة عن **تسلسل انتصارات الوعي على القوى العمياء في: الطبيعة، والمجتمع، والإنسان نفسه**. ويفاخر الفكر النقاد الخلاق بالنجاحات الكبيرة التي حققها حتى الآن في صراعه ضد الطبيعة. ولقد وصلت العلوم الفيزيائية - الكيماوية إلى نقطة تساعد الإنسان ولا شك على أن يكون سيد المادة. ولكن العلاقات الاجتماعية تتابع تشكلها بشكل أشبه ما يكون بالجزر المرجانية. ولم تنر البرلمانية سوى سطح المجتمع. ويتصف نورها بالإضافة إلى ذلك، بأنه نور اصطناعي إلى حد ما. فإذا ما قارنا الديمقراطية مع الملكية، ومخلفات عهود أكلة لحوم البشر، وحشية الكهوف، وجدنا أن هذه الديمقراطية تمثل تقدمًا كبيرًا. ولكنها لم تؤثر أبدًا على اللعبة العمياء للقوى في علاقات المجتمع المتبادلة. ففي هذا المجال العميق من مجالات اللاوعي بالذات، رفعت انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) لأول مرة يدها. ويشاء النظام السوفييتي أن يدخل الهدف والخطة إلى أسس المجتمع نفسها؛ حيث سادت حتى تلك اللحظة مجموعة من النتائج المتراكمة فقط.

ويحتج الخصوم قائلين، بأن البلاد بعد ١٥ سنة من الانتفاضة لا تشبه في أية حال من الأحوال جنة الهناء الشامل، ولا تنبعث هذه الحجة دون ريب إلا من المبالغة في تقدير الإمكانات السحرية التي تملكها الأساليب الاشتراكية، هذا إذا لم نشأ تفسيرها بالحقد الأعمى. لقد كانت الرأسمالية بحاجة لقرون طويلة قبل أن ترفع العلم والتقنية، وتلقي بالإنسان من جراء ذلك في جحيم الحرب والأزمات. ولا يعطي الخصم للاشتراكية سوى ١٥ عامًا لإقامة الفردوس الأرضي. إننا لم نأخذ على عاتقنا مثل هذه التعهدات. كما أننا لم نحدد هذه الفترة الزمنية في أي وقت من الأوقات. ولا بُدَّ أن يُقيم سير التحولات الكبرى وفق مقاييس ملائمة.

ولكن النكبات التي انهالت على الأحياء! ودم الحرب الأهلية ونارها! وهل يبرر مجمل النتائج التي حققتها الضحايا الذين سقطوا خلالها؟ إن هذا السؤال بحد ذاته يتعلق بفلسفة الوسيلة والغاية، ولذا فهو عقيم بلا معنى. لأن بوسعنا أن نتساءل أمام صعوبات الحياة، ومآسي الوجود الفردي: هل يستحق كل هذا أن يولد المرء في هذا العالم؟ ومع هذا فإن الأفكار السوداوية لم تمنع الناس حتى الآن من أن يولدوا ويتناسلوا. ولا يلجأ إلى الانتحار، حتى في عصرنا الحاضر المليء بالكوارث الجسام، سوى نسبة صغيرة من سكان كوكبنا. وهكذا تبحث الشعوب في الثورة عن مخرج لمتاعب لا تحتمل.

أليس مما يسترعي الانتباه، أن من يُظهرون أشد السخط احتجاجًا على ضحايا الثورات الأهلية هم في أغلب الأحيان ممن مجدوا ضحايا الحرب العالمية، أو اكتفوا على الأقل بالنظر إليها بسلبية وهي تتساقط، إذا لم يكونوا في الأصل مسببي هذه الحرب وصناعتها. ويمكننا أن نتساءل بدورنا: هل الحرب مبررة؟ وماذا أعطت؟ وماذا علمتنا؟

ولا نجد أن هناك ما يستدعي وقوفنا الآن أمام تأكيدات الملاكين الروس المتضررين، التي تحاول البرهان على أن الثورة الروسية سببت انهيار البلاد الثقافي. والحقيقة أن ثقافة النبلاء التي قلبتها ثورة أكتوبر (تشرين الأول) لم تكن تمثل في الحقيقة سوى تقليد سطحي لنماذج أرفع مستقاة من الثقافة الغربية. وبقيت ثقافة النبلاء بعيدة عن متناول الشعب، ولكنها لم تقدم للتراث البشري شيئًا.

وأرسلت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) أسس ثقافة جديدة، معدة لخدمة الجميع وهذا ما جعلها تأخذ فورًا أهمية عالمية. ولو افترضنا -لحظة واحدة- بأن النظام السوفييتي انهار مؤقتًا بتأثير الظروف غير الملائمة، وتحت ضغط ضربات العدو لبقي أثر انتفاضة أكتوبر (تشرين الأول) الذي لا يمحى، مطبوعًا رغم كل شيء، على تطور البشرية اللاحق بأسره.

لقد حددت لغة الأمم المتحضرة مرحلتين من مراحل تطور روسيا. فإذا كانت ثقافة النبلاء قد أدخلت في اللغة العالمية المتداولة كلمات بربرية مثل: **قيصر وبوغروم (حملات الإبادة والتصفية ضد اليهود)، وناغايكا (سوط من الجلد ذو عدة فروع)**. فإن ثورة أكتوبر (تشرين الأول) نشرت في كافة أرجاء العالم كلمات حضارية مثل: **بلشفي، وسوفييت، وبياتيليتكا (خطة خمسية)**. وهذا كافٍ لتبرير الثورة البروليتارية، إذا كانت هذه الثورة بحاجة لما يبررها.

"**انتهى الكتاب**"

الهوامش

(١) وردت بالإنكليزية في الأصل.